



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية



مايكل ج. والتز

المحارب الدبلوماسي

معارك أحد مقاتلي القبعات الخضر من واشنطن إلى أفغانستان

تقديم: بيتر بيرجن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

دراسات مترجمة 84

المحارب الدبلوماسي

معارك أحد مقاتلي القبعات الخضر من واشنطن إلى أفغانستان

تأليف: مايكل ج. والتز

التقديم: بيتر بيرجن

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 مارس 1994؛ بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات، من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل فعال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع، وذلك من أجل تحقيق أهدافه الممثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحارب الدبلوماسي

معارك أحد مقاتلي القبعات

الخضر من واشنطن إلى أفغانستان

This is an authorized translation of *Warrior Diplomat: A Green Beret's Battles from Washington to Afghanistan*, by Michael G. Waltz, and published in 2014 by the University of Nebraska Press, USA. The ECSSR is indebted to the author and publisher for permitting the translation, publication and distribution of this work under its name.

الطبعة الأولى 2019

النسخـــة العاديـــة ISBN 978-9948-24-553-7
النسخـة الإلكترونية ISBN 978-9948-24-552-0

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:
مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567
أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: +9712-4044541+
فاكس: +9712-4044542+

E-mail: pubdis@ecssr.ae
Website: http://www.ecssr.ae

مُهدى إلى عائلات الشهداء من جنودنا؛

فهي تتحمل العبء الأكبر لحروبنا.

المحتويات

تقديم

مع اقتراب الحرب الأفغانية ظاهرياً من نهايتها بعد ثلاثة عشر عاماً طويلة، كتب الكثيرون ممن تورطوا في المغامرة الأمريكية في جنوب آسيا تحليلات ما بعد الحرب، تفسر أطول الحروب التي خاضتها أمريكا. وقدّم الصحفيون وصانعو السياسات، والجنود جميعهم، وجهات نظرهم حول الأمور الصحيحة والأمور الخاطئة التي حدثت. وما يميز كتاب والتز عن بقية الكتب هو أن التجربة التي خاضها في أفغانستان كانت على المستوى السياسي الرفيع وعلى الجبهات الأمامية في جميع أنحاء البلاد.

تولّى والتز في البداية عمله لدى مكتب نائب مساعد وزير الدفاع لمكافحة المخدرات؛ حيث ساعد وزارة الدفاع في الحصول على التمويل وإنشاء البرامج والاستراتيجية الخاصة بنشاطات مكافحة المخدرات في أفغانستان، ثم عمل مستشاراً خاصاً لنائب الرئيس ريتشارد تشيني لجنوب آسيا ومكافحة الإرهاب. ويأخذ والتز القراء في جولة إلى داخل البنتاجون ومبنى مكتب آيزنهاور التنفيذي؛ حيث يجري طبخ السياسات، وهي ليست عملية جميلة.

ويوضح والتز أيضاً، باعتباره كان قائداً لإحدى وحدات القوات الخاصة في الجيش الأمريكي، وقام بالكثير من عمليات الانتشار والتعبئة في أفغانستان والشرق الأوسط، كيف أثرت هذه السياسات في مقاتلي الحرب على الأرض عندما حاولوا العمل مع شركائهم من قوات التحالف، وقوات الأمن الأفغانية، والسكان المحليين.

وبما أنه محترف وذو تدريب جيد، يقول والتز منذ البداية إنه لم يكن يبدو أن هناك رؤية استراتيجية خاصة لأفغانستان؛ ما جعل جهود التحالف أصلاً كردود فعل بطبيعتها. ولم يزدد هذا الأمر إلا تعقيداً بسبب قرار الولايات المتحدة الأمريكية غزو العراق عام 2003، الذي أدى إلى تحويل طريق الموارد والخبرات الأساسية عن أفغانستان. وهذا موضوع يكرره المؤلف في جميع فصول الكتاب: وهو أن الرجال والنساء على الأرض لم يكن لديهم الأدوات التي يحتاجون إليها لإحداث تغييرات فاعلة. ولا يسع المرء سوى أن يتساءل: ماذا سيكون وضع أفغانستان حالياً لو أنهم حصلوا على تلك الأدوات؟

وبعد السنوات التي قضاها والتز في الخدمة، فإنه يعتبر أحد الأشخاص الأكثر تأهيلاً لجمع هذين الجانبين من الحرب الأفغانية معاً، والقصة التي يرويها هي قصة نيات حسنة على ما يبدو، ولكنها أيضاً تتحدث عن بيروقراطية مرتبكة وغير منسقة وخانقة. ومع أنه لا يخشى انتقاد أرباب عمله السابقين – وهي ميزة استثنائية في واشنطن – فهو يبيّن أيضاً كيف أن حلف شمال الأطلسي (الناتو) لم يكن مستعداً على الإطلاق للمهمة في أفغانستان. وبعد أن عمل جنباً إلى جنب مع مجموعة متنوعة من دول التحالف في عدد من الولايات الأفغانية، من هرات في الغرب إلى قندهار في الجنوب، رأى والتز عن كثب إلى أي مدى تضاءلت قدرات أوروبا القتالية في الحروب منذ الحرب العالمية الثانية. ولم تكن قوات الناتو، التي توقّعت مهمة لحفظ السلام مماثلة لتلك التي في البوسنة، مستعدةً لعشرات السنين من الحرب المدمرة التي كانت قد حطمت البلاد. وبالإضافة إلى ذلك، جاء كل شريك دولي بسلسلة القيادة و"المحاذير" الوطنية الخاصة به، وهي التي كانت تملي كيف ومتى يمكن إجراء المهام الأمنية والتفاعل مع السكان المحليين. وبرغم أن بعض الضباط الواسعي الحيلة كانوا قادرين على التفكير في حلول لهذه القيود، فإن والتز يسرد بالتفصيل كيف غضبت هذه الوحدات المختلفة بسبب القيود، وأُحرجت بسبب عدم تمكنها من تقديم المزيد من المساعدة. فالإحباط في عدد لا يحصى من الفرص الضائعة كان أمراً واضحاً.

ولكن في حين أن الكثير من مشكلات الناتو كانت تنبع من عدم قدرته على العمل في ظل قيادة موحدة، فقد عانى الجيش الأمريكي مشكلة معاكسة. وفي إحدى مراحل الكتاب، يسرد والتز بالتفصيل كيف أنه اضطر إلى السير في إجراءات أحد طلبات المهمات عبر سلسلة ضمت اثني عشر قائداً مختلفاً. كما يقول إن الجنرال كارل إيكنبيري، قائد القوات الأمريكية في أفغانستان آنذاك، فرض إجراءات أكثر صرامة بخصوص الموافقة على عمليات الولايات المتحدة في عام 2005 بعد أن اشتكى الرئيس الأفغاني حامد كرزاي من الغارات الليلية التي كان يجري تنفيذها. وبعد أربع سنوات كان الوضع على الأرض قد تغيّر، ولكن القاعدة التي كانت تقول إنه يجب الحصول على موافقة إيكنبيري وخلفائه على جميع المهمات، لم تتغير. وكانت النتيجة نظاماً يتطلب السير في سلسلة إجراءات المهمة مسبقاً قبل أسبوع على الأقل، ولم يتمكن هذا النظام من الاستجابة بالسرعة الكافية للصراع السريع التغير.

وعلى الرغم من أن والتز يسلط الضوء على عدد من القضايا المختلفة في الكتاب، بدءاً بعدم امتلاك شركاء الناتو معدات متوافقة، وصولاً إلى قصور فرق المتطوعين، فإنه يجادل بأن إعلان الرئيس باراك أوباما في عام 2009 زيادة عدد القوات الأمريكية في أفغانستان ووضع جدول زمني لانسحابها كان خطأً جسيماً في المجهود الحربي. وفي رأيه، "في الوقت الذي أعلن فيه (أوباما) أنه سيرسل إلى جيشنا ومدنيينا الموارد التي كانوا قد استحقوها منذ زمن طويل، سحب البساط من تحتهم، بحيث حرمهم من أي تأثير كانوا سيحدثونه حتى قبل وصولهم". وبدأت المنطقة بأسرها التحضير لـ "أفغانستان ما بعد الوجود الأمريكي"، وغالباً بطرق تعارضت مع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، كما بدأ شركاء الناتو والوكالات المدنية الاستعداد للخروج من أفغانستان. وبدلاً من الحديث عن كيفية تحقيق الفوز في أفغانستان، كان تركيز واشنطن منصبّاً على مجرد إنهاء "الحرب الجيدة". كان كل ما سمعه الأفغان هو أن الولايات المتحدة الأمريكية ستتخلى عنهم مرة أخرى، وعلمت طالبان أن كل ما عليها فعله هو الصمود لفترة تتجاوز هذه الزيادة في القوات.

ويرى والتز أن ما يزيد كل هذه الأمور سوءاً، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية وبعد سنوات من الوقوع في الأخطاء نفسها مراراً وتكراراً، تبدو أخيراً مؤهلة للوصول إلى صيغة رابحة. فقوات العمليات الخاصة تعمل جنباً إلى جنب مع القبائل الرئيسية في المناطق الاستراتيجية، وقوات الأمن الأفغانية تتولى القتال ضد التمرد، والشركات المتعددة الجنسيات تستثمر في الاقتصاد الأفغاني. إن ما ينقصنا هو رسالة إيجابية ومتسقة تجعل الأفغان يعرفون أن الولايات المتحدة الأمريكية ستكون معهم لوقت طويل، وتفسر للجمهور الأمريكي لماذا ما تزال قواتنا في أفغانستان، بعد ثلاث سنوات من قتل أسامة بن لادن في باكستان.

وكما يقول والتز، فإن أفغانستان هي المكان الذي يقاس فيه الوقت بالقرون، وليس بالعقود. فالولايات المتحدة الأمريكية في إحدى المرات كوّنت وجهة نظر ذات أفق بعيد تجاوز الوضع الحالي فيما يتعلق بالأولويات الاستراتيجية؛ فقد أرسلت آلاف الجنود ليتمركزوا في كوريا الجنوبية؛ حيث ما زالوا هناك إلى اليوم، والحاجة تدعو إلى التزام مماثل في أفغانستان. ربما لا تكون تلك حجةً جاذبة سياسياً نقدمها إلى الناخبين، وخاصة في بيئة اليوم الشديدة التحزّب، ولكن بدلاً من أن نقول للجمهور مراراً وتكراراً إن القتال في أفغانستان صعب وإن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تغادر، يتعين على صانعي السياسات أن يبينوا بوضوح لماذا على الولايات المتحدة الأمريكية إبقاء مشاركتها هناك.

في كتاب "المحارب الدبلوماسي" يوضح والتز بصورة مؤلمة أن جميع الجنود الأمريكيين، ومقاتلي قوات التحالف، والمدنيين الأفغان الذين دعموا هذا المجهود الحربي، استحقوا أفضل بكثير مما حصلوا عليه. كما يبيّن والتز بصفته صانع سياسات ومقاتلاً ميدانياً، كيف أن القرارات التي تتخذ من وراء مكتب يبعد آلاف الأميال عن الجبهة لها عواقب حقيقية جداً وقاتلة في بعض الأحيان.

بيتر بيرجن

تمهيد

بعد بضعة أشهر فقط من جلوسي في غرفة عمليات البيت الأبيض، وجدت نفسي أحدّق في وزيرستان الشمالية، في باكستان، معقل الإرهاب الدولي، ونقطة انطلاق التمرد المستعر في شرق أفغانستان. كان ذلك عام 2009، وكنت أتولى قيادة إحدى وحدات الاحتياط التابعة للقوات الخاصة الأمريكية على الحدود الأفغانية. عندها فقط أدركت تماماً مدى قلّة الأشخاص الذين يشاركون في صياغة سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخاصة بالحرب، ومن ثم أيضاً يذهبون إلى منطقة الحرب من أجل القيام شخصياً بتنفيذ الاستراتيجيات التي ينادون بها. وعدد أقل منهم يحظى بالفرصة للعودة بعدئذٍ إلى واشنطن مرات متعددة، في محاولة لمعالجة التباينات الكبيرة بين الهدف من السياسات وما يحدث فعلياً في الميدان.

إن هدفي من إعداد هذا الكتاب هو شرح الأخطاء التي اقترفناها في كيفية تنفيذ الحرب في أفغانستان. وبرغم أفضل النيات، فقد كانت إدارة جيشنا وحكومتنا لهذه الحرب معيبةً للغاية. وبصراحة، فإن نتائج سياساتنا لم تكن تستحق تضحيات رجال، مثل: براين وودز، وماثيو بوتشينو، والآلاف أمثالهم ممن لم يعودوا موجودين معنا. وأعتقد جازماً أن المؤرخين سوف يشيرون إلى خمسة أخطاء رئيسية في أثناء دراستهم للجهود المبذولة في أفغانستان لشرح الأسباب التي جعلتنا نواجه مثل هذه الصعوبة هناك، وهي: (1) النقص المزمن في الموارد لتحقيق الاستقرار في البلاد (كانت أوجه قصور حلف الناتو وحرب العراق من الجزئيات المهمة). (2) عدم وضوح الاستراتيجية الشاملة للنجاح. (3) النفور من المخاطر في تنفيذ العمليات. (4) عدم قدرتنا على التعامل مع ملاذ طالبان في باكستان. (5) إعلان ميقات انسحاب مسبقاً – 2014. ولا بد من أن يقوم أحد المشاركين المباشرين بمناقشة هذه الأخطاء وتوثيقها على مستويات متعددة.

وقد حاولت أن أكشف نقاط هذه السياسة من خلال تجربتي الشخصية في الميدان. ويوضح كل فصل موضوعاً؛ مثل الأخطاء الرئيسية المذكورة سابقاً، وقضايا الضحايا المدنيين، وجهودنا المفككة في مجال التنمية. كما أنني لا أتناول الكثير من القضايا المهمة التي كان لها أيضاً تأثير هائل في الحرب، مثل: تصرفات الرئيس حامد كرزاي، وتأثير إيران، وانتشار الفساد من جهات متعددة طوال فترة الحرب؛ وإغفال هذه القضايا هو انعكاس لعدم مشاركتي الشخصية خلال فترات خدمتي القتالية أكثر من كونه يتعلق بأهميتها. وأدرك أيضاً أن خطأً كبيراً يقع على عاتق الأفغان أنفسهم فيما يخص المشكلات التي ما زالوا يواجهونها. إلا أن ذلك الموضوع وحده يمكن أن يكون له كتاب منفصل تماماً. وللأسف، فقط عندما بدا أخيراً، أننا نضع الأمور في نصابها الصحيح بـ "زيادة القوات" عام 2010، قامت إدارة أوباما بتقويض الآثار الإيجابية لتلك الزيادة من خلال إعلان انسحاب القوات الأمريكية بحلول نهاية عام 2014. وهناك فصول عدة تسلط الضوء على الضرر المباشر الذي أوقعه هذا الإعلان على جهودنا في الميدان لتأمين الدعم من القبائل الأفغانية، وهو الذي ما يزال يؤثر في نفسية الناس في المنطقة.

وبرغم أن تركيزي منصبٌّ في المقام الأول على سياساتنا الخاطئة وعدم كفاية التنفيذ، فإن هناك تبايناً متأصّلاً في الكتاب؛ حيث أحاول أيضاً أن أؤكد لماذا كانت الحرب، وما تزال، تستحق أن نخوضها. وآخر ما أريده هو أن يقوم القراء بإغلاق هذا الكتاب وهم مُقرّون بأن الحرب في أفغانستان كانت صعبة للغاية، ومن ثم لا تستحق المتابعة. فبرغم صعوباتها الهائلة، فإن تحقيق الاستقرار في أفغانستان ما يزال في صميم مصلحتنا الوطنية. ومنع أفغانستان من الانزلاق مرة أخرى إلى الفوضى أمر أساسي لهزيمة القاعدة والتطرف الأيديولوجي لحركة طالبان على المدى الطويل، تماماً مثلما كان دعم ألمانيا، واليابان، وكوريا ضرورياً لهزيمة أيديولوجيَّة الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية. وأخشى أننا في أعقاب انسحاب أمريكي سنرى أفغانستان في حالة حرب أهلية، وباكستان المسلحة نووياً في حالة عدم استقرار؛ وتنظيم القاعدة في حالة انبعاث. إن الانخراط على المدى الطويل حالة يصعب تعليل أسبابها، ولكن من أجل أطفالنا، ينبغي

لصانعي القرار لدينا أن يتحلوا بالشجاعة لتحقيقها برغم أخطائنا الفادحة على مدى العقد الماضـي.

من المؤكد أنه سيكون هناك أناس لن يقـدّروا بعـض الانتقـادات التـي أوجهها، وسوف يكرهون ما يقرؤونه وسيختلفون معه. لقد قاومت الكتابة في البداية انطلاقـاً مـن معرفتـي بـأن هنـاك أشخاصـاً مـن جماعـة "المهنيـين الصـامتين" في العمليـات الخاصـة سيعتبرون أن هذا المشـروع هو لخدمة مصالح ذاتية أو لتقديم الأعذار لفشل شخصـي. لم يكن في نيتي توجيه لوم فردي. في الواقع كانت الصعوبات التي واجهناها في أفغانسـتان أكبر بكثير من أي شخص، وهي نتيجة لعيوب جوهرية في كيفية تنظيم حكومتنا ودعمهـا للحوافز من أجل تجنب المخاطر. في النهاية قام أحد الناصحين الأمينين بتـوبيخي بشـكل مقنع قائلاً: "إن هذا هو نوع الروايات المأخوذة من مصدرها الأصلي التي سـيرجع إليهـا المؤرخون عندما ينظرون خلفاً إلى هذه الحرب. إن واجبك هـو أن تـنجح في التعبـير عـن وجهة نظرك الفريدة حقّاً بصفتك محارباً دبلوماسـياً".

من المهم بالنسبة إلي أن أقول إني سعيت إلى حماية هويات أولئك الذين سـيبقون في الخارج، وفي طريق الأذى والخطر وهم يقومون بتنفيـذ مهـمات الأمـة. وقـد اسـتخدمت الأسماء الأولى فقط للأشخاص الذين ما يزالون على رأس عملهم. هؤلاء الرجال يعرفون من هم، وما فعلوه، وأنهم كانوا دائماً محط إعجابي واحترامي.

إنني أصف الأحداث كما أتذكرها، ويضاف إليها العشـرات من دفاتر الملاحظـات الصغيرة ذات الأغلفة السوداء التي احتفظـت بهـا معـي في واشـنطن وفي الميـدان. وهـذه الدفاتر تغطي كل شـيء، بدءاً من الاجتماعات في البيت الأبيض إلى مجالس الشورى التـي تناولنا خلالها الشاي مع الشـيوخ الأفغان. وقد قام عدد من الزملاء والمشـاركين في تلـك الأحداث بمراجعة المسودات المكتوبة بخط اليد لضمان دقتها. ربما لا يكون الحوار الفعـلي شديد الدقّة، ولكنه ينقل جوهر ما قيل. وقصتي هي باعتراف الجميع عبارة عن وجهة نظر

واحدة، رحلة رجل واحد من طرف إلى الطرف الآخر من العالم في خوض أطول حرب من حروب أمتنا.

وقد سمح مكتب مراجعات ما قبل النشر والحماية التابع لوزارة الدفاع، ومكتب إدارة منافذ المعلومات التابع للبيت الأبيض، ووزارة الخارجية، بنشر هذا الكتاب.

شكر وتقدير

لا يكتب أحد كتاباً، أو يضع سياسة، أو يخوض حرباً بمفرده. وأنا أدين بالعرفان للأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه ممن كان لهم تأثير مباشر ودائم في تلك الجوانب الثلاثة من حياتي.

فقد شجعني الدكتور مارين ثتريمكي على تسجيل تجاربي مع الحرب وإحباطاتي بسببها من خلال الكتابة. وغامرت المحررتان هيلاري كلاجيت وأليشيا كريستنسن، والناشر، دار بوتوماك للكتب، بالتعامل مع مؤلِّف يكتب أول مرة. وقام الدكتور جو بلادي، والرقيب فئة أولى (متقاعد) براين دافي، وبيلي كاهيل من مؤسسة نيو أمريكا، بعمليات مراجعة لا تكلّ وصبورة وتفصيلية للمخطوطة، ما حسَّن كثيراً من كتابتي. وأبدى بيتر بيرجن لطفاً بكتابة تصدير عبَّر عن جوهر الكتاب.

ومارست ميري بيث لونج الضغوط من دون تعب من أجل اعتماد سياسات أفضل تجاه أفغانستان من جانب البنتاجون والناتو. وشرفني جون هانه وسامانثا رافيتش بمنحي الفرصة للعمل في البيت الأبيض فيما قد يتضح أنها أفضل وظيفة شغلتها في حياتي.

وأمضت ابنتي آندرسون ليالي ونهايات أسبوع متعددة مع والدها أمام الحاسوب. وأتاحت أمي فرصاً لا حصر لها لطفل بائس من جاكسونفيل، فلوريدا، وقدَّمت لي مثالاً حيّاً على الحلم الأمريكي. وعُنِيَت زوجتي السابقة كيلي بابنتنا خلال فترات خدمتي في أفغانستان وتحملت عبء خدمتي. ومن دون أزواج في جبهة الوطن لن يتمكن جيش المتطوعين من البقاء.

سوف يظل الجنود والشعب في أفغانستان يحظيان بإعجابي؛ فقد وقفنا إلى جانبهم وتقاسمنا تضحياتهم لدى كفاحهم لتهيئة مستقبل يخلو من التطرف. ولديَّ قناعة راسخة بأن مستقبلَيْ كلا البلدين سوف يبقيان مرتبطين الواحد بالآخر على نحو لا انفصام فيه على

مدى الجيل المقبل على الأقل. وأتوجه بشكر خاص إلى رجال قوتَيْ المهمات 6 و7 التابعتين لقيادة القوات الخاصة في دولة الإمارات العربية المتحدة. فقد أبدوا شجاعة كأمثلة على التحمل وعلى مستقبل أفضل للمنطقة. وأتوجه بالشكر بصفة خاصة إلى زملائي من حمَلة القبعات الخضر الواردين في هذا الكتاب. وقد كان أعلى شرف أناله في حياتي، أن أخدم بلدنا إلى جانب أولئك الأمريكيين العظام.

وأخيراً أشكر الله على كوني ما زلت على قيد الحياة. وسوف أبذل قصارى جهدي لئلا أستهين أبداً بهذه النعمة، ولكي أستوفي الدور الذي أراده لي.

خريطة (1): أفغانستان



مقدمة

فتاة صغيرة في غزني

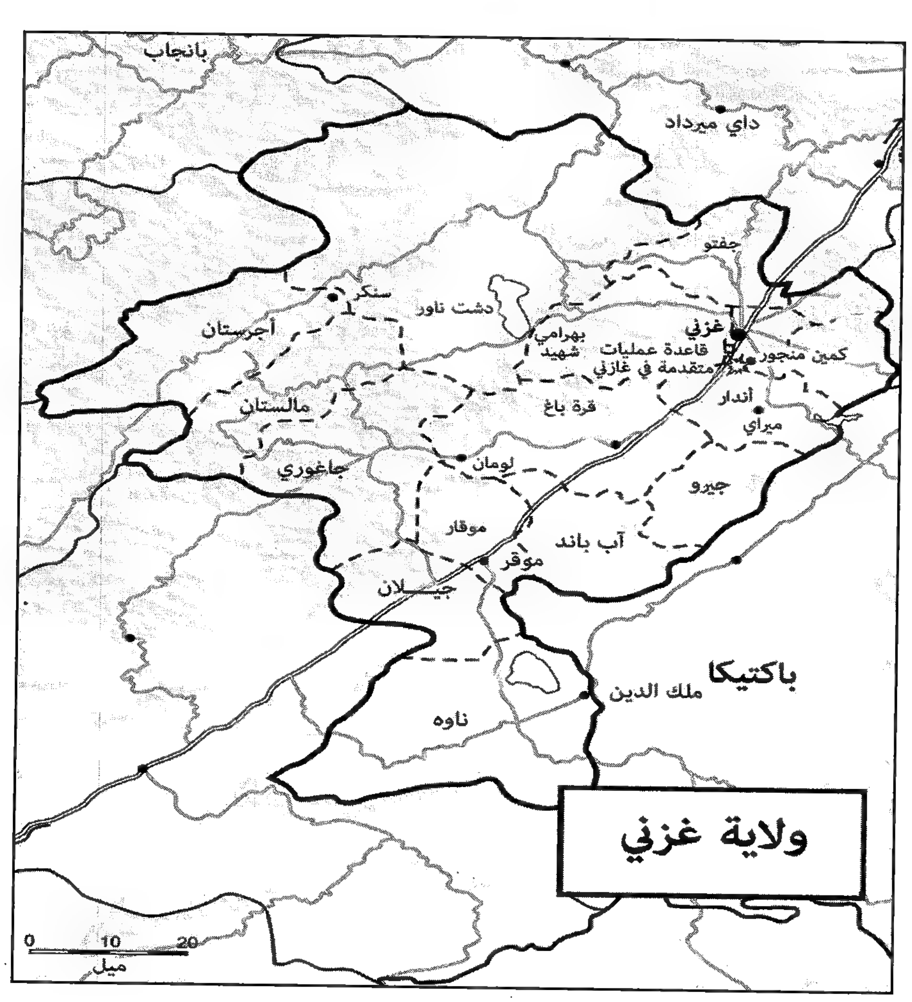
لم يجرؤ أحد على إصدار أي صوت. كنا في قلب بلاد طالبان، نتسلل بهدوء سيراً على الأقدام، على بعد كيلومترات عدة من مركباتنا وأسلحتها الثقيلة. حتى إننا كنا أبعد عن أقرب قاعدة لقوات التحالف أو أي نوع من التعزيزات. وخيّمت علينا جدران مبنية من الطوب والطين بارتفاع عشرين قدماً في أثناء تسللنا في رتلٍ طويلٍ يضم عناصر من القوات الخاصة الأمريكية، والشرطة الأفغانية، والقوات الخاصة الأفغانية نسير بصمت عبر الأزقّة الضيقة والممرات الترابية لقرية منجور Mangur في ولاية غزني. كان الكثير من الجدران السميكة مدعوماً بأبراج تشبه القلاع وفيها شقوق للنوافذ، وكان لبعض النوافذ زجاج، ومعظمها لم يكن كذلك، وانتظرتُ أن يظهر خيال بندقية كلاشنكوف AK-47 من إحدى تلك النوافذ، ثم تبدأ بإطلاق النار.

وتمكنت من خلال نظارات الرؤية الليلية التي أضعها أن أرى العشرات من خطوط أشعة الليزر الخضراء تومض منتقلةً من نافذة إلى أخرى، وتمسح قمم جميع الجدران والمداخل. كانت أشعة الليزر وبقع الضوء غير مرئية إلا من خلال النظارات وتنبعث من الملحقات المركّبة بشكل متوازٍ تماماً مع ماسورة سلاح كل رجل، بحيث إن الرصاصة تصيب المكان الذي يضربه شعاع الليزر.

كان الهدف في تلك الليلة الملا حسماني. كان لبلدة منجور معنى خاص بالنسبة إلي وإلى رجال مفرزة العمليات ألفا-21 التابعة للقوات الخاصة، التي هي أحد ستة طواقم كانت تحت قيادتي في صيف عام 2009. لقد كانت المكان الذي قتل فيه أول جندي في وحدتي في أثناء الاشتباك القتالي، وهو الرقيب براين وودز، فضلاً عن موت أفضلي، نائب

قائد وحدة الشرطة الوطنية الأفغانية (ANP) التي كانت مشتركة مع مفرزة العمليات ألفا-21. وكانت القرية كبيرة نسبياً وتقع في قلب مديرية أندار المضطربة في ولاية غزني شرق أفغانستان، وكان معظم سكانها من قبيلة أندار التي كانت واحدة من أولى القبائل التي دعمت عودة نشاط طالبان وعارضت الحكومة المحلية في مدينة غزني، واعتبرتها فاسدة وغير فعالة.

خريطة (2): كمين منجور، ولاية غزني



لقد أراد رجالي فعلاً الوصول إلى الملا حساني. وكان قائداً من المستوى المتوسط ومعروفاً عنه قيامه بالتمثيل بجثة قائد شرطة مديرية أندار بصورة وحشية، وكذلك فعل بالعديد من شيوخ قبيلة أندار الذين عارضوه عندما استولت طالبان على معظم ولاية غزني، مديرية تلو الأخرى في عام 2009. قاد حساني الكمين الذي أسفر عن مقتل براين وأفضلي بالإضافة إلى إصابة عدد من رجال الشرطة الأفغانية الآخرين. لقد قامت خلية الاستخبارات التابعة للفريق بتتبع أثره لأشهر عدة، وكان مصدر في القرية قد أسرّ إلينا بأنه كان من المقرر أن يعود من باكستان في تلك الليلة. وكان هناك احتمالٌ كبير لحدوث تبادل خطير لإطلاق النار، لذلك كنت قد أحضرت جوّاً فريقاً إضافياً، وهو مفرزة العمليات ألفا-23، مع شركائهم من مغاوير الجيش الوطني الأفغاني، بالإضافة إلى خلية قيادة وتحكم صغيرة من مَقرّي الموجود في شرق أفغانستان. وبما أن خلية القيادة التابعة لي كانت موجودة، فإن قيادة مفارز العمليات ألفا استطاعت أن تركز على توظيف فرقها إلى جانب شركائهم من الشرطة الأفغانية في الجانب التكتيكي، في حين تولينا نحن الاهتمام بتنسيق أي دعم مطلوب، مثل الطائرات، أو التعزيزات، أو الإجلاء الطبي (medevac).

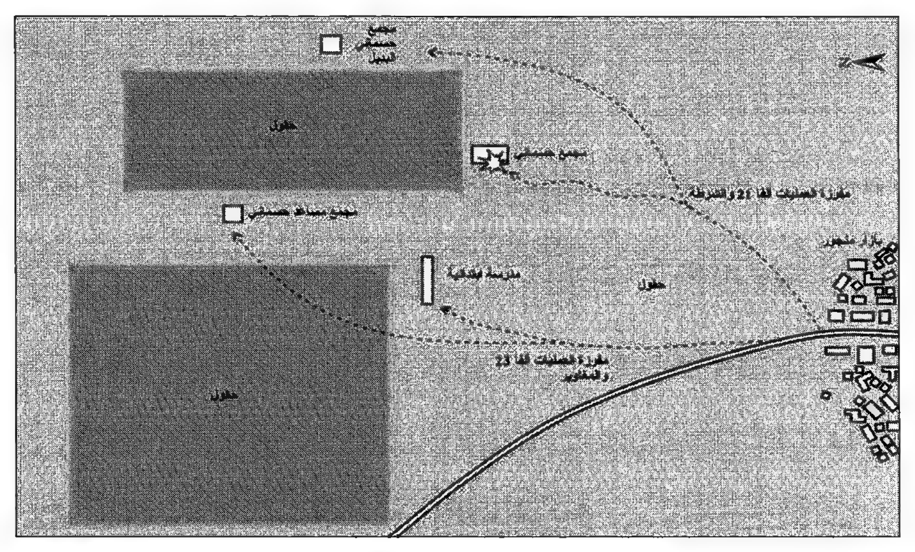
وكانت الخطة تقضي بأن تنقسم كل مفرزة عمليات ألفا وكذلك شركاؤها إلى قسمين. فقد خططنا لمهاجمة منزل حساني وثلاثة مجمعات أخرى في وقت واحد. أحدها يعود إلى مساعده، والثاني كان عبارة عن مدرسة قيل إنها كانت تستخدم أيضاً كموقع لتخزين الذخيرة، والثالث يعود إلى أحد أقرباء حساني؛ وكان حساني يستخدمه أيضاً كمكان بديل للنوم. كان معظم قادة التمرد يتناوبون على أماكن النوم بشكل منتظم من أجل تجنب الغارات الليلية، أي عندما لا يكونون في حالة استراحة أو إعادة التزود بالمؤن في المناطق القبلية الباكستانية المجاورة التي ينعدم فيها القانون. تطلّبت عملية دهم كل المجمعات في وقت واحد مستوى أعلى من التنسيق والتعقيد، ولكن من المؤمل أن يمنع ذلك حساني من الهرب في حال كان قد قام بتبديل المنزل منذ أن رآه مصدرنا آخر مرة.

ومن شأن ذلك أيضاً، أن يمنع أحد مساعديه أو أقربائه من شن هجوم مضاد بمجرد أن نبدأ الغارة. كان منزل حسماني هو الهدف الرئيسي لمفرزة العمليات ألفا-21 والشرطة، بالإضافة إلى منزل قريبه. أما الهدف الرئيسي لمفرزة العمليات ألفا-23 والمغاوير فكان مساعد حسماني ومخبأ الأسلحة في المدرسة.

لم يكن لدى مقار قيادتنا العليا حوامات مخصصة لها بشكل دائم، ولذلك كنا نضطر إلى طلبها من القيادة الأمريكية التقليدية عند تنفيذ كل مهمة. وكما كانت الحال، فقد قوبل طلب الحصول على إسناد بالحوامات بالرفض. ومن المؤكد أن قيادة سياراتنا على الطريق الوحيد المؤدي إلى القرية من شأنها أن تكشف هويتنا لطالبان. وبدلاً من ذلك لجأنا إلى تكتيك يسمى تحييد المركبات. قدنا سياراتنا الهامفي المدرعة ليلاً وأنوارها مطفأة بالكامل إلى بقعة بعيدة بما فيه الكفاية لمنع ضجيج المحركات من تحذير طالبان، ولكن قريبة بما فيه الكفاية من الوصول إلى الهدف سيراً على الأقدام. كان معنا مُخبر أفغاني من القرية المجاورة، وكان من المفترض أن يقودنا على طريق آمن إلى الهدف. كنا نعتزم أصلاً الالتفاف على أطراف قرية منجور، ولكن انتهى بنا الأمر بطريقة أو بأخرى ونحن نمشي في وسطها تماماً. وعندما كنا نمشي متعثرين على الطريق الرئيسي عبر القرية، تماماً في المكان الذي لم نكن نريد الذهاب إليه، بدأت أتساءل إذا ما كان المخبر يخوننا ويقودنا إلى الوقوع في فخ أو لا.

استمعت لجهاز اللاسلكي الذي معي. قام جرانت، قائد فريق مفرزة العمليات ألفا-21 في الخط الأمامي، بتذكير الجميع بتوخي المزيد من الحذر في أثناء سيرنا البطيء في طريقنا الذي يمر بالمحالّ التجارية في سوق القرية. كان جرانت خريج ويست بوينت وذا خبرة في فترة خدمته الثانية بصفته قائد فريق في أفغانستان، ونادراً ما كان يغضب حتى في ظل أصعب الظروف، مثل سلوك منعطف خاطئ في قرية تقع تحت سيطرة حركة طالبان.

خريطة (3): مخطط غارة منجور



من الواضح أننا كنا على حافة الهاوية، لأن الكثير من القرى تعيّن حارساً ليلياً يعمل بأجر ويكون مسلحاً في بعض الأحيان، وذلك لكي يقوم بحراسة محالّهم المغلقة. فإذا صادفناه، فإنه في أحسن الأحوال سوف ينبّه الجميع إلى وجودنا؛ وفي أسوأ الأحوال فإنه سيفتح النار. رصدنا الحارس الليلي نائماً على سرير خفيف مصنوع من الخشب والحبال فقط فوقنا على سطح أحد المحالّ، وهو كوخ مبني من الطين. واستطعنا رؤية خيال بندقيته الكلاشنكوف AK-47 متكئةً على سريره. ومض أكثر من اثني عشر شعاعَ ليزر من الأشعة ما تحت الحمراء على جسده؛ حيث أبقى العناصر الذين يضعون مناظير الرؤية الليلية بنادقهم مصوّبةً عليه، على حين تسللت بقية المجموعة بكل هدوء. لقد تمنيت له بألا يستيقظ ويسمعنا ويصل إلى تلك البندقية. فهي لن تكون مجرد ليلة سيئة له فقط إن فعل ذلك، بل كان من شأن ذلك أن يؤدي إلى فضح المهمة بأكملها.

وصلنا إلى حافة المدينة من دون وقوع حوادث، ورأيت خيالات الكثير من المجمعات الكبيرة تلوح في المدى عبر عدد من الحقول المحروثة. وكانت هذه هي النقطة؛ حيث كان على الفرق أن تفترق وتتوجه نحو أهدافها المختلفة. ومن ورائي، همس

جيسون، قائد فريق مفرزة العمليات ألفا-23، في جهازه اللاسلكي مخاطباً فريقه ومغاوير الجيش الأفغاني كي يتوقفوا. كان جيسون ضابطاً ممتلئ الجسم، ميالاً إلى الحياة الاجتماعية وفطناً. وكان سلوكه المريح يجعل من السهل على المرء أن يقلل من شأنه، ولكنه كان ذكياً إلى حد لا يصدق ومخطِّطاً تكتيكياً جيداً جداً. وقد كان ضوء الأشعة ما تحت الحمراء على خوذته يومض بينما كان يسير على طول رتل من قوات الأفغان؛ حيث كان يحصيهم ويتأكد من أنهم ذهبوا مع المجموعة الصحيحة على الدرب الصحيح نحو الهدف الصحيح. ضحكت بيني وبين نفسي عندما رأيت شبح جيسون القصير والضخم وهو يشير بإحباط ويركض عائداً على الطريق، ليسترد اثنين من قوات المغاوير الأفغانية كانا قد توقفا لسبب غير مفهوم في منتصف الطريق، على حين مشت بقية المجموعة بعيداً. فقد كانت قوات المغاوير هي نخبة الجيش الأفغاني وكانوا يحصلون على تدريب أكثر ومعدات أفضل، وقد تم تخصيص مفرزة عمليات ألفا لتدريبهم بشكل مستمر. ولكنهم كانوا ما يزالون يرتكبون الأخطاء باستمرار، وكان لا بد من إدارتهم عن كثب.

وبشكل عام، يميل جنود الجيش الوطني الأفغاني إلى أن يكونوا أفضل تدريباً، وأكثر قدرةً، وأقل فساداً من الشرطة الوطنية الأفغانية. ومع ذلك، كانت قوة الشرطة التي شاركت مفرزة العمليات ألفا-21 هي المعادل الأفغاني لفرقة التدخل السريع SWAT، وكانت تنفذ العمليات جنباً إلى جنب مع فرق القوات الخاصة منذ 11 سبتمبر. كانوا معروفين بانضباطهم، وقد كنت أصنّفهم في مرتبة تضاهي القوات الخاصة الأفغانية في أي وقت. وكانت قوات المغاوير خليطاً عرقياً من الطاجيك والأوزبك والهزارة والبشتون (البشتون هم المجموعة العرقية الموجودة في جنوب وشرق أفغانستان والتي شكلت حركة طالبان) من أجل ضمان عدم هيمنة أي جماعة عرقية رئيسية واحدة على الجيش. ولكن وحدة الشرطة الوطنية الأفغانية كانت بأكملها تقريباً من الهزارة، وهي مجموعة عرقية تعرضت لقمع وحشي في أثناء حكم طالبان. كانت وحدة الشرطة جيدة ولكن كان لأعضائها حسابات قديمة لتصفيتها مع حركة طالبان التي يهيمن عليها البشتون، ويمكن أن يكونوا عدوانيين جداً عند القيام بهذا النوع من المهمات في القرى

ذات الميول الطالبانية. وقد عرفت مفرزة العمليات ألفا-21 أن عليها مراقبتهم عن كثب، ولاسيما في منجور؛ حيث قُتل الرجل الثاني في سلسلة قيادتهم.

التحقت بمؤخرة رتل الفريق الثاني الذي انقسم عن مفرزة العمليات ألفا-23 متوجهاً إلى مجمع مساعد حساني. وكان هذا المجمع موجوداً في موقع مركزي على تلةٍ صغيرة تقع تقريباً في وسط الأهداف الأربعة، وكنت أرغب في أن أتخذ لنفسي موقعاً هناك لأنه سيكون أفضل مكان للحفاظ على الاتصال اللاسلكي إذا ما اشتبكنا في تبادل لإطلاق النار.

وفي أثناء تحركنا عبر الحقول متجهين نحو هدفنا، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن التفكير في آخر مرة تحدثت فيها مع براين وودز، قبل أشهر من نشر القوات، وذلك في أثناء تدريباتنا التي سبقت المهمة في معسكر غيرنسي بولاية وايومنغ (الولايات المتحدة الأمريكية).

قال براين مشيراً إليَّ بيده كي أدخل غرفته في الثكنة: "يا سيدي، دعني أُطلِعك على شيء". أطلعني بكل فخر على قطعة جديدة هي "الجزء العلوي" للبندقية M4 كان قد اشتراه. وقال بابتسامة عريضة: "إن لها ماسورة عائمة".

قلت: "جميل"، وشرعت أسأله أسئلة كثيرة حول السلاح. كان رجالي خبراء حقاً في مجالاتهم، وأنا أحببت التعلم منهم.

استمتع براين بإطلاعي على كل تفصيل من تفاصيل لعبته الجديدة ولماذا كانت تلك البندقية الاستثنائية تتفوق على الكثير من قطع الأسلحة الأخرى التي نشرها الفريق في أنحاء الغرفة، والآن أصبحت على الفور من الأشياء التي تجاوزها الزمن من وجهة نظر براين. وبرغم أنه كان المسعف الطبي للفريق، وكان قد تدرب إلى مستوى مساعد طبيب إصابات، فقد كان شغفه الحقيقي هو البنادق. وبغض النظر عن تخصصات كل عنصر من عناصر القوات الخاصة، فإنهم كانوا يحبون أحدث المعدات، بدءاً من أحدث

نوع من جعب المخزونات المعلقة على دروعهم الواقية وصولاً إلى مختارات تلك السنة من أصواف باتاغونيا. بعض الشبان، مثل براين، وصل هوسهم بالعتاد إلى مستويات غير مسبوقة.

وبعد مرور أشهر على دردشتنا في غرفته داخل الثكنة، ذهبت مفرزة العمليات ألفا التي يتبع براين لها في مهمة لإعادة فتح البازار الذي كان قد أمر بإغلاقه أحد قادة طالبان المتحالف مع حسباني. وكانت مفرزة العمليات ألفا قد حاولت أن تدهم منزل القائد في الليلة السابقة، ولكن عرباتهم المدرعة الثقيلة التي يصل وزنها إلى 20 طناً والمحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام (MRAP)، علقت مرات عدة في خنادق التصريف التي كانت تتقاطع في جميع أنحاء الولاية. واستغرق انتشال المركبات الثقيلة الليل بطوله، ولم يعد لدى مفرزة العمليات ألفا أي وقت لتنفيذ عملية الدهم، فقرروا شن هجوم عنيف على بازار القرية خلال النهار، على الرغم من التزايد الكبير لخطر التعرض لانفجار عبوة ناسفة. كانوا مصممين على إضعاف قبضة طالبان الخانقة على المنطقة، حتى إن كان ذلك يعني عبور مديرية أندار، التي تُعدّ مرتعاً للمنافسة القبلية ولنشاط المتمردين في ولاية غزني المضطربة على نحو متزايد.

وفي أثناء مرور الفريق عبر بلدة منجور، تلقت المركبة التي كانت تسير في المقدمة وتقلّ كلاً من براين ورقيب الاتصالات الأول في الفريق، توني، بعض النيران المتقطّعة من مختلف أنحاء أحد الحقول. واندفع فريق الشرطة الوطنية الأفغانية المشترك مع مفرزة العمليات ألفا في عرباتهم الهامفي في الهجوم نحو مصدر النيران، ولم يكن أمام توني وبراين أي خيار سوى اللحاق بهم بمركباتهم المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام وهي أكبر حجماً وأثقل وزناً. وعلقت المركبات الضخمة المقاومة للألغام من جديد؛ حيث ضاقت الممرات في سلسلة من البساتين واستمر إطلاق النيران المزعجة. وفي نهاية المطاف أمر توني كلاً من براين والشرطة للخروج من سياراتهم ومواصلة المطاردة سيراً على الأقدام. وكان توني الرقيب الأول والمحارب القديم الذي ناوب على مهمات متعددة في أفغانستان

في السيارة التي تتقدم القافلة. وقد قال لي لاحقاً: "بالعودة إلى ذكريات الماضي، فإن المرة الوحيدة على الإطلاق التي رأيت فيها براين متردّداً تحت وابل الرصاص، وللحظة واحدة، كانت عندما قلت للجميع أن يغادروا المركبة. لقد كان صوته نوعاً ما مختلفاً عند استجابته للموقف؛ ثم أخذ نفساً عميقاً والتقط حقيبته الطبية وقفز خارجاً من الباب الخلفي". وتحرك فريق الشرطة الوطنية الأفغانية مع براين وتوني متجهاً نحو مجموعة من الرجال شاهدوهم على بعد مئة ياردة. وفجأةً، انهمر وابل من رصاص الأسلحة الآلية من بين خط من الأشجار إلى يسارهم. وقد شرح توني لاحقاً ما حدث: "كنا نقف تماماً وسط حقل مفتوح من دون أي تغطية ولا مكان نركض إليه، والرصاص يتطاير في كل مكان من حولنا، حتى إننا استطعنا سماع أصوات الطلقاتِ وهي تطير بالقرب من رؤوسنا بصوت فرقعتها وأزيزها المميز. وانبطح العديد من أفراد الشرطة الوطنية الأفغانية على الأرض واضعين رؤوسهم بين أرجلهم متكورين كالكرة. وكنت أفكر "بحق الجحيم! لماذا لا يطلق أحد النار، ما الخطأ الذي حدث؟".

"صرخت في الشرطة للرد على النيران وأنا أتخذ وضعية الرمي جاثياً (على ركبة واحدة) ورفعت سلاحي. كان الرصاص يضرب التراب أمامي. واستدار براين وتحرّك نحو العنصر الأفغاني الذي كان متكوّراً على نفسه كالطفل على بعد أمتار قليلة، وانحنى فوقه حتى أصبحا وجهاً لوجه. صاح براين: "ماذا تفعلون بحق الجحيم؟ دعنا نذهب!"، وفجأةً، انفجر الجزء الخلفي من رأس براين. لقد رمَته قوة الضربة على ظهره وسقط على الأرض بقوةٍ شديدةٍ. رأيت وجهه وأدركت على الفور أن براين قد مات. وتحطم قلبي لخسارته.

"أمسكت وبشكل غريزي ببضعة رجال من الشرطة الأفغانية ودفعت بهم بعنف إلى الأمام. وكنت أمام خيار إما البقاء مكشوفاً للخطر في منتصف هذا الحقل والموت وإما مهاجمة الكمين. تقدّمت إلى الأمام بمشيةٍ سريعةٍ وبندقيتي مرفوعة وأطلقت مخزناً من الرصاص نحو خط الأشجار وأنا أتقدم. وعندما نزلت على ركبتي متخذاً وضعية الرمي

جاثياً ونظرت إلى الخلف نحو صديقي الملقى في الحقل، رأيته يتحرك. كان براين على قيد الحياة! صرخت في المترجم كي يقول للشرطة بأن تمشط خط الأشجار وتنظفه من أي عنصر متبقٍّ من عناصر طالبان ثم عدت إلى براين مصمماً على إنقاذ حياته".

قضى توني الساعة اللاحقة محاولاً إبقاء براين على قيد الحياة. وفي الوقت نفسه، حاول التحدث إلى بقية فريقه وإطلاعهم على موقعه والتنسيق لطلب مروحية الإجلاء الطبي. وأسرع بفتح حقيبة الإسعافات الطبية الموجودة مع براين، وقام بحشو الشاش في جرح الرأس محاولاً بيأس أن يتذكر كل ما كان براين قد علّمه إياه في أثناء تدريبهم الطبي. كان براين يتنفس، ولكن بصعوبة كبيرة. وكان فمه يمور بالدم والمخاط اللذين كانا يخرجان من بين أسنانه المصطكة.

وروى توني قائلاً: "كنت أعرف أنني بحاجة إلى فتح مجرى هواء بسرعة لمساعدته على التنفس. كنت بحاجة إلى إدخال خرطوم بطول ستة بوصات في فتحة أنفه، لذلك لجأت إلى حيلة كان قد علمني إياها منذ وقت طويل، وهي استخدام دم ومخاط المصاب لِتزليق الأنبوب. وقد نجحت تلك التقنية. ومع فتح مجرى الهواء، أصبح التنفس أسهل عليه. وبعد ذلك ركزت على تحسين محيط أمني صغير من أجل منع أي هجوم مرتدّ، وهنا كنت وحيداً في إحدى أكثر المناطق خطورة في أفغانستان كلها، معزولاً عن بقية فريقي من مفرزة العمليات ألفا، مع المُسعف الوحيد في فريقنا وهو يحتضر، والكثير من رجال الشرطة الأفغانية وهم يرتعشون جداً في شبه حالة من الذعر. فاستخدمت إشارات اليد والذراع التي كنت قد علَّمتها للشرطة الوطنية الأفغانية في أثناء التدريب من أجل توجيههم إلى المواقع وتخصيص قطاعات إطلاق النار. حاولت توسيع المحيط أكثر من ذلك، ولكن الأفغان رفضوا ترك تلاحمهم. وكلما ازدادت إشاراتي إليهم بالتوجه نحو مواقع جديدة، قلّ تحرّكهم. وعندما أوعزت لشرطي شاب للانتقال مسافة خمسة وعشرين متراً نحو الغرب، كان ينتقل لمسافة خطوتين فقط في ذلك الاتجاه".

كان توني يحاول عبثاً أيضاً إخبار فريقه عن موقعه باستخدام معالم الأرض. ولم يكن قد جلب معه أي قنابل دخانية لأن هذه العملية كان من المفترض أصلاً أن تكون مهمة ليلية. ولحسن الحظ أن براين كان قد خطط للأمر مسبقاً. فأخرج توني قنبلة دخان أخضر من درعه الواقية، ورمى بها في الحقل المفتوح حتى تمكن فريقه من العثور عليهما. وبدأ براين بالدخول في حالة صدمة وتشنج، وقام توني بفك ملابسه عنه، وبدأ بفرك بطنه لتهدئته. ومع تصاعد الدخان الأخضر الذي شكّل سحابة يمكن رؤيتها فوق المنطقة بأكملها، جلس هناك محتضناً رأس براين ومنتظراً الموت من كمين آخر في حال لم يصل إليه فريقه، ثم وصلت مفرزة العمليات ألفا بعد دقائق وقامت بإرشاد مروحيّة الإجلاء الطبي. وعندما هبطت المروحيّة وسط موجة من الغبار، قبّل توني جبين براين وصاح للطبيب الموجود على متن المروحيّة قائلاً: "اعتنِ به!" وكانت تلك الكلمات الأخيرة نفسها التي وجّهتها زوجة براين إلى توني عندما اجتمعوا لتناول العشاء قبل السفر إلى أفغانستان: "اعتنِ به".

كان بقاء براين على قيد الحياة دليلاً على إصراره على تدريب وإعادة تدريب زملائه على المهارات الطبية. وكان التدريب المتبادل على المهارات المتخصصة عنصراً أساسياً من عقيدة القوات الخاصة. وبوجود فرق صغيرة تضم اثني عشراً رجلاً تعمل في بعض أكثر الأماكن بعداً في العالم، كان من الضروري أن يكون أعضاء الفرق قادرين على دعم بعضهم بعضاً.

قال توني لي لاحقاً إنه عندما كان أفراد الفريق يتذمرون خلال التدريب الطبي، كان براين يقول لهم: "يا شباب، هذا ليس لأجلكم، إنه لأجلي. بما أنني المسعف الطبي الوحيد في فريقكم، فإذا تعرضت لإصابة، فإنني أعتمد عليكم كليّاً يا رفاق لتقوموا بالاعتناء بي، لذلك سأتأكد تماماً يا رفاق من أنكم تعرفون ما تفعلونه"!.

وعلى الرغم من خطورة الجرح، فإن توني قد تمكن من تحقيق استقرار حالة براين لفترة طويلة بما فيه الكفاية لإيصاله إلى مروحيّة الإجلاء الطبي، وتم في نهاية المطاف نقله

إلى المستشفى العسكري االضخم في لانتشتول بألمانيا. وهناك، على الرغم من إعلان الأطباء أن براين في حالة وفاة دماغية، تم إبقاؤه على قيد الحياة لفترة كافية لإعلام زوجته ونقلها جواً إلى ألمانيا. وتمكنت من قضاء ليلة أخيرة مع زوجها قبل أن يفصله الأطباء في اليوم اللاحق عن الأجهزة الطبية التي كانت تحافظ على حياته. وكان ذلك بتاريخ 16 أغسطس 2009.

اضطر أفراد مفرزة العمليات ألفا لدى عودتهم إلى مركباتهم، إلى خوض القتال في طريق عودتهم إلى قاعدتهم. فعند مغادرتهم بلدة منجور، بدأ وابلٌ من القذائف الصاروخية (آر بي جي) ونيران الرشاشات يتطاير من اتجاهين عبر الحقول المفتوحة على مصراعيها نحو القافلة. وعندما اكتشف توني مكان وجود مدفع رشاش يطلق النيران من مجمع محاط بجدار على بعد مئات عدة من الأمتار إلى يمينهم، أمر الرماة الموجودين في مركبته المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام أن يباشروا إطلاق النار على المجمع باستخدام المدفع الرشاش الثقيل الموجود على مركبتهم.

ضربت قذيفة "آر بي جي" صاروخية إحدى مركبات الهامفي التابعة للشرطة الأفغانية التي كانت تسير مباشرةً أمام المركبة المحصنة والمقاومة للألغام. لقد ضربت النافذة الخلفية اليمنى وقطعت رأس أفضلي، نائب قائد وحدة الشرطة. وتطاير الانفجار في أرجاء المركبة وقطعت الشظايا جزءاً من عنق السائق. أما بقية أفراد الشرطة فقد حاولوا بشكل محموم إخراج أصدقائهم من مركبة الهامفي قبل أن تبدأ بالاشتعال. لم يتمكن توني من ترك شركائه من الشرطة خلفه، وعلم أنه كان عالقاً تماماً في منتصف منطقة قاتلة إلى أن يتمكنوا من إجلاء الجرحى. وطلب إلى سائقه أن يوقف المركبة المحصنة والمقاومة للألغام إلى جانب مركبة الشرطة الهامفي حتى يتمكن من حماية الأفغان من الضربات النارية الأشد.

وأضاف توني: "كانت طلقات الرشاش الثقيل من عيار 0.50 بوصة التي تنطلق من مركبتي المحصنة والمقاومة ضد الكمائن تدوّي بصوتها، واستطعت أن أرى رشقات

أعيرتها النارية تضرب جميع أنحاء الجدران الطينية لمجمع طالبان. ولكن الشيء الملعون كان مبنياً مثل حصن. تمكنّا من رؤية فوهات الأسلحة تلمع وهي ترد بأعيرتها النارية علينا من النوافذ والسطح، وتمكنّا من سماع أعيرتها النارية وهي تضرب على مركبتنا. وقد أدركنا أننا سنواجه وقتاً صعباً في الحصول على موافقة لاستدعاء الدعم الجوي من أجل قصف المجمّع، لأن المقر سيطالبنا بتأكيد عدم وجود مدنيين في المجمع قبل التصريح للطيار بالانخفاض لقصفه. لم يكن هناك معنى لعبور الحقل المفتوح في وجه نيران الرشاشات للتأكد من عدم وجود مدنيين. أعدت الاتصال لاسلكياً بجرانت لأخبره بأننا كنا عالقين في مكاننا؛ حيث إن المزيد من الأعيرة النارية المعادية يضرب جانب المركبة".

كانت مفرزة العمليات ألفا في وضع مماثل، وتم منعها من تكرار قصف المجمع لأنه قد يكون هناك مدنيون في الداخل مع عناصر طالبان. وكان ذلك الحذر المفرط من قبل مقر القيادة الأعلى ناجماً عن "التوجيهات التكتيكية" التي صدرت في الشهر السابق عن الجنرال ستانلي ماكريستال، القائد الجديد - ذي الرتبة الرباعية النجوم - للقوة الدولية للمساعدة الأمنية (إيساف). فقد وجّه كل جندي في أفغانستان باتخاذ كل التدابير الممكنة لتجنب التسبب بسقوط ضحايا من المدنيين في ساحة المعركة. وقد ركّزت التوجيهات بشكل خاص على استخدام المدفعية والقوة الجوية.

لقد أدركنا الحاجة إلى ضبط النفس في ظروف حرب غير نظامية، وإلى بذل قصارى جهدنا في سبيل تجنب إيذاء المدنيين الذين كنا نحاول أن نكسبهم إلى جانبنا. كان ذلك مبدأً أساسياً من مبادئ مكافحة التمرد. ولكن جانباً أساسياً آخر كان يتيح للوحدات الصغيرة المرونة في التعامل مع الحالات التكتيكية المعقدة على الأرض. وللأسف، فقد تسببت تلك التوجيهات بجعل عدد من القيادات الفرعية تنتقد تقريباً أي استخدام للدعم الجوي القريب. وكثيراً ما كانت كثرة الأسئلة والقلق تجعل من استخدامه أمراً غير عملي. إن نزع تلك الوسيلة من مجموعة الوسائل التي كانت متاحة جعل خيارات الوحدة

محدودة للغاية في حالات كتلك التي وجدت مفرزة العمليات ألفا-21 نفسها فيها عصر ذلك اليوم الرهيب خارج منجور. ولم يكن أمام قيادتها أي خيار سوى أن تأمر العناصر والشرطة الوطنية الأفغانية في المركبات الخلفية من القافلة بالهجوم على المجمع المحصّن سيراً على الأقدام. ولحسن الحظ أن رجالها التفوا حول موقع رامي الرشاش من طالبان ودمروه من دون وقوع المزيد من الخسائر. ولكن التنفيذ المفرط الحماسة للتوجيه الخاص بسقوط ضحايا من المدنيين أدى إلى إعاقة جهودنا الرامية إلى صد طالبان لبقية فترة الخدمة.

أعادني نباح كلبٍ إلى الوقت الحاضر، وسرعان ما استعدت تركيزي الذهني. استطعت من خلال نظارتي للرؤية الليلية أن أرى شبحاً أسود لكلب قادم إلينا مباشرةً. لقد أدرك الجميع أنه سيكشف عن وجودنا سريعاً، فقام أحد العناصر الموجودين أمامي بتوجيه شعاع ليزر الأشعة ما تحت الحمراء إلى عيني الكلب مباشرةً على أمل إزعاجه وإجباره على الاستدارة والعودة. ولكن الكلب ظل مقبلاً راكضاً عبر الحقل، ونباحه يزداد أكثر فأكثر وهو يقترب منّا.

سمعت صوت بندقية M4 تطلق النار باستخدام كاتم الصوت. وتعثّر الكلب وتدحرج للأمام؛ حيث إن انتفاضَه جعله يتدحرج لأقدام أخرى عدة ككرة من الفرو والغبار، ثم لم يتحرك. وتوقف رتلنا للحظة منصتاً لأي صوت من سكان المجمّع أو أي إشارة أخرى على الخطر.

حثثنا الخطى عندما بدأنا التحرك مرة أخرى نتسلق الجدران المنخفضة وننزل خنادق ونخرج من أخرى. وكلما زاد تفكيري في براين وبناته اللواتي تركهن وراءه، زادت رغبتي في قتل حساماني. وحقيقة أن براين قُتل وهو في طريقه لمساعدة القرويين الأفغان في إعادة فتح محالهم جعلتني أكثر غضباً. كنت قد علّمت رجالي مبادئ مكافحة التمرد طوال السنوات القليلة الماضية. وباعتباري قادماً من البنتاجون والبيت الأبيض، فقد كنت أعرف أنه كان علينا أن نحوّل اهتمامنا من استهداف قادة طالبان إلى حماية السكان من

تخويف المتمردين، وكسب تأييد القبائل المتعاطفة. ولكن في هذه الليلة أردت فقط موت حساني، ووجدت نفسي آمل أن أكون أنا من يضغط على الزناد.

انسللنا خلسةً على طول الجدار الخرساني الخارجي للمجمع المستهدف، وانخفضنا تحت نوافذ عدة لنمرّ منها بصعوبة؛ حيث كان كل واحد منا يحمل 60 رطلاً من العتاد مشدودة إلى أكتافه. كنت أستطيع الرؤية على طول رتل الجنود الأفغان والأمريكيين حتى البوابة المعدنية السوداء الثقيلة. ألقيت نظرة سريعة على جهاز تحديد الموقع العالمي GPS الذي ألبسه في معصمي ووجدت أننا كنا في المكان المناسب.

واتصل قادة الفرق التابعة لمفرزتي العمليات ألفا-21 و23 عبر الجهاز اللاسلكي.

قال جرانت: "إلى رأس السهم 2-0، هنا رأس السهم 2-1، وصلت إلى هدفي".

وهمست قائلاً: "عُلم". وأنا أقف على بعد بضع أقدام من نافذة مجمع أحد مساعدي طالبان، بدت همساتي المكتومة أشبه بالصراخ. فوضعت يدي على فمي لكتم الصوت أكثر.

وهمس جيسون عبر شبكة اللاسلكي: "رأس السهم 2-3 غير جاهز".

كانت كل فرقة مستعدة خارج هدفها؛ حيث وضعت العبوات الناسفة على الأبواب وهي جاهزة للتفجير. كانوا أهدافاً مكشوفة كامنة وهم ينتظرونني لإعطاء الضوء الأخضر لنبدأ جميعاً بضرب أهدافنا في آنٍ واحد.

همست في سماعتي قائلاً للرجل القيادي في خليتي: "دعنا ننطلق!" ورأيت أحد رجال المغاوير يكافح لتسليم أدوات عدة لقطع المسامير من أجل كسر القفل الموجود على البوابة. وتمت إزالة السلسلة الحديدية وتسللنا بخفة إلى الفناء، بينما ركض أحد العناصر بسرعة إلى الباب مع عبوة ناسفة. وبقي اثنان من الأفغان وراءنا عند البوابة للحفاظ على الأمن في الخلف.

وتحدث جيسون عبر اللاسلكي حالما تم وضع العبوة الناسفة على الباب الخشبي الثقيل المؤدي إلى المنزل الفعلي، قائلاً: "رأس السهم 2-3 جاهز".

وقلت عبر الشبكة اللاسلكية: "عند إشارتي 5، 4، 3، 2، 1، هجوم!".

انفجرت العبوة الناسفة على الباب، وضربتني موجة الصدمة الناجمة عن الانفجار في الصدر مباشرةً وبقوة أكبر بكثير من المعتاد. وتوقف رتل الجنود المعروف باسم "التشكيلة". كانت العبوة الناسفة كبيرة جداً، وكانت تحوي الكثير من المتفجرات. وقف الجميع هناك مصدومين لثانية واحدة ثم اندفعوا إلى المجمّع.

قال أحدهم بنبرة جافة عبر الشبكة: "اللعنة، العبوة محشوّة كثيراً أيها المغفّل"، في إشارة إلى الكمية الزائدة من المتفجرات التي كانت على ما يبدو في العبوة الناسفة.

كان يوجد في الداخل فناء آخر كبير، وفي الطرف البعيد منه كانت هناك سلسلة من غرف منخفضة السقف يتم الجلوس فيها على الأرض. وعندما انطلق الجنود والمغاوير بسرعة عبر الفناء لتمشيط الغرف وهم يشقون طريقهم حول حيوانات الماعز والأغنام، سمعت صوت إطلاق نار من أسلحة رشاشة من مسافة في اتجاه مجمّع حسماني.

وفي الحال، بدأتُ الركض مع زيكي - عنصر وحدة التحكم الجوي التكتيكي المشترك (JTAC) - على السلالم المؤدية إلى السطح، بحيث نستطيع الحصول على أفضل استقبال لاتصالات اللاسلكي عبر الأقمار الصناعية، وليتمكن زيكي من الحصول على أي دعم أو إجلاء طبي جوي لازم. كان عناصر وحدة التحكم الجوي التكتيكي المشترك رجال جو من سرب التكتيكات الخاصة التابع للقوات الجوية، مدربين تدريباً خاصاً للتحكم في جميع أنواع الطائرات، للتأكد من أنها وضعت النوع الصحيح من الذخائر في المكان المناسب وفي الوقت المناسب. كان زيكي رجلاً أيرلندياً طويلاً وضخماً، ومغروراً، وجيداً جداً في وظيفته. في جبال أفغانستان المعزولة؛ حيث يمكن لفريق صغير بسهولة أن يجد نفسه محاصراً وبعيداً لساعات عن أقرب وحدة صديقة، كانت وحدة التحكم الجوي

التكتيكي المشترك هي شريان الحياة لعمليات الإجلاء الطبي والتعزيزات، ومن ثم فإن لها دوراً حاسماً في بقاء الفريق.

وعند وصولنا إلى السطح كانت النيران البعيدة قد هدأت. وقلت لزيكي: "كان إطلاق النار كثيفاً جداً".

فأجابني: "نعم، هل تريدني أن أتصل وأعطي إشارة *القوات في حالة اشتباك*؟" عند الإعلان عبر اتصالات الأقمار الصناعية بأن القوات في حالة اشتباك، يتم تحويل جميع الوحدات الأخرى إلى قناة بديلة. وتحصل الوحدة التي تخوض حالة اشتباك مع العدو على الأولوية في المعاملة عبر مسرح العمليات عندما يتعلق الأمر بطائرة استطلاع مثل الطائرة من دون طيار من طراز "بريداتور"، بالإضافة إلى إسناد جوي قريب من قبل القوات الجوية. وقد كافحت جميع الوحدات الموجودة في أفغانستان باستمرار في سبيل الحصول على هذه المكاسب النادرة لكي يتم تخصيصها لمهماتها، وفي كثير من الأحيان لم تتمكن من الحصول عليها. وكان كل ذلك يتغيّر عندما يتم طلب دعم للقوات المشتبكة بسبب وضع الوحدة في رأس القائمة على الفور.

قلت: "نعم، اطلب الدعم؛ هذه المنطقة مزعجة، وأريد أن يكون بعض الدعم جاهزاً في حال بدأ مقاتلو حسماني بالخروج من مجمعاتهم ومهاجمتنا".

أذاع جيسون، قائد الفريق التابع للمفرزة 23، على شبكة اللاسلكي المحلية العاملة بالتردد FM الذي دخل أذني اليمنى، بأن المدرسة كانت خالية من الخطر. لقد وجدوا مخزناً صغيراً من القذائف الصاروخية آر بي جي بالإضافة إلى صناديق عدة من ذخائر الأسلحة الرشاشة. لقد كان تكتيكاً اعتيادياً بالنسبة إلى طالبان أن يهاجمونا انطلاقاً من المدارس والمستوصفات الصحية، ومن ثم يلقون اللوم علينا عبر آلتهم الدعائية عندما كنا نرد على إطلاق النار ونسبب الأضرار لهذه الأبنية، أو في الحالات الأسوأ، نتسبب بإصابة مدنيين أفغان.

وبعد لحظات، أذاع جيسون أن المجمع الذي كنت موجوداً فيه قد خضع لتفتيش كامل وكان "جحراً جافاً"، أي إن الهدف لم يكن موجوداً هناك. قال جيسون: "لا شيء سوى النساء والأطفال. ولكن أحد الأولاد أفشى بعفوية أن والده كان في باكستان". هذا الولد كان ابن مساعد حساني.

وقفت أنا وزيكي على السطح، ننظر باتجاه إطلاق النار الذي كنا قد سمعناه سابقاً، بالقرب من مجمع حساني، بانتظار أن يقوم فريق مفرزة العمليات ألفا-21 بإعلان وضعهم. وعندما وقفنا هناك نرتجف من البرد في تلك الليلة الصافية، تمكنا من سماع صوت يشبه عويلاً بطبقة صوت عالية وطويلة انساب عبر الحقول. نزعنا السماعات عن آذاننا لكي نحاول التحقق من الصوت. لقد كان من دون شك صوت عويل امرأة أفغانية.

قال زيكي: "هذا ليس جيداً يا سيدي" مصرحاً بما هو واضح. كانت فكرتي الأولى أن المرأة قد أصيبت خلال تبادل إطلاق النار.

نادى جرانت من مجمع حساني قائلاً: "سيدي، لقد حصلنا على جائزة، ولكنني أحتاج إليك كي تنزل هنا إلى مكاني". كانت الجائزة كلمة رمزية تستخدم في الاتصال للإبلاغ عن أننا قد قتلنا أو اصطدنا هدفنا.

لقد أدركت أن هناك خطأً ما قد حدث عندما نزلت بحذر على السلم الضيق المبني من الحجارة الطينية إلى الفناء، وأحضرت مترجماً واثنين من المغاوير، وبدأت المشي السريع على ممر ترابي باتجاه مجمع حساني. ولدى اقترابي من المجمع، أصبح صوت العويل أعلى. لقد بدا كما لو أن أحدهم قد اقتلع روح المرأة. مشى جرانت على الممر ليقابلني، واكتشفت أننا السبب.

قال جرانت عندما أصبحنا وجهاً لوجه: "لقد قتلنا طفلةً صغيرة". وقف كلانا هناك. كان لدى جرانت طفلان صغيران، وفي الحال خطرت ببالي ابنتي الصغيرة.

وتمتمت وأنا أطرق برأسي إلى الأرض: "اللعنة، اللعنة، اللعنة! ماذا حدث بحق الجحيم؟".

أجاب جرانت: "لسنا متأكدين تماماً مما حدث. لقد دخلت تشكيلة الشرطة الوطنية الأفغانية أولاً، وقبل أن نتمكن حتى من تتبعهم إلى الداخل، فتح حسماني النار من الجانب البعيد للمجمع. وأخطأ وقامت الشرطة الأفغانية بالرد عليه. ويبدو أن الفتاة كانت تقف إلى جانبه. ما هذا الإنسان الأحمق الذي يفتح النار ببندقيته الكلاشنكوف بينما ابنته واقفة إلى جانبه؟".

وتساءلت بإحباط: "ماذا حدث بحق الجحيم لكل التدريب الذي قدمناه للشرطة على إطلاق النار الموجّه من وضعية جيدة ومواتية؟".

وأجاب جرانت: "حسناً يا مايك. لقد بذلنا قصارى جهدنا في تدريب هؤلاء الرجال. إنهم ليسوا بمستوى عناصر شرطتك العاديين. أنت تعلم ذلك. بحق الجحيم، إنني أكاد أقارنهم بالمغاوير. ولكن الطريق ما زالت طويلة أمامهم حتى يجيدوا إطلاق النار وإصابة الهدف بدقة. وهناك أيضاً حقيقة أنهم جميعاً من الهزارة، وكم كانوا غاضبين من أجل أفضلي. وها هو قائد طالبان المسؤول عن موت أفضلي يطلق النار عليهم. بحق الجحيم، ربما كانوا يقومون بتفريغ سنوات قمع الهزارة على رأسه".

قلت: "صدقني، لقد فهمت، ولكن علينا أن نستمر بإخبار هؤلاء الرجال بأن طريقة الرمي العشوائي (أطلق نيرانك رشّاً وصلِّ) في الرد على النيران هي طريقة غير مقبولة. حسناً، سأذهب للاتصال بالهاتف عبر الأقمار الصناعية وأدعو فريق العمليات الخاصة وأعطيهم بلاغاً".

كانت قوة مهام العمليات الخاصة هي قيادتي العليا، وتضم عناصر فصيلة قواتنا الخاصة وعناصر إسناد. وكانت تتمركز في مطار باجرام الضخم، وهو القاعدة الأمريكية الرئيسية في أفغانستان في الشمال الشرقي من كابول. كما توجد في باجرام مقار قيادتنا

العليا من "المستوى التالي"، وهي قوة مهمات العمليات الخاصة المشتركة المجمَّعة، بقيادة عقيد من القوات الخاصة العسكرية كان مسؤولاً عن جميع طواقم القوات الخاصة التابعة للجيش، والقوات الخاصة للبحرية الأمريكية، وقوات العمليات الخاصة التابعة لمشاة البحرية، وقوات العمليات الخاصة للتحالف الذي يضم ستة بلدان حليفة. لم أرغب في إعلان الخبر السيّئ عبر اتصالات الأقمار الصناعية؛ لأن جميع الوحدات والمقار كانت ترصد الشبكة، وبدلاً من ذلك، اتصلت بمقر قيادتي مباشرةً عبر هاتف الأقمار الصناعية.

قلت لجرانت: "عُدْ لإنهاء استكشاف الموقع سعياً وراء حسباني وأبلغ الشرطة الوطنية الأفغانية أو المترجمين لكي يحاولوا التحدث مع الأسرة، واحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات. وفي نهاية المطاف سوف نبحث عن طريقةٍ ما لتصحيح هذا الأمر من خلالهم، إن كان ذلك ممكناً". كان من الواضح أنه يخشى العودة إلى المجمع لمواجهة الأسرة.

منذ أن أصدر الجنرال ماكريستال توجيهاته التكتيكية بخصوص تجنّب سقوط ضحايا من المدنيين، كان يواجه ويحاسب أي ضابط آمر تابع له تسبّب جنوده بالأذى لشخص مدني، ولاسيما إذا لم يقدم هؤلاء الضباط الآمرون تفسيراً مفصلاً له في غضون ساعات من الحادث. إن تعدد مستويات التسلسل الهرمي لضباط الأركان بيني وبينه سيحتاج إلى سلسلة من التقارير خلال فترة زمنية ضيقة للغاية. وكان المسوغ من وراء هذه التقارير التي لا تعد ولا تحصى، هو إيصال الحقائق إلى مقر القوة الدولية للمساعدات الأمنية حتى يتمكنوا من الاتصال بوسائل الإعلام المحلية والدولية بأسرع وقت ممكن. في السنوات السابقة، كنا قد وجدنا أنفسنا في وضع رد الفعل ومتخلفين باستمرار عن دورة الأخبار عندما يتعلق الأمر بسقوط ضحايا من المدنيين. وكانت طالبان تتغلب علينا دائماً في ترويج روايتها للأحداث عبر وسائل الإعلام. كنا نخسر حرب المعلومات، لأننا كنا نستغرق وقتاً للتحقيق في كل حادثة. وقد وافقتُ تماماً على أنه ينبغي لنا تقليل الخسائر في صفوف المدنيين في إطار حملتنا الرامية إلى مكافحة التمرد، وإظهار

الحقائق في أسرع وقت ممكن للمساعدة في حرب الأفكار التي تدور رحاها في وسائل الإعلام الدولية. وبالإضافة إلى ذلك، عرفت مباشرةً من المصدر الأصلي وذلك من خلال فترة عملي في واشنطن أن الجنرال ماكريستال سيتعامل أيضاً مع الرئيس كرزاي. ولكن عندما شاهدت المستويات المتعددة لمقار القيادة تبالغ في استجابتها لتوجيهات ماكريستال من خلال التشكيك في العمليات إلى حد التسبّب بشللها، تساءلت إذا ما كنا قد ذهبنا بالفكرة بعيداً عما هو مقبول أو لا. لم يكن باستطاعتنا الاستمرار في إغضاب الشعب الأفغاني والرئيس كرزاي، لكن لم يكن باستطاعتنا أيضاً التنازل عن أرض المعركة بالكامل لحركة طالبان.

قبل عام تقريباً، في سبتمبر 2008، جلست في غرفة العمليات في البيت الأبيض بصفتي مستشاراً أول لنائب الرئيس ديك تشيني لشؤون جنوب آسيا خلال اجتماع مرئي عبر الفيديو بين الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن والرئيس كرزاي. عُقد الاجتماع في أعقاب حادثة أودت بحياة ما يقارب تسعين مدنياً في ولاية فرح في جنوب غرب أفغانستان.

"صباح الخير، يا صاحب السعادة"، قال الرئيس بوش عندما جلس في كرسي على رأس الطاولة. وكانت الطاولة تمتد على طول الغرفة الضيقة، مع شاشات مسطحة تغطي الجدار البعيد. وكانت الجدران المتبقية عارية إلا من ختم الرئاسة الكبير المعلق على الحائط خلف الرئيس. ويمتد بشكلٍ موازٍ للكراسي الجلدية الكبيرة الموجودة على طاولة المؤتمر، صف وحيد من الكراسي الأصغر حجماً وظهورها إلى الحائط على جانبي الغرفة.

على الطاولة إلى يسار الرئيس، كان يجلس مستشاره للأمن القومي ستيفن هادلي، وإلى يمين الرئيس جلس رئيس أركانه، جون بولتون. كان بولتون يجلس حيث كان يجلس نائب الرئيس ديك تشيني عادةً خلال اجتماعات مجلس الأمن القومي، وأنا جلست خلفه مباشرة في الكرسي الذي يكون محجوزاً عادةً للشخص الذي يرافق تشيني. في الجانب الآخر من الغرفة، جلس "قيصر الحرب" الفريق دوغ لوت، والمسؤول الأول

عنده لشؤون أفغانستان، العقيد جون وود. وكان كلا الرجلين قد أصر على أن يعقد الرئيس الاجتماع المرئي من أجل تهدئة الوضع. كلاهما كان يعرف أن العلاقات كانت حرجة في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، وسعى كلاهما إلى الاستفادة من حسن النية بين الرئيسين، وكانا على أمل إقناع كرزاي بتخفيف حدة خطابه ضد الولايات المتحدة في وسائل الإعلام الدولية.

"صباح الخير، سيادة الرئيس. أرى أن الإعصار لم يوقف خطابك أمام المؤتمر"، أجاب كرزاي، مذكّراً بخطاب الرئيس عبر الأقمار الصناعية أمام مؤتمر الحزب الجمهوري عام 2008 في ولاية مينيسوتا.

قال بوش: "تبدو مستاءً يا حامد".

أجاب كرزاي مقطّب الجبين: "أنا بالفعل مستاءٌ جداً، يا سيادة الرئيس. أنا غاضب".

سأل بوش: "هل أنت مستاءٌ مني؟".

"أنا مستاءٌ جداً جداً. أنا مستاءٌ بسبب استمرار قتل هؤلاء الناس الأبرياء في هذه الحوادث، وأنا مستاء من جيشك. أنا لست غاضباً منك يا صديقي. ولكن لولاك أنت لربما كان غضبي أكبر!".

ردد الرئيس بسرعة: "حسناً، ولولاي أنا لربما كنت أنت ميتاً!".

ضحك كلا الرجلين.

قلت في نفسي، "مدهش، والآن هذا يضبط نبرة الحديث!".

قال كرزاي: "نعم، نعم، أنت على حق يا سيادة الرئيس. أنت تعلم أنك بمنزلة أخ. حوادث التفجير هذه التي تجري في شنداند؛ هذا النوع من الأمور سوف يكلفنا دعم الشعب الأفغاني. أعلم أننا لا نتفق على الأرقام، ولكنْ، هناك بالتأكيد خمسون طفلاً وأربع

عشـرة امرأة لقوا حتفهم. يجب أن تكـون شـراكتنا صـادقة. أريـد الـذهاب إلى الشـعب الأفغاني. سأذهب غداً إلى مكان وقوع الحادث في شنداند، وأود أن أقـدم تعـازي الـرئيس الأمريكي. هؤلاء الناس عادة ما ينسون مع الوقت، ولكن نحن الآن نتجادل حول صحة وقوع هذه الوفيات".

لقد أمكنني رؤية فكَّيْ بوش وهما يشدان على بعضهما بعضاً غيظاً. وقال بعد صمت طويل: "في أي وقت يخسـر فيه بريء حياته، يكون الأمر مؤلماً. أنت تعلم أنه لم تكن هنـاك نية لفعل ذلك. فعلى العكس من طالبان، عندما تحدث هذه الأمور معنا، فإن الأمرَ يكـون حادثاً. أنت تعرف ذلك يا صديقي. أرجو أن ترسل تعازيّ عندما تتحدث إلى شعبك. إني حقّاً أحبك. أنا أطالب بالحقيقة مثلك. وأنا لا أنتقدك أنت أو الجيش الأمريكـي، بـل همـا مجرد وجهتَيْ نظر. ولكننا نحتاج إلى مساعدتك علناً. أنـا أدرك الضـغوط الملقـاة عليـك، ولكنك لا تستطيع القول بأنك تحب الأمريكيين، ومن ثم تقـول لشـعبك إن الأمـريكيين يقتلوننا"، كما قال الرئيس مؤكّداً.

"بالضبط!"، قلت في نفسـي. كنت آمل أن يضـغط الـرئيس عـلى كـرزاي في هـذه النقطة. وقد أذهلني أن كرزاي لم يتفوّه بأي كلمـة عنـدما قامـت طالبـان باسـتمرار بقتـل المدنيين بالعبوات الناسفة المزروعة على جانبي الطريق، وتفجير السـيارات المفخخة وسط الأسواق المزدحمة، حتى إنها قامت برش الحمض الحارق على الفتيات الصـغيرات اللـواتي يحاولن الذهاب إلى المدرسة. وعلى النقيض من ذلك، فإن حادثة وحيدة وقعت من جانب التحالف، تجعل كـرزاي يشـجب الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ويسـتنكرها عـبر جميـع المحطات الوطنية الأفغانية المسموعة والمرئية. وأنا أعرف أنه كان يضع نصب عينيه المشهد السـياسـي المحلي، وأننا يجب أن نفي بوعودنا، ولكن طالبان ارتكبت تلـك الجـرائم عـن قصد، ونحن لم نفعل ذلك. للأسـف، فـإن توجيـه الانتقـاد القاسـي إلى كـرزاي لم يكـن أسلوب بوش في الواقع. فقد كان يكنّ احترامـاً كبـيراً لمنصـب كـرزاي كـرئيس سـيادي للدولة، ويعتقد أنه كان عليه المحافظة على علاقة قوية بيـنهما باعتبارهمـا زعيمـي دولتـين

تخوضان حرباً معاً. كان بوش يعرف أنهما إن لم يتمكنا من إجراء محادثات مثل هذه للتعبير عن خلافاتهما بصراحة، فإن العلاقة كاملة بين البلدين ستدفع الثمن. كانت هناك أمور كثيرة جداً على المحك، وكان هذا هو الحد الذي سيمارس عنده الضغط على كرزاي.

وأجاب كرزاي: "الناس لا يريدون لأمريكا أن تغادر، إنهم يدعمون الولايات المتحدة الأمريكية بقوة، ولكنهم يريدون تغييراً في السلوك. ينبغي لنا أن نقدم التغيير. فإذا فشلنا، فإن أفغانستان ستصبح هباءً مرة أخرى. علينا ألا نضيع حب أمريكا. ولكن عدد هذه الحوادث يجعل منها عبئاً ثقيلاً".

ردَّ بوش متابعاً وبمهارة موضوع الخطاب العام: "أوافقك الرأي. المفارقة هي أن جنودنا وجنودكم يشكلون قوى من أجل الخير. وعناصر طالبان في هذا النوع من الأمور لا يُعتبرون أشراراً. علينا أن نكسب حرب الدعاية"، ثم تابع قائلاً: "علينا أن نواصل استراتيجيتنا لتحقيق النصر، أنتم بحاجة إلى المزيد من القوات الأمريكية؛ لتساعدكم على حماية طرقكم السريعة وتتخلص من المتمردين بحيث يستطيع جيشكم أن يمسك بزمام الأمور. علينا أن نساعدكم على زيادة الجيش الوطني الأفغاني. إنهم جيدون، ولكنكم تحتاجون إلى المزيد منهم. سوف نحوّل الوضع الراهن إلى وضع تكونون فيه مرتاحين من أن شعبكم قادر على التعامل معه. وهذا يخيف شركاءنا في التحالف، ولكننا سنتدبر أمرهم. فالأوروبيون معتادون في تفكيرهم على فكرة أن الناس يموتون بسبب وجودنا هناك".

كانت مفاجأةً سارةً لي. المزيد من القوات الأمريكية، والمزيد من قوات الجيش الوطني الأفغاني، وإدراك أن الأوروبيين لن ينجزوا المهمة. كان خريف عام 2008، وبعد سنوات طويلة من المعاناة في أمور مستحيلة، بدا وكأن الرئيس بوش قد رسم الخطوط العريضة لعملية تغيير في الاستراتيجية.

قال كرزاي: "أود الإشارة إلى ملاحظة أخرى، يا سيادة الرئيس. إن عمليات الدهم الليلية التي تنفذها قواتكم الخاصة لمنازل الناس تعتبر مشكلة خطيرة. فقد قُتل

مؤخراً لاعب من فريق الكريكيت الأفغاني في إحدى تلك العمليات. وهناك أيضاً بعض الخلاف هنا، وسأكون ممتناً أشد الامتنان لو أمكنكم النظر فيه. أنا قلق أيضاً من باكستان. فهي تستمر في مساعدة أعدائنا".

قال بوش إنه يحدوه الأمل ببعض الانتفاضات القبليّة ضد وحشية طالبان في المناطق القبلية الباكستانية، وعبّر عن أمله أن نتمكن من التشجيع على أمر مماثل في أفغانستان.

وأنهى كلا الرجلين المكالمة بكل تهذيب، ثم التفت بوش بغضب إلى الفريق لوت قائلاً وهو يهوي إصبعه باتجاه الأرض: "كرزاي معه حق أن يغضب. أنا غاضب. لا أفهم هذا التناقض ولماذا نستمر في قتل المدنيين؟ لماذا نرسل قوات العمليات الخاصة لقتل لاعب كريكيت؟ هذا الأمر هو مثل قتل كال ريبكن [نجم كرة البيسبول] هنا. بالإضافة إلى أنه يعتقد حقّاً أن تسعين شخصاً قد لقوا حتفهم. أريد أن يعالج البنتاجون هذا الأمر في الحال".

قام لوت بتذكير الرئيس بأن وزير الدفاع روبرت غيتس كان قد أمر بمراجعة قواعد الاشتباك الخاصة باستخدام الدعم الجوي القريب. وكنت أعلم أن الجنرال ماكريستال، الذي كان في قيادة الأركان آنذاك، هو من يتولى هذه المراجعة.

ثم قال الرئيس محتدّاً قبل أن يمشي مغادراً غرفة الأزمات: "إن هذا الأمر يقوّض كل شيء نحاول القيام به هناك. وكرزاي على حق، يجب أن تتغير الأمور".

وقفت خارج بوابة مجمّع حسماني أستمع وأراقب الفوضى داخل فناء المنزل الرئيسي. وقررت البقاء على مسافة من الشجار وأن يعالج جرانت والرقيب المسؤول عن فريقه الوضع. كان جرانت ضابطاً قديراً وذكياً ومدة خدمته في القوات الخاصة تساوي تماماً مدة خدمتي آنذاك. ولم يكن بحاجة إلى أن أدخل وأتولى المسؤولية فقط لأنني أستطيع ذلك. إن وحدة من القوات الخاصة مملوءة بالعناصر الأذكياء والمستقلين، الذين تدربوا

على أن يكونوا مستقلين وجميعهم يعتقدون سراً (وفي كثير من الحالات بشيء من العلن) أنهم يجب أن يكونوا في موقع المسؤول، لم يكن من الممكن قيادتهم بالشِّدة. ففي ثقافة لامركزية تفخر بأنها تحل أصعب المشكلات في المناطق الرمادية الغامضة في حرب عصابات العالم الثالث، حاولت أن أعطي توجهات عامة وأحدد الأولويات، ومن ثم أترك للفرق التابعة لي حرية أكبر في إنجاز مهماتها.

كنت أرى جرانت والمترجم وقائد الشرطة يقفون مع رجل كبير السن، في محاولة لإجراء محادثة معه. كان الرجل العجوز يلوح بيديه بعنف، وفي نهاية المطاف بصق على الأرض عند أقدام المجموعة وخرج. كان الرقيب المسؤول عن الفريق يسير مطوّقاً حدود المكان ليتأكد من أن الجميع اتخذ إجراءات الحيطة والحذر الأمنية، بينما قام اثنان من العناصر بإلقاء كومة من بنادق كلاشنكوف AK-47 وصناديق ذخيرة كانوا قد عثروا عليها في منزل، في وسط الفناء. بعيداً إلى يميني كانت هناك مجموعة من رجال الشرطة الأفغانية يبدو أنهم يتجادلون. يمكنني أن أفهم من طريقة إشاراتهم وإيماءاتهم أنهم كانوا يعيدون تمثيل ما حدث. وفوق كل ذلك، كنت أسمع النحيب والبكاء من ثلاث نساء يرتدين شالات سوداً وبيضاً جاثيات ينحنين فوق جسد صغير في الفناء خلف نافذة كبير مكسورة. وكانت ثقوب الرصاص تملأ الحائط خلفهن. وكنت أرى ساقي والد الفتاة في المدخل إلى الغرفة.

اقترب مني أحد مترجمي الفريق 21 وقال: "أنا من مدينة غزني. هذه الحادثة لن تقلب قبيلة أندار ضدنا".

أجبت بالقول: "إن قبيلة أندار هي أصلاً ضدنا. ومع أن حساني كان معروفاً أنه قائد في جماعة طالبان، فإن هذا لا يمكن أن يساعد. ستقوم طالبان باستغلال هذا الحادث ضدنا في صباح الغد ويقولون إن قوات الشرطة والأمريكيين جاؤوا إلى هناك لاغتيال عائلته".

أجاب المترجم: "أنت على حق. لن يدعم الأندار الحكومة أو يدعموكم أنتم أبداً، بل إنهم لن يدعموا طالبان أيضاً. فإذا عوّضتم هذه العائلة، فإنكم ستقدمون مساعدةً كبيرةً. عليكم القيام بذلك بحيث تعلم كل القرية أنكم فعلتم ذلك. أنت تلاحظ أنهم لا يبكون من أجل حسماني. فالنساء لا ينظرن حتى إلى جثته. ربما كان يعاملهن بقسوة. والآن بعد مقتله، قد تكون هناك فرصة لمساعدتهن. أنا أعرف هؤلاء الناس. إن أعطيتهم بعض الدعم، وبعض الأسلحة، وبعض التنظيم، وبعض المال، فإنهم سيقاتلون طالبان. الجميع تعب منهم. ولكن من دون دعم، سينهض قائد طالباني آخر ويستولي على السلطة في هذه المنطقة".

قضينا الأسبوع اللاحق في قاعدة مفرزة العمليات ألفا-21 نتعامل مع تداعيات مقتل الفتاة الصغيرة. أرسلت التقرير الأولي للحادث مباشرةً من مسرح العملية في منجور، عبر هاتف الأقمار الصناعية إلى مقرنا الرئيسي في فريق العمليات الخاصة في باجرام. حالما عدنا إلى قاعدة مفرزة العمليات ألفا-21 جنوب مدينة غزني، بدأت بملء مجموعة كبيرة من تقارير المتابعة التي تصف بالتفصيل كل الأشياء التي حدثت.

وفي هذه الأثناء، كان جرانت على الهاتف مع حاكم الولاية محمد عثماني ليطلعه على ما حدث ولصياغة خطة للتعامل مع شيوخ منجور. وكان جرانت قد طوّر علاقة عمل وثيقة مع عثماني، وخاصةً لأن اللواء البولندي الذي يتولى المسؤولية الكاملة عن العمليات في ولاية غزني لم يقم بإشراكه أو بإقامة علاقة شخصية معه. وكان عثماني نموذجاً لكثير من الحكام الذين عاصرناهم على مر السنين منذ أحداث 11 سبتمبر: يسعدون بالعمل مع القوات الأمريكية وقوات التحالف لتعزيز إعادة البناء ومشروعات التنمية فضلاً عن مطاردة قادة المتمردين، ولكن اهتمامهم الحقيقي ينصب فقط على تعزيز مصالحهم التجارية وكذلك مصالح قبيلتهم.

سأل الحاكم جرانت: "سأدعو شيوخ أندار إلى منزلي لتناول الشاي. هل يمكنك الحديث عن التعويضات يا صديقي؟".

أجاب جرانت: "نعم يا سيدي. سيكون علينا الحصول على موافقة عليها من خلال سلسلة قيادتنا، ولكننا نستطيع أن ندفعها".

أبدى عثماني قلقه من أن بيروقراطيتنا العسكرية ستكون بطيئة جداً في الموافقة على المدفوعات؛ حيث قال: "إذا أظهرنا فوراً للعائلة أننا مستعدون لتعويضهم عن موت الفتاة ونرسل هذه الرسالة إلى القرية، فإن هذا الحادث سيصبح طي النسيان. لا يمكن أن ندع هذا الأمر في الانتظار. سيكون من المحرج جداً لي أن أدعو مجلس الشورى للاجتماع من دون أن يكون في جعبتي أي شيء لأعرضه عليهم".

ناقشنا حقيقة أننا كنا متأكدين أن المال سيعود إلى مجموعة مقاتلي طالبان التابعة لحساني. أجاب الحاكم: "نعم، ولكن حساني ميت الآن. إذا كنتم تريدون أي فرصة للتعامل مع قرية منجور أو قبيلة الأندار بعد الآن، فعليكم تقديم شيء إلى عائلته. عليكم أن تظهروا لهم عطفكم. في أفغانستان، يمكن للفتاة أن تجلب لعائلتها آلاف الدولارات من مهرها. ولا يمكن للفتاة أن تعمل في الحقول أو تحصل على عمل لدعم عائلتها، ولذلك فإن الحصول على دفعة ما من المال هي كل ما تبقى لبقية العائلة. عليكم تقديم شيء، حتى إن كان الرجل قائداً في طالبان. إنها طريقتنا".

قررنا أن نحاول الحصول على موافقة على دفعة من المال ولكننا علقنا في حلقة بيروقراطية تثير الجنون طوال بقية الأسبوع. فمن جهة، كان مقر قيادتنا الذي أراد البقاء بعيداً عن المشكلات مع الجنرال ماكريستال، يقول لأفراد إيساف إنه لم تكن هناك حاجة إلى تحقيق رسمي في الحادث لأن الشرطة الأفغانية في الواقع هي التي أطلقت النار على الفتاة، وليس نحن. ولكن ذلك تسبب لنا بالمشكلات في تحصيل الموافقة على دفعة التعويضات لأننا كنا ندفع فقط تعويضات عن المدنيين الذين قتلوا على يد الجنود الأمريكيين، وليس من قبل الشرطة الأفغانية.

وأخيراً، وعلى مدى أيام عدة من المحادثات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني، تمكنت من جعل قائدي، وهو ضابط ذو عقل رشيد وعملي، وله تاريخ طويل في القوات

الخاصة، يتحدث بشكل معقول مع المحامين في كابول. كما قام الضابط التنفيذي، وهو محامٍ سابق للبيت الأبيض ومدعٍ فيدرالي سابق، بصياغة ما يشبه مذكرة قانونية عن السوابق والسياسات المتعددة وراء دفعات التعويضات، وهو أمر غير متوقع فاجأ المحامين.

وبينما كنا نكافح في سبيل دفع التعويضات، كنا نجيب أيضاً على وابل من الأسئلة حول ماذا حدث وأسباب حدوثه. وحالما أوضحنا أن شركاءنا من الشرطة الوطنية الأفغانية هم الذين أطلقوا النار على الفتاة وليس نحن، كانت شدة الاستجواب تخف إلى حد كبير. بعد ساعات عدة ازداد عدد رسائل البريد الإلكتروني والمكالمات من جديد، ولكن هذه المرة من فريق العمل المشترك المختلط، القيادة التقليدية في شرق أفغانستان، يسأل: لماذا تركنا الشرطة الأفغانية هي التي تدخل أولاً إلى المنازل. قضيت ساعات في سرد التأكيد الذي تم على مر السنين بشأن وضع أفراد أفغان في عملياتنا، وبناء قدراتهم عن طريق السماح لهم بالقيادة، وكيف أن كرزاي نفسه قد أصر على أن يتصدّر الأفغان أي عملية تفتيش للمنازل الأفغانية. وقلت، بكلمة ختامية: "لا يمكننا أن نجمع بين الأمر ونقيضه. فإذا كانت سياستنا هي وضع الأفغان في الصدارة كلما أمكن ذلك، فعلينا القبول بعواقب تلك السياسة عندما يرتكب الأفغان الأخطاء".

وعلى الرغم من بذل قصارى جهدنا لرفع قضيتنا إلى مقر القيادة الأعلى حتى نتمكن من كشفه لوسائل الإعلام، شاهدنا عبر شريط فيديو من إحدى طائرات "بريداتور" من دون طيار احتجاجات ضخمة تجمعت خارج منزل حسماني في منجور. ونقلت الصحافة المحلية عن قائد الشرطة المحلية، الذي نظن أنه كان خائفاً حتى من الذهاب إلى القرية، قوله إنه لم يأمر بتنفيذ العملية، وإن الشرطة الوطنية الأفغانية التي شاركت فيها ستتم معاقبتها. وألمح إلى أن قتل طفلة صغيرة كان فعلاً انتقامياً. هذا غير مفيد؛ اتصل جرانت بعثماني، ولكن الحاكم أجاب بأنه لم يرَ أو يسمع أي شيء من قائد الشرطة طوال أشهر، وأنه لم يُفاجأ بتصريحاته لأنه هو وحسماني كانا من العشيرة نفسها.

بعد ذلك قرأنا وصفاً لمجريات الحادث في الشريط الإخباري على شاشة محطة سي إن إن CNN في مركز عمليات مفرزة العمليات ألفا. وسمح جرانت لرقيب الشؤون المدنية في الفريق بأن يقدم شرحاً للحادث عبر محطة إذاعة محلية نقوم بإدارة بثها من خارج القاعدة. وكان من المفترض أن تتم الموافقة على المحتوى الجديد من خلال خلية الاتصالات الاستراتيجية في باجرام، ولكننا علمنا أن عملية الموافقة ستكون بطيئةً جداً بحيث لن يكون لها أي فاعلية، وطلبت منه أن يقوم بالأمر ببساطة.

في تلك الليلة، حضر جرانت اجتماع مجلس الشورى في منزل الحاكم عثماني. واستمع إلى شيوخ أندار وهم يشتكون من غزو منازلهم، وقالوا إنه لم يكن هناك أحد من مقاتلي طالبان. وهنا تدخّل عثماني وذكّر الشيوخ بالكمين الذي حدث انطلاقاً من تلك المنازل نفسها قبل بضعة أشهر عندما كان الأمريكيون يحاولون مساعدة القرى الواقعة إلى الجنوب من منجور. أجاب الشيوخ أن مقاتلي طالبان الذين ظهروا في ذلك اليوم كانوا دخلاء. عضَّ جرانت على شفته وهو يستمع للشيوخ يكذبون. لقد اعترضنا إشارات تفيد بأن حساني كان ينسّق الهجوم في ذلك اليوم من منزل مساعده؛ وهو المنزل نفسه الذي كنت فيه قبل ليلتين فقط.

في نهاية المطاف، وبعد أن أدلى كل واحد من الشيوخ بدلوه، قدّم جرانت عرضاً للبدء بمشروع إعادة الإعمار مباشرةً في منجور، لإصلاح المدرسة وتجديدها، ولكن الشيوخ رفضوا العرض. وقدّم جرانت في نهاية المطاف مبلغاً وقدره 3000 دولار كتعويض لعائلة حساني عن وفاة الطفلة. وتبيّن لنا لاحقاً أن مساعد حساني كان قد أعطى تعليمات إلى الشيوخ بألا يعودوا ما لم يكن في حوزتهم مبلغ نقدي. كان نصف المبلغ سيذهب إلى عائلة حساني والنصف الآخر إلى المساعد. وفي نهاية المطاف، قبِل الشيوخ تعهدات الدفع، وتجديد المدرسة، وبعض المال الإضافي لإصلاح منزل حساني. وقد فوجئت بعدم امتلاك الشيوخ أي عاطفة. لقد كانت العملية كلها تنمّ عن مفاوضات تجارية. وكان دائماً ما يصدمني، كم يمكن للحياة أن تكون رخيصة في بلد لم يكن قد عرف شيئاً سوى الحرب طوال العقود الثلاثة الماضية.

كما فوجئت بعض الشيء بأن وفاة الطفلة لا يبدو أنها حملت الشيوخ على تغيير موقفهم بأي شكل أو آخر، من حيث ولائهم أو مشاعرهم تجاه التحالف والحكومة الأفغانية. بصراحة، أعتقد أن رجال فريق العمليات ألفا-21 وأنا كنا منزعجين أكثر منهم. وكان رد الفعل الصامت بالتأكيد أقل مما كنت قد توقعت نظراً إلى مستوى الاهتمام الكبير الذي حظيت به القضية في كابول وواشنطن. ولم يبدُ أن ردود أفعالهم تسوغ الأوامر العامة التي قيّدت فعلياً أيدي قادة العمليات وجعلت استخدام قواتنا الجوية صعباً للغاية. والمثير للدهشة أن وفاة ابنة حساني بدت أيضاً أقل تأثيراً في الديناميكية الأوسع نطاقاً لقرية منجور والمنطقة، مما كنا نتوقع. وكان رد الفعل العنيف في حده الأدنى: من الممكن أن يكون السبب هو أنها كانت ابنة أحد قادة طالبان المعروفين، أو يمكن أن حياة الإنسان، ولاسيما حياة النساء، لم تكن ذات قيمة نسبياً في مثل هذا المكان القاسي من العالم.

لم نحصل إلا على بضع ساعات من النوم منذ بدء المهمة قبل يومين، وكنت في حالة هذيان. ولكن كان الوقت قد حان لمحاولتي الأسبوعية الاتصال مع ابنتي عبر برنامج سكايب. وكثيراً ما كانت والدتي تبقيها عندها أيام الأحد لكي تمنح زوجتي استراحةً قبل بداية الأسبوع. وكان ذلك دائماً هو الجزء الأفضل من الأسبوع بالنسبة إلي، ولكن هذه المرة كنت خائفاً من رؤيتها. كنت أعلم أن الأمر سيكون صعباً للغاية عليّ من الناحية العاطفية.

وعندما ظهرت الشاشة أمامي: "مرحباً يا أبي!". فقلت "مرحباً يا صغيرتي!" محاولاً ألا أغص بالبكاء أمام وجهها الملائكي الصغير.

سألتني وهي تعرف بحدسها أن مكروهاً ما قد وقع، مع أنها كانت في الخامسة من عمرها وعلى بعد آلاف الأميال: "لماذا أنت حزين يا أبتِ؟".

فقلت: "لقد آذينا شخصاً ما عن غير قصد اليوم". وبدأت أغصّ بالبكاء مرة أخرى، وأنا أقول: "فتاة صغيرة مثلك تماماً".

فسألتني: "لا بأس، يا أبي. ألا يمكنك أن تقول لأمها وأبيها 'أنا آسف'؟".

قلت لها: "سيكون أمراً صعباً حقاً، يا حلوتي، ولكنني سأحاول قصارى جهدي". وقد استطعت أن أرى قسمات وجه أمي تتلوى من الألم للحظة.

وقالت وهي تحكّ وجهها: "إن لحيتك تزداد طولاً حقاً، يا أبي! أراهن أنها تسبب الحكة!"، يبدو أنها كانت تعرف غريزياً متى تغيّر الموضوع.

واصلنا إجراء حديث قصير، ولكن هذه المرة كل ما استطعت التفكير فيه هو نحيب تلك الأم في منجور. لقد ذهبت إلى هناك لمنح حياة أفضل لأطفال أفغانستان، ومن ثم أمنح ابنتي مستقبلاً أكثر أماناً. ولكن ماتت طفلة الآن نتيجةً لمهمة توليت قيادتها. لم أكن أعرف أي نوع من المستقبل كانت ستعيشه في ظل مجتمع تقوده طالبان برعاية والدها، ولكنني للمرة الأولى التي استطعت فيها أن أتذكر، بدأت أتساءل: ما التأثير الذي نُحدثه حقاً؟.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الجوانب كافة، فإن الملا حسماني، القائد الطالباني الذي قاد الهجوم على مفرزة العمليات ألفا-21 والشرطة الوطنية الأفغانية عندما كانوا يحاولون فتح بازار القرية، قد مات. وتبيّن أن رسالته التي وجهها إلى شعب منجور بأن الحكومة الأفغانية والأمريكيين كانوا ضعفاء، وغير فاعلين، وعاجزين عن المساس به، كانت كذبة. وفي هدوء نسبي بعد تنفيذ المهمة، استطاعت الحكومة المحلية إحراز بعض التقدم، وتمكنت مفرزة العمليات ألفا من إضعاف التمرد أكثر.

بعد المهمة مباشرةً، بدأت مفرزة العمليات ألفا حملة نشر الشائعات بأن المساعد الذي لم نتمكن منه في تلك الليلة هو الشخص الذي أبلغنا أن حسماني كان موجوداً في منجور. وسافر أحد نواب حسماني الآخرين إلى منجور عائداً من باكستان بعد ثلاثة أسابيع، وقَتَلَ المساعد، ما تسبب في حرب فصائل داخل الجماعة المتمردة. وأصبح الاقتتال الداخلي أشد ضراوة، بحيث إن مجموعة حسماني انحلّت لفترة من الوقت. وللاستفادة

من الفراغ، قام الحاكم عثماني بطرد قائد شـرطة منجور ورافق بديله إلى اجتماع شورى كبير مع شـيوخ قبيلة أندار من المنطقة. وهـذه هـي المـرة الأولى التـي يتجـرّأ فيهـا مسـؤول في الحكومة الأفغانية على الذهاب إلى منجور منذ ثمانية عشـر شهراً على الأقل.

ولكن للأسف، كما كنت قد رأيت مرات كثيرة في السنوات السابقة، كنـا نفتقـر إلى الموارد والإرادة لتحقيق الاستفادة الكاملة من هذا الوضع. ورفض لواء الجيش البولنـدي الذي تولّى المسؤولية الأمنية عن غزني إرسال قوات بشكل دائم إلى منجور لتثبيـت وجـود هناك ومنع عودة نفـوذ المتمـردين. كانـت القواعـد غـير الرسـمية لـدى البولنـديين مـن حكومتهم فيما يخص العمليات في أفغانسـتان تقتصـــر أساسـاً عـلى قيـامهم بـدوريات في الطريق الدائري، وهو الطريق السـريع الوحيد الذي يجتاز الولاية.

ادعى لواء الجيش الوطني الأفغـاني الموجـود عـلى بعـد كيلـومترات معـدودة، أنـه منشغل بشكل تام في مناطق أخرى، إلا أننا كنا أذكى من أن نصدّقهم، ولكن لم تكن لـدينا أي صلاحية لتوجيه الأوامر إلى الأفغان كي يضعوا قوات في القرية.

وبوجود عشـرة عناصـر فقط، كانت مفـرزة العمليـات ألفـا-21 تفتقـر إلى القـوة البشـرية لترك قاعدتها الحالية والانتقال إلى قاعدة جديدة في أندار. كانت طالبان قد تفشّت في ولاية غزني، بحيث إن الفريق قد قضـى المزيد من وقتـه وهـو يقـوم بعمليـات جزئيـة وذات تأثير طفيف أو مؤقت ضد الأعداد المتزايدة من خلايا المتمردين التـي تسـتولي عـلى المديريات المحيطة بعاصمة الولاية، مدينة غزني. وكان ذلك كل ما أمكنهم القيام به لمواكبة المعلومات الاستخباراتية الواردة من شبكة المخبرين، والاستمرار في صد محـاولات قيـادة المتمردين تجنيد المزيد في صفوفهم وزيادة عددهم. وفي نهاية المطاف، قـام أحـد مسـاعدي حسماني المنافسـين بتعزيز النفوذ وأعلن عودته إلى المنطقة عن طريق جرّ رجُل كان يعمل في قاعدة التحالف من منزله بالقرب من منجـور، وأقـام لـه محاكمـة، وأعدمـه أمـام القريـة بأكملها. وعادت طالبان إلى تولي المسؤولية من جديد.

في النهاية، كان لعجز قوات التحالف وقوات الأمن الأفغانية عن حماية شعب منجور أثر في الطرف الذي كانوا يقفون إلى جانبه في الحرب أكبر بكثير من التسبب بموت شخص مدني عرضياً. فقد أثّر الحادث عاطفياً وبعمق في جميع أفراد الفريق، ولكن هذه التجربة والتجارب الأخرى المماثلة أثبتت لنا أن أفضل طريقة للتقدم إلى الأمام في مكافحة التمرد كانت إيجاد وسيلة للسماح لأهل القرى - كقرية منجور - بحماية أنفسهم.

وبعد فترة وجيزة من موت براين، زرت الفريق للاطمئنان على كيفية تعامل الرجال مع فقدان أحد قادتهم وشخصياتهم الرئيسيين. واكتشفت أن براين على ما يبدو كانت له هواجس مميزة تنذر بوفاته. وكانت هذه الهواجس واضحة جداً إلى درجة أنه كان أجرى محادثات عدة طويلة مع أحد أصدقائه المقربين، قبل انتقاله إلى موقع خدمته بفترة وجيزة. كما كتب رسائل عدة مطولة لزوجته يناقش فيها حياتها بعد وفاته.

قال جرانت وهو يهز رأسه: "حتى إنه ذهب إلى حد كتابة الرسائل إلى زملائه وقاسمهم أغلى ممتلكاته الشخصية".

لقد ذُهلت. كان لدى الكثير من الأشخاص شعور سيئ بأن شيئاً ما سيحدث لهم، ولم يحدث شيء. ولكن هذا رجل مقتنع جداً بأنه كان سيموت خلال هذه الفترة من فترات الخدمة، بعد العديد من فترات الخدمة السابقة في العراق وأفغانستان، إلى درجة أنه بذل جهوداً استثنائية في التحضير لذلك. وبدلاً من محاولة تجنب مصيره، فقد قابل الأمر وجهاً لوجه. كان يتطوع دائماً لكل مهمة، مهما كانت خطيرة. وعندما وجد نفسه فجأة في أحد أسوأ الكمائن في حياته، لم يبقَ جالساً في سيارته المدرعة، ولم يرسل الأفغان إلى الخطوط الأمامية، ولم يبقَ في الخطوط الخلفية باعتباره المسعف الطبي تحسباً لإصابة أي شخص، على الرغم من أن كل تلك الأفعال كان يمكن أن تكون مقبولةً. وعلى الرغم من إيمان براين بأنه لن يتمكن من العودة، فقد اندفع مهاجماً العدو وجهاً لوجه. لقد كان ذلك دليلاً واضحاً عليه كجندي وكرجل.

وبعد تسعة أشهر، في يوم الذكرى عام 2010، في مقر قيادة العمليات الخاصة للجيش في فورت براغ، في كارولينا الشمالية، جلست ضمن حشد من الناس بينما تُلي اسم براين بصوت عالٍ في أثناء تخصيص مكان له على الجدار التذكاري. وعندما نظرت إلى ابنتيه الصغيرتين الجميلتين، حدّقت الفتاة الكبرى فيّ بغضب كما لو أنها تقول لي "أنت أخذت أبي". كنت أفضل لو أنني تلقيت رصاصة على أن أتلقى تلك النظرة. لم أستطع أن أتمالك نفسي عن التحديق بهما والإحساس بشعور عارم بالذنب لأن ابنتي ما يزال والدها معها.

بالفعل، لقد كان المدنيون، على أرض المعركة وفي الوطن، هم الذين عانوا في هذه الحروب. شكرَنا الجميع على تضحياتنا وأغدقوا علينا الامتنان لدى عودتنا. ولكننا كنا جميعاً متطوعين وكنا وراء البحار نقوم بما تدربنا على القيام به طوال حياتنا، وما آمنا به. لقد حمل أفراد عائلاتنا الأعباء الحقيقية للحرب على الإرهاب. ولم يكن أمامهم أي خيار سوى الانتظار والقلق، ومن ثم التعايش مع عواقب الخدمة التي نؤديها. إنهم هم الذين يستحقون الامتنان الذي تبديه أمتنا، وليس نحن. كما أنني فكرت في ابنة حساني، التي عانت بسبب قراره دعم حركة طالبان. سوف يعاني أفراد عائلتها من عواقب قراره طوال بقية حياتهم.

عندما جلست في فورت براغ في ذلك اليوم، بدا لي أن ثقل كل السنوات التي أمضيتها في أفغانستان وفي الحرب، في الميدان وفي واشنطن، يرهقني كما لم يفعل مطلقاً من قبل.

الفصل الأول

حالة الحرب .. مكتب وزير الدفاع

وقفتُ مصدوماً في غرفة الجلوس في منزلي بينما اصطدمت الطائرة الثانية بالبرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من سبتمبر لعام 2001. كنت قد أنهيت للتوّ مكالمة هاتفية مع صديق من أيام الطفولة يعمل هناك، ولكن بفضل الله كان خارج المبنى لوجبة إفطار في ذلك اليوم. كنا قد اتفقنا في الرأي على أنه لا يمكن أن تكون الضربة الأولى حادثاً. وكملايين الأشخاص حول العالم، دفعت تلك اللحظة حياتي في مسار مختلف تماماً. وفي حالتي، كان ذلك نحو العاصمة واشنطن وأفغانستان.

وبعد عام، وجدت نفسي في الجيش الذي كنت قد تركته قبل 11 سبتمبر كجزء من سرية برافو، بالكتيبة الثانية، من المجموعة الـ 20 من القوات الخاصة (المحمولة جواً)، إحدى مجموعتي القوات الخاصة للجيش التابعة للحرس الوطني. تمت التعبئة للوحدة في بداية عام 2003 لأجل "عملية الحرية الدائمة" في أفغانستان، وتوجهت مجموعة صغيرة منا إلى فورت براغ، في ولاية كارولينا الشمالية؛ حيث أكملنا التدريب المطلوب لنباشر خدمتنا ضمن وحدات ذوي القبعات الخضر (القوات الخاصة التابعة للجيش الأمريكي).

وقد قامت وحدتي من مقرّها في أوزبكستان، بتنفيذ عمليات في مناطق أفغانستان كلها، من هرات غرباً إلى قندهار جنوباً. وعلى الرغم من النجاحات العسكرية المبكرة في الأشهر التي تلت 11 سبتمبر، فإنها شهدت علامات مبكرة لحركة تمرد من طالبان. كانت أفغانستان تخطو خطوات تاريخية في الساحة السياسية، بما في ذلك إنشاء حكومة مؤقتة كانت تتجه نحو انتخابات رئاسية وأول دستور للبلاد. ومع ذلك فإن تزايد الهجمات عبر الحدود الباكستانية، بما في ذلك عمليات الاغتيال التي استهدفت المسؤولين الموالين

للحكومة والشيوخ ورجال الدين، والفراغ الأمني الناشئ من عدم وجود الجيش الأفغاني، جعل تلك النجاحات المبكرة هشة للغاية.

ومما زاد الوضع سوءاً، أن زراعة الأفيون وتجارة المخدرات كانتا تزدهران في أفغانستان، لتغرقا الاقتصاد الناشئ بالملايين من الأموال غير المشروعة، وتتركا آثاراً مفسدة في الحكومة الجديدة. ومع ذلك كانت وزارة الدفاع تقاوم التعامل مع المخدرات باعتبارها قضية عسكرية، مشيرة بدلاً من ذلك إلى وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) للتعامل مع المسألة. ورداً على ذلك، سجّل بعض الأعضاء المؤثرين في الكونجرس 70 مليون دولار في ميزانية البنتاجون لمحاربة المخدرات لإجبار وزارة الدفاع الأمريكية على وضع برامج في أفغانستان لمحاربة تجارة الأفيون.

بعد أسابيع التقيت نائبة مساعد وزير الدفاع لشؤون مكافحة المخدرات الجديدة، ماري بيث لونغ. وتم التعارف من خلال من سبقها في المنصب، أندريه هوليس. وبعد تسريحي وعودتي مدنياً مرة أخرى في عام 2004، كنت أبحث عن وسيلة لمواصلة المشاركة في خلق مستقبل أفضل لأفغانستان، ومن ثم، مستقبل أكثر أمناً بالنسبة إلى الولايات المتحدة. نظر إليّ أندريه، وهو محامٍ قويّ ومفعم بالحيوية فرّغ نفسه للخدمة العامة، على مائدة العشاء في إحدى الليالي، وقال: "مايك، إنها [ماري بيث] بحاجة إلى شخص يمكن أن يمثّل وزارة الدفاع في اجتماعات البيت الأبيض، وفي اليوم اللاحق يذهب إلى جبال أفغانستان للإشراف على البرامج التي يموّلها المكتب؛ حدسي يقول لي إنك أنت هذا الرجل النادر الذي يمكنه القيام بكلا الأمرين".

ابتسمت ماري بيث عند جلوسها وهي تنظر إلى سيرتي الذاتية، وقالت: "حسناً، على الأقل يمكنك تهجئة أفغانستان بشكل صحيح! معظم من في هذا المبنى يمكنهم تهجئة العراق فقط حالياً، وأنا قلقة من أننا بدأنا نفقد التركيز على ما هو مهم". كان مكتبها جزءاً من مكتب وزير الدفاع لشؤون السياسة، ويطلق عليه عادةً OSD-Policy. وهو بشكل أساسي عبارة عن موظفي وزير الدفاع المدنيين الذين ينصحونه حول صياغة الخطط

والسياسات الاستراتيجية والموارد اللازمة لتنفيذها. كانوا يعملون عن كثب مع زملائهم العسكريين في هيئة الأركان المشتركة لإدارة وزارة الدفاع. وكان المسؤول عن إدارة مكتب وزير دفاع – لشؤون السياسة وكيلاً للوزارة، وكان لديه مساعدون ونواب مساعدون يقسِّمون العالم فيما بينهم ويقدمون تقاريرهم. وكان مكتب مكافحة المخدرات تابعاً لمساعد وزير الدفاع لشؤون العمليات الخاصة والصراع المنخفض الحدة. وكانت ماري بيث بصفتها نائب مساعد الوزير، مسؤولة عن دعم وزارة الدفاع لجهود مكافحة المخدرات المحلية والعالمية. وكان الكونجرس قد خصص المال للتوّ لإجبار الوزارة على إيلاء ازدهار تجارة الأفيون في أفغانستان، الاهتمام. وللقيام بذلك، كانت بحاجة إلى شخصٍ ما على الفور.

وأضافت "لديّ 70 مليون دولار لأصرفها بحلول نهاية سبتمبر، أو سأخضع لمراقبة لصيقة من الكونجرس. ستكون مشرفاً على برامج لدعم وزارة الخارجية وإدارة مكافحة المخدرات. نأمل أن نكون في نهاية المطاف قادرين على إقناع القيادة المركزية والناس في هذا المبنى أن يمنحوا قواتنا السلطة التي يحتاجون إليها لملاحقة زعماء عصابات المخدرات ومختبراتهم. لا يتفق معنا مجتمع الاستخبارات بعد، ولكننا في هذا المكتب مقتنعون بأن أموال المخدرات تهدّد بتقويض حكومة كرزاي ويمكنها تمويل عودة طالبان. لكن دعني أكن واضحة، أنت لن تعمل في الميدان، فهذه ليست وظيفة هجوم وملاحقة. إن هذا مكتب سياسة عامّة، لكنها مهمة فريدة من نوعها تتمثّل بأن لدينا القدرة على وضع برامج مباشرة لتنفيذ سياساتنا. ما نحتاج إليه حقاً هو شخص يمكن أن يقود العمل بين الوكالات المختلفة هنا في واشنطن بين وزارة الخارجية، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، ومجلس الأمن القومي، والجيش، في هذا المبنى".

وبشكل غير متوقع تحول الاجتماع إلى مقابلة؛ وعلى مدى الساعة اللاحقة شرحت لها ولنائبها أنني أعتقد أن الجيش أصبح يركّز بشكل مفرط على الغارات المباشرة، وأن مجتمع القوات الخاصة على وجه الخصوص بحاجة إلى العودة إلى عمله الأصلي كما كان

أفراده في السابق بالعمل مع الأفغان ومن خلالهم. أخبرتهم أنني كنت على يقين من أننا يمكن أن نفوز في أفغانستان إذا تعاملنا مع الأمر كما كنا في كولومبيا؛ حيث تم استخدام مجموعات القوات الخاصة لتقديم المشورة وتدريب الجيش الكولومبي وتجهيزه. "لن يكون لدينا ما يكفي من القوات في أفغانستان لحماية كل قرية، ونحن لن نكون قادرين على مطاردة المتمردين إلى الأبد. علينا أن نبدأ بمعالجة الأسباب الكامنة وراء عدم الاستقرار، مثل اقتصاد المخدرات المزدهر الذي سوف يقوّض كل ما نحاول القيام به هناك".

ابتسمَتْ قبل أن تسألني متى يمكنني أن أبدأ. وسرعان ما حذرتني من أن الحكومة الأمريكية كانت في خضم وضع استراتيجية لمكافحة تجارة المخدرات في أفغانستان وأن الكثيرين في البنتاجون اعتقدوا أنه ليس من شأن الجيش أن يشارك على الإطلاق. وأضافت قائلة: "إنهم يعتقدون أن مهمة مكافحة المخدرات هي إلهاء، وأنه بقدر ما ينبغي القيام بها، فهي عمل الوكالات المدنية. مشكلتنا هي أن الوكالات المدنية لدينا لا يمكن أن تعمل في مكان مثل أفغانستان في حالة حرب ذات مستوى منخفض. ولذلك، ومع أخذ ذلك في الاعتبار، سيكون لديك دور رئيسي في المساعدة في وضع اللمسات الأخيرة على استراتيجية أعمّ مشتركة بين الوكالات. لم يمضِ على وجودي هنا سوى بضعة أشهر، ومن ثم فإن علينا جميعاً أن نفهم الأمر معاً. هل يبدو هذا مناسباً؟"، أجبتها، "بالتأكيد" وكانت تلك بداية مسيرتي في جهاز السياسة بواشنطن.

في خريف عام 2004 واصلت أفغانستان النجاحات السياسية. أصبح حامد كرزاي أول رئيس منتخب بحرية لجمهورية أفغانستان الإسلامية، مشكلاً لحظة فارقة في تاريخ أفغانستان. وفي وقت سابق من العام نفسه كان المجلس التقليدي الكبير (اللويا جيرغا) قد أقرّ رسمياً أول دستور لأفغانستان. وفي عام 2005 شكلت الديمقراطية الوليدة برلماناً من مجلسين، وكعلامة ملموسة على المصالحة مع نظام طالبان، انتخب وزراء عدة من حكومة طالبان سابقاً إلى المجلسين. وحضر كل من نائب الرئيس ديك تشيني والملكِ السابق ظاهر شاه الجلسة الافتتاحية التي ترأسها الرئيس كرزاي.

وقال كرزاي في خطابه أمام 351 من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ، وأعضاء مجلس الوزراء، والضيوف: "إن هذا التجمع هو علامة على استعادة شرفنا، لقد نهضت أفغانستان العزيزة مرة أخرى من الرماد" وتوقف ليتمكن من السيطرة على مشاعره.[1] بعد نحو جيل من الاحتلال السوفيتي المدمّر، وحرب أهلية وحشية، ونظام طالبان القمعي، بدا كأن هناك فجراً جديداً للبلد البائس، حقاً.

اعتمدت الجهات المانحة الدولية والدول المهتمة بإعادة بناء أفغانستان استراتيجية لتكليف الشركاء الدوليين بأخذ زمام المبادرة في مختلف جوانب إعادة الإعمار. وقسّمت الاستراتيجية المعروفة باسم "الدولة القائدة" جهود إعادة الإعمار والتمويل إلى قطاعات ذات أولوية مختلفة. فأصبحت المملكة المتحدة الدولة القائدة لمكافحة المخدرات، وأخذت الولايات المتحدة زمام المبادرة لإعادة بناء الجيش الوطني الأفغاني؛ بينما تولّى الألمان زمام الأمور الخاصة بتدريب الشرطة الوطنية الأفغانية، وأما اليابانيون فتولوا نزع سلاح الميليشيات الموجودة، والإيطاليون قطاع العدل. وجد الكثير منّا التقسيمات الوطنية الفردية محيّرة، ووجد جميع العاملين في السياسة الأفغانية أن فكرة إيلاء القضاء الإيطالي المعروف بفساده مهمة إصلاح النظام القضائي في أفغانستان مثيرة للسخرية تماماً.

ومع ذلك، بدت الاستراتيجية نفسها سليمة؛ إذ إن الهدف كان توزيع عبء إعادة بناء هذا البلد المدمَّر والفقير، وتركيز المشاركين الرئيسيين في قطاعات معينة، وتعيين الأدوار القيادية ذات الأولوية لبلدان معيّنة. وبالإضافة إلى ذلك، انسجمت الاستراتيجية مع رغبة الولايات المتحدة بتقاسم العبء في أفغانستان وتجنب التورط بإعادة الإعمار على المدى الطويل. ولكن في واقع الأمر، أصبحت الاستراتيجية كارثية، فلقد خصصت بعض الدول موارد كبيرة لهذا الجهد، في حين لم تخصص دول أخرى إلا القليل؛ فعلى سبيل المثال، وخلال عام 2004 كان هناك ما لا يزيد كثيراً على عشرة أشخاص من الألمان يعملون لتدريب الشرطة الأفغانية بأكملها، وواجه الإيطاليون صعوبة في وضع وتوزيع القضاة والموظفين لأكثر من سنة. كما أظهر هذا النهج جهوداً مستقلة غير منسقة، وفضلاً

عن كونها لا تدعم بعضها بعضاً، كانت في بعض الأحيان متضاربة. ثبت أنه من المستحيل تقريباً إحراز تقدّم في إصلاح الشرطة بينما الجهود الإيطالية متخلفة ولم يكن النظام القضائي موجوداً بعد. وبالمقابل، فإن نجاح الجهود البريطانية لاعتقال ومعاقبة مهربي المخدرات نيابة عن الحكومة الأفغانية الجديدة يعتمد على القدرات الواهنة وغير الفعالة للشرطة والقضاء.

وفي غياب وجود كيان واحد لتحمّل المسؤولية وتخصيص الموارد وتنسيق الجهود، كان التقدم بطيئاً ومتقطعاً. وبالإضافة إلى ذلك، ففي الوقت الذي أدركت فيه الولايات المتحدة أن بعض القطاعات كانت متخلّفة، كان من الصعب جداً فرض القيادة من جديد بسبب الحساسيات السياسية لدى حلفائنا. وبينما تعثّرت جهود "الدولة القائدة"، تنامى شعور الشعب الأفغاني بالإحباط، وقام أمراء الحرب بملء الفراغ. وقد رأيتُ آثار هذه الخيبة مباشرة في أثناء عمليات الانتشار التي جاءت فيما بعد؛ حيث ازداد شعور الشعب الأفغاني بخيبة الأمل نظراً إلى انعدام الخدمات الأساسية المقدمة من قبل التحالف والحكومة الأفغانية.

قاد كل من الفريق ديفيد بارنو، في أثناء قيادته لقوة المهام المشتركة 180، والسفير زلماي خليل زاده الجهود على أرض الواقع في خريف عام 2004. وفي وقت مبكر، حاولا تحريك جهاز الأمن القومي في واشنطن ببطء بعيداً عن نهج "البصمة الخفيفة" التي هيمنت على سياستنا منذ سقوط نظام طالبان في ديسمبر عام 2001. كان أحد أكبر الدعاة لهذه الاستراتيجية هو الجنرال تومي فرانكس، قائد القيادة المركزية الأمريكية المسؤول عن أفغانستان والشرق الأوسط بأكمله. فقد قال إنه في عصر ما بعد طالبان "كان على وجودنا أن يكون محدوداً لأسباب عسكرية وجيوسياسية؛ كان تصوري أن يكون حجم القوة ما مجموعه 10,000 من القوات الأمريكية، من الجنود والطيارين والعمليات الخاصة، وطواقم الحوامات، جنباً إلى جنب مع دعم جوي قوي داخل البلد".[2] كما دعا الجنرال دان ماكنيل، سلف بارنو بصفته قائد القوات الأمريكية في أفغانستان، إلى "البصمة الخفيفة"

وذهب أبعد من ذلك ليشير علناً بأن القوات الأمريكية يمكن أن تكون خارج أفغانستان تماماً بحلول صيف عام 2004.[3] كان التفكير السائد في الجيش ووزارة الدفاع الأمريكية أنه ينبغي للولايات المتحدة تجنّب أخطاء السوفييت الذين أرسلوا أعداداً كبيرة من الجنود التقليديين إلى بعض أقسى المناطق على الأرض، في محاولة لاحتلال كل مدينة وقرية. لطالما اعتقدتُ أن هذا المنطق على خطأ. فلقد كانت القضية الأساسية في الاحتلال السوفيتي محاولته القيام بتغيير جذريّ لثقافة أفغانستان وإخلاء مساحات من الريف من سكانها بالتفجيرات والألغام الأرضية. لم نكن نحن السوفييت، ولم تكن أعداد أكبر من الجنود الأمريكيين لتوفير الحماية لبرامج التنمية ستواجه ذلك النوع من المقاومة.

ومع ذلك، كانت مهمة الوجود العسكري الصغير نسبياً للولايات المتحدة هي مكافحة الإرهاب، وتتركز على تعقب فلول نظام طالبان الذين كانوا ما يزالون مختبئين في أفغانستان وقتل أو أسر القيادة العليا لتنظيم القاعدة. وكانت المهمة الثانوية هي إعادة بناء الجيش الوطني الأفغاني ودعم الجهود المدنية لتقديم المساعدات الإنسانية الأساسية للشعب الأفغاني. ولدى وصولنا إلى أوزبكستان في أوائل عام 2003 للتحضير للمهمات في أفغانستان، تلقت وحدتنا للقوات الخاصة إحاطة تمنع بوضوح استخدام مصطلح "مكافحة التمرد". لا يمكن إطلاق مسمى متمردين على الإرهابيين الذين بقوا في البلاد، أو أمراء الحرب الذين ما يزالون يمثّلون تهديداً أمنياً، وغيرهم من خصوم الحكومة.[4] جاء هذا الرأي من كبار قادتنا في وزارة الدفاع الأمريكية. وكان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ووكيل الوزارة لشؤون السياسة دوغلاس فيث، وكثير غيرهما مهتمين بمواصلة عمليات مكافحة الإرهاب في أفغانستان فقط لملاحقة من تبقى من قيادة القاعدة وطالبان. لم يكونوا مؤمنين بأن على وزارة الدفاع أن تكون مسؤولة عن بناء الدولة أو إعادة الإعمار، أو جهود التنمية.

وبحلول خريف عام 2004 كان عدد القوات الأمريكية نحو عشرين ألفاً.[5] وكان حجم القوة باهتاً مقارنة بالـ 130,000 جندي في العراق في ذلك الوقت، لكن كان الهدف

من القوة توفير الأمن الكافي للسماح بالمكاسب السياسية من صياغة الدستور الأفغاني والانتخابات الرئاسية والبرلمانية. وبالإضافة إلى ذلك كان ينظر إليها على أنها قوة كبيرة كافية لتخويف بعض أمراء الحرب السيئي السمعة، مثل إسماعيل خان في مدينة هرات بغرب البلاد، والرجل الأوزبكي القوي عبدالرشيد دوستم في الشمال، وباشا خان زدران في الشرق. وكان أمراء الحرب هؤلاء موضوعاً لجهد تكميلي سياسي معروف باسم "استراتيجية أمراء الحرب"، بقيادة الدولة، لإقناعهم بالتخلي عن أسلحتهم الثقيلة وأن ينضووا بسلام تحت جناح الحكومة الجديدة.

ولكن مع الأسف، وعلى الرغم من هذه النجاحات المبكرة، فإن التداعيات السلبية لنهج "البصمة الخفيفة" بدأت بالظهور إلى السطح. كان العيب الأساسي في الاستراتيجية يكمن في عدم إدراكها إلى أي حدّ وصلت مؤسسات الدولة الأفغانية المدمرة بعد ثلاثين عاماً من الحرب، تاركة قدراً ضئيلاً لحماية الشعب الأفغاني أو توفير الخدمات الأساسية له. في بيئة ما بعد الصراع، من الضروري توفير مستوى أساسي من الأمن للمجتمع حتى يبدأ العمل من جديد. وكانت "البصمة الخفيفة" غير كافية لهذه المهمة. وكان السبب وراء الاستراتيجية مفهوماً ويتمثل بالرغبة في تجنب رد فعل من الشعب الأفغاني مماثل لذلك الذي واجهه السوفييت. وكما لم أدرك إلا في وقت لاحق وبعد سنوات، وعندما حضرتُ العشرات من مجالس الشورى، فإن الشعب الأفغاني أراد عكس ذلك تماماً؛ لقد أرادونا أن نشارك بشكل كبير في تحسين مستقبلهم. وفي البداية ومع كون الأمر يعني تدخلاً من قبل القوة العظمى الوحيدة في العالم وعشرات من الدول الأخرى، كان لدى الأفغان توقعات عالية جداً للتحسينات التي سوف يرونها في حياتهم. وإلى جانب إخفاقات استراتيجية "الدولة القائدة"، جعلت "البصمة الخفيفة" كثيراً من الأفغان يشعرون بخيبة الأمل وبأنهم عرضة للترهيب والاستغلال. وببطء ولكن بثبات، بدأ الأفراد والقبائل، وخاصة أولئك الذين كانوا مهمشين وشعروا بالاستبعاد من هذه البيئة الجديدة، بالتحول نحو التمرد؛ إما بسبب ضغوط من المتمردين وإما بمحض اختيارهم.

وبينما أعادت حركة طالبان والجماعات المتمردة التابعة لها، كشبكة حقاني والحزب الإسلامي بزعامة قلب الدين حكمتيار، تنظيم صفوفها في ملاذات في باكستان، بدأت بالتسرب ببطء إلى الفراغ الأمني. ومن قواعدها في المناطق القبلية في باكستان، نظمت قواتها مع القبائل الأفغانية المُبعدة والمحرومة، وهددت الأفراد الذين دعموا حكومة كرزاي، وأوقفت جهود التنمية كلما وحيثما استطاعت. وانضم تجار المخدرات والعصابات الإجرامية، والمسؤولون المحليون وميليشياتهم إلى المتمردين مستغلّين عدم وجود جيش أفغاني مؤهل أو شرطة مدرّبة. وبحلول صيف عام 2005 كانت تقريباً كل ولاية في الجنوب والشرق قد عانت زيادة مقلقة في استخدام العبوات الناسفة التي تستهدف قوات الأمن الأفغانية وقوات التحالف. وشهد ذلك الصيف أيضاً ارتفاعاً في استخدام الانتحاريين في أفغانستان، وهو الأمر الذي كان أكثر انتشاراً في العراق والأراضي الفلسطينية، وكان غير معروف نسبياً في الثقافة الأفغانية.[6]

وبرؤية هذه الدينامية تتكشّف بهذا الشكل، وبفضل المفكرين الرئيسيين في واشنطن أمثال مارين شتريمكي وقلقه المتزايد في مكتب وزير الدفاع، كان خليل زاده وبارنو قد شرعا في الجهود بدءاً من عام 2003 للابتعاد عن نهج "البصمة الخفيفة" والبدء في بناء القدرات الأفغانية. كان شتريمكي قارئاً متميّزاً؛ تخرّج في كلية الحقوق بجامعة ييل، وحصل على درجة الدكتوراه في السياسة الأفغانية من جامعة جورج تاون، وقام بصياغة ورقة بيضاء وسلسلة من الإحاطات التي أسست إطاراً لتسريع المساعدات الأمريكية إلى أفغانستان. وأصبح تسارع تدريب قوات الأمن الوطنية الأفغانية أمراً رئيسياً في الإطار الجديد. وتناولت الإحاطات، التي وافقت عليها لجنة المديرين على مستوى مجلس الوزراء والرئيس في منتصف عام 2003، موضوع نزع سلاح أمراء الحرب وبناء البنية التحتية الأفغانية، وأيدت برامج لتحسين الحكم. وبينما كان خليل زاده ما يزال في البيت الأبيض، وقبل تسلمه منصب السفير، أرخى قبضة السياسات المضادة لإعادة الإعمار السائدة في إدارة بوش، من خلال المساعدة على تمرير سلسلة من الإجراءات التي تضاعف حجم المساعدات عن العام السابق. وكسفير، ركّز على العمل مع كرزاي لإزاحة – أو على الأقل

إبعاد - أكثر أمراء الحرب الأفغانية شهرة عن معاقلهم، أمثال: جول آغا شرزاي في قندهار وإسماعيل خان في هرات. كما دافع عن المشروعات التنموية الكبرى، مثل الطريق الدائري، كرمز للاستثمار الدولي في مستقبل أفغانستان. كان الطريق مهماً لأنه يدور حول أفغانستان ويمرّ عبر المدن الأفغانية الرئيسية الأربع في كل منطقة من المناطق الجغرافية الأربع؛ وبذلك، أسهم في ربط جميع المجموعات العرقية المختلفة في أفغانستان.

وفي الوقت نفسه، بدأ الفريق بارنو ببطء تحويل القوات الأمريكية وحلف شمال الأطلسي (إيساف) بعيداً عن مهمة مكافحة الإرهاب بشكل بحت نحو عمليات مكافحة التمرد؛ إذ قام بتنظيم مقرَّيْن للواء في الجنوب والشرق، وبدأ بإنشاء فرق إعادة إعمار الولايات، مركِّزاً على تقديم مساعدات التنمية على المستوى المحلي في الجنوب والشرق المضطربين. وأعطى بارنو الوحدات مسؤولية حماية مناطق جغرافية محددة وسكانها كجزء من مهمتها. كما بدأ العمل المهم بالإسراع في تدريب الجيش الوطني الأفغاني وتجهيزه.

وعلى الرغم من أن خليل زاده وبارنو كانا قد شرعا بوضع اللبنات الأساسية التنظيمية لحملة طويلة الأمد لمكافحة التمرد وبناء الدولة، فإن الموارد ظلت محدودة؛ وبالنظر إليها الآن كانت قطرة في بحر، مقارنة بما كان هناك من حاجة إليه حقاً. لقد فقدنا وقتاً حرجاً عندما كان لحكومة كرزاي زخم، وكانت حركة طالبان في تراجع، وكان الشعب الأفغاني داعماً. وبالنظر إلى ذلك الوقت، من المحبط التفكير في أن زيادة قليلة في الاستثمار كان يمكن أن تحفظ الكثير من الدماء والسنوات الغالية في وقت لاحق.

كان دوري في هذه الأيام الأولى المشاركة في وضع اللمسات الأخيرة على استراتيجية مكافحة المخدرات لحكومة الولايات المتحدة لأفغانستان، والمساعدة في الوقوف على عدد من برامج وزارة الدفاع الأمريكية لدعم شركائنا المدنيين والأفغان. ومن دعم فرق الرصد التابعة لإدارة مكافحة المخدرات وتدريب شرطة مكافحة المخدرات الأفغانية، إلى السعي للحصول على دعم الكونجرس لبناء أسطول حوامات

لوزارة الداخلية الأفغانية، أصبح مكتب مكافحة المخدرات أحد أماكن السياسة العامة العاملة في واشنطن الأكثر إثارة للاهتمام. وكان المكتب يُشرف على حساب يقارب مليار دولار ويمكن أن يوفر التدريب والمعدات لأي جهة أجنبية تقريباً لها دور في مكافحة الاتجار غير المشروع، ومنها: شرطة الحدود، والكيانات شبه العسكرية، والاستخبارات العسكرية، وغيرها.

وعلى الرغم من أن مهمة المكتب كانت تتمثل بمكافحة المخدرات غير المشروعة، فقد تبنى أندريه هوليس ثم ماري بيث لونغ نهجاً أكثر استراتيجية بتركيز الموارد على مواجهة أي نوع من الاتجار غير المشروع والذي يمكن أن يدعم الإرهابيين وحركات التمرد ذات الصلة بالحرب العالمية على الإرهاب. وقد سعينا إلى جعل الآخرين في وزارة الدفاع الأمريكية يفهمون أن أي طريق غير مشروع يديره مجرمون يمكن أن يسمح بوقوع كل ما يمكن أن يضر بمصالح الولايات المتحدة؛ فالطريق الذي ينقل المخدرات يمكنه بسهولة أن يحرّك الأسلحة والمتفجرات والإرهابيين والمال، وحتى أسلحة الدمار الشامل. سمحت لنا هذه النظرة الشاملة بتوسيع مهمتنا بهدوء وتقديم المساعدة والمعدات لقوات الأمن الأجنبية بأي شكل كان؛ من مراكز المعلومات الاستخباراتية إلى نظارات الرؤية الليلية والحوامات. سمحت السلطة والمال لنا بإنجاز الكثير خلال عامي 2004 و2005، في حين أبقتنا خارج رادار كبار القادة الذين أرادوا من وزارة الدفاع القيام بأقل مما كانت تفعله في أفغانستان، فقط.

وكانت جهود عملياتنا جزءاً من استراتيجية أوسع نطاقاً ذات خمس ركائز لمكافحة الاتجار بالأفيون في أفغانستان، وهي التي كانت تهدف إلى أن تكون استراتيجية شاملة تعمل على مهاجمة سرطان تجارة المخدرات في أفغانستان الذي كان ينمو بسرعة كبيرة. وكانت الأركان الخمسة، هي: الدبلوماسية العامة، ومكافحة المخدرات، وإنفاذ القانون، وسبل العيش البديلة، والقضاء على زراعة الخشخاش.[7] جئتُ إلى الفريق العامل المشترك بينما كانت الاستراتيجية تتشكل؛ وفي نواحٍ كثيرة كانت استراتيجية جيدة تضرب في جوانب متعددة اقتصادات المخدرات. ومع ذلك، ولعدد من الأسباب، لم يتم تنفيذها

بشكل فعال قط. وكان السبب الرئيسي هو أن كل عنصر من عناصر الاستراتيجية كانت تقوده وكالة مختلفة في الحكومة الأمريكية، وكل منها يطبق جداول زمنية مختلفة، وله موارد متفاوتة لكل عنصر. وهكذا، قادت إدارة مكافحة المخدرات جهود المنع وإنفاذ القانون، ودعمت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية سبل العيش البديلة، أما ركائز الدبلوماسية العامة والقضاء فكانت تحت قيادة المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وشؤون تنفيذ القانون التابع لوزارة الخارجية. ونتيجة لذلك في كثير من الأحيان كانت هذه الركائز تنقصها الموارد وغير منسقة وتفتقر إلى التزامن المناسب. لقد قدم مكتبي الدعم لجميع الأركان نيابة عن وزارة الدفاع، لأننا كنا الأكثر قدرة على تحريك الأشخاص واللوازم في مكان مثل أفغانستان.

قد تكون استراتيجية الولايات المتحدة متكاملة من حيث المبدأ، ولكن من حيث التنفيذ سرعان ما أصبح التركيز على محور واحد: القضاء على زراعة الخشخاش. أراد المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وشؤون تنفيذ القانون التابع لوزارة الخارجية، بقيادة مساعد وزيرة الخارجية روبرت تشارلز، توظيف تكتيكات كانت قد شهدت تفعيلاً محدوداً في كولومبيا. وكان تشارلز مصمماً بشكل خاص على استخدام طائرات مشابهة لطائرات رش المحاصيل لنثر المواد الكيميائية على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية الأفغانية في محاولة للقضاء على مساحات كبيرة من زراعة الأفيون. عندما سمعتُ هذه الفكرة، تخيلت دورية عسكرية أمريكية تدخل قرية أفغانية بينما تحلق طائرات في سماء المنطقة، ترش قطرات المواد الكيميائية على السكان المحليين في أثناء عملهم في الحقول. كما تراءى لي تنظيم القاعدة وحركة طالبان يعرضان أشرطة فيديو تظهر أطفالاً مشوهين وآباراً تسممت نتيجة الرشّ.

خلال أحد أوائل لقاءاتي مع مجموعة العمليات المشتركة بين الوكالات لأفغانستان، جلست مذعوراً بينما تمت مناقشة الخطط التشغيلية لتنفيذ عمليات الرش الكيميائي. كان هذا خلال مجموعة عمل أسبوعية مع ممثلين من وزارة الدفاع الأمريكية، ووزارة الخارجية، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وأطراف أخرى من حكومتنا من الذين

تناولوا قضايا السياسة العامة قبل رفعها إلى كبار المسؤولين في كل وكالة للبت فيها في اجتماعات عالية المستوى معروفة باسم لجنتي النوّاب والمديرين. أطلع تشارلز أعضاء المجموعة على خطة وزارة الخارجية لنشر طائرات زراعية مدرّعة من كولومبيا لرش المحاصيل في أكثر الولايات إنتاجاً للأفيون في جنوب أفغانستان، وأن التحليق بالطائرات سيقوم به متعاقدون وسيكون التركيز في البداية على ولايتيْ هلمند وقندهار. بدأ الممثل العسكري من هيئة الأركان المشتركة باحترام ولكن بحزم بإمطار تشارلز وفريقه بتساؤلات حول خطتهم لإنقاذ الطيارين فيما لو تمّ إسقاطهم في أعماق المناطق التي تسيطر عليها طالبان، وطلب الحصول على تفاصيل حول آليات المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وشؤون تنفيذ القانون للتنسيق وضمان عدم تضارب طلعات الرش مع العمليات العسكرية مثل الدوريات البرية. أعطى تشارلز ضمانات قوية بأنه سيتمّ تنسيق العمليات مع العمليات العسكرية، ثم أشار كل من ممثلي إدارة مكافحة المخدرات والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إلى أنهم لا يمتلكون الموارد اللازمة لنشر فرق المنع أو برامج سبل العيش البديلة في المناطق التي سيتمّ فيها الرشّ، في قلب ولايتيْ هلمند وقندهار؛ حيث تزخر بالأفيون والمتمردين بشكل لافت للنظر. وشدّد كل من الضابط العسكري وممثل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية على أهمية وجود بدائل للمزارعين الذين ستدمر سبل عيشهم.

سألتُ عن خطة الاتصالات الاستراتيجية لإبلاغ السكان المحليين من خلال الشبكات الإعلامية، مثل: قناة الجزيرة والإذاعة الأفغانية المحلية لمواجهة حملة الدعاية الحتمية التي ستشنها طالبان، التي من شأنها أن تصاحب الرش. أشرتُ إلى أن الجهود سوف يساء فهمها، ومن المرجح جداً أن الناس سوف يتهمون الائتلاف بشنّ حرب كيميائية على الطريقة السوفيتية. سأل أحد الضباط النظاميين: كيف يمكننا أن نشرح للعالم أننا هناك لكسب القلوب والعقول في حين نقوم بمحو الوسيلة الوحيدة لكسب العيش للمزارعين؟

بعد أسئلة عدة، احمرّ وجه تشارلز وضرب يده بعنف على الطاولة، وقال: "هؤلاء المزارعون مجرمون، هذا هو الأمر؛ إنهم يخالفون القانون الأفغاني. نحن لسنا هناك لكسب

قلوب المجرمين وعقولهم، بل نحن هناك لإعادة الاستقرار وسيادة القانون في أفغانستان وعدم السماح لها بأن تصبح دولة مخدرات!" ثم غادر الغرفة.[8]

كانت فكرة الرش الجوي قد ازدادت تعقيداً باتفاق "الدولة القائدة" الذي جعل زمام المبادرة لمكافحة المخدرات في أفغانستان بيد المملكة المتحدة. كان للمملكة المتحدة استراتيجيتها الخاصة لمكافحة تجارة المخدرات وأرادت (ومن وجهة نظري كانت محقة) تأكيد اعتراض واعتقال كبار المهربين بدلاً من التركيز على المزارعين الذين تحاول جهودنا العسكرية كسبهم. لم يكن نظراؤنا البريطانيون من مناصري الإبادة، وبالتأكيد الإبادة الجوية. في الواقع، خلال أحد الاجتماعات الشهرية، عبر الفيديو، أكدوا صراحة أننا سنهدد الدعم الشعبي الأوروبي للمجهود الحربي إذا تابعنا موضوع الرش الكيميائي.

كان الأمر الذي يدعو إلى السخرية في النقاش الذي استمر فترة طويلة بين المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وشؤون تنفيذ القانون التابع لوزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، هو أن مكتب مكافحة المخدرات في وزارة الدفاع اتفق مع الخارجية حول آثار المخدرات المزعزعة للاستقرار والمدمرة لقدرة أفغانستان على تشكيل حكومة ناجحة. ومع ذلك، اختلفنا كثيراً معهم حول كيفية التعامل مع تجارة الأفيون، وكنا نميل إلى الاتفاق مع البريطانيين على أنه ينبغي تأكيد المنع. إن اعتقال بعض المهربين الأساسيين أو المسؤولين الحكوميين الفاسدين كان يمكن أن يرسل إشارة واضحة عن نمو قطاع العدالة الأفغاني، ورسالة قوية ضد الفساد، ولكان له أقل نسبة من الآثار السلبية في الأشخاص الذين أردناهم إلى جانبنا: المزارع الريفي الأفغاني.

أصبح واضحاً لنا في مكتب مكافحة المخدرات، أن أياً من الجنرال جون أبي زيد، الذي خلف الجنرال فرانكس في القيادة المركزية، أو وزير الدفاع رامسفيلد لم يكن لديهما أي نية للسماح بالرش الكيميائي الجوي بينما يقوم الجنود الأمريكيون بدوريات في الريف الأفغاني. والأهم من ذلك، كان هذا هو أيضاً موقف الرئيس كرزاي، الذي وضع في نهاية المطاف المسمار الأخير في نعش هذه الفكرة. ومع ذلك، وجدنا أنه من المؤسف، أنه لم تكن

هناك أي نية لدى قيادتنا في البنتاجون لتغيير قواعد الاشتباك للسماح لجنودنا باستهداف معامل المخدرات والمخابئ أو التجّار الرئيسيين. كان يُنظر إلى قضية مكافحة المخدرات بشكل عام ببساطة على أنها مهمة تمديد للحرب في أفغانستان، وجهد كان الكثيرون في الوزارة يبحثون عن تخفيضه، لا زيادته. وهكذا وبينما مرّ موسم القتال في صيف 2005، شعرنا كما لو كنا نخوض حرباً بيروقراطية على جبهتين في محاولة لوقف الخارجية من وضع سياسة كارثية للإبادة الجوية، بينما كنا نحاول أن نجعل الجيش يقوم باعتراض عملية الاتجار.

في غضون ذلك واصلنا بهدوء وضع برامج لدعم وجود إدارة مكافحة المخدرات المتنامي، وإرساء بعض الضوابط الأساسية على الحدود الأفغانية المفتوحة على مصراعيها. الأهم من ذلك، وفَّر المكتب الموارد لتدريب وتجهيز الشرطة الوطنية الأفغانية الناشئة بأجهزة اللاسلكي، والمروحيات، والمباني، والأسلحة في وقت كان يصل إليها فيه القليل نسبياً من البنتاجون ووزارة الخارجية.

لقد واجهتُ إخفاقات السياسة هذه مباشرة في المرة اللاحقة التي حُشدت فيها وحدتي للانتشار في جنوب أفغانستان، وخلال الاطلاع على الإحاطة حول قواعد الاشتباك، سألت محامياً من القيادة المركزية: لماذا لا يُسمح لنا باستهداف المجرمين إذا ما تمكنا من إثبات أن أنشطتهم كانت تدعم طالبان؟ فأجاب بانفعال، ومن الواضح أنه لم يعجبه أن يتمّ توجيه الأسئلة إليه من قبل قائد متواضع: "مكافحة المخدرات ليست شأناً يشارك فيه الجيش؛ إنها وظيفة المدنيين. خلاصة القول، نحن لا نتعامل مع المخدرات... نحن نكسر الأشياء وندمر أعداء أمتنا!"، فرددتُ عليه: "سيدي، نحن كذلك نحمي الأشياء، وبقدر ما نحمي أفغانستان من زعزعة الاستقرار، ينبغي أن نتولى أمر تجارة المخدرات لمنعها من تمويل عودة طالبان وإفساد الحكومة الجديدة تماماً، وإلا فإننا نخاطر بوجود كولومبيا أخرى مثلما كانت في منتصف التسعينيات". أعتقد أنه كان بياناً قصير النظر وخيالياً ويدلّ على قصر النظر لدى الكثير من الناس فيما يتعلق بدورهم في الجيش في هذا النوع الجديد من الحرب. وأشار ضابط المخابرات الذي كان يعطينا الإحاطات، إلى

عدم وجود أي دليل لديهم على الدعم المباشر لطالبان من عائدات المخدرات، وأن فكر طالبان المتزمّت لن يقبل أموال المخدرات على أي حال. أتذكر أنني كنت أفكر أن التقييم كان مثيراً للضحك تقريباً، وأظهر كم كان فهمنا قليلاً للأسباب الجذرية والدوافع القائمة وراء التمرد. خلال خدمتي في عام 2006 رأيت أدلة غير قابلة للجدل بأن التمرد استفاد بما يقدر بـ 600 مليون دولار من العائدات المحلية من المخدرات.[9] وشهدت حقيقة أن عملياتنا لاستئصال المخدرات لم تكن سيئة التنسيق فحسب، بل كان لها تأثير سلبي في محاولاتي لكسب الدعم المحلي. في نهاية المطاف ازدادت الأدلة على أن تجارة المخدرات كانت تدعم حركة طالبان إلى درجة لم يعد بالإمكان إنكارها، وسُمح لوحدات التحالف أخيراً باستهداف نشاط مختبرات المخدرات، ومخابئ الأفيون، والمتاجرين الذين لهم علاقات مع المتمردين. وبحلول ذلك الوقت، كان مدّ المخدرات والأموال المتدفقة إلى الجماعات الإجرامية والمسؤولين الفاسدين، وحركة طالبان، قد أحدث ضرراً.

كانت الاستراتيجية الطويلة الأجل للتعامل مع التحديات الأمنية في أفغانستان تتضمّن بناء قوات الأمن الوطنية الأفغانية الوليدة وتدريبها، وهي التي تتألف من الجيش والشرطة وجهاز المخابرات. وعلى الرغم من أن بناء هذه القوات كان هو سبيل مغادرتنا في نهاية المطاف، فإننا خصصنا عدداً قليلاً نسبياً من الموارد لهذا الجهد في تلك الأيام، ولاسيما بالنظر إلى ما تنطوي عليه هذه التحديات. ولم تكن الولايات المتحدة قد أعادت بناء جيش بأكمله وقوات شرطة من الصفر، ولاسيما في بلد مسلم ومحافظ ومحاصر، وما زال في حالة حرب. وما زاد الأمر تحدياً، هو محاولة بناء قوة مؤلفة من رجال كانوا أميين إلى حد كبير، تفرقهم انقسامات عرقية وقبلية، وقد دمرهم عقد من الحرب الأهلية.

لقد كانت إعادة بناء الجيش الوطني في أفغانستان مهمة شاقة؛ في الواقع "إعادة البناء" كلمة خاطئة لوصف هذه العملية لأنه لم يكن هناك شيء متبقٍّ لإعادة بنائه. ففي العقد بين تفكك الجيش الأفغاني المدعوم بالشيوعية في عام 1992 والحادي عشر من سبتمبر، كانت مرافق الجيش والمعدات والبنية التحتية قد دمرت أو تفككت ببطء. وكان لعملية نزع السلاح بدعم من المجتمع الدولي نجاح نسبي في مجال أسلحة ثقيلة مثل المدافع

المضادة للطائرات والدبابات لدى الميليشيات الإقليمية التي نشأت خلال التسعينيات وإعادتها إلى الجيش الوطني الأفغاني الجديد. ومع ذلك، فلقد كانت الوظائف الداخلية الحرجة للجيش، مثل: التجنيد، والخدمات اللوجستية، والتدريب، والصيانة، ومشتريات العتاد الجديد، غير موجودة، وكان لا بد من البدء من الصفر. وكان التحدي الأكبر يتمثل في عدم وجود أفغان مدربين، أو حتى يعرفون القراءة والكتابة، بحيث يمكن للولايات المتحدة أن تعمل معهم في محاولة لإنشاء هذه النظم الأساسية، بل إن مجرد التمكن من دفع رواتب الجنود الأفغان على أساس منتظم كان عقبة ضخمة، من شأنها أن تستغرق من الجيش الجديد والمستشارين الأمريكيين، سنوات لتنظيمها.

ولأسباب عدة كانت الشرطة هي الأكثر معاناة في هذه القضايا؛ فالعديد من ضباط الشرطة لا يستطيعون قراءة أسمائهم أو كتابتها، فضلاً عن استيعابهم لمفهوم سيادة القانون. في الواقع، بالنسبة إلى الكثيرين، كان يُنظر إلى العمل في الشرطة على أنه وسيلة لحماية العائلة وكسب بعض الدخل الإضافي من خلال الرسوم والرشاوى. وبالإضافة إلى ذلك، أثبتت محاولة تطوير وتنمية قوة منظّمة واستخدامها في العمليات القتالية المستمرة في الوقت نفسه، أنها مهمة صعبة بشكل خيالي. وبالنظر إلى الأمر لاحقاً، اتضح أن الكثيرين منا في الحكومة الأمريكية قد قللوا بشكل هائل من حجم هذه القضايا في عامي 2004 و2005.

كانت المشكلات صعبة بما فيه الكفاية، ولكن كنا كحكومة وداخل المجتمع الدولي سيئي التنظيم لنتمكن من التصدي لها. لقد فقدنا السنوات 2002 – 2005 بسبب منهج "الدولة القائدة"؛ لأن الألمان اعتمدوا طريقة منهجية بطيئة في تحسين نوعية الشرطة. وفي بلد مزقته الحرب لمدة ثلاثين عاماً ويسكنه مجتمع إقطاعي أغلبيته من الأميين، ركّز الألمان على النمط الأوروبي السلمي، ومنهج سيادة القانون. ونفذوا هذا البرنامج التدريبي الخماسي في أكاديمية التدريب في كابول، وهي التي لم يتخرج فيها سوى بضع مئات من الضباط في نهاية البرنامج. وفي حين ركز الألمان على الفصول الصغيرة والجودة، كانت الشرطة الأفغانية على حدود البلاد وفي الولايات الريفية النائية إما تتصرف

بشـراسة تجاه السكان، وإما تنقصها المعدات الكافية ويطغى عليها التمرّد المتزايد. إن عدم النجاح هذا، في أن تقف الشـرطة الأفغانية مرة أخرى على أقدامها من شأنه أن يثبـت أنـه أمر حاسم بالنسبة إلى متمردي طالبان في السنوات اللاحقة.

وخلال سلسلة من الاجتماعات عن طريق الفيـديو سـلط الفريـق بـارنو والسـفير خليل زاده الضوء لكل من رامسفيلد ووزير الخارجية كولن باول على نـدرة المـوارد التـي كـان الأوروبيـون يقـدمونها لبنـاء القـدرات الأفغانيـة. وبعـد أسـابيع قليلـة قـرّر بـاول ورامسفيلد، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايـس خـلال مأدبـة غـداء للمجموعـة الصغيرة المُجتمعة أن الولايات المتحدة سـوف تضـطلع بـدور أكـبر في تـدريب الشـرطة وقطاع العدالة، وأنه في إطار هذا الجهد، ستلعب وزارة الدفاع دوراً أكثر أهمية.

واعتُبِر القرار أنه قرار طال انتظاره من قبل الكثيرين منا العاملين على تلك القضايا، ولكن مرة أخرى لم تهتم حكومتنا بالتنظيم الصحيح لهذا الجهد. كانت المشكلة الأساسـية في كيفية تعاملنا مع قضـية الشـرطة الأفغانية، فضلاً عن الكثير من القضايا الأخرى التـي واجهتنا لاحقاً في محاولة القيام ببناء الأمة في العـراق وأفغانسـتان، هـي أن خبرتنـا كانـت موجودة في الوكالات المدنية لـدينا، مثـل: وزارة الخارجيـة والجـمارك وحـرس الحـدود، والقـانون؛ حيـث يمكـن للمـرء أن يجـد مـدربي الشـرطة وخـبراء الحـدود والجـمارك، والمحققين. ولكن للأسف، تفتقر هـذه الوكـالات وموظفوهـا المـدنيون إلى القـدرة عـلى العمل في منطقة قتال، ولم يرغب قادة هذه الوكالات في التخلي عن السـيطرة أو التمويـل لتلك المهام، حتى إنهم في كثير من الأحيـان انتهـى بهـم المطـاف بتعيـين المتعاقـدين لسـد الثغرات.

وعلى العكس من ذلك، كان للجيش القدرة عـلى تحريـك النـاس والأشـياء التـي تعمل في الأماكن الصعبة والمعاديـة، ولكنـه كـان يفتقـر إلى نـوع مـن الخـبرة المتخصصـة الموجودة لدى الوكالات الأخرى. لطالما وجدت وجهات نظر متباينـة داخـل البنتـاجون حول هذا الانقسام في تلك الأيام الأولى للتعامل مع الحروب في العراق وأفغانستان. كـان

هناك أولئك الذين اعتقدوا أن أخذ المهام الناعمة، مثل: مكافحة المخدرات وتدريب الشرطة يشتت جهود الجنود عن المهام العسكرية البحت، ويُخلي مسؤولية الوكالات المدنية. وكان هناك آخرون، وأنا من بينهم، ممن كانوا يعتقدون أن على الجيش أن يتعلم أن يفعل ما لا يستطيعه المدنيون.

خلال أحد الاجتماعات بين مكتب وزير الدفاع لشؤون السياسة، وزملاء في هيئة الأركان المشتركة حول كيفية تنفيذ القرار كي تضطلع وزارة الدفاع بدور أكبر في تدريب الشرطة، اشتكى عقيد قائلاً: "ليس لدينا ما يكفي من رجال الشرطة العسكرية ليتولوا إعادة بناء قوة شرطة وطنية، وضابط المشاة العادي في الفرقة المحمولة جواً 82 ليس لديه التدريب لذلك. هذا هو سبب وجود المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وشؤون تنفيذ القانون التابع لوزارة الخارجية؛ عليهم القيام بعملهم".

أجاب مقدّم جالس على طرف طاولة الاجتماعات كان قد عاد لتوّه من فترة خدمة في أفغانستان، "سيدي، حريّ بنا البدء في تجهيز جنودنا لهذه المهمة بسرعة، لأن الشرطة الأفغانية تصنع ضرراً أكثر مما تصنع نفعاً، وهم يحوّلون الشعب ضد الحكومة وضدنا، ونحن ليس لدينا أي خيار سوى تحويلهم مرة أخرى. يقوم المتعاقدون بالتدريب الأساسي للشرطة، ولكن بمجرد أن يغادر الأفغان مركز التدريب إلى مديرياتهم، ليس لدينا أدنى فكرة عما يجري معهم. علينا توفير مرشدين يكونون معهم في أثناء الوظيفة، كما نفعل مع الجيش الأفغاني".[10] (وفي وقت لاحق تذكرتُ هذا الحوار عندما رأيت أفراد الشرطة العسكرية الذين لهم خبرة كبيرة يوقعون مخالفات على تجاوز السرعة المقررة والزي غير اللائق في قاعدة باجرام الجوية بدلاً من استخدام خبراتهم الثمينة في تدريب الشرطة الأفغانية).

وغالباً ما كانت النتيجة مزيجاً غريباً من موظفي الحكومة المدنيين والمتعاقدين والأفراد العسكريين في الميدان، يحاولون إنجاز ما في وسعهم. كان عليهم التعامل مع مزيج معقد من السلطات وتسلسل القيادة بين المدنيين بوزارة الخارجية في واشنطن،

والسفارة في كابول، والشركات المتعاقدة معها، والمقرّ العسكري في أفغانستان المسؤول عن بناء وتدريب وتجهيز وتوجيه كل من الجيش والشرطة خلال المهام القتالية.

وعلى الرغم من الإحباط إزاء عدم إحراز تقدم في الشرطة والقضاء، والنمو المنذر بالخطر في تجارة المخدرات، ومستويات الترهيب المتزايدة من قبل طالبان، جاء التدهور السريع للحالة في العراق، ليطغى على جميع جوانب سياساتنا في أفغانستان ويؤثر فيها. كما أنه خلق قوة امتصاص هائلة؛ حيث تمّ سحب الموارد بعيداً عن أفغانستان. ومع ازدياد التمرد العراقي سوءاً، قرر صانعو السياسة العليا في الولايات المتحدة تسليم المزيد والمزيد من المسؤولية في أفغانستان إلى حلف شمال الأطلسي، ومن ثم تحرير القوات الأمريكية للذهاب إلى العراق. خلال سلسلة اجتماعات عن طريق الفيديو مع القيادة المركزية، والأركان المشتركة، والفريق بارنو، قال وزير الدفاع رامسفيلد إن الولايات المتحدة بحاجة إلى "تقليل كمية الأموال التي تنفق في أفغانستان، وعدد القوات المنتشرة هناك". وأضاف رامسفيلد أنه مع تصاعد الخسائر في العراق تصبح المستويات الحالية من الإنفاق غير مستدامة. في ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة تنفق بين 600 مليون ومليار دولار شهرياً على المجهود الحربي.[11] أما بالنسبة إلى القضايا التي شدّد عليها بارنو وخليل زاده من تزايد انعدام الأمن وإعادة بناء قوات الأمن الوطنية الأفغانية وتجارة الأفيون والحكومة الأفغانية الفاسدة، فكان ببساطة على حلف شمال الأطلسي أن يعالجها. وكان لرغبة وزير الدفاع في الحدّ من التزام الولايات المتحدة في أفغانستان آثار طويلة المدى.

في مكتبي في البنتاجون كنت أتسلم شهرياً نسخاً من الإحاطات من القيادة المركزية لهيئة الأركان المشتركة تسلط الضوء على عدد القوات في أفغانستان وحقيقة أنها بقيت تحت سقف معيّن. وفي وقت ما أصدرت القيادة المركزية إحاطة تحوي استراتيجية الانسحاب على المدى الطويل وتقلّل الالتزام الكامل للقوات الأمريكية في أفغانستان من ست كتائب وصولاً الى اثنتين في شرق البلاد، بالإضافة إلى كتيبة واحدة من قوات العمليات الخاصة بحلول عام 2007. تركت الخطة ما يقل عن ستة آلاف جندي على الأرض، بمن في ذلك موظفو الدعم لتلك الوحدات. وتحدثتُ بانتظام مع موظفي القيادة المركزية لأفغانستان،

وأسروا إلي أنهم كانوا تحت ضغط مستمر لإيجاد طرق للحفاظ على بصمة صغيرة قدر الإمكان في أفغانستان من أجل إتاحة أكبر عدد ممكن من القوات للعراق.[12]

كانت لديّ مشاعر مختلطة حول غزو العراق. كنت على يقين من أن الحرب سوف تتطلب أعداداً أكبر بكثير من الجنود لاحتلال البلد مما خصصناه للغزو. كنت أخشى أننا قللنا من شأن الخلافات الطائفية والعرقية الهائلة الموجودة منذ قرون بين الشيعة والسنة والأكراد، والتي قمعتها ديكتاتورية صدام حسين لسنوات. ولكن لم يكن لديّ أي اعتراضات أخلاقية على الغزو. كانت أجهزة الاستخبارات الأمريكية واستخبارات حلفائنا متأكدة من أن لدى صدام أسلحة بيولوجية وأنه يسعى جاهداً إلى امتلاك القدرة النووية. في الواقع، في الأيام الأخيرة من إدارة بوش، وبينما كنت في مكتب نائب الرئيس، رأيت بعض تلك التقارير بينما كنت أساعد في تنظيم الملفات لإرسالها إلى الأرشيف الوطني. كانت التقارير لا لبس فيها، صدام كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل. وعقب 11 سبتمبر، لم يكن بإمكاننا الجلوس والمخاطرة بأن يمنح تلك القدرة إلى منظمة إرهابية.

كان اعتراضي على الغزو هو التوقيت. فلم تكن مهمتنا في أفغانستان تُشرف على الانتهاء، بل كانت أبعد من ذلك. وكان أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وعشرات من كبار قادة القاعدة الآخرين ما زالوا طلقاء. وبالإضافة إلى ذلك، كان القادة الرئيسيون لنظام طالبان السابق ما يزالون نشيطين في باكستان ويعيدون تأكيد أنفسهم في أفغانستان. كانت الأسباب الكامنة وراء عدم الاستقرار التي سمحت لطالبان بالوصول إلى السلطة في التسعينيات لم تزل موجودة: أمراء الحرب، والصراعات العرقية، وعدم إنفاذ الحكم، والفقر المدقع، وانعدام السيطرة على الحدود. ومع ذلك بدأت الموارد الواحد تلو الآخر، من المروحيات إلى طائرات "البرديتور" من دون طيار النادرة، ومن مدربي الشرطة إلى مليارات الدولارات لإعادة الإعمار، تتحول بعيداً عن المسرح الذي تعرضت منه أمتنا للهجوم إلى مسرح قد نتعرض منه للهجوم. كان الأمر محبطاً جداً ونحن نرى الفرصة الذهبية التي أتيحت ما بين عامي 2002 و2005 تضيع، والإحباطات في أفغانستان تنمو، جنباً إلى جنب مع مستويات متزايدة من العنف.

وفي الوقت الذي كانت فيه موارد الولايات المتحدة تُحوّل إلى العراق، كان القائد الجديد (جنرال بـ 3 نجوم) لمقرّ القيادة الأمريكي، المسمى 'قيادة القوات المشتركة في أفغانستان'، الفريق كارل إيكنبيري، يدعو إلى تخفيض عدد جنود الجيش الوطني الأفغاني من 72 ألفاً إلى 50 ألفاً. وكان إيكنبيري قد شغل في السابق منصب رئيس قيادة تدريب صغيرة في كابول مسؤولة عن البدء في عملية إعادة بناء الجيش الأفغاني، وكان قد حلّ محل الفريق بارنو رئيساً للقوات الأمريكية.

سألت زملائي مراراً وتكراراً إن كنا نرى المؤشرات نفسها: بوادر ارتفاع مطرد للعنف في خضم تراجع موارد الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أنني أختلف مع ذلك، فإنني يمكن أن أفهم المنطق وراء ملء فراغ القوات الأمريكية بقوات حلف شمال الأطلسي. ومع ذلك، لم أستطع فهم المنطق وراء خفض عدد جنود الجيش الوطني الأفغاني الذي خططنا لتدريبه وتجهيزه وإنزاله إلى الميدان. لقد كان هذا الجيش تذكرة خروج أمريكا من أفغانستان.

جلستُ في عدد من الاجتماعات مع إيكنبيري خلال جولاته في مكاتب سياسية مختلفة في واشنطن، مدافعاً عن فكرة أنه يجب أن نركز جهودنا على إنتاج جنود ومؤسسات أفغانية ذوي جودة بدلاً من التركيز على العدد. وأصر أمام غرفة مملوءة بمسؤولي مكتب وزير الدفاع لشؤون السياسة وضباط الأركان المشتركة في عام 2005 قائلاً: "ببساطة ليس لدينا العدد الذي نحتاج إليه من القوات لإجراء العمليات القتالية، وفي الوقت نفسه بناء جيش أفغاني ذي جودة يصل تعداده إلى 72 ألفاً". وأكّد فكرة أننا نتحرك بسرعة كبيرة جداً في بناء وتدريب الجيش بالموارد المحدودة المتوافرة. وللقيام بذلك، خاطرنا بتشكيل قوة من نوعية رديئة جداً لا يمكن أن تحافظ على نفسها.

كتبتُ في ملاحظاتي: "نتحرك بسرعة كبيرة جداً؟" كنت أحد أقل الناس رتبة في الغرفة، ولكنني شعرت بحاجة شديدة إلى الصراخ، "اطلب المزيد من الموارد إذاً!".[13] كان هذا موضوعاً سنواجهه باستمرار على مدى السنوات الخمس المقبلة عندما يُطرح

موضوع أعداد القوات والموارد في أفغانستان. ومن مختلف المكاتب في وزارة الدفاع الأمريكية، لاحظتُ قادة برتب رباعية وثلاثية النجوم يطلبون كل ما كانوا يعتقدون أن بإمكانهم الحصول عليه من وزارة الدفاع في شأن العراق، بدلاً من الدفاع عما يحتاجون إليه للنجاح من خلال جعل المخاطر التي تتعرض لها المهمة في أفغانستان واضحة في حال عدم توفير تلك الموارد والقوات.

على مدى السنوات القليلة الأولى من الحرب كان التحالف يعمل في أفغانستان تحت مظلة سلطة إيساف، في حين عملت القوات الأمريكية في إطار عملية الحرية الدائمة. وفي أوائل عام 2004 قام الجنرال جيمس جونز، العريض الحنك، والقائد السابق لفيلق المارينز والقائد الأمريكي لحلف شمال الأطلسي، بطرح خطة من أربع مراحل لنقل المسؤولية الأمنية العامة في البلاد من الولايات المتحدة إلى التحالف بقيادة حلف شمال الأطلسي. بدأت المرحلة الأولى في الشمال، والانتقال عكس اتجاه عقارب الساعة في جميع أنحاء البلاد إلى الغرب والجنوب والشرق على طول الحدود مع باكستان. ودعت الخطة الولايات المتحدة إلى وضع وحداتها التقليدية تحت قيادة إيساف، على أن تُبقي قوات العمليات الخاصة والجيش الوطني الأفغاني منفصلة وفقاً للقواعد الأقل تقييداً للاشتباك والموجودة في إطار عملية الحرية الدائمة. وستتم قيادة قوات الأمن في كل منطقة من البلاد عن طريق أحد الحلفاء.

وكان لدى عدد منا في مجتمع الاستخبارات والسياسة والعاملين على قضية أفغانستان، بشكل وثيق، مخاوف جدية حول نقل المسرح بأكمله إلى سيطرة إيساف. وكان من الصعب أن نفهم كيف يمكن أن نعطي المزيد من المسؤولية لحلف شمال الأطلسي بعد أن شهدنا نهج "الدولة القائدة" يفشل فشلاً ذريعاً. ومع أواخر عام 2004 كان الإيطاليون قد أرسلوا فريقاً فنيّاً واحداً فقط للمساعدة في بناء القضاء الأفغاني، وكان لدى الألمان أقل من عشرين مدرِّباً في أكاديمية الشرطة في كابول.[14] ومع ذلك، وفي إطار الخطة الانتقالية لحلف شمال الأطلسي، كان من المقرر لإيطاليا أن تأخذ زمام شؤون الأمن في غرب أفغانستان على طول الحدود الإيرانية، وكانت ألمانيا ستتولى الأمور في

الشمال. كان من غير المنطقي أن تُعهد بالمسؤولية الأمنية عن نصف البلاد للحلفاء الأوروبيين أنفسهم الذين فشلوا في توفير الموارد لقطاعات القضاء والشرطة. وبغض النظر، يبدو أن الخطوة لتسليم الجهد للأوروبيين بدأت تأخذ منحى خاصاً بها، ومضت الخطة قدماً.

وكان كل عضو من حلف شمال الأطلسي مشارك في الحملة، قد تعهد بأعداد معينة من القوات والأموال لبناء القواعد والبنية التحتية، وغيرها من بنود الدعم الحاسمة مثل الحوامات، وأساسات النقل الجوي، ومعدات الاتصالات. ومع ذلك، ومع المرحلة الأولى من التحوّل إلى الشمال والمرحلة الثانية إلى الغرب، مضى حلف شمال الأطلسي قدماً في الخطة، في حين ظلت هذه التعهدات غير متحققة. وكانت الولايات المعنية سلمية نسبياً ويهيمن عليها الطاجيك والأوزبك الذين عارضوا نظام طالبان، ولكن كنا نعلم أن المرحلتيْن الثالثة والرابعة في الجنوب والشرق اللتيْن يهيمن عليهما البشتون؛ حيث تتمتع طالبان بأكبر دعم لها، ستكونان أكثر صعوبة بشكل غير محدود.

وقد أثرتُ هذه المخاوف خلال اجتماع مع مجموعة زائرة من الضباط من حلف شمال الأطلسي في منتصف عام 2005، وأشار ضابط هولندي ببعض التبجح، "قبل نشر وحدتي في البوسنة في التسعينيات لم نكن مستعدين كما يجب، ولكننا جعلنا البعثة تنجح، وفي نهاية المطاف أوجدنا السلام في ذلك البلد. في بعض الأحيان لا يمكن أن تنتظر حتى تصبح كل سيارة وحوامة في مكانها، وعليك أن تتحرك إلى الأمام وتعالج المهمة".

أجاب أحد مشاة البحرية من المتمرسين الذين خدموا في عمليات جنوب أفغانستان: "سيدي، أعتقد أنك لن تجد قتال حركة طالبان في تارين كوت أو قندهار يشبه بأي شكل حفظ السلام في سراييفو".[15] وكانت عبارة بعيدة النظر. وأكد هذا الاجتماع والعديد من الاجتماعات الأخرى شكوكنا في أن الأوروبيين كانوا يستعدون لعملية حفظ سلام على غرار البوسنة، وليس لحملة مكافحة تمرد معقدة في إحدى أكثر المناطق عدائية في العالم.

في البنتاجون كنا نتلقى تقارير عن خلفيات الأحداث من الضباط الأمريكيين في كابول، بأن الألمان والإيطاليين كانوا يعملون من دون كادر كافٍ ومن دون بنود الدعم الرئيسية. وإلى درجة ما، كان ذلك مفهوماً. كان حلف شمال الأطلسي قد تمّ تشكيله في الأصل للدفاع عن أراضي الدول الأعضاء في الحلف ضد الغزو السوفيتي. وكانت مهمتها الأساسية الدفاع الثابت. أما الآن فيُطلب منها أن تعمل على بعد آلاف الأميال، وفي أكثر التضاريس صعوبة في العالم، ومن دون أي بنى تحتية، وفي بيئة معادية جداً. كانوا يجدون صعوبة كبيرة في أن يعملوا على نمط الحملات، الأمر الذي يتطلب الانتشار المسبق للقدرات الأساسية مثل مرافق الصيانة ومحطات مراقبة الحركة الجوية، ومستودعات الإمداد. كما وجدوا أنفسهم في مهمة لمكافحة التمرد تختلف تماماً عن بعثة حفظ السلام التي كانت حكوماتهم قد اتفقت عليها.

وما جعل الأمور أسوأ، أن كل دولة، بما في ذلك إسبانيا، وهولندا، وتركيا، نشرت جنودها مع سلسلة من القيود أو المحاذير حول أنواع العمليات القتالية التي يمكن أن تشترك فيها. وعلى الرغم من أنها عملت اسمياً تحت إمرة القائد العام للقوة الدولية للمساعدة الأمنية في كابول، فإنه كان لكل دولة أيضاً ممثلٌ مع قواتها، وكانت لها سلسلة إدارية موازية تصل إلى عاصمة بلادها، ويستطيع هذا الممثل نقض أوامر القائد. ومع ذلك، تم التغاضي عن هذه العيوب خلال سلسلة من اجتماعات وزراء دفاع حلف شمال الأطلسي في عامي 2004 و2005؛ حيث دفعت الولايات المتحدة إلى مواصلة تسليم القيادات الإقليمية للقوة الدولية للمساعدة الأمنية على الرغم من عدم إحراز تقدم في إنجاز ما هو مطلوب من القوات.

في ديسمبر 2005، في خضم الانتقال الأمني من الولايات المتحدة إلى حلف شمال الأطلسي، أعلن البنتاجون أنه لن يعوّض إحدى الكتائب المنتشرة حالياً في جنوب أفغانستان، ما يقلل العدد الإجمالي للقوات الأمريكية من تسعة عشر ألفاً إلى ستة عشر ألفاً. كان الإعلان لطيفاً نسبياً، وذلك تماشياً مع الرغبة المعلنة لوزير الدفاع رامسفيلد لتقليل وجودنا في أفغانستان.

وجاء هذا الإعلان عقب الخبر الجيد عن انتخاب البرلمان الأفغاني، وقال عنه المتحدث باسم وزارة الدفاع براين ويتمان للخدمة الإخبارية لرويترز: "لقد تمّ توقع تخفيض القوات الأمريكية منذ موافقة حلف الناتو على تولي السيطرة بدلاً من القيادة الأمريكية في جنوب أفغانستان العام المقبل. يتطلع التحالف الأطلسي إلى زيادة قوام قوته من 9,000 جندي [إيساف] إلى نحو 15,000 جندي اعتباراً من مطلع العام المقبل. وسلم وزير الدفاع رامسفيلد الأمر للأفغان بناء على توصية من القائد الأمريكي هناك، الجنرال كارل إيكنبيري، لأن قوات الجيش والشرطة الأفغانية تتزايد، وحلف شمال الأطلسي سيزيد من تعداد إيساف في البلاد".[16]

من وجهة نظري، كانت هذه لحظة فارقة في تاريخ المجهود الحربي الأفغاني. فالإعلان وجد طريقه بصعوبة إلى الأخبار في الولايات المتحدة، ولكن، إلى جانب إعلان أن الناتو سيتولى المسؤولية الأمنية الكاملة في البلاد، كانت الإشارة بصوت عالٍ وواضح للجميع في المنطقة: "إن الأمريكيين يتركوننا مرة أخرى".

رأت حركة طالبان في الإعلان إشارة إلى أن الولايات المتحدة على وشك المغادرة وأنها يمكن أن تستفيد من وجود قوات حلف شمال الأطلسي الأقل عدوانية، والأقل قدرة. بالنسبة إلى الجيش الباكستاني، أكد الإعلان أنه سيترك له أفغانستان غير مستقرة ومهيأة للنفوذ الهندي على حدودها، ويجب أن تحافظ باكستان على نفوذها في أفغانستان من خلال تقديم الدعم لحركة طالبان. وبالنسبة إلى كثير من الأفغان الذين تحدثت معهم في الحكومة والجيش، فالإعلان أكد أسوأ مخاوفهم من أن يتمّ التخلّي عنهم قبل أن يكونوا مستعدين. والأهم من ذلك، بالنسبة إلى الشعب الأفغاني، قال لهم الإعلان إن عليهم أن يحتاطوا بشكل أفضل، حين يتخذون قرارات مصيرية يومية في قراهم حول الجانب الذي سيقفون معه.

في مارس 2006 التقت كوندوليزا رايس، التي كانت قد أصبحت وزيرة للخارجية، الدكتور عبدالله عبدالله، وزير الخارجية الأفغاني ومرشح الرئاسة القادم. وحذّرها من

الاستمرار في السماح لأفغانستان بأن تنزلق في الصراع. قال: "أنا قلق بشدة إزاء ازدياد التمرد؛ بدأ الناس يفقدون الأمل في حكومتهم. نحن نخسر دعم الشعب".[17]

إن استراتيجية "الدولة القائدة"، وبصمة الولايات المتحدة الخفيفة، والنفور من بناء الأمة، وتجارة المخدرات من دون رادع، والتسليم لحلف شمال الأطلسي، وتحويل الموارد إلى العراق، أمور أسهمت جميعها في إعادة انزلاق أفغانستان بعد ذروة 11 سبتمبر. بالنسبة إليّ شخصياً، كان ذلك يعني أنه بينما كنت مغادراً إلى هناك مع وحدة القوات الخاصة، فإننا سنواجه موسم قتال آتياً من الجحيم ونقطة تحول حادة في الحرب في الربيع اللاحق لعام 2006.

الفصل الثاني

العرب والأفغان والأمريكان .. حرب الأفكار

صاح مترجمنا الأفغاني، محمد، أمام حشد من الرجال الجالسين بالقرب من الجدران، متكئين على الوسائد الكبيرة أو قطع السجاد الملفوفة: "أصدقائي، إخواني، انظروا إلى ما فعله الأمريكيون من أجل ألمانيا واليابان". ولم يكن محمد بالمترجم العادي الذي تعلم قليلاً من الإنجليزية في المدرسة الثانوية قبل الانتقال إلى صفوف أصحاب الرواتب العالية من المترجمين الذين عملوا لمصلحة الجيش الأمريكي؛ فقد كان مدرساً سابقاً، وهو حاصل على درجة الماجستير في اللغة العربية، وعاش في الخارج قبل العودة إلى أفغانستان "الجديدة" المحرَّرة. وكان محمد يتحدث اللغتين المحليتين في أفغانستان، الداري والبشتو، كما كان يجيد اللغتين العربية والإنجليزية بطلاقة. وكانت قدرته على إيصال رسالة استراتيجية إيجابية في أثناء الترجمة بأربع لغات في وقت واحد تقريباً أَثمنَ بالنسبة إليّ من وجود فصيلة مشاة معي.

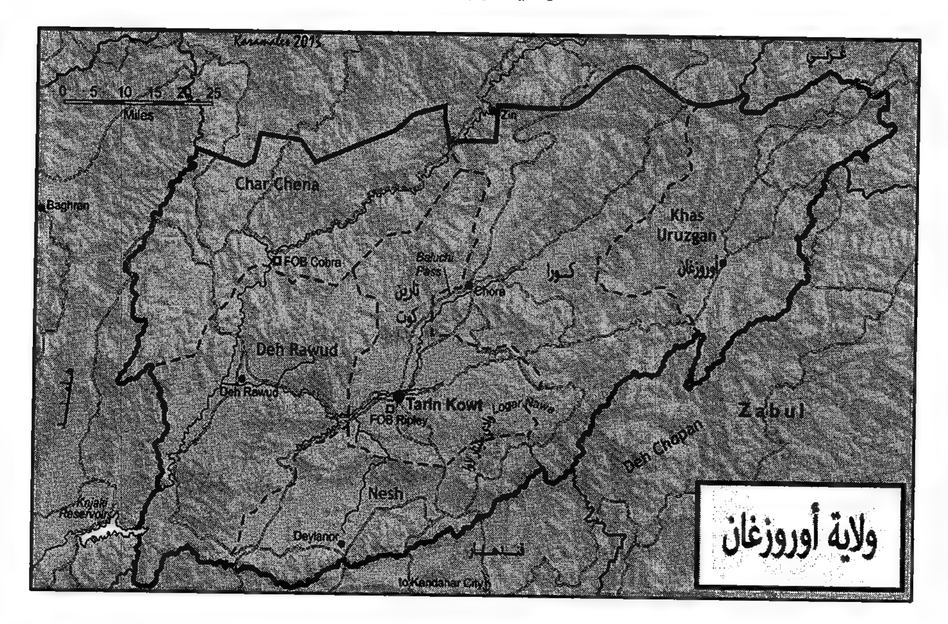
وتابع محمد، وهو يشير بيديه محاكياً شكل مَبانٍ تنهض من تحت الركام: "لقد أعاد الأمريكيون بناء مدن بأكملها من أنقاض الحرب العالمية الثانية. وشقوا آلاف الطرقات من أمثال الطريق الذي يُوصلنا الآن من كابول إلى قندهار في يوم واحد بدلاً من أسبوع. ومع أن ملايين الأمريكيين لقوا حتفهم هناك على أيدي النازيين، فإنهم أعادوا بناء ألمانيا. إنهم شعب طيب. إنهم موجودون هنا لمساعدتنا في إعادة بناء بلدنا. ليسوا هنا لتدميره، كما فعل الروس. يجب علينا العمل معهم".

كنا موجودين في واحد من أقصى الأماكن النائية في العالم، ولاية أوروزغان، الواقعة وسط أفغانستان تماماً. وهو يقع في الطرف الجنوبي من جبال هندوكوش، وغالباً ما

حجبت هذه الولاية عن اهتمام وسائل الإعلام وأصحاب النفوذ السياسي، بفعل أضواء الشهرة التي انصبّت على الجارتين الكبيرتين في الجنوب، ولايتي قندهار وهلمند. ولكن، كما علِمتُ لاحقاً، كانت ولاية أوروزغان القلبَ النابض لتركيبة البشتون القبَلية في جنوب أفغانستان. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية في أن الرئيس كرزاي، بوصفه ابن أحد زعماء البشتون البارزين الذين فروا إلى باكستان بعد أن استولى نظام طالبان على السلطة، اختار أوروزغان من بين جميع الأماكن للتسلل إليه في أعقاب أحداث 11 سبتمبر وإثارة تمرّد مناوئ لطالبان. وإلى هذه الولاية جئتُ لخوض الحرب على الإرهاب. وما اكتشفتُه سريعاً هو أن المعركة الحقيقية هي حرب الأفكار، وأن رسائلنا الاستراتيجية للشعب الأفغاني كانت أهم من قَتل من تبقى من الموالين لحركة طالبان. كما كان إقليمُ أوروزغان المكانَ الذي قُدّر لي أن أُعاين فيه، على أرض الواقع، بعض تداعيات سياساتنا، مثل الوجود القليل، والبداية البطيئة في إعادة بناء "الجيش الوطني الأفغاني".

خريطة (4)

ولاية أوروزغان



كان الفصل شتاء 2005-2006. وكانت مفرزة عمليات القوات الخاصة "ألفا" في الجيش الأمريكي التي تعمل تحت إمرتي تنفّذ دورية في قلب بلد طالبان. وكنت قد تركتُ منصبي المدني في البنتاجون في الخريف الماضي وتم نقلي إلى مكان آخر بصفة قائد "مفرزة العمليات ألفا–53"، التابعة لـ "مجموعة القوات الخاصة العشرين" في الحرس الوطني الأمريكي.

خضع رجالي كلهم لتدريب مدته سنتان على الحرب غير التقليدية، وهي مدة التدريب نفسها التي خضع لها نظراؤنا في الخدمة الفعلية، ولكن بعد أن انتهى التدريب، عادوا إلى وظائفهم المدنية، مخصصين عطلة نهاية أسبوع واحدة شهرياً وأسبوعين سنوياً للتدريب العسكري المستمرّ، على غرار وحدات عناصر الاحتياط الأخرى. وقد كانت تلك هي التعبئة الثانية لوحدتنا منذ أحداث 11 سبتمبر والانتشار الثاني في أفغانستان. وقد واجَهنا الشكوك التقليدية من إخواننا في الخدمة الفعلية الذين تساءلوا كيف يمكننا إطلاق النار والتنقل والتواصل مثلهم، مع أننا لا نتلقّى التدريب سوى مرة واحدة في الشهر. وحُقَّ لهم أن يتساءلوا، ولاسيما حين يتعلق الأمر بالاطلاع على أحدث المعدات والأدوات التي يبدو أنها تتغيّر كل ستة أشهر، منذ أن بدأت وزارة الدفاع ضخ الأموال إلى "قيادة العمليات الخاصة" بعد أحداث 11 سبتمبر. ولكن وحدات الجيش العاملة سرعان ما علمت أننا جئنا وفي جعبتنا عدد لا يحصى من المهارات المدنية الأخرى التي لعبت دوراً حاسماً في بيئة الحرب غير النظامية. وكان العديد من رجالي عناصر شرطة أو عملاء اتحاديين في وظائفهم المدنية ويفهمون فن تشغيل المخبِرين والتعامل مع عناصر الجريمة المنظَّمة وإدراك مَواطن الفساد. والأهم من ذلك أنهم فهموا التحديات والمناطق الرمادية المرتبطة بعزل وحماية السكان المدنيين الذين تم ترهيبهم من قبل عناصر معارضة لحكم القانون. وقد انبثقت مجموعات مهاراتنا الأخرى من مهننا المدنية كمحللي معلومات استخبارية، وأصحاب شركات، ومتداولي سندات، ومحامين، ومهندسين، على سبيل المثال لا الحصر. ولذلك يمكنني القول إن رجالنا قد يكونون مؤهلين، في نواحٍ كثيرة، للعمل في بيئات غير تقليدية، وغير نظامية، أكثر من أصحاب القبعات الخضر [لَقب

أفراد قوّات العمليات الخاصَّة الأمريكية] في الخدمة الفعلية الذين لم يعرفوا سوى وحدة الجيش النظامي قبل المجيء إلى "القوات الخاصة". فعلى سبيل المثال، كان لدينا في فريقي مسعفٌ طبيٌّ عمِل أيضاً مساعد طبيب في مركز للصدمات النفسية، ونائب رئيس شركة اتصالات كبرى، ومحللون من أجهزة استخباراتنا. أضف إلى ذلك خلفيتي في مكتب وزير الدفاع.

وكُلِّف فريقي بالالتحاق بـ "فريق العمليات الخاصة السادس" التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة وتقديم الدعم له. ويعنى ذلك تقديم النصائح التكتيكية لفصائل الفريق عند الضرورة وتمكين "مجموعة العمل" من المشاركة في قوة مدفعية التحالف، والإسناد الجوي القريب، والإخلاء الطبي، وقوات الرد السريع في حال تبادل إطلاق النار. وكانت دولة الإمارات العربية المتحدة، إحدى أوائل الدول المشاركة في قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة في أفغانستان، وكان لها حضور على الأرض منذ عام 2002. وكان قائد قيادة العمليات الخاصة الإماراتية، اللواء جمعة أحمد البواردي الفلاسي، قد أعرب بوضوح عن رغبة قواته الخاصة في أن تشارك في المهام الدامية، أي رغبتها في الذهاب إلى مناطق البشتون الأشد خطورة في جنوب أفغانستان؛ حيث كان مقاتلو طالبان يعودون إليها من جديد. وفي البداية، كان فريقي مفرغاً بالكامل لدعم القوات الإماراتية، ولكن مع استمرار التحوّل إلى "القوة الدولية للمساعدات الأمنية" حتى عام 2006، تلقيتُ الأوامر بتقسيم فريقي إلى خلايا من ثلاثة وأربعة عناصر، والانضمام إلى القوات الخاصة التشيكية والفرنسية والبولندية والهولندية، وغيرها من قوات الدول المنتشرة على الأرض.

وبالطبع، كنا نفضل البقاء معاً طوال مدة الخدمة، ولكن تقسيم الفريق إلى عناصر مستقلة أصغر يعدّ جزءاً أساسياً من عقيدة أصحاب القبعات الخضر. وتتكون "مفرزة عمليات ألفا" من اثني عشر رجلاً يتمتعون بمجموعات من المهارات المزدوجة. وهناك ضابطان، نقيب وضابط صف، بصفة قائدَي فريق، واثنان من الرقباء الأُوَل، أو ضابطَا

صفّ، أحدهما يدير الفريق بصفة "رقيب الفريق" والآخر مكلّف بتحليل المعلومات الاستخباراتية. ويتكون باقي الفريق من اثنين من المتخصصين في الأسلحة، ومهندِسين، ومتخصِّصين في الاتصالات، ومُسعِفَين مدرَّبَين على كل شيء، من القتال إلى رعاية المصابين بالصدمات. وهكذا، يمكننا الانقسام بسهولة لتكوين فريق منفصل مؤلف من مجموعتين قوام كل منهما ستة عناصر، أو حتى إلى مجموعات من أربعة أشخاص أو شخصين.

ويعمل أصحاب القبعات الخضر تحت إمرة قوات الأمن المحلية، ومعها، ومن خلالها. وخلافاً للقوات البحرية الخاصة أو أي قوة عمليات خاصة أخرى في أنحاء العالم، نؤكد في تدريبنا أهمية القدرات الثقافية واللغوية، بالإضافة إلى التكتيكات المتقدمة ومهارات التخصص. وبعد ذلك، يتم إرسال قوات القبعات الخضر الخاصة للعمل في مناطق معيّنة من العالم. ولقد جعلت الحرب في العراق وأفغانستان الكثير من نماذج المهمات الإقليمية من دون جدوى. (كان يتم إرسال وحدتي عادة إلى أمريكا الجنوبية أو الوسطى، وكان معظم رجالي ناطقين باللغة الإسبانية). ولكن الجوانب الأساسية للقدرة على تحديد احتياجات وسطاء السلطة المحلية ودوافعهم ومواءمتها مع مصالح الأمن القومي الأمريكي تظلّ هي نفسها في أي ثقافة كانت. وهكذا، يمكن في عقيدة القوات الخاصة، أن يجد رقيبٌ نفسَه الأمريكيَّ الأعلى رتبة - أو الأمريكيّ الوحيد - في جوّ غامض المعالم، من دون أي توجيهات تذكر، وتراه يمثّل مصالح الولايات المتحدة ويتخذ قرارات ذات عواقب استراتيجية. وبأخذ هذه الحقيقة في الحسبان، كانت عملية الاختيار والتدريب التي نُجريها تنطوي على عنصر نفسي قوي يبحث، على وجه التحديد، عن ذلك النوع من الأفراد الذي يتميّز بهذا النوع من الاستقلالية. وبالنسبة إليّ كَضابط، شكّلت قيادة مثل هذه الشخصيات القوية تحدِّياً كبيراً لي.

أما بُعد أفغانستان ووعورة تضاريسها الشهيرة، فقد جعلا قدرتّنا على العمل بشكل مستقل مع الوحدات المحلية الأفغانية أمراً فائق الأهمية، ولذلك، كثيراً ما كنا نتهكّم على

زملائنا في قوات العمليات الخاصة في العراق، الذين لم يكونوا يبعدون عادة أكثر من بضعة كيلومترات، أو حتى بضعة مبانٍ، عن وحدة أمريكية أخرى يمكنها تقديم الدعم لهم إذا احتاجوا إليه. وبالعكس، وجدتُ نفسي مع ثلاثة أمريكيين آخرين فقط، ضمن فصيلين من الإماراتيين هناك في دورية مشتركة مع فصيلة من جنود "الجيش الوطني الأفغاني". وكنا نبعد ساعات بالمروحية عن أقرب قاعدة لقوات التحالف. أضف إلى ذلك أننا كنا على بُعد أيام متعددة بالسيارة عن جزء من أفغانستان تهيمن عليها قبيلة نورزاي، التي كانت في خصومة عمرها قرن مع قبيلة بوبالزاي التي ينتمي إليها الرئيس كرزاي. وكنا قد شرعنا بتسيير دوريات في "وادي سينار لاوا"، الممتد شرقاً وجنوب شرق من تارين كوت، عاصمة ولاية أوروزغان. وكان الوادي هو الملتقى المفضل للقبائل التي دعمت طالبان في أثناء حكمها، ولكن جرى تهميش هذه القبائل منذ ذلك الحين، بل اضطهادها، من قبل حاكم الولاية القوي جان محمد خان، الذي عينه كرزاي في هذا المنصب بُعيد تسلّمه مقاليد السلطة. وباختصار، كنا في أعماق بلد طالبان. وكانت سعادتي لا تُوصَف.

وبعد أن انتهى محمد من حديثه إلى الحشد، وقف يوسف، النقيب في القوات الخاصة الإماراتية، قائد الدورية، وقال باللغة العربية: "إن طريق طالبان والقاعدة ليس الطريق الصحيح". وتَرجمَ محمد إلى البشتو للمجموعة ثم همس لي باللغة الإنجليزية.

وأضاف يوسف: "ليس لدى طالبان "ملالي" مدرَّبون بالشكل المناسب. إنهم يسمّون أنفسهم ملالي، ولكنهم يفتقدون التعليم والمؤهلات الإسلامية المناسبة، وبصعوبة يقرأ قليل منهم العربية، ويخمّنون الكلمات في القرآن الكريم تخميناً!" فضحك الرجال. وتابع يوسف وهو مؤمن بما يقول: "عليكم ألا تُصغوا لهم. إنهم ليسوا حجة في الإسلام. انظروا إلينا. نحن عرب. لنا حجة في هذه الأمور". قالها هذا الرجل الهادئ عادة والمتحفظ نوعاً ما، القادم من واحة العين الصحراوية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد استيقظت حواسه جميعها في مجالس الشورى هذه. وروى لي قصصاً عن والده الذي كان

يأخذه إلى الأسواق في دبي، وكيف أنهما كانا ينظران بإعجاب إلى رجال الأعمال والتجار الأفغان في الأسواق. وكان يقول لي في إحباط: "الآن، تقوم ثلّة من المغفلين الذين يطلقون على أنفسهم اسم طالبان بحرف هذا الشعب الأبيّ عن الصراط المستقيم".

انزويتُ في الركن الخلفي من الغرفة الكبيرة في مركز المجمع الذي تضاعفَت مهماته فغدا غرفة صف، ومركز اجتماعات، ومسجداً. وكنتُ الغربيَّ الوحيد في الداخل، مع النقيب، وملازم في الجيش الأفغاني، وأكثر من مئة رجل أفغاني يجلسون حول حافة الغرفة المغطاة بالسجاد الأحمر والأسود البني المُصفَرّ. وكان العناصر الثلاثة الآخرون العاملون معي يشرفون على أجهزة اللاسلكي والرشاشات الثقيلة الموجودة على سيارَتينا الهامفي في الخارج، وكانوا يراقبون عموماً ما يجري في القرية، فيما تَحلَّقت مجموعات من الأطفال حولهم يتضاحكون ويطلبون السكاكر. وقد ارتدينا عمداً البزات العسكرية الصحراوية المموّهة البنية والمصفرّة نفسها التي كان الجنود الإماراتيون يرتدونها لئلا نصبح أهدافاً أمريكية ثمينة ضمن الحشد. وأصبح عُرفاً، منذ الأيام الأولى للصراع الأفغاني، السماح لأصحاب القبعات الخضر بإطلاق لحاهم احتراماً لثقافة البشتون ولتعزيز الاندماج بهم، على الأقل من بَعيد. وفي هذه الحالة، كلما تعمقنا في الاندماج بهم، والوقوف في الصف الخلفي، وإظهار هذه الدورية على أنها جهد مشترك بين العرب والأفغان، كان ذلك أفضل.

وتابع يوسف قائلاً: "يمكنكم تطوير مدنكم والتعامل مع سائر دول العالم وأنتم ما زلتم مسلمين صادقي النية. انظروا إلى دبي. انظروا إلى أبوظبي. انظروا إلى المدن الإسلامية العظيمة كالقاهرة وبيروت وجاكرتا. يمكن لأطفالكم أن ينعموا بحياة أفضل. ويمكنكم تعليم أبنائكم وبناتكم ويظلون مسلمين حقيقيين. يجب أن تمضي أفغانستان إلى الأمام، لا إلى الوراء. طالبان تريد إبقاءكم متخلفين حتى يتمكنوا من التحكم فيكم".

وأخذت أسارير الوجوه المتصلّبة، ولاسيما وجوه الشبان ذوي العمائم السود والعيون المكحّلة، المرتبطين غالباً بمقاتلي طالبان، تنفرج؛ حتى إن بعضهم هزّ رأسه موافقاً. وتحدّث النقيب دقائق أخرى. كان الخطاب قوياً.

ومن وجهة النظر الخاصة بإرسال الرسائل الاستراتيجية، كان هذا الأمر أشبه بمنجم ذهب؛ فأن يكون هناك ضباط عسكريون عرب وأفغان يعملون معاً بانسجام تام، ويقومون بإيصال الرسائل حول إيجابية وجود قوات التحالف في أفغانستان وحول سلبية فكر طالبان المتطرف، يُعدّ أمراً بالغ الأهمية بحق. فإثارة الشكوك حول صدقية طالبان الأيديولوجية في العالم الإسلامي تعدّ صاروخ كروز استراتيجياً تتعدى قيمته آلاف جنود التحالف. ومن الواضح أنه لا يمكن لشخص غربي فهم ما يدور حوله تمام الفهم أبداً، ولذلك جلست بهدوء، مرتدياً عمامتي العربية الطراز ومُطلقاً لحيتي، في محاولة للانزواء في الخلف ما استطعتُ.

وكنتُ قد قرأتُ سابقاً عن مدى الاحترام الذي يكنّه المسلمون من غير العرب للعرب من منطقة الخليج، ولكنني لم أستوعب الأمر تماماً. وها أنا ذا أتلمّسه الآن بنفسي. فللعرب نفوذ أيديولوجي وماليّ معاً. فمن وجهة نظر عرقية وأيديولوجية، كانوا القيّمين على أقدس البقاع الإسلامية في الجزيرة العربية. ومن وجهة نظر مالية، كان العرب من أبناء العمومة البعيدين، قد بلغت شهرتهم الآفاق. فدبي، أحد مراكز المال والتجارة والنقل الجديدة في العالم، لم يمضِ على كونها حاضرة رئيسية في الواقع سوى عقد من الزمن. وقد برع الإماراتيون في جعل بلدهم نقطة جذب للشركات المتعددة الجنسيات، بعد أن كانت أرضاً صحراوية؛ حيث أحسنوا استغلال ثروتهم النفطية بشكل فعال، وألغوا الرقابة الحكومية بشكل ذكي، وحقّقوا الحدّ الأمثل من الاستفادة من مركزية جغرافيتهم؛ كان رائعاً أن نرى كيف كان الأفغان يعاملونهم باحترام، وخاصة حين لم يكونوا يعرفون أنه ثمة غربي موجود.

وبعد عام، أي بعد أن عدتُ إلى وظيفتي المدنية في مكتب وزير الدفاع بالبنتاجون، قسم السياسات، حاولتُ تحريك مسعى لمصلحة البنتاجون، مفاده الطلب من دولة الإمارات العربية المتحدة ودول الخليج الأخرى قيادةَ فريق عربي بالكامل لإعادة إعمار الولايات. فقد كانت فرق إعادة إعمار الولايات كيانات ائتلافية في كل ولاية، مكلَّفة

بقيادة مبادرات إعادة الإعمار والتنمية. وكانت القوة الخاصة الإماراتية تضم فرعاً نشيطاً جداً يُعنى بالشؤون المدنية، وكان منخرطاً في مشروعات تتراوح من إنشاء مستشفى في ولاية زابل إلى تأسيس جامعة في خوست، بالإضافة إلى ترميم عشرات المساجد. وشعرت بقوة أن فريق إعادة إعمار الولايات، بقيادة دولة الإمارات العربية المتحدة وبدعم الدول العربية الأخرى التي أرسلت أيضاً قوات إلى أفغانستان، مثل: البحرين ومصر والأردن، يمكن أن يكون أداة إعادة إعمار وتواصل استراتيجية قوية. ولسوء الحظ، فإنه إثر طرح الفكرة في سلسلة من الاجتماعات عام 2007، حتى واجهتُ مقاومة بيروقراطية، وأُسدل الستار على الفكرة. فقد أصرت مديرية الشرق الأوسط في مكتب وزير الدفاع – قسم السياسات، وهيئة الأركان المشتركة، على أن مثل هذا المسعى سيصرف الانتباه عن المساعي الأخرى ذات الأولوية العالية، مثل: حرب العراق، وإيران، ومجلس التعاون لدول الخليج العربية. وفي النهاية، أرى أننا فشلنا في استغلال الإمكانات الكاملة لمشاركة الدول العربية المسلمة في أفغانستان.

كانت دورياتنا تجوب تلال ولاية أوروزغان وأوديته في ذلك الشتاء على متن نسختنا من سيارة الهامفي المخصَّصة للعمليات الخاصة والمعروفة باسم مركبة التنقل البري. وقد صُنعت مركبة التنقل البري على هيكل طراز الهامفي، ولكن بدلاً من نسخة الهاتشباك النموذجية الموجودة في معظم مركبات الهامفي المدرعة، كانت مركبة التنقل البري مفتوحة في الخلف، ما يتيح تكديس مؤن إضافية، والمزيد من الجنود على المقاعد المسطحة، وفي العادة، يوجد مكان لرامي رشاش ظهره باتجاه مقدم المركبة. كما تتميز بمحرك أضخم ونظام تعليق أقوى. وبالإضافة إلى الرشاش الثقيل من عيار 0.50 بوصة، المحمول على برج أو قاذفة القنابل الأوتوماتيكية مارك-19، تقوم بعض "مفارز عمليات ألفا" أيضاً بتركيب رشاش خفيف على ذراع دوّارة في الجانب الأمامي الأيمن من السيارة، بهدف تعزيز القوة النارية الأمامية. وعمد معظم "مفارز عمليات ألفا" إلى فكّ المقعدين الخلفيين لتوفير مساحة أكبر لمؤن المياه والغذاء، والأهم الذخيرة. وقبل التنامي الهائل في القنابل المزروعة على جانب الطريق، كانت "مفرزة العمليات ألفا" معرضة كثيراً

لمواجهة كمائن طالبان، فأرادت أن تكون قادرة على الرد بأكبر قدر ممكن من القوة النارية في كل الاتجاهات. وكذلك استخدمنا مركبات لكل أنواع التضاريس، للاستطلاع أمام الدوريات. وكان الراكب الوحيد على متن مركبة كل أنواع التضاريس أقربَ إلى الأرض ويمكنه بسهولة رؤية النتوءات الطارئة في الأرض أو الأسلاك التي قد تنبئ بوجود عبوة ناسفة. وكانت هذه المركبات رائعة أيضاً للقيادة أمام القافلة؛ بغية العثور على المسارات الأشبه بالمتاهة عبر القرى، أو اقتفاء الآثار المناسبة. وكانت الفصائل الإماراتية تستخدم خليطاً من مركبات الهامفي المدرّعة ومركبات بانهارد Panhard المدرّعة الفرنسية الصنع. وكانت مركبات بانهارد التي تتسع لثلاثة أشخاص أصغرَ وأضيقَ بكثير من الهامفي، ومن ثم، يمكن قيادتها في أماكن لا يمكن قيادة الهامفي فيها. ولكن هذه المركبات حدّت كثيراً من قدرة الإماراتيين على تسيير دوريات راجلة نتيجة عدم وجود أكثر من فرد إضافي من أفراد الطاقم غير السائق والرامي. أما الجيش الأفغاني فكان يستخدم شاحنات بيك أب "فورد رينجر" صغيرة ذات أسطوانة فولاذية فوق مقصورة الركاب، مُركَّب عليها رشاش. وكنا نتَعجَّب لعدد الجنود الأفغان الذين كانوا يُحشرون في الجزء الخلفي من تلك الشاحنات، وعادة ما تكون أرجلهم مدلاة على الجوانب.

وفيما كنا نقوم بدوريات في شتى أنحاء أودية نورزاي وسط أوروزغان على متن مجموعة متنوعة من المركبات التي شكّلت قوافلنا العربية-الأفغانية-الأمريكية المشتركة، كررنا خُطَب الانخراط نفسها مرات ومرات. وكان لها في بعض الحالات وقع كبير. ففي إحدى القرى بمديرية نيش، جنوب أوروزغان، وقف شخص مسنّ بعد أن انتهى النقيب يوسف من كلامه، وأعلن: "لأني مسلم حقيقي ومؤمن، فأنا أتخلى عن زراعة الخشخاش؛ لن أزرعه بعد الآن في أرضي. إنه يتعارض مع الإسلام، وهو سيئ لعائلتي، وسيئ لقريتي، ديلانور. قد نجوع، ولكننا سنكون أطهاراً ونرفع رؤوسنا عالياً"، ثم كسر بشكل احتفالي المقبض الخشبي لمنجل، غالباً ما يُستخدم لحزّ بصيلات الخشخاش، على ركبته، وسلّمه إلى النقيب الإماراتي وسط تصفيق حار من بقية كبار السن الجالسين في ظل شجرتين كبيرتين كنا مجتمعين تحتهما.

وقفتُ بعد أن قررتُ أن تكون هذه المناسبة إحدى المرات النادرة التي يتعيّن عليَّ التحدّث فيها، وقلتُ للمسن: "شكراً لك على موقفك الجريء نيابة عن جميع أهالي ديلانور". فصُدم الحشد لسماع لغة إنجليزية، لأنه كان من الواضح أنهم لم يدركوا حتى ذلك الحين أنه ثمة شخص غربي بين ظهرانيهم. وأضفتُ وأنا أنظر إلى المسن: "سأفعل كل ما في وسعي لطلب البذور وغيرها من أنواع المساعدات من فريق إعادة إعمار الولايات في تارين كوت ومن المنظمات غير الحكومية لمساعدتك. أنا أتعهّد لك شخصياً بذلك. يشرفني أن أكون في حضرة شجاعتك وريادتك".

ولسوء الحظ، انتهى بي الأمر بقضاء وقت طويل وأنا أسعى إلى مساعدة المسنّ وأهالي ديلانور. فحصاد الربيع من الخشخاش كان قد انتهى في الأصل، وسيبدأ موسم زراعته من جديد في الخريف. ولكن عند عودتي إلى القاعدة اكتشفتُ أن مسؤولة "وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة"، قد انتقلت ولن يتم تعيينُ بديل عنها قبل شهور متعددة. وكان فريق الشؤون المدنية قد رصد الأموال لمشروعات أخرى. ولم تكن هناك حكومة في المديرية نسبياً، وكان وزير زراعة الولاية الأعلى مرتبة يعيش في أمان قندهار النسبي، ولم يكن يزور مكتبه في تارين كوت إلا بشكل دوري. واتفقتُ مع القائد الإماراتي على العودة إلى ديلانور في الأسابيع المقبلة وإعطاء المسن مالاً، وحسب.

وبعد أسابيع، حين عدنا إلى ديلانور، رفض المسنّ الذي كان قد كسر منجله بشكل احتفالي التحدث إلينا. وبعد التماسات متعددة، جاء أخيراً للقائنا بعد أن ذهب إليه رسول وأخبره أن العرب أرادوا إعطاءه المال لتشتري قريته بذور القمح والشعير. وهمس محمد آتياً إلينا بعد دردشة أجراها مع ثلة من الرجال في أذني قائلاً: "قام زعيم المخدرات في هذه المنطقة بزيارته بعد مغادرتنا. وحين أخبره المسنّ أن ديلانور لن تزرع الخشخاش بعد الآن، هدده زعيم المخدرات بقتله وقتل أسرته. وهدّده أيضاً بجعل طالبان تغلق المدارس".

كان معظم المزارعين يقترضون في الخريف من تجار الأفيون لشراء البذور والمعدات. وفي الربيع اللاحق تسدِّد محاصيلهم هذه الديون، والمأمول أن يبقى معهم ما

يكفي لشراء المواد الغذائية والمؤن للعام. وقد كثرت قصص الرعب عن عائلات اضطرت إلى تقديم بناتها سداداً للقرض في حال فشل المحصول. وكان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أعارض بشدة جعل القضاء على زراعة المخدرات أولوية في استراتيجيتنا لمكافحة المخدرات. فتجار المخدّرات كانوا هم من يقود التجارة، لا المزارعون.

وجاء المسنّ إلينا أخيراً وجلس معنا، ولكن لعشر دقائق تقريباً فقط. وكان مهذباً وممتناً جداً لنا على المال. وانحنى محمد مرة أخرى وهمس: "سيدي، هذا الرجل خائف جداً". وقبل أن يغادر المسنّ، قال: "أريد مستقبلاً أفضل لأهلي. ولكن يجب أن ننعم بالأمن. رجاء أرسلوا بعض الجنود الأفغان إلى هنا. ليس من الشرطة، أو الجنود".

للأسف، لم يكن هناك ما يكفي من جنود "الجيش الوطني الأفغاني" في أوروزغان لجعلهم يرابطون في ديلانور. وقد سمعنا فيما بعد أن القرويين التزموا وعدهم ورفضوا زراعة الخشخاش، وأن عدداً من الرجال تعرضوا للضرب عندما رفضوا أخذ قرض لمحصول تلك السنة. وجلب لي مترجم من القرية لاحقاً رسالة من طالبان (تُعرف باسم "الرسائل الليلية" لأنها تُترك على أبواب الناس في الليل)، تحوي تهديداً لمدير مدرسة القرية وتحذّره من مغبّة التحدّث إلى الأمريكان الكفار. وفي نهاية المطاف، انتقل المسنّ إلى أمان مدينة قندهار النسبي.

وعززت هذه الحادثة قناعتي بأن التخلص من تجار المخدرات سيكون أبلغ أثراً في التجارة من الحدّ من محاصيل المزارعين. فالافتراض الخاطئ الذي كان وراء التفكير بالقضاء على تجارة المخدرات هو أنه بإمكان المزارعين الامتناع عن زراعة الخشخاش بمحض إرادتهم. لا يمكنهم ذلك. فعندما اتضح أن تجارة الخشخاش كانت تدعم بشكل مباشر تمرد حركة طالبان، أُذن للجيش الأمريكي في البدء باستهداف هؤلاء التجار. ولكن تحوّل الصلاحيات لم يحدث إلا عام 2008.

وعدتُ بأفكاري إلى ركيزة التواصل لاستراتيجيتنا الخاصة بمكافحة المخدرات، وكيف أنها فشلت إلى حد كبير. وكذلك فكرتُ في النقاش الأعم الذي يُسمَّى أحياناً

حرب الأفكار، حول انخراطنا مع العالم الإسلامي. كان تنظيم القاعدة، وحركة طالبان، وجماعة "الإخوان المسلمين"، وطائفة كبيرة من الجماعات الأخرى، يصوّرون الحرب على الإرهاب على أنها حرب أمريكا على الإسلام والمسلمين. وقد طغت الانتقادات لدعم الولايات المتحدة إسرائيلَ، وحرب العراق، وسجن غوانتانامو الأمريكي، على المُثُل الغربية الأساسية مثل الأسواق الحرّة والتسامح الديني، عبر موجات الإذاعة الدولية وفي مسجد الحي. وسرعان ما اتّضح لي من هذه الدوريات أنه يتعيّن علينا تحسين قدرتنا على إيصال تلك المـُثل إذا كنا نأمل أن يكون النجاح حليفها على المدى البعيد.

وعلى مستوى العمليات في أفغانستان، نجد أنه كلما أوقعت قنبلة في غير مكانها ضحايا مدنيين، أو أساء جندي ضال لحساسيات إسلامية، كان أعداؤنا يحرزون قصب السبق ويصورون أمريكا على أنها دولة محتلة تسير على خطى الأسلاف الصليبيين. فحالما يقع حادث ما، يتّصل المتحدثون باسم طالبان هاتفياً بوسائل الإعلام الدولية، ويرسلون الرسائل الإلكترونية إليها، لرواية القصة من وجهة نظرهم، وكانوا في كثير من الأحيان يلفقون الأمور وحسب. وكان المترجمون العاملون معي يجلبون لي أقراص دي.في.دي. [فيديو رقمي] من الأسواق المحلية تحوي صور نساء وأطفال أمام بيوت من الطين مهدّمة يزعمون أنها دُمّرت نتيجة عمليات قصف متعمدة للمدنيين نفّذها سلاح الجو الأمريكي. وروَت تسجيلات الملالي في المساجد المحلية حكايات عن جنود أمريكيين يغتصبون الأفغانيات ويعذّبون السجناء. وبالطبع، ليس لدى هؤلاء الملالي أي دليل، ولكن حوادث مثل صور سجن أبو غريب في العراق كانت دليلاً كافياً للأشخاص العاديين في جنوب آسيا، وكان لها مفعول المنشّطات في حملات المتمردين الدعائية.

وخلاصة القول، أننا استخدمنا عمليات إرسال المعلومات أو الرسائل الاستراتيجية، تكتيكياً واستراتيجياً، باعتبارها آلية ردّ لشرح الحوادث أو العمليات حين كانت الأمور تتخذ مساراً خاطئاً. وبالتأكيد، أصبحنا أفضل مع مرور الوقت، ولكن في كثير من الأحيان كانت عمليات إيصال الرسائل تتم بعد فوات الأوان. وعلى النقيض منّا، استغلّت حركة طالبان نشر المعلومات والحملات الدعائية لقيادة العمليات. فقد فهمت

الحركة ماهية الرسالة التي يتعيّن توجيهها، ومن ثمّ صمّمت عملياتها التكتيكية وخطة حملتها الشاملة لتتناسب والرسالة. كان ذلك عكس نهجنا. فعلى سبيل المثال، كانت حركة طالبان تتخذ قراراً بإظهار قوتها في منطقة معيّنة، فتعمد إلى الاستيلاء على مركز حكومي أو مهاجمة وزارة ما في كابول، مع أنها تعلم أنه سيتم في نهاية المطاف طردها ودحرها. كانت الحركة على استعداد تماماً لمقايضة هزائم تكتيكية برسالة استراتيجية ترسلها.

وفي قرى وأودية أخرى، نجم عن مشاركتنا الأفغانية – العربية – الأمريكية بعض النقاشات الحامية، وبدأتُ أُدركُ تماماً مستوى جهلنا بالديناميات القبَلية المعقدة التي تلعب دوراً فاعلاً في أنحاء أفغانستان. كما بدأتُ أستشعر مقدرة طالبان وجهودها لوضع الأساس لحركة متمردة، ومدى الضرر الذي أسفر عنه سوء الإدارة وظاهرة أمراء الحرب من قِبل أولئك الذين أُوكلت إليهم مقاليد الأمور في أعقاب هزيمة طالبان، ما دفع الناس للعودة إلى أحضان طالبان. فمن مجلس شورى إلى آخر، سمعت إحباطات الشعب الأفغاني وشكوكه تجاه استعداد أمريكا للقيام بما يلزم لجعل أفغانستان مزدهرة حقاً.

وفيما كنا نوغل أكثر في أعماق واديَي سينار ناوا ولوغار ناوا صوب الحدود الشرقية لأوروزغان مع ولاية زابل ومنطقة دي تشوبان السيئة السمعة، اكتشفنا المزيد من الأدلة على تأثير المتمردين ونشاطهم، ولاسيما في سلوكيات الأطفال. فقد كانت دي تشوبان مرتعاً لنشاط القاعدة وطالبان، وموقع معركة تبادل لإطلاق النار خاضتها مفرزة "عمليات ألفا" لأيام متعددة عام 2003. ففي معظم القرى كان الأطفال الذين تنبههم شبكة إنذار مبكر تضم أطفالاً آخرين، ينتظروننا على أطراف البلدة، ثم يتجمهرون حولنا وحول مركباتنا إذا توقفنا. وغدت أكياس صغيرة من قطع السكر الصلبة إحدى هِباتي المفضلة لهم، بالإضافة إلى أقلام الحبر الجاف وأقلام الرصاص. فبالنسبة إلى معظم الأطفال الذين يدرسون في المدارس وليس لديهم سوى عدد قليل من الكتب أو الأدوات المكتبية، كان الحصول على أداة للكتابة يعدّ وسام شرف. وكان مشهد أولئك الأطفال يقفون حفاة الأقدام في الطين المتجمد وهم يبتسمون ملء أشداقهم لأننا أعطيناهم قلماً، يثير مشاعرنا حقاً.

لقد بذلنا جهوداً مضنية في الأودية طوال أيام كثيرة، وأضحت الاجتماعات أكثر توتّراً وتحدياً. وثمّة شاب يرتدي نظارة طبية سألني بشكل مباشر وهو يجول بناظريه من الملازم الأفغاني إلى النقيب الإماراتي؛ من الواضح أنه أدرك أنني الأمريكي في الغرفة: "كيف نعرف أنكم لن تتخلوا عنا؟". لا ريب في أنه مثقف، وقد اكتشفنا لاحقاً أنه كان يزور عائلته في أوروزغان في أثناء عطلة جامعة كابول. وكان يتحدّث بلغة إنجليزية ركيكة ولكنها مفهومة.

أجبته: "حسنٌ، أنا أقف معكم هنا الآن، على بعد آلاف الأميال من بيتي وعائلتي، وسيستمر الرجال الذين معي في الوقوف معكم. لا أستطيع أن أعدكم بما سيحدث في المستقبل، ولكن أمريكا تقف معكم الآن".

واستطرد الشاب: "ولكن الولايات المتحدة أعلنت أنها ستنسحب وتسلّم المسؤولية عن الأمن للأوروبيين. أمريكا لا تهتم إلا بالعراق الآن وتعتقد أن مقاتلي طالبان هُزموا. طالبان لم تُهزَم!". وأضاف وهو يضرب السجادة براحة يده: "إنهم يستجمعون قوتهم، وباكستان ستساعدهم لأنهم يريدون السيطرة على أفغانستان، وأنتم قلتم للعالم إنكم راحلون. ويعلم الجميع أن أوروبا لن تحارب. لن يستمروا طويلاً هنا". وازداد تذمر المجموعة فيما كان محمد يترجم. وكانت كل الأنظار تتجه صوبي.

قلتُ وأنا أرفع يدِي وأضغط أصبعيَّ معاً: "مستقبل أمريكا ومستقبل أفغانستان كهاتين. مصيرُنا واحد الآن. فإذا فشلت أفغانستان، فسيستغلّ تنظيم القاعدة وغيره من الجماعات أفغانستان من جديد لقتل الناس الأبرياء. لا تريد القاعدة وجماعة طالبان العمل من أجل أفغانستان أفضل، إنهما مستمرتان في القتل لأنهما تريدان العودة إلى السلطة. وتريد طالبان إبقاء أفغانستان متخلفة حتى تتمكّن من السيطرة عليها، هدفنا هو جعل أفغانستان قوية، بحيث تتمكّن من شق طريقها في العالم". قلت هذا على الرغم من حقيقة أن البنتاجون أعلن قبل أشهر فقط سحب المزيد من القوات الأمريكية الضئيلة العدد أصلاً.

ردّ الشاب: "اعتقدنا أن أمريكا ستغيّر أفغانستان.. اعتقدنا أن أمريكا ستنتشلنا من هذا الوضع البائس جداً.. إنكم تتركوننا الآن مع حكومة لا تقلّ سوءاً عن طالبان أبداً". كانت الفكرة شائعة: الآمال محبطة، وخيبة الأمل من الحكومة الجديدة شديدة. ففي عام 2001، نذرت القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم، مع ائتلاف دول أخرى، نفسَها بطريقة تاريخية لأفغانستان. ومن وجهة النظر الأفغانية، هبّت أغنى دول العالم لنجدتها. ولكن بعد خمس سنوات، لم يحدث تغيير يُذكر في حياة الأفغان. وفي الواقع، واعتماداً على القبيلة التي ينتمي الأفغاني إليها، فإن حياة بعضهم ربما صارت أسوأ.

وحاول النقيب الإماراتي تغيير الموضوع. "إذا أردتم تغيير وضعكم، فإنه يجب أن تكون هناك تنمية. وإذا أردتم التنمية، فإنه يجب أن تكون هناك منظمات غير حكومية، ولكي تكون هناك منظمات غير حكومية، فلا بد أن يسود الأمن، فالمنظمات غير الحكومية تخشى جداً المجيء إلى أوروزغان. لقد رحَلَتْ.. كل رجل مسؤول عن الأمن.. هذا هو بيتكم.. فكما ستدافعون عن عائلتكم، يجب تماماً أن تدافعوا عن قريتكم. لا يمكن أن نكون موجودين في كل مكان.. يجب أن تتحملوا مسؤولية أمن القرية، وحينها ستعود المنظمات غير الحكومية".

وقف مسنّ أشيب ذو لحية بيضاء وأشار في اتجاه تارين كوت قائلاً: "ولكنكم ستتركوننا الليلة. مقاتلو طالبان لا يتركون هذا المكان، وليس في حوزتنا ما يوقفهم. زوّدونا ببعض الأسلحة وبعض التدريب، ولن نسمح لهم بالمرور عبر هذا الوادي. يجب أن تبقوا معنا هنا وتساعدونا، وإلا فلا تأتوا لزيارتنا هنا؛ حتى التحدّث إليكم خطير. الناس يتكلمون"، قالها وهو يشير نحو الخارج ناظراً من فوق كتفه إلى مجموعة من الرجال والصبية المتحلّقين. وبالفعل، سبق أن أُثيرت تلك المسألة كثيراً في مجالس الشورى التي حضرناها في القرى. إن المسنّين بمجرد تفاعلهم معنا، يجازفون بحياتهم؛ وبإمكان أي شخص متعاطف مع طالبان أو يكنّ ضغينة لأحد المسنّين أن يبلغ أحد قادة طالبان أن هذا المسنّ كان يعمل مع الأمريكيين، فتكون النتيجة أن يتلقى ضرباً مبرحاً في أحسن الأحوال، أو يموت ميتة شنيعة في أسوأ هذه الأحوال. ففي إحدى الحالات، بعد يوم من

مغادرتنا قرية كلاتاك في شرق أوروزغان، تلقى محمد مكالمة من الرجال الذين عملوا سراً في قاعدتنا، ركب خمسة عشر رجلاً في كلاتاك دراجات نارية في صباح اليوم اللاحق وقاموا بصفّ كل رجال القرية في طابور. وسحبوا اثنين من المسنّين الذين كانوا قد استضافونا للغداء بهدف مناقشة مشروع تطوير، وتعدّوا عليهما بالضرب على الملأ، ثم أعدموا رجلاً شنقاً حين اكتشفوا أنه عمل في قاعدتنا.

وغالباً ما كنتُ أتساءَلُ إذا ما كان ضرر دورياتنا في شتى القرى الريفية لنشر رسالتنا يفوق نفعها. فمن جهة، لن يكون لدينا أبداً ما يكفي من جنود التحالف أو "الجيش الوطني الأفغاني" لحماية السكان. ومن ناحية أخرى، لم يكن في وسعنا التنازل عن الريف لطالبان وترك الساحة لهم ليسردوا ما شاؤوا من روايات عن التحالف. ففكرة أن الأفغان كانوا يكنّون الكراهية للأجانب أو يكرهون الغرباء بالفطرة لم تبدُ حقيقية من واقع تجربتي. وفي الحقيقة، وجدتُ مراراً وتكراراً أن العكس هو الصحيح. فأشدّ الأفغان غضباً ممن التقيتهم كانوا منزعجين من أننا لا نكثف وجودنا أكثر هناك. لقد أُصيبوا بخيبة أمل لأننا لم نقدّم لهم أكثر. ولكنهم، بشكل عام، أرادوا وجودنا هناك. لقد أصبحتُ على قناعة تامة بأن ما كان الأفغان في أمسّ الحاجة إليه هو أبسط أساسيات الأمن وحسب، ولذلك يتعيّن علينا إيجاد إطار أمني محلي يتيح لهم توفير هذا الأمن لأنفسهم. فالأمن كان الأكسجين الذي تحتاج التنمية والمبادرات الأخرى إلى استنشاقه ليمدَّها بالحياة، ولا يمكن لأفغانستان أن تمضي قُدُماً من دونه.

وقد لخّص أحد كبار السنّ هذا الأمر أحسن تلخيص، بقوله: "يمكنكم بناء ما شئتم من مدارس، وطرق، وعيادات. إننا ممتنّون جداً، لأنّ احتياجاتنا كثيرة. ولكن حين تصوّب طالبان مسدساً إلى رأس عائلتي، فما الذي تتوقع مني فعله؟".

وقد أثّرت هذه السلسلة من مجالس الشورى والاجتماعات في أوروزغان وقندهار وهلمند في شتاء وربيع عام 2006 تأثيراً عميقاً في تفكيري حول ماهية السياسة التي نحن في حاجة إلى تنفيذها في الحرب. وخلصتُ مقتنعاً إلى أنه بعد أربع سنوات من الحرب، لم

نتمكّن من إيصال رسالتنا الاستراتيجية بالشكل الصحيح. إننا لم نوضح بشكل فعال للشعب الأفغاني، أو الحكومة، أو المجتمع الدولي، سبب وجودنا هناك.

نحن لم نلمّح إلى أننا سنقف مع الأفغان إلى أن يتمكنوا من الوقوف على أقدامهم. ونظراً إلى دمار البنية التحتية والقدرات البشرية هناك في الأودية والقرى جنوب أفغانستان، أدركت أنه يتعيّن على الولايات المتحدة مواجهة حقيقة أن انخراطنا في أفغانستان سيكون جهداً مطلوباً من كل الأجيال. ففي بلد أكبر مساحةً من العراق، وذي تضاريس جبلية أشد وعورة بكثير، وفي غياب بنية تحتية حقيقية وقلة القدرات البشرية، ومعدّل أمية يبلغ 75٪، وقوات أمن وليدة، وتمرّد يتمتع بملاذ يمنح أصحابه الراحة ويمكّنهم من إعادة تجميع صفوفهم من دون أن يصيبهم الأذى، كان يتعيّن على الولايات المتحدة توفير وجود أمني أكبر بأضعاف مضاعفة مما كان لها على الأرض، إلى أن نتمكن من إنشاء إطار الأمن المحلي هذا، وبناء قوات الجيش والشرطة الأفغانية.

لقد أُبيد القطاع الأكبر من جيلين من الأفغان، نتيجة التدخل السوفيتي في ثمانينيات القرن العشرين والحروب الأهلية بين جماعات المجاهدين المنتصرة، ومن ثم حركة طالبان في تسعينيات القرن العشرين. وسيستغرق التعافي جيلين. فكلما أسرعنا في البدء بالتخطيط وتوفير جهد دائم، قلَّ الوقت الذي سنحتاج إليه للانخراط على المدى البعيد.

الفصل الثالث

وادي تاجاب .. الدورية والكمين

بينما كانت دوريتنا تسير على الطريق الوعرة متجهة إلى وادي تاجاب في ولاية كابيسا، جُلتُ بناظري عبر سهل شومالي الواقع شمال كابول، ورُحتُ أتذكّر تاريخه. فهذا السهل الممتد عبر أفغانستان على طول طريق الحرير القديمة، شهد عدداً لا يحصى من حروب الغزو على مدى آلاف السنين، خاضها جنود الإسكندر المقدوني، وجيوش الإمبراطورية البريطانية، والفرق المدرعة السوفيتية. توقّفنا مرات عدة للسماح لقطعان الماعز بعبور الطريق أمامنا، وكنتُ أترجّل من مركبتي وأضرب بقدمي الأرض الوعرة الرمادية. كنتُ قد قرأتُ عن تلك الحروب طوال حياتي، وبصعوبة أصدق أنني الآن جندي في جيش أجنبي آخر يعبر الأرض ذاتها. ولكن، خلافاً للجيوش الأخرى التي سبقتنا إلى غزو هذا البلد، كان جيشنا الوحيد الذي تعرّض بلده لهجوم عدو يتخذ من أفغانستان مقراً له. لم يكن هذا غزواً أو حرباً اخترناها بأنفسنا، بل أتينا إلى هنا لتخليص البلاد من حركة تمرّد آوت جماعة شنّت هجوماً مباشراً على الولايات المتحدة. وأنا أنظر إلى القرى المتناثرة في الأرياف، شعرت بضآلة ما أعرفه عن شعب هذا البلد، والورطة التي نوقع أنفسنا فيها.

كنّا ننفّذ "دورية إثبات وجود" في وادي تاجاب، الذي أصبح مرتعاً للمتمرّدين، لتوفير الأمن في المنطقة وجمع المعلومات. كان الوادي يمتد من الشمال إلى الجنوب على بعد نحو ستين كيلومتراً إلى الشرق من قاعدة باجرام الجوّية، ولا يفصله عن سهل شومالي سوى سلسلة جبلية صغيرة. كان هذا الوادي يمثّل محطة التوقّف الأخيرة للمتمرّدين الذين يعبرون الحدود من باكستان إلى أفغانستان؛ لتنفيذ هجمات على العاصمة كابول. كانت جماعة المتمرّدين الرئيسية في تاجاب هي الحزب الإسلامي الأفغاني، والجماعة يقودها قلب الدين حكمتيار وترتبط ارتباطاً ضعيفاً بطالبان. كان قلب الدين حكمتيار قد

لعب أدواراً مختلفة خلال سنوات الحرب الثلاثين في أفغانستان؛ إذ كـان واحـداً مـن قـادة المجاهدين في أثناء فترة مقاومة السوفييت، وشغل لفترة منصـب رئـيس الـوزراء قبـل أن تنشب الحرب الأهلية التي أصبح خلالها قائداً لميليشـيا قامت بقصف مواقـع خصـومه في كابول. وهو الآن يقود الحزب الإسـلامي الأفغـاني في مقاومتـه "للاحـتلال الأمريكـي" ولحكومة كرزاي، وذلك من مقره الواقـع في ضـواحي مدينـة بيشـاور في باكسـتان. كـان الحزب الإسلامي الأفغاني يعتبر أضعف مجموعـات المتمـرّدين الـثلاث؛ لأنـه كـما يُعتقـد يحصل على أقل قدر من الدعم من باكستان. وهو الأقل التزاماً بأيديولوجية معيّنـة بسـبب السمعة الانتهازية لحكمتيار. ومع ذلك، ظلت هذه الجماعة خطيرة؛ إذ كان فيها بعض قادة المستوى المتوسط الأكثر خبرة في التمرّد.

خريطة (5)

ولاية كابيسا



برغم امتلاكنا معلومات عن الحزب الإسلامي الأفغاني كتنظيم وعن بعض قادته في المنطقة، فإن معلوماتنا كانت ضئيلة عن وادي تاجاب وسكانه، وكان هذا الأمر مزعجاً بالنسبة إليّ. كانت معلوماتنا تقتصر على معلومات عن الحكومة المحلية والشرطة والاقتصاد المحلي، ولم نكن نعرف شيئاً عن التكوين القبلي لسكان المنطقة أو عن القبائل المؤيدة للحزب الإسلامي الأفغاني. والأهم من ذلك كله، هو أننا لم نكن نعرف سبب تأييد بعض السكان لذلك الحزب. هل الدافع أيديولوجي؟ أو هو تنافس قبلي؟ أو هو إساءات المسؤولين المحليين؟ كنتُ آمل أن تساعد الدوريات التي سننفذها في الوادي في الإجابة على هذه الأسئلة، ولكنني كنتُ مدهوشاً من محدودية معرفتنا لمنطقة قريبة بهذا الشكل من قاعدتنا الرئيسية في أفغانستان. كنّا في عام 2005؛ أي بعد 4 سنوات من بدء الحرب، سندخل المنطقة ونحن شبه معصوبي الأعين بسبب افتقارنا إلى معلومات استخباراتية مفيدة.

بعد بضع ساعات من سير المركبات شرقاً من باجرام على طرقات شديدة الوعورة إلى درجة أننا شعرنا بأن أمعاءنا كانت في مطحنة، وصلنا إلى خط من التلال المنخفضة التي يغلب عليها اللونان البني والرمادي، وتمتد من الشمال إلى الجنوب. وفي ناحية الجنوب يمتد وادي تاجاب الأخضر الذي تحيط به جروف صخرية في الجانبين. وبعيداً في ناحية الشمال، ترتفع قمم جبال هندوكوش المكسوّة بالثلج لتعانق السماء وترسم معها خط الأفق. كانت الطريق الوحيدة غير المعبّدة تمتد أمامنا عبر الوادي بمحاذاة الجرف الصخري في الجانب الغربي من الوادي. وكانت مجموعة من البيوت ذات الجدران الطينية تتناثر عبر المساحة الخضراء أو "المنطقة الخضراء" كما كنّا نسميها. بدت البيوت والقرى جميلة ووادعة، ولكنها كانت من وجهة نظري كوابيس عملياتية.

كانت القرى في تاجاب وفي جميع أنحاء أفغانستان مبنية منذ المئات أو الآلاف من السنين، وليس فيها طرق معبدة لمرور السيارات، فضلاً عن ناقلات الجنود أو العربات العريضة. كان قلة من الأفغان تمتلك السيارات؛ ومن ثم فقد كانت معظم الطرقات بعرض يتسع للمشاة فقط، أما السيارات القليلة التي يملكها الأفغان فكانت غالباً

سيارات صالون من طراز تويوتا كورولا أو شاحنات بيك-آب صغيرة. كانت المناطق الخضر تتكوّن من متاهات من الدروب وقنوات الري والحقول الصغيرة والأسوار الحجرية. وكانت مجاري الأودية الجافة تمر عبر هذه القرى بعمق يتراوح ما بين ثلاث أقدام وثلاثين قدماً. في موسم الجفاف، كانت هذه المجاري تشكل طرقاً حقيقية يمكن أن تسير عليها الشاحنات الثقيلة. أما في موسم الأمطار، فكانت تتحوّل إلى أنهار جارفة أو مستنقعات طينية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت مساحات حركتنا ومدى نيراننا وحتى قدرتنا على الرؤية عبر القرى محدودة؛ بفعل الجدران الطينية السميكة التي تحيط بكل منزل أفغاني. وهكذا كانت كل قرية تحوي العشرات من مواقع الدفاع الطبيعية والمواقع المناسبة للكمائن. كان كل منزل أشبه بحصن له جدران خارجية سميكة توفر التغطية والحماية لمقاتلي الجماعات المتمرّدة، وكل حقل كانت تحيط به قنوات ري وجدران حجرية تشكل خنادق طبيعية تمنع مركباتنا من عبورها. كنّا في أثناء دورياتنا نرى مجموعات مشتبهاً فيها من الرجال أو المركبات على الطرف الآخر من إحدى القرى، ونستغرق ساعات للوصول إليهم على الأقدام.

هذه التضاريس الصعبة جعلت وجود قوات التحالف في المنطقة شكلياً، وأسهمت في جهلنا بالناس فيها. كان الكثير من الوحدات، وخاصة وحدات قوات التحالف، يبقى خارج المناطق الخضر، وهي تقوم بما أطلقنا عليه عبارة "مكافحة التمرّد من المركبات"؛ حيث كانت الوحدات تتجه في مركباتها إلى مخافر الشرطة والمراكز الإدارية للحكومة الأفغانية التي يوجد غالباً طرقات تقود إليها، وتقتصر في دورياتها على دعوة المسؤولين أو الوجهاء المحليين إلى اجتماعات هناك. كان من الواضح أن معظم هذه الوحدات، لا تريد ترك الأمان النسبي الذي توفره الأسلحة الثقيلة وأجهزة اللاسلكي والإمدادات المتوافرة في العربات، والذهاب إلى المتاهات المجهولة في المناطق الخضر الأفغانية. ومما زاد الأمر سوءاً أن محاولة عبور هذه المناطق سيراً على الأقدام كان مرهقاً جداً. وهذا ينطبق بشكل خاص على الوحدات التقليدية التي كان عليها حمل معدات أكثر مما تحمله وحدات العمليات الخاصة؛ مثل الدروع والخوذات والذخيرة الإلزامية، وغير ذلك من العتاد. هذا

كله كان يثني الوحدات عن الدخول إلى القرى والتفاعل مع الأفغان، وهذا بدوره جعل فهمنا محدوداً جداً للعلاقات الاجتماعية والسياسية المعقّدة التي كانت تختلف من ولاية إلى أخرى ومن مديرية إلى أخرى في أفغانستان.

كانت قرية كورا تقع على بعد نحو ثلث الطريق من الطرف الشمالي للوادي. وكان في طرفها الغربي مدرسة بنات مهجورة اتخذت منها الشرطة الوطنية الأفغانية المحلية مقراً لها. كانت المدرسة عبارة عن مبنى مستطيل منخفض مبنيّ من الحجر الرمادي ويقع على بعد مسافة قصيرة من الطريق. كانت جدرانها الداخلية مطلية باللون الأبيض، أما زجاج نوافذها فمكسور أو منزوع من مكانه، وغرفها خالية من أي أثاث ما عدا لوحاً أسود صغيراً على الجدار. وكانت تفوح في المكان رائحة براز من مرحاض حجري صغير بُني فوق حفرتين في الأرض.

كانت المدرسة في أعلى تلّة صغيرة تشرف على كورا، وكانت فيها باحة فسيحة يحيط بها جدار حجري بارتفاع ست أقدام، ما جعلها مكاناً مثالياً لإنشاء قاعدة دوريات لمركباتنا. حالما توقّفنا، صعدتُ إلى سطح المدرسة لإلقاء نظرة على قرية كورا. كانت القرية عبارة عن شبكة تقليدية من الحقول التي تحيط بها جدران ومسارات وأقنية تتناثر فيها عشرات البيوت بجدرانها الشبيهة بالحصون. كانت القرية تمتد عبر الوادي باتجاه الجنوب والشرق ويمر عبرها وادٍ عميق من الشمال إلى الجنوب. كنّا في أواخر شهر إبريل، وكانت زهور الخشخاش تغطي الحقول وتضفي على المكان مسحة من الصفاء.

أردتُ إرسال دورية راجلة إلى القرية للتعرّف إلى المنطقة وإلى طريقة تفاعل القرويين معنا. كانت القوات الخاصة الإماراتية قد أتت إلى هنا بضع مرات لمتابعة بعض مشروعات التنمية الصغيرة التي ورثتها عن جمعية الهلال الأحمر (النسخة الإسلامية المماثلة للصليب الأحمر). والمعلومات القليلة التي استطعتُ الحصول عليها قبل مغادرة باجرام، كانت تشير إلى أن كل دورية تقريباً تتجه إلى كورا كانت تتعرّض لهجوم، كما تؤكد

ذلك الثقوب الكثيرة التي أحدثتها طلقات الرصاص في الجدران والبقع السود التي خلّفتها قذائف سلاح الآر بي جي. لذلك لم أكن أنوي الجلوس بانتظار حدوث الهجوم.

اتجهتُ إلى قائد الشرطة وقائد الفصيل الإماراتي، النقيب حسين، اللذين كانا يتبادلان الحديث في أثناء شربهما الشاي الأخضر الأفغاني على شرفة المدرسة الأمامية. كنتُ أريد التعرف إلى قائد الشرطة ورجاله ووجهة نظرهم فيما يجري في الوادي. كان القائد قصيراً ممتلئ الجسم، له الشارب الضخم نفسه الذي يميز الكثير من الطاجيك، ويجلس مسترخياً على النصف السفلي من سرير مرتفع تم سحبه لاستخدامه كأريكة.

بادرني قائد الشرطة قائلاً: "لا توجد مشكلات في كورا يا صديقي". عرّفني بنفسه قائلاً: إنه النقيب فهيم، وأمسك كلتا يديّ بحرارة. سحب أحد رجاله دلواً مقلوباً لأجلس عليه، بينما انحنى أمامي خادم القائد، الذي يسمى عادة "صبي الشاي" حاملاً صينية عليها شاي في أكواب داكنة اللون. كان من الواضح أن الأكواب لم تغسل منذ فترة طويلة، إذا افترضنا أنها غُسلت يوماً. تناولت كوباً وأخذت رشفة من الشاي، ثم شكرته باللغة الدارجة قائلاً: "تشكُّر".

في أفغانستان من الوقاحة أن يدخل المرء في صلب الموضوع مباشرة من دون السؤال عن حال العائلة والقرية وغيرها من الأمور الشخصية. وبعدما أمضيت بعض الوقت في دردشة صغيرة، أشرتُ إلى الثقوب التي خلّفتها الرصاصات في الجدار فوق كتف فهيم وسألته: "إن لم تكن هناك مشكلات، فلماذا هذه المدرسة في هذا الوضع السيّئ؟".

أجاب فهيم محاولاً تقديم نفسه كرجل طيّب: "لقد بنى الكوريون والأمريكيون هذه المدرسة في عام 2003، ولكن الحكومة لم تعتنِ بها. أنا أعتني بها قدر استطاعتي وبالاعتماد على المال القليل الذي يُتاح لي". كانت في الخارج لافتة معدنية قديمة صدئة يزيّنها العلمان الأمريكي والأفغاني وبعض رموز وكالات الإغاثة وقد كُتب عليها: "هذه

المدرسة الابتدائية مخصصة لفتيات وادي تاجاب في ولاية كابيسا. وهي مشروع مشترك نفّذته الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، ووزارة إعادة الإعمار والتنمية في المناطق الريفية في أفغانستان في عام 2003". كانت تلك اللافتة رمزاً للنيات الحسنة مع غياب المتابعة من جانب المجتمع الدولي في أفغانستان، حتى هذه اللحظة!

قلتُ "أعني مشكلات تتعلق بالأمن في القرية" ونظرتُ إلى مترجمنا الجديد، سامي، وهو يبدأ بالترجمة. "إن لم تكن هناك مشكلات في كورا، فلماذا هذه الهجمات الكثيرة على هذه المدرسة الجميلة؟ أنا على يقين أن كورا تفخر بأن تكون فيها واحدة من أحدث المدارس الابتدائية في الوادي".

نظر النقيب فهيم إليّ بضع لحظات بينما ترجم سامي أسئلتي. كان سامي شاباً ينفّذ أول مهمة ترجمة له، ولم يكن سعيداً بالقدوم إلى وادي تاجاب، وكان التوتّر ظاهراً عليه. أجابني فهيم: "لقد هاجم رجال طالبان هذه المدرسة في الماضي، كما ترى. هم يعتقدون أن التعليم غير مناسب للفتيات. وقد توقف القرويون عن إرسال بناتهم إلى هنا، فتوقّفت الهجمات. الفتيان فقط يأتون إلى هنا. وطالبان لا تهاجم هذه المدرسة الآن إلا عندما تصلون أنتم".

كان قصده واضحاً: لقد أبرم صفقة مع المتمرّدين المحليين. إذا لم يزعجهم فلن يزعجوا شرطته. والأمور لا تسوء إلا عندما تأتي القوات الأمريكية أو قوات التحالف. كان من الواضح أن فهيم مستعد للتضحية بتعليم فتيات كورا من أجل المحافظة على السلام؛ للأسف! كانت الشرطة الأفغانية، وأحياناً الجيش الأفغاني، يبرمان صفقات محلية مع قادة المتمرّدين. وكان الدافع إلى ذلك يتراوح ما بين انتساب الطرفين إلى القبيلة ذاتها، وزواج المصلحة الذي يسمح للشرطة بالمحافظة على الهدوء النسبي، وجعل المتمرّدين يسعون وراء أهداف أخرى. كانت قوات التحالف لا تعلم غالباً بما يحدث فعلياً، لأننا كنّا نتجه إلى ساحة المعركة انطلاقاً من مواقعنا الشديدة التحصين، ولا نتلقّى منهم أي معلومات سوى لقطة مصورّة يرسلونها بين الحين والآخر.

سألته: "نود القيام بجولة على الأقدام في كورا. هل ستسمح لبعض رجالك بمرافقتنا؟".

عندما أنهى سامي ترجمة سؤالي، نادى القائد أحد رجاله ووجّه إليه بعض الأوامر، ثم قال: "سيرافقكم في الدورية ستة من رجالي العشرة الموجودين هنا اليوم".

تابعنا حديثنا لمدة تقارب نصف الساعة، زاد فيها شعوري بالإحباط بسبب عدم معرفتنا بالمنطقة. لم أكن أعرف شيئاً عن رئيس الشرطة هذا، برغم أنه أخبرني أنه يشغل منصبه هذا منذ نحو السنتين. لم تكن لديّ فكرة عن التكوين القبلي لهذه القرية، أو عن سبب تأييد سكانها للحزب الإسلامي الأفغاني. خلال البحث الذي أجريته قبل مغادرة قاعدة باجرام، لم أستطع تحديد آخر مرة جاءت فيها وحدة أمريكية أو منظمة غير حكومية إلى الوادي، فضلاً عما حدث حينها، أو الأشخاص الذين تعاملوا معهم. كل ما استطعت معرفته بعد العثور على بعض التقارير الاستخباراتية عن المنطقة، هو أن قائداً محلياً في الحزب الإسلامي الأفغاني اسمه قاري باريال كان يبيت بشكل منتظم في منزل حميه في كورا. ويبدو أن كتيبة قوات خاصة أخرى حاولت الحصول على معلومات تحدّد لها موقع المنزل، أو تعطيها إشارة عند وجود باريال لكي تنفّذ غارة لإلقاء القبض عليه. باستثناء هذه المعلومات عن باريال لم تكن لديّ أدنى فكرة عما يحدث في القرية، أو في وادي تاجاب.

قبل الانطلاق لتنفيذ المهمة، حاولتُ أن أعرف على الأقل بعض المعلومات عن سبب بناء المدرسة في تلك القرية تحديداً في تاجاب. ولكنني لم أعثر على أي معلومات لدى مقر القيادة العليا لقوات العمليات الخاصة المشتركة.

تحدثتُ إلى النقيب المسؤول عن تحليل المعلومات الاستخباراتية، وسألته: "أخبرتني القوات الخاصة الإماراتية أن دورياتها في البعثات السابقة كانت تتوقّف في مدرسة في قرية اسمها كورا. هل نعرف لماذا بُنيت مدرسة جديدة في تلك القرية تحديداً؟ هل كانت هناك

قبيلة أو أحد الوجهاء نعمل على التأثير فيهما لسبب معيّن؟ هل لدينا أي معلومات عن الوجهاء أو الأشخاص الذين تعاملنا معهم في السابق؟". هز كتفيه قائلاً: إنه سيحاول العثور على أي تقارير أعدتها الدوريات السابقة، ولكنه حذّرني من أن كل بعثة كانت تنظّم ملفاتها بطريقة مختلفة، ثم تقوم بأرشفتها قبل وصول البعثة اللاحقة؛ "نحن نعلم أن مشروعات التنمية في ذلك الوادي كانت نتيجة جهود ومساعدات أمريكية في عام 2002 أو عام 2003. ولكننا لا نستطيع الوصول إلى قاعدة بيانات عن مشروعات المساعدات. وبصراحة، لا أعرف إن كانت هناك قاعدة بيانات أصلاً أو لا. وإذا كانت هناك قاعدة بيانات من إعداد إحدى الدول المشاركة في التحالف مثل كوريا أو ألمانيا، فليس لديّ أي فكرة حول كيف سأستخرج منها المعلومات التي تحتاج إليها. يمكنني فقط أن أعطيك بعض الملفات عن قادة الحزب الإسلامي الأفغاني الذين نعلم أنهم ينشطون في تاجاب".

لم يكن لدى مكتب الاستخبارات في قيادة الفرقة أو لدى فريق إعادة الإعمار في الولاية الذي تقع مكاتبه في الطرف الآخر من قاعدة باجرام، الكثير من المعلومات عن مشروعات التنمية أو العمليات السابقة، باستثناء التي قامت بها الوحدات التابعة لهم خلال فترة عملها. وكل ما عرفته منهم هو أن كل من يذهب إلى الوادي يتعرّض عادة للهجوم، مع ذكر المواقع التي حدثت فيها الهجمات. أذهلتني ضحالة معلوماتنا وتحليلاتنا. لم يكن أحد يعرف من الذي ينفّذ الهجمات؛ أعصابات إجرامية أم متمرّدون أم قبائل غاضبة منّا بسبب اعتقادها أننا ندعم القبائل المنافسة لها؟ باختصار، أصبحنا ماهرين جداً في توفير المعلومات عما حدث، ولكن قدرتنا على التحليل ومعرفة أسبابه ضعيفة.

في غياب المعلومات، بدأ عدد من رجالي يسخرون من الدوريات التي ننوي تنفيذها ويسمونها "الدوريات المتجهة إلى الكمين". من الناحية النظرية، كانت الغاية من الدوريات إبقاء العدو في حالة استنفار، وتوفير قدر من الأمن للسكان، وجمع المعلومات الاستخباراتية عن المنطقة. كان تسيير الدوريات عنصراً أساسياً في مكافحة التمرّد. ولكننا لم نكن نبني قاعدة معلومات تراكمية نضيف إليها في كل مهمة، بل كنّا نسير

الدوريات إلى مناطق لا نعرف شيئاً عن الوضع فيها ونتوقّع أن نواجه كميناً تنصبه لنا طالبان، ثم نعتمد على تفوقنا التكتيكي وقوتنا النارية، والدعم الجوي أحياناً للخروج من ذلك الموقف. وبطبيعة الحال لم أكن من أنصار هذا النهج.

كان لجهلنا أسباب متعددة. فنظراً إلى محدودية قدرات جمع المعلومات الاستخباراتية، كنّا نعطي استهداف قادة التمرّد الأولوية. وكان تعاملنا مع الأفغان سطحياً. والأهم من ذلك هو أننا أخفقنا إخفاقاً ذريعاً في تبادل المعلومات بين الأطراف الدوليين في أفغانستان وفي جمع المعلومات بشكل تراكمي مع مرور الوقت. في تلك المرحلة من الحرب، كان جهاز استخباراتنا العسكرية يركّز فقط على تعقّب قادة المتمرّدين وتحديد أماكنهم وقتلهم أو أسرهم. ولم يكن مفاجئاً بالنسبة إلي، أن المساعدة الوحيدة التي استطاع مكتب استخباراتنا تقديمها كان معلومات عن أحد قادة المتمرّدين المُستهدفين. لم يكن ذلك بسبب تقصير استخباراتنا العسكرية، بل كان بسبب نقص الموارد في أفغانستان في ذلك الوقت، وطريقة تحديد الأولويات بناءً على هذه الموارد القليلة المتاحة. كانت أغلبية الأدوات وأكثر موظفي جمع المعلومات في العراق، والموارد القليلة المتوافرة في أفغانستان كانت تركّز على مهمات القتل والاعتقال. فهذه المهمات كانت محورية في جهود مكافحة التمرّد لأنها كانت تشكّل ضغطاً على قيادة التمرّد من خلال وضعها تحت تهديد مستمر. وكان المطلوب تنفيذ هذه المهمات بدقة بالغة؛ لتجنّب إيقاع ضحايا من المدنيين أو إلحاق أضرار بالممتلكات. ولكن إعطاء هذه المهمات الأولوية كان يعني عدم بقاء موارد تُخصّص لجمع المعلومات عن الأسباب السياسية والاقتصادية والقبلية لحالة عدم الاستقرار في المناطق الريفية في أفغانستان التي كانت ضرورية أيضاً لهزيمة التمرّد. كثيراً ما كنتُ أناقش حالة أننا ندور في حلقة مفرغة؛ حيث يؤدي تجاهل هذه الجوانب السياسية والاجتماعية إلى ظهور المزيد من قادة التمرّد؛ ومن ثم الحاجة إلى تركيز المزيد من الجهود الاستخباراتية على مهمات القتل والاعتقال. وكانت النتيجة التي أخلص إليها دائماً هي أنه لا يجوز التركيز على جانب واحد وترك الآخر، وإذا كنّا جادين فعلاً في محاربة التمرّد في أفغانستان، فإنه يجب أن تكون لدينا موارد تكفي للمضي في كلا المسارين.

الأمر الذي لم أستطع فهمه، هو: لماذا لم تكن لدينا قاعدة بيانات يمكن البحث فيها، وتسمح لنا على الأقل بالاستفادة من الجهود التراكمية لجمع المعلومات ومن بيانات الدوريات القتالية خلال السنوات الماضية؟ كان من المفترض أن أقوم بصفتي قائداً تكتيكياً بالبحث في قاعدة البيانات عن "وادي تاجاب"؛ فتظهر لي معلومات عن كل دورية وكل غارة وكل مشروع تنموي في تلك المنطقة خلال السنوات الأربع الماضية، وأقرأ تقارير الوحدات السابقة عن تعاملاتها مع الأفراد الأفغان والوعود التي قطعتها لهم. ولكن لم تكن قاعدة البيانات هذه موجودة، ولم يكن هناك أي تفسير لذلك. وفي نهاية المطاف، كان علينا الذهاب إلى القرى الريفية، ومعرفة ما يجري فيها، ومحاولة التأثير الإيجابي في الوضع فيها قدر المستطاع.

لم أكن قلقاً بشأن الدورية ذلك اليوم في كورا، برغم التقارير عن مقاتلي الحزب الإسلامي الأفغاني وقاعدة عمليات قاري باريال في القرية. كان هناك الكثير من المؤشرات الإيجابية المعتادة: الأطفال يلعبون عند الأبواب الأمامية، والمزارعون في حقولهم، والنساء منهمكات في أعمالهن اليومية. لو كانت هناك معركة ستقع، لكان القرويون عرفوا بذلك.

نظرتُ إلى ناحية البوابة؛ حيث تجمّع الرجال الذين سينطلقون لتنفيذ الدورية. كانوا يرتدون خليطاً من الألوان؛ عناصر الشرطة الوطنية الأفغانية في زي أزرق رمادي، وجنود الجيش الوطني الأفغاني في زي مموّه أخضر وبني يشبه الزي القديم الذي كان يرتديه الجيش الأمريكي في الغابات، والجنود الأمريكيون في زي مموّه لونه "بيج" وبني. فضّل النقيب حسين أن يبقى رجاله في مركباتهم على التلّة، ودار بيننا نقاش قصير وحاد حول عدم استعداده لإرسال رجاله في دورية معنا. كان واضحاً بالنسبة إلي أن الكثير من رجاله أرادوا الذهاب معنا، ولكن لم تكن لي سلطة رسمية على قائد الفصيل، فاستسلمت للأمر.

قام معظم الرجال الذين ينتظرون بدء الدورية بتفقّد معداتهم. كانت المعدات الأساسية التي يستخدمها المشاة قد ظلّت على حالها بين عامي 1970 و2000. فخلال أيام

خدمتي قبل هجمات 11 سبتمبر 2001، كان الجندي الأمريكي العادي يحمل معدات مماثلة تقريباً للتي كان يحملها في أثناء حرب فيتنام. ولكن حدثت ثورة في معدات المشاة بعد 11 سبتمبر 2001، وكان التغيير الأكبر هو استخدام دروع مقاومة للرصاص مغطاة بأحزمة تسمح للعنصر بترتيب أي عدد ونوع من الجعبات بعدد لا يحصى من الخيارات، حتى إن تعديل توزيع حمل المرء من العتاد أصبح بمنزلة إدمان لمعظم الرجال في الوحدة. ولم يعد أي من عناصر القوات الخاصة راضياً تماماً عن ترتيب عتاده، فهناك دائماً طريقة لتحسينه بهدف توفير أجزاء من الثانية من الوقت اللازم للوصول إلى مخزن إضافي أو مصباح يدوي أو ضماد وقف النزف، أو شيء آخر يساعد في إنقاذ الحياة.

خلافاً لعناصر وحدات المشاة العادية، كان بإمكاننا تنويع العتاد الذي نحمله برغم أن بعض الأشياء كانت إلزامية؛ مثل الدرع الواقية من الرصاص، والمكوّنة من: صفيحتين في الأمام والخلف، وبندقية M4، ومسدس، وأدوات الإسعاف الأولي، وجهاز محمول لتحديد المواقع، وجهاز لاسلكي فردي يطلق عليه اسم أمبيتر (mbitr)، ومخازن رصاص إضافية طبعاً. وباستثناء ذلك، كان كل شيء اختيارياً.

برغم أن التقدم التكنولوجي أسهم في تخفيض وزن عتادنا، فإن الجميع يبدو أنهم كانوا يحملون المزيد من العتاد، ما جعل متوسط الوزن الذي يحمله أي عنصر يتراوح ما بين 20 و30 كيلوجراماً. وقد اخترت أن يكون حملي أخف؛ لأن القرية بدت أشبه بمتاهة من الجدران والدروب والأودية. ولم يتضمّن عتادي سوى 4 مخازن إضافية لبندقيتي (كان الحمل الأساسي لوحدات المشاة القياسية 7 مخازن)، وجهاز تحديد المواقع، وجهاز لاسلكي أمبيتر، ومنظار الرؤية الليلية لأن الوقت كان يقترب من المساء. والعامل الأهم في قراري أن يكون عتادي خفيفاً ذلك اليوم بما في ذلك ترك خوذتي، هو أنه كان في نيتي محادثة القرويين في كورا، وأردتُ أن يكون مظهري مطمئناً قدر الإمكان. كانت لحيتي قد نمت بشكل كامل في هذا الوقت، فاعتمرت القبعة الأفغانية (باكول) ووضعت وشاحاً على كتفي لأخفي معظم العتاد الذي أحمله. كنتُ آمل أن يبدو شكلي عن بعد غير مختلف كثيراً عن شكل جنود الجيش الأفغاني.

بعد إعطاء لمحة سريعة عن مهمة الدورية، غادرنا المدرسة في رتلين متوازيين وسرنا عبر مركز القرية من الغرب إلى الشرق. كان كل رتل يتكوّن من ثلاثة جنود أمريكيين وثلاثة جنود من الجيش الأفغاني وثلاثة عناصر شرطة. وعندما وصلنا إلى الطرف الشرقي للقرية، انقسمنا إلى مجموعتين، واحدة أقودها أنا، وواحدة يقودها الرقيب الأول إيريك، الذي كان ضخم الجثة. سار إيريك في المقدمة وتبعه الأفغان باتجاه الشمال نحو القرية، أما أنا فقدتُ المجموعة الأخرى نحو الجنوب في مسار يلتف حول القرية ويعود إلى القاعدة. وقد سمح هذا بأن يرانا الناس في جزء كبير من القرية مع بقائنا قريبين، بحيث نستطيع دعم بعضنا بعضاً إن حدث شيء. كما حرصت على أن يكون ظهر كل مجموعة في اتجاه المجموعة الأخرى بحيث تُطلق كل منهما النار في اتجاه بعيد عن الأخرى في حالة وقوعنا في كمين.

في أثناء سير دوريتنا في القرية، كنتُ أحيي الرجال المحليين الذين نصادفهم، وأقف أحياناً للحديث معهم. كنتُ غالباً ما أترك الملازم الأفغاني يتسلم زمام الحديث في المناقشات، بل أحثّه على ذلك. ولكنه بعد مدة صار يبدأ أحاديث مع الناس وحده. وبعد مسير الدورية ليوم كامل وإجراء لقاءات عدة مع الوجهاء المحليين في المدرسة، صرت أتساءل: لماذا لم يكن لنا وجود دائم في الوادي؟ كانت شكاوى الوجهاء مماثلة للشكاوى التي سمعناها في ولاية أوروزغان في وقت سابق من السنة، وفي جميع أنحاء أفغانستان. لم يكن أولئك الناس يريدون عودة طالبان، ولكنهم كانوا عاجزين عن المقاومة عندما تمر مجموعات من الرجال المسلّحين عبر كورا، أو عندما يعود أحد رجال القرية من خارج الحدود محملاً بالمال والأسلحة ويقوم بإنشاء خلية محلية. وكانت الشرطة والحكومة المحليتان عاجزتين أو لا تمتلكان الكفاءة؛ أو تتصفان بالأمرين معاً. والأهم من ذلك كله، هو أن القرويين كانوا يشعرون بخيبة الأمل؛ لأن حياتهم لم تتغيّر بعد قدوم الأمريكيين. ذكّرتهم أن الشعب الأمريكي هو الذي بنى المدرسة الواقعة على حافة القرية، ولكنهم شكوا أن المدرسين لا يحصلون غالباً على أجرهم، والأطفال لا تتوافر لهم أي من لوازمهم

المدرسية، والشرطة والحزب الإسلامي الأفغاني يتناوبان على جباية الضرائب من السكان المحليين.

أشار الوجهاء إلى أن الوضع سيختلف لو أنشأ الأمريكيون قاعدة في تاجاب، وراقبوا أداء الشرطة، وساعدوا في تنشيط الاقتصاد المحلي، بحيث يستطيع الرجال المحليون العمل في الوادي بدلاً من السفر إلى كابول. شعرتُ بأن بإمكاننا إحداث تغيير من خلال جمع معلومات عن الشخصيات المحلية وأصحاب النفوذ، وتنفيذ بعض المشروعات التي تحتاج إلى يد عاملة كبيرة. ولكن البنتاجون كان يخطط لتخفيض، وليس زيادة، عدد الجنود الأمريكيين في أفغانستان على المدى الطويل.

في اليوم اللاحق، وبينما كانت الشمس تميل نحو الغروب، رأينا سلسلة من أضواء مصابيح اليد تصدر إشارات عبر الوادي من طرف إلى آخر. وفوجئت عندما اقترح عليّ قائد فصيلة الاستطلاع الأفغانية، وهو برتبة رقيب أول، أن نرسل دورية عبر التلال المحاذية للجزء الغربي من الوادي إلى المكان الذي يصدر منه أحد الأضواء. كانت هذه أول مرة أرى فيها شيئاً كهذا. فكما هي حال معظم الجيوش في العالمين الثاني والثالث، كانت معظم الفصائل الأفغانية تحت قيادة ضابط ذي قبضة حديدية. وعادة ما يكون هذا الضابط هو الشخص الوحيد في الفصيلة الذي تلقّى تعليماً، ولديه معرفة مؤسسية وحافز لإنجاز ما هو مطلوب. كان من النادر فعلاً أن يرى المرء رقيباً أول يقترح صعود تلال وعرة إلى مكان يبدو أن المتمرّدين موجودون فيه، ولم أكن لأرفض ذلك الاقتراح.

كنتُ قد تعرفت إلى الرقيب الأول، واسمه سومر، في مهمات سابقة قبل أن تُلحق فصيلته بنا في الدورية المتجهة إلى تاجاب. كان جميع أعضاء فريقي يتفقون معي في أنه ذو معدن نادر؛ حيث كان أكثر حزماً وفعالية من قائده الملازم. كان ينتمي إلى قبيلة الشينواري البشتونية المعروفة بدعمها للحكومة وبمواقفها المعتدلة إزاء القضايا الاجتماعية. كان ضخم الجثة؛ حيث يزيد طوله على 180 سم ويزن على الأقل 100 كيلوجرام.

كان سومر من جلال آباد، ولديه ستة أطفال. كنتُ أتساءل دائماً عن السبب الذي يدفع رجال البشتون إلى الوقوف إلى جانب الحكومة، والمخاطرة بحياتهم وحياة أفراد عائلاتهم للالتحاق بالجيش. كان هذا السبب واضحاً في حالة رجال الطاجيك والأوزبك والهزارة؛ وهو الاختلافات الإثنية مع طالبان التي ينتمي أغلبية رجالها إلى البشتون، والقمع الشديد للأقليات تحت حكمها. ولكن وقوف البشتون إلى جانب الحكومة ضد طالبان كان أمراً شديد التعقيد ويرتبط غالباً بصراعات قبلية قديمة. وفي رأيي كانت الدوافع التي تدفع رجال البشتون إلى معارضة طالبان هي المفتاح لإطلاق مقاومة شعبية. لقد كان سومر مثالاً حياً على ما يمكن تحقيقه، ولكن الاستخبارات الأمريكية لم تكن قادرة على فهمه؛ هو وأمثاله.

حدثني سومر عن والده الذي كان يؤكد أهمية التعليم الذي سيسهم في إخراج العائلة من دائرة الفقر وتحسين مستوى معيشتها. ولكن من سوء حظ سومر، أنه نشأ وسط الحرب الأهلية الأفغانية في التسعينيات وتحت حكم طالبان، ولم تُتح لوالده فرصة إرسال أبنائه لإكمال تعليمهم في الخارج. أخبرني سومر أن مجموعة من عناصر طالبان أتوا إلى قريته في أحد الأيام في أربع سيارات بيك-آب وأمروا بإغلاق مدرسة البنات فيها. ولكن القرويين تابعوا تعليم بناتهم سراً في البيوت تحت طائلة التعرّض لانتقام طالبان.

أخبرني سومر أن قبيلة منافسة ما زالت تدعم عناصر طالبان المحليين في ننجرهار، وكانت تهرّب الرجال والأسلحة عبر جبال تورا بورا لتنفيذ عمليات ضد الحكومة. كان يريد إنهاء واجبه مع الجيش ثم العودة إلى قريته لقيادة ميليشيا قبيلته الشينواري في مسعى استئصال طالبان من موطنه. تردّد سامي، المترجم لحظة، في أثناء حديثه وغرز سكينه في الأرض كمن يحاول اقتلاع نبتة من جذورها، ثم قال: "يريد أن يعرف إذا كنتَ ستذهب معه إلى قريته أو لا. وهو يقول إنه بوجود بضعة رجال من ذوي اللحى (في إشارة إلى اللحى التي أطلقها عناصر القبعات الخضر)، يساعدونهم على التنظيم وطلب الدعم، يمكنهم القضاء على طالبان في جميع مناطق جنوب ننجرهار.

أضاف سومر: "ولكن يجب أن تقف أمريكا إلى جانبنا".

أجبته: "ستقف أمريكا إلى جانبكم. فمستقبلنا هو مستقبلكم. سأكون سعيداً بالقدوم معك، سومر. أنت قائد، وسأكون فخوراً بدعمك في حماية قريتك من طالبان".

جلستُ أفكر في كيفية تقديم هذه الفكرة إلى القيادة العليا لقوات العمليات الخاصة المشتركة، أو حتى في واشنطن. لم يكن بمستطاعي أن أتخيّل أن قيادتنا ستسمح لبضعة رجال من أصحاب القبعات الخضر بالعيش مع الأفغان في قريتهم بدلاً من القواعد الكبيرة المحمية جيداً، فهذه ستكون مخاطرة كبيرة. بالإضافة إلى ذلك، كان الجنرال إيكنبيري، قائد القوات الأمريكية في أفغانستان عام 2006 يعمل على تسريح جميع عناصر ميليشيات السنوات الأولى من الحرب؛ حيث كان هو والآخرون يرون فيهم قوة منافسة للجيش والشرطة الأفغانيَّين الوليدين. كنتُ أتفق مع هذا الرأي نظرياً، ولكنني شعرتُ بأننا نتخلّى عنهم بشكل مبكر جداً. فالجيش الأفغاني يحتاج إلى وقت طويل حتى يصبح قادراً على حماية المناطق الريفية، وتسريح الميليشيات المحلية بسرعة سيوجد فراغاً أمنياً تملؤه طالبان بكل سهولة.

ولكن الحديث مع سومر ساعدني على معرفة الاتجاه الذي يجب أن نتبعه في هذه الحرب. فبإمكاننا تشكيل ميليشيات قبلية يشرف عليها كوادر من قادة الجيش الوطني الأفغاني، وتكون أشبه بقوات حرس وطني أفغاني تكمّل في عملها عمل الجيش الأفغاني بدلاً من أن تنافسه. سيتم كسب هذه الحرب وادياً وادياً وقرية قرية، وهذا سيتحقّق عن طريق الاستعانة بالقبائل. ولكن قبل أن نحاول تنفيذ هذا البرنامج، يجب أن نصبح أذكى في تعاملنا مع شبكة العلاقات المحلية، ولا يجوز أن نبقى جهلة كما شعرتُ طوال تلك الدورية في وادي تاجاب.

في ذلك اليوم، ونحن نصعد التلّة، في بعض الأحيان، زحفاً، رأينا سومر يقود رجاله أحياناً بتشجيعهم وأحياناً بالعودة إلى الخلف ودفعهم إلى الصعود. نظر إليّ مبتسماً

وأنا ألهث متنقلاً خلفه من صخرة إلى أخرى. برغم أنني لم أحمل إلا معـداتي الخفيفـة، فقـد كان وزنها أكثر من 15 كيلوجراماً، بينما كان حمل سومر يقتصـر على بندقية AK-47 معلّقـة على ظهره ومخزنين احتياطيين في جعبته. ابتسم وقفل عائـداً إلى مقدمـة الرتـل. في الجـيش الأمريكي، كان الضباط الذين يشاركون رجالهم في المخاطر يحظون باحترام كبير. فمهمـة الضباط هي وضع الخطط، ومهمة الرقباء تنفيذها. أما في الجيش الأفغاني، فكلما ارتفعـت الرتبة، زادت المكانة وقلّت المخاطر. ومعظم الضباط والرقباء الأفغان يبقون في مكـاتبهم؛ إذ إن المحافظة على القوة ومصادرها هي الطريق للبقاء في أفغانستان. كان سومر قدوة لنـا في تلك الدورية، وكنّا سعيدين بتركه يتسلم زمام القيادة.

عندما وصلنا إلى أعلى التلّة، وجدنا درب ماعز، وعليه آثار إطارات لسـيارات عدة بدت حديثة نسبياً. وفي أحد المواقع المطلّة على الـوادي وجـدنا صـندوقي ذخـيرة فـارغين لرشاش PKM روسـي الصنع.

في صباح اليوم اللاحق، كانت كورا هادئة بشكل مريب، ولم يكـن الأولاد يلعبـون عند أبواب البيوت. صعد الرقباء فرانـك وإيريـك وبـراين وجراهـام إلى سـطح المدرسـة لمراقبة القرية بالمنظار، فلم يروا سوى ما يقـارب عشـرة رجـال في حقـولهم، بيـنما كانـت الحقول مملوءة بالعمال في اليوم السابق. اتصل النقيب حسـين بأحد وجهاء كورا على هاتفه المتحرك، فأخبره أن الكثير من الرجال ذهبوا إلى أسواق كابول في ذلك اليـوم. بـدأ القلـق يبدو على حسـين من أن هناك هجوماً وشـيكاً، وبدأ يتساءل بصوت مرتفع: هل كان علينا العودة مبكراً إلى باجرام. استطعتُ أنا وبعض الضباط الإمـاراتيين الآخـرين إقناعـه بـأن المغادرة الآن سترسل رسالة خاطئة. أمضـينا ساعات الصباح في مرافقة بعثة مدنية إماراتية كانت تتفقّد الكثير من مشـروعات التنمية الصغيرة في المنطقة، ثم الاستعداد لتنفيذ دورية أخرى في كورا بعد الظهر. كان جراهام، وهو بطل مصارعة سـابق مـن ألاباما والرقيـب المسؤول عن الاتصالات في فريقنا، ذا شخصـية مرحة، وكان يحكي النكات في أثناء انتقاله من مركبة إلى أخرى للتأكد من جاهزية بطاريـات أجهـزة اللاسـلكي. وكـان يـردّد دائـماً

عبارات من فيلمي "ويدينج كراشرز" و"ذا فورتي يير أولد فيرجن" في أثناء تأدية عمله. أما براين، المسعف الطبي، فكان عمره ضعف عمر جراهام، وكان جدّياً في طبعه. كان يبتسم بصمت وهو يسمع نكات جراهام في أثناء وضعه مستلزمات طبية إضافية في حقيبة الإسعافات. لقد كان براين مساعد طبيب في حياته المدنية، وكان واحداً من أفضل المسعفين في الوحدة، وكنتُ أحرص على إبقائه قريباً مني دائماً.

عندما صرنا جاهزين لمغادرة المدرسة لتنفيذ الدورية، بدا أن معظم رجال الشرطة الأفغانية قد اختفوا، بمن فيهم قائدهم فهيم. سألت الرقيب صاحب الرتبة الأعلى بين من بقوا إن كان بإمكانه إرسال بعض الرجال معنا في الدورية، فأجابني أن قائده ذهب إلى كابول لأمر عاجل، وأنه ليس لديه الصلاحية لإرسال أحد معنا.

وللتعويض عن غياب عناصر الشرطة، جلبت رقيباً أمريكياً من سرية عمليات نفسية انضمت إلينا في المدرسة، وكان يريد الخروج في دورية برغم عدم تمتّعه بأي خبرة. وهكذا بقي في المدرسة أمريكيان فقط هما رقيبان من فريق التدريب المرافق لفصيلة الاستطلاع التابعة للجيش الأفغاني. كانت الدورية تتكوّن من مجموعتين تضم كل منهما عشرة رجال؛ ستة أفغان وأربعة أمريكيين.

اتفقت مع النقيب حسين، على أنه في حال حدوث اشتباك ناري في القرية فستطلق كلتا المجموعتين في الدورية إشارات حمراً في الهواء؛ لتحديد مكاننا للمركبات الإماراتية المزودة برشاشات ثقيلة من عيار 0.50 بوصة وبجهاز MK19 الأوتوماتيكي لإطلاق القنابل اليدوية؛ لئلا تطلق النار علينا. كنتُ أخشى أن يبدأ المتمرّدون إطلاق النار من القرية على مركباتنا التي عند المدرسة، وأن ترد المركبات الإماراتية فتصيبنا خطأً.

قبل أن نغادر مباشرة، رأى أحد القنّاصة الإماراتيين مجموعة من الخيام على القمم البعيدة. قررنا أن نعبر كورا إلى الطرف الآخر من الوادي لمعاينة ذلك المكان. فكّرت أن أترك مسدسي ليكون حملي أخف، ولكن الرقيب في فريقي كان قد أقنعني خلال فترة

التدريب قبل المهمة بأهمية المهارة في استخدام المسدس، وخاصة في الأماكن الصغيرة. كنتُ أمازحه قائلاً إننا عندما نضطر إلى الاعتماد على المسدسات في القتال بدلاً من الرشاشات الثقيلة المركّبة على عرباتنا والدعم الجوي القريب وبنادق M4، فمن الأفضل عندها أن ندير ظهورنا ونهرب. ولكنني لم أستطع نسيان ذلك التدريب، فأخذت المسدس معي. وملأت جعبتي الأخيرة بمخزن مسدس إضافي، وتركت القنبلتين اليدويتين اللتين أحملهما معي عادة.

عندما نظرت إلى الوراء، كان سومر يتفقّد أسلحة رجاله ويفتّش مخازنهم ليتأكد أنهم جلبوا ما يكفي من الذخيرة واللوازم الأساسية الأخرى، مثل الماء، الذي كان الجنود الأفغان ينسونه غالباً، ثم هرول إلى مقدمة الرتل وقاد مجموعتي. في هذه المرة رافقنا الملازم قائد فصيلة الاستطلاع، واختار أن يكون الثاني في الرتل بعد سومر. كنتُ أريد أن أكون قريباً منه دائماً لكي نتمكّن من قيادة رجالنا معاً في حالة وقوع هجوم. وجعلت مترجمنا، سامي، بيني وبينه.

ونحن نشق طريقنا عبر القرية، لم يقترب منّا الأطفال هذه المرة لطلب حلوى أو دولارات. سرنا عبر القرية ببطء، وحيينا الرجال المسنين القليلين الذين صادفناهم في الطرقات، إلى أن انفصلت مجموعة إيريك متجهة نحو الشمال كما في المرات السابقة. وبعد بضع ساعات، أخذنا استراحة عند سفح الجبل المحاذي للطرف الشرقي من الوادي. كان بإمكاننا رؤية مجموعة الخيام في الأعلى، ولكننا لم نلاحظ أي حركة. استغرقنا مدة أطول من المتوقّع للوصول إلى ذلك المكان، وكنّا نعرف من تجربة اليوم السابق أننا لن نتمكّن من الوصول إلى أعلى التلة قبل غروب الشمس. كان الملازم مقتنعاً بأن الخيام تخص رعاة من البدو الأفغان، ولكنني كنتُ أشك في أنه لا يريد في الحقيقة صعود التلّة المنحدرة لمعاينة المكان، ثم الاضطرار إلى العودة إلى المدرسة ليلاً. لم يكن لدى الجنود الأفغان معدات رؤية ليلية، وكانت فكرة السير في دورية عبر القرية في الظلام الحالك تشعرهم بالتوتّر.

قررت ألا أضغط في هذا الشأن؛ لأنني بصراحة كنتُ أعرف أنهم مُنهكون. ولكن سرعان ما دار بيني وبين الملازم نقاش حاد حول الطريق التي يجب أن نسلكها في طريق العودة إلى المدرسة. كان يريد أن نعود من الطريق نفسها التي أتينا منها لأنها الأسرع. ولكنني اعترضت على ذلك. نظر سامي إليّ نظرة توسل وهو يترجم. كان هو الآخر يريد العودة. تردّدت لحظة، ثم قلت "لا". فالعودة من الطريق نفسها كانت خطأً قاتلاً في التكتيكات الأساسية للمشاة، لأنها أمر متوقّع، ولم أكن أريد تعريض الدورية للخطر بسبب أن الأفغان كانوا متعبين. ولكنني اقترحتُ حلاً وسطاً، وهو أن نعود من طريق مختلفة، على أن نسير في مجرى وادٍ عريض وغير عميق يسهل السير فيه أكثر من السير عبر الدروب الضيقة وحقول المزارعين.

سار سومر في المقدمة، وكان الملازم خلفه مباشرة، وبعده المترجم، ثم أنا. كان ورائي أفغاني يحمل سلاح الآر بي جي الذي يُطلق من على الكتف، وبعده أفغاني آخر، بينما كان في المؤخرة جراهام وبضعة جنود أفغان ورقيب فصيلة العمليات النفسية وبراين. كنّا نسير في اتجاه غرب - جنوب غرب، وكانت الشمس قد غربت وراء القمم الغربية، تاركة ظلاً ضخماً فوق الوادي. كنّا في وقت يتعذّر فيه استخدام معدات الرؤية الليلية لأن الظلام لم يحل بشكل كامل، كما تتعذّر فيه الرؤية بوضوح بسبب غروب الشمس.

تبيّن لنا أن الوادي كان أعمق وأطول مما توقّعت. كانت تحيط بنا من الجانبين جدران بارتفاع من ست أقدام إلى عشر، وبدأ يساورني شعور بعدم الاطمئنان. والأسوأ من ذلك أننا لم نرَ قروياً واحداً. كان الهدوء غريباً ومقلقاً. كانت هناك حقول متناثرة بين المنازل، ولكن كانت كلها تحاط بأسوار حجرية يصعب تسلّقها إذا اضطررنا إلى الخروج، ويمكن أن تتحوّل في أسوأ الأحوال إلى مواقع رماية لكمين ينصبه المتمرّدون. سنكون أشبه بسمك في برميل. تكلّمت عبر الجهاز اللاسلكي طالباً من رجالي أن تكون معدات الرؤية الليلية جاهزة لديهم، عندما لاحظت أن المسافة بدأت تتسع بيني وبين سامي أمامي، وتتسع أكثر بينه وبين الملازم. بدأوا يتصرفون كالخيل التي استنشقت رائحة الإسطبل، ولم يعودوا يلتزمون بالتكتيكات الأساسية للدوريات. وبدلاً من السير ببطء

والمحافظة على مسافة مناسبة ومراقبة ما حولهم، كانوا يهرولون تقريباً ولا ينظرون إلا أمامهم. التفتُّ إلى الخلف، فاصطدم سلاح الآر بي جي الذي يحمله الجندي الأفغاني بأنفي، لأنه كان قريباً جداً مني.

قلت له بصوت منخفض وبنبرة كلها استهجان: "تراجع إلى الوراء"، مشيراً إليه بيدي ليحافظ على المسافة بيني وبينه.

أذكر أنني كنتُ أفكر في أنه لا يجوز أن يندفع سومر عائداً بهذا الشكل متخلّياً عن كل حذره. كانوا جائعين ومتعبين وجاهزين للعودة إلى المدرسة قبل حلول الظلام، فتخلّوا عن يقظتهم. كان من مسؤوليتي أن أجعلهم يحافظون على انضباطهم. وإذا لم يتدخّل ملازمهم، فسأتدخل أنا. ركضتُ إلى سامي وأمسكته من ظهر قميصه، وطلبتُ إليه أن يخبر الملازم ليبطئ سرعته في الحال. سارع سامي إلى الملازم ووضع يده على كتفه. وعندما بدأ بالكلام، رأيت سومر يتوقّف وينظر إلينا خلفه.

وفجأة سمعنا صوتاً عالياً نعرفه جيداً يخرق سكون المساء. كان صوت حركة المغلاق إلى الأمام في البندقية الآلية أو الرشاش. استدار سومر في الحال ورفع سلاحه، وفي تلك اللحظة انطلقت النيران من مكان لا يبعد عنه أكثر من عشر أقدام ناحية اليسار تخترق المسافة التي تفصل بينه وبين سامي والملازم. انبطحوا ثلاثتهم على الأرض. خطوتُ خطوة إلى اليسار لأتأكد من أنهم ليسوا في مرمي نيراني، ورفعت بندقيتي إلى كتفي وبدأت أطلق النار. انطلقت النيران مرة أخرى من الرشاش عبر الوادي، فتناثر التراب، وأصابت بعض الرصاصات الجدار في الجهة اليمنى أمامي، وأزّ بعضها من حولي. كنتُ في صغري قد اعتدتُ قراءة كتب التاريخ العسكري، وقد قرأتُ عن اللحظات التي يتباطأ فيها الزمن فجأة، وها أنا ذا الآن في واحدة منها. كان بإمكاني رؤية الهواء وهو يتحرك والرصاصات وهي تمر بجانبي كأشعة ليزر صفراء. كان صوت أزيز الرصاص واضحاً. على بعد ثلاثين قدماً أمامي في الجهة اليسرى من الوادي، كان بإمكاني رؤية مسند الرشاش PKM المُستند إلى الجدار والنيران تنصب منه. كان صوته مرتفعاً جداً.

انطلقت مجموعة أخرى من الرصاصات، غالباً من بندقية AK-47، من الجهة اليسرى من الرشاش. كنتُ مكشوفاً تماماً، وأي شخص عاقل كان سينبطح فوراً على الأرض ويبحث عما يحتمي به. أنا نفسي كنتُ سأفعل ذلك لو صادفني الموقف ذاته قبل سنوات. ولكنني تلقيتُ تدريب القوات الخاصة في حقبة ما بعد 11 سبتمبر الذي كان يركّز على تأمين المباني في المناطق العمرانية. وفي هذا التدريب تعلّمنا مواجهة العدو لأننا كنّا نرتدي درعاً تحمي أعضاءنا الحيوية من الأمام؛ ولذلك، وقفتُ بدلاً من الانبطاح أرضاً ومحاولة الاحتماء من هذا الكمين، متجهاً نحو العدو بعد أن أحكمت درعي وبدأت أطلق النار عليهم قدر الإمكان. كان يجب أن تصيبني إحدى الطلقات في هذه اللحظة، كنتُ أقف في وسط خندق عمقه ست أقدام وعرضه عشر، في مواجهة رشاش يطلق رصاصاته من خلف جدار. نقلت وزني من طرف إلى آخر، وبدأت أطلق النار على مصدر الوميض الثاني عندما علق مغلاق بندقيتي في الوضعية الأمامية. وبشكل غريزي أملت بندقيتي ناحية اليسار لأتمكن من رؤية حجرة النار. رأيت المغلاق عالقاً في الأمام. ضربت مؤخرة المخزن وسحبت المزلاج إلى الوراء لإخراج الطلقة العالقة وتلقيم طلقة جديدة. حاولت سحب الزناد مرة أخرى. كان هذا هو الإجراء الذي علمني إياه في حقل الرماية كل رقيب عرفته منذ أن كنتُ طالباً في الكلية العسكرية.

ولكن الزناد لم يتحرّك. انطلقت النيران مرة أخرى من الرشاش عبر الوادي فوق رأسي.

ومن دون تفكير، نقلت البندقية إلى كتفي الأيسر وتركتها تتدلى منه. وفي الوقت ذاته أخرجت مسدسي بيدي اليمنى. كنتُ أتململ دائماً ونحن نتدرّب على إخراج مسدسنا ألف مرة في حقل الرماية، معتبراً أن هناك طريقة أفضل للاستفادة من وقتنا. وها أنا ذا الآن أُخرج مسدسي في وقت تعتبر كل ثانية فيه شديدة الأهمية.

وأنا أسحب مسدسي، رأيت سبطانة الرشاش تنزلق نحوي. ولسبب ما لم تنطلق النيران منها، ثم رأيت رأساً يبرز، فنقلت وزني إلى رجلي اليسرى ليصبح بصري في

مواجهة الشخص الذي لم أرَ منه سوى ظله. ضغطت على المسدس إلى الأمام وأطلقت طلقتين، فاختفى الرأس. لم أعرف إن كنتُ أصبته أو أنه خفض رأسه، فتابعتُ إطلاق النار على المهاجمين بأسرع ما أستطيع لأجبرهم على إبقاء رؤوسهم منخفضة.

لن أنسى أبداً منظر مسدسي والزلاقة تتوقّف في الوضعية الخلفية، ما يعني أن المخزن فارغ. شعرت بأنني أحدق به عشر ثوانٍ، ولكنّها ربما كانت في الحقيقة أقل من ثانية واحدة.

انطلقت رصاصات رشاش من موقع ثالث على الجدار مارة بمحاذاة أذني اليسرى في خط أصفر طويل. في تلك اللحظة راح كل شيء يتسارع، كما لو أن شخصاً رفع إصبعه عن زر الحركة البطيئة. شعرتُ بأنه من الجنون أن أواجه رشاش عنصر من طالبان يحتمي خلف جدار حجري بينما أقف أنا مكشوفاً في وسط الوادي حاملاً مسدسي في يدي. كنتُ بالفعل غاضباً جداً لأن شخصاً يحاول أن يقتلني أنا ورجالي. وخلال لحظة تحول ذلك الغضب إلى خوف ويقين بأنني سأموت لو بقيت في مكاني عندما تنطلق الرصاصات اللاحقة.

ومن دون تفكير أيضاً، خطوت بضع خطوات إلى اليمين، وقفزت فوق فجوة في جدار منخفض لبستان في الجانب الآخر من الوادي. سقط مني منظاري. كنتُ أرتدي درعي، فسقطتُ على الأرض مثل كيس رمل، ثم انقلبت على ظهري وقدماي في اتجاه موقع الرشاش. شعرتُ بشخص ينزلق بجانبي في الجهة اليمنى، ورأيت جراهام جاثياً على ركبته يطلق النار على المهاجمين. وأنا مستلقٍ على ظهري، وضعت مخزناً آخر في مسدسي، وفتحت قدمي ورحت أطلق النار من بينهما، ثم انفتحت أبواب جهنم فوق رؤوسنا. نظرت إلى الأعلى فرأيت آثاراً خضراً لطلقات خطّاطة* تخترق رؤوس الأشجار. وسمعت أصوات قنابل يدوية أطلقتها المنصات الآلية المركّبة على العربات الإماراتية،

* طلقات ذات قاعدة فوسفورية تشتعل عند انفجار البارود مولدة بريقاً ساطعاً على شكل خط.

وهي تتساقط خلف موقع المتمرّدين. لم تكن الطلقات الخطّاطة صادرة عن مكان الكمين، بل من خلفنا.

عندما بدأت طلقات رشاشات المتمرّدين تنهمر على دوريتنا في الوادي، أطلق جراهام في الحال إشارة حمراء في السماء، ثم تقدّم نحو مصدر النيران إلى أن وجدني. كنتُ قد أبلغت النقيب حسين أن يتجنّب إطلاق النار إلى الموقع الذي يرى فيه الإشارات الحمر، ولكن يبدو أن مفعول هذه الإشارات كان عكسياً لأن النيران كانت تتجه نحوها.

أقل ما يمكن قوله في وصف ذلك الموقف، هو أننا كنّا في وضع سيّئ جداً. كنتُ أطلق النار من مسدسي كلما رأيت النيران تنطلق من فوهة بندقية أو رشاش، ولعنت نفسي لأنني لم أجلب القنابل اليدوية وصرخت على جراهام ليلقي قنبلة. أخرج جراهام قنبلة يدوية من جعبته وراح يزيل شريطاً لاصقاً أسود وضع لتثبيت مسمار الأمان كإجراء احتياطي إضافي. وقال "ابن العاهرة" بلهجته الجنوبية المميّزة. وأجفل عندما انطلقت نيران كثيفة من جهة المدرسة مرّت لحسن الحظ فوق رؤوسنا بعشر أقدام. رمى جراهام القنبلة اليدوية على شكل قوس كبيرة، فانفجرت خلف موقع المهاجمين من جماعة الحزب الإسلامي الأفغاني، وتوقّف إطلاق النار.

كنتُ قد أفرغت مخزن مسدس آخر، فرمى لي جراهام واحداً من مخازنه. ومن وسط أجمة من الأشجار، نادانا براين لنذهب إليه. كان قد بدأ بتجميع رقيب فصيلة العمليات النفسية وجنود الجيش الوطني الأفغاني في بستان يقع على تلّة صغيرة تبعد نحو عشرين قدماً خلف موقعنا الحالي. وأنا أزحف إليه، وجدت سامي، المترجم، متكوراً على نفسه كما يتكور الجنين في بطن أمه، وقد أخذ يبكي. رفعته من قميصه، وضربته على جانب رأسه ليتنبه لي، وطلبتُ منه العثور على الملازم.

بدا الرقيب من فصيلة العمليات النفسية في حالة صدمة؛ حيث جلس في الوسط وبندقيته في حضنه، وراح يهز جسده إلى الأمام والخلف. سألته إن كان تعرّض لإصابة، أو

لا، فهز رأسه بالنفي. أخذتُ منه منظار الرؤية الليلية (الذي كان يجب أن يرتديه ليمسح المنطقة المحيطة بنا)؛ لكي أتمكّن من العودة إلى الوادي والعثور على منظاري. كان من المستحيل أن أترك منظاري لكي يجده العدو، ولن أكون مَنْ يتسبّب في إعطاء العدو تلك الميزة، حتى إن كان هذا يعني العودة إلى منطقة الخطر. في هذا الوقت، كانت الشمس قد غربت تماماً والقمر لما يشرق بعد. كان الظلام دامساً. كان أكثر ما أخشاه وأنا أجتاز الجدران المنخفضة نزولاً إلى الوادي هو أن يسمع جندي أفغاني متوتّر حركتي في طريق عودتي إلى المجموعة فيطلق النار عليّ.

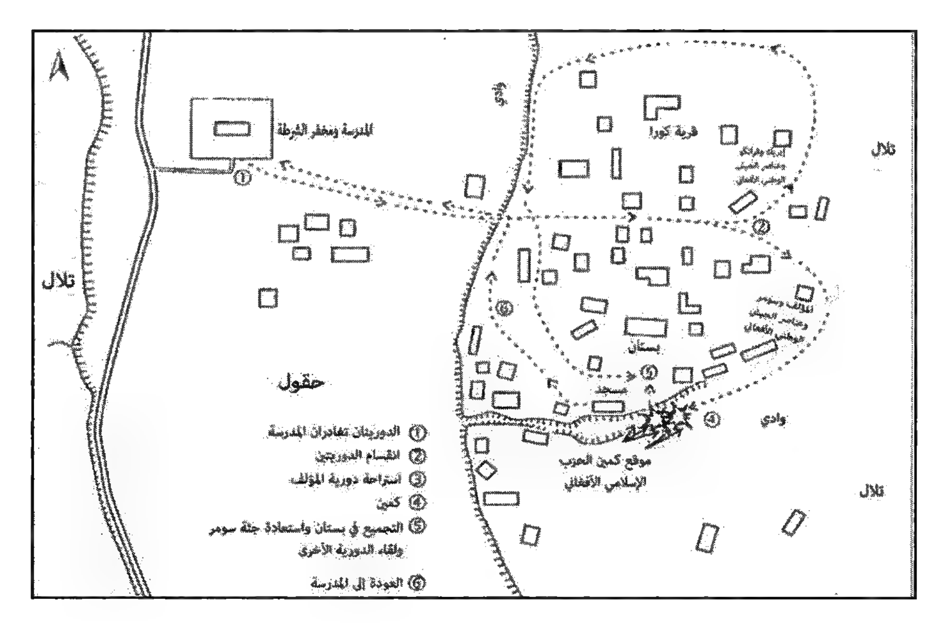
تمكنتُ بحمد الله من العثور على منظاري وعدتُ إلى موقعنا المؤقت، ورحتُ أحاول تقييم الوضع. كنتُ قد سمعتُ أنيناً وحركة قريبَين من موقع الرشاش في طريق عودتي، ولكنني لم أكن واثقاً مما يحدث. لم تكن لديّ فكرة إذا ما كان المتمرّدون يسحبون جرحاهم أو يتجمّعون لشن هجوم آخر. كل ما كنتُ أعرفه أننا ربما نكون تحيط بنا مجموعات عدة من المتمرّدين، وما زال بيننا وبين المدرسة مسافة كيلومتر عبر طرق كورا وأوديتها ومنازلها.

اتصلتُ بالجهاز اللاسلكي بأحد المدرّبين في المدرسة، وطلبتُ منه إرسال تقرير إلى مقر قيادتنا في باجرام لإعلامهم بأن بيننا مصابين، وربما نحتاج إلى تعزيزات. وطلبتُ من جراهام الاتصال بطاقم الدورية الأخرى وسؤالهم إن كانوا قد تعرّضوا لهجوم أو لا، من أجل معرفة وضعهم.

كان اهتمامي مُنصباً في هذه المرحلة على معرفة وضع الجميع، وخاصة سومر الذي رأيته يسقط أرضاً. لم أكن أعرف إن كان الملازم حياً أو إن كانت هناك إصابات أخرى بين عناصر الجيش الوطني الأفغاني. كل ما كنتُ أعرفه أنهم ربما يكونون في الوادي، جرحى يلفظون أنفاسهم. همس سامي في أذني أنه وجد الملازم، وسرت أنا وهو نحوه.

خريطة (6)

الكمين في كورا



سألت الملازم: "هل جميع رجالك موجودون؟".

أجابني: "نعم".

انتابتني موجة من البهجة لأن سومر ربما يكون قد نجا بأعجوبة. سألته: "أين الرقيب أول؟ هل هو مصاب؟".

ترجم لي سامي جوابه بصوت مرتجف: "ما زال في الوادي في الأسفل".

انحنيت مقرّباً وجهي من وجه الملازم، الذي كان يجلس القرفصاء، وهمست: "إذن فما الذي تفعله هنا؟ لماذا لا تبحث عن الرقيب أول؟".

همس سامي قائلاً: "يقول الملازم إن علينا العودة إلى المدرسة فوراً. جنوده منزعجون جداً".

"قل للملازم إننا لن نذهب إلى أي مكان من دون أن يكون معنا الرقيب أول وكـل واحد من رجالنا. نحن لا نترك الآخرين وراءنا، إما أن نغادر كلنا معاً أو نموت كلنـا معـاً هنا. ولن أقبل أي نقاش في هذا الشأن. انقل له كلامي حرفياً يا سامي". عـدتُ إلى بـراين وجراهام اللذَين كانا في المنطقة ينظران إلى الوادي في اتجاه موقع الرشاش.

همستُ في أذن براين قائلاً: "الرقيب أول ما زال هناك. سأذهب لإحضاره".

قال براين: "مايك، أسمع حركـة كثـيرة عـبر الـوادي، ولكننـي لا أسـتطيع رؤيـة شـيء. أخشـى أن يكونوا يعملون على تطويقنا ونحن جالسون في مكاننا".

أجبته: "لهذا السبب تحديداً لن أنتظر الملازم حتى يجده وسأذهب بنفسـي".

حاولت بضع لحظات إخراج الطلقتين العالقتين في بنـدقيتي، ولكننـي وجـدتُ أن هذا الأمر سـيستغرق وقتاً طويلاً. كنتُ قـد تركـت القطعـة اللازمـة لـذلك مـع معـداتي الأخرى. وشعرت بأنني أحمق جداً.

لم يكن أمامي خيار سوى الذهاب بنفسـي. فلـم يكـن بإمكـاني المخـاطرة بإرسـال براين لأنه المُسعف الوحيد، وقد يقع في صفوفنا المزيـد مـن الإصـابات وتكـون الدوريـة بحاجة إليه. والأمر ذاته ينطبق على جراهام، الرقيب المسؤول عن الاتصالات الـذي كـان وجوده ضـرورياً من أجل الاتصال لطلب أي مساعدة؛ مثـل الإخـلاء الطبـي أو الـدعم الجوي القريب. باختصار، كنتُ بصفتي ضابطاً، العضو الذي يمكن الاستغناء عنـه أكثـر من غيره في الفريق. وبصـراحة كنتُ مرتاحاً للمخاطرة بحياتي من أجل إعادة سومر أكثـر من ارتياحي لإصدار أمر إلى بـراين أو جراهـام بـالعودة إلى منطقـة يكونـان فيهـا عُرضـة للقتل.

وأنا أتسلق الجدار المنخفض عند حافة البستان سألني جراهام هامساً: "هل تريـدني أن أنسق اتصالاً مع إيريك ودوريته؟".

فأجبته: "نعم، ولكن بحذر شديد. فلو كان جنود الجيش الوطني الأفغاني الذين معهم مذعورين بمقدار نصف ذعر زملائهم الذين معنا لتحوّل الأمر إلى كابوس حالما يطأ واحد منهم غصن شجرة". كان إجراء الاتصال في الليل صعباً دائماً، ولكن إجراءه في قرية معادية، بوجود جنود مذعورين من الجيش الأفغاني لا يحملون معدات رؤية ليلية، وفي منطقة يحيط بها مقاتلو الحزب الإسلامي الأفغاني، مع استمرار إطلاق النار من عند المدرسة، قد يؤدي إلى كارثة.

زحفتُ على طول الوادي إلى المكان الذي ظننتُ أن سومر سيكون فيه. نظرت ناحية اليسار، ورأيت عبر جهاز الرؤية الليلية الجدار الذي كان رشاش PKM يستند إليه قبل بضع دقائق. وفجأة انطلقت النيران من البستان، فانبطحتُ على بطني إلى أن هدأتْ. لا بد من أن جراهام رأى أمراً أو سمع شيئاً عبر الوادي فأطلق النار عليه. زحفت على يديّ وركبتيّ إلى أن لامست يدي الممدودة رأس سومر. قرّبت وجهي من وجهه بحيث لاصق خدي خده، وظننتُ أنني سمعته يتنفس. وضعت يدي على صدره ورحت أتحسسه إلى أن وصلتْ يدي إلى بقعة كبيرة مبتلّة ودافئة في بطنه. حاولت أن أتحسس النبض في عنقه، ولكنني لم أشعر بشيء. لم أكن متأكداً هل كان ميتاً أو أنني أتحسس المكان الخاطئ؟ كنتُ أعرف أنه لكي تكون له فرصة في الحياة، يجب عليّ إعادته إلى حيث يستطيع براين علاجه. نهضت واقفاً وأمسكت معداته من الحمّالات التي على كتفه وحاولت رفعه بكل قوتي. ولكنني سقطتُ إلى الخلف على ظهري والحمّالات في يدي محدثاً ضجة كبيرة. كانت الحمّالات الأفغانية الرخيصة قد تمزقتْ. رحت ألعن التقارير التي كانت ترسلها قيادة إدارة التدريب الأمريكية في كابول إلى البنتاجون عن جودة المعدات التي يجري تزويد الجيش الوطني الأفغاني بها.

تجدّد تبادل النيران بين الجدار والبستان، وقلتُ في نفسي "سأموت هنا معه". فكرتُ للحظة في الركض عائداً إلى البستان وتنظيم الرجال للخروج من ذلك المكان. ولكنني تذكرت الشعار الذي كنّا نردّده كل يوم في مدرسة التدريب وهو "لن أترك زميلاً مصاباً ليقع في أيدي الأعداء".

تسلقتُ عائداً إلى سومر، وأجلسته ثم وضعت ذراعي تحت إبطيه وبدأت أسحبه إلى الخلف عبر الوادي. لم أشعر في حياتي بأنني مكشوف ومعرض للخطر كما شعرتُ في تلك اللحظة، لا قبلها ولا بعدها. كانت تلك المرة الثالثة تلك الليلة التي أنتظر فيها أن تخترق الرصاصات جسدي. وأنا أصارع لإنهاض سومر ونقله فوق الجدار، شعرتُ بزفير طويل بطيء وسمعته. كان ذلك آخر زفير له. أدركتُ أنني كنتُ بطيئاً جداً ولم أتحرك بالسرعة اللازمة لإنقاذه.

جاء جراهام وأمسك رجلي سومر لمساعدتي في أخذه إلى أعلى التلّة.

عندما توقفنا، قال جراهام: "الخبر الجيّد هو أن إيريك وفرانك وأعضاء الدورية الأخرى على وشك الوصول إلى هنا". كنّا نلهث كلانا بعد رفع سومر فوق جدارين منخفضين. وتابع قائلاً: "أما الخبر السيّئ فهو أنني فقدتُ الاتصال بالمجموعة التي عند المدرسة".

كانت أجهزة اللاسلكي المرتبطة بالأقمار الصناعية والمركّبة على العربات عند المدرسة هي الوسيلة الوحيدة لطلب الدعم، سواء للإخلاء الطبي أو دعم طائرات بريداتور أو الدعم الجوي القريب، أو أي نوع آخر من الدعم. شعرت بقشعريرة تسري في أنحاء جسمي عندما أدركتُ أننا مقطوعون عن العالم كلياً.

عندما وصلتْ الدورية الأخرى، وضعنا بسرعة خطة لشق طريقنا إلى المدرسة. اتجهتُ مع الملازم إلى المكان الذي تركت فيه جثة سومر، وكان الأفغان في حالة فوضى. كنتُ قد طلبتُ منهم حمل جثة سومر ولكنهم رفضوا أن يلمسوه. لم أعرف السبب، ولم أكن مستعداً لإضاعة الوقت من أجل معرفته. كنتُ غاضباً فسحبت سامي والملازم بحيث أصبحت وجوهنا قريبة جداً من بعضها بعضاً، وقلت بصوت منخفض ولكن بنبرة حازمة: "اجعل رجالك يتحركون في الحال".

حاول براين الاتصال باستخدام اللاسلكي الداخلي، وقال إنه يظن أنه سمع صوت حركة في الحقل المجاور. وفي محاولة للخروج من ذلك المكان، عرض فرانك وجراهام

حمل سومر، ولكنني رفضت ذلك بشكل قاطع. كنتُ أريدهما أن يكونا قادرين على استخدام بندقيتهما في حالة اضطرارنا إلى القتال للخروج، وكنتُ مصمّماً على جعل الأفغان يحملون رجلهم. كانوا يتشاجرون بصوت أعلى حول ما ينبغي فعله بسومر.

وبعد بضع دقائق من محاولة فرض شيء من السيطرة على الوضع، فقدتُ أعصابي وسحبتُ مسدسي وأطلقت طلقتين في الهواء. انبطح الجميع على الأرض، وراح سامي يبكي مجدّداً.

صحت بسامي قائلاً: "انهض وقل لهؤلاء إننا سنموت جميعاً هنا قبل أن نترك سومر وراءنا".

بدا هذا مجدياً؛ حيث تقدّم جنديان أفغانيان يحملان سلّماً جلباه من منزل قريب واستخدماه كحمالة لوضع جثة سومر عليه. ونحن في طريقنا عبر القرية، كان كل زقاق وكل درب وكل منزل موقعاً لكمين محتمل. كان الأفغان يشتمون ويتلمّسون طريقهم في الظلام وهم يحملون السلّم، وكانت أسلحتهم ومعداتهم تهتز وتصطدم بأجسامهم محدثة ضجة كبيرة. كان كل ما على مقاتلي الحزب الإسلامي الأفغاني فعله ليجدونا هو أن يقفوا في مكانهم ويصغوا جيداً. كنتُ متأكداً أننا سنتعرّض لضربة أخرى. كنّا نتناوب على حمل السلّم لنعطي بعضنا فرصة للاستراحة. كان فرانك وإيريك يسيران في المقدمة حاملين بندقيتيهما على أتم الاستعداد وهما يمسحان النوافذ والأبواب والزوايا بالأشعة ما تحت الحمراء.

كانت الخشبتان اللتان تشكلان عارضتي السلّم ثخينتين بشكل يصعب معه إمساكهما باليد، فكنّا نلف سواعدنا حولهما ونسير محنيي الظهر، ونشعر حينها بألم شديد في سواعدنا. وفي وسط هذا كله، كدتُ أضحك عندما تذكرتُ سيناريو "إسقاط الطائرة" في دورة اختيار القوات الخاصة، وهي دورة يجب على المتدرّبين فيها أن يقرّروا كيفية الحركة بشكل سليم تكتيكياً وهم يحملون كيسين ثقيلين مملوءين بالرمال. كان الغرض من الأكياس الثقيلة هو التدرّب على نقل جثة هامدة في منطقة وعرة. وأذكرُ أن المدرّبين

كانوا يقولون دائماً "ستتعرّفون هنا إلى كل سيناريو يمكن أن تواجهوه في ساحة القتال. لذلك عليكم التنبه".

مع اقترابنا من المدرسة، توتّرتُ كثيراً خشية التعرّض لإطلاق النار من الرماة الإماراتيين المسؤولين عن الرشاشات الثقيلة المركّبة على عرباتهم. ومن مسافة بعيدة أرسلنا إشارة بالأشعة ما تحت الحمراء لا يمكن رؤيتها إلا بواسطة مناظير الرؤية الليلية. وتنفّستُ الصعداء عندما ردوا علينا بإشارة مماثلة. تقدّمتْ عربتان إماراتيتان من طراز هامفي وبانهارد عبر حقل مفتوح وصولاً إلى حافة مجرى الوادي الرئيسي في وسط الوادي لتوفير التغطية لنا ونحن نكافح لإنزال جثة سومر عن الحافة البالغ ارتفاعها ثلاثين قدماً. وكان علينا أن نربطه على السلّم ونستخدم بكرة لرفعه إلى الأعلى عند الحافة الأخرى. وعندما وصلنا إلى الحافة ونحن نلهث والعرق يتصبّب منّا، مدّدناه على سقف عربة الهامفي. وفي تلك اللحظة أسرع نحوي حمد، وهو رقيب إماراتي تلقّى تعليمه في بريطانيا وكان قنّاصاً مدرّباً في سرية النخبة الإماراتية لمكافحة الإرهاب، وأخبرني أن علينا الانسحاب بسرعة، لأنه كان يراقب عبر منظار الرؤية الليلية البعيد المدى مجموعات عدة من المتمرّدين وهم يحاولون تطويقنا خلال الساعات الماضية. وفي إحدى المراحل، مرّت إحدى مجموعات المتمرّدين على بُعد منازل عدة منّا. وهذا ما دفع حمد وبعض الرقباء الآخرين إلى القدوم لمقابلتنا في مركباتهم. سأظل ممتناً لهم طوال حياتي، فقد قاموا بمخاطرة شخصية ومهنية من أجل مساعدتنا.

شهدت المراجعة اللاحقة بعض النقاشات الحامية، ولكنها كانت مفيدة للتعلّم منها؛ فليس هناك بديل عن الخبرة، وقد تعلّمنا كلنا في تلك الليلة أشياء ستسهم في تحسين أدائنا كجنود وكقادة. وفي نهاية المطاف تحسّنت العلاقات بيننا، وما زلتُ حتى هذا اليوم على تواصل مع إخوتي في السلاح من دولة الإمارات العربية المتحدة.

تابعنا العمل بشكل وثيق مع القوات الخاصة الإماراتية، وعندما وصل قائد جديد بعد بضعة أسابيع، تابعنا العمل معاً انطلاقاً من الثقة التي تأسّست بيننا. كان القائد

الإماراتي الجديد ضابطاً رائعاً سيترقى ويصبح فيما بعد قائداً لما يماثل جهاز الاستخبارات الأمريكي في الإمارات العربية المتحدة.

بعد بضع ساعات من عودتنا إلى المدرسة، أشرقت الشمس، ووضع الجنود الأفغان جثة سومر على ظهر عربتهم لنقله إلى قاعدته. قمت بجمع مبلغ لعائلته قارب 500 دولار أمريكي، وهذا يعادل راتب ثلاثة أشهر تقريباً. اتجهتُ إلى الملازم الذي كان يتحدّث إلى المدرّبين الأمريكيين. كان يشكو قائلاً: إن سومر قُتِل لأنني لم أسمح له بالعودة عبر القرية من الطريق نفسها التي ذهبنا منه. وكان مستاءً جداً لأننا لم نتصل بحوامة لنقل الجثة. تركته يتابع حديثه دقائق قليلة قبل أن أتكلم.

وأخيراً تدخّلت قائلاً: "لم يُقتل سومر بسبب الطريق التي اخترناها". فالتفت الملازم إليّ. وتابعتُ كلامي: "لقد قُتل لأننا هوجمنا من قبل أشخاص يعارضون تقدّم أفغانستان ويريدون إعادتها إلى الحقبة التي كانوا يتولون فيها السلطة".

ذكّرته أننا كنّا نقوم بهذه الدورية من أجل تفقّد مشروعات التنمية التي يرعاها الهلال الأحمر. وأشرتُ إلى الإماراتيين قائلاً: "إنهم يخاطرون بحياتهم من أجل إعادة إعمار أفغانستان. والشيء ذاته ينطبق على الأمريكيين". كنتُ أعلم أيضاً أن سومر قُتِل بسبب جهلنا بما كان يحدث فعلاً في وادي تاجاب.

بعد تغيير قيادة القوات الخاصة الإماراتية، عُدنا إلى الوادي وإلى كورا مرّات عدة. عملتُ بجد على توثيق كل جلسة تشاور مع الوجهاء، وعلى توثيق المعلومات عن العلاقات بين القبائل في المنطقة، وعن الشخصيات الرئيسية صاحبة النفوذ فيها. وأخذتُ بنفسي نسخاً منها إلى كل قيادة ظننت أنها مهتمة بها، بحيث تستطيع الوحدات التي تنفّذ دوريات في تاجاب في المستقبل التعلّم من تجاربنا. كان الكثير من قادة الأركان شاكرين لجهودنا وتقاريرنا المفصّلة. ولكن لم تكن لدي ثقة كبيرة بأن الوحدات التي ستخلف الوحدات الحالية ستتمكّن من الحصول على تلك المعلومات، لأنه لم يكن لدى الولايات المتحدة قاعدة بيانات مركزية لتوثيق العمليات في أفغانستان.

قرر القائد الجديد للقوات الخاصة الإماراتية نقل تركيزه بعيداً عن تاجاب والعودة إلى أوروزغان وهلمند. وفي وقت لاحق من عام 2006، نجح الفريق الشقيق، مفرزة العمليات ألفا-51، والوحدة المرافقة لها من الجيش الوطني الأفغاني في التأسيس لحضور دائم في وادي تاجاب، في واحدة من أكبر العمليات المستمرّة التي نفّذها الجيش الوطني الأفغاني حتى ذلك الوقت، وقد أطلق عليها اسم عملية التاج الثلاثي. كانت مفرزة العمليات ألفا-51 تخوض مناوشات مستمرّة تقريباً في الأسابيع الأولى من العملية، ولكن عندما أصبح من الواضح أن الجيش الوطني الأفغاني لن يغادر المنطقة، هدأ الوادي إلى درجة سمحت بإعادة منظمات عدة غير حكومية لتنفيذ مشروعات تنموية. لسوء الحظ، كافحت وحدة الجيش الوطني الأفغاني للصمود لوجستياً بعيداً عن قاعدتها الرئيسية، ولكن في نهاية المطاف، تم استدعاؤها إلى كابول. قامت مفرزة العمليات ألفا-51 وقيادتنا العامة بمحاولات حثيثة لإقناع قيادة الفرقة في باجرام بإرسال وحدات أمريكية أو من قوات التحالف للحلول مكان الكتيبة الأفغانية، ولكن من دون جدوى. وبحلول منتصف عام 2006، لم تكن هناك سوى كتيبة واحدة من قوات المشاة الأمريكية في جميع مناطق شرق أفغانستان، بالمقارنة مع خمس عشرة كتيبة في العراق. بكل بساطة، لم يكن هناك عدد كافٍ من الجنود لتنفيذ المهمة. وفي نهاية المطاف، قرر قاري باريال أن الوضع أصبح خطيراً بالنسبة إليه، وعاد إلى باكستان. ولكنني كنتُ أعرف أن بسط الأمن والاستقرار في المنطقة يتطلب منّا الوجود فيها بشكل دائم، بدلاً من القدوم إليها من باجرام وكابول من أجل فهم ما يجري وتحقيق تأثير دائم.

بعد بضعة أسابيع على الكمين في كورا، عاد مترجمنا الأساسي، محمد، من رحلة إلى جلال آباد، وأخبرني أن عائلة سومر هناك تواجه مستقبلاً مظلماً. لم يكن الجيش الوطني الأفغاني يقدّم أي تعويض لعائلات الجنود الذين يُقتلون في أثناء أداء واجبهم. وفي المقابل، لو أنني قُتلت تلك الليلة لكانت عائلتي ستحصل على تعويض قدره 400 ألف دولار من الحكومة الأمريكية، ولكان باستطاعة زوجتي العمل لتوفير المعيشة لها ولابنتنا. لم تفقد عائلة سومر زوجاً وأباً فحسب، بل فقدت أيضاً مُعيلها الوحيد. في المناطق الريفية لقبائل

البشتون لم يُسمع قط عن امرأة تعمل خارج منزلها، وهو أمر محرّم ثقافياً. أخبرني محمد أن اثنين من أبناء سومر سيرسلان إلى مدرسة دينية في فصل الخريف، وسيتوزع باقي أفراد العائلة على منازل الأقارب في القرية.

المدارس الدينية هي مدارس إسلامية تلجأ إليها الكثير من العائلات الأفغانية الفقيرة لتوفّر لأبنائها الملجأ والطعام وقدراً أساسياً من التعليم. ولكن الكثير من هذه المدارس الدينية أصبحت منذ أيام مقاومة المجاهدين للاتحاد السوفيتي في الثمانينيات، تربة خصبة لجذب وتجنيد الشبان الأفغانيين البسطاء والمعزولين عن عائلاتهم. وقد استخدم كل من طالبان والحزب الإسلامي الأفغاني وشبكة حقاني هذه المدارس لتجنيد عدد لا يحصى من المقاتلين والانتحاريين. وكنتُ مصمّماً على ألا أسمح بحدوث هذا لعائلة سومر.

بعد عودتي من أفغانستان إلى الولايات المتحدة في خريف عام 2006، أجريتُ ترتيبات لإعالة عائلة سومر بمبلغ شهري من مالي الخاص يساوي راتبه من الجيش. لم يكن الأمر بسيطاً، نظراً إلى عدم وجود نظام بريدي في أفغانستان، وللفساد المستشري في نظامها المصرفي. فأي أرملة وحيدة لجندي سابق في الجيش الأفغاني ستكون فريسة سهلة. استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنني في نهاية المطاف عثرتُ على مصرف صغير جدير بالثقة في جلال آباد.

اتخذتُ إجراءات احتياطية لحماية زوجة سومر من استغلال رجال قريتها لوضعها؛ حيث سمحتُ فقط لأرملة سومر بسحب الأموال من الحساب بما لا يتجاوز راتب سومر مرة واحدة في الشهر. وفي زيارة لاحقة إلى أفغانستان، استطعتُ سماع حديث زوجة سومر مع مترجم اتصل بها للسؤال عن أحوالها. قالت إنها تعيش حياة الكفاف، ولكنها استطاعت إرسال ولديها وثلاث من بناتها إلى مدرسة علمانية.

هذا يعني أن هناك فرصة لتحقيق حلم سومر في أن يوفّر لأبنائه التعليم اللازم لإخراجهم من دائرة الفقر. لم أحاول قط أن أزورها، لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى تعريض

حياتها هي وعائلتها للخطر. كل ما كانت تعرفه هو أن أمريكياً كان مع زوجها عندما مات يرسل لها المال. وقد أخبرت المترجم أن ولديها ينويان الالتحاق بالجيش مثل أبيهما، وأن بناتها يدرسن ليصبحن معلمات. كنتُ سعيداً جداً بذلك، وقرّرتُ حينها أن أستمر في إعالتهم بقية حياتي.

كنتُ موقناً أكثر من أي وقت مضى أننا سننشر الاستقرار في أفغانستان؛ عائلة عائلة وقرية قرية. ولكنني كنتُ أيضاً على قناعة أن ذلك يتطلّب جهوداً ضخمة من التحالف لزيادة فهمنا للشعب الأفغاني. سيظل من المهم العثور على الأشرار، ولكن هذا لن يكفي وحده. الأمر الأهم هو أننا بحاجة إلى تخصيص الوقت من أجل فهم ما يدفع الأفغان إلى دعم التمرّد، أو على الأقل التسامح معه، على المستوى المحلي. وبما أن الأسباب تختلف كثيراً من قرية إلى أخرى ومن وادٍ إلى آخر في أفغانستان، فعلينا تخصيص قدر كبير من الوقت.

الفصل الرابع

المستوصف في أتشين .. معضلات التنمية

وقفت سيارتنا المدرعة التويوتا لاند كروزر في خط السيارات الممتد عند نقطة تفتيش للشرطة على الطريق الشهير بين كابول وجلال آباد التي تعد خامس أكبر مدينة في أفغانستان، وهي المركز الحضري الوحيد الذي يعتد به في شرق كابول على الطريق إلى باكستان. ولألفي سنة كان هذا الطريق جزءاً أساسياً من "طريق الحرير" من أوروبا إلى الصين. لاحت المنحدرات التي تشبه الأودية على الجانبين بارتفاع مئات الأقدام فوق الطريق المتعرج الذي تم حفره في الجبل وبصعوبة يتسع لمرور سيارتين جنباً إلى جنب. وبينما توقفت جميع السيارات أمامنا (من نوع تويوتا كورولا الموجود في كل مكان) عند نقطة التفتيش التابعة للشرطة، رأينا كل سائق يسلم رزمة صغيرة من أوراق (الأفغاني) النقدية الحمر للشرطي قبل أن يلوّح لهم بالمرور. لا بد من أن نقطة التفتيش تجمع عشرات الآلاف من (الأفغاني) على شكل "رسوم مرور" كل يوم.

قال تود ونحن نتوقف: "السلام عليكم" وكانت المفاجأة واضحة على وجه رقيب الشرطة وهو ينظر إلى الشاحنة ويرى أربعة أمريكيين ملتحين في ملابس مدنية، وبنادق M4 بين أرجلنا. "وعليكم السلام"، أجاب الشرطي بعد أن تعافى من الصدمة. كان هناك سكون مثقل. لم يكن مترجمنا معنا، ولكن كانت الرسالة واضحة عندما رمقه تود بنظرة تقول: "لن تحصل على رشوة، لذلك لا تكلف نفسك عناء السؤال". تراجع رقيب الشرطة إلى الخلف وتجهّم وجهه ولوّح لنا بالمرور. ضحكنا كثيراً على الارتباك الذي كان على وشك أن يظهر عليه عندما أوقف سيارة الدفع الرباعي المماثلة لسيارتنا، التي كانت وراءنا وفيها مجموعة من العرب وبنادقهم معهم أيضاً.

وقال تود مازحاً: "سيظن هذا الرجل يا إلهي.. أن تنظيم القاعدة يعمل مع الأمريكيين الآن! ". كان تود رقيباً مهندساً مبتدئاً، وذكياً وسريع البديهة. ومسلياً لنا في رحلاتنا الطويلة بسخريته الدائمة.

كنا نقوم بمرافقة فريق للشؤون المدنية من دولة الإمارات العربية المتحدة من قاعدة باجرام الجوية إلى مديرية أتشين في مقاطعة جلال آباد. وتقع أتشين جنوب مدينة جلال آباد بمحاذاة جبال تورا بورا من الجنوب. كانت تورا بورا سلسلة الجبال التي استخدمها أسامة بن لادن كمخبأ في ديسمبر 2001 قبل أن يلوذ بالفرار في نهاية المطاف إلى باكستان جنوباً. وكانت المنطقة موطن قبيلة البشتون شينواري، ومركزاً رئيسياً لمقاومة المجاهدين في أثناء الاحتلال السوفيتي. كانت شينواري واحدة من أكبر القبائل في أفغانستان وأبرزها، وهي تتألف بشكل أساسي من المزارعين والتجار وقد سكنت الكثير من المديريات في ولاية ننجرهار الشرقية الممتدة على الحدود مع باكستان.

كانت مهمتنا في ذلك اليوم التوجه إلى مطار جلال آباد، والقاعدة الجوية خارج المدينة، واستقبال حمولة طائرتين من المعدات الطبية. كانت القوات الخاصة لدولة الإمارات العربية المتحدة ملتزمة بالانتهاء من المستوصف الذي بدأه الهلال الأحمر في العام السابق. ويبدو أن الوضع الأمني في جلال آباد وأتشين قد تدهور إلى درجة أن الهلال الأحمر لم يعد يشعر بالراحة بإرسال موظفيه لإكمال المستوصف. وقد أشرفت معظم المنظمات غير الحكومية على التقارير الأمنية التابعة للأمم المتحدة والتحذيرات، وكانت بعثة الأمم المتحدة للمساعدة في أفغانستان قد أبلغت عن ثلاثمئة حادث أمني في مارس 2006 ارتكبها مجرمون أو عناصر متمردة، وقد ارتفع عددها إلى نحو خمسمئة حادث شهرياً بحلول سبتمبر.[1]

قررنا جنباً إلى جنب مع فريق الشؤون المدنية لدولة الإمارات العربية المتحدة، اتباع نهج غير لافت للانتباه في أثناء سيرنا على الطرق المؤدية إلى موقع المستوصف البعيد، لأن تلك الطرق كانت مملوءة بشكل متزايد بالعبوات الناسفة. وبحلول عام 2006 كانت

العبوات الناسفة قد أصبحت أكثر انتشاراً في أفغانستان، وذلك بسبب النجاح الذي لاقته مع المتمردين في العراق. كان الفارق كبيراً بين العراق وأفغانستان؛ فهناك طرق معبدة في العراق. ولأن معظم الطرق العراقية مغطاة بالإسفلت، اضطر المتمردون إلى إخفاء القنابل على جانبي الطرق، ومن ثم، هوجمت المركبات المارة بانفجارات من الجانب. بينما في أفغانستان، كانت تقريباً جميع الطرق ترابية، فيمكن للمتمردين دفن القنابل في منتصف الطرق بحيث تنفجر مباشرة تحت السيارة. ومع أن العبوات الناسفة في أفغانستان كانت أقل عدداً بكثير مقارنةً بعدد العبوات الناسفة في العراق في عام 2006، فإنها كانت تميل إلى أن تكون أكثر فتكاً لأن التفجيرات تأتي من خلال نقطة الضعف في أسفل عربة الهامفي وليس من الجانبين المصفّحين. ولزيادة الطين بلة، فقد جعلتنا تدابيرنا الإلكترونية المضادة ضحايا نجاحنا. فقد كان التكتيك الأكثر شيوعاً للمسلحين هو تفجير العبوات الناسفة عن بُعد عند فتح الهاتف الخليوي أو المرآب. وحالما كانت سيارة التحالف تصبح بمحاذاة علامة بصرية مثل كومة من الصخور أو شجرة معينة، يقوم الأفراد المتمردون المختبئون على بُعد مسافة، بإدخال رمز في الجهاز عن بُعد لتفجير العبوة. ومع ذلك، وبحلول عام 2006 نشرنا بنجاح أجهزة تشويش منعت انتقال الإشارات مع مرور المركبات. ورداً على ذلك، قام المتمردون وغالباً ما كانوا أميين ولكنهم بارعون، بصناعة عبوات ناسفة تفجّرها الضحية. وكانت العبوات الناسفة الأكثر شيوعاً هي تلك التي تنفجر عن طريقة لوحة ضغط؛ حيث يقوم المتمردون بدفن المتفجرات في الطريق ووضع شفرتي منشار فوق بعضهما تحت الرمال مباشرةً. وعندما تمر السيارة فوق شفرات المنشار، تلمس الشفرة العليا الشفرة السفلى، ما يؤدي إلى اكتمال الدارة الكهربائية ومن ثم تنفجر العبوة الناسفة تحت السيارة مباشرةً ويكون أثرها مدمراً. وبفعل استخدامهم لوحات الضغط، لم يعد تعاملنا مع هجمات العبوات الناسفة لحركة طالبان يعتمد على التخمين. ففي سنوات لاحقة كان التدبير المضاد الذي اتبعناه في مواجهة لوحات الضغط هو تركيب كاسحة ألغام ذات عجلات في مقدمة أول سيارة في القافلة، بحيث يتم تفجير العبوة الناسفة تحت عجلات الكاسحة وليس تحت السيارة. وكان ردّ المتمردين بسيطاً ورخيصاً؛ وهو: وضع المتفجرات على مسافة من شفرات المنشار تعادل المسافة بين عجلات كاسحة الألغام

والمركبة بحيث تنفجر العبوة أسفل المركبة عندما تمر عجلات كاسحة الألغام على مفتاح الضغط. وكانت هذه التدابير والتدابير المضادة من قبل الطرفين تكلفنا المليارات، حيث كنا نهدر الأموال والتكنولوجيا لحل مشكلة العبوات الناسفة. وقد أنفقنا 3.5 مليارات دولار على التدابير المضادة للعبوات الناسفة، في حين لم تنفق طالبان شيئاً يستحق الذكر.

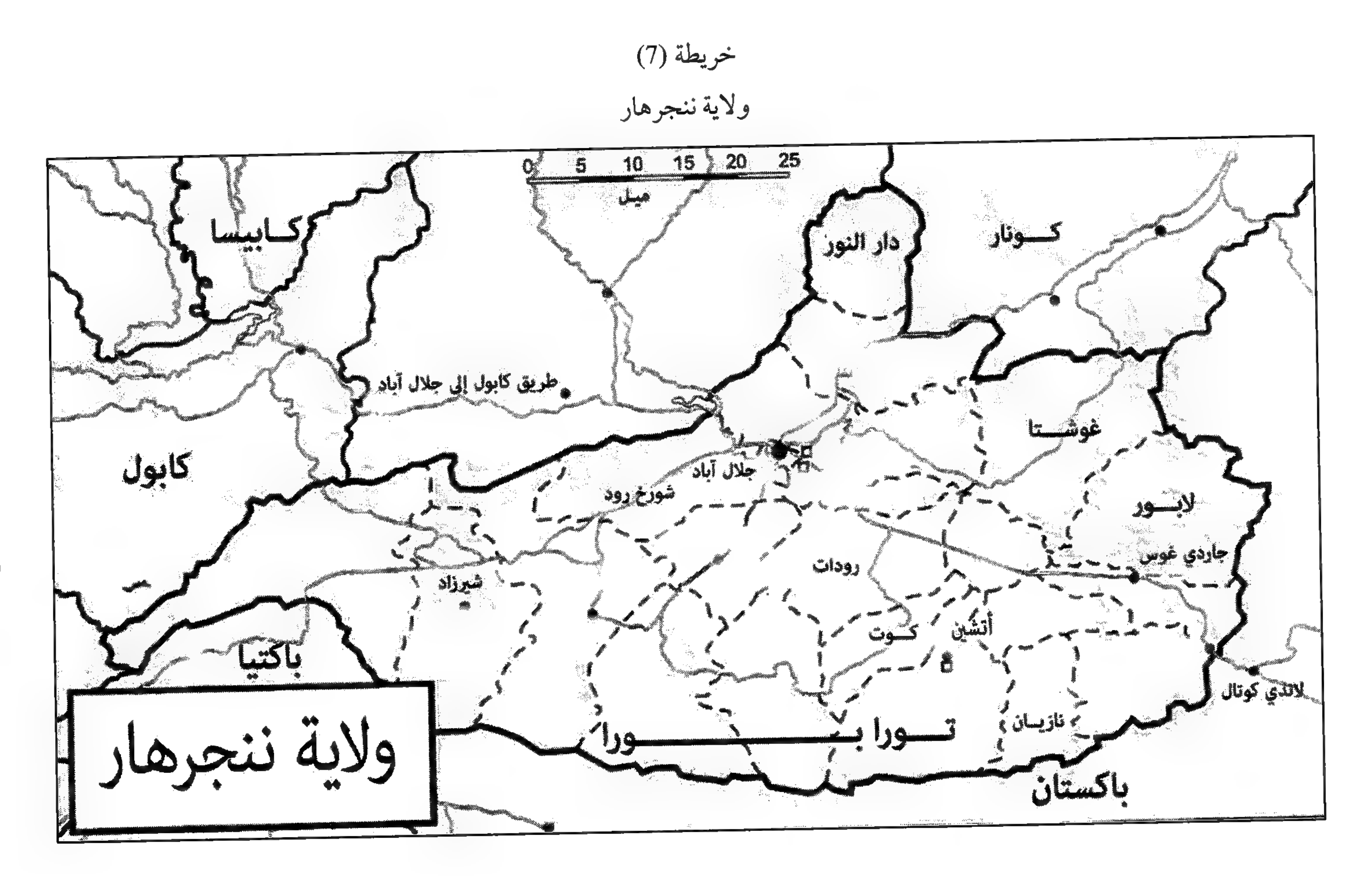
على الرغم من الخطر، قررنا الذهاب إلى جلال آباد في السيارات ذات الدفع الرباعي المدنية بدلاً من عربات الهامفي المدرعة أو مركبات التنقل البري المدججة بالمدافع الرشاشة. وبرغم أن سيارات الدفع الرباعي كانت مصفّحة، كنت أعلم أنه إذا ما ضربتنا عبوة ناسفة، فإن النتائج ستكون كارثية على كل من في الداخل. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا إذا وقعنا في كمين، فلن يكون هناك طريقة للقتال من داخل المركبات ولن تكون لدينا أسلحة آلية ثقيلة؛ ولن تكون لدينا سوى بنادق ومسدسات. ومع ذلك، وبشكل عام، كنت بالفعل أشعر بالأمان أكثر في سيارات الدفع الرباعي. لم تكن هذه السيارات من نوع "سوبربان" البيضاء أو السوداء اللامعة المستخدمة من قِبل كبار الشخصيات الأجنبية للتنقل في جميع أنحاء كابول، بل كانت سيارات تظهر عليها الخدوش والانبعاجات كأي سيارة أفغانية، وكان زجاج نوافذها الجانبية عاتماً، كما كانت صورة البطل الوطني الطاجيكي أحمد شاه مسعود الواسعة الانتشار، ملصقة على النوافذ الخلفية.

وبلحانا والقمصان والسراويل الأفغانية التي يرتديها السكان الأصليون في جنوب آسيا، استطعنا أن نظهر كموظفين من منظمة غير حكومية أو أي نوع آخر من منظمات المساعدات. كما ارتدينا سترات خفيفة مضادة للرصاص مخبأة تحت القمصان.

لقد جعلنا السفر مع العرب واثقين بأننا أحدثنا ما يكفي من الارتباك لدى أي مهاجم محتمل، لتجنب وقوع حادث. وكان من المرجح أن رجال طالبان لن يضيعوا إحدى عبواتهم الناسفة الثمينة على بضع سيارات من الدفع الرباعي المهترئة. كان الاحتمال الأكبر هو أن يركزوا على قافلة كبيرة من العربات المدرعة، التي من شأنها أن تحقق للمتمردين الثناء من رؤسائهم عندما يعرضونها في شريط فيديو كدليل مسجّل على الهجوم. باختصار فإن اندماجنا - في رأيي - مع الأفغان المحليين كان أفضل شكل من أشكال الأمن.

خريطة (7)

ولاية ننجرهار



وللأسف، تضاءلت قدرتنا ورغبتنا في اعتماد أسلوب تفادي الأنظار بدلاً من النهج التقليدي مع تصاعد العنف على مر السنين. وبحلول موعد فترة خدمتي عام 2009، كان ينبغي لأي عضو في العمليات يرغب في اتباع أسلوب أكثر سرية لعملية ما، أن يقدّم خطة المهمة للموافقة مسبقاً قبل الموعد بأسبوع إلى قائد القوات الخاصة في فرقة العمليات الخاصة المشتركة الموحدة. كانت أسباب القائد بسيطة: مع ارتفاع عدد الهجمات بالعبوات الناسفة، أراد أن يضمن شخصياً أن تأخذ كل واحدة من مفارز العمليات ألفا، الاحتياطات المناسبة قبل الانطلاق في مهمة على متن سيارة غير مصفحة. وفي الواقع، كانت الفِرَق بحاجة إلى المرونة لتنفيذ هذا النوع من المهام بإشعار مسبق تقل مدته عن الأسبوع، ولم يكن لديها الأفراد اللازمون للإجابة على سيل الأسئلة القادمة من فئات الموظفين الذين كان عليهم إطلاع القائد. للأسف، توقفت معظم الفِرَق عن السفر بشكل سري، الأمر الذي أعتقد أنه عرضهم لخطر أكبر، على المدى الطويل. وفي عام 2006، كنا بصفتنا قادة محليين، ما نزال نتمتع بالحرية لاتخاذ هذه القرارات، وقد آتت أكلها. وعندما دخلنا مدينة جلال آباد في الطريق إلى مدرج الطائرات، استمعنا إلى اتصالات الأقمار الصناعية حيث تعرضت قافلة من عربات الهامفي والشاحنات لكمين على بُعد نحو ساعة بالسيارة خلفنا بالقرب من نقطة تفتيش الشرطة عندما رفض تود دفع رشوة. لقد تم تدمير سيارتين وجُرِحَ عدد من الرجال.

قبل الذهاب إلى مهبط الطائرات، كنا قد رتبنا لزيارتين؛ الأولى كانت لفريق إعادة إعمار الولايات الأفغانية، الذي كان مسؤولاً عن إدارة النشاطات الإنمائية في الولاية والعمل مع الحكومة المحلية. والثانية كانت زيارة للحاكم المعروف جول آغا شيرزاي.

قبل أن نغادر قاعدتنا في باجرام، كنت قد سألت النقيب أسعد، قائد فريق الشؤون المدنية التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة، إنْ كان هو أو فريقه قد نسقوا جهود تجهيز المستوصف مع فريق إعادة إعمار الولايات. وقال إنهم لم يقوموا بذلك، لكنه تساءل بصوت عالٍ إذا ما كان الهلال الأحمر قد فعل ذلك في العام الماضي أو لا. تحققنا من الأمر

مع مكتب الهلال الأحمر في كابول، ولكن ممثلهم - الذي كان فريق دولة الإمارات العربية المتحدة قد قام بالترتيبات السابقة معه لتولي مشروع المستوصف - كان قد غادر. ولم يوجد في المكتب سجلات متعلقة بالمستوصف باستثناء إيصالات من شركة الإنشاء الأفغانية المكلفة ببنائه.

لم نجد أي معلومات على الإطلاق عن سبب اختيارهم إنشاء مستوصف أو الأسباب الكامنة وراء الموقع. كان هناك بعض المؤشرات نحو الجهود التي يتم تنسيقها مع الحكومة الأفغانية في مديرية أتشين أو مكتب وزارة الصحة في جلال آباد، ولكن عندما حاولنا الاتصال على الأرقام ونقاط الاتصال المُدرجة، كانت الخطوط خارج الخدمة. وهذا أمر مهم؛ حيث أبلغَنا مدير المكتب أنه لم يُدرج في ميزانيته للسنة المقبلة مخصصات لتشغيل المستوصف. وكان قد افترض أن الأفغان سيغطون هذه التكاليف حينما يتم بناء المستوصف، أو أن المستوصف سيكون قادراً على تغطية مصاريفه بنفسه من خلال رسوم المرضى. لم نكن مستائين أو متفاجئين بأن موظفي الهلال الأحمر لم يحتفظوا بسجلات عن مشروع المستوصف. كان لدى أفغانستان احتياجات هائلة، ولكن عدم الاستمرارية الذي ظهر مع تغيير الموظفين كان شائعاً جداً. كان الوضع اعتيادياً بالنسبة إلى الكثير من المشروعات التنموية التي رأيناها، ويمثل صورة مصغرة للأسباب التي تقف وراء استثمار المجتمع الدولي للكثير في أفغانستان، وعدم تحقيق نتائج كثيرة من ذلك الاستثمار. شجعتُ أسعد وفريقه على الاحتفاظ بسجلات مفصّلة قدر الإمكان لمصلحة قوات المهام التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة في المستقبل، ومشاركتها مع كل من الحكومة الأفغانية ومقر التحالف.

كان أسعد ذكياً جداً ويتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة بلكنة بريطانية خفيفة. وكان يخطط بشكل شامل، فقد كان فريق الشؤون المدنية قد استكشف أتشين الشهر السابق، وأكد موقع المستوصف وحالته. واكتشف فريقه أنه لا توجد أي معدات أو أي أحد من الأطباء العاملين في المنطقة. ولكن لحسن الحظ، كان المستوصف ما يزال فارغاً؛ ما يعني أنه

لا الشرطة المحلية ولا الوكالات الحكومية الأخرى قررت أن تستقرّ فيه. فالمبنى الفارغ كان سلعة ثمينة؛ وأصبحت الكثير من المشروعات التي لم تكتمل ملجأً شتوياً لماعز القرية وأغنامها، أو مكان إقامة لإحدى عائلات اللاجئين العائدين.

على طول الطريق الطويل من كابول إلى جلال آباد، وما فيه من حطام صدئ لمركبات سوفيتية مدمرة، سببتُ الملل لتود والرجال بحديثي المفصّل عن السياسة، وعن تطوّر فريق إعادة إعمار الولايات وكيف ينسجم مع مفهوم أوسع لكيفية تسليم المساعدات في أفغانستان، والمشكلات في تنفيذ هذا المفهوم. تمّ تأسيس أول فريق لإعادة إعمار الولايات من قبل فريق الشؤون المدنية وعمليات القوات الخاصة في مدينة كرديز في عام 2003.[2] وكان الهدف الأصلي للمفهوم مزدوجاً؛ أولاً كان لجمع الموارد من كل من الوكالات العسكرية والمدنية لتوفير آلية لإيصال مشروعات المساعدات خارج العاصمة كابول، وإلى الولايات والمناطق الريفية في أفغانستان. وثانياً المساعدة وتقديم المشورة وتعليم حكومات الولايات الجديدة. كانت الولايات المتحدة تأمل في انتقال السيطرة على المناطق الريفية من الزعماء المحليين إلى المسؤولين الحكوميين المحليين المنتخبين. وكان لفريق إعادة إعمار الولايات دور فعّال في تقديم المشورة لهم في كيفية الحكم.

تم استقبال الفكرة بشكل جيّد في واشنطن، وتم تأييدها بحماسة من الناحية النظرية، ولكن كانت هناك مشكلة كبيرة في تنفيذ فرق إعادة إعمار الولايات بسبب الصعوبة في إيجاد المزيج الصحيح من الخبراء المدنيين والعسكريين المتخصصين. كان الهدف الأصلي أن يتم إنشاء فرق إعادة إعمار الولايات من قبل فرق الشؤون المدنية التابعة للجيش، ثم تنتقل إلى أن تتم إدارتها بشكل كامل عبر خبراء إعادة الإعمار المدني، مع دعم من قِبل الجيش لشؤون مثل النقل الجوي والأمن. وبحلول عام 2004 كان هناك إحباط متزايد في وزارة الدفاع الأمريكية بسبب الأعداد القليلة من المدنيين المعينين في فِرَق إعادة إعمار الولايات. وقد أكدت وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية أنهما ببساطة لم يكن لديهما في مؤسساتهما الأعداد اللازمة من الأشخاص. إلى حدّ ما كان ذلك

صحيحاً، ولكن الجواب الحقيقي كان أكثر تعقيداً. وكان جزء من أسباب عدم تمكن الوكالات المدنية من الحصول على ضباط وخبراء للذهاب إلى فِرَق إعادة إعمار الولايات، يتمثل بأن ذلك لم يكن جيداً لحياتهم المهنية. كان تكليف شخص للقيام بمهمة في السفارة في كابول المنعزلة عن تيار الحضارة سيئاً بما فيه الكفاية، ولكن العمل في فريق إعادة إعمار الولايات كان أبعد ما يكون عن المسار الطبيعي لترقية ضباط الخدمة الخارجية، وكذلك عن ممارسة الدبلوماسية التقليدية. وبالإضافة إلى ذلك، كان على الضباط الانتقال إلى أفغانستان من دون عائلاتهم، وكان دائماً من العسير على وزارة الخارجية ملء المناصب الفردية في المناطق التي تتعرض لمشكلات صعبة، فضلاً عن ملء وحدات كاملة بخبراء مدنيين. وفي الواقع، فإن وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية قد تقلصتا بشكل كبير في العقود التي تلت حرب فيتنام، عندما كانت الوكالة الأمريكية للتنمية ووزارة الخارجية حينها قادرتين على نشر نحو ألف من المدنيين في الولايات والمناطق في فيتنام كجزء من برنامج التهدئة. وفي خطاب ألقاه في عام 2009، دعا وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس الكونجرس إلى توفير المزيد من الموارد لوزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولة قائلاً: "عندما تركتُ الحكومة كان لديهم نحو 16 ألف موظف من الخبراء الذين تمت تعبئتهم، وكانوا معتادين العمل في ظروف غير آمنة في البلدان النامية، وفي جميع التخصصات: الهندسة الزراعية، وسيادة القانون، والتعليم. عندما عدت إلى الحكومة في عام 2006، كان لدى الوكالة الأمريكية للتنمية 3,000 موظف، وكانت وكالة مقاولات بشكل أساسي".[3]

وبالإضافة إلى ذلك، عاد العراق مرة أخرى إلى دائرة الضوء؛ إلى حدٍّ أنه عندما تمكّنت وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية من شغل الوظائف، ذهبت الغالبية العظمى إلى العراق بدلاً من أفغانستان. ومع ذلك أصر زملائي في مكتب وزير الدفاع وهيئة الأركان المشتركة على تأكيد أنه كان بالإمكان توفير أكثر من فرد واحد لكل فريق من فرق إعادة إعمار الولايات التي تعهدوا بها.

في ظل غياب الخبرة المدنية تولى الجيش المهمة في نهاية المطاف. وتضخمت فرق إعادة إعمار الولايات وأصبحت تضمّ ما بين ستين فرداً ومئة من الأفراد العسكريين تحت إمرة مقدّم. وكان القادة في الأصل، ضباط شؤون مدنية في الجيش، وهم خبراء في فن توفير التنمية المحلية في الأماكن الصعبة. ومع ذلك، وفي تطور بيروقراطي غريب، انتقلت قيادة هذه المنظمات إلى القوات البحرية والقوات الجوية. وفي عام 2004 أرسل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد توجيهاً إلى هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون لإيجاد وسائل لزيادة مشاركة سلاح البحرية وسلاح الجو في حربَيْ العراق وأفغانستان، لتخفيف الضغط على الجيش ومشاة البحرية. وفيما لحق ذلك من التعيينات والتوظيف، قام شخصٌ ما في وزارة الدفاع الأمريكية بتغيير قيادة فريق إعادة إعمار الولايات والكثير من وظائف الدعم من الشؤون المدنية في الجيش، إلى مناصب مشتركة. تمّ اتخاذ هذا الإجراء في إطار فرضية أن مناصب فريق إعادة إعمار الولايات الأقل انخراطاً في العمليات القتالية يمكن أن يشغلها أي فرد من أفراد الخدمة العسكرية. كان ذلك مثالاً تقليدياً على أمرٍ بدا منطقياً في واشنطن، ولكنه نُفذ بشكل سيّئ على أرض الواقع. في عام 2006 فوجئتُ عندما تعرفتُ على طيار مقاتل في البحرية كان قائداً لفريق إعادة إعمار في ولاية أوروزغان المضطربة والمعقدة قبلياً. لقد كان هؤلاء القادة أشخاصاً طيبين، بيد أن الفكرة القائلة كانت أن قائد طائرة مقاتلة أو سائق غواصة هو شخص مدرَّب بشكل مناسب ولديه الخبرة المطلوبة لقيادة فريق إعادة إعمار الولايات والتعامل مع ديناميات التنمية المعقدة والقبلية كانت فكرة حمقاء. كان لهذه الفكرة [الخاطئة] المنطق نفسه الذي يأخذني - وأنا ضابط في القوات الخاصة بالجيش ومدرَّب على التفاصيل الدقيقة للحرب غير النظامية في ثقافات العالم الثالث - لأقود غواصة في المحيط الهادي.

لقد أضيفت مشكلة فترات الخدمة القصيرة إلى مشكلات محدودية الموارد والخبرات، فضلاً عن التدريب المحدود ما قبل التعبئة، وانفصال تسلسل القيادة بين القادة المدنيين والعسكريين داخل فرق إعادة إعمار الولايات. وفي العادة لم يكن لدى غالبية فرق إعادة إعمار الولايات ما يزيد على ضابط واحد من وزارة الخارجية، وآخر من الوكالة

الأمريكية للتنمية الدولية، ويمكن لعدد قليل من هذه الفرق أن يكون لديه ممثل من وزارة الزراعة أيضاً. قبل عام 2006 لم يكن هناك برنامج تدريب داخل وزارة الخارجية لإطلاع الضباط على الديناميات المعقدة للولايات المسندة إليهم حول مسؤولية إعادة إعمارها، أو على أفضل طريقة للعمل مع الجيش. وكثيراً ما ظهر أفراد، نياتهم حسنة وليس لديهم أي توجيهات سوى "الذهاب إلى فريق إعادة إعمار الولايات". وبما أن الوكالات المدنية لا يمكنها أن تجبر موظفيها على الذهاب إلى مناطق صعبة، فقد بدأت بتشجيع الأفراد على مغادرة الأمان النسبي في كابول عن طريق الحدّ من فترات خدمتهم في الولايات إلى تسعين يوماً أو 120 يوماً فقط. وفي حين ساعدت فترات الخدمة القصيرة على ملء الشواغر، فإن جميع الذين خدموا في أفغانستان يتفقون على أن الأمر يستغرق ستة أشهر على الأقل لفهم تركيبة السلطة الأفغانية المحلية المعقدة في أي موقع معيّن، فضلاً عن بناء علاقات قوية مع السكان المحليين. إن الافتقار إلى التدريب قبل الانتشار وقصر فترات الخدمة، حدّا بقدر كبير من فعالية فريق إعادة إعمار الولايات، والمشاركة الفعالة مع الأفغان.

وما تسبب في تفاقم المشكلة هو حقيقة أن التدوير المستمر للموظفين إلى أن تصادف الموهبة المناسبة مكانها، أسفر عن خسارة مستمرة للذاكرة المؤسسية والعلاقات مع الأفغان. لم يكن هناك أي سجل، سواء في وزارة الدفاع الأمريكية أو في القيادة المركزية الأمريكية، أو في الوكالة الأمريكية للتنمية، أو المقر الرئيسي للموقع يمكن أن يفيد قائداً بارزاً أين أُنفقت أموال المساعدات، وفي أي من مشروعات الإعمار في ولاية ما، وفي أي مدى زمني. وعلى الرغم من أن فِرَق إعادة إعمار الولايات وغيرها من الكيانات التي تنفق أموال إعادة الإعمار تتعقب مشروعاتها بجدّ ودقّة، فقد تم فقدان البيانات المتراكمة في كثير من الأحيان وعلى مر السنين مع تبدّل الأفراد والوحدات. في عام 2009 أسر لي نائب قائد فريق إعادة إعمار الولايات في خوست أنه عندما تولى مهامه لم يكن بإمكانه تحديد جميع المشروعات التي تم تنفيذها من قِبَل مَنْ سبقوه في مقاطعة خوست فقط، منذ تأسيس فريق إعادة إعمار الولايات في عام 2003. وقد هز برأسه وهو يخبرني عن ملازم مسكين كانت مهمته الوحيدة السفر في الولاية وبصحبته كاميرا ونظام تحديد المواقع

العالمي GPS لتحديد مواقع المشروعات السابقة وتصويرها للتأكد من وضعها الحالي؛ وكاد يُقتل مرتين تقريباً بعبوات ناسفة في أثناء محاولته معرفة أين أنفق فريق إعادة إعمار الولاية المال على مدى السنوات السابقة. وقد تأخر أمر مراقبة تلك الأموال حتى عام 2008 عندما قام الجنرال دوغلاس لوت المعروف بلقب "قيصر الحرب" في أثناء إدارة بوش بالبدء بعقد مراجعات شهرية للموارد في البيت الأبيض، في محاولة لتحديد أين تنفق دولارات وزارة الدفاع والمساعدات في أفغانستان، وما الذي حققته الولايات المتحدة من إنجازات مقابل النفقات الهائلة. إن إحدى نتائج المراجعة الاستراتيجية للحرب الأفغانية التي قامت بها إدارة بوش بقيادة لوت كانت توجيه كل وكالة لتطوير قاعدة بيانات واحدة تسجّل فيها جميع مشروعات إعادة الإعمار التي بدأت حتى تاريخه.

وما أسهم بشكل كبير في جهود الإغاثة الجارية أيضاً، وإن كانت غير فاعلة، أن تسلسل القيادة كان مقسماً بين المدنيين وأفراد الجيش في فِرَق إعادة إعمار الولايات. كان المدنيون يتبعون مباشرة رؤساءهم في السفارة، في حين كان أفراد الجيش يتبعون قائد إيساف في المنطقة. وغالباً ما تغلبت الشخصيات ذات النزعة التعاونية على نقص التنسيق المتأصل في تسلسل القيادة المنفصل، وجعلت الأمور تنجح. ولكن في بعض الأحيان أدى تقسيم القيادة إلى خلافات كبيرة بشأن أولويات فريق إعادة إعمار الولايات، وأرسل ذلك الوضع رسائل مختلطة لنظرائهم في الحكومة الأفغانية. وبالإضافة إلى ذلك، ولأن الجيش وفر الأغلبية العظمى من الموظفين والدعم وجميع القدرات الأمنية، كان لقائد فريق إعادة إعمار الولاية نفوذ غير عادي في قضايا إعادة الإعمار. ولقد لاحظت في مناسبات عدة الاحتكاك بين قادة فريق إعادة إعمار الولايات والمستشار السياسي لوزارة الخارجية فيما يتعلق بمَنْ لديه الأولوية في التعامل مع القيادة الإقليمية الأفغانية. في أوروزغان، على سبيل المثال، لم يؤيد قائد فريق إعادة إعمار الولاية الضغط على الرئيس كرزاي لإزالة حاكم الولاية السيئ السمعة، جان محمد خان. كان تردد القائد مفهوماً؛ حيث إن خان كان يحكم الولاية بقبضة من حديد، ووفر منطقة آمنة نسبياً لتزدهر فيها المنظمات غير الحكومية، وصدّ بقوة الغارات التي حاولت طالبان القيام بها. ومع ذلك، أكد المستشار

السياسي أن القمع الوحشي من قِبل خان للقبائل التي يعتبرها متحالفة مع طالبان قد ساعد في تعزيز عودة التمرد. وقال إنه بينما قد يؤدي الضغط على كرزاي لإزالة خان إلى تراجع في الوضع الأمني في المدى القصير، فإن تحسين الحكم اللائق سيكون فوزاً على المدى الطويل للولاية ولمصالح الولايات المتحدة. لقد أرسل هذا الخلاف إشارات متضاربة إلى كابول، ومن ثم تأخرت إزاحة خان.

أبرزت ندرة المدنيين في الولايات مرة أخرى عيباً أساسياً في قدرة الولايات المتحدة على القيام ببناء الدولة في خضم الصراع الدائر. وشملت القضايا الأساسية سوء تنسيق استراتيجي بين السلطات والموارد والخبرات. وباختصار، فإن الخبرة للقيام ببناء الدولة (الزراعة، والمياه، والكهرباء، وسيادة القانون،... إلخ)، كانت موجودة لدى الوكالات المدنية التابعة لنا فقط. إلا أن تلك الوكالات نفسها ليس لديها القوى العاملة أو التمويل للعمل في مكان مثل أفغانستان. لم يكونوا مصممين، ولم تكن لديهم القدرة على أن يقوموا بالتدخل السريع، أو العمل في خضم منطقة حرب هي بحاجة إلى نشاطات إعادة إعمار أيضاً. بالطبع يمكن لجيشنا أن يعمل في مثل هذا المكان ولكنه يفتقر إلى مثل هذه الخبرة المتخصصة في بناء الدولة. لم يكن الرقيب أو النقيب من الكتيبة 82 المحمولة جواً مدرباً في الإدارة الحضرية، أو الصناعات الزراعية، أو تربية الحيوانات، أو علم المياه. كنا غالباً ما نُترَك مع أقل الخيارات سوءاً لنختار إما وجود عدد قليل جداً من المدنيين للقيام بهذه المهمة، وإما وجود جندي سيّئ التدريب يحاول فهمها، وإما أن نتجه نحو المتعاقدين، وهو بديل كان في كثير من الأحيان مكلفاً جداً.

وكثرت الأمثلة على هذا الانفصال الأساسي في مجالات مثل تدريب الشرطة، ومراقبة الحدود، وإصلاح نظام العدالة. وكانت لدى وزارة الخارجية السلطة والصلاحيات التي يمنحها الكونجرس، والخبرة الداخلية لتدريب قوات الشرطة الأجنبية في جميع أنحاء العالم. ومع ذلك، فلم يكن بإمكانها أن توفر وتنقل أعداداً من مدربي الشرطة، أو أن توفر كميات من المعدات اللازمة لإنشاء قوة شرطة بالمستوى الذي تدعو إليه الحاجة في أفغانستان، فضلاً عن أن تتمكن من عمل ذلك بينما تحاول أن

تفعل الشيء نفسه في العراق. ونتيجة لذلك كان لا بد من التعاقد الخارجي للقيام بالكثير من الجهد وبنفقة كبيرة وبرقابة حكومية قليلة. في نهاية المطاف سمح الترقيع البيروقراطي والبراعة لوزارة الدفاع بتنفيذ هذه المهمة في العراق وأفغانستان، لكنها اتخذت المقعد الخلفي في مهمة تدريب الجيش الأفغاني والعمليات القتالية. وبالمثل، كنا بحاجة إلى تزويد الحكومة الأفغانية بالخبراء لمساعدتها على البدء في عملية السيطرة على حدودها التي يسهل اختراقها، والذي من شأنه أن يؤدي إلى تحقيق المزيد من الدخل. إن الرسوم الجمركية التي يتم جمعها على المعابر الحدودية تمثل أكبر مصدر لإيرادات الحكومة الأفغانية، إلا أن جزءاً صغيراً منها يصل فعلاً إلى خزائن الحكومة المركزية. كانت خبراتنا في مراقبة الحدود والقدرة على تحقيق أقصى قدر من الإيرادات الجمركية موجودة داخل وزارة الأمن الداخلي والجمارك وحماية الحدود. أرادت قيادة الأمن الداخلي المساعدة في أفغانستان، ولكن هجوماً آخر على الولايات المتحدة وقضايا مراقبة الحدود بعد 11 سبتمبر منعت ذلك؛ حيث حازت هذه القضايا أولويات أعلى وبشكل مسوغ. وبالمثل، امتلكت وزارة العدل ووزارة الخارجية القدرة على تدريب القضاة والمدّعين العامين الأفغانيين وتوجيههم، وتعهدت بتوفير المدربين من خلال برنامج كبار المدّعين العامين الفيدراليين. ومع ذلك، فإن معظم موظفي وزارة العدل في الواقع لم يقبلوا الانتقال إلى منطقة القتال لفترات طويلة، فحتى الحصول على الأعداد اللازمة من المدربين المؤهلين كان شبه مستحيل. لقد أسهمت كل وكالة، بما في ذلك مكتب التحقيقات الفيدرالي والشرطة القضائية الأمريكية، بكل ما في وسعها. وفي النهاية، كان من هؤلاء من هو برتبة رقيب أو ملازم، أو من المدربين كرجال مدفعية أو ضباط مشاة، ووجدوا أنفسهم في مناطق نائية يحاولون التعامل مع هذه القضايا بأفضل ما أمكنهم.

هذا الانقسام بين وجود الخبرة اللازمة في الوكالات المدنية التابعة لنا، وقدرة جيشنا على العمل في منطقة القتال كان أكبر منا جميعاً. ويكمن الحل في تشريعات إصلاحية واسعة النطاق على غرار قانون الكونجرس جولدووتر- نيكولز في الثمانينيات، الذي أجبر الجيش والبحرية والقوات الجوية ومشاة البحرية على العمل بشكل مشترك. وثمة حاجة

إلى جهد مماثل لإجبار الجيش ومختلف الوكالات المدنية على العمل لمصلحة بعضهم بعضاً، وليس مع بعضهم بعضاً فقط. ولقد فعلنا ذلك من قبل مع برنامج دعم العمليات المدنية والتنمية الثورية في فيتنام. وفي إطار ذلك البرنامج، كان الجيش، وموظفو وزارة الخارجية، والضباط، والوكالة الأمريكية للتنمية يتبع بعضهم بعضاً بدءاً من المديريات المختلفة وصولاً إلى قائد الموقع في إطار تنفيذ جهد موحد يهدف إلى تحقيق نتائج طيبة. للأسف لم يتم تنفيذ البرنامج بشكل كامل حتى تمت خسارة الحرب في الداخل سياسياً. لقد كنا بحاجة ماسة إلى نظام وحدة قيادة مماثل، بالإضافة إلى توحيد الجهود في أفغانستان قبل أن تفقد الدعم المحلي أيضاً.

إن غياب البيانات وسلسلة القيادة المدنية والعسكرية المفككة عكست قضية أكبر من ذلك بكثير: وهي عدم وجود استراتيجية تنمية شاملة للتحالف. لقد بذلت المنظمات غير الحكومية المحلية، ومنظمات التنمية الدولية الكبيرة، مثل: البنك الدولي والهلال الأحمر، والوحدات العسكرية مع صناديق التنمية السريعة التأثير، جهوداً هائلة ليكون لها تأثير في تحسين حياة الأفغان. ولكن هذه الجهود مجتمعةً لم تحقق النتيجة المرجوة منها بأي شكل من الأشكال. إن انتقال الأمر من الولايات المتحدة الأمريكية إلى حلف شمال الأطلسي في عام 2006 أدى إلى قيام أكثر من عشر دول بإدارة فِرَق إعادة إعمار الولايات الأفغانية.[4] وكان التطوع لقيادة فِرَق إعادة إعمار الولايات قد سهّل على وزراء الدفاع الأوروبيين إقناع برلماناتهم والدوائر الانتخابية المتشككة في أن توافق على الإسهام بالقوات القتالية التقليدية. وضمن حرص الحكومتين الأمريكية والأفغانية للحصول على كل ما في وسعها من إسهامات لجهود بناء الأمة، قبلنا تقريباً بأي إسهام عُرِضَ ولم نحاول إعادة إدماجها ضمن استراتيجية شاملة، خشية الظهور بأنها تملي على الآخرين طبيعة الإسهامات، أو تعمل على إخافة الجهات المانحة. وفي غياب الاستراتيجية، مضى كل مساهم قُدُماً في مشروعات حسنة النية، مع عدم وجود سلطة عامة أو خطة توجيهية لتنسيق أو مزامنة الجهود.

وبالنسبة إلى الكثير من هذه المنظمات، فإن مجرد إنجاز المشروعات يعني النجاح. وعلى اعتبار أن خدمتي كانت ميدانية، واختبرت بنفسي مدى صعوبة الأمور في أفغانستان، فقد فهمتُ وجهة نظرهم. وإذا ما وضعنا الاستراتيجية الأوسع جانباً، فإن إنجاز المشروعات المنفردة وإدخالها حيز التشغيل أيضاً كان عملاً صعباً بشكل لا يصدق. كان هناك قول مأثور في مجتمع التنمية: "كل شيء في أفغانستان أصعب بمرتين، وكلفته أعلى بمرتين، ويحتاج إلى زمن أطول بمرتين مما هو مخطط له". فإن بنيتَ المدرسة، فلن يكون لها أي معلمين. وإن عثرت على المعلمين، فلن يكون لديهم أي مواد. وإن حصلت على المعلمين، والكتب، واللوازم، والمنشأة، فسوف تجد أن الطلاب يخافون من المتعاطفين مع طالبان، ولن يأتوا إلى المدرسة. وإذا أقنع شيوخ المجتمع المحلي الأُسر والقرويين بإرسال الطلبة، فستقوم طالبان في الأسبوع المقبل بتفجير كل شيء، أو تخويف المعلمين وضربهم أحياناً، وتهديد القرويين؛ بحيث يجب عليك أن تبدأ من نقطة الصفر من جديد.

ومع ذلك، ومن منظور استراتيجي أوسع، كان لدينا التزام بصفتنا صانعي سياسات في واشنطن أن نضيف نوعاً من التركيز الجغرافي أو القطاعي على جهود التنمية التي نبذلها. وكان مسؤولون رفيعو المستوى من مختلف الوكالات، يأتون باستمرار لحضور الاجتماعات في البيت الأبيض ومعهم قوائم البرامج التي قاموا بتمويلها. وقد شملت هذه القوائم عادةً النسب المئوية للأموال التي صرفَت، أو حالة إكمال المشروعات كمقياس للنجاح: إنشاء سبعة عشر مركزاً لتمكين المرأة؛ وتشييد 931 مدرسة ومستوصفاً طبياً؛ وتعبيد 1,830 كيلومتراً من الطرق.[5] وكانت هذه الإنجازات مهمة، لكنها كانت مجرد مدخلات. ومن خلال وجودي في الميدان، كنت أعرف أن هذه المشروعات كانت غالباً ما تكون مختلفة كثيراً: مراكز المرأة والعيادات تُهاجم من قبل المتطرفين؛ المدارس من دون مدرسين؛ رجال الشرطة يهجرون مواقعهم؛ الطرق لا يمكن للحكومة أن تتحمّل نفقة صيانتها. طرحتُ هذه النقاط على رؤسائي في البنتاجون، لكنهم شعروا بأنه ليس بإمكانهم فعل الكثير لفرض استراتيجية أو مقاييس أكثر دقة على مجتمع التنمية الدولي.

نوقشت هذه المسائل في مجموعات العمل المشتركة بين الوكالات، حتى في اجتماعات البيت الأبيض الأكثر رصانة. هل كان يجري بناء المشروعات بشكل يتماشى مع محور الاهتمام الأمني للجيش؟ وهل كان هناك تنسيق بين البرامج؟ وكيف كان يمكن للحكومة الأفغانية استدامة هذه المشروعات؟ وهل كان بناء محكمة جديدة في برنامج قطاع العدل يتم بالتنسيق مع المواقع؛ حيث كان يتدرب أفراد النيابة العامة؟ وهل كانت تلك الجهود تتم بالتنسيق مع نشر وحدات الشرطة المدربة حديثاً بحيث كان لدينا نهج شامل لسيادة القانون؟ عادة ما نتفق جميعاً على ضرورة تحسين التنسيق وأن يكون التوجه الاستراتيجي أكثر وضوحاً، ولكن لم يحدث تغيير يذكر قبل الاجتماع اللاحق.

بحلول عام 2007، تولى مسؤولو كل من وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية في كابول مهمة شاقة لمساعدة نظرائهم الأفغان عبر وزارات عدة، للخروج باستراتيجية التنمية الوطنية الأفغانية. وعلى الرغم من أنه طال انتظارها، فإنها كانت على شكل قائمة بالاحتياجات أكثر من كونها استراتيجية. ومع ذلك، فقد كانت بداية أساسية، والأهم، أنه كان يقودها الأفغان. وبحلول موعد فترة خدمتي في وقت لاحق من عام 2009 كانت بعض مجالس التنمية المحلية العاملة مع فِرَق إعادة إعمار الولايات تشير إلى استراتيجية التنمية الوطنية الأفغانية كمرجع عندما كانوا يحاولون ترتيب أولويات ميزانياتهم الضئيلة وطلباتهم من المجتمع الدولي. على الأقل كانت تلك خطوة في الاتجاه الصحيح.

كان المستوصف في أتشين صورة مصغرة من التحديات والمشكلات المرتبطة بمحاولة إعادة بناء بلد مدمر وصعب مثل أفغانستان. وكان قد تم الانتهاء من بناء المستوصف ولكنه ظلّ مهملاً لأكثر من سنة؛ وكان بحاجة إلى الكهرباء والمعدات الطبية والأجهزة، وبالطبع، إلى الأطباء والممرضين والموظفين. لم تكن لدينا أدنى فكرة لِمَ تم بناؤه؟ أو لماذا وقع الاختيار على هذا الموقع بشكل خاص؟ لم تكن لدينا أي فكرة أيضاً عن كيفية استمراريته واستدامته حين يتم تجهيزه وتعيين كوادره. لم نتمكن من الاتصال بأي

من الأطراف المعنية بالمستوصف. كانت بعثات مثل بعثتنا لتجهيز المستوصف في أتشين تجوب جميع أنحاء أفغانستان بآمال كبيرة ولكن بنفقات هائلة من الدم والمال. وللأسف، لم يتم تنسيق الجهود لتدفع أفغانستان في اتجاه استراتيجي معيّن. ومع ذلك، مضينا قُدُماً واعتزمنا إحداث فرق في الجزء الضئيل الموكل إلينا من الحرب.

كان فريق إعادة إعمار الولايات لجلال آباد يقع في أحد الفنادق القديمة التي كانت بمنزلة موقع قضاء إجازة للجنود الروس في الثمانينيات من القرن الماضي. كان الفندق في مجمّع عسكري أفغاني على الطريق من مطار جلال آباد، وتحيط به باحات الزهور والنباتات الرائعة التي خَلَقت مشهداً غير واقعي أشبه بالخيال من المساحات الخضر والألوان، مقارنة بالأخاديد بنية اللون المحيطة بالطريق بين كابول وجلال آباد، والفوضى القذرة في مدينة جلال آباد.

قال الرائد ديفيس، ضابط عمليات إعادة إعمار الولايات لفريق جلال آباد، بينما كان يجلس على الطاولة في مركز عملياته: "لم أسمع قط بمشروع مستوصف في أتشين، وأنا هنا منذ تسعة أشهر"، وأوضح النقيب أسعد سبب موقع المستوصف وما كان يعرفه عن الجهود التي تتم برعاية الهلال الأحمر.

سألت: "هل لديك أي سجل لمشروعات الهلال الأحمر في الولاية؟، أي شيء من شأنه أن يشير إلى سبب إنشاء المستوصف في أتشين؟ أو مَنْ كان وراء بنائه هناك أيضاً؟ هل تعرف إذا كان لدى مدير صحة الولاية التمويل لدعمه، أو إذا كان يوجد في جلال آباد ما يكفي من الأطباء أو الممرضات المستعدين للسفر إلى أتشين للعمل هناك؟".

"لقد تعمّد مكتب الهلال الأحمر المحلي أن يبقى بعيداً عنا من أجل الحفاظ على حياديته. ليس لنا أي صلة بمشروعاتهم، وهم يريدون ذلك بهذه الطريقة"، أجاب ديفيس. لم يكن لهم أي ذنب؛ فقد كانت هذه هي العقلية المشتركة بين معظم المنظمات غير الحكومية. فثقافتهم، وميثاقهم في كثير من الحالات، يملي عليهم ألا يعطوا أي إيحاء أنهم

يقفون إلى جانب طرف ما في الصراع. إنهم يخشون أن ينظر إليهم على أنهم يتعاونون مع جهود التحالف، ومن ثم يصبحون هدفاً لحركة طالبان. ومن وجهة نظر المنظمات غير الحكومية، هم في أفغانستان للمساعدة في تحسين حياة الشعب الأفغاني، وليس ليأخذوا موقفاً في الحرب.

"أنا حقاً ليس لديّ أي معلومات جيدة لكم يا رفاق"، وتابع ديفيس: "إن حكومة الولاية لديها أكثر من ثمانين منظمة غير حكومية مسجلة للعمل في هذه الولاية، وبعضهم يتحدثون إلينا، وأغلبهم لا يتحدثون". وبالإضافة إلى ذلك، فإن المنظمات الدولية الكبرى، مثل: البنك الدولي وبنك التنمية الآسيوي، تنشط جداً عند معبر الحدود في تورخام. ونحن نجتمع معهم بشكل منتظم، ولدينا بعض الرؤية عن جهودهم، لكن ليس لدينا أي سلطة لكي نقوم بتشكيلهم أو توجيههم في اتجاه مختلف. وبالطبع لدى الأفغان مشروعات أيضاً، يقومون بتمويلها من الجهات المانحة التي تضخ الأموال من خلال وزاراتهم. لدينا علاقة جيدة مع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية؛ ممثلنا الجديد جادّ فعلاً، وينسق بشكل جيد مع الأفغان. وهذا أمر هائل؛ إذ أمضى المندوب السابق من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية هنا تسعين يوماً ولم يفعل أي شيء. كلٌّ من موظفي الخارجية والزراعة في إجازة حالياً. من اللطيف الحصول على الراحة والاستجمام كل ثلاثة أشهر أو أربعة!

قال ديفيس: "وبالإضافة إلى هذا كلّه، نحن نحاول أن نحيط علماً بمختلف المشروعات الأصغر حجماً التي كانت تقوم بها وحدة المشاة ومفارز العمليات ألفا التابعة للقوات الخاصة". وأضاف قائلاً: "إنها فوضى؛ الجميع يعملون بجد ولكنهم يفعلون أموراً خاصة بهم. ولكن فريق إعادة إعمار الولايات يشرف على جميع مشروعات التحالف في الولاية، وسوف يودّ قائدي أن يتشاور معكم قبل المضي قُدُماً. سيعود من كابول في غضون يومين. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الطريق الرئيسي المؤدي إلى أتشين الذي تسلكه عربات الهامفي بدأ يصبح رديئاً. حدثت مؤخراً ضربتان بالعبوات الناسفة

لبعض المهندسين في أثناء محاولتهم تعبيد جزء من الطريق؛ عليكم الانتظار حتى ننظّم لكم سلسلة من إجراءات الحماية قبل ذهابكم إلى أتشين. أعتقد أن القائد لن يعترض على المضي قُدُماً في المشروع، ولكن فصيلة الحماية لدينا ستعود إلى الوطن، لذلك لن تخرج أي بعثات لبضعة أسابيع حتى يستعد الفريق الجديد".

كان في استطاعتي رؤية التوتّر لدى أسعد؛ إنه بحاجة إلى تصريح من فريق إعادة إعمار الولايات، وسيتعيّن عليه الانتظار. تحدثتُ قائلاً: "أعتقد أن هذا لا يناسبنا، سيدي؛ هؤلاء الرجال لديهم تعليمات من قيادتهم العليا بأن يضعوا تلك المعدات الطبية موضع الاستخدام في الأسبوع المقبل، والعودة إلى قاعدتهم في باجرام. كما يمكننا تنفيذ ثلاثة مشروعات أخرى خلال الأسابيع التي تقول لنا إننا بحاجة إلى أن ننتظرها ريثما تستعد فصيلة الأمن".

ردّ ديفيس: "أنا لا أحاول أن أقف في طريقكم، ولكننا نحاول أن نحقق بعض التماسك لجميع أعمال الإغاثة المستمرة، وسوف نكون نحن مسؤولين من وجهة نظر حماية القوات. وسوف يكون علينا أو على كتيبة المشاة في مهبط جلال آباد أن نقوم بإنقاذكم إذا ما تورطتم في أمر ما هناك. وسوف يكون علينا أن نقدّم الشرائح (باور بوينت) كافة لقوة الرد السريع واعتمادها من خلال سلسلة القيادة في باجرام قبل أن تذهبوا. أنا أبلغكم أن قائدي سيعترض على الأمر لدى فرقة العمل المشتركة إنْ ذهبتم إلى هناك من دون موافقته".

يمكنني أن أتعاطف تماماً مع رغبته في تحقيق نوع من النظام لمئات المشروعات التنموية حول الولاية. ها أنا ذا أسهم في الشيء ذاته الذي كنت أنتقده في واشنطن: دول التحالف تنفذ جداول أعمال التنمية الخاصة بها بشكل مستقلّ عن أي خطة شاملة. لكنني كنت أعرف أن الإماراتيين لن ينتظروا أيضاً. وكان لدى أسعد أوامره من سلسلة قيادته ولم يكن ليتلقى الأوامر لا من فريق إعادة إعمار الولايات ولا من رؤسائهم في فرقة العمل المشتركة في باجرام، كما أنني لم أتعاطف على الإطلاق مع حجة ديفيس لحماية القوات.

فمثل هذا التفكير التقليدي هو ما يجعل المشكلة أكثر سوءاً، من وجهة نظري، ويُعرِّض حياة جنوده للخطر؛ حيث يجعل من السهل التنبؤ بالطرق التي يسلكونها والهجوم عليهم.

قلتُ: "سوف نسلك الطرق الخلفية بسيارات الدفع الرباعي وسنحاول السفر ليلاً". اتسعت عينا الرائد على فكرة أننا لم نكن ننوي فقط السفر من دون فصيلة الأمن فقط، بل سوف نستقل سيارات الدفع الرباعي المدنية.

وعند رؤية ردّ فعله الأول قلت: "سيدي، هناك طريق واحدة فقط لعربات الهامفي من مديرية أتشين وإليها، ونحن لن نستخدمها ذهاباً وإياباً لأنه يمكن أن نقع في كمين أو نُضرب بعبوة ناسفة. بالسفر في سيارات الدفع الرباعي المدنية يمكننا أن نسلك درباً مختلفاً أو وادياً في كل مرة، ويمكن أن نختلط مع حركة المرور الأفغانية المحلية. إن ما ستفعله فصيلة الأمن هو أن تعلن للعالم أننا قادمون وتجعلنا هدفاً. كما أنها ستقوم بتسليط الضوء على المستوصف وأي شخص يرتبط به لدى أيٍّ من مناصري طالبان في المنطقة. أنا لا أريد أن أكون أحمق، ولكنني أخمن أن فِرَق الشؤون المدنية لديك، تحاول إثبات النقطة نفسها عند محاولتها الإشراف على مشروعاتها. لقد تعاملتُ مع فريقين من فرق إعادة إعمار الولايات الأخرى حتى الآن خلال فترة الخدمة هذه، وجميعهم محبطون للغاية بسبب جميع القواعد التي تمنعهم من القيام بعملهم".

"في الواقع، قاموا بذلك"، أقرّ الرائد، ولكنه أضاف: "لا يخرج أحد خارج هذه الأسلاك إلا إذا كان في قافلة من أربع عربات هامفي مع قوة للرد السريع في وضع الاستعداد. ليست هذه قواعدي".

قلت بإصرار: "سيدي، إليك بيت القصيد، هؤلاء الرجال سيسلمون شحنات عدة من التجهيزات الطبية إلى المستوصف في أتشين وعليهم تشغيلها. ومهمتي أن أذهب معهم وأن أساعدهم قدر استطاعتي. سنقوم بالاتصال بمفرزة العمليات ألفا في المهبط إذا كنا بحاجة إلى مساعدة".

كانت ابتسامة النقيب أسعد عريضة. واكتشفت في وقت لاحق أن قصة "وقوفي" في وجه الرائد نيابة عن الإماراتيين وصلت إلى فريق القوات الخاصة التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة. وعلى الرغم من أن القصة كانت تحوي نوعاً من المبالغة، فإنني غضضت النظر عن ذلك، فلقد صنعت المعجزات لعلاقتنا.

كانت المحطة اللاحقة مجمّع حاكم الولاية جول آغا شيرزاي. قادنا أحد مساعديه إلى حديقة مشذبة جميلة تحيط بأكبر نافورة رأيتها في أفغانستان (طولها خمسون ياردة). كانت عائلة شيرزاي من الشخصيات القوية في قبيلة باراكزاي، التي كانت أكثر انتشاراً في جنوب أفغانستان في ولاية قندهار. وكان جول آغا شيرزاي وعائلته قد أصبحوا قريبين جداً من عائلة كرزاي خلال منفاهم في باكستان، الذي استمر طوال عهد طالبان. قاد ميليشيا لمحاربة طالبان بعد وقت قصير من تسلل كرزاي إلى جنوب أفغانستان مع فريق من ذوي القبعات الخضر وضباط وكالة المخابرات المركزية في أعقاب هجمات 11 سبتمبر. عيّنه كرزاي حاكماً لولاية قندهار؛ حيث حافظ على السلام، ولكن، مثل جان محمد خان في أوروزغان، كان يقال: إن ذلك على حساب القبائل مثل نورزاي والقبائل الأخرى التي دعمت طالبان خلال حكم رجالها. إن تكتيكات شيرزاي الخرقاء، إلى جانب مزاعم واسعة النطاق بتورطه في تهريب الأفيون، أدى إلى ضغط كبير من الولايات المتحدة والتحالف لإزالته من منصب الحاكم. ومع ذلك، وبدلاً من إقالته وإيجاد منافس محتمل له من البشتون وإبرازه في قندهار، جعله كرزاي في عام 2005 حاكماً لولاية ننجرهار. وعندما تسلم منصبه هناك، يُقال إن شيرزاي قوّم تصرفاته وبدأ بتضييق الخناق على مزارعي الأفيون ومنتجيه، على الرغم من أننا في وزارة الدفاع، وبصفتنا ضباط سياسة مكافحة المخدرات، فإننا كنا نتعامل مع التقارير بتشكك ولم نعتبرها صحيحة. بينما قالت تقارير أخرى: إنه كان يتلقى عمولات كبيرة، تقريباً من كل مشروع بناء في الولاية، فضلاً عن الرسوم الجمركية من موقع عبور الحدود الرئيسي مع باكستان عند معبر تورخام.

وبينما كان شيرزاي يسير ليصل إلى مجموعتنا، اعتقدتُ أنه خرج للتو من أحد أفلام هوليوود؛ رجل ممتلئ الجسم، ذو لحية كثيفة ولكنها مشذبة بعناية على فكين ممتلئين، وكان يرتدي ثوباً رسمياً أكثر من القميص والسروال الأفغاني التقليدي. وبينما كان يسحب طرف سترة البدلة التي كان يرتديها فوق القميص الطويل، لمحت ساعة ذهبية لامعة في يده. جلس على رأس الطاولة المصنوعة من الحديد في حديقة منزله. وكان رئيس موظفيه قد حذرنا من أن شيرزاي كان على وشك التوجّه إلى الخارج في رحلة ولكنه أخّر مغادرته بضع دقائق ليتمكن من إلقاء التحية علينا. وسرعان ما فهمتُ لماذا.

"نحن سعداء جداً في أن يقوم إخواننا الكرام من دولة الإمارات العربية المتحدة بتنفيذ مشروعات في ولايتنا"، افتتح شيرزاي الحديث برتابة منخفضة بينما قام محمد بالترجمة. أجاب النقيب أسعد بينما شرع بالتعريف فيما بيننا، "شكراً لسعادتك".

"لسوء الحظ، لا بد لي من أن أغادر في وقت قريب جداً، ولكني أردت أن أخبركم مدى أهمية زيارتكم لننجرهار؛ لي ولشعبي، ولأترككم مع بعض النقاط للنظر فيها". توقف شيرزاي للسماح لمحمد بالترجمة. "أنا على دراية بأمر هذا المستوصف في منطقة أتشين، وأنا متأكد من أنك تعرف أن شينواري قبيلة مهمة وقديمة في هذا الجزء من أفغانستان، وأن مساعدتها أمر جيد. لكني أشعر بالقلق تجاه جودة بناء هذا المستوصف. يجب أن أكون صادقاً معك. أنا لا أثق بشركة البناء التي استخدمتها المنظمات غير الحكومية لبناء هذا المستوصف. وأنا أعرف الأسرة التي تملكها، وهي معروفة بسوء نوعية الخرسانة والمواد التي يستخدمونها. إلا أن المنظمات غير الحكومية لم تستخدم عملية تقديم العطاءات التنافسية. لقد أصررتم على استخدام العطاءات التنافسية لمكافحة الفساد، أليس كذلك؟" سأل شيرزاي، ونظر مباشرة إلى وجهي.

أومأتُ له قائلاً: بلى.

"سوف يعطيكم رئيس الموظفين لديّ قائمة بالشركات التي وافقنا على مشاركتها في التقدم للعطاءات. علينا أن نتعامل مع العروض من خلال الدوائر الحكومية. أنا محبط

للغاية بسبب هذه المنظمات غير الحكومية التي تنفق المال خارج رقابة الحكومة الأفغانية. وهذا يشمل فريق إعادة إعمار الولايات"، ومرة أخرى نظر إليّ. وأضاف قائلاً: "إننا في كثير من الأحيان لا يمكن أن ندعم جميع هذه الجهود حين يتم الانتهاء من هذه المشروعات، وعليك أن تتخيل الحرج الذي أشعر به عند عدم معرفتي بما يجري في ولايتي. أنا لا أحب أن أشعر بالحرج"، أضاف بتجهّم، وظهر تماماً أنه من أمراء الحرب.

وبعد صمت قصير علت ابتسامة وجه شيرزاي وأشار إلى غلامه أن يصبّ المزيد من الشاي وقال: "ولكننا سوف نعالج هذه المشكلات في الوقت المناسب. اليوم يجب أن نحتفل بوجود إخواننا العرب الكرام. أنا معجب كثيراً بدولة الإمارات العربية المتحدة. وزوجتي دائماً تزعجني بأن آخذها للتسوق في دبي. ولكنني أستخدم التكتيكات التي تعلمتها خلال محاربتي الروس لمقاومتها!" وضحك؛ وبالطبع ضحكنا معه جميعاً.

قال شيرزاي: "يجب أن أغادر، يا أصدقائي. الرجاء اعذروني ولا تعتبروني وقحاً. أنتم في أيدٍ أمينة مع الموظفين التابعين لي. وسوف يضمنون أفضل الشركات الأفغانية كشركاء لكم، وسوف يتصل بكم ممثل من وزارة الصحة المحلية في وقت قريب جداً".

كان شيرزاي على حقّ، فلقد كانت معضلة إيجاد أفضل طريقة لتحويل أموال التنمية الخاصة بنا نقطة نقاش مستمر في واشنطن. فمن جهة كان هناك من يشيرون إلى الفساد المستشري في جميع مستويات الحكومة الأفغانية. (كنت واثقاً تماماً بأن شركات البناء "المدروسة" مملوكة جزئياً، أو على الأقل تقدم رشاوى لشيرزاي بطريقة أو بأخرى). وقد أشاروا أيضاً إلى عدم وجود موظفين مؤهلين في الحكومة الأفغانية لإدارة مليارات الدولارات التي تتدفق إلى البلاد بكفاءة، وشددوا على أنه لن تصل سوى بضعة بنسات من كل دولار إلى الشعب الأفغاني الذي هو بحاجة إليها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن نقل الأموال من خلال مؤسسات الحكومة الأفغانية، التي كانت مركزية في كابول، بطيء جداً ولا يلبي احتياجاتنا لمكافحة التمرد على المدى القصير في المناطق الريفية. بينما كانت وجهة النظر الأخرى على غرار رأي شيرزاي أن الحكومة الأفغانية ذات سيادة وينبغي

أن تكون أكثر إسهاماً في كيفية إنفاق الأموال. وقد سلط هؤلاء الضوء على الجهل النسبي للتحالف بالاحتياجات الحقيقية للشعب الأفغاني، وأشاروا إلى أن إنفاق الأموال بطريقة خاطئة يمكن أن يكون في الواقع مزعزعاً للاستقرار. في المجتمع الأفغاني المتصدع، إن بناء بئر أو منح عقد إلى أحد طرفي المنافسة القبلية من دون الآخر يمكن أن يحرّض على العنف ويضيع الدعم الحكومي. كان هذا نوعاً من الأخطاء التي كانت تحدث في كثير من الأحيان، ومعضلة لم نستطع حلها قط.

في اليوم اللاحق اصطففنا أمام البوابة الخارجية للمستوصف بعد ساعات عدة من الارتجاج والتمايل على طول طريق الوادي الصخري الوعر.و تحذير الرائد ديفيس، لم أرغب في المجازفة، لذلك اتفقنا على اتخاذ طريق الوادي. ولكنني ندمت على هذا القرار، وشعرت بأن أحداً كأنما ضربني بمطرقة على عمودي الفقري.

وعندما دخلنا قرية أتشين، لحق بنا حشد من الأطفال.

وقال تود بسخريته المعتادة: "هذا كثير جداً على دخولٍ من دون لفت الأنظار!".

اتخذ مساعداي الإجراءات الأمنية على سطح المستوصف؛ حيث كان لكليهما رؤية واضحة للمنطقة من حولنا، ومدى جيد لإطلاق النار. وكان يوماً بائساً وبارداً وماطراً، وكانت هناك طبقة منخفضة من الغيوم معلّقة في منتصف جبال تورا بورا إلى الجنوب. في غضون عشرين دقيقة من وصولنا، اقترب عدد من شيوخ القرية وأصروا علينا أن نسمح لهم بأن يرحبوا بنا بوجبة طعام. وبينما أفرغت الشاحنات المعدات الطبية، جلست مع أسعد، والمترجم محمد، وشيوخ القرية لنتناول وجبة كبيرة على سجادة ممدودة على الشرفة الأمامية للمستوصف.

انضم إلينا الدكتور أفريدي وهو من سكان المنطقة، ولديه عيادة خارج جلال آباد في مديرية رودات المجاورة. لقد كان لغزاً حيّرني؛ كيف عرف أننا كنّا هناك، وكيف تمكّن من الوصول من مديرية مجاورة بتلك السرعة! كانت مائدة الطعام مثالاً على الضيافة

الأفغانية الأصيلة. وتوالت الأوعية، وعاءً تلو الآخر من الخضراوات والمكسرات والفواكه المجففة واللحوم، وضعت على سجادة صوف كبيرة ملونة باللونين الأحمر والأسود. وفي الوسط كان طبق مسطح كبير يحتوي على تل هائل من الأرز المعروف باسم *البيلاو الكابلي* بلغة البشتو، وكان عبارة عن الأرز الأبيض والأصفر مخلوطاً مع الزبيب الحلو والجزر والكاجو. ابتسم أحد الشيوخ بينما غرف كومة ضخمة من الطعام بملعقة خشبية ووضعها في صحني.

كنا قد مررنا بعشرات الأطفال الحفاة الأقدام وعليهم ملابسهم القذرة في طريقنا عبر القرية إلى المستوصف. وقال لنا محمد، الذي كان في الأصل من جلال آباد، كم كانت هذه المنطقة فقيرة، وخاصة بعد موجة الجفاف الأخيرة. وها نحن أولاء هنا، كما أننا مدعوون إلى وليمة كان يمكن أن تطعم القرية بأكملها لأيام عدة. وبينما كانوا يجلسون حول حافة السجادة، أصر شيوخ القرية على أن نتناول الطعام أولاً. حاولت بأسلوب حاذق أن أتجنب وعاء لحم الماعز المقطع الموجود أمامي. تذكرتُ المرور بمحالّ قصابة عدة على الطريق إلى هنا؛ حيث كانت تتدلى قطع من اللحم بعيدة عن متناول الكلاب خارج المحال في الهواء الطلق على جانب الطريق. وكانت مجموعات من الصبية الصغار يقفون إلى جانب اللحم يطردون الذباب بعيداً ويسكبون الماء على اللحم لغسل الغبار.

همس إليّ محمد: "سوف يشعرون بالإهانة إن لم تأكل اللحم. لربما ذبحوا ماعزاً احتفالاً بوصولنا"، قبلت اللحم مع ابتسامة بينما أمر أحد الشيوخ صبياً صغيراً بأن يقدم لي عدداً من مكعبات لحم الماعز فوق الأرز الذي في صحني. ابتسم براين، المسعِف المرافق لنا من خلال لحيته السوداء الهائلة، عندما أمسكت القطعة بأصابعي، ورميتها في فمي، وبدأت المضغ.

قلتُ وأنا أحاول أن أنظر نحو كبار السن بدلاً من المترجم وأنا أتحدث: "يشرفني أن أكون في هذا الجزء الجميل من أفغانستان، وأنكم تتقاسمون هذه الوجبة الخاصة معي ومع رجالي".

قال الدكتور أفريدي: "ونحن في غاية الامتنان لدولة الإمارات العربية المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية على هذا المستوصف". وكانت هذه الجملة بدايةً لخطبة طويلة تسلط الضوء على سيرته الشخصية، وتدريبه الطبي، ووضع عيادته. وتابع بتاريخ قبيلة شينواري ودعمها للأنظمة الملكية الماضية وحكومة كرزاي الحالية. كان الطبيب يتحدث اللغة الإنجليزية بلكنة هندية ثقيلة ولكنها كانت مفهومة. لحسن الحظ أن النقيب أسعد كان يتقن اللغة الإنجليزية، ولذلك لم يضطر محمد إلى أن يترجم كل جملة إلى كلّ من لغة البشتو والإنجليزية والعربية. كانت رواية الدكتور أفريدي لتاريخ الشينواري رائعة، بداية من هجماتهم ضد المحتلين البريطانيين في القرن التاسع عشر، وصولاً إلى تمردهم ضد الملك أمان الله في العشرينيات من القرن الماضي. وكما هي الطريقة الأفغانية، فقد شقّ طريقه إلى النقطة الرئيسية بعد نحو ساعة.

وفي النهاية قال: "نحن نتساءل لماذا لا توصلون هذه المعدات الحديثة واللازمة إلى عيادة تستطيع أن تستخدمها بطريقة أفضل لخدمة شعب ولاية ننجرهار؛ من فضلكم لا تسيئوا فهمي. إن هذا المستوصف هنا مبنى جيد، وفي الواقع أن الناس الطيبين في مديرية أتشين فقراء ويحتاجون إلى دواء جيد. ولكن يجب أن نكون واقعيين. لن يأتي أي أطباء إلى هنا. إن الوضع خطير للغاية؛ حيث يأتي "دوشمان" - مصطلح بلغة الداري ويعني "العدو" - من باكستان عبر الجبال ويثيرون المشكلات للناس المتعلمين، مشيراً نحو جبال تورا بورا التي تشكّل الحدود بين أفغانستان وباكستان.

وتساءل أسعد بأدب: "سيدي.. أين تقترح أن نضع المعدات؟".

"أعلم أنكم أحضرتم معدات لعلاج النساء. لديّ طبيبات في عيادتي"، أجاب أفريدي. "وتقع بالقرب من الطريق الرئيسي لجلال آباد، والطبيبات المتعلمات لا يخشين الذهاب إلى هناك. يبدو أن معظم هذه المعدات التي تم تفريغها تهدف إلى مساعدة النساء في أثناء الولادة والمشكلات الجسدية للمرأة. لن يتم استخدامها هنا للأسف لأنه لن تأتي أي طبيبة إلى هنا".

واسترسل الدكتور أفريدي، الذي لا يملّ من سماع صوته، ليحكي قصة مستوصف آخر تم بناؤه في مديرية "ده بالا" المجاورة، برعاية إحدى المنظمات غير الحكومية وجرى إحراقه. "إن الرجال الذين أحرقوا المستوصف أحرقوا بعده مدرسةً للبنات في المديرية نفسها. ولحسن الحظ، تم إلقاء القبض على اثنين من الجناة في وقت لاحق من قِبل الشرطة. وتم استجواب الرجلين من قِبل مجلس شورى كبير تم تشكيله في مديرية "ده بالا" لسماع أسباب قيام الرجلين بارتكاب مثل هذه الأفعال. وقف أحد المجرمين وقال: كان الأطباء في المستوصف غير إسلاميين. كانوا يلمسون النساء بأيديهم. لا ينبغي للرجال حتى إن كانوا أطباء أن يفعلوا مثل هذه الأشياء، ونحن لا يمكن أن نسمح بها باسم الله".

وأضاف أفريدي، "تم استجواب الرجلين أيضاً حول أسباب مهاجمتهم مدرسة للبنات وإضرام النار فيها"، وروى ما قال الرجل الثاني وهو يقف: "تم بناء المدرسة من قِبل الأمريكيين الكفّار، وكانوا يعلّمون فتياتنا طرقهم. إن مكان بناتنا هو المنزل؛ حيث يتولين رعاية آبائهن وإخوانهن. ولا ينبغي أن يتعلمن مثل هذه الأمور، وباسم الله، لا يمكننا أن نسمح بذلك. ومن واجبي كرجل مسلم أن أوقفه".

"كنت هناك في جلسة الشورى هذه"، قال أفريدي، (فوقفت وسألت هذين الرجلين "هل تعتقدان أن الأمهات، والأخوات، والبنات يستحققن المساعدة والدواء عندما يمرضن؟"، أجاب الرجلان "نعم". "ويجب أن تعالج أمهاتنا وأخواتنا وبناتنا عندما يمرضن طبيباتٌ من النساء فقط، صحيح؟"، "نعم"، أجاب الرجل. "حسناً، إذا كنت لن تسمح لمستوصف أن يعالج نساءنا لأنه ليس فيه أي طبيبات، ولن تسمح للمدارس بتعليم نسائنا بحيث يمكنهن أن يصبحن طبيبات، كيف يمكن لنسائنا أن يحصلن على الأدوية والعلاج؟". لم يكن لدى رَجلي حركة طالبان الغبيين أي جواب. نظرا في وجهي فقط. وأخيراً رأيا جهلهما وشعرا بالخجل منه". قال أفريدي باشمئزاز.

"هذا هو الجهل الذي تتعاملون معه. وهذه هي الطريقة التي يتبعها عناصر حركة طالبان وسادتهم في باكستان للتلاعب بالناس من أجل الرجوع بأفغانستان إلى الخلف!" قال الطبيب، ورمى الخبز على الأرض. وأضاف قائلاً: "إنهم سيهاجمون هذا المستوصف أيضاً إذا كنتم ستعالجون النساء هنا". وأشار بإبهامه فوق كتفه باتجاه المستوصف.

استأذنتُ للوقوف والمشي قليلاً. يستطيع الأفغان والعرب الجلوس ساعات طويلة على السجادة وأقدامهم تحت أرجلهم. وكرجل غربي اعتاد الجلوس على الأثاث؛ فقد سحقت هذه الجلسة ركبتيّ، وكانت قدماي مخدرتين تماماً. وبينما ابتعدت قليلاً كان أسعد والدكتور أفريدي يناقشان فكرة نقل معدات المستوصف إلى مستشفى أفريدي الصغير. نظرت إلى أعلى ورأيت صبي الشاي عبر الفناء يعدّ شاي ما بعد الوجبة. وكان يبصق في كل قدح من أقداح الشاي وينظفها من الغبار بإصبعه.

لوّحت لبراين وناديته،"أعطني سايبرو لو سمحت". ابتسم وأخرج كيساً بلاستيكياً صغيراً من جيبه يحوي مضادات حيوية. فكّرت بالكتيبات التي كنت قد قرأتها والتي أشارت إلى أنه ما زالت بعض أقل البلدان نمواً في العالم تعاني وباء السل. "بعد تلك الوجبة بصق صبي الشاي في كأسي، أنا بالفعل بحاجة إليها". وبعد أن أخذت الحبوب، مشيت إلى حيث جلس الجميع، وبالطبع قبلتُ وبكل سرور كوباً من الشاي من صبي الشاي.

ومن المفارقات أن جراهام، رقيب الاتصالات، هو الذي دخل عالم الألم في اليوم اللاحق. وكان قد استخدم واجب الأمن كذريعة لتخطي وجبة الطعام عمداً، لذلك وجدنا الأمر مسلياً جداً أن وجهه كان يتلون بأربعة ظلال من اللون الأخضر وهو يتناوب بين القيء والتغوط. كنا نسمّي التسمم الغذائي الذي كان يهاجم الجميع تقريباً "الجهاد المعوي"، سلاح طالبان السريّ على البطون الأمريكية. في فترة خدمة لاحقة خسرتُ 6 باوندات خلال أربعة أيام بعد الإصابة به. كان ذلك الوضع تعساً تماماً. في صباح اليوم اللاحق، وبعد أن أمضى جراهام ليلة في الحمام المثير للاشمئزاز، وهو

شاحب ويتصبب منه العرق البارد، أصر على الركوب معنا لمدة يوم كامل ونحن نصطحب بعض الفنيين الطبيين إلى مدينة جلال آباد لشراء الإمدادات. وعلى الرغم من التعاسة والألم، فقد قال إنه كان خائفاً أكثر من أنه سوف يغيب عن تبادل لإطلاق النار إذا ما بقي في القاعدة. لذلك قضينا اليوم ونحن نقف على جانب الطريق في حين حاول جراهام مراراً قضاء حاجته. وفي غضون ثوانٍ من توقفنا، كان الأطفال يتزاحمون حولنا. وجراهام كان يحاول باستمرار إبعادهم كلما أطلوا إلى أسفل الوادي، حول المبنى، أو في أي مكان كان يحاول الاختباء فيه. في إحدى المرات التي وقفنا بها أعطيتُ الأطفال بعض الحلوى، وأشرت إلى بعض الصخور، وقمتُ بالإيماء لهم بالرمي. فإذا بجراهام يفاجأ بعدد كبير من الحصى تمطر عليه، بينما كان يحاول قضاء حاجته في حفرة خارج جلال آباد. كل ما سمعناه كان كلمة "حمقى!" من الوادي ترافق ضحكات الأطفال.

في صباح اليوم اللاحق وصل مدير صحة الولاية من وزارة الصحة العامة ومعه أحد موظفي الحاكم شيرزاي للتحدث مع النقيب أسعد ومعي. بعد دقائق عدة اتضح أنهما يختلفان تماماً مع الدكتور أفريدي حول أين يجب تركيب المعدات الطبية؟ اعتقد كلاهما ضرورة بقاء المعدات والمستوصف في أتشين. وقالا إن الكثير من الناس الأكثر فقراً في المديريات الجنوبية حول أتشين لا يمتلكون سيارة، ومن ثم فهم سيجدون السفر إلى جلال آباد؛ حيث تقع عيادة الدكتور أفريدي صعباً ومكلفاً. وشددا على أنه سيكون لهذا المستوصف تأثير جيد في الدعم الشعبي بين سكان شينواري وأن شيوخ شينواري سيشعرون بالإهانة إذا نقلنا المعدات إلى منطقة أخرى. وأبلغانا أن الدكتور أفريدي، في رأيهما، يحاول بناء إمبراطورية أيضاً. وقالا إنه كان على ما يبدو يفكر في الترشح للبرلمان ولم يكن ضمن فريق الحاكم شيرزاي. إن وجود المستوصف مع مئات الآلاف من الدولارات من المعدات الجديدة والحديثة من دولة الإمارات العربية المتحدة سيعمل على تعزيز مكانته في المنطقة. وأكد الرجلان أنهما سوف يحصلان على الأطباء للمستوصف، وسوف تُدفع رواتبهم من أموال الحكومة. وأكّدا لنا أنه سيتم وضع بعض رجال الشرطة في مبنى مجاور للمستوصف لمراقبة المكان أيضاً.

نظرت والنقيب أسعد إلى بعضنا بعضاً. من منا يعرف ماذا يصدق؟ كما ضغط علينا الرجلان بشكل منفصل لكي تكون المفاتيح معهما إلى أن يتمّ رفد المستوصف بالأطباء.

ومرة أخرى، وجدت نفسي أتذكر الدورة التأهيلية للقوات الخاصة في الجيش؛ حيث كنا دائماً نواجه هذا النوع من المعضلات. ولهذا السبب كان تدريب أصحاب "القبعات الخضر" فريداً من نوعه حقاً، في مجتمع العمليات الخاصة العالمي. فالآخرون، كالخدمات الجوية الخاصة البريطانية (SAS)، والقوات الخاصة البولندية (Grom)، وقوات العمليات الخاصة التابعة للبحرية الأمريكية (Navy SEALS) ركزوا على أعلى مستوى من اللياقة البدنية، والرماة الأكثر دقة، وأن يكونوا بشكل عام نخبة القوات في العالم. أما أصحاب القبعات الخضر، على النقيض من ذلك، فركزوا أيضاً على أن يكونوا محاربين دبلوماسيين، وأن يحلوا مشكلاتهم عن طريق التفكير. بذلنا كل ما في وسعنا لكي نشعر بالقدر نفسه من الراحة عند التعامل مع وزير دفاع دولة أخرى، أو عند تدريب وحدة مغاوير أجنبية، أو التفاوض مع مسؤول الصحة بالمقاطعة، أو تقديم المشورة لزعيم قبلي بلغته الأم، بينما نطلق النار ونكسر الأشياء. علّمنا تدريبنا أن نزدهر في المناطق الرمادية، مثل المشكلة التي واجهناها في أتشين. كانت هذه هي الحياة اليومية في البلدان النامية.

وكان لدى كل من الدكتور أفريدي ومدير صحة الولاية بعض النقاط المقنعة. ولكن القرار تجاه مكان تركيب المعدات الطبية كان في نهاية المطاف يعود إلى النقيب أسعد. كنت هناك لتسهيل الدعم الخارجي الأمريكي إذا لزم الأمر، وتقديم المشورة إذا دعت الحاجة إلى ذلك. طلب أسعد نصيحتي بعد اجتماع طويل ثانٍ مع مدير الصحة. اقترحت أن نلقي نظرة فاحصة على أولوياتنا ونسأل أنفسنا حقاً: لماذا كنا نقوم بتجهيز المستوصف؟. إن توفير الرعاية الصحية الأساسية للأفغان أمر مهم في حد ذاته، ولكننا لم نكن منظمة غير حكومية تقوم بأعمال التنمية من أجل ذلك وحسب، بل ينبغي لمشروعاتنا أن تدعم أهدافنا في مكافحة التمرد. والحفاظ على دعم قبيلة شينواري كان من أهم تلك الأهداف، حتى لو كان ذلك يعني اتباع حلّ تنموي ليس هو الأمثل.

لحسن الحظ، لم تكن معظم الأجهزة الخاصة بالأمراض النسائية قد وصلت بعد، ولذلك لم نكن بعد ملتزمين تماماً بتجهيز المستوصف في أتشين. عملتُ مع أسعد لإيجاد حلّ وسط. أعطينا مسؤولي الصحة شهرين ليجدوا طبيبة على استعداد للعمل في أتشين. فإن فعلوا ذلك، فإن الدفعة الثانية من المعدات ستذهب إلى المستوصف في أتشين؛ وإن لم يتمكنوا، فسيتم تحويلها إلى عيادة الدكتور أفريدي، التي كنا قد تفقدناها بالفعل. بالإضافة إلى ذلك، حصلنا على التزام من مسؤولي الصحة بإرسال طبيب وممرضة بدوام جزئي إلى أتشين حتى يتمّ تجهيزها بكادر كامل.

بعد العديد من أكواب الشاي والمناقشات، أعطى أسعد مفاتيح المستوصف إلى مدير صحة الولاية بصفته ممثل الحكومة الأكثر مصداقية والأكثر "شرعية" في المنطقة. أنهى الفنيون تركيب غرفة الأشعة السينية، وغرفة عمليات بدائية للعمليات الجراحية البسيطة، وصيدلية، وأماكن أخرى عدة للمرضى. حتى إن المولدات كانت تعمل لتزويد المكان بالكهرباء (برغم أنه كان من غير الواضح مَنْ سيدفع ثمن وقود المولدات في المستقبل، ولم تكن هناك خطة لصيانة المعدات إذا احتاجت إلى إصلاحات). وبعد أيام تناولنا وجبة احتفالية وأقمنا حفلاً لقصّ الشريط؛ حيث ناقشنا الترتيبات بين الدكتور أفريدي ووزارة الصحة مع عشرات شيوخ شينواري، وألقى كل واحد منهم خطبة مطولة نيابة عن قريته وقبيلته.

انتحى بي جراهام جانباً ليخبرني أن مفرزة العمليات ألفا التي تعمل عادة في تلك المنطقة أبلغتنا أنهم اعترضوا رسالة من أحد قادة طالبان من المستوى المتوسط يشكو فيها وجود مجموعة من العرب والأمريكيين يتجولون في منطقته في سيارات الدفع الرباعي؛ اعتقدوا أننا وكالة الاستخبارات المركزية. لحسن الحظ أنهم لم يربطوا وجودنا بالمستوصف، لكن كان لديهم وصف لإحدى سياراتنا. لقد انكشف غطاؤنا، ولا أريد أن يتعرض فريقنا المسلح تسليحاً خفيفاً أو المستوصف للخطر. لقد حان الوقت لكي نغادر. استأجرنا سيارات رباعية الدفع مختلفة وشاحنة صغيرة لرحلة العودة إلى باجرام، ورتبنا الأمر مع بعض الأفغان لإعادة المركبات الحالية في وقت لاحق.

أعطينا تقريراً كاملاً إلى الرائد ديفيس من فريق إعادة الإعمار في الولاية، في طريقنا للخروج من الولاية، كان تقريراً كاملاً مع الصور ونسخة من المفاتيح، وقائمة جرد بالمعدات التي قدمناها إلى المسؤولين الأفغان. لحسن الحظ، كان فريقه قد عمل بشكل بنّاء مع الدكتور أفريدي، وأكد أنه كان منافساً سياسياً للحاكم شيرزاي، وليس لاعباً فاسداً. أكد ديفيس لنا أنه سيبذل قصارى جهده لدمج المستوصف في استراتيجية التنمية الشاملة للولاية، وأن يذكره خلال لقاءاته مع المسؤولين في الولاية، وربما يرسل دورية ليطمئن عليه عندما يستطيع.

وفي باجرام، وبعد أسابيع عدة، أبلغني أسعد أن مسؤولي الصحة الأفغان في جلال آباد قد وجدوا طبيبة، ثم عرض علي بفخر صور تجهيزات غرفة الولادة الجديدة التي تم تركيبها في المستوصف. ولكن على ما يبدو أن مسؤولي الصحة في الولاية كانوا يشكون من عدم وجود ميزانية لديهم لتوفير المياه النظيفة للمستوصف. وكان أسعد قد سمع أيضاً أن الرائد ديفيس قد عاد في وقت مبكر إلى الولايات المتحدة. كنا نأمل فقط في أن يكون قد مرّر تقريرنا إلى من أتى بعده. كنت أعرف أنه من دون أن يقوم فريق إعادة إعمار الولاية بحث الحكومة المحلية على تمويل الموظفين وصيانة المستوصف، لن يكون المستوصف مستداماً مع مرور الوقت، ومن المرجح أن ينتهي به الأمر كمشروع آخر مهجور. كنت أتساءل إذا ما كنا قد ارتكبنا خطأً عندما هددنا بتحويل المعدات إلى عيادة الدكتور أفريدي، ومن ثم خاطرنا بدعم شيرزاي على المدى الطويل. وكان هذا مجرد واحد من آلاف الأمثلة على مدى صعوبة التنفيذ الفعال لمشروعات التنمية في أفغانستان، فضلاً عن تضمينها في استراتيجية أوسع نطاقاً. ولكنني كنتُ مصمماً على الاستمرار في المحاولة حتى يتم الأمر بالشكل الصحيح، بينما كان تشدُّد طالبان والقاعدة وأيديولوجيتهما المشوهة يتسللان مرة أخرى إلى المجتمع الأفغاني، تساعدهم في ذلك محاولات التحالف الفاشلة لتحقيق حياة أفضل للشعب الأفغاني.

الفصل الخامس

الطريق إلى قلعة موسى .. عودة طالبان

قال الحاكم محمد داود بحرارة: "يشرفنا للغاية وجودك في هلمند، أيها الكولونيل" وهو يتحرك باتجاه صف طويل من الأرائك في مكتبه. جلست أنا والكولونيل بيشوه، والرائد موسى، وعدد من الضباط الآخرين من القوة رقم 7 التابعة للعمليات الخاصة الإماراتية، في مجموعة من الأرائك المصفوفة بشكل دائري في مكتب الحاكم.

واصل الحاكم حديثه قائلاً: "أفهم أنكم مهتمون ببناء قاعدة في وادي باغران، شمال سد كاجاكي، قرب قلعة موسى".

"نعم"، أجاب الكولونيل بيشوه. "نحن مهتمون بإجراء عمليات في شمال هلمند، وربما بناء مهبط طائرات. بعد إذنكم، نحن هنا لإجراء مسح للموقع والتحقّق منه؛ سأصطحب معي فريق مسح من قواتنا الجوية. لقد تمت الموافقة على الموقع من قبل قائد قيادة العمليات الخاصة في بلدي والقيادة الأمريكية". وتابع: "إذا مضت جهود التنفيذ قدماً، فإنه يمكنني أن أؤكد لكم أننا سوف نقوم بالكثير من المشروعات التنموية وسنساعدكم على تحويل ولاية هلمند إلى مكان أفضل لأفغانستان".

رد الحاكم بتلهّف: "رجاء، أبلغ فريقك أن يخبروني بأي شيء يريدونه"، "من جانبي كحاكم، اعتبر أن الأمر تم. سأعمل على التأكد من توفير الأراضي التي تحتاجون إليها لإقامة القاعدة من دون أي مشكلات. سيكون سكان هلمند سعداء بوجود الإماراتيين في مقاطعتهم. نحن لا نحصل على الدعم اللازم من كابول، والأمريكيون تركونا لحلف الناتو والأوروبيين. ولكننا نعلم أن أشقاءنا العرب سيقفون إلى جانبنا. بمساعدتكم ومساعدة حكومتكم، سوف نبني دبي الثانية في أفغانستان!"، قال الحاكم بابتسامة عريضة.

رد الكولونيل بيشوه قبل أن يرتشف الشاي: "هذا أمر جيد جداً. سوف يلتقي المخططون مع الموظفين التابعين لك عندما ننتهي من عملية مسح الموقع. وسوف نعد قائمة باحتياجاتكم التنموية الملحة".

قال الحاكم "أيها الكولونيل، هناك طلب أود أن تحمله معك إلى المقر الأمريكي على الفور. إنه أمر في غاية الأهمية ويمكن أن يؤثر سلبياً في كل ما نقوم به، كما أنه سيضر بجهودكم أيضاً".

رد الكولونيل: "أيها الحاكم، لدينا ضابط أمريكي هنا. لكنك لا تستطيع أن ترى وجهه بسبب لحيته!" ضحك الجميع بينما راحت عينا الحاكم تبحث عني بتمعن عبر الغرفة. كنت أرتدي الملابس العسكرية المموهة باللون الصحراوي ذاتها التي يرتديها الإماراتيون والعمامة التي تشبه العمامة العربية. وكما هي الحال دائماً، كنت أحاول أن أنزوي في الخلف، وعلى ما يبدو أنه لم يلحظ وجنتيّ اللتين لفحتهما الشمس في أعلى لحيتي، أو العلم الأمريكي الباهت اللون على ذراعي اليمنى غير المواجهة له.

توقّف الحاكم البشوش حتى الآن عن الضحك. كان الضباط الإماراتيون والحاكم قد تحدثوا نحو ساعة في اجتماع إيجابي. والآن تحوّل الاجتماع فجأةً إلى لهجة تطغى عليها الصرامة.

بدأ الحاكم: "سيدي، يجب أن تبلغ حكومتك كي توقف هذه الحملة للقضاء على حقول الخشخاش. يجب عليّ أن أقف ضدها. إنها تؤلب الناس علينا. أنتم تقضون على مصادر رزقهم وتتركونهم مدِينين لمافيا المخدرات، بحيث يضطر كثير منهم إلى تسوية ديونهم مع الذين يتاجرون في البشر عبر تقديم بناتهم إليهم. هؤلاء هم رجال البشتون الذين يعتزون بأنفسهم. لم يعد لديهم شيء سوى بنادقهم في سعيهم إلى الانتقام". كان من الواضح أن العاطفة بدأت تغلب على حديث الحاكم؛ حيث قال: "لقد أثرت هذه القضية في مناسبات كثيرة مع الحكومة في كابول، بمن في ذلك الرئيس. لكن البلهاء حول

كرزاي يذكرونني فقط بأن أسلافي [في الولاية] قد ساندوا الحملة. ينبغي أن تعلم، أن سلفي كان أكبر تاجر مخدرات! كان يرسل رجال عصابته مع شرطة مكافحة المخدرات لحصاد محصول الخشخاش. ولكنه كان يرسلهم لحصاد محصول منافسه!" قال الحاكم ضارباً بيديه على ركبتيه.

كان سلفه هو شير محمد أخونزاده السيّئ الذكر. وقد علمت تماماً ما الذي يتحدث عنه من تقارير الاستخبارات التي كنت أتلقاها بانتظام في أثناء وظيفتي المدنية السابقة في مكتب مكافحة المخدرات في البنتاجون. فمن خلال غارة شنتها الوحدة الوطنية الأفغانية لمنع المخدرات يدعمها عملاء من "إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية" على أحد المجمعات التابعة للحاكم في العام السابق، تم اكتشاف أكثر من عشرة أطنان من الأفيون الخام بانتظار شحنها إلى مختبرات المعالجة عبر الحدود في باكستان؛ حيث يتم تكرير الأفيون وتحويله إلى هيروين. وبعد ذلك يتم نقل الهيروين من مختبرات التكرير على طول المنطقة الحدودية الخارجة على القانون، من خلال الطرق في إيران وآسيا الوسطى إلى وجهتها النهائية في أوروبا الغربية. كنت على دراية تامة بالوحدة الوطنية الأفغانية لمنع المخدرات، لأن مكتبي في وزارة الدفاع قد موّل برنامج تدريبهم، فضلاً عن برنامج تدريب عملاء إدارة مكافحة المخدرات الأمريكية حول كيفية العمل في مناطق القتال. وبرغم الجهود الوليدة التي نبذلها لمكافحة المخدرات، فإن محصول الخشخاش كان يزداد سنة بعد الأخرى في أفغانستان، وأصبح قبل عام 2006 يمثل نحو 90٪ من إمدادات الأفيون في العالم. وكانت هلمند وحدها تقدم نصف ما كان يخرج من أفغانستان، طبقاً للتقرير السنوي للأمم المتحدة عن محصول الأفيون.

كانت خطة الحكومة الأمريكية ذات الدعائم الخمس- وهي: الاتصالات الاستراتيجية، وإنفاذ القانون، والحظر، والقضاء على تجارة الأفيون، وتوفير سُبل عيش بديلة - تهدف إلى مكافحة الأثر الذي يسبّبه الاتّجار بالمخدرات والمتمثل في انعدام الاستقرار. ولكن تلك الخطة تحولت في الواقع إلى خطة ذات دعامة واحدة، هي القضاء

على المخدرات. كانت إدارة مكافحة المخدرات تعمل مع الأفغان لإنشاء قوة شرطة متخصّصة في مجال مكافحة المخدرات، كما كان لدى الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية عدد من البرامج البديلة لكسب المعيشة، ولكنها كانت جهوداً معزولة تستغرق وقتاً طويلاً لكي تكتسب قوة دافعة. من ناحية أخرى، كان "المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وإنفاذ القانون" التابع لوزارة الخارجية، يمضي قدماً بكامل قوته مع وزارة الداخلية الأفغانية لإنشاء قوة للقضاء على المخدرات قوامها مئات عدة من الأشخاص. أما القوة التي يطلق عليها اسم قوة القضاء على الخشخاش التابعة لمكتب مكافحة المخدرات، فهي عبارة عن رجال يمسكون بعصي طويلة يشكلون صفاً واحداً ويتحركون داخل الحقول ويضربون بقوة جذوع نباتات الخشخاش في الوقت الذي تكون فيه رؤوس النبات ممتلئة بالمادة التي تتم معالجتها لإنتاج المخدرات.

وهناك فرق إضافية تستخدم جرارات زراعية ثبِّت فيها قضبان جر لتسوية صفوف نباتات الخشخاش بالأرض. وغالباً ما يأتي رد المزارعين كشكل من أشكال المقاومة السلبية، مثل: خلط محصول الخشخاش بمحاصيل مشروعة مثل القمح والشعير، وغمر حقولهم بالمياه حتى تعلق الجرارات بالوحل ولا تستطيع التحرك. وهناك قسم آخر من المزارعين يقاومون بطريقة أكثر قوة؛ حيث يقومون بزرع الألغام الأرضية القديمة في الحقول أو ينحازون إلى قادة طالبان المحليين ويقومون بنصب الكمائن لاصطياد فرق مكافحة المخدرات.

في ربيع عام 2006، شن المكتب الدولي لمكافحة المخدرات وإنفاذ القانون [الأمريكي]، ووزارة الداخلية [الأفغانية] أكبر حملة لهما للقضاء على المخدرات، وأطلق عليها اسم "عملية ريفردانس". كانت قوة القضاء على الخشخاش التابعة لمكتب مكافحة المخدرات تعمل بشكل مستمر على طول وادي نهر هلمند. ولكن هذه القوة لم تكن تنتقل من حقل إلى آخر؛ بل كانت تستهدف حقولاً محدّدة تمتلكها قبيلة إيشكزاي، وهي منافس تاريخي لقبيلة ألوزاي التي ينتمي إليها الحاكم شير محمد. لقد تحفّز قادة الشرطة المحلية

وقادة المديرية بفعل برنامج وزارة الخارجية الخاص بتحفيز الحكام الجيدين، الذي وفر للمسؤولين الأموال والمشروعات التنموية كمكافأة على عدد الهكتارات التي يتم تنظيفها من الخشخاش. كانت تلك الخطة منطقية من الناحية النظرية لكن المسؤولين على أرض الواقع كانوا يتغاضون عن حقول الخشخاش التابعة لحلفائهم السياسيين أو أي شخص آخر يستطيع دفع رشوة. بدأ المقاولون الأمريكيون الذين يصاحبون الفرق يشتكون بشكل غير رسمي إلى الصحافة وإلى أي شخص يمكن أن يستمع إلى حقيقة أن البرنامج كان يدفع المزارعين إما نحو مزيد من الفقر أو إلى الارتماء في أحضان طالبان. لقد سمعتُ عن "عملية ريفردانس" وعلمت بالتأكيد ببرنامج القضاء على المخدرات، ولكن لم تكن لديّ أي فكرة عن أن البرنامج كان قد بدأ جدياً في الأسبوع الذي سبق مهمتي في هلمند. كان هذا البرنامج الذي تم تنفيذه بشكل ضعيف بمنزلة صب الزيت على نار التوترات القبلية، والفراغ الأمني الذي نتج عن رحيل القوات الأمريكية في فصل الربيع، والسخط المتزايد بين السكان. شعرت بضيق وعدم ارتياح خلال الساعات التي جلست أفكر فيها قبيل التوجّه إلى واحدة من أقسى البقاع في أفغانستان لاستطلاع أمر القاعدة المقترحة في قلعة موسى.

أجبتُ الحاكم بهدوء: "سوف أرفع هذه الرسالة إلى قيادتي"، قلت هذا وأنا على علم بأن قيادتي العليا لا تستطيع فعل شيء تجاه ذلك، لأن البرنامج يتبع وزارة الخارجية.

واصل الحاكم داود حديثه: "أنا أسمع أيضاً شائعات، وأقرأ في الصحف أن حكومتك تخطط لاستخدام مواد كيميائية يتم قذفها من طائرات على مزارع الخشخاش. إذا قمتم بهذا فإن السكان سوف يثورون ضدكم كما فعلوا ضد الروس. لا يجوز أن تفعلوا هذا هنا". وكانت عيناه مغرورقتين بدموع العاطفة وهو يبدي رأيه.

فقلت له: "وجهة نظر سعادتكم، منطقية للغاية، وأنا شخصياً أشاطركم هذا القلق". أردت أن أخبره إلى أي مدى أتفق معه وكم شهراً قضيت أناقش هذا الأمر في واشنطن. ولكنني منعت نفسي عن ذلك؛ حيث تذكرت أنني في أعين الحاكم والكولونيل الإماراتي، كنت أمثّل الحكومة الأمريكية.

قلت له: "سيدي، يجب أن ألتمس طلباً، إذا وافق الكولونيل بيشوه". أومأ الكولونيل بالموافقة. "سيدي، أشعر بأنه من الأهمية بمكان أن يكون هناك وجود للجيش الأفغاني الوطني في هذه القاعدة الجديدة. هل ستدعمون طلباً من وزارة الدفاع لتمركز بعض من قوات الجيش الأفغاني إلى جانب القوة الإماراتية في القاعدة؟".

"نعم، بالطبع" وافق الحاكم بسرعة. "أنت محق بكل تأكيد. أنت تعلم أن الجميع يريدون نشر جنود في بلداتهم. ولكن ليس لدينا عددٌ كافٍ. هناك الآن بعض الجنود الذين يحاولون معالجة حالة انعدام الأمن في بلدة سانجين. لقد تم نقلهم من هرات وسوف أطلب نقلهم إلى هذه القاعدة الجديدة".

خريطة (8)

ولاية هلمند

قبل أشهر كنتُ قد أوصيت قائد القوة الإماراتية، بأن يقترح على القوة الموحّدة التابعة للعمليات الخاصة المشتركة وعلى مقره في أبوظبي، أن تتولى الإمارات مسؤولية الثلث الشمالي من ولاية هلمند. وكان قد جرى مؤخراً إخلاء المنطقة التي كان يطلق عليها سابقاً اسم منطقة عمليات أوركا، عندما عادت القوات الخاصة النرويجية إلى وطنها. كانت المنطقة أرضاً خصبة للدعم القبلي لحركة طالبان، وكانت تُعتبر ملاذاً داخلياً لهم. وقد قال الإماراتيون لي دائماً: إن سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، ولي عهد أبوظبي، يريد من رجاله أن يشاركوا في القتال، ومن ثم كنت أريد أن أساعدهم على تحقيق هذا الأمر. ولأنني عملت مع الإماراتيين أشهراً عدة في أوروزغان ووادي تاجاب، فقد كنت مقتنعاً بأنه سيكون لهم تأثير إيجابي للغاية. وكانوا مستعدين للقتال عندما يقتضي الأمر ذلك، ولكن كان باستطاعتهم أيضاً أن يوصلوا رسائل تنموية واستراتيجية بدرجة مصداقية لا نتمتع بها نحن. إضافة إلى أننا كنا في حاجة ماسة إلى المساعدة في هلمند. في ربيع عام 2006، كان هناك أقل من مئة جندي أمريكي في ولاية هلمند كلّها. وعلى النقيض، خلال ذروة زيادة القوات الأمريكية في عام 2011 كان هناك أكثر من عشرين ألفاً.[1] لقد انسحبت القوات الأمريكية من هلمند في مطلع عام 2006، وكانت بريطانيا سترسل من يحل محلهم بحلول ربيع 2006 في إطار توسّع حلف الناتو في القيادة الإقليمية بالجنوب. لكن بريطانيا قررت تأجيل انتشار قواتها حتى أواخر الشتاء، ومن ثم كان هناك فريقان فقط من القوات الخاصة في الجزء المركزي من الولاية، وعدد قليل من فريق إعادة إعمار الولايات في عاصمة لشكركاه في ذروة موسم القتال في أفغانستان.

خلال الربيع، حشدت دعماً في مقر قيادتي للإماراتيين لكي يتحركوا في الجزء الشمالي غير المستقر من منطقة هلمند. وكان قائد القوة متعاوناً، وكذلك القيادة العسكرية في أبوظبي. اصطحبت القيادات الإماراتية في طلعات استطلاعية عدة، فوق المناطق الممكن استخدامها والمناسبة لإنشاء القواعد، وكان رجالي يصطحبون ضباط القوة الإماراتية للاجتماع مع الحاكم داود وطلب دعمه، ثم خططنا لمرافقة عدد من ضباط القوة الجوية الإماراتية للقيام بعملية مسح لقطعة من الأرض في شرق بلدة قلعة موسى،

لمعاينة إمكانية بناء مهبط لطائرات الشحن والحوامات. كانت عملية المسح واختيار موقع القاعدة، هي الخطوات الأخيرة للبدء في إنشاء القاعدة. كنت متحمّساً بشأن إمكانية إنشاء قاعدة جديدة مع مهبط طائرات في إحدى المناطق غير المستقرة في الدولة. وكنت أعتقد أننا تمكنا حقاً من إحداث تأثير. لقد سيرنا دوريات في المنطقة خلال فصل الشتاء من دون اشتباكات تُذكر مع الأعداء. ولكن من دون علم منا، تغيّرت الأمور إلى الأسوأ خلال فصل الربيع.

اتجهنا إلى الشمال من عاصمة لشكركاه باتجاه سد كاجاكي، المشروع الرائد والأهم للمشاركة الأمريكية في أفغانستان في خمسينيات القرن العشرين، وهو السد الذي يوفر الكهرباء لمعظم منطقة جنوب أفغانستان. لم يمضِ وقت طويل على عبورنا الطريق الدائري باتجاه طريق ترابي وعر مملوء بالحفر يعرف باسم الطريق السريع 611، حتى تلقينا بلاغاً من عنصرنا في المؤخرة، يفيد بأنهم يتعرضون لقذائف آر بي جي. قسّمنا القافلة إلى قسمين يفصل بينهما كيلومترات عدة، حتى إذا هوجم أحدهما أمكن للآخر أن يناور المهاجمين ويطوقهم. كان كل فصيل، قد أُطلق عليه باللغة العربية اسم فلاح، وهو يتكوّن من ثلاث مركبات إماراتية مدرعة من طراز بانهارد ومركبة هامفي، إضافة إلى إحدى المركبات البرية الخفيفة الحركة GMV التابعة لي. كنتُ مع الفصيل الموجود في المقدمة "فلاح 1"، أستمع إلى العناصر الموجودة في "فلاح 2" الذين يبلّغون أنهم يتعرّضون لنيران متفرقة من بنادق آلية وقذائف آر بي جي. كنت قد سئمت من تعرضنا للكمائن، ثم اضطرارنا إلى أن نقاتل للخروج من دائرة الاشتباك. وكما ناقشت مع قائد الفصيل الإماراتي عندما كنّا نخطط للمهمّة، وعادة ما تكون كمائن حركة طالبان مؤلفة من بضع شاحنات "بيك-آب" مملوءة بالمقاتلين الذين يحملون مدافع آر بي جي، وربما بنادق آلية خفيفة، أما نحن فكانت لدينا عشر مركبات مدرعة كل منها مزوّدة بمدفع رشاش ثقيل، أو قاذفة قنابل.

قلت لمجموعة الضباط الإماراتيين في التقرير الموجز للمهمة: "لقد سئمت الهروب من هذه الهجمات... إنها ترسل الرسالة الخاطئة إلى السكان المحليين وإلى طالبان. نحن

نحتاج إلى إرسال رسالة مفادها أنه إذا هوجمت القوة الإماراتية، فإنهم سيتعرضون لضربة هجومية مضادة. وإذا ما حدث هذا بضع مرات، فسأضمن لكم أن حديثكم سيصل إلى مجموعات طالبان ولن تتعرضوا للهجوم".

أعجب الرائد موسى بهذا الكلام. كان ضابطاً محترماً في قيادة قوات العمليات الخاصة الإماراتية، وكان قد وصل حديثاً من أبوظبي مع فريق القوات الجوية الذي سيتولى عملية المسح. كان قصيراً ممتلئ الجسم وعصبياً، وقد تولى هذه المهمة بعينها. قال موسى "إذا عبثوا معنا، فسوف ندميهم... سأرسل لهم رسالة مسجَّلة على الرصاص".

كان جراهام، رقيب الاتصالات التابع لنا، يقف على برج مزوّد بمدفع رشاش ثقيل من عيار 0.50 بوصة في ذلك اليوم. وهو نفسه جراهام الذي ركض أعلى الوادي حاملاً في يده قنبلة يدوية في مواجهة الرشاش PKM في وادي تاجاب. كان رقيب اتصالاتنا الأول، شون، هو الذي يقود المركبة. وكان شون طويلاً (195 سم)، قوي البنية، ذا لحية سوداء طويلة، يتحدث بلهجة سكان ولاية ألاباما؛ كان رابط الجأش ثابت الجنان في كل مهمة معنا. في الكرسي الخلفي في المركبة كان يجلس جوردو، من الفريق الطبي. في العادة، يكون لديه مدفع رشاش مركّب على ذراع قابلة للحركة لكي يغطي القوس الخلفية وجوانب المركبة، ولكننا اضطررنا إلى استعارة هذه المركبة بعدما تعطّلت المركبة الاعتيادية الخاصة بنا. كان جوردو، وهو يعمل مسؤولاً تنفيذياً في إحدى شركات الاتصالات في حياته المدنية، مكلّفاً بمساعدة القوات الخاصة التشيكية في بناء مجمع جديد في قندهار. وعندما توقفنا في قندهار ونحن في طريقنا إلى هلمند لتنفيذ هذه المهمة، طلبتُ منه أن يأتي معنا؛ لأن التشيكيين كانوا متأخرين ولما يأتوا بعد، وكنت سعيداً بأن يكون لدينا مُسعِف ذو خبرة.

في الليلة التي مررنا فيها عبر مطار قندهار، توقفتُ في قيادة قوة العمليات الخاصة لجنوب أفغانستان لرؤية صديق قديم وزميل دراسة في "معهد فيرجينيا العسكري"، يدعى جوش، كان يؤدي الخدمة في المقر كضابط عمليات مساعد. كان جوش ضابطاً موهوباً

ورزيناً، وكان قد استغرق في دراسة نظرية مكافحة التمرّد قبل أن يصبح الموضوع رائجاً في الدوائر العسكرية، وكنت أتطلع إلى معرفة رأيه حول أسباب اكتساب حركة طالبان هذا الزخم السريع في الجنوب. وعندما تحدثنا بدأت أدرك حجم التدهور الأمني الذي حلّ بالجنوب منذ أن كنّا نقوم بدوريات في أوروزغان وأجزاء من هلمند على مدار الشتاء السابق.

قال لي وهو يفتح ذراعيه كما تفتح البوابة: "لقد انفتحت بوابات تدفق حركة طالبان في الحدود الجنوبية لولاية هلمند مع باكستان". وأضاف: "نحن نشاهد مئات المقاتلين يتدفقون عبر الحدود ومباشرةً إلى أعلى وادي نهر هلمند. وفي ظل انسحاب قواتنا خلال الشتاء الماضي وتأجيل انتشار البريطانيين من قاعدتهم في الشمال في مزار الشريف إلى الجنوب في هلمند حتى منتصف الصيف، لم يكن هناك ما يوقفهم. أنا متأكد من أنك سمعت أن مفرزتي العمليات ألفا تتعرضان لوابل من القصف. إنهم لا يقومون بأي تواصل مع القبائل، ولا يقومون بتدريب الجيش الأفغاني، ولا يقيمون عيادات طبية في القرى". قال وهو يهز رأسه: "إنهم مشغولون في قتال يومي شرس لحماية أرواحهم".

قلت له إنني أعتقد أن الأمر كان مزيجاً من تلك العوامل إضافة إلى عدد من العوامل الأخرى التي قادت إلى مثل هذا التدهور الحاد في الأمن. "أولاً، إنها هذه الحملة الكبيرة للقضاء على الخشخاش بالتزامن مع إقالة شير محمد أخونزاده من منصبه كحاكم للمنطقة، ورئيس شرطته، هي التي أغضبت مختلف القبائل لأسباب مختلفة. ثانياً، إنها الفجوة بين رحيلنا وبين قدوم البريطانيين، إضافة إلى الجحافل التي تدفقت فجأة عبر الصحراء الجنوبية من باكستان. ثالثاً، لقد أرسلنا رسالة إلى العالم مفادها أن أفغانستان لم تعد مهمة بالنسبة إلينا، ومن ثم فنحن نسلمها إلى حلف الناتو. وأخيراً، نحن نعرف أن قيادة طالبان، بمن فيهم الملا عمر نفسه، تريد أن توقع ضحايا في أوساط الأوروبيين، ما يجعل مواطنيهم يتساءلون عن سبب وجودهم هنا. أعتقد أننا قد بدأنا نشاهد للتو اندفاعة طالبان الكبيرة، وهذا الصيف سيكون سيئاً".

ناقشنا جميع المؤشرات التي رأيناها خلال العامين الماضيين والتي مهدت الطريق لعودة طالبان مرة أخرى. "اغتيالات للشيوخ وللملالي الموالين للحكومة، وإعادة العلاقة مع قواعد الدعم القبلي وتجنيد القبائل الساخطة، ولاسيما تلك التي كان يضطهدها جان محمد خان وشير محمد. لقد تعلّم هؤلاء التكتيكات والأساليب والتدابير من الأوغاد في العراق فيما يتعلق بالعبوات الناسفة البدائية الصنع والانتحاريين. وهناك الإحباط الهائل من حكومة كرزاي"؛ أحصيت هذه العوامل واحداً تلو الآخر على أصابع يدي.

"نعم، الناس إما واقفون على الحياد وإما يبدلون مواقفهم تماماً؛ لأنهم ذاقوا ما فيه الكفاية من المسؤولين الذين يشبهون أفراد العصابات الذين يديرون الولايات. الأمر الذي أقلقني فعلاً هو أن مفارز العمليات ألفا تعثر على مخازن أسلحة جديدة تماماً، كما يعثرون على أسلحة ثقيلة أيضاً؛ ومعظم هذه الأسلحة صينية الصنع. ونحن لا نعرف بعدُ إن كانت قادمة عبر باكستان أو إيران أو كلتيهما. لقد ولّت أيام البنادق الصدئة المتبقّية من مخلفات المقاومة ضد السوفييت. يجب أن تأخذها معك إلى واشنطن، يا صديقي". واصل جوش حديثه وربت على ظهري "هذه الحرب تمتد إلى الجنوب بسرعة في ظل كل هذه العوامل التي تقف ضدنا. أول ما نحتاج إليه هو توفير مظلة أمنية، ولاسيما في مدينة قندهار. نحتاج على الأقل إلى لواء مشاة من الجنود الأمريكيين هنا. يبدو أن الكنديين الذين انتقلوا إلى قندهار جيّدون ولكن لا يوجد عدد كافٍ منهم، وهم لا يعتزمون إرسال أحد إلى مدينة قندهار. أليس توفير الأمن في المراكز السكّانية جزءاً أساسياً من مكافحة التمرّد؟ كما أن الكنديين لا يتنبهون على الإطلاق إلى الشخصيات المهمّة في اللعبة القبلية. ليس في وسعنا القضاء على تمدد حركة طالبان هنا بكتيبتين فقط من القوات الخاصة تنتشران عبر الدولة بأسرها، ولواء مشاة أمريكي واحد في الشرق. نحن نحتاج من دون شك إلى المزيد من الجيش الأفغاني". بدا جوش مستاءً. للأسف، سيستغرق الأمر أربع سنوات أكثر عنفاً قبل أن يتم تخصيص قوات أمريكية لتأمين مدينة قندهار بعد طلب الجنرال ماكريستال زيادة حجم القوات الأمريكية.

أجبت جوش قائلاً: "إن واشنطن منشغلة بما يجب عليها فعله تجاه العراق يا جوش"؛ وأضفت "لدينا ما لدينا هنا. المعلومات التي لديّ من الناس الذين أتراسل معهم عبر البريد الإلكتروني في البنتاجون، هي أن الجنرال إيكنبيري يضغط في اتجاه تسليم المهمّة إلى حلف الناتو في أسرع وقت. وقد أعلن رامسفيلد في ديسمبر أننا سنقوم بتخفيض عدد قواتنا. إنه يريد تقليل عدد القوات الأمريكية هنا، وليس زيادته".

ما أزال أتذكّر جيداً وأنا خارج من مكتب جوش أفكر، أنه قد حدث تحولٌ واضح في الحرب. المؤشرات البدهية حول وجود دعم خارجي للتمرّد هي أكثر ما يقلقني. هل انقلبت باكستان ضدنا؟ إيران الشيعية هي عدو طبيعي لحركة طالبان السنية المتطرفة، ومن ثم فإنه من غير المنطقي أن يقوم النظام الإيراني بنقل الأسلحة وتدريب التمرّد. هل الصينيون يقومون سراً بإرسال أسلحة جديدة إلى طالبان لكي يحدوا من حركتنا؟ بوصفي درست التاريخ العسكري، أعلم أنه من المستحيل تقريباً أن تُهزم حركة تمرد لديها ملاذ خارجي يمكن لها فيه أن تلتقط أنفاسها وتستعيد قوتها، وتجد دعماً من دولة راعية. إن الأمور تتجه لتصبح أكثر فأكثر أشبه بما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الروس في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين.

في وقت لاحق من تلك الليلة، طرق جوش على باب الكوخ الخشبي الذي كان الجنود يجلسون داخله ليعدّوا أسلحتهم، وطلب مني أن أخرج.

"انظر يا مايك، نحن نعرف بعضنا بعضاً منذ أن كنّا في سن الثامنة عشرة حليقي الرؤوس في الكلية. أنا أحبك حب الأخ لأخيه، وأطلب منك كصديق ومهني ألا تذهب في هذه المهمّة. أنت تسير إلى حتفك، وليس معك سوى خمسة أمريكيين. لقد تعرضت فصيلة فرنسية وفصيلتان من الجيش الأفغاني لهجوم وتم دحرهما خارج منطقة سانجين، وما يزال هناك اثنان من أفرادهما مفقودين. إنه لأمر سيّئ. أنت لا تخضع لقيادتنا، ولكن لو كنت كذلك لنصحت رئيسي بأن يأمرك بعدم الذهاب". كنت مدهوشاً من إصراره على ذلك. يمكنني القول إنه كان خائفاً عليّ حقاً.

"جوش، أمامي فرصة لتحقيق إنجاز. الإمارات تقولُ لي إنها إذا حصلت على إذن ببناء القاعدة في شمال هلمند، فإنهم سيجلبون طائرات الشينوك والأباتشي وقوات المشاة الميكانيكية، فضلاً عن التمويلات التنموية الكافية لبناء "دبي أخرى" هنا. إنهم عرب، يا جوش. لقد شهدت التغيير الذي أحدثوه بمجرد دخولهم إلى قرية أفغانية. يستطيعون التحدّث مع الأفغان بمستوى من المصداقية لن نملكه أبداً. لقد عملت على هذا الأمر طوال أربعة أشهر، وهذه المهمة هي لهذا الغرض. وإذا كان يتعيّن عليّ أن أخوض المعارك إلى قلعة موسى لاصطحاب فريق المسح كي يختار موقعاً للقاعدة، فليكن ذلك. بالإضافة إلى ذلك، ومن الناحية الاستراتيجية، ليس سيئاً أن يبني أحد أفضل حلفائنا قاعدة تحتوي على مدرج للطائرات على أعتاب إيران. ونحن ماضون إلى غايتنا ما لم تقنعني بأن عناصر طالبان يجوبون الشوارع بدبابات الآن".

رد جوش "حسناً يا أخي. أعرف كم أنت عنيد!"، "سوف أدعو لك في صلواتي. إذا حدث شيء لك، فسوف تعاقبني أمك بشدة. سوف أتواصل معك عبر شبكة الاتصال. رمز الاتصال الخاص بك هو Punisher 53 (بانيشر 53)، صحيح؟".

وقلت له وأنا أعانقه: "نعم، اجعل القوة الجوية على أتم الاستعداد".

كانت "فلاح 2" على بعد بضعة كيلومترات خلفنا، وكان براين المسعف الأول، وعنصر آخر، ورقيب إماراتي في مركبة التنقل البري الأخرى التابعة لنا. قال براين عبر اللاسلكي "نتعرّض لقذائف آر بي جي متقطعة من ناحية اليسار قرب بستان للأشجار".

أجبتُه: "روجر، حاول أن تناور حتى توقفهم في مكانهم وسوف نعود إليك لتطويقهم من ناحية الشمال".

عمّت في الدقائق القليلة اللاحقة حالة من الفوضى المربكة بيني وبين قائد الفصيل الإماراتي "فلاح 1". كانت شبكة اللاسلكي الخاصة به مشوّشة بأصوات صراخ باللغة العربية. لم أستطع العودة بالفصيل، ولكنني لم أرد أن أتخلى عن رجالي في هذا الاشتباك.

صـرخت عبر اللاسلكي وضجيج صوت المحرك يزعجني: "عليهم اللعنة، شون. أرجع هذه المركبة وسوف نطوق عناصـر طالبان بأنفسنا إذا لزم الأمر".

بحلول الوقت الذي استطعنا فيه العودة إلى موقع الكمين، كان فصـيل "فـلاح 2" قد استطاع الخروج من مرمى قذائف آر بي جي ومن منطقة الخطر.

"هذا كثير على خطة الهجوم التي اتفقنا عليهـا مـع الرائـد موسـى".. قلـت ذلـك متهكماً.

في الحقيقة، كان فض الاشتباك مع عناصـر طالبان التـي تهاجمنـا والمضـي قـدماً في طريقنا هو الشـيء الصحيح في هذا الموقف. كنا نحتـاج إلى التركيـز عـلى الهـدف النهـائي للمهمّة، وكان يمكن أن نتورّط في تمشـيط أشجار المانجروف بالقرب من النهر من مقاتلي طالبان. كان ما يزال لدينا الكثير من المنـاطق التـي يجـب أن نجتازهـا للوصـول إلى قلعـة موسـى، بما في ذلك عبور الجسـر الوحيد على نهر هلمنـد عنـد سـد كاجـاكي. زاد شـون سـرعة المركبة ونحن نلتف محاولين اللحاق بـ "فلاح 1" قبل الوصـول إلى بلـدة سـانجين السيئة الذكر. كانت سانجين قد بدأت تصبح أخطر منطقة في أفغانستان، وكنـا نعتـزم أن نسلك طريقاً يلتف حول البلدة من الشـرق. ولكننا انعطفنا عند إحدى الزوايا، وسـرعان ما وجدنا أنفسنا نسـير بمركبتنا وحدنا وسط البلدة.

وجدنا مجموعات من الرجال ممن هم في سن الالتحاق بالخدمة العسكرية يرتـدون عمائم سوداً، وقد تركوا ما في يدهم من عمل واصطفوا على طول الطريق الترابي الذي يمر عبر سوق البلدة. وقفوا هناك فقط، على بُعد بضعة أمتار من مركبتنا، وأخذوا يحدّقون فينـا ونحن نمضـي ببطء أمامهم ونحدّق فيهم أيضاً. كان المشهد سـريالياً. شـاهدنا مـن بعيـد مجموعات رجال على متن شاحنات "بيك-آب" تنطلق مسـرعة. وأمامنا، شاهدنا امرأتين تخرجان من بيتيهما وتأخذان أطفالهما من الشارع.

قلت لشون: "أعتقد أنهم قد فوجئوا قليلاً برؤيتنا".

رد قائلاً: "نعم سيدي. السبب الوحيد الذي يجعلهم لا يهاجموننا مباشرة الآن، هو أنهم يعتقدون أن هناك نوعاً من الخديعة... نحن بمفردنا هنا. بمفردنا فعلاً الآن".

عقب مغادرة البلدة ببضع دقائق سمعت كلاماً مضطرباً باللغة العربية على موجة اللاسلكي الخاصة بالقوات الإماراتية. وبمجرد مرورنا بمجمع سكني وحقل مفتوح إلى يسارنا، انفتحت علينا النار كالجحيم. شعرت فجأةً كأنني حشرت رأسي في ماكينة لصنع "الفُشار"؛ حيث فُتحت علينا النيران من عدد من الرشاشات وبنادق الكلاشنكوف AK-47.

صرخ جراهام وهو يدير الرشاش الثقيل من عيار 0.50 بوصة صوب الحقل المفتوح الذي يفصل بيننا وبين سلسلة من السدود على طول نهر هلمند: "أرى رشاشات دوشكا إلى جهة الساعة التاسعة (أي اليسار)".

قال براين عبر اللاسلكي: بانيشر 5-3 ألفا، هنا 5-3 برافو، نحن خلفكم مباشرة".

نظرت إلى الخلف فرأيت مركبة براين خلفنا ومن ورائها "فلاح 2".

صرخت في شون قائلاً: "انعطف يساراً، انعطف يساراً في الحال. هاجِم الكمين".

انعطف شون يساراً بسرعة فيما توقفت مركبة براين وإحدى مركبات بانهارد التابعة للقوة الإماراتية في خط، بينما عبرنا نحن الحقل بسرعة.

صاح جراهام: "توقف حتى أستطيع أن أطلق وابلاً من الرصاص!". توقّفنا وفتح جراهام النار من الرشاش الثقيل من عيار 0.50 بوصة. شاهدت رشقات المدفع التي يبلغ حجمها حجم كرة الجولف وهي تطير عبر الحقل وتصيب الساتر الترابي. بعدها اختفت فوهة الرشاش دوشكا الموجود لدى عناصر طالبان ورأسان من خلفه في سحابة من التراب والغبار. توقفنا، وكنتُ أسند بندقيتي إم 4 على باب المركبة بينما يقف جوردو في

مؤخرة المركبة وهو يطلق النار من فـوق رأســي. أطلقنـا أكـبر قـدر ممكـن مـن رشـقات الرصاص باتجاه مكمن ذلك الرشاش.

صحت: "هناك واحد آخر إلى اليسار! اليسار!". وعندما نظرت رأيـت وابـلاً مـن الطلقات الخطاطة من رشاش دوشكا آخر تطير فوق مركبة براين. قام الرقيـب الإمـاراتي الموجود في البرج بالرد على مصدر النيران ثم عاد إلى داخل المركبة لأن رشـقات الرشـاش دوشكا أصابت المركبة. بدأت مركبة البانهارد الموجودة من ناحية اليسار بإطلاق النيران.

سمعت جراهام يفتح النار من المـدفع الرشـاش مـن عيـار 0.50 بوصـة. وعنـدما نظرتُ إلى الجهة الخلفية اليمنى، ذُهلتُ لرؤية سـيارة تويوتـا لانـدكروزر مدرّعـة زرقـاء اللون مع فريق المسح الإماراتي تشق الطريق ثم تتوقّف فجأةً. وفي لحظة واحدة، فُتح بـاب الركاب واندفع الرائد موسـى وفي يده بندقية إم 4. واختبأ خلف ساتر تـرابي وفـتح النـار على مواقع طالبان المواجهة له.

صاح جراهام "قذائف آر بي جي!" في الوقت الذي ظهر فيـه خطـان مـن الـدخان الأسود فوق مركبتنا.

وعندما التفتُ رأيت دخاناً ينبعث من زورق ينطلق في النهر وعلى متنه ستة رجـال. صاح جراهام وهو يوجه بندقيته صوب الزورق: "هل تمزحون معي؟ أتمتلك طالبان قـوة بحرية؟". كان الدخان ينبعث من مدافع هاون يطلقها رجال طالبان من الزورق. وبـدأت القذائف تنفجر أمامنا.

نجح جراهام ومركبة البانهارد في إسكات النيران القادمة من المدفع الرشاش الثاني، ولكن الطوابق العلوية لمجمعين متعددي الطوابق بدأت الآن تلمع بنيران فوهات البنادق. انفجر زجاج المرآة الكبيرة إلى جانب شون، وتهشّم الشباك الجـانبي المـدرّع لمركبتـه جـرّاء رشقات الرصاص التي ضـربت الزجاج السميك. رمى شون بجسمه الضخم نفسه بعيداً عن الزجاج المدرّع عندما أمطرته رشقات الرصاص.

صاح جراهام "اللعنة، المزيد من قذائف آر بي جي!". انفجرت بعض القـذائف في الجو لأنها بلغت مداها الأقصـى. وكان جراهام يحاول يائساً تركيب صندوق ذخيرة جديد على الرشاش. وقمت أنـا وجـوردو بـإطلاق النـار مـن بنادقنـا بأقصـى سـرعة ممكنـة، للمحافظة على زخم النيران ريثما ينتهي جراهام من إعادة تعبئة سلاحه الرشـاش. رأيـت رجلين يرتديان قمصاناً وسـراويل أفغانية رمادية اللون يركضان إلى جوار حائط حجـري من جهة النهر باتجاه الساتر الترابي. استطعت رؤية مخازن ذخيرة لبنادق كلاشنكوف مثبتـة على صدريهما في جعب قماشـية ذات لون أخضـر، ويمسكان شـيئاً في أيديهما. ونظرت من خلال منظار بندقيتي لأسدد وأطلق الرصاص، وفي اللحظة الأخـيرة رأيـت معهـما ولـداً صغيراً يركض بينهما. خفضت بندقيتي، بينما اختبأ الرجلان خلف الساتر. ضـبطت نقطـة التسديد في منظار بندقيتي على الساتر حيث اختفيا. ظهر رجلان ورفعا بنـدقيتيهما صـوب مركبة براين. أطلقت زفيراً بطيئاً، وأنا أضغط على الزناد مرتين. هـوى أحـدهما برأسـه إلى الأمام واختفى الآخر.

انفجر الوابل اللاحق من قذائف الهاون خلفنا. لقد كانت تستهدفنا، ومن المحتمـل أن يسقط الوابل اللاحق فوق رؤوسنا.

قال شون، وهو ينظر إليّ بهدوء متحدثاً وهو يمطمط الكلام، وكان يمسـك سـماعة جهاز اللاسلكي وهو يتحدث، "سـيدي!، لقد توجهت بقية فصائل "فلاح" شمالاً. يبدو أننا وحدنا هنا. أنا أعتقد أنه حان الوقت للذهاب".

كان مُحقاً. كان علينا إما أن نشن هجومـاً مضـاداً عـلى السـاتر، ونمشـط المجمعـين السكنيين، وإما أن نوقف الاشتباك ونغادر ذلك المكان. وكان كـلا الخيـارين أفضـل مـن المكوث في منتصف الحقل. كنّا وسط تقاطع النيران القادمـة مـن رشاشـين في المجمعـين السكنيين المحاطين بجدران طينية، ونحن على وشـك أن نتعـرّض لمجموعـة أخـرى مـن قذائف الهاون من قبل قوة طالبان البحريـة اللعينـة الموجـودة في النهـر. ولتطهـير السـاتر

والمجمعين السكنيين، سيكون علينا جميعاً مغادرة المركبات؛ وهذا يحتاج إلى فصيلة مشاة كاملة، وليس إلى ما بين 6 و9 أفراد. لم تكن لديّ فكرة عما يمكن أن نفعله تجاه الزورق.

قلت لشون: "اللعنة، حسناً، فلننطلق"، وأنا أقفز إلى مقعدي في السيارة. وأرسلنا إشارة إلى مركبة البانهارد الإماراتية لكي تنطلق أولاً، ثم تبعناها وكانت مركبة براين في المؤخرة.

واصل جراهام إطلاق النار، محاولاً توجيه النار صوب الزورق ونحن نلتف بالمركبة للخروج من دائرة الخطر. وعندما انكشفت مؤخرة مركبتنا في أثناء محاولتنا العودة إلى الطريق، تعرضنا لوابل آخر من الرصاص.

صرخ جوردو "اللعنة، لقد أُصبت".

نظرتُ إلى الخلف فرأيته ملقى على أرضية المركبة. زحفتُ بين ساقي جراهام وهو يقف في البرج، ثم تحركتُ بين صناديق الذخيرة والمياه للوصول إلى مؤخرة المركبة؛ حيث يوجد جوردو. استطعت أن أرفعه إلى وضعية الجلوس على مقعد موجود على جانب أرضية المركبة، وأجريت تقييماً سريعاً لحالته. كان الجزء العلوي من رجله اليسرى مضرجاً بالدماء. ولاحظت أن قطعة من ساعده الأيمن مفقودة، وكأن سمكة قرش قد قضمته. كما رأيت أن قراب المسدس الذي يرتديه على صدره كان ممزقاً، ولكنني أدركت أن الصفيحة المدرّعة خلفه قد أوقفت الرصاصة. وزيادة في التأكد، حشرت يدي بين الصفيحة الواقية وصدره. بدا كل شيء عادياً. نزلت على ركبتي فوق جوردو وأنا أنظر إلى الوراء والأسفل، وعلى الفور أمسكت بفخذه من الجانب الأيسر بكلتا يديّ محاولاً الضغط على الجرح. وانفجر الدم في وجهي.

صحت منادياً شون "يا إلهي، لقد أصيب بنزف فخذي"، كنتُ أعلم من التدريب الطبي الذي حصلت عليه من كل من براين وجوردو أن الشريان الفخذي هو أحد أكبر الشرايين في جسم الإنسان. كان أمامه دقائق قبل أن ينزف حتى الموت.

فتحت على الفور علبة الإسعافات الأولية المعلقة على درعه وسحبت العاصبة الضاغطة لوقف النزف. ووضعتها حول فخذه، وقمت بتثبيتها وشدّها على فخذه بكل ما أوتيت من قوة.

صاح جوردو "اللعنة يا مايك... هذا يؤلمني أشد الألم".

رددت عليه "آسف يا صديقي. تحمّل قليلاً. أنا أقوم بما تعلّمتُه منك". وسمعت شون يتصل عبر اللاسلكي مستدعياً مروحية الإجلاء الطبي.

نظرت إلى أعلى فرأيت مجموعة ومضات نيران فوهات البنادق على الجرف من الجهة اليمنى للمقدمة. علمت أنها أعلى من أن يتمكّن جراهام من رفع مدفعه الرشاش باتجاهها، لذا أمسكت ببندقيتي وضبطتها على وضع الرمي رشاً. لم أكن سأطلق طلقات دقيقة من مركبة برية تمضي مسرعةً على طريق ترابي وعر، لذا أبقيت أصبعي ضاغطاً على الزناد لإطلاق أكبر عدد ممكن من الطلقات باتجاههم. وفي أثناء تقدم المركبة انزلق مغلاق بندقيتي بقوة إلى الخلف، في إشارة إلى نفاد الذخيرة من المخزن. لقد توقفت ومضات النيران المنطلقة من أعلى المنحدر.

خفضت بندقيتي، وتناولت مخزن رصاص آخر من عدتي. عادةً ما كنت أحمل ثلاثة مخازن رصاص في جعبة المخازن المثبتة على الصفيحة المدرعة التي أرتديها على صدري، ومخزناً على يسار الحزام، والمخزن الموجود في البندقية. تنبهت إلى أنني كنت أقوم بتلقيم المخزن الرابع، ولم يعد معي سوى مخزن إضافي واحد قبل أن أضطر إلى اللجوء إلى الاحتياط الموجود في حقيبة الظهر.

حوّلت انتباهي مرة أخرى إلى جوردو، أخرجت عاصبة ضاغطة ثانية من جيب بنطالي وشددتها حول فخذ جوردو. أخرجت المقص الجراحي الذي كان جزءاً من معداتي وشققت سرواله من جهة الداخل حتى حزامه. مزقت سرواله في منطقة ما بين الرجلين، ورفعت رجله وأزحت خصيتيه لأتمكن من رؤية الجرح بشكل أفضل.

صاح جوردو وهو يحاول أن ينظر للأسفل من فوق درعه إلى رأسي وأنا أعاين ما بين رجليه عن كثب: "ماذا تفعل هناك في الأسفل؟".

أجبته: "أبحث عن المكان الذي خرجت منه الرصاصة.. اللعنة". قلت ذلك على ضجيج إطلاق الرصاص. حاولت أن أجعل صوتي هادئاً قدر الإمكان. وفي داخلي كنت مرعوباً من أن أقترف خطأً قد يفضي إلى موته.

رد قائلاً وهو يعيد رأسه إلى الوراء: "حسناً، عمل جيد. أنا سعيد بأنك كنت تتنبه إلى الدروس في الصف".

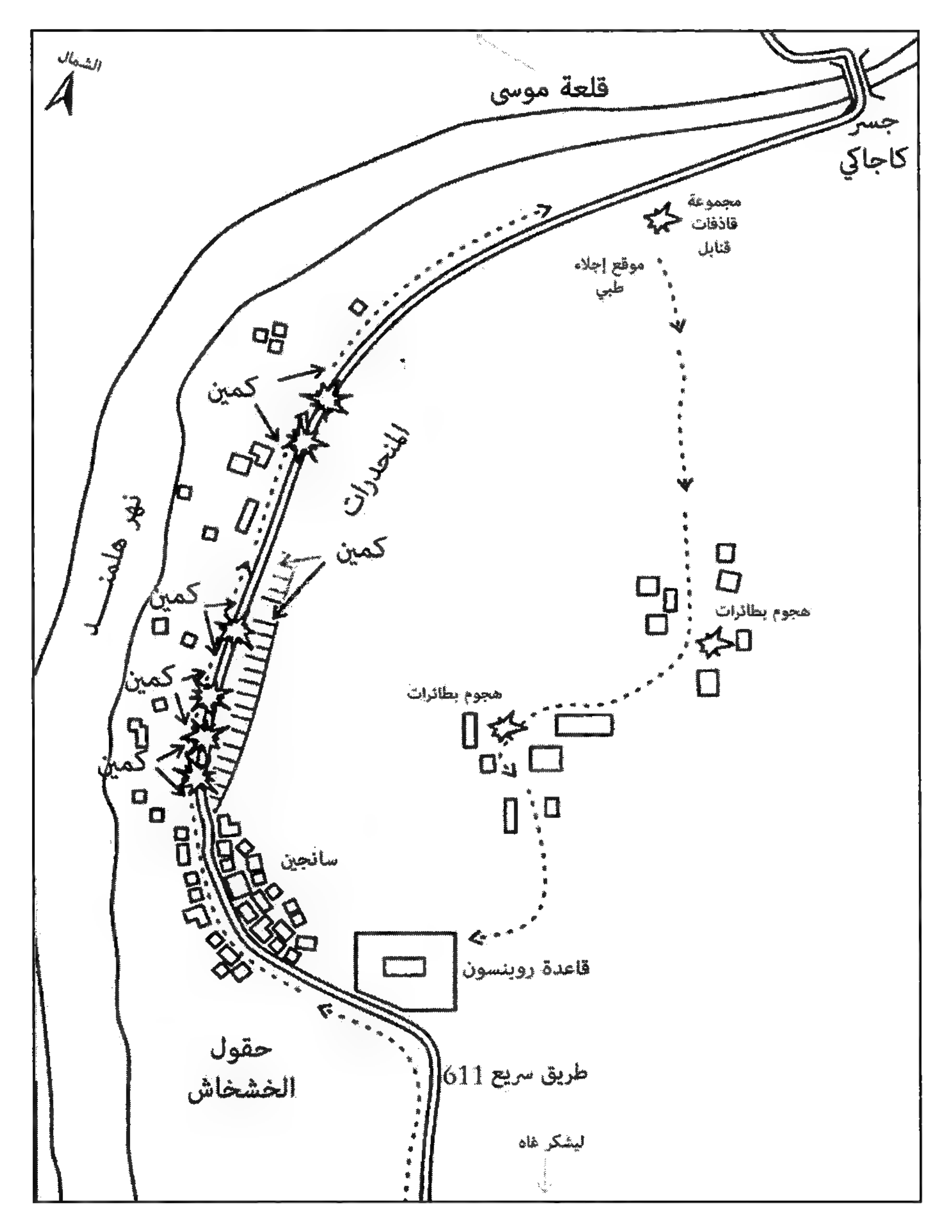
في هذه الأثناء، كنا نسير على الطريق السريع 611 بأسرع ما يمكن، ونحن نحاول اللحاق بباقي العناصر. وقد امتد الطريق على طول قعر سلسلة طويلة من المنحدرات الصخرية العالية على يميننا. أما على يسارنا، فكانت هناك المزارع التي تتخللها مجمعات سكنية على امتداد نحو ثلاثمئة ياردة بين الطريق والنهر. لدى طالبان رجال على جانبينا؛ رجال في الأعلى على المنحدرات الصخرية يطلقون النار إلى الأسفل باتجاهنا، ورجال ينتشرون في المجمعات السكنية والحقول على يسارنا. وقد صُدمتُ تماماً عندما نظرتُ إلى النهر فرأيت أن الزورق الذي يحمل فريق مدفع الهاون كان مزوداً بمحرّك، ويسير بشكل موازٍ لنا، ويطلق علينا القذائف لكي يمنعنا من القيادة إلى خارج منطقة الخطر.

صرخ جراهام: "آر بي جي!" في الوقت الذي كان فيه خط من الدخان الأسود ينحني على شكل قوس في المقدمة من ناحية اليسار وينفجر على المنحدر الصخري على بعد بضع أقدام من مركبتنا.

استيقظت على أرضية المركبة. كان شون قد انحرف بالمركبة بعنف ليتجنّب القذيفة الصاروخية فاصطدم رأسي بجانب المركبة. كان رأسي يؤلمني ونظرت لكي أتفقد جوردو فرأيته وقد سقط عن المقعد.

خريطة (9)

الكمين بالقرب من سانجين، ولاية هلمند



"نحن ننحرف عن هذا الطريق!" صاح شون وهو ينحرف إلى اليمين على طريق يشق المنحدر الصخري. لقد صعد التل، وبرزنا فوق هضبة تقود بعيداً عن النهر. لحسن الحظ، كانت مجموعتا "فلاح 1" و"فلاح 2" قد سلكتا الطريق نفسه، وشكلتا دائرة حماية على بعد مئات الياردات أمامنا. وتمكنت من رؤية حوامة الإجلاء الطبي تحوم على مسافة منّا.

توقفت مركبة براين، وقفز إلى مؤخرة مركبتنا ومعه حقيبته الطبية. وسرعان ما تولى الأمر وبدأ بإسعاف جوردو.

بدا الأمر وكأن ساعة قد مرّت، ولم يكن فريق الإجلاء الطبي قد هبط بعد. كان جراهام وشون يتصلان عبر شبكتي لاسلكي مختلفتين؛ حيث يحاول شون استدعاء طائرات لتنفيذ ضربات جوية، فيما يسعى جراهام إلى التواصل مع فريق الإجلاء الطبي. وكنا ما نزال نتعرّض لقصف عشوائي بقذائف الهاون ورشقات رصاص متقطعة، وقد سمعت جراهام يبلغ تلك المعلومات للطيارين.

قلت له صارخاً: "قل لهم إن منطقة الهبوط آمنة! وما دمت تقول لهم إننا نتعرّض لإطلاق النار، فلن يهبطوا!".

وسرعان ما قمنا بتحميل جوردو على متن الحوامة إضافةً إلى عسكري إماراتي كان قد أصيب برصاصة في الرأس لم تخترق خوذته ولكنها أفقدته الوعي. كما وضعنا على متن الحوامة مقاولاً تملّكه الخوف الشديد بحيث لم يقوَ على الحركة، كان يستقل المركبة المدرّعة الإماراتية. لم أستطع أن أصدق حظنا الطيب، بحيث لم نفقد شخصاً آخر.

بدأت بسرعة في إعداد خطة مع الرائد موسى "العصبي" من أجل الوصول إلى جسر سد كاجاكي ومنه إلى قلعة موسى. كان هناك ثلاثة من إطارات مركبتنا المدرعة قد فرغت من الهواء جراء إصابتها بالرصاص. وكنّا بحاجة إلى تبديلها بالإطارات الاحتياطية وإعادة توزيع الذخيرة. عندما رنّ هاتف الأقمار الصناعية ناولني إياه شون. كان جميع من

في مسرح العمليات يستمع إلى جهاز اللاسلكي المتصل بالأقمار الصناعية عندما يقوم أحد العناصر بالاتصال، وكان الهاتف غالباً ما يستخدم للمحادثات الأكثر خصوصية.

"مايك، هذا ديف. ما هي خطتك للمضي قدماً؟".

كان ديف هو قائد وحدتي في مريلاند في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان يخدم في مقر قيادة قوات العمليات الخاصة المشتركة بصفة مدير لقوة العمليات الخاصة للتحالف. كانت الفرق المختلفة المقسمة التابعة لي والمنتشرة حول البلاد والمدمجة مع وحدات التحالف، جميعها ترفع تقاريرها إليه في نهاية المطاف.

رددت عليه: "نحن نواصل مهمتنا. لقد أعددنا للتو خطة لشن هجوم مضاد والقتال لعبور الجسر إذا اضطررنا إلى ذلك، ثم نواصل طريقنا صعوداً إلى قلعة موسى".

"لا، هذا لن يفلح. الوضع شديد الخطورة هناك. عليكم أن تلغوا المهمة وتبدؤوا بشق طريقكم للعودة إلى القاعدة".

كنت أستشيط غضباً. "ديف، لقد كدنا نُقتل ونحن نقاتل لشق طريقنا حتى وصلنا إلى هنا، وأنت بهذه البساطة تريدني أن أعود الآن؟".

فقال كأمر واقع: "يا مايك، إن نصف جيش طالبان ينتظركم على الجهة الأخرى من الجسر، وهم لا يحملون مسدسات في جيوبهم... نحن نتحدث عن رشاشات دوشكا وقاذفات عديمة الارتداد". كانت هناك مدافع رشاشة ثقيلة، ومدافع صغيرة مصمّمة لتدمير المركبات.

"سيدي، زُوّدنا ببعض الدعم الجوّي المتواصل، وسوف أخترق أي شيء لديهم عند الجسر، وأقوم بإجراء المسح، وأعود عبر الطريق الصحراوي الطويل. لم نتكبّد سوى إصابتين ولدينا كمّ كبير من الذخيرة. لقد سئمت الهروب في كل مرة نتعرّض فيها للهجوم. هذا يمنح الأوغاد فوزاً ونصراً دعائياً، اللعنة!".

"مايك، أنا سْكوت". كان الرائد سْكوت ضابط عمليات قوات العمليات الخاصة المشتركة، المسؤول عن العمليات الحالية عبر جميع مسارح عمليات قوات المهام الخاصة. "أقدّر رغبتك في مواصلة القتال. هذا من شيم أصحاب القبعات الخضر. لكنكم يا رجال قد تغلبتم على مجموعة كبيرة من الأوغاد هناك، ومن ثم فإن كل قائد طالباني في الولاية يجهّز الآن رجاله لتعقبكم. لدينا طائرات بريداتور من دون طيار تحلق فوقكم ونحن نرى الأشرار بالمئات يحاولون الانقضاض عليكم الآن في أثناء حديثي معك. لن تذهبوا إلى ذلك الجسر، وإن كان علي أن أحدّثك بصراحة فظة، أنا الآن قلق بشأن كيفية إعادتكم إلى قاعدة العمليات المتقدّمة روبنسون جنوب سانجين. إذا واصلتم التوغّل باتجاه قلعة موسى فسوف يحكمون إغلاق الطريق من خلفكم بطريقة ستحتاج إلى فرقة كاملة لاختراقه. وعندها ستكونون محاصرين، وأنت تعلم أنه ليس لدينا سوى مفرزة عمليات ألفا أخرى واحدة فقط وبعض البريطانيين الذين وصلوا لتوهم..."، ثم توقّف وبدأ يتحدّث إلى شخص آخر.

"حسناً" قال سْكوت مستأنفاً حديثه "إضافةً إلى طائرات البريداتور، حصلت على طائرات قاذفة من طراز A-10 وB-1. يتعيّن عليكم أيها الرجال التحرّك صوب الجنوب في أسرع وقت قبل أن يتكاثر الأوغاد عليكم. سوف نراقب الدعم الجوّي اللصيق من خلال طائرات البريداتور. وعندما يحل الظلام، سنحاول أيضاً إرسال طائرة هجومية من طراز AC-130. إن قتالكم، لم يقترب بعد من نهايته، يا مايك".

بعد نحو ثلاثين دقيقة من تحرّكنا، حدثت سلسلة من الانفجارات المدوّية على الجانب الآخر من تلة صغيرة كنّا قد أجلينا جوردو طبياً منها. علمتُ لاحقاً أن أكثر من ستين مقاتلاً من طالبان قد تجمّعوا هناك في محاولة للانقضاض علينا. كان سكوت وفريق العمليات الخاصة المشتركة المختلطة يشاهدون عناصر طالبان عبر اللقطات التي ترسلها طائرات البريداتور، وهم يحتشدون ويعدون العدة للهجوم علينا، قبل استدعاء الطائرة القاذفة B-1 لإلقاء قنابل موجّهة بنظام تحديد المواقع العالمي (جي بي إس) زنة الواحدة ألفا رطل عليهم.

بدأ تحركنا خلال الليل، وفي غياب القمر ومع وجود مجموعة من الرجال المرهقين الذين يقودون المركبات باستخدام مناظير الرؤية الليلية، خلنا أن الليل سيستمر إلى ما لا نهاية. ومن وقت إلى آخر كان فريق العمليات الخاصة المشتركة المختلطة يتصل بنا، ويطلب منا التوقّف وإحصاء رجالنا. وبمجرد أن نؤكد وجود الجميع، كنا نسمع صوت سلسلة انفجارات على أحد جانبينا ونسمع دوي الطائرات على مسافة. قضينا الساعات الاثنتي عشرة اللاحقة نختار طريقنا عبر الدروب الوعرة الخاصة بالمواشي والأودية والقرى حتى نصل إلى القاعدة الصغيرة في جنوب سانجين.

عندما أصبحت الطائرة الحربية من طراز AC-130 في سماء المنطقة، كانت تساوي وزنها ذهباً. وكما كان عهدي دائماً في التعامل مع هذا الطراز من الطائرات، ولسبب ما، كان الضابط الذي يقوم بعملية الاستهداف أنثى. كان سماع صوتها الناعم عبر موجات اللاسلكي، بعد هذا اليوم الطويل المغبر والمملوء بالمغامرة، كالصدمة لي في البداية، ثم أصبح عاملاً مهدِّئاً. كانت تقوم من حين إلى آخر، وهي تحوم فوقنا، بتشغيل كشافات الأشعة ما تحت الحمراء الضخمة الموجودة في الطائرة، والتي كانت تنير المنطقة بأسرها، بحيث نراها عبر مناظير الرؤية الليلية كشيء أشبه بضوء النهار الأخضر. اتصلت بنا مرتين لتبلغنا بأن عدداً من الرجال يحتشدون في نقطة متقدّمة على الطريق أمامنا. وما هي إلا دقائق حتى كنا سمعنا صوت مدفع من عيار 120 مم المركب في الجزء الخلفي للطائرة AC-130 وهو يطلق قذائف مدوّية تكسر سكون الليل، فتمحو الكمين الذي كان ينتظرنا.

ثم تعيد الاتصال بصوت هادئ: "تم تدمير الهدف، طريقكم آمنة للتقدّم".

قال شون: "يا رجل، إنها مثل ملاك الموت".

"أراهنك أنها فتاة شقراء جذابة ومثيرة"، هكذا كان يردد جراهام في كل مرة تتصل. "ربما فتاة رياضية طويلة سويدية الشكل من اللواتي يشاركن في السباقات الثلاثية".

عقب كل اتصال، كانت تدور بيننا مناقشة عما هـو شـكل الفتـاة، وهـذا أسـهم في إبقائنا يقظين. في النهاية، تحوّلت المناقشة إلى رهان بين شون وجراهام حول لـون شـعرها. وكان الرهان على زجاجة ويسكي "بوربون". وأخيراً، وبعد أن سئمت من سماع حـديثهما عنها، اتصلت بالطائرة على موجـة "إف إم" المحليـة حتـى لا يسـمعنا بقيـة العناصـــر في مسـرح العمليات.

ردت وهي تضحك: "سمراء. الشعر بني غامق أملس. نصف مكسـيكية".

صاح جراهام في الليل "أوو، لا!".

قال شون "لقد أخطأت هدفك، يا جراهام" "سوف أحصل على زجاجة البوربون، شكراً لك".

رد جراهام: "حسناً. سوف أشكرها في المرة القادمـة التـي نـذهب فيهـا إلى قاعـدة باجرام. أنا أتحدث الإسبانية! (قالها بالإسبانية)".

كانت قاعدة العمليات المتقدّمة روبنسون قاعدةً عسكرية صغيرة مُتربة على قمة تـل في جنوب شـرق سانجين تماماً. كانت قد تمت تسميتها مؤخراً على اسم عريف من كتيبتي، يدعى كريس روبنسون. كان كريس، وهو من ماديسون في الميســيسبي؛ حيـث يقـع مقـر كتيبتنا، من أكثر الرجال طرافةً وشهرةً في الوحدة. أصـيب هو ورقيب آخر في فريقه وهمـا يعملان على إنشاء منطقة لهبوط الحوامات خارج البلدة. توفي كـريس في مكـان الحـادث. وكانت الوحدة محظوظة كونها لم تتكبّد أي وفيـات خـلال أول انتشـار لهـا في أفغانسـتان، ولذلك كانت وفاة كريس ضـربة قاسـية إلى حد كبير.

تحركنا عبر الصحراء تحاشـياً للمرور ثانية عبر البلدة والسوق. كان البريطانيون قـد تولوا الإشـراف على قاعدة روبنسون قبل وصـولنا بأسـبوعين. كـانوا يتعرّضـون لهجـوم ليلي. كما كانت القاعدة حينها تؤوي فريقاً صغيراً من الحرس الوطني لولاية تينيسـي يقوم بمهمة تدريب لسـرية من الجيش الوطني الأفغـاني متمركـزة هنـاك. كـان أفـراد الحـرس

الوطني رجالاً جيدين، ولكن كان تخصصهم هو المدفعية، ومن ثم فإنهم لم يكونوا متحمّسين جداً لمرافقة وحدة من الجيش الوطني الأفغاني داخل ما يوصف بـ "فلّوجة أفغانستان".

لم تتم إعادة تزويد القاعدة بالمؤن منذ وصول البريطانيين. وكانت الحوامات التابعة للقاعدة تتعرّض لإطلاق النار في كل مرة تحاول جلب المؤن لهم، وعادة ما كانت تضطر إلى المغادرة من دون الهبوط. بالإضافة إلى ذلك، كانت شاحنات البريطانيين غير المدرّعة تتعرّض للكمائن كلما كانوا يحاولون القيام بالرحلة براً من قندهار. ونتيجة لذلك كانت القاعدة تعاني نقصاً حاداً في المؤن الأساسية. كانت المرة الأولى خلال حياتي العسكرية التي نواجه فيها خطر نفاد الماء فعلياً. كان أفراد الحرس الوطني يوزعون زجاجة ماء على كل فرد، وكاد يتم استبعاد البريطانيين من عملية التوزيع. وفي النهاية، طلبنا من أحد المترجمين الفوريين أن يتحدث مع أفراد الجيش الأفغاني ويعطيهم بعض النقود ليبعثوا أحد العمال إلى البلدة لإحضار شاحنة مياه. في تلك الليلة جعلنا أحد سائقي الجيش الوطني الأفغاني يتسلل إلى القاعدة. قال لنا السائق إن طالبان ستقطع رأسه إن علمت بالأمر. كانت تلك إشارة واضحة على مدى تعاظم قوة طالبان في المنطقة منذ أن كنّا هنا قبل أشهر. دفعنا 10 آلاف أفغاني (العملة الأفغانية)، أو مئتي دولار تقريباً، لإقناع الرجل بأن يجازف لإحضار الماء لنا. ومع ذلك، طلب الجيش الوطني الأفغاني عدم إعطاء الماء للبريطانيين. كان أفراد الجيش الوطني الأفغاني يكرهون البريطانيين ويعتقدون أننا قد جئنا للعمل معهم مباشرةً. قال ضابط في الجيش الوطني الأفغاني: "أنتم، القوات الخاصة، تتقاسمون الخبز معنا، وتأكلون، وتنامون معنا، وتطلبون رأينا في شأن الخطط، وتبلغوننا بالمخاطر المحتملة. أما البريطانيون، فيخبرونني فقط كم رجلاً يريدون للقيام بدورية، ولا يخبروننا شيئاً بشأن المهمّة لأنهم لا يثقون بنا. إنهم يعاملوننا مثلما كانوا يعاملون أجدادنا. سوف يلاقون المصير ذاته الذي لاقاه أجدادهم في هلمند!". قال ذلك وهو يصفع رجله، مذكراً الجميع كلهم بأن الجيش البريطاني قد هُزم على يد المحاربين الأفغان في معركة مايواند البطولية في عام 1880.

في الليلة اللاحقة، حاولنا العودة متسللين من الطريق الدائري إلى قاعدتنا في قندهار. بعد بضع ساعات من التحرّك، انكسر محور عجلات إحدى مركبات الهامفي في قناة للري. كانت ليالي حالكة ليس فيها ضوء قمر، وهو ما كان يعني أن قيادة المركبات باستخدام مناظير الرؤية الليلية كانت أصعب من المعتاد. وفي إحدى المناطق، عقب انتظار مركبة قطر سيارات تابعة للجيش الوطني الأفغاني نحو ثلاث ساعات، لإعادة المركبة المدرّعة إلى قاعدة روبنسون، تلقيت اتصالاً من سكوت عبر تلفون الأقمار الصناعية.

"مايك، المكان مملوء بأحاديث عن أنكم في الخارج هناك. الأوغاد يتحدثون بشأن محاصرتكم مرة أخرى. لقد اعترضنا محادثة للتو، مصدرها قائد محلي يعرض مكافأة نقدية كبيرة لأي فرد يتمكن من أسر أحدٍ منكم".

لقد وقف شعر مؤخر عنقي وأنا أنظر بمنظاري الليلي متفحّصاً خط الأشجار. اتصل سكوت ثانية: "مايك، أنا على وشك أن أجعل ليلتكم أسوأ. هناك قتال شرس في الشرق. كل الطائرات مشغولة هناك. أيها الرجال ستظلون بمفردكم حتى يمكننا تفريغ بعض الطائرات للعمل معكم. لكن إذا واجهتم وضعاً خطيراً فسوف نفرِّغ بعض الطائرات لتقديم المساندة لكم، ولكن حتى ذلك الحين، اعتمدوا على أنفسكم أيها الرجال. أنا آسف".

كنا في منتصف المسافة بين قاعدة روبنسون والطريق الدائري، وعلى بُعد ساعات عن أي نوع من التعزيزات. لم يكن ببساطة يوجد أي شيء؛ سواء قاعدة للتحالف أو أي وجود عسكري بيننا وبين القاعدة الرئيسية في قندهار. وكان هذا تذكيراً صارخاً آخر بمدى قلة الموارد التي خصّصناها للمهمة الهائلة المتمثّلة بإحلال الاستقرار في أفغانستان.

أعددنا لتدمير مركبة الهامفي المعطوبة وذلك بإخراج الأسلحة وبعض الأشياء الحسّاسة من المركبة، تم وضع بعض القنابل الحارقة بداخلها وتفجيرها لتصبح هيكلاً لا قيمة له إذا اضطررنا إلى تركها. وكان قد تم إرسال مركبة قَطْر السيارات إلينا، ولكن لم نستطع الاتصال بها لأنه لم يكن لديها جهاز لاسلكي. وقضينا بقية الليل نراقب المناطق

المحيطة بنا، مترقبين ومضات إطلاق نيران وانطلاق قذائف آر بي جي في أي لحظة. ولم يحدث ذلك قط، ولكنها كانت من أطول الليالي في حياتي. في ذلك الوقت كنّا قد اقتربنا من قضاء نحو أربعين ساعة من دون نوم. وأخيراً جاءت مركبة قطر السيارات قبيل بزوغ الفجر ونجحنا في العودة إلى قندهار.

لم تستعد فكرة وجود قاعدة إماراتية خارج قلعة موسى زخمها وأصبحت عالقة في دهاليز سياسة قوات التحالف. في ظل تولي البريطانيين مسؤولية الأمن في هلمند خلال فترة انتقال المسؤوليات إلى حلف الناتو، أرادوا أن تبدأ القوة الإماراتية في رفع تقاريرها إليهم إذا أرادت الإمارات أن تكون لها قاعدة هناك، ولكن الإماراتيين اعترضوا. وكانت لهم علاقة جيّدة مع قيادة القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان، وكانوا معجبين بالدعم الذي حصلوا عليه. حاولت الضغط من أجل تخصيص فريق مسح آخر، لكن في ظل العراقيل البيروقراطية وتعرّض فريق المسح للكمائن، فقدت الفكرة زخمها وتبدّدت. كان ذلك أمراً مخجلاً، وشعرتُ بإحباط شديد. وحتى هذا اليوم، أشعر بندم شديد لعدم فتح قناة اتصال خلفية مع واشنطن، في محاولة لإعادة الزخم لفكرة إنشاء القاعدة.

وسرعان ما ذهل البريطانيون من المشكلات والتعقيدات الهائلة التي واجهوها في هلمند؛ حيث كانوا قد أعدّوا أنفسهم لمهمّة حفظ سلام شبيهة بتلك التي عايشوها في شمال أفغانستان. وتماشياً مع عقيدتهم في مكافحة التمرد، أنشؤوا سلسلة من مقار الفصائل تنتشر في الكثير من القرى عبر الولاية، لكي يكونوا قادرين على التفاعل بسهولة مع السكان، وحماية مراكز المديريات الرئيسية. كانت المشكلة هي أن المقار كانت متباعدة عن بعضها الآخر إلى درجة انتفت معها إمكانية الدعم المتبادل، ولم يكن يتوافر لدى البريطانيين قوات إضافية كافية لكي يستطيعوا التعامل مع البؤر الساخنة عند اشتعالها. وسرعان ما أصبحت هذه المقار بمنزلة متاريس دفاعية قيّدت جميع القوات البريطانية في هلمند. وكان يطلق على قاعدة روبنسون اسم "ألامو" [معركة دامية من معارك حرب الاستقلال بين جيش تكساس والمكسيك] لأنها كانت تتعرّض للهجوم كل يوم تقريباً.

وفي النهاية، اتخذ البريطانيون القرار العملياتي بغلق بعض مقار الفصائل وتوحيد القوات لكي تتوافر لهم مرونة زيادة القوات حيثما احتاجوا إليها. كان أول مقر يتم إغلاقه ذلك الموجود في قلعة موسى، وتحوّل الأمر إلى موضوع مثير للجدل. وفي أكتوبر 2006، قررت القيادة البريطانية التفاوض لعقد هدنة مع طالبان عبر الشيوخ المحليين لكي تستطيع سحب رجالها من المقر. وعدَ شيوخ المنطقة برفض سيطرة طالبان إذا انسحب البريطانيون وأكدوا للقيادة أنه برحيل القوات الأجنبية عن المنطقة، سوف تسود القواعد القبلية ويتمكّن الشيوخ من السيطرة على الموقف. في الواقع، لم يكن لدى شيوخ القبائل الوسيلة التي تمكّنهم من تحقيق ما وعدوا به أو السيطرة على أفعال طالبان. وفي فبراير 2007، احتلت مجموعة كبيرة من مقاتلي طالبان مركز مديرية قلعة موسى بالقوة، ورفعوا علم طالبان الأبيض عليها.

بحلول الوقت الذي حدث فيه هذا في خريف عام 2006 كنت قد عدت إلى الوطن، إلى وظيفتي المدنية في البنتاجون؛ حيث توليت العمل على السياسات الخاصة بأفغانستان. كنا شديدي القسوة على نظرائنا البريطانيين بسبب عقد هذه الصفقة. لقد رفرف علم طالبان على مديرية قلعة موسى طوال الأشهر التسعة اللاحقة، ما أدى إلى شعور الحاكم داود بالمهانة والعار. وفي البنتاجون، قرأنا تقارير عن تطبيق أحكام الشريعة في المديرية، إضافة إلى غلق المدارس وفرض الضرائب. ووردت تقارير عن إعدام عدد من الأشخاص بعد اتهامهم بالتجسّس، وقام قادة طالبان بتجنيد الرجال عنوة للقتال لمصلحتهم. ولم تتم استعادة البلدة إلا بعد وصول الكتيبة رقم 82 المحمولة جواً والتابعة للقوات البريطانية، والكثير من مجموعات القوات الخاصة ترافقها وحدات من الجيش الأفغاني، وقامت باجتياح الوادي في ديسمبر 2007. لقد قاتلوا لمدة ثلاثة أيام ضد دفاعات طالبان المحصنة قبل أن يتمكّنوا من رفع العلم الأفغاني مرة أخرى على مركز المديرية.

لقد كان واضحاً بالنسبة إلى جميع الأفراد الذين خدموا في أفغانستان في عام 2006، أن التمرّد قد تحوّل إلى الأسوأ. ذلك أن قطاعات بأكملها أصبحت تحت سيطرة حركة

طالبان. وقد استغلت الحركة نقص عدد القوات الأمريكية، وغياب الحكم الرشيد، وحملة القضاء على نبات الخشخاش التي أسيء توجيهها. ولكن واشنطن لم تكن تدرك ما حدث بشكل كامل. كان انتباه الجميع في البنتاجون مشدوداً باتجاه النقاش الصاخب بشأن المضي قدماً في العراق. كان الكثيرون في الكونجرس يطالبون بالخروج من العراق ويحاولون تمرير قرارات تخفّض التمويل للحرب. وحينها وصلت شعبية الرئيس بوش إلى مستويات متدنّية. كانت القيادة المركزية وكثير من كبار القادة في هيئة الأركان المشتركة، وكذلك وزير الدفاع رامسفيلد نفسه، ما يزالون يرون أن أفضل سبيل للمضي قدماً هو تخفيض الوجود في العراق، بينما ينهض العراقيون على أقدامهم. وفي الوقت ذاته، كنا نسمع أحاديث دائمة من زملائنا في مكتب وزير الدفاع لشؤون السياسة، بأن البيت الأبيض يجري سلسلة من المراجعات السرية لاستراتيجيات جديدة، بما فيها تعزيز قواتنا في العراق، الأمر الذي لم يتخيله أحد. باختصار، لم يكن هناك على ما يبدو - وبصراحة - قدرة أو رغبة، بين أفراد القيادة العليا في سماع أن الأمور في أفغانستان قد بدأت تسوء أيضاً.

الفصل السادس

الفرنسيون في "وادي معروف" بيدق في لعبة دبلوماسية

"استيقِظْ يا سيدي"، قال لي ويل وهو يطل برأسه إلى داخل غرفة نومي التي هي عبارة عن حاوية شحن، وكانت معروفة بـ "علبة الرجل". كنا في قاعدة القوات الخاصة الفرنسية خارج بلدة سبين بولداك في جنوب شرق أفغانستان. "سيدي، رصد فريق استطلاع فرنسي مجموعة من 15 عنصراً من حركة طالبان يركبون شاحنات بيك-آب من طراز هايلوكس" - وهذا الطراز من تويوتا هو المعادل المستخدم في الدول الأجنبية لبيك-آب تويوتا من طراز تاكوما - "وهم يتجهون نزولاً إلى "وادي معروف" ويقيمون نقاط تفتيش هناك". ويل رقيب أول في القوات الخاصة الأمريكية، وهو ملحق بالقوات الخاصة الفرنسية بصفة ضابط تنسيق. كان مستمراً في العمل مع الفرنسيين منذ بضعة شهور، وهو يرتدي الزي الخاص بذوي القبعات الخضر، وكان يبذل أقصى جهده للقيام بمهام ضابط التنسيق التقليدي في مقار القيادة. وبدلاً من الجلوس في مقر قيادة القوة الفرنسية، والتأكد من تنسيق خططهم مع قيادة فريق العمليات الخاصة المشتركة المختلطة الأمريكية في باجرام، فقد جعل من دوره دوراً عملياتياً فاعلاً، بكل وضوح، من خلال القيام بالأشياء التي رفض الفرنسيون القيام بها. وأفضل مثال على ذلك، كان عندما تبنّى وحدة تابعة للجيش الوطني الأفغاني كانت متمركزة بصورة مشتركة مع الفرنسيين، وكان يوجّه تلك الوحدة ويدرّب أفرادها على العمليات، بينما كان في الوقت ذاته، يخدم بصفة مستشاراً غير رسمي لقائد الشرطة المحلية الأفغانية الممسك بزمام القوة السياسة، ويُدعى العقيد عبد الرازق. وفي حين كان الفرنسيون يركزون على تنفيذ عمليات قتالية أحادية الجانب، ويطلبون المساعدة من الجيش الوطني الأفغاني عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك، كان ويل ورقيب آخر يدرّبان ويوجّهان عناصر الجيش

والشرطة الأفغان المحلية. وكان ويل عنصر شرطة طويل القامة ونحيلاً من تكساس، وكان حاد الذكاء، ولا يضيع وقته على الأشياء التافهة، وكان من الواضح أنه بنى علاقات ممتازة مع الأفغان.

سألته: "حسناً، هل يحتاجون إلى مساعدتنا بدعم جوّي أو شيء من هذا القبيل؟"، وأنا أنهض في سريري وألاحظ أن الشمس قد أشرقت. كانت "علبة الرجل" في الحقيقة غرفة نوم في صندوق، عبارة عن حاوية شحن قياسية بحجم 24 قدماً بسرير ذي طابقين، وطاولة مكتب، ومزودة بالكهرباء. وأصبح تزويدها برفوف من الخشب المعاكس، وعدد من الكراسي القابلة للطي، وصور من الوطن وهي الهواية المحببة لمعظم الجنود الذين يخدمون في الخارج؛ والسواد الفاحم لحاوية الشحن المعدنية هذه، أيقظ ساعتي البيولوجية الداخلية بشكل كامل.

أجابني ويل: "يريدون منّا أن نأخذ إحدى فصائل الجيش الوطني الأفغاني إلى هناك ونعترض طريق مقاتلي طالبان"، وأضاف: "لماذا لا يرسلون دورية من قاعدتهم المتقدّمة في بلدة معروف إلى المكان الذي شاهد فيه فريق الاستطلاع هؤلاء الرجال؟ هم موجودون أصلاً هناك، بينما نحن نبعد عن المكان ساعات عدة". وأوضح لي: "لا يعمل الفرنسيون بهذه الطريقة يا سيدي. هم يرسلون دوريات وفرق استطلاع، ولكنهم لا يمتلكون رغبة تُذكر في خوض أي قتال. لقد أرسلت تحذيراً إلى فريق التدريب المرافق والجيش الوطني الأفغاني. وقالوا إنهم سوف يكونون جاهزين للذهاب خلال نحو عشرين دقيقة، ولكن لا داعي إلى العجلة، وكما تعرف، عشرون دقيقة أفغانية تعني حوالي ساعة في الواقع".

كنت قد قضيت أياماً عدة في القاعدة الفرنسية على مسافة بضعة كيلومترات غرب بلدة سبين بولداك على الحدودية الأفغانية. وكان على الرقيب الذي يرافق ويل أن يرجع إلى الولايات المتحدة في إجازة اضطرارية، وكان فريقي مقسّماً حالياً بين تسيير أمور

فريق القوة الخاصة-7 الإماراتية من خلال دورات التدريب التعريفية خارج قاعدة باجرام، ومرافقة القوات الخاصة التشيكية في قندهار. وقيل لي: إن قائد القوات الخاصة الفرنسية غضب عندما رفض الرقباء الأمريكيون طلبه، وعندما لم نستطع أن نقدم للفرنسيين الدعم الذي طلبوه. وهكذا رأى ديفيد، قائدي ومدير العمليات الخاصة لقوات التحالف، أن إرسال أحد أفراد الفريق بضعة أسابيع يمكن أن يكون مفيداً.

كان فريق القوة الخاصة الفرنسية "أريس" يتمركز في قاعدة صغيرة قرب الطريق السريع-4، وهو الطريق الذي يمتد من المدينة الجنوبية الرئيسية قندهار باتجاه الجنوب الشرقي إلى البلدة الحدودية سبين بولداك. وتتميّز سبين بولداك بأنها موزّعة على جانبي الحدود الأفغانية - الباكستانية، وصولاً إلى مدينة شامان الباكستانية، وكانت سبين بولداك أكبر معبر حدودي لأفغانستان مع جارتها باكستان في جنوب البلاد. وكانت القوة الخاصة الفرنسية تتألف من قوات خاصة برية وبحرية، وكانت تتمركز في هذه القاعدة منذ أواخر 2003. وكانت القوة الخاصة الفرنسية بقيادة النقيب "آلان" من القوات البحرية، الذي كان في أفضل أحواله انعزالياً إلى حد ما. وكانت هناك سرية مكوّنة من نحو 50 جندياً من الجيش الوطني الأفغاني يمكثون في مجمع صغير ملحق بتلك القاعدة. وقد تم إرسال الجنود الأفغان إلى الجهة الخلفية من القاعدة؛ حيث كانوا يقيمون في صف من غرف مبنية من الطوب. وبحسب ويل، لم تكن العلاقة بين القوة الخاصة الفرنسية أريس والجيش الوطني الأفغاني جيّدة. وأخبرني ويل بينما كنا ذاهبين لمقابلة قائد سرية الجيش الوطني الأفغاني في اليوم الذي وصلتُ فيه، "أن قائد المجموعة الفرنسية يستخدم الجنود الأفغان للقيام بالأعمال التي لا يريد لعناصره أن يقوموا بها، كالمشاركة في المعارك".

واسترسل قائلاً: "إنهم يحصلون على تقارير عن نشاطات لحركة طالبان في سبين بولداك، أو يرصدون شيئاً ما في القرى المحيطة بواسطة فرق الاستطلاع التابعة لهم، وبدلاً من التحقق من الأمور بأنفسهم، يستدعون الجيش الوطني الأفغاني. والأمر الذي يغضب الأفغان حقاً، هو أن النقيب آلان يبقيهم دائماً في وضعية تأهب كقوة رد سريع.

وهو يريد من الجيش الوطني الأفغاني أن يظل في حالة تأهب قصـوى علـى مـدار السـاعة 24/ 7، بينما يقوم الفرنسـيون بأعمال الدورية. وهكذا ظل الأفغان في حالة جاهزية قصوى دائماً كإجراء احترازي تحسّباً للرد في حال واجـه الفرنســيون أي مشـكلة؛ ولم يكـن حقـاً باستطاعتهم الذهاب إلى منازلهم أو عائلاتهم لإيصال رواتبهم إلى أسـرهم".

خريطة (10): إقليم قندهار



وقد فوجئت بعدم وجود أي جنود أفغانيين هناك.

قال ويل: "إنه لأمر مضحك. أخيراً تدخّلت قيادة الجيش الوطني الأفغاني قبل نحو شهر، ومنحت إجازة لجميع أفراد السرية للذهاب إلى بيوتهم. وبالفعل ذهبوا". قال ويل ذلك وهو يضرب كفاً بكف. "لقد ذهبوا جميعهم فجأة إلى بيوتهم. كان على قيادة الجيش الوطني الأفغاني أن تدرك أن ذلك سيحدث. وأعتقد أنهم فعلوا ذلك فقط بهدف توجيه صفعة للنقيب آلان". كان ويل يتكلم وهو شبه ضاحك، ولكنه كان يهز رأسه.

قال ويل ضاحكاً، "خلال الأسابيع القليلة الماضية، لم يرجع سوى نحو 50٪ من الأفغان. وأخيراً أثار النقيب آلان زوبعة، وقال إن وزير الدفاع الفرنسي اتصل بوزير الدفاع الأفغاني "ورداك"، ولذلك وصلت مجموعة جديدة من الجنود الأفغان. وقام قائد الجيش الوطني الأفغاني في قندهار بإرسال مفرزة إضافية؛ لأن القائد الفرنسي أوقف عملياته حتى تتم إعادة مزيد من الجنود الأفغان إلى هنا لكي يكونوا كقوة رد سريع تابعة له. وهكذا نجد أن الفرنسيين لا يقومون بأي عمليات مطلقاً إذا لم تكن لديهم قوة رد سريع. والشيء ذاته ينطبق على قوة الإجلاء الطبي، والدعم الجوّي اللصيق. وإذا كانت حالة الطقس سيئة، ولم تكن حوامات الإجلاء الطبي متوافرة تحسباً لأي اشتباك، فعندئذٍ أيضاً يوقفون عملياتهم. وإذا لم تكن القدرات جاهزة لتوفير دعم جويّ لصيق ومستمر فوق رؤوسهم، فإنهم يوقفون العمليات أيضاً. وهم يجدون أسباباً لإيقاف العمليات أكثر من الأسباب التي تدفعهم إلى تنفيذ العمليات. وهذا يزيد الإحباط لدى رجالهم. لديهم جنود وضباط أعوان رائعون، وهؤلاء يريدون النَّيل من المتمردين. ولكن الضباط الكبار يخافون من رؤسائهم في باريس أكثر من خوفهم من مسلحي طالبان".

أجبتُه بشيء من التشكيك، "لن أقول لك شيئاً لا تعرفه مسبقاً، ولكن أليس من المفروض أن يكون العكس هو الصحيح؟ أليس من المفروض أن يكون الأفغان هم الذين يقومون بأعمال الدورية، والتفاعل مع الناس لكي يثبتوا لهم أن الحكومة الأفغانية والجيش الوطني موجودان، وهما في تزايد، ويقومان دائماً بجمع المعلومات الاستخباراتية المفيدة؟

إن الفرنسيين هم الذين يجب أن يكونوا جالسين في الخلف في قاعدتهم، ويكونوا جاهزين لمساندة الجنود الأفغان إذا دخلوا في معركة".

كنت قد ذهبت لمقابلة قائد السرية التابعة للجيش الوطني الأفغاني فور وصولي إلى هناك. وعندما قرعت باب مكتبه المصنوع من الخشب المعاكس والمجاور لمهاجع جنوده، فتح لي الباب "صبي الشاي" وهو فتى في الثانية عشرة من العمر يقدم الشاي ويقوم بالأعمال الخدمية الوضيعة؛ وابتسم وأشار لنا بالدخول. كان النقيب أسد الله جالساً إلى مكتبه المؤقت، وكان هناك رائد من الجيش الأفغاني يقف إلى جانبه ينظر إلى خريطة معلّقة على الجدار. دخلت وبصورة متعمّدة قدمت تحية عسكرية رسمية للرائد. شعر الرائد بالدهشة للحظة، عندما رأى أمريكياً بلحية طويلة ويرتدي اللباس العسكري نفسه المموّه الذي يرتديه هو، يقف أمامه ويقدم له التحية العسكرية الرسمية. ولكنه سرعان ما وقف وقفة استعداد ورد التحية. ونظراً إلى مشكلات الأفغان مع الفرنسيين وعدم احترامهم من جانب الفرنسيين، قررت على الفور، عندما رأيت الرائد، أن أقدم استعراضاً بسيطاً وأمنح الأفغان ما يستحقونه.

ردّ علي بابتسامة عريضة عندما حييته بالعبارة التقليدية "السلام عليكم".

رد أسد الله، "وعليكم السلام"، ومدّ يده لمصافحتي: "هل أنت النقيب مايك؟".

"نعم يا سيدي، هل تسمح لي بالجلوس والحديث معك للحظة؟ إذا كان مجيئي يقطع اجتماعكما، أستطيع القدوم في وقت لاحق".

قال أسد الله، "تفضل بالجلوس. لقد أخبرني الرقيب أول ويل أنك قادم، وأنا في انتظارك"، وأشار إلي بالجلوس على أريكة من البوليستر المزركش ومتعامدة مع مكتبه.

استأذن الرائد بطريقة مهذبة، وقال إن سائقه ينتظره في الخارج لكي يعيده إلى قندهار.

جاء "صبي الشاي" مع صينية عليها أقداح شاي أخضر ساخن، وعندما بدأ أسد الله يخبرني أن الرائد هو ضابط إمدادات قندقه (الاسم الأفغاني للفصيلة)، وأنهما كانا يناقشان خططاً لتسليم شاحنات "بيك-آب" جديدة من طراز فورد، نظراً إلى أن عدد الشاحنات التي لديه حالياً يكفي لنقل نصف رجاله فقط. وعلى نحو غير معهود بالنسبة إلى الأفغان، انتقل أسد الله مباشرة إلى النقطة الجوهرية.

"إن القوات الخاصة الفرنسية لا تقوم بتدريبنا. والكثير من رجالي التحقوا مؤخراً ولم يتلقّوا سوى التدريب الأساسي. والضباط الملازمون لديّ لا يتمتعون بمهارات متقدمة. ومن الجيد أن نحظى بمزيد من التدريب. فأنا أريد لرجالي أن يصبحوا مقاتلين أشداء". وأسد الله، الذي كان كالكثيرين من الأفغان يستخدم اسماً واحداً، ينتمي إلى قبائل البشتون من إقليم زابُل. وكان من غير المألوف إلى حد ما أن ترى بشتونياً من الجنوب ضابطاً في الجيش الوطني الأفغاني، نظراً إلى أن النسبة الكبرى من ضباط الجيش كانوا من قبائل الطاجيك من الولايات الشمالية في أفغانستان. فقد كان بسم الله خان رئيس أركان الجيش الأفغاني، طاجيكياً بارزاً ولديه خبرة طويلة في محاربة السوفييت في ثمانينيات القرن العشرين، وقد قام رويداً رويداً بتعيين الكثيرين من زملائه الطاجيك بمناصب قيادية في سلك الضباط. وبصورة عامة، كان الجيش الوطني الأفغاني يواجه صعوبة في تجنيد أفراد من الولايات الجنوبية؛ لأن تلك المنطقة كانت تحتوي على الكثير من القبائل التي تدعم حركة طالبان، أو ببساطة تعارض الحكومة. ونسبة كبيرة من البشتون الذين تم تجنيدهم كانوا من قبائل تقطن شرق البلاد وشمال شرقها. وكانت تلك المرة الأولى التي التقيت فيها ضابطاً أفغانياً من الجنوب فعلاً.

قال النقيب أسد الله وهو يقترب حتى لامست يده لحية ويل، "يدربنا ويل تدريباً كثيراً. وأنا أشكره جزيل الشكر، وأريد أن أقول لك إنه صديق جيد للجيش الوطني الأفغاني". وقال لي صراحة، "ليس كل الذين يطلقون لحاهم جيدين. بعضهم يريدون فقط قتل عناصر طالبان. الرقيب أول ويل يريد تدريب الجيش الأفغاني على قتل أفراد طالبان

بالنيابة عنه، ومن ثم يستطيع البقاء في الخلف هنا في القاعدة، ويطبخ شرائح اللحم". ضحك أسد الله على النكتة التي سردها هو بنفسه. "ولكن هذا لا بأس به. من الأفضل أن نذهب نحن للقتال. أفغانستان بلادنا، ونحن المسؤولون عن تحقيق الأمن هنا".

أجاب ويل، "هذا صحيح يا سيدي، من الأفضل أن ندرّبكم لكي تقوموا بالعمل بأنفسكم، بحيث نستطيع أن نعود جميعاً إلى أوطاننا، ونتناول وجبات كبيرة مع عائلاتنا".

وتابع أسد الله الحديث، "أنا أحب جداً التدريب على مدافع الهاون والرشاشات الثقيلة. نحن كتيبة أسلحة ثقيلة. مدفع الهاون سلاح جيد جداً لضرب متمردي طالبان في التلال. ولكنه معقّد ومن الصعب تعلّم العمل عليه، وهناك الكثيرون من جنودي غير متعلمين. إنّ ويل رجل طويل الأناة، ومعلم جيد جداً. الفرنسيون لا يكترثون بتعليمنا. وما زال القائد الفرنسي حتى الآن يمتنع ولو عن المجيء إلى مكتبي لتناول الشاي معي. ويرسل لي دائماً شخصاً ما عندما يحتاج إلى بعض رجالي. هذه ليست طريقة جيّدة للتعامل مع ضابط أفغاني في عقر داره. أعتقد أنهم يحسبون أننا ما نزال إحدى مستعمَراتهم".

فعلت كل ما في وسعي، للدفاع عن شركائنا الفرنسيين في التحالف، ولكن كما كان واضحاً بصورة جلية، لم يكن قلبي مؤمناً بذلك الدفاع عنهم. وعندما كانت قوات الناتو تتدفق بصورة متزايدة نحو ولايات جنوب أفغانستان، مع التحول الاستراتيجي الأوسع من الجهود التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية إلى إيساف بقيادة حلف الناتو، أصبح التوتّر بين الجنود الأوروبيين والجيش الوطني الأفغاني مشكلةً كنت أشهدها باستمرار. وكان الأوروبيون إما لا يكترثون بأن يكونوا شركاء حقيقيين مع الأفغان في العمليات، أو أنهم لا يعرفون كيف يقومون بذلك. في الجانب الدفاعي، كان الأوروبيون حديثي العهد بهذا المفهوم، في حين أننا خبرنا هذا النوع من الحروب لسنوات عدة. ومن المسلّم به، أنه كان من الأسهل بكثير أن نقوم بالعمليات وحدنا عندما يتعلّق الأمر بتنفيذ المهام. إن معظم الجنود الأفغان كانوا أميّين، وبخلاف "أسد الله" كان الكثير من الضباط الأفغان يفضلون الجلوس في الخلف بأمان في مكاتبهم، بدلاً من الذهاب في مهام الدورية

إلى المناطق النائية من أفغانستان. وكان بعض الأفغان منشغلين بسرقة الإمدادات، أو بيع البنزين في السوق السوداء، أو استخدام سلطاتهم لإبرام صفقات تجارية، أكثر من انشغالهم بقيادة جنودهم. ولكن بالنسبة إلى قوات التحالف، لم يكن الحل يكمن في تجاهل المشكلة أو تحويلها إلى مجموعة صغيرة من المدربين المرافقين. إن معظم وحدات الجيش الوطني الأفغاني التي صادفتها كانت تتوق إلى إثبات جدارتها، وكانت تعرف نقاط ضعفها. وأنا وجدت أنه كلما عاملتهم باحترام وعلى قدم المساواة وازدادت الجهود المتوقعة منهم، كان أداؤهم أفضل.

في ذلك الصباح البارد في إبريل من عام 2006، كان رجال النقيب "أسد الله" جاهزين فعلاً خلال 20 دقيقة، ولكن لم يكن لديهم سوى أربع شاحنات بيك-آب صالحة للعمل.

"هل أنت جاهز يا سيدي؟" سأله ويل بينما كان يرمي لي صندوقاً من المؤن الفرنسية. "هل تريد أن تكون على الرشاش أو تقود السيارة؟". في الحالات النموذجية يجب أن يكون هناك على الأقل ثلاثة عناصر في مركبة الهامفي: سائق، ورامي الرشاش الثقيل على البرج، وشخص ثالث على كرسي الراكب لكي يشغل جهاز اللاسلكي ويكون قادراً على النزول من العربة عند الضرورة. في ذلك اليوم لم يكن هناك سوى ويل وأنا وكنا ذاهبين في دورية مع الجيش الوطني الأفغاني.

قال ويل بعد تشغيل الشاحنة: "إذا كنا محظوظين فسوف نحتل نقطة التفتيش التابعة لحركة طالبان، أو نقيم نقطة تفتيش خاصة بنا على المدخل المؤدي إلى وادي معروف، وسوف يهاجمنا مقاتلو طالبان. على الأرجح رحل مقاتلو طالبان منذ وقت طويل، ولكن مهما يكن الوضع، فسوف يكون من الجيد أن يتم تكليف الجيش الوطني الأفغاني بمهام خارج القاعدة، وإرساله لتنفيذ عمليات أمام أعين المواطنين المحليين".

سألته بينما كنت أصعد إلى برج المركبة ذي الرشاش الثقيل عيار 0.50 بوصة: "هل تريدني أن أخبر النقيب آلان؟".

"كلا. لقد مررت عليه وأطلعته على طريقنا المحتمل على الخريطة. يوجد لدى مركز الاتصالات جميع المعلومات الخاصة بنا، ويمكنهم تعقبنا على جهاز تعقب القوة الزرقاء". وهذا الجهاز عبارة عن جهاز لتحديد المواقع بالأقمار الصناعية GPS حجمه بحجم علبة الحذاء ويتم تركيبه في كل عربة لتمييز الصديق من العدو. "سوف يرسلون المعلومات الخاصة بنا إلى فريق العمليات الخاصة المشتركة المختلطة. وطوال نصف الوقت كانوا يغفلون تماماً عن وجودنا هنا، لأننا من الناحية التقنية لسنا مفرزة عمليات ألفا عملياتية. مع وجود اثنين منا فقط يتجولان مع سرية من الجيش الوطني الأفغاني، كدنا نكون خارج شاشة رادارات فريق العمليات الخاصة المشتركة المختلطة. تماماً كما كنا نريد". قال ويل مبتسماً.

كنا غير مقيدين على الإطلاق؛ وكانت لنا الحرية الكاملة لمعالجة المشكلات في تلك المنطقة وفق ما نراه ملائماً. في فترة خدمتي اللاحقة عام 2009، كان مطلوباً من كل فريق تحضير عرض "باور بوينت" لمجرد الخروج من القاعدة. وبالمقارنة مع هذه البيئة المقيّدة، كنا نتمتع بدرجة رائعة من الاستقلالية.

في حين كنا نتجه بعربة الهامفي نحو البوابة، شاهدنا الجيش الوطني الأفغاني يتحرك خلفنا في ثلاث شاحنات "بيك-آب" من طراز فورد مموّهة.

قلت: "ظننت أنه سيكون معنا أربع سيارات بيك-آب مسلحة للجيش الوطني الأفغاني".

أجابني ويل: "أنا أراهن على أن "أسد الله" قرر إبقاء واحدة في الخلف لنفسه أو لحالات الطوارئ. بكل تأكيد لقد بدأنا نتخطى حدود الخطر، نظراً إلى المسافة البعيدة التي سنقطعها. ولكنني أعتقد أن وضعنا سيكون جيّداً مع وجود ثلاثة".

خرج الملازم المرافق لقوة الجيش الوطني الأفغاني لكي يرحب بنا. وكان يرتدي القبعة ذات اللون الأخضر الفاتح المميزة الخاصة بالجيش الوطني الأفغاني، ومن الواضح أنه كان فرداً من قبائل الهزارة، ذا ملامح منغولية قوية برزت بين الأفغان الآخرين.

والهزارة تاريخياً هم أقلية مضطهدة، وخاصة من قبل طالبان، ولكنهم يميلون إلى أن يكونوا الشريحة الأكثر تعليماً وجداً في العمل بين الأفغان الذين تعاملنا معهم، وهذه هي الصورة النمطية السائدة للكثير من الأقليات في الدول النامية. سارع الملازم وقدم وصفاً تفصيلياً بطريقة احترافية عالية عن وضع رجاله وعتادهم، ثم أكّد لنا أن رجاله لديهم مؤونة تكفيهم لثلاثة أيام. وكان يتم احتساب كميات الطعام والماء التي يحتاج إليها كل جندي في اليوم الواحد، ثم يُضرب الرقم في عدد الأيام التي سنكون فيها بعيدين عن القاعدة، وكانت هذه الحسابات تمثّل مشكلة دائمة بالنسبة إلى الجيش الوطني الأفغاني. وكنت دائماً أجلب معي مبلغاً كبيراً من العملة النقدية الأفغانية تحسّباً لحاجتنا إلى شراء الطعام من السوق المحلية.

قال ويل بينما كان الملازم يتّجه عائداً إلى شاحناته: "دائماً ما تضحكني رؤية كمية النفاية التي يكدسها الجيش الوطني الأفغاني في مؤخرة الشاحنة". كانوا يكدسون في صندوق الشاحنة البطانيات، وصناديق المواد الغذائية الأمريكية، وعبوات المياه، وحقائب ظهر أمريكية من الطراز القديم. وفوقها فرشات إسفنج مغطاة بشراشف عليها شعارات فريقي كرة القدم الأمريكية "نيوإنجلاند بيتريوتس"، و"بيتسبيرغ ستيلرز"، وفيلم "حرب النجوم"، وكان من الواضح أنهم حصلوا عليها من إحدى الوحدات الأمريكية. وكان الجنود الأفغان متجمعين فوق أمتعتهم وأرجلهم تتدلى على جانبي الشاحنة. وقد تمكنوا بصعوبة من البقاء في الشاحنة من الخلف بينما كانت تعبر بعض الطرق الأشد وعورة التي عبرتها، وكان عبورها بالنسبة إليّ تجربة كريهة. وفي كل شاحنة كان يوجد رشاش متوسط أو ثقيل مركّب على وتد خلف كابينة السائق، بحيث يستطيع شخص ما أن يقف في صندوق الشاحنة ويطلق الرصاص بغزارة. وكان هناك الرشاش الثقيل الروسي الصنع من طراز دوشكا الذي يطلق رصاصاً من عيار 12.7 ملم ويُعتبر معادلاً تقريباً للرشاشات الأمريكية الثقيلة من عيار 0.50 بوصة الموجودة على عربات هامفي المصفحة والدبابات الأمريكية. وصوت رشاش الدوشكا مميّز جداً، وبالتأكيد لم نكن نريد أن يكون موجهاً نحونا؛ كان لدى مقاتلي طالبان السلاح نفسه.

كان الجيش الوطني الأفغاني موضع تقدير وإعجاب خلال رحلتنا الطويلة نحو الشمال من القاعدة الفرنسية إلى "وادي معروف". وكانت الشاحنات تترك مسافات مناسبة بين الواحدة والأخرى، بحيث لا تكون متجمعة في حال تعرضها لكمين. وكنا نحن في العربة الثانية من القافلة، لكي نسمح لنطاق الوقاية، الذي يوفره جهاز التشويش على العبوات الناسفة التي يتم التحكم فيها عن بعد وتحييدها، بأن يغطي العربة الأولى للجيش الأفغاني. وقد ظهرت العلامة الأخرى على كفاءة تدريبات ويل، في تصرفات الجيش الأفغاني كلما كانت تتوقف القافلة. في كل مرة، كان يقفز الجنود الأفغان من مؤخرة الشاحنة بطريقة منظمة، ويفكون الحبال المطاطية التي تثبت الرشاشات المركبة على الشاحنة في أماكنها، ويوجهون الرشاشات في قطاعات نارية متعاكسة، بالتنسيق مع الشاحنات الأخرى، بحيث تتم تغطية جميع الاتجاهات من حولنا. وكان الجنود الأفغان يوقفون الشاحنات والسيارات القادمة بصورة عشوائية لإجراء تفتيش سريع. وكانوا يضبطون حركة السكان بواسطة حواجز التفتيش في محاولة لاعتراض تحركات المتمردين، وكان هذا يُعدُّ تكتيكاً مهماً في محاربة المتمردين. كنت أفضّل نقاط التفتيش المتنقّلة على الثابتة، لأنه كان من الصعب تفاديها، وكانت تترك شعوراً بالشك في عقول المتمردين. أما في نقاط التفتيش الثابتة، فخلال ساعة واحدة من إنشاء الحاجز تجف حركة المرور وتصبح نادرة؛ لأن وجود نقطة التفتيش أصبح معروفاً للجميع. واصلنا طريقنا على طول قاع النهر الجاف الذي كان يُستخدم كطريق يؤدي إلى "وادي معروف"، وكنا نقيم نقاط تفتيش متنقلة ومفاجئة طوال الساعات المتبقية من اليوم. ولم نشاهد أي علامة على دورية لطالبان.

أخيراً وصلنا إلى ثكنة فرنسية نائية ومتهالكة تقع بجانب سوق صغير ومخفر شرطة مديرية معروف في وسط الوادي. وكان هناك برج مراقبة بجدران من الطين على أحد جانبي البوابة، مع أكياس رمل، ورشاش في أعلى البرج. وعندما أوقفنا عرباتنا في ساحة المبنى الطيني المصمّم على شكل حرف L، ظهر جندي فرنسي، وشعره مصفف بأفضل تسريحات الشعر القتالية التي رأيتها قبل ذلك أو بعده: تسريحة أفرو بشعر أشقر كثيف ذي جدائل كانت تبدو وكأنه تعرض لصعقة كهرباء. وكان عثنونه (السكسوكة)

القذر الأشقر أيضاً مثيراً للإعجاب. تجمّعنا حول الخريطة على غطاء محرك مركبة الهامفي الخاصة بنا، وقدم الجندي الفرنسي تقريراً مختصراً لنا بلغة إنجليزية ركيكة وبلكنة فرنسية، حول ملاحظاته ومشاهدته الاعتيادية لشاحنات تحمل رجالاً مسلحين وتعبر الوادي.

كان يشاهدهم اعتيادياً بوضوح بواسطة المنظار البعيد المدى من المنحدر الصخري شمال البلدة. سألته لماذا لم يشتبكوا معهم. أجاب وكان من الواضح أنه يشعر بالإحباط: "ليس لدينا إذنٌ من قيادة مجموعة العمل الفرنسية".

سألته، لماذا لم يطلب شن ضربة جوية إذا كان من الواضح أنهم مقاتلو طالبان وينتقلون من باكستان إلى داخل أراضي أفغانستان. وشعر الجندي الفرنسي بمزيد من الإحباط، وقال موضحاً لنا: "إن قواعد الاشتباك المعطاة لنا لا تسمح للطائرات بإسقاط قنابل فعلاً إذا لم يكن الطيار قادراً على رؤية أن الرجال مسلحون. وحتى لو قلت له إنني أستطيع رؤية أسلحتهم، لما سمح للطيار بذلك. وهكذا، فإن الطائرات الفرنسية تحلق غالباً على ارتفاع منخفض جداً عبر الوادي في استعراض للقوة".

سألته إذا ما كان يتعاون مع الشرطة الأفغانية المجاورة له، فتذمر قائلاً: إنهم كسالى وفاسدون. كما أنه كان يعتقد أن قائد الشرطة عقد صفقة مع الزعيم المحلي لحركة طالبان، لأن الاثنين كانا من قبيلة نورزاي نفسها المنتشرة على جانبي الحدود. وأعرب عن أسفه لمشاهدة مجموعة من رجال طالبان عند نقطة تفتيش سحبوا رجلين من سيارتهما، وقاموا بضربهما بواسطة أعقاب البنادق والأحذية. وقال بألم "لقد شاهدتهم أمام عيني، وكان مفروضاً عليّ أن أراقب فقط".

وتابع قائلاً: لقد تحولت رغبة القيادة الفرنسية في السماح للجنود الفرنسيين بالاشتباك من ضعيفة إلى معدومة، إثر موت أحد عناصر الكوماندوز التابعين للبحرية الفرنسية، واسمه لويس لو باج. وكان لو باج قد قُتل قبل بضعة أشهر عندما كانت

وحدته تطارد مجموعة من مقاتلي طالبان؛ ولأنه كان ابن جنرال فرنسي، فقد جذبت الحادثة اهتماماً كبيراً لدى وسائل الإعلام في فرنسا. "وكلما قلّ تدخل الصحافة كان الوضع أفضل بالنسبة إلى الضباط. وأي حادثة تسلط الضوء والاهتمام على «فريق القوة الخاصة الفرنسية أريس» تجعل الناس يتساءلون حول أسباب وجودنا في أفغانستان أيضاً".

وأستطيع القول: إن أسئلتي كانت تثير غضبه، ولذلك تراجعتُ وسألته إذا كان لديه مانع لو ذهبت وقدمت نفسي إلى قائد الشرطة الأفغاني.

"حظاً طيباً"، قال لي وهو ينصرف بسرور مع ست حزم من الصودا كان ويل قد جلبها له. وبالمقارنة مع قاعة الطعام الفرنسية المجهزة تجهيزاً جيداً بالمؤن في قاعدة سبين بولداك، فإن هؤلاء الجنود كانوا يعيشون في ظروف قاسية.

دُهشت لحالة الحزن التي تسود المعسكر. وكانت سيارات اللاند روفر المكشوفة التي يستخدمها عناصر الكوماندوز الفرنسيون قديمة ومتهالكة. جلست في واحدة منها، وكان جهاز اللاسلكي يبدو وكأنه من بقايا حرب فيتنام. ولم يكن يضاهي أجهزة اللاسلكي التي لدينا بأي شكل من الأشكال. اختلست النظر إلى غرفة اللاسلكي الصغيرة في القاعدة الفرنسية، فكان الانطباع نفسه. وتذكرت الانتقادات التي سمعتها في البنتاجون حول النفقات الدفاعية الزهيدة لحلفائنا الأوروبيين وأعضاء الناتو.

كان مجمع مخفر الشرطة نموذجاً عن بقية المخافر الموجودة في أفغانستان. المبنى الرئيسي أبيض اللون، وكان الدهان يتقشر ويتساقط عن الجدران المبنية من قرميد مغطى بالجص. وفي أماكن متعددة، كانت قطع القرميد مكشوفة. وكانت هناك ساحة كبيرة قذرة تحيط بالمبنى، والمنطقة بأكملها مسوّرة بجدار من الطين بارتفاع ثماني أقدام، مع أبراج مربعة الشكل على كل زاوية. وكانت أكياس الرمل مكدّسة على كل برج، ولكن الأمر الغريب كان أن الزاوية المقابلة للقاعدة الفرنسية هي الوحيدة التي كانت مأهولة. وهنا تذكرت اشمئزاز الجندي الفرنسي عندما ذكرتُ الشرطة الأفغانية، وفكّرت في مقدار

المشاعر السيئة المتبادلة التي لا بد من أنها موجودة إذا كان برج الحراسة الوحيد المأهول التابع للشرطة، هو المقابل للقاعدة الفرنسية. كنت أستطيع رؤية رشاش البي كي سي على قائمتيه، وكان هناك رجلان يرتديان الزي الأفغاني (السروال والقميص) يحدقان بنا. وفي ساحة المخفر كانت هناك شاحنتان بصندوق مسطح مكشوف تنذران بالشؤم، وعلى كل واحدة منهما كان يوجد مدفع رشاش ثنائي السبطانة مضاد للطائرات؛ حيث كان المدفع مركباً على برج خاص على صندوق الشاحنة. وحتى من مسافة بعيدة، استطعت أن أرى أن ذلك المدفع صدئ جداً إلى درجة كنت واثقاً بأنه لا يعمل. ولكنني عرفت أيضاً أن هذه الأنواع من الأسلحة الثقيلة كانت تُستخدم كأشياء تذكارية وكدليل على المكانة الرفيعة أكثر من كونها معدات حربية مفيدة في المعارك. في أحد أطراف الساحة، كان يوجد مبنى عريض ومنخفض له أربعة أبواب صغيرة، وبسبب الرائحة النتنة المنبعثة منه عرفت أنه المرحاض الخارجي. وإلى جانبه كانت هناك حفرة كبيرة يتم فيها تكديس النفايات. والأمر المؤثّر أكثر من المرحاض وكومة النفايات، هو الرائحة المميّزة للحشيش الذي يتم تدخينه في مكان من مقر الشرطة.

خرج من الباب الرئيسي رجل كان واضحاً من طريقة مشيته المتباهية أنه "القائد" وتوقف في أعلى الدرج، ووضع يديه على وركيه، واتجه نحونا ليرحب بنا بينما كنا ندخل من البوابة الحديدية.

كنت أقول بيني وبين نفسي: "لا بد من أنك تمازحني". كان كمن خرج لتوه من فيلم هوليوودي رديء. لا بد من أن طوله كان خمس أقدام، ولكن قبعته الكبيرة جداً أضافت إلى طوله قدماً آخر. وكانت حافة القبعة منخفضة على عينيه، وكان يرتدي نظارة شمسية سوداء من طراز نظارات الطيارين. وكان هو الرجل الوحيد الذي رأيته يرتدي الزي الرسمي الأزرق للشرطة الوطنية الأفغانية، باستثناء أن بنطاله كان مدسوساً داخل جزمة فروسية سوداء طويلة تصل إلى ركبتيه، وكان يرتدي حزاماً جلدياً أسود فوق كرشه البارز. وبالمقارنة مع غوغاء العناصر المشتتين في أرجاء الساحة والمبنى المتهالك،

فإن هذا الشخص الذي يبدو كنسخة مصغرة عن الجنرال جورج باتون، كان شكله سخيفاً. وأومأ بإصبعه إلى أحد مساعديه في الداخل، بينما كنا نقترب من الدرج. كان وجهه صارم الملامح من وراء النظارات، بينما كان يوجهنا لندخل إلى غرفة اجتماعات بسيطة.

كانت جدران الغرفة مغطاة بعدد من قطع السجاد الحمر والسود، وكانت هناك مساند ووسائد مفروشة في محيط الغرفة. وكانت هناك نافذة في أحد جدران الغرفة. وعلى أحد الجدران كان هناك رف مرتفع وعليه لفافات مستندات مكدّسة حتى السقف. وعلى الجدار المقابل للنافذة كانت توجد خريطة للمديرية مرسومة باليد، وكُتبت عليها أسماء القرى والجبال الرئيسية بلغة البشتو. وكان ذلك مؤشراً إلى حالة تجهيزات الشرطة الأفغانية؛ حيث إن قائد الشرطة لا يمتلك حتى خريطة لائقة لمديريته.

تبادلنا المجاملات المعتادة، وسألته عن أحوال أسرته. وبصرف النظر عن كون ذلك من الأعراف الثقافية في منطقة الشرق الأوسط وجنوب آسيا أو لا، فإن هذه الأسئلة الشخصية تعطي مؤشراً جيداً إلى الوضع الحقيقي للأمن في المنطقة. فإذا شعر قائد الشرطة، أو حاكم الولاية، أو أي مسؤول حكومي آخر، بالاطمئنان وجلب أفراد أسرته ليعيشوا معه في المديرية الواقعة تحت مسؤوليته، فهذا مؤشر جيد يدل على أن المنطقة آمنة إلى حد ما. ولكن لسوء الحظ، في أغلب الحالات، نجد أن أفراد عائلات المسؤولين كانوا يعيشون في عاصمة الولاية، أو في مدينة بعيدة، مثل كابول، بسبب توافر الأمن هناك.

لم يكن الأمر مستغرباً عندما علمنا أن أفراد عائلة قائد الشرطة يعيشون في قندهار. وبعد برهة سألني عمّا أتى بنا إلى هناك.

أوضحت له، "يا سيدي، لقد جئت من سبين بولداك مع مفرزة الجيش الأفغاني استجابةً لتقارير تفيد بوجود دوريات لمقاتلي طالبان تتحرك بحريّة ويقيمون حواجز تفتيش في المنطقة بشكل منتظم".

كان قائد الشـرطة يتكئ على الجدار وهو ما يزال يلبس قبعته الكبيرة الحجم، ثم وقف باستقامة وبجسم مشدود. رد على كلامي بخطاب استغرق 20 دقيقة، حول تاريخ حركة طالبان في منطقة "وادي معروف" خلال السنوات القليلة الماضية، ثم استغرق 10 دقائق أخرى وهو يصف كيف قام هو ورجاله بقتل عشرة رجال من طالبان، بينهم اثنان من القياديين، بعد أيام فقط من وصوله إلى المخفر في السنة الفائتة. وكان مترجمنا يجد صعوبة في مواكبة حديث قائد الشـرطة، لأنه نادراً ما كان يتوقف ليتيح للمترجم فرصة لتجميع أفكاره.

وعرفت من أحاديثي مع ويل ومن الموجز الذي تلقيته من ضابط الاستخبارات الفرنسية أن هناك سيلاً متواصلاً من المتمردين يتدفقون من باكستان إلى قندهار عبر الوادي الممتد من الشـرق إلى الغرب وهو الموازي للطريق الرئيسـي السـريع المؤدي إلى مدينة قندهار. وقلت لنفسـي: "هذا الرجل مليء بالتفاهات وهو يدرك ذلك".

في النهاية طرحت المسألة بصورة مباشـرة: "هناك شائعات في سبين بولداك تقول إن الشـرطة في وادي معروف أبرموا تفاهماً أو اتفاقاً مع مقاتلي طالبان بعدم مضايقة بعضهما بعضاً. وقيل لي إن مخفر الشـرطة هذا لم يتعرّض لأي هجوم من طالبان، ولكن القاعدة العسكرية في آخر الشارع تعرّضت لهجمات طالبان مرات عدة".

سـرح قائد الشـرطة بنظره للحظات، ثم خلع نظارته الشمسـية ببطء، وطواها، ووضعها في جيبه، من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، ثم خلع قبعته ووضعها على الوسادة المجاورة له. وشاهدت المترجم يسترق النظر إلى الشـرطي الواقف عند الباب ويحمل بندقية كلاشنكوف. لم ألبس الدرع المضادة للرصاص على صدري، كعلامة تدل على الاحترام والثقة. إضافة إلى ذلك، كنت أكره الجلوس على الأرض وأنا ألبس الدرع، لأنها كانت تضغط بشدة على أعلى الساقين. والآن تمنيت لو أني كنت ألبسه، وأنا أتساءل بيني وبين نفسـي: إلى أي حدٍّ تجاوزت حدودي؟ وكيف سأتمكّن من شق طريقي للخروج من ذلك المكان، وليس معي سوى مسدسـي؟

قال قائد الشرطة باللغة الإنجليزية وبلكنة بريطانية: "أنت لا تفهم طبيعة الصراع هنا، يا حضرة النقيب. لقد كنت أتحدّث بلغة البشتو من أجل رجالي الجالسين هنا معنا، ولكن دعنا الآن نتحدث باللغة الإنجليزية".

فكّرت بيني وبين نفسي؛ "ابن العاهرة". من الواضح أنني قللت من شأن هذا الرجل.

قال لي: "أنا من قبيلة نورزاي. ورجال قبيلة النورزاي كانوا يسيطرون على وادي معروف وسبين بولداك إبان حكم طالبان. كانوا يسيطرون على المعابر الحدودية بين البلدين. وكانوا يتحكّمون في كل شخص وكل شيء يأتي ويذهب من شامان إلى قندهار. والأهم من ذلك كله، كانوا يتحكمون في الرسوم الجمركية. عندما جئتم أيها الأمريكيون وطردتم المجاهدين من المنطقة، ولّيتم أكبر خصومنا وهم قبيلة أشاكزاي، المسؤولية عن المعبر الحدودي في سبين بولداك".

أجبته قائلاً: "لا أعتقد أننا كنا في الواقع نفضّل قبيلة على أخرى. ولا أعتقد أننا حتّى نعرف أحداً من أحد إلى الآن". وواجهته بالقول "هذه مشكلتكم الكبرى يا صديقي. أنتم جاهلون. تظنون أن الحكومة جيّدة، وحركة طالبان شريرة. الحكومة ليست جيّدة. والحكومة أسوأ من طالبان في كثيرٍ من الحالات. ولذلك عندما تدخلون قرية مع بعض رجال الشرطة الذين ينحدرون من قبيلة منافِسة اعتاد رجالها أن يسرقوا سكان تلك القرية، فإن الناس سوف ينظرون إليكم بعين الكراهية. أنتم تظنون أنكم تساعدون القرويين، ولكن بسبب جهلكم فأنتم تصطفّون إلى جانب الأشخاص الذين يسيؤون إليهم. في أفغانستان نعتبر أن صديق عدوي هو بالتأكيد عدوي". ثم أضفت "أنتم وضعتم غول آغا شيرزاي مسؤولاً عن قندهار، وهو بدوره عيّن تابعه المخلص له عبد الرازق مسؤولاً عن سبين بولداك، وأصبح عبد الرازق الآن غنياً جداً، ويتحكم في الرسوم الجمركية. لقد هاجم قبيلة نورزاي، وهو يقول لكم وللفرنسيين إن نورزاي هم طالبان. ولذلك، إذا لم يكن هناك أي فرد من نورزاي يعمل مع طالبان، فهم الآن أصبحوا

يعملون معهم. أنت تقول إن هناك سيلاً من مسلحي طالبان يتدفقون من باكستان إلى قندهار عبر هذا الوادي الواقع تحت مسؤوليتي. من يخبرك بذلك؟ عبد الرازق؟ إن الكثيرين من هؤلاء الذين يُطلق عليهم اسم طالبان هم رجال أعرفهم شخصياً. هم من قبيلة نورزاي. هم يتاجرون ببضائع مختلفة في الاتجاهين مع باكستان. لماذا سيأتون إلى أفغانستان عبر سبين بولداك ويسيرون على الطريق العام السريع-4 إلى قندهار؛ فقط ليدفعوا المال لرجال عبد الرازق في نقاط التفتيش؟ وبدلاً من ذلك هم يسلكون هذا الطريق، عبر "وادي معروف". أنا أعرف الفرق بين رجال القبائل المسلحين، ورجال طالبان، ولكن أنتم يا صديقي، لا تعرفون".

التقيت أنا وويل مؤخراً قائد شرطة الحدود السيئ الصيت العدواني والمتنفّذ جداً العقيد عبد الرازق. وقد فوجئنا بأنه رجل هادئ ذو ملامح طفولية بالنسبة إلى رجل كان يُتهم بأنه أحد لوردات الحروب، ويسيطر على المعابر الحدودية المغرية بقبضة من حديد. كان شعره يبرز وسط جبهته على شكل حرف V، وكان يلبس القبعة التقليدية على الجزء الخلفي من رأسه. وكان يبتسم بسخاء وهو يرحب بنا، وكانت هناك برودة في عينيه. كان فرداً من قبيلة أشاكزاي، وكان متحالفاً بشكل وثيق مع غول آغا شيرزاي، حاكم المقاطعة السابق، الرجل القوي والحليف القديم لعائلة كرزاي. لقد سمعنا شائعات متكررة عن رجاله وهم يذبحون مجموعة من رجال "طالبان" من قبيلة نورزاي. سألته مباشرة عن هذه الحادثة، وانطلق في خطاب لمدة 30 دقيقة عن تاريخ قبيلة نورزاي والتطرّف، وقال بعد ذلك ساخراً إن حملات التشهير كانت رياضة وطنية شائعة في أفغانستان. وخلال الحديث الطويل معه فكرت في عدد من الأشياء: كم سيستغرق الأمر حتى يتم إصلاح الرجال من أمثال عبد الرازق أو طردهم؟ إلى أيّ مدى كنا بحاجة إلى الخروج من قواعدنا المحصّنة لكي نعرف ما يجري على الأرض حقاً؟ وكيف أن الأوروبيين لم يتمكّنوا من أخذ الوقت اللازم أو القيام بالمخاطرة الضرورية للقيام بأي من هذه المهام، وخاصة على الحدود الباكستانية الصعبة؟

واصل القائد الأفغاني حديثه، والانزعاج يبدو واضحاً عليه، "الآن، للإجابة على سؤالك، فإن أي صفقات أُبرمها مع إخوتي في قبيلة نورزاي لا تختلف عن الصفقات التي تبرمونها أنتم –الأمريكيين– مع باكستان. أنا أبرم صفقات مع قبيلتي وعشيرتي. نعم بعضها ربما ينحاز إلى طالبان. ولكن هذا الانحياز لطالبان يظل على مستوى صغير جداً وضيق ومحلي جداً. وهو ليس ذا أهمية؛ إنما الصفقة التي تبرمونها مع الجيش الباكستاني، ومع الاستخبارات الباكستانية، جهاز المخابرات الباكستانية، فهنا يجب أن تكمن مخاوفكم. هذه قضية كبرى واستراتيجية؛ طوال الوقت يقوم الباكستانيون بإرسال بنجابيين ورجال طالبان حقيقيين – أجانب – إلى هنا لخلق المشكلات. إن جهاز المخابرات الباكستانية يعطيهم المال والسلاح والتدريب ويساعدهم على وضع الخطط، والولايات المتحدة تعطي الجيش الباكستاني ملايين الدولارات الأمريكية. وأعتقد أن حكومتك أبرمت صفقة مع جهاز المخابرات الباكستانية. شروط الصفقة تتطلب من باكستان تسليمكم عناصر القاعدة، وأن يتعهّد الباكستانيون بعدم استخدام الأسلحة النووية ضد الهند. إذا نفّذوا ذلك لكم، يستطيعون السيطرة على أفغانستان مرة ثانية".

حاولت أن أعترض على ما يقول، ولكنه واصل كلامه.

"وما الوضع بالنسبة إلى الأوروبيين؟ هم ليسوا مهتمين بالقتال. الفرنسيون يحبون الطعام والأزياء. أنتم عقدتم صفقة مع جهاز المخابرات الباكستانية، وتركتم مستقبل أفغانستان للأوروبيين، بحيث تنقذون ماء وجهكم بينما تلهثون وراء النفط العراقي. أفغانستان ليس فيها نفط، ولم يعد فيها أفراد من القاعدة، ولذلك لم تعد أمريكا مهتمة بها قط.

ثم قال، وهو يشير بإصبعه إليّ، "لا يجوز أن تأتي إلى هنا لتلقي عليّ محاضرة عن الصفقات، يا صديقي".

لقد تنمّر علي هذا الطاغية الصغير. إن قدميّ والجزء الأسفل من ساقيّ كانت جميعها شبه مخدرة بسبب الجلوس على الأرض متربّعاً لساعات طويلة. وكانت مثانتي على

وشك الانفجار لأنني شربت ستة أكواب من الشاي. تمتمت ببعض الإيضاحات حول الطبيعة المعقّدة لعلاقتنا مع باكستان. وكانت شكاواه صورة نمطية عما سمعته من كثيرين من الأفغان. وعلاقتنا مع باكستان لم تكن لها مسوغات منطقية، ولذلك كثرت نظريات المؤامرة لتفسير تلك العلاقة.

وقال، وهو يومئ إلى صبي الشاي ويشير إلى إحدى اللفافات الورقية على الرف، "أريد أن أريك شيئاً".

قام صبي الشاي بإزالة أكواب الشاي وصحون المكسرات من وسط السجادة، بينما كان القائد يفتح لفافة تبين أنها خريطة للمدينة مرسومة باليد. "أنت تعرف كويتا"؟

أجبته: "بالطبع".

سألني: "أنت تعرف الملا عمر والملا برادار وعبيد الله؟"، وهو يقصد زعيم حركة طالبان ورجلين يُعتقد أنهما الرجلان الثاني والثالث في التنظيم. "أنا أريك الآن أين يعيشون. أعرف مكانهم جيداً. لدي أقارب هناك. لقد عشت هناك سنوات وأعرف هذه المنطقة جيداً". أشار إلى تقاطعين مختلفين وإلى ما بدا كطريق مسدود، بينما كان يخبرني أين يعيش كل واحد من هؤلاء الرجال. "الجميع يعرف أنهم هناك. وهذا ليس سراً كبيراً. ولكن وضعهم شبيه بالمافيات لديكم. هم يهتمون بالناس في مجتمعاتهم، والباكستانيون يغضون الطرف عنهم".

وأضاف "لماذا لا تستطيع أمريكا قتل هؤلاء الرجال؟ أنتم تستطيعون فعل أي شيء. تستطيعون أن تضعوا أناساً في الفضاء. ولا بد لأي شخص مثقف أن يستنتج أن أمريكا لا تريد موت هؤلاء الرجال. وإذا أخذت في الاعتبار هذه الحقائق إلى جانب تعاون حكومتكم مع الجيش الباكستاني، فإن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن للمرء أن يتوصل إليه هو أنكم تريدون السيطرة على أفغانستان".

أجبته، وأنا أختار كلماتي بعناية: "يا سيدي، أستطيع أن أؤكد لك أن الأمريكيين لا يريدون السيطرة على أفغانستان. فالمواطنون الأمريكيون لا يريدون لأزواجهم وأبنائهم أن يأتوا إلى هنا على مسافة آلاف الأميال بعيداً عن عائلاتهم. أنت محقٌّ يا صديقي، هناك بعض الصعوبات بشأن علاقاتنا مع باكستان. ولكن يجب أن تقرروا كيف تريدون أن تتعاملوا معنا".

وقلت له، وأنا أمد راحة يدي اليسرى بعيداً عن جسمي، "في الجهة الأولى الأفغان يقولون إن الأمريكيين تخلوا عن أفغانستان بعد أن قام المجاهدون بإلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي في الثمانينيات من القرن العشرين. ويقولون إن أمريكا لم تمكث هنا بعد رحيل السوفييت لتساعد في إعادة بناء أفغانستان"، ثم مددت راحة يدي اليمنى وقلت له، "وفي الجهة الثانية، نحن هنا الآن لنساعدكم، ولكن الناس يقولون إن الأمريكيين جاؤوا هنا كمحتلين ويجب أن يرحلوا. شخصياً أنا أعتقد أن مستقبل أمريكا ومستقبل أفغانستان سيكونان هكذا"، قلت ذلك وأنا أقرّب يديّ حتى تلاصقتا، "وسوف نكون معاً طوال السنوات الخمسين المقبلة، حتى تصبح أفغانستان قوية بصورة كافية لمقاومة كل هذه المجموعات وجيرانها الذين يعملون ضدها، ويجب أن نكون موجودين هنا لكي نستطيع المساعدة".

مشيت أنا والقائد إلى الخارج. ومن الواضح أنه كان فخوراً جداً بمدفعه الرشاش المضاد للطائرات ذي السبطانتين الروسي الصنع الذي كان في حوزته، وطلب مني أن أقف عليه لأخذ صورة تذكارية، وعندما صعدت إلى برج المدفع استطعت أن أرى المشهد من فوق الجدار الشرقي لمقر الشرطة، من الجهة المعاكسة للقاعدة الفرنسية. في الحقل المجاور تماماً خلف السور كان الخشخاش على مد النظر. وكنا في شهر إبريل، واقترب موسم الحصاد لقطاف بصيلات الخشخاش التي تكاد تنفجر؛ لأنها ممتلئة بالعجينة البيضاء التي ترشح منها والتي يُستخرج منها الأفيون. تذكرت الأيام التي كنت أعمل فيها في مكتب سياسة مكافحة المخدرات؛ حيث كنا نناقش السلطات التي يجب أن تُمنح

لجنودنا – إذا كان لهم أي سلطات أصلاً – للتصرف عندما يصادفون حالات فساد واضحة لدى المسؤولين الأفغان. من الواضح أنه حقل أفيون يملكه ويديره قائد شرطة المديرية. وهنا كنت أقف على مدفعه محاطاً بالعشرات من رجال الشرطة الأفغان المبتسمين ومعهم بنادق كلاشنكوف معلقة على أكتافهم. ولم أكن أعتزم القيام بأي شيء. كان من السهل أن نجلس في مكاتبنا في البنتاجون ونناقش الآراء حول ما يجب فعله؛ أما الوقوف هنا فقد كان أمراً مختلفاً كلياً، وليس معي سوى أمريكي واحد في وسط حقول الخشخاش التي تنبسط على مد النظر. ويبدو أن القائد عرف ما يدور في خلدي. ابتسم ووكزني بلطف لكي ألتفت لكي يتم التقاط الصورة.

كان من الأشياء الرائعة بشأن القاعدة الفرنسية في سبين بولداك، أن مقر كل فصيلة من فصائلهم كان فيه بار خاص به للمشروبات الكحولية. وكان قائد مجموعة العمل الفرنسية في باجرام يحضر سلسلة اجتماعات، وقد صادفت نائبه، المقدم لوفيفر، في قاعة الطعام الفرنسية المملوءة بالمؤن. وقد دعاني إلى أحد البارات لتناول كأس خمرة قبل النوم. كان فخوراً جداً بزجاجة الويسكي الاسكتلندية الجديدة التي وصلت إليه مؤخراً من فرنسا وأصر عليّ أن أجربها. وكان البار يتألف من رفوف خشبية وعليها زجاجات متنوّعة من الخمور والنبيذ. وكان البار مكسواً بشبكة تمويه، وعليها مصابيح الزينة البيضاء الخاصة بأعياد الميلاد. وهناك ستة مقاعد قابلة للطي في دائرة حول طاولة عبارة عن لوح من الخشب المعاكس على صناديق المخصصات الغذائية. لم أكن من المهووسين بالويسكي، لذلك شربت كمية ويسكي معتّقة منذ خمس وعشرين سنة. وكان لوفيفر فضولياً ولديه رغبة في أن يعرف بعض المعلومات عن خدمتي في البنتاجون قبل المجيء إلى أفغانستان، وبدا منفتحاً وغير متكبّر بالمقارنة مع عدد من زملائه الضباط الفرنسيين. وبعد برهة قصيرة، تحوّل الحديث إلى الحرب ومجموعة العمل الفرنسية. وأخيراً، سألني كيف أنظر إلى طريقة عملهم حتى الآن، وكنت آمل أن يسألني هذا السؤال. قلت له بكل أمانة وصراحة: إنني أرى رجاله مدربين وأشداء. وقلت له أيضاً إنهم ربما يتمنون أن

يكون لديهم هامش أكبر من الحرية لحماية الشعب الأفغاني، ولكي يتصرفوا بطريقة هجومية فعّالة لاقتحام معاقل طالبان المعروفة.

أجابني باستخفاف إلى حد ما: "نعم هذه هي طريقة عمل جندي القوات الخاصة؛ إنهم يريدون أن يدخلوا في معارك لمحاربة العدو وهم يتلقون التدريب على ذلك طوال حياتهم، وأنا أتفهم هذه الطريقة في التفكير وأحترمها. ولكنّ لدينا قيوداً تحدد عملنا، وغالباً ما يجب عليّ أن أفرض هذه القيود عليهم. والمشكلة لها وجهان: الوجه الأول ميزانيتنا الدفاعية، فالرجال ليس لديهم المعدات التي يستحقونها. وإن كانت البنادق والمعدات الأساسية جيّدة، فإن الأشياء الأكثر تعقيداً مثل أجهزة الاتصالات اللاسلكية جو-أرض، وأحدث أجهزة تحديد المواقع عبر الأقمار الصناعية، جميعها قديمة وبحاجة إلى تحديث". واتكأ إلى الخلف على الكرسي القابل للطي، وسحب سيجارة من علبته وقال: "أعتقد أننا نعاني آثار السنوات التي كنّا فيها خارج حلف الناتو أيضاً، ونحن لسنا مؤهلين كما ينبغي من حيث التدريب والمعدات لمضاهاة الآخرين كالأمريكيين أو الكنديين الموجودين في قندهار".

لقد صدمتني صراحته، حتى وإن كانت بتأثير الويسكي، لكنني بالتأكيد لم أعترض على سماعها. كان يؤكد لي عدداً من ملاحظاتي بأن قوات العمليات الخاصة الفرنسية لم تكن مستعدة بالقدر الذي كان يظنه الناس في قاعدة باجرام أو حتى في واشنطن. ولكن واشنطن كانت تتوسّل باريس لإرسال المزيد من الجنود. لاحظت خلال مشاركتي في دوريات عدة، أن المركبات الفرنسية لم تكن جميعها مزودة ولو بجهاز لاسلكي محلي. وفي المقابل، فإن جميع المركبات الأمريكية تقريباً يوجد فيها أجهزة اتصال عبر الأقمار الصناعية، الذي يتيح لمستخدمي المركبة القدرة على التحدث مع مسرح العمليات بأكمله والاستماع إلى اتصالات أخرى. وإذا لم يكن لدى الجنود الأمريكيين جهاز اتصالات الأقمار الصناعية، فبالتأكيد كانوا سيحملون أجهزة لاسلكي بالموجة القصيرة FM تتيح لهم الاتصال بزملائهم في المركبات الأخرى، وبالجنود الراجلين، والأهم من ذلك الاتصال بالطائرات. وعلى حين أن كل جندي أمريكي، وخاصة جنود القوات الخاصة، لديه جهاز لاسلكي فردي، فغالباً ما يوجد جهاز لاسلكي واحد لكل رهط فرنسي. كما كان

الفرنسيون يستعيرون منا أجهزة التشويش لتعطيل العبوات الناسفة التي يتم التحكّم فيها عن بعد، وكانت لديهم أجهزة رؤية ليلية من طراز قديم. فإذا كانت هذه هي حال قواتهم الخاصة، فيمكنني أن أتخيّل حال جيشهم النظامي.

تابع المقدم لوفيفر حديثه، "إن نقص هذه المعدات ليس هو المشكلة الكبرى؛ مشكلتنا الجوهرية التي تحاول التلميح إليها بطريقة دبلوماسية لبقة، ليست مشكلة عسكرية. إنها هي مشكلة سياسية. أفغانستان ليست حرباً شعبية في أوروبا. والناس يسألون علانية: لماذا نحن هنا؟ والكثيرون يعتقدون أن وجودنا في بلاد مُغلقة [ليس لها أي حدود ساحلية] ذات ثقافة قديمة خاصة بها، يجعل الأمور أسوأ. إن موت لو-باج كان صفعة قوية للفرنسيين في الوطن، ويعتقد معظم الأوروبيين أننا نقوم بتنفيذ مهام حفظ سلام بأسلحة خفيفة، كما فعلنا في البوسنة. بصدق أقول لك، إن التعليمات غير المكتوبة التي تأتي من باريس إلى مقر قيادتنا تأمرنا بعدم تكبّد مزيد من الخسائر البشرية. وفي حال ظهور خسائر بشرية فرنسية كبيرة على الصفحات الأولى من الصحف الفرنسية فإن ذلك سيترجم بسرعة إلى انسحاب الفرنسيين من أفغانستان. ربما تختلف معي في الرأي، ولكن وجود بعض النشاطات هنا وبعض القوات، وعلى الأقل استعراض القوة في هذه المنطقة أفضل من لا شيء. إن هذا الوجود أفضل من عدم وجود فرنسا نهائياً".

قلت له مبتسماً، "بالفعل، كما توقعت أنت، أنا أختلف معك كلياً. الأفغان يتخذون قرارات حياة وموت كل يوم. وحتى التحدث إلى أحد جنودنا يمكن أن يؤدي إلى الموت بالنسبة إليهم، بسبب عمليات طالبان الانتقامية. وإذا كنتَ تريد التعامل مع قرى أو قبائل معيّنة، فإنه يجب أن تكون مستعداً للقيام بأعمال هجومية لحماية هؤلاء الناس ودعمهم. وإضافة إلى ذلك، إذا كنت تريد حقاً القضاء على هذا التمرد، فإنه يجب عليك أن تجند عملاء داخل صفوفهم، وأن تشجع الانشقاقات، وأن تقوض إعلامهم وشائعاتهم، وعندما تدعو الضرورة وبعد التدقيق الحذر بالطبع، يجب عليك أن تقتل قيادات طالبان.

"كما يجب عليك التعامل مع لاعبين عنيدين مثل العقيد عبد الرازق - فمع أنه مقاتل وقائد قوي، فإن الشائعات التي تقول إنه يعدم رجالاً من القبائل الأفغانية المنافسة - حتى إن كانوا يتعاطفون مع طالبان، ستنفّر الناس بعيداً عن قضيتنا. ولذلك يجب على مجموعة العمل الفرنسية أن تقرر إذا ما كانت ستتعامل معه بحيث تتوقف هذه الأعمال، أو أن تضغط على كابول لطرده من منصبه، ومعالجة العواقب. ولكننا لا نستطيع أن نتجاهل المشكلة برمّتها".

واصلت كلامي الموجّه إليه، "بصراحة يا سيدي، إن امتلاك فهم شامل وعميق للديناميات الاجتماعية والقبلية في أفغانستان أمر شديد الأهمية. وأنا أعترف لك أن الجيش الأمريكي ما يزال أمامه طريق طويل لفهم هذه الديناميات بأنفسنا. ولكن أنتم لا تقومون بتجنيد الاستخبارات البشرية، وليس لديكم القدرة الحقيقية لاستخبارات الإشارات. ومع التحذيرات الرسمية الآتية من حكومتكم لتجنّب المهمات التي يُفترض أن تكون مفرغة لقتل الأعداء أو أَسرهم، ليس لديكم القدرة أيضاً لكي تثبتوا للناس أنكم الحصان القوي، وليس لديكم القدرة على إجبار رجال مثل عبد الرازق على أن يتعاونوا معكم". وأخبرته أنه "تأتينا التقارير واحداً تلو الآخر عن بعض الملالي المتطرفين الذين يعبرون الحدود من باكستان لكي يلقوا الخطب في المساجد الأفغانية، ويتحدثوا عن عجز قوات التحالف والجيش الوطني الأفغاني وعجزهم عن توفير الأمن. ومع موقف النقيب آلان الذي يحتفظ بوحدات الجيش الأفغاني كقوة مساندة احتياطية لكم، فإنكم بذلك تؤخرون نمو الجيش الأفغاني أيضاً؛ وهذا يعني أن الناس لن يروا سوى عبد الرازق ورجاله. وأنتم ليس عندكم فريق لإعادة إعمار الولايات أو أي نوع آخر من برامج المساعدة لكي تُظهروا للشعب الأفغاني بعض النتائج الإيجابية لوجودكم هنا. يجب أن يرى الناس أشياء ملموسة أكثر من رؤية الجنود الفرنسيين يتجولون بسياراتهم، ورجال شرطة فاسدين يقيمون حواجز تفتيش غير قانونية، على حين يتمتّع رجال طالبان بحرية حركة تامة. في رأيي، وبأمانة شديدة، تسبب قيودكم ووجودكم ضرراً أكثر من تقديم أي نفع. إن هذه

القيود تقوّض القواعد الأساسية لمحاربة التمرد". وفي هذه اللحظة أدركت أنني أكاد أنزلق عن الكرسي. أخذ المقدم لوفيفر سحبة طويلة من دخان سيجارته، وكان يمعن التفكير بينما ينفث الدخان من فمه. أرجعت ظهري إلى الخلف وتساءلت بيني وبين نفسي، إذا ما كنت قد أخذت هذا الحوار إلى أبعد مما يجب أو لا.

أجابني المقدم لوفيفر، "هناك شيء واحد يجب أن تفهمه يا صديقي. في فرنسا، مكافحة التمرد تعني شيئاً مختلفاً جداً. إنها تعني الجزائر، الحرب في الجزائر، تعني قتل وتهجير ملايين السكان المحليين، تعني التعذيب، والحرب الأهلية، وانهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة. والمعنى الأقرب إلى قلبي، أنها تعني موت أكثر من 90 ألف جندي فرنسي، فإذا صرح أي ضابط هنا أو أي مسؤول في الوزارة علانيةً بأننا نقوم بحملة لمحاربة التمرد، فهذا يعني أننا انتهينا في أفغانستان". كان المقدم قد بدأ يصبح عاطفياً ومخموراً قليلاً. وشعرت بأنني بحاجة إلى تهدئة الحديث.

أجبته، "يا سيدي، أنا أقدّر صراحتك وصدقك. كنت أعرف هذا عن الآثار التي خلفتها الجزائر في ضميركم الوطني، ولكنني لم أفهمها تماماً حتى الآن. أعتقد أن الأحاديث الصادقة كحديثنا هذا شيء جيد بين الحلفاء. وفي النهاية، إن نياتنا متماثلة، حتى إن اختلفت طرق التطبيق. ولديّ سؤال أخير، إذا كان لم يكن لديك مانع: نظراً إلى وجود هذه السلبيات الاستراتيجية، لماذا أنتم هنا في أفغانستان؟ ولماذا تخاطرون بوجودكم؟".

أجابني وهو ينهي شرابه، "الجواب بسيط، نحن هنا لهدف سياسي وهو مساعدة الحكومة الأمريكية في الحرب العالمية ضد الإرهاب. وهذا هو السبب بالتأكيد بعد أن رفضت حكومتي دعمكم في العراق. إن القوة الخاصة الفرنسية "آريس" والقوات الفرنسية المنتشرة في أفغانستان بأكملها هي مجرد بيدق في لعبة دبلوماسية أكبر بكثير".

حدّقت به مليّاً. لقد كان ذلك تصريحاً استثنائياً، لن أنساه ما حييت.

بعد ذلك بستة أشهر، رجعت إلى البنتاجون وكنت أعمل على موضوع السياسة في أفغانستان لمصلحة مكتب وزير الدفاع، وأبحث مسألة مشاركة الناتو في الحرب. وكان جميع المسؤولين الأمريكيين بدءاً من وزير الدفاع روبرت غيتس وانتهاء بي، يؤكدون بشدة ضرورة مطالبة أعضاء الناتو بإرسال حصتهم العادلة من الجنود إلى أفغانستان، والتخلي عن محاذيرهم التي تمنعهم من القيام بأنواع محددة من العمليات، ونقل قواتهم من شمال أفغانستان وغربها الآمنين نسبياً لمساعدة الأمريكيين والبريطانيين والكنديين في جنوب البلاد وشرقها. والمشكلة من وجهة نظري، لم تكن مسألة إرادة سياسية فحسب، بل كانت مسألة قدرات عسكرية أيضاً. وكانت المشكلة الأساسية أن قدرات معظم جيوش الناتو، وحتى الوحدات التي يُفترض أنها وحدات النخبة، تراجعت بشكل خطير بعد سنوات طويلة من الإنفاق الدفاعي الهزيل. إن نقص المعدات، إلى جانب غياب العمليات الاستخباراتية المتطوّرة، والتحذيرات غير المكتوبة الصادرة عن العواصم الأوروبية؛ كلها عوامل تدل على أن وحدات الناتو في أغلب الحالات كانت تضر أكثر مما تنفع عندما تدخل مناطق معرّضة للتمرد. يبدو هذا الكلام قاسياً (وقد قال لي زملائي المعنيين بسياسات الناتو إن هذا الكلام لاذع جداً)، ولكن ينبغي لنا أن ندرك أن إرسال جنود أوروبيين وأموال إلى مناطق مبتلاة بالفقر المدقع بعث آمالاً كبيرة لدى الشعب الأفغاني. وبحلول عام 2007، أصيب الكثيرون من الأفغان بخيبة أمل متزايدة بسبب إخفاقات الحكومة الأفغانية وقوات التحالف بقيادة الناتو وعجزهم عن تحقيق تحسينات ملموسة على حياتهم اليومية. لقد كان هناك 42 دولة من أغنى دول العالم، ومن بينها القوة العظمى العالمية الوحيدة المتبقّية، جميعها موجودة في بلدات وقرى أفغانستان. والفكرة التي وددت إيصالها إلى زملائي ورؤسائي - وأنا أعترف أنها كانت مسألة غائمة بعض الشيء - هي أن الأوروبيين كانوا يفضلون القيام بمهام حفظ السلام والأعمال المتعلقة بمشروعات التنمية في شمال أفغانستان. نحن لم نرد مشاركة الألمان أو السويديين أو الآخرين في دوامة القتال التي كان يخوضها بصعوبة الجنود البريطانيون الأعلى كفاءة وقدرة في أماكن مثل ولاية هلمند في الجنوب، ولكننا كنا نشعر بإحباط مؤكد؛ لأن عدداً من الدول الأعضاء في الناتو لم يقدم ولو قدرات الدعم المادي مثل الطائرات المقاتلة أو الحوامات. وبعد

التجارب التي مررت بها على الأرض في عام 2006، قلت إنه حتى أسلحة الدعم الحاسم لم تكن لازمة إذا أتت مع قيود كثيرة إلى درجة تجعلها عديمة الفائدة. ما كنا بحاجة إليه فعلاً هو القيادة، والقدرات، والأساليب الأمريكية، في مكافحة التمرد في الجنوب. ولكن النقطة الجوهرية غير المعلنة في البنتاجون وفي جميع أركان مؤسسة الأمن القومي الأمريكي، هي أن العراق كان محور جهودنا الرئيسية. وبما أننا كنا بحاجة إلى مزيد من الموارد لمعالجة الوضع المتدهور في أفغانستان، فإن هذه الموارد كان يُفترض أن تأتي من أوروبا.

المسألة الجوهرية الأخرى كانت تكمن في التغيير البيروقراطي الذي حدث داخل مؤسسة الأمن القومي الأمريكي، حالما انتقلت مسؤولية العمليات العسكرية إلى قوات الناتو الممثلة بإيساف التابعة للناتو. وسواء في مكاتب صنع السياسات في وزارة الدفاع، أو في هيئة الأركان، أو أروقة وزارة الخارجية الأمريكية، أو مجلس الأمن القومي الأمريكي في البيت الأبيض، فإن المسؤولين المؤيدين للاعتماد على أوروبا تولّوا فجأةً مسؤولية سياساتنا في أفغانستان. وأصبحت أفغانستان مجرد واحدة من عدد من القضايا على لائحة الناتو: وقد تراوحت هذه القضايا من مسألة الدفاع الصاروخي في أوروبا الشرقية، إلى معالجة القرصنة قبالة سواحل الصومال. ومما زاد الأمر سوءاً أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت الآن تمتلك صوتاً واحداً من أصل 26 صوتاً داخل حلف الناتو، بحيث تحتاج إلى موافقة الأعضاء بالإجماع لإحداث أي تغيير مهم في سياسات الحلف. وكان أول قائد لقوات "إيساف" بريطانياً، يدعى ديفيد ريتشارد، وكان القادة العسكريون الأمريكيون مسؤولين أمام الأمين العام لحلف الناتو والقائد الأعلى لقوات التحالف وهو جنرال بأربعة نجوم، ومقره في بروكسل. وكان الكثير من زملائي في البنتاجون يرون أن النجاح في أفغانستان مسألة شديدة الأهمية لمستقبل الناتو، وهو أمر جيد لتشجيع العمليات المشتركة بين جيوش الناتو، ومهمٌ جداً لإثبات أن الناتو يستطيع أن ينفذ عمليات تدخّل سريع خارج أوروبا. وبعبارة أخرى، نقول: إن الحرب في أفغانستان كانت آلية لتطوير الناتو إلى قوة تدخل سريع، وتحويله إلى تحالف لحقبة ما بعد

الحرب الباردة، ولإبقاء الحلف فاعلاً في عالم ما بعد 11 سبتمبر. ووفق هذه النظرة العالمية، كان يجب أن تكون تجربة أفغانستان ناجحة، لإثبات نجاح الناتو، وليس العكس.

كان الأشخاص الذين يعملون في المكاتب الأمريكية المهتمة بشؤون جنوب آسيا في مختلف دوائر الحكومة الأمريكية يحملون آراء مختلفة جداً. كان النجاح في ترسيخ الاستقرار في أفغانستان ودحر التمرد الطالباني المتنامي حاسماً لمنع عودة تنظيم القاعدة إلى هناك، ومصلحةً جوهريةً لحماية الأمن القومي الأمريكي. لقد قدّرنا تماماً التضحيات الكبيرة التي قدّمها جنود الحلفاء، ولكن إذا تبيّن أن الناتو أصبح مؤسسةً غير راغبة في تنفيذ مهمة معقّدة ومكلفة من هذا النوع أو غير قادرة على ذلك، فليكنْ هذا شأنها. ونحن نرى أنه كان من واجبنا أن نشير إلى نقاط ضعف الناتو ونبحث عن حلول مثلى. لقد كان صراعاً متواصلاً أدى إلى نوع من الشلل في السياسة من عام 2006 إلى عام 2008، على حين استمر الوضع في أفغانستان بالتدهور.

الفصل السابع

عملية بيرث .. الحرب بتوافق الآراء

في صيف 2006، تمّ إرسال مفرزة العمليات ألفا التي تتبع لي، وفصيلين تابعين لدولة الإمارات العربية المتحدة، إلى قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي) جنوب تارين كوت في ولاية أوروزغان، وذلك لتعزيز مفارز العمليات الست من القوات الخاصة العاملة في الولاية إلى جانب قوة من القوات الجوية الخاصة الأسترالية. وما وجدناه كان خليطاً من الوحدات التي تحاول قصارى جهدها وقف موجة التمرد المتزايد، ولكل منها سلسلة منفصلة من الأوامر، وقواعد مختلفة للاشتباك، ونهج أساسي مختلف لمبدأ مكافحة التمرد.

وتماماً كما حدث في هلمند، كان الوضع قد تغيّر إلى الأسوأ في أوروزغان في عام 2006 مقارنة بالوضع الذي كنّا قد وجدناه عندما قمنا بدوريات في أوروزغان خلال فصل الشتاء السابق. وظهر فراغ أمني هائل بسبب مجموعة من العوامل: استياء القبائل الذي ولّده الحاكم جان محمد خان بين عدد من قبائل الأقلية في هذه الولاية؛ وسحب الجنود من فرقة المشاة 25 الأمريكية في الخريف الماضي؛ وتنحية الزعيم والحاكم شير محمد أخونزاده في هلمند المجاورة؛ وتأخر وصول الهولنديين في أوروزغان والبريطانيين في هلمند حتى انقضاء معظم موسم القتال. وسرعان ما استغلت طالبان هذا الفراغ عن طريق التسلل مرة أخرى إلى أفغانستان بأعداد متزايدة من ملاذهم في باكستان، ومن خلال استهداف الملالي الموالين للحكومة، والشيوخ والمسؤولين في أوروزغان.

تمّ إرسال سرية مشاة من الجيش الوطني الأفغاني مع فريق التدريب من الحرس الوطني التابع للجيش الأمريكي للمساعدة في وقف موجة انعدام الأمن في الولاية. كانت فرق التدريب المرافقة تتشكّل من 12 إلى 15 من الجنود برتبة رقيب وضابط، بما يشبه

تركيب مفارز العمليات للقوات الخاصة. وكانت مفارز من ألوية الحرس الوطني التي تمت تعبئتها ومن ثم تم نشرها في فرق صغيرة تتوافق مع مواقع الجيش الوطني الأفغاني. كانت الفرق تضطلع بالمهمة الأساسية للتدريب وتقديم المشورة للجيش الوطني الأفغاني ومرافقة نظرائها الأفغان من وزارة الدفاع إلى مقر الفيلق ومقر اللواء ومقر الكتيبة، إلى مستوى السريّة. من الناحية الفنية، كان أعضاء الفريق مدرِّبين مكلفين مساعدة الأفغان على المستويات التكتيكية والتشغيلية في كل أمر؛ بدءاً من تقنيات التخطيط الأساسية إلى أساسيات القيادة وكيفية صيانة واستخدام بنادق الكلاشنكوف الخاصة بهم. وفي كثير من الأحيان، كانوا أيضاً بمنزلة مستشاري قتال، يرافقون الجيش الوطني الأفغاني في المهمات والدوريات القتالية. وبذلك كانوا أيضاً المعبر الذي يمثل أصول المهام التي تضطلع بها الولايات المتحدة مثل الإخلاء الطبي والإسناد الجوي القريب، هذه المرافقة أتاحت وجود القوات الأمريكية مع كل وحدة من الجيش الوطني الأفغاني -تقريباً- المنتشر في أنحاء أفغانستان. كان لهذا الأمر أهمية خاصة بعد انتقال القيادة من الولايات المتحدة إلى حلف شمال الأطلسي في عام 2006، وعندما واصلت القوات التقليدية الأمريكية عملها فقط في القيادة الإقليمية الشرقية، نشأ عن ذلك الوضع أن فرق القوات الخاصة وفرق التدريب المرافقة للجيش الوطني الأفغاني كانت هي الوجود الأمريكي الوحيد في الولايات المضطربة جنوب أفغانستان، وكذلك الولايات شبه المستقرة في الغرب على طول الحدود الإيرانية. وظلت هذه العناصر في إطار عملية الحرية الدائمة التي تقودها الولايات المتحدة بقواعد الاشتباك الخاصة بها، هي الأقل تقييداً.

كانت الجوانب السلبية لمثل هذا الترتيب كبيرة، كما رأيتُ ذلك في صيف عام 2006 في أثناء تنفيذ العمليات مع فرقة العمليات الخاصة التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة في أوروزغان وهلمند. وكانت المشكلة الرئيسية مع فرق التدريب المرافقة هي أنها تَتْبَع سلسلة أخرى من إجراءات القيادة في أفغانستان. وشكّل التحالف الذي يقوده حلف شمال الأطلسي في ذاته مشكلة في القيادة والسيطرة بوجود اثنتين وأربعين دولة ذات عناصر عسكرية على الأرض في بداية عام 2007. وكل عنصر عسكري عليه أن يقوم

بإبلاغ قائد ذي (4) نجوم من القوة الدولية للمساعدة الأمنية (إيساف) في كابول. ولكن كان لكل وحدة أيضاً ممثل وطني موجود على الأرض يتبع عاصمة دولته، ويمكنه الاعتراض على الأوامر الصادرة من قبل إيساف أو من مقرّ قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة في حالة عمليات تحالف قوات العمليات الخاصة. وهكذا، احتفظ قائد إيساف بسيطرة عامّة على عمليات هذه البلدان، وكان لكل منها قيود عملياتية، أو محاذير وطنية خاصة بها. لم يكن لدى إيساف السلطة، على سبيل المثال أن تأمر الإيطاليين في القيادة الإقليمية الغربية بتحريك مروحيات أو جنود لدعم البريطانيين في القيادة الإقليمية الجنوبية المجاورة. كما كانت المحاذير قيداً على مختلف الدول بشأن كيف ومتى يمكن أن تستخدم قواها، وتراوحت القيود ما بين مهمات غير مسموح بها، إلى مناطق جغرافية تُمنع القوات من إجراء عمليات فيها. وفي كل حالة تقريباً، وجدتُ أن فرق المهمات المختلفة في التحالف قد أبقت إيساف أو مقرّ قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة على اطلاع بأنشطتها، وطلبت موارد إضافية عند الحاجة إليها، ولكن الفرق أخذت أوامرها من تسلسل القيادة الخاص بها تحت إدارة الممثلين الوطنيين.

ومما أثقل كاهل تسلسل القيادة وأسهم في إضعاف التحالف بدرجة أكبر، تبني الهيكل الداخلي المعقّد للأوامر والسيطرة في الولايات المتحدة. فداخل الجيش الأمريكي وحده كان لدينا ما يصل إلى ستة تسلسلات مستقلة من القيادة، في حين أن الوحدات غالباً ما تعمل بجوار بعضها بعضاً. على سبيل المثال، كانت كتائب وألوية المشاة التقليدية تتبع قيادة الفرقة الخاصة بهم في قاعدة باجرام الجوية في القيادة الإقليمية الشرقية. وفرقة طائر الفينيق كانت تتبع فرق التدريب المرافقة في القيادة الإقليمية الشرقية لمقر العمليات الخاص بها على مشارف كابول. وفي كثير من الأحيان كان الجيش الوطني الأفغاني يأخذ التعليمات والتوجيهات من فرق التدريب المرافقة التي لم تكن في بعض الأحيان تتوافق مع قادة المناورة التقليدية. ولجعل الأمور أكثر إرباكاً، كانت فرق القوات الخاصة مثل فرقتي تتبع من خلال تسلسل قيادة ثالث للعمليات الخاصة إلى قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة، كذلك في باجرام. وما هو أسوأ، أن وحدات النخبة للمهمات الخاصة

لدينا المتخصصة في مكافحة الإرهاب أو مهمات القتل أو الاعتقال لا تتبع بأي شـكل مـن الأشكال إلى قائد إيساف. أضف إلى ذلك، أنشطة وكالات الاستخبارات لـدينا، وبـذلك تصبح أفغانستان وعاءً دولياً لمزيج من الوحدات العاملة وفق الجـداول الزمنيـة وجـداول الأعمال الخاصة بها.

فقط في ولاية أوروزغان وحدها، في أواخر صـيف عـام 2006 كـان لـدينا مخطـط يشبه (السباغيتي) مـن حيـث التشـابك والاخـتلاط في خطـوط السـلطة بـين التحـالف والولايات المتحدة. أولاً، كانت لدينا سـرية قوات خاصة وفرقها الخمس التي تتبـع فرقـة قوات العمليات الخاصة الإقليمية في قاعدة قندهار الجوية، التي كانـت تابعـة لقـوة مهـام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعـة في بـاجرام. ولأننـي كنـت مرافقـاً لدولـة الإمـارات العربية المتحدة، كان فريقي يتبع القيادة المشتركة الموحدة للعمليات الخاصة مباشـرة، مـن دون الرجوع إلى فرقة قوات العمليات الخاصة الإقليمية. وبشكل منفصل كانت هناك قوة تابعة للقوات الجوية الخاصة الأسترالية في قاعدة العمليات الأمامية (ريـبلي)، التـي أيضـاً كانت تتبع مباشـرة لقوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة في الشمال في باجرام. كما أن القوة الخاصة الأسترالية كانت تتبـع كـذلك لممثلهـا الـوطني العسـكري، وهـو عقيـد أسترالي موجود مع قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعـة؛ وكـان بإمكانـه تجـاوز توجيهات قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة استناداً إلى الصلاحيات الوطنية.

وفي قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي) في أوروزغان كان يوجد فريـق إعـادة إعـمار ولايات هولندي ووحدة مشاة وصلا مؤخراً يتبعان لوحدة إيساف الجنوبية التي يترأسـها جنرال كندي في قندهار. وبالمثل كانـت فـرق التـدريب التابعـة للحـرس الـوطني التـابع للجيش الأمريكي والمرافقة لسـرية الجيش الوطني الأفغاني المتمركزة في قاعدة العمليـات الأمامية في (ريبلي) تأخذ تعليماتها من مقرها الطبيعي في فرقة طائر الفينيق. وأخيراً، وربـما الأهم من ذلك، وجدت سـرية الجيش الوطني الأفغاني نفسها تأخذ التعليمات مـن جميـع الجهات: فرق التدريب المرافقة الذين يعيشـون معهـم، وسـرية المشـاة الهولنديـة التابعـة لإيساف، وفرق القوات الخاصة الأمريكية التي تخصصت في العمل مع القـوات الأصـلية

وأرادت مرافقة عنصر من الجيش الأفغاني لها في جميع المهمات. وبالطبع كان على قائد سرية الجيش الوطني الأفغاني أن يستمع إلى مقر قيادة الكتيبة الأفغانية، وهو أيضاً في قندهار (ولكن في قاعدة مختلفة عن المقر الإقليمي لإيساف).

كانت المفارقة أنه ربما كان لدى الولايات المتحدة الثقل الكافي لتبسيط ترتيب الأوامر، ولكن بسبب النُّهج المتفاوتة على نطاق واسع للتعامل مع التمرد وقواعد الاشتباك المختلفة، لم نكن بالضرورة نريد تسلسل قيادة موحداً. فبموجب الاتفاقات السياسية بين الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي التي أعطت الهولنديين زمام الأمور في ولاية أوروزغان، فإن مثل هذا الترتيب سيضع جميع الوحدات العاملة هناك تحت السلطة الهولندية. ولكانت الولايات المتحدة والقوات الخاصة الأسترالية ستعمل تحت المحاذير الهولندية، الأمر الذي كان يعني عمليات هجومية محدودة جداً، إن وجدت أصلاً. وعلى العكس كانت هولندا وبلدان أوروبية أخرى لا تريد لقوات العمليات الخاصة الأمريكية أن ترتبط رسمياً بمهماتها لأنها كانت تخشى رد فعل عنيفاً من الرأي العام في الداخل حول إجراءات الوحدات الأمريكية الخاصة بمكافحة الإرهاب والتعامل مع المحتجزين. وكانت النتيجة نظاماً يحاول العمل من خلال التعاون الطوعي وأداء الأشخاص بدلاً من سلسلة قيادة موحدة. في مرات متعددة اجتمع الأفراد معاً، وعملوا بشكل جيد؛ ولكن في كثير من الأحيان لم يحدث ذلك، ما أدى إلى التضليل الاستراتيجي، والاقتتال الداخلي، والارتباك، وفي نهاية المطاف فقدان الأرض لمصلحة التمرد.

وللتخفيف من مشكلة القيادة في تارين كوت، عقد الرائد غارسيا، قائد سرية القوات الخاصة في قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي)، اجتماعاً تنسيقياً أسبوعياً مع جميع الوحدات، من أجل الإسهام في إزالة التضارب في العمليات، وضمان أن الجميع على علم بالمهمات الأخرى المزمع القيام بها. لم يكن لدى أحد السلطة لإصدار الأوامر لأي شخص آخر حول ما يجب عليه القيام به أو الامتناع عنه، أو العمل على التنسيق الزمني للعمليات. في الاجتماع التنسيقي الأول الذي حضرته بعد وصولي إلى قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي) في فصل الشتاء السابق مع فصيلين من قوات العمليات الخاصة التابعة

لدولة الإمارات العربية المتحدة، طلبتُ بسذاجة أن تُعرض علينا نسخة من خطة الحملة للولاية. حدّقتْ المجموعة في وجهي حتى ابتسم الرائد غارسيا، وهو من قدامى المحاربين في العمليات في كولومبيا، وقال ساخراً: "إن قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة وإيساف تعملان على ذلك، يا صديقي. وسيكون ذلك جاهزاً في وقتٍ ما قبل نهاية الحرب!".

ضحك الجميع قليلاً على حسابي. ولكنني لم أعتقد أن الأمر مضحك.. لا توجد خطة.. لا يوجد تسلسل قيادة موحّد. لقد أغفلنا الأساسيات العسكرية في بيئة صعبة ومعقّدة بشكل لا يصدق.

كنا نفتقر إلى نهج موحد بشأن كيفية التعامل مع التمرد الآخذ في الانتشار بسرعة. ففي أحد طرفي الطيف كانت هناك فرقة القوات الجوية الخاصة الأسترالية، العاملة على غرار القوات الجوية الخاصة البريطانية، والمتخصصة في الاستطلاع الطويل المدى والغارات المباشرة. كان أفرادها مثيرين للإعجاب، ويتمتعون بلياقة عالية، ويتقنون ما يفعلونه، وليسوا مهتمين جداً بأي شيء آخر عدا إيجاد وقتل عناصر طالبان (أو الذين كانوا يظنونهم من طالبان). سألت مرة ضابط العمليات الخاصة بهم إذا كانوا يعملون على أي مبادرات للتنمية مع المنظمات غير الحكومية المحلية أو فريق إعادة الإعمار للولايات. ضحك الرجل وقال، "فقط إذا كان ذلك يساعدنا على قتل الأشرار، يا صديقي!". أشرتُ ساخراً "إنها في الواقع من الممكن أن تفعل ذلك".

أما القيادة الهولندية التي بدأت حينها بالاستقرار في أوروزغان فقد كانت على الطرف الآخر من الطيف. لقد جاؤوا بأفكار ثابتة حول عمليات الاستقرار، ورفضوا تسمية الجهد في أفغانستان مكافحة التمرد، واستخدموا عوضاً عنه نهجاً سلبياً، مثل حفظ السلام. كان أحد المحاذير الوطنية لديهم يمنع الوحدات من الاشتراك في عمليات هجومية متعمّدة؛ يمكنها أن تطلق النار في حال إطلاق النار عليها فقط. وحتى إذا وردت للهولنديين معلومات موثوق بها تفيد أن قائداً من طالبان أو صانع قنبلة موجوداً في مكان

معيّن، فليس بإمكانهم شنّ غارة متعمّدة لقتله أو القبض عليه. كانت المحاذير محبطة ولاسيما بالنسبة إلى ضباطهم المبتدئين. وكحلّ لهذا الوضع، كان بعض القادة الهولنديين الأكثر هجومية، وخاصة في قوات العمليات الخاصة، يرسلون وحدة لـ "الاستكشاف" في موقع معروف لطالبان، وهناك تعرّض نفسها لأن تُطلق عليها النار أولاً، لتكون هناك ذريعة للردّ بإطلاق النار. كانت تلك وسيلة مزعجة لخوض حرب!

في أول لقاء لي مع المقدم نيكو تاك، قائد فريق إعادة إعمار الولايات الهولندية القادمة، أوضح أن استراتيجيتهم للولاية سوف تختلف عن نهج عمليات الولايات المتحدة، "فبدلاً من وجود عدد من القواعد والانتشار الخفيف في جميع أنحاء الولاية، فإن فرقة العمل الهولندية ستتخذ استراتيجية بقعة الحبر". وأضاف "اخترنا أن نركز جهودنا على المناطق ذات الكثافة السكانية الأعلى في العاصمة -تارين كوت، ودهراود- ونأمل توسيع بقعة الحبر شيئاً فشيئاً عندما تستقر تلك المناطق. وبهذا الأسلوب، نسعى إلى مكافأة السلوك الجيّد، بدلاً من محاولة بناء مشروعات للتنمية في المناطق المعرضة للتمرد، حيث يصعب تنفيذ المشروعات وحمايتها؛ ولذا سوف نركز مواردنا في هذين المجالين، وسوف نكافئ الناس الذين يتعاونون معنا بدلاً من محاولة تغيير رأيهم ضدنا وضدّ الحكومة الأفغانية. سيرى الشعب الأفغاني في المناطق الريفية النائية تحسناً في حياة شعوب المنطقتين وسيرغبون في الشيء نفسه لهم. وسوف نعمل على تطبيق الأمن في مناطقهم خارج بقعة الحبر على أمل أننا سنجلب النوع نفسه من التنمية لهم. لطالما كانت القبائل الأفغانية تاريخياً قادرة على السيطرة على قراها، ونعتقد أنها سوف تفعل ذلك مرة أخرى بوجود الدوافع الصحيحة".

كانت هذه إحدى نكهات نظرية مكافحة التمرد، وأنا لم أختلف مع ذلك تماماً. كان هناك على الأقل نوع من الخطة والنهج العملي. ومع ذلك، في الممارسة العملية، فإن ذلك لا ينطبق حقاً على الديناميات الفريدة لأفغانستان، وسيستمر هذا النهج في إظهار عيوب كبيرة حتى يغادر الهولنديون أوروزغان في عام 2010. أولاً، كان يجب إرفاق الجزرة مع العصا، ولكن الحكومة الهولندية رفضت السماح للجيش أن يستخدم العصا. لقد افترض

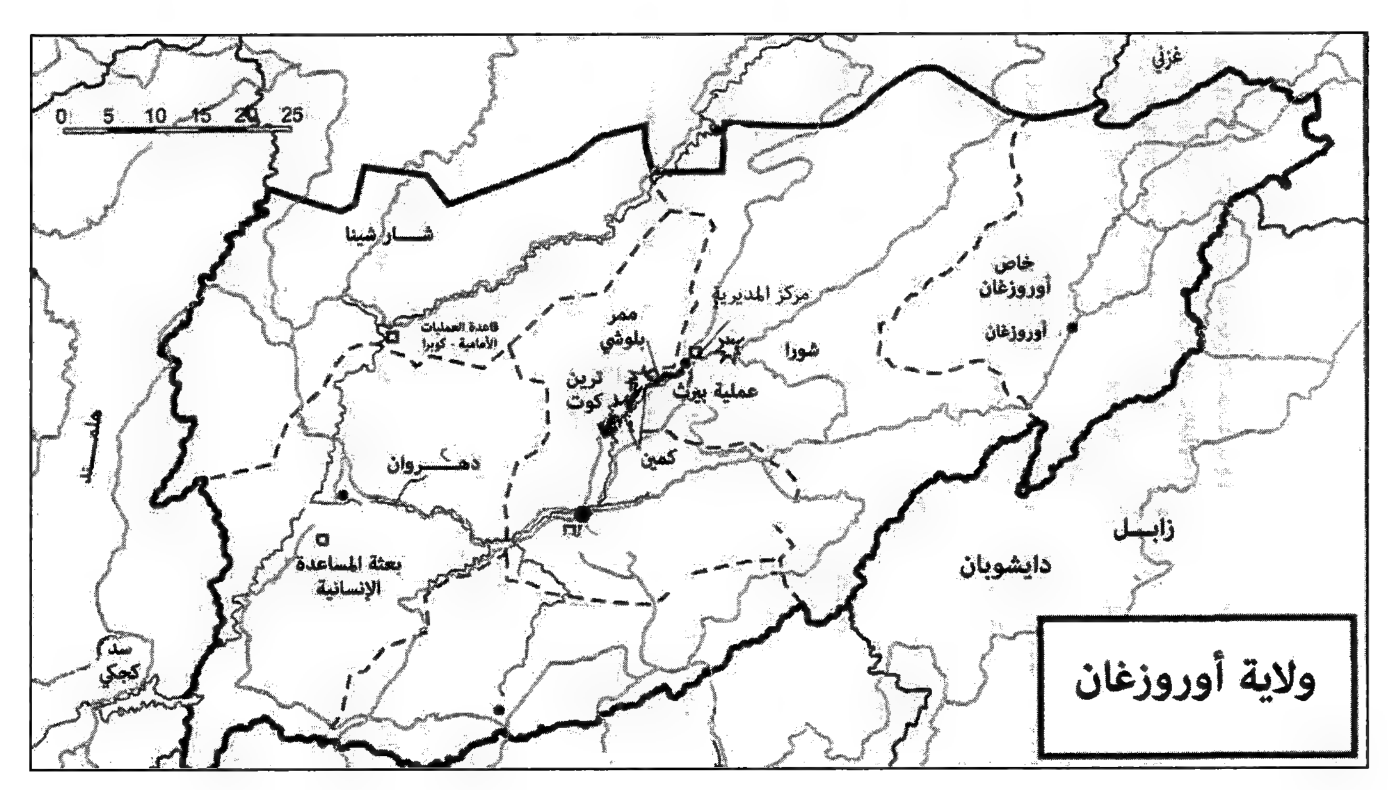
نهجهم أن الزعماء أو قادة طالبان سيسمحون لبقع الحبر أن تتوسّع، أو سيسمحون للشعب الأفغاني أن يدعو الهولنديين إلى مناطق أخرى حينما يلاحظون التقدم في تارين كوت ودهراود. وبالتأكيد كانت فرق القوات الخاصة الأمريكية وفرقة القوات الجوية الخاصة الأسترالية على استعداد لتكون هي العصا من أجل إزالة العوائق التي تحول دون هذا التقدم. ولكن سرعان ما نشأ خلاف بين الهولنديين والوحدتين، فبدلاً من رؤية عناصر العمليات الخاصة كمساعدين يمكنهم أن يسهلوا توسيع بقعة الحبر، اعتبر الجيش الهولندي التقليدي وسلكهم الدبلوماسي الوحدتين مجموعة من رعاة البقر لا تمكن السيطرة عليهم.

حينما بدأ فريق إعادة إعمار الولايات الهولندي بصبّ أموال التنمية في المركزين السكانيين، ظهر عيبٌ آخر. فلقد نظر الأفغان خارج مناطق التنمية إلى الجهد بازدراء، وبمرور الوقت ازدادت الغيرة والعداء بين القبائل واستاءت المجتمعات المحلية خارج المناطق، ما اعتبروه محاباة للقبائل داخل بقع الحبر. واتهم سكانُ الولاية الهولنديين بالتواطؤ والمحسوبية مع الحاكم جان محمد خان. (وجّه مشروعات إعادة الإعمار كلها تقريباً والمناصب الحكومية نحو قبيلتيه الأصليتين بوبالزاي وباراكزاي من عام 2002 إلى عام 2005، واستمر تأثيره الكبير في الولاية حتى بعد إزاحته من منصبه في أوائل عام 2006).

خلال عدد من الاجتماعات التنسيقية للرائد غارسيا، كان أحد مصادر القلق الدائمة هو أحد قادة طالبان المحليين؛ الملا باري، الذي كان يهاجم ويرهب الحكومات المحلية في دهراود وتشورا. كان الملا باري أيضاً خبير متفجرات وكان مسؤولاً عن إحضار تقنيات العبوات الناسفة من العراق إلى أفغانستان. كان الجميع يتوق إلى إبعاده عن الشارع، وخاصة بعد مقتل خمسة جنود من القوات الخاصة الأمريكية بعبوة ناسفة، في فصل الشتاء السابق.

خريطة (11)

العملية بيرث، ولاية أوروزغان



كان باري يغيّر موقعه داخل الولاية بانتظام، ولكن اعتقد الأستراليون أنهم عثروا على اثنين من منازله الآمنة التي اعتاد الذهاب إليها. كان الأستراليون قد التزموا بتوفير دوريات ثابتة من فرق قنّاصة مكوّنة من رجلين مع مناظير بعيدة المدى لمراقبة المنازل من مواقع إخفاء مموّهة بشكل كبير، حُفرت داخل التلال وتطل على كلا منزلي باري على أمل أن يلحظوا دخوله أحدهما ثم يشنون هجوماً بالمروحية لقتله أو إلقاء القبض عليه. كان تكتيكاً عريقاً يتطلب مهارة مذهلة وقدرة على التحمّل، ولكنه أيضاً كان يشكل ضغطاً كبيراً على الوحدة.

خطرت لي وللرائد غارسيا فكرة لاستكمال النهج الأكثر تقليدية للأستراليين، باستخدام القنّاصة بصفة مراقب لتحديد موقع باري. كلّف غارسيا إحدى فرق القوات الخاصة بإجراء مهمة علاج طبي، والمعروفة باسم برنامج العمل المدني الطبي، على مشارف مديرية تشورا إلى الشمال من تارين كوت. في الوقت نفسه اتفقنا على أن يقوم فريق الشؤون المدنية التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة جنباً إلى جنب مع عدد من العناصر لديّ بإجراء برنامج العمل المدني الطبي أيضاً، وكذلك عملية توزيع مساعدات إنسانية، غرب تارين كوت قرب دهراود على نهر هلمند. عادة في برنامج العمل المدني الطبي يقوم اثنان من أفراد الإسعاف من الفريق والمدربين تدريباً عالياً، وأحياناً بدعم من التحالف أو الأطباء المحليين، بإحضار حمولة شاحنة من الإمدادات الطبية إلى قرية وإنشاء عيادة. يظهر القرويون دائماً بالآلاف بمجرد أن ينتشر خبر وجود المساعدة الطبية الغربية. وعندها سيكون على المسعفين أن يوظفوا كل ذرة من تدريبهم لعلاج كل مرض يمكن تصوّره؛ من الأسنان إلى الأمعاء، فضلاً عن الأمراض التي لم نعد نراها في المستشفيات الحديثة. ومع ذلك، في كثير من الأحيان، فإن حسن النية والثقة الفورية اللذين تحصل عليهما هذه العيادات من شأنها أن تعود بكنوز من المعلومات حول ما يجري بشكل عامّ في المنطقة، وتسفر أحياناً عن معلومات حول زعماء المتمردين. غالباً ما يعمل رقباء استخباراتنا مساعدين للمسعفين والأطباء من أجل امتصاص بعض هذه المعلومات. في هذه الحالة كنا نأمل أن يكون لبرامج العمل المدني الطبي فائدة مزدوجة: زيادة النيات الحسنة في مديريتي تشورا ودهراود، ومعلومات عن الملا باري.

لتطبيق الجزء الخاص بنا من العملية أراد الرائد المسؤول عن عناصر دولة الإمارات العربية المتحدة أن يتخذ نهجاً أقلّ لفتاً للانتباه، عن طريق ارتداء ملابس مماثلة لتلك التي يرتديها موظفو المنظمات غير الحكومية، والسفر في سيارات مدنية. ومع ذلك، وبعد أيام من المحاولة، لم نتمكّن من الحصول على حزمة الإمدادات الطبية التي نحتاج إليها. كانت الطائرات المروحية غير متوافرة، وكان سائقو الشاحنات الأفغان يخشون على نحو متزايد القيام بالرحلة على الطريق بين قندهار وأوروزغان. ورداً على ذلك، غيّرنا العملية إلى تقديم المساعدات الإنسانية، وتوزيع حزم من التمور والوجبات الجاهزة الحلال، والبدء في ترميم مسجد قرية صغيرة. قال لنا قائد فريق إعادة إعمار الولايات، وهو طيار مقاتل في القوات البحرية كان موجوداً عشية انتقال مسؤولية أوروزغان إلى الهولنديين، كنا مجانين تماماً بالسفر إلى تلك المنطقة في شاحنات صغيرة. قلت له شعرت بأمان مع رجالي بتغيير وسائل السفر، إذ لا يمكن لأحد أن يتوقع ذلك، ونحن نود أن نغادر تحت جنح الظلام في الصباح الباكر، حيث إذا كان هناك مَنْ يراقب بوابة قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي) فلن يرانا مغادرين القاعدة. كان لديه تحفظ أيضاً حول ادّعاء رجال دولة الإمارات العربية المتحدة ورجالي أننا تابعون لمنظمة غير حكومية، لأن ذلك يمكن أن يُغضب عدداً قليلاً من المنظمات غير الحكومية الحقيقية العاملة في الولاية. أشرتُ إلى أن جميع المنظمات غير الحكومية تقريباً قد فرّت، وأننا قد نرسل رسالة إيجابية إلى الشعب مفادها أن المنظمات غير الحكومية قد عادت. كان هذا مثالاً جيّداً على الانقسام الذي واجهناه في مشكلة تعدد تسلسل القيادة. في هذه الحالة، لو كنّا متّحدين وفقاً لفريق إعادة إعمار الولايات أو الهولنديين، لكانت قدرتنا على القيام بعمليات غير تقليدية محدودة جداً.

في مركز عملياتنا المشتركة مع دولة الإمارات العربية المتحدة، تتبعت سير قافلتنا الصغيرة المكوّنة من ثلاث شاحنات صغيرة وشاحنة أفغانية خلفهم مملوءة بالإمدادات. وبعد ساعات من شروق الشمس جاء ضابط أسترالي إلى مركز قيادتنا الصغير لإعلامنا أن اثنين من فرق القنّاصة قد لاحظا مجموعة من الذكور في سن الخدمة العسكرية يسيرون في قافلة بسرعة عالية باتجاه القرى المحيطة بدهراود. كان الأستراليون يفكرون في

الاشتباك إذا استطاعت الفرق تأكيد أن الرجال المشتبه فيهم مسلحون. ومع ذلك، أراد الضابط أن يتأكد منّا قبل أن يعطي الضوء الأخضر.

صرختُ: "توقف! لقد أبلغنا ضابط عملياتكم قبل مغادرة رجالنا بوصف كامل لسياراتنا وأعداد الرجال". من الواضح أن الخبر لم يصل إلى فرق القنّاصة. وقدم لي ضابط الاتصال إحداثيات المكان الذي شوهدوا فيه واتجاه حركة المركبات، وكان كما توقعت على مسافة قريبة شرق المكان، حيث كان رقيب فريقي مارك والقافلة قد أطلعانا على مكان وجودهما مؤخراً. اندفع نحو الخارج راكضاً إلى مركز قيادته. وعلى الرغم من حس الدعابة الأسطوري الذي يتمتع به مارك فإنه كان متمسّكاً بالحصول على تفاصيل التخطيط للعمليات والسمات المهنية المطلقة. ولم يكن لديّ أي شك في أنّ الطريق تم تحديد إحداثياته. كان الخطر محدقاً برجالنا.

ولأسباب أمنية، لم نقدم للقرية إشعاراً مسبقاً عن برنامج العمل المدني الطبي الذي كنا ننوي القيام به فيها. ومع ذلك، ذكر مارك أنه في غضون ساعتين من وصوله، كان الناس يسيرون في جماعات على الطريق الترابية المؤدية إلى مدرسة صغيرة حيث أقاموا مركز التوزيع. عمل مارك مع فريق الشؤون المدنية التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة في موقع التوزيع، في حين أن تريب، رقيب أول أسلحة مفرزة العمليات، بقي في الشاحنة الصغيرة. وبقامته الطويلة، وبشرته الفاتحة، وكونه أصلع تماماً، لم ينسجم تريب على الإطلاق مع الفريق، لذا ظل في الشاحنة لمراقبة جهاز اللاسلكي وليبقى على مقربة من الرشاش الخفيف M249 SAW المخبأ في أرضية الشاحنة في حالة واجهتنا المتاعب.

اصطف مئات القرويين؛ وقام جنود الإمارات العربية المتحدة بتوزيع التمور، ووجبات الطعام، وأكياس صغيرة من التايلينول وأقراص مطهرة للحلق. وطلب الفريق من كل أفغاني التوقيع باسمه أو بعلامة، وكذلك التقاط صورته بعد الدخول إلى الغرفة الأولى داخل مبنى المدرسة. هذا منع الناس الواقفين في الخارج من رؤية ما كنا نفعل. نحو منتصف النهار دخل رجل في منتصف العمر ذو لحية سوداء طويلة إلى الغرفة. ولكنه

توقف عندما رأى الكاميرا واستدار وخرج، ومشـى بخفـة عائـداً إلى الطريـق المؤدي مـن القرية إلى اتجاه الشمال. ولعدم الرغبة في الانكشاف بمطاردة الرجل على الطريق، بـدأ مـارك والمترجم يسألان الناس عن اسم الرجل. قال عدد من سكان القرية إنهم لا يعرفون مَنْ هو، حتى بادر صبي صغير إلى القول إنه الملا باري. قرص والـد الصـبي ذراع ابنـه طالبـاً منـه أن يكون هادئاً، وابتسم لنا. لا يمكننا إلقاء اللـوم عـلى الأب حقـاً، فلـربما يتعـاطف مـع نظـام طالبان. ومن المحتمل أيضاً أنه من قبيلة من الأقليات التي قد تم تعذيبها بوحشـية مـن قبـل الشـرطة، أو عن طريق بلطجية جان محمد؛ أو أنه كان خائفاً من العقـاب؛ لقـد كـان لبـاري سمعة شائعة بتشويه خصومه. واتصل مارك بمركز العمليات وأبلغهم أننا قد نكون رأيناه.

كنا قد قمنا بالتنسـيق مع قائد الشـرطة في دهراود للحصول على بعض الرجـال في حالة احتاج الفريق إلى قوة للرد السـريع في مكان قريب. كنا نأمـل الحصـول عـلى بعـض المعلومات المفيدة عن مكان باري، وكنا نؤكد أنه ما يـزال في الولايـة ولـيس في باكسـتان. صدمنا أنه فعلاً دخل من الباب. ومـن أجـل حمايـة توزيـع المسـاعدات الإنسـانية، قمنـا بالاتصال بقائد الشـرطة، وأوضحنا له أن الملا باري كان يسـير شمالاً من القرية على طريق ترابي، وطلبنا منه القبض عليه. كان من المخاطرة أن نبلغ قائد الشـرطة بذلك، كما كنا غـير متأكدين تماماً إن كانت الشـرطة تتعاون مع باري، أو كانت خائفة جداً من التحرك ضـده خوفاً من الانتقام. ولكن فريق القوات الخاصة ومقرها في دهراود كان يعمـل مـع رئـيس الشـرطة ورجاله لبعض الوقت، وشهدوا له. لم يكن هناك أي وسـيلة لنتأكد من ذلك على وجه اليقين، ولكن قمنا بمخاطرة محسوبة، وقررنا أن نثق برئيس الشـرطة.

في غضون ثلاثين دقيقة اتصل مارك وأخبرنا أن الشـرطة اعتقلت الرجل وأكدت أنـه الملا باري. كان قائد شـرطة دهراود يخطط لجلب باري إلى تارين كوت في وقت متـأخر مـن تلك الليلة. ويبدو أنـه لم يرغـب في أن يُبقـي بـاري في مقـر المديريـة لفـترة أطـول ممـا كـان ضـرورياً، خوفاً من تعرض القاعدة للهجوم. لقد كانت لحظة عظيمة بالنسبة إلينـا وكانـت بالضبط السبب الذي جعلني أنضم إلى القبعات الخضـر. كانت الطريقة التي نعمل بهـا حقـاً فريدة من نوعها، مقارنة بأي قوة أخرى للعمليات الخاصة في الولايـات المتحـدة أو في بقيـة

دول العالم. الآخرون، مثل قوات العمليات الخاصة التابعة للبحرية الأمريكية، وقوات الصاعقة البرية الأمريكية، أو القوات الجوية الخاصة البريطانية والأسترالية، ركزوا على إيجاد، وتثبيت، وإزالة العدو. أما نحن فحاولنا تكوين أصدقاء وتركناهم يعثرون على أعدائنا. تعلمنا الثقافات واللغات المحلية التي نعمل بها مع، ومن خلال أعضاء محليين من الدول المضيفة. في هذه الحالة، لم يكن الأمر فقط أننا أبعدنا قائداً لطالبان يشبه المافيا عن الشارع، بل انتشر الخبر بسرعة في المنطقة أن شرطة دهراود هي من ألقت القبض عليه، وتلقوا الفضل في ذلك. إن توزيع المساعدات الإنسانية وبرنامج العمل المدني الطبي، اللذين أظهرا للأفغان فوائد إيجابية من وجودنا، عادا بفوز مزدوج على الرائد غارسيا وعليّ، وكانا أكثر فاعلية من قتل باري برصاصة قنّاص، أو دهم مقره في ظلام الليل.

حتى مع إبعاد الملا باري، بحلول منتصف الصيف استولت طالبان على مركز المديرية في تشورا شمال تارين كوت، وهي إحدى المدن الرئيسية في الولاية. كانت طالبان قد أنشأت مأوى لها في الوادي؛ وكانت تستخدمه قاعدة للعمليات لمهاجمة مركز المديرية في تشورا وكذلك تارين كوت. وكانت طالبان تهدد بتحويل النصف الشمالي بأكمله من المديرية إلى منطقة محظورة على الحكومة الأفغانية وإيساف. جمعت القوات الخاصة الأسترالية معاً قوة تحالف لاستعادة السيطرة على المركز وإخلاء وادي بالوتشي الاستراتيجي الذي يبدأ في تشورا ويجري قطرياً عبر مركز الولاية. طلب الأستراليون سرية مشاة تقليدية أمريكية من الفرقة الجبلية العاشرة - على الرغم من أن القيادة الهولندية اشتركت مع الأستراليين في أماكن متعددة - لأن تشورا كانت خارج المنطقة المسموح بها بالعمليات للهولنديين. لذلك قادت سريّة "برافو" 1/ 4 للمشاة مركبات الهامفي من الولاية المجاورة. خاطب الأستراليون أيضاً قيادة فرقة الإمارات العربية المتحدة في باجرام لطلب وجود فصائل الإمارات العربية المتحدة وفريقي كقوة رد سريع احتياطية. واعتقدتُ أن عملية بيرث، كما سمّاها الأستراليون، ستكون تجربة جيدة لفصائل الإمارات العربية المتحدة، لكنني شككت في قيادة المقدم الأسترالي للقوة بناء على الطبيعة الحركية البحتة للمهمة (أي إن الغرض كان قتل العدو).

كان القائد طويل القامة، ويتمتع ببنية عدّاء، وأصر على أن يُنادى مارك. وكانت القوات الجوية الخاصة هي وحدة النخبة في أستراليا، وكان لدى مارك لمسة -استحقها عن جدارة- من الغرور والتحفظ اللذين يأتيان مع هذا النوع من العمل. على النقيض من ذلك، فإن معظم عناصر القوة كانوا ودودين للغاية، فضلاً عن كونهم على دراية بالعمليات العسكرية. خلال الإحاطة الأولية بالمهمة، سألتُ مارك حول خططه لإعادة إدماج الجيش الوطني الأفغاني أو الشرطة كقوة "سيطرة" بعد تطهير الوادي من طالبان. كما سألته هل كان فريق إعادة الإعمار للولايات سيجري مشروعات تنمية لاحقة في الوادي، أو لا.

أجاب مارك: "لا، إنها مسألة القوات المناسبة لأداء المهمة، يا صديقي، قبل أن يضيف إنها ليست مهمتنا، كما أننا لا نمتلك الموارد اللازمة للسيطرة على أراضٍ أو القيام بمشروعات التنمية. مهمتنا هي إيجاد الأشرار وقتلهم. نحن لا نحتل مراكز المديريات أو نبني المدارس. أحتاج إلى رجالي مجتمعين هنا، وعلى استعداد ليكونوا بمنزلة القوة الضاربة بينما نجمع المعلومات. بصراحة، نأمل أن يخفّض الهولنديون محاذيرهم في نهاية المطاف، وأن يعملوا مع الأفغان ليقدموا المزيد من تلك الأمور خارج تارين كوت ودهراود".

أقنعته بالموافقة على تواصلي مع الجيش الوطني الأفغاني لإدراج الجيش في عمليته معتقداً أن الجيش الوطني الأفغاني قد يكون مستعداً لتخصيص فصيل للمشاركة في عملية التنظيم مع الشرطة غير العاملة في تشورا.

مرة أخرى دخلت خطوط سلطة القيادة والسيطرة الملتوية حيّز اللعبة، بينما عملتُ على تنسيق مشاركة الجيش الوطني الأفغاني في عملية بيرث. خاطبت فرق التدريب المرافقة، ورأوا أنها فكرة عظيمة. هؤلاء بدورهم أقنعوا قائد السرية الأفغانية بأنه يمكن إرسال فصيل إلى مركز المديرية في تشورا، بعد أن تقوم قوات تحالف الولايات المتحدة وأستراليا والإمارات العربية المتحدة بإخراج طالبان منها. ومع ذلك، شعر قائد السرية الأفغاني بالقلق من أن قائد شرطة تشورا سيحاول أن يستأسد على ضباط الجيش

الوطني الأفغاني المبتدئين، ولكن في نهاية المطاف لان للأمر، إذ اعتقد أنه سيكون من الجيد بالنسبة إليهم ممارسة بعض القيادة بأنفسهم. وكانت فرق التدريب المرافقة والتسلسل من القيادة في كابول على استعداد لإرسال فريق إضافي مع فصيل الجيش الوطني الأفغاني إلى تشورا.

ولسوء الحظ، فإن قائد كتيبة الجيش الوطني الأفغاني في قندهار رفض الأمر تماماً. وكان السبب الرسمي أن وزارة الدفاع كانت متأخرة في دفع الرواتب للرجال، وأرادوا أن يكونوا في تارين كوت عندما يجري تسليم الدفعة اللاحقة في الأسبوع المقبل. أما السبب الحقيقي، الذي اكتشفناه من إحدى فرق التدريب المرافقة هو أن قائد الكتيبة لا يثق بشرطة تشورا، وهو على قناعة بأنهم قد عقدوا صفقة مع طالبان. أما نحن فظننا أن الأمر متعلق بأنه من طاجيك الشمال، ولا يثق بالبشتون بشكل عام.

كان القائد الهولندي أيضاً لا يتفق مع فكرة إرسال الجيش الوطني الأفغاني إلى تشورا. وكان قلقاً من أنه بحاجة إلى إرسال رجاله كقوة رد فعل سريع إلى أقصى الشمال في حال تعرض الجيش الوطني الأفغاني وحفنة من الأمريكيين لتهديد كاسح. في النهاية، لم يرسل الجيش الوطني الأفغاني أي جندي لدعم عملية بيرث. وأراد الأستراليون كعادتهم وضع عدد من فرق الاستطلاع القنّاصة المؤلفة من شخصين، على طول سلسلة التلال التي تحد الجانب الشرقي من وادي بالوتشي، لتكون لهم أعين على الحركة في الوادي. طلبت قيادتهم أن يرسل الهولنديون فصيل مشاة محمولاً آلياً ليتمركزوا على بعد بضعة كيلومترات خلف التلال، حيث سيكون القنّاصة الأستراليون موجودين. وفصيل المشاة سيوفر على أقل تقدير حراسة خلفية وقوة للرد السريع في حال أصبح القنّاصة في ورطة. ومع عدم وجود طائرات مروحية في قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي)، وحيث إن المسافة عن أقرب قاعدة جوية في قندهار بعيدة، كانت المساعدة تبعد ساعات، وكنا معتمدين كلياً على أنفسنا تجاه أي نوع من الدعم السريع. إذا تم اكتشاف تلك الفرق من قبل مجموعة كبيرة من المسلحين، يمكن أن توقع الهزيمة بهذه الفرق قبل أن يتمكن الدعم من الوصول.

ومع ذلك، وحيث إن القنّاصة من المحتمل أن يشاركوا في عمليات هجومية متعمّدة، أي إطلاق النار على مقاتل متمرد بعد تحديد هويته، كان على فريق القيادة الهولندية سؤال الممثل العسكري الوطني في كابول إذا ما كان دعم عملية قنّاصين مسموحاً به وفقاً لقواعد الاشتباك والمحاذير الوطنية الهولندية، أو لا. بدوره، أرسل الممثل العسكري الوطني طلباً إلى وزارة الدفاع في لاهاي، التي على ما يبدو استشارت لجنة الدفاع في البرلمان الهولندي حول إمكانية الاستثناء من القواعد.

صُدمتُ بشدة عندما أخبرني مارك خلال اجتماعنا التنسيقي النهائي لعملية بيرث أن طلب الفصيل الهولندي قد ذهب إلى البرلمان الهولندي للنظر فيه. "أتمنى لو كنت أمزح، يا صديقي. أنا لا أعرف كيف سيخوض الناتو حرباً بهذه الطريقة. إنها حرب بتوافق الآراء. ليست لدينا قيادة موحدة". وبدا عليه الاشمئزاز. ومرّت أيام على تقديم الطلب من قبل الأستراليين. ولحسن الحظ، تقدّم الرائد المسؤول عن العناصر التابعين لدولة الإمارات العربية المتحدة في أوروزغان وتطوع بالقيام بواجب حماية القنّاصين من الخلف، بدلاً من ترك الأستراليين معرضين للخطر؛ "وعندما يصبح الوضع ملائماً، سننتقل إلى الوادي كقوة احتياطية". أعجبتُ بالإصرار لدى الإماراتي، وشعر القائد الأسترالي بسعادة غامرة بعرض الإمارات العربية المتحدة.

بعد أسبوع، وبعد مرور يومين من الجلوس في الصحراء الحارقة عند قاعدة تلال بالوتشي، كنا قد استفدنا جيداً من وقتنا بإقامة نقاط تفتيش عشوائية للسيارات على الطريق الذي يمتد من تارين كوت شمالاً إلى تشورا، ولكن بعد ساعات قليلة انتشر الخبر أننا هناك، وتوقفت حركة مرور السيارات بالكامل. وأخيراً، جاءت ثلاث مركبات هولندية مدرعة ذات ست عجلات على الطريق الترابي من الوادي الأخضر، على الطرف الشمالي من تارين كوت. قفز ملازم أشقر من إحدى المركبات بينما بدأتْ بالتوقف.

"لم نُمنح الإذن لدعم فرق القنّاصة بشكل مباشـر"، قـال بينـما كـان يقـترب منّـا. وأضاف "لكن قائدي سمح لي بتسـيير دوريات في هذه المنطقـة خـلال اليـومين المقبلـين. ولديّ ترددات اللاسلكي لفرق القنّاصـة وعلامـات النـداء، لـذلك، بطبيعـة الحـال، إذا جاءها هجوم، فإن قواعد الاشتباك لديّ تسمح لي أن آتي إلى معونة عنصـر من التحـالف. والأستراليون مرتاحون لهذا ويريدونكم في مكانكم كقوة احتياط لهـم". مـن الواضـح أن الضابط، وهو برتبة ملازم، كان يشعر بالحرج من الحاجة إلى التوصل إلى مثل هذا الحـل في مهمة قتالية أساسـية، لكنه أكد لنا أن "دوريته" لم تكن تنوي أن تذهب إلى أي مكان وأنهـا ستبقى هناك عند قاعدة تلال بالوتشـي.. "وتباً للبرلمان"!

"بارك الله فيك، صديقي" فقلت له وأنا أصافحه، وأشار الملازم الإماراتي إلى رجاله بالاستعداد ليتقدموا إلى مصب وادي بالوتشـي على مشارف تشورا.

أصدرت قذيفة الهاون التي سقطت أمامنا صوتاً مكتومـاً، تلتـه فرقعـة بينـما مـرت الموجة الصوتية فوق رؤوسنا. وكان كبير المسـعفين لـدينا، بـراين، ورقيـب الاتصـالات، غراهام، وضابط الارتباط للقوات الجوية الخاصة الأسترالية، والـت، وتريـب قـد ذهبـوا شمالاً إلى الوادي الأخضـر حول تشورا معي في مركبَتي التنقل البري الخاصتين بنا. وكـان معنا فصـيلان من فصائل الفرقة الخاصة التابعة لدولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة، التـي شكّلت خط الحراسة إلى الشـرق من مركز المديرية. كانت مهمتنا منع مقاتلي طالبان شـمال شـرق تشورا من التقدّم نحو الجهة الخلفية للفرقة الخاصة الأسترالية، بينما اتجهـت الفرقـة نحو الجنوب-غرب أسفل الوادي. وفي شمال شـرق تشورا، توجد مديريـة جيـزاب ذات السمعة السـيئة، وهي التي لم تكن فيها حكومة أفغانية أو شـرطة أو وجود لإيساف؛ لقـد كانت منطقة للسخط القبلي.. ودعم طالبان.

كانت المنطقة الخضـراء الخصبة تمتد من الشمال-الشـرقي إلى الجنوب-الغـربي عـلى امتداد النهر الذي يتدفق من القمم في وسط البلاد ويقطع الولاية من النصف بينـما يجـري مروراً بدهراود، وفي نهاية المطاف إلى سد كاجاكي على نهر هلمند. قبل ذلك بأسابيع عدة،

كانت جماعة طالبان قد سيطرت على مركز المديرية، وأضرمت النار في شاحنات عدة تابعة للشرطة، ورفعت علمها الأبيض الدالّ على النقاء. وكانت القوات الجوية الخاصة الأسترالية وأمراء الحرب المحليون وقائد الشرطة، مطيع الله، جنباً إلى جنب مع واحدة من مفارز العمليات من قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي)، قد طردوا جماعة للحاكم منيب لإقناع التحالف بإرسال تعزيزات. كنا قد تلقينا مراراً تقارير عن مجموعة من عشرين إلى ثلاثين من المقاتلين يخططون للنزول إلى الوادي من مديرية جيزاب الشمالية لاستعادة السيطرة على مركز المديرية. من الواضح أنهم جاؤوا، وأحضروا قذائف الهاون.

سقطت قذيفتان تقريباً في وقت واحد إلى الجهة اليمنى أمامنا، أقرب قليلاً من الأولى. قال براين بهدوء: "إن القذائف ترافقهم في الدخول، مايك"، معلناً ما هو "بديهي" ومعلوم.

صاح غراهام: "مهلاً، أرى وميضاً على التل!". وقفز على قمة السيارة ومعه مجموعة من المناظير للحصول على رؤية أفضل. "سيدي، أرى طفلاً هناك. إنه ينظر إلينا بالمنظار. أراهن أن النذل الصغير يراقب من أجل قذائف الهاون!".

سقطت قذيفة أخرى محدثة دوياً هائلاً على بعد نحو مئتي متر خلفنا. وسحب والت بندقية القنّاص وأخذ يعدّل المنظار. كان الملازم أول من دولة الإمارات العربية المتحدة يقول لرجاله عبر اللاسلكي أن يستعدوا لتغيير موقع خط الحماية؛ كان على حق في الإعداد للتحرك. ولكن التل -الذي ظهر به الطفل- كان يهيمن على هذا الجزء من الوادي؛ فحتى إذا انتقلنا، فستمطر قذائف الهاون قريباً علينا مرة أخرى. ولم أكن أحب -بطبيعة الحال- أن تتم ملاحقتي حول الوادي من قِبل فريق هاون طالبان.

أعطيتُ التعليمات: "حمد، يُرجى إبلاغ الملازم أننا أكدنا للقائد الأسترالي أننا سنبقى في هذا المكان حماية لجناحه". وكان حمد القنّاص يتحدث الإنجليزية بطلاقة وهو الذي كان قد كسر القواعد لمساعدتنا خلال تبادل لإطلاق النار في وادي تاجاب. ومنذ ذلك الحين طلبتُ أن يكون معي في كل مهمة. تحدث على الشبكة الداخلية لفصيل دولة

الإمارات العربية المتحدة باللغة العربية. كان بإمكان الملازم بسهولة تجاهلي وتجاهل مارك، إذ لم يكن لدينا أي سلطة حقيقية عليه. ولكن في موقف يُحسب له، طلب من رجاله الثبات في أماكنهم إلا إذا بدأت القذائف تسقط ضمن مئة متر.

"سيدي، لا يمكننا السماح لهم بمحاصرتنا بالقذائف، ولكن لا يمكننا كذلك السماح لهم بطردنا من هنا بعدد قليل من قذائف الهاون"، صاح والت من وراء بندقيته المسنودة على غطاء محرك المركبة الهامفي. "ينبغي أن نعتني بأمر هذا الصبي. سأبقي نظري عليه".

"لقد تحدث الصبي للتو على جهاز اللاسلكي. إنه بالتأكيد من يُراقب أهداف الهاون!" صاح غراهام من على سطح مركبة التنقل البري التي كان يقف عليها.

وكانت هذه معضلة أخرى مثل تلك التي واجهناها باستمرار خلال تدريب التأهيل النهائي لنصبح أعضاء في القبعات الخضر؛ مرة أخرى فكرت بالمدرّبين خلال تمريننا النهائي، المُسمّى "روبن سيج"، حيث كانوا يقولون مراراً وتكراراً إننا يوماً ما سنجد أنفسنا في مثل هذه المواقف بشكل حقيقي.

كنت أعرف أنه لا يمكنني قتل هذا الصبي. فقد كان طفلاً. قد تكون طالبان تمسك مسدساً إلى رأس والده في القرية، أو أنه تغذّى على الدعاية عن الكفار الأمريكيين منذ صغره، كقصة أننا كنا نستغل المرأة الأفغانية، أو ربما أعطوه المال. كنت أعرف أنني يمكن أن أبرر إطلاق النار على الرغم من أنه لم يكن لديه سلاح. إن استخدام جهاز لاسلكي ومناظير لاستدعاء قذائف الهاون عمل عدائي بنيات عدوانية. وكان لا يختلف عن تجهيز مدفع رشاش من خلال توفير صناديق من الذخيرة. كان علي أن أقرر ما يجب القيام به، وبسرعة.

صرخت "والت، ابدأ في إطلاق النار عند قدميه والاقتراب منه ليهرب"، اتكأ على بندقيته، أطلق نفساً، توقف لوهلة، وضغط على الزناد. انفجرت سحابة من الغبار على بعد بضع أقدام أمام الصبي.

قفز الصبي إلى الوراء. صاح غراهام "إنه يتحدث في جهاز اللاسلكي الخاص مرة أخرى"، أطلق والت طلقة أخرى. هذه المرة انفجرت صخرة إلى يسار الصبي. سقط منظاره وغاص وراء صخرة. ثم شاهدناه يلتف ويركض على حافة سلسلة التلال.

توقف قصف قذائف الهاون. فتنفسنا الصعداء بشكل جماعي. لم أكن متأكداً إن كنت أكثر ارتياحاً بوقف إطلاق قذائف هاون أو لأننا لم نضطر إلى إيذاء ذلك الطفل.

ما إن غابت الشمس حتى انتقلنا إلى مركز تشورا واحتللنا مقرّ الشرطة المهجور بالقرب من مركز المديرية. في هذه الأثناء مسحت القوة التابعة للقوات الجوية الخاصة الأسترالية سلسلة من التلال إلى الجنوب منّا. واندفعت قوات سريّة "برافو" للمشاة إلى أسفل الوادي نحو تلة صغيرة كانت بمنزلة مقبرة للمجتمع المحلي. وسافرنا خلال الليل لنتحرك بطريقة غير ملحوظة. كان مركز المديرية مبنياً من الجصّ المطلي باللون الأبيض مع جدار يحيط به، كنمط المباني الحكومية في أفغانستان. وكان له سقف معدني أزرق لامع. وفي الخارج لوحة من القصدير مكتوب عليها، "مقدَّمة من وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة 2005". كانت اللوحة مملوءة بثقوب الرصاص، وفي داخل جدران مجمع الشرطة تقبع هياكل مركبات عدة محترقة في الفناء. كانت النوافذ كلها محطمة، والغرف جميعها فارغة من الأثاث. لقد تعرّض المكان للنهب بالكامل؛ إما من قبل طالبان وإما من الشرطة التي هربت من المكان.

تسلقتُ على برج إلى الجدار الذي يواجه بقية تشورا، وفي الأفق كانت سلسلة الجبال، حيث تم وضع فرق القنّاصة الأسترالية المهيمنة على الوادي كله، وتمتد على طوله. ومباشرة إلى الجنوب الغربي منّا الدوار الصغير، حيث يلتقي الطريق المتجه جنوباً إلى تارين كوت مع الطريق الممتد جنوب-غرب على طول وادي بالوتشي. في وسط الدوار يقف برج قصير من طابقين باللون الأصفر مع سقف أزرق. على الرغم من أن الكتابة على جانب البرج أشارت إلى أنه بني ودشن من قبل فرقة المشاة الـ 25 في العام الماضي 2005، بدا البرج كما لو كان عمره سنوات، ومرّت عليه الكثير من الصعاب. كان جزء

من المشكلة يتمثل في سوء نوعية الخرسانة ومواد البناء الموجودة في أفغانستان، ولكن جزءاً آخر من المشكلة كان يكمن في أفغانستان ذاتها سواء الناس أو المباني، كان للمكان سمة تجعل الأشياء تشيخ مبكراً. حاصرت أكواخٌ من الطين ذات غرفة واحدة الدوار وكانت بازاراً للمدينة. وكان لمعظمها نوع من الشرف، يظللها سقف من القش المصنوع من العصي التي من شأنها أن تسمح لمالكيها بالخروج من الحرارة الخانقة في محالهم والحصول على بعض الظل.

ركّزتُ على تلّة زرقاء ممتدة عند قاعدة البرج، وسرعان ما أدركت أن ما أراه جثة ترتدي زي الشرطة الأزرق الفاتح. وقف عندها رجلان لبضع ثوانٍ، ثم تابعا المشي. في وقت لاحق تفحّصنا الجثة خلال دورية عبر المدينة، ونصّت ورقة معلقة على صدر الرجل، "لا تلمس هذا الرجل، سيلقى المصير نفسه كل مَنْ يتعاون مع أبناء كرزاي (وهو مصطلح تدعو به طالبان الحكومة الأفغانية) والمحتلين الكفرة.. انظر إلى الله، وإلى حماة كلمته في كل ما تحتاج إليه".

وغني عن القول، أنه كان لدينا القليل جداً من التفاعل مع سكان تشورا أو وادي بالوتشي. والعدد القليل من الناس الذين بقوا لم يتحدثوا إلينا بدافع الخوف. قال لنا مدرس متقاعد إنه كان يود أن يعمل معنا، لكنه لم يكن واثقاً من أننا سوف نبقى فترة كافية لحمايته وعائلته. لعنتُ نفسي لعدم قدرتنا على القيام بعمل أفضل يتمثل في تنسيق وجود للجيش الوطني الأفغاني للمتابعة.

أطلق مارك عملية بيرث عن طريق دفع القوات الخاصة التابعة له وسريّة "برافو" إلى الجنوب الغربي من الوادي. وعن بُعد اختلط صوت نيران الرشاشات مع انفجارات متقطعة أسفل الوادي. لقد استمعتُ إلى اللاسلكي في السيارة في الفناء في الأسفل. كانت قوات المشاة في سريّة "برافو" قد واجهت مقاومة شديدة عند قاعدة ما كنا نسميه "تل المقبرة". وكان الجنود يشاهدون مجموعات من مقاتلي طالبان الصامدين في شبكة من الخنادق، والجدران الحجرية، والمجمعات المحصنة. بعد وقت قصير من بدء المعركة كان

بين المشاة ضحايا، وكانوا يطلبون الإسناد الجوي. في غضون عشرين دقيقة حلقت طائرة من طراز A-10 للهجوم الأرضي في سماء المنطقة، ورشاشها الهائل المحمول على مقدمة الطائرة ينفث نيرانه. كانت الطائرة قد صمّمت لتدمير الدبابات الروسية إبان الحرب الباردة، وكان رشاشها من عيار 30 ملليمتراً يشبه رشاش جاتلينج، يطلق قذائف بطول ذراع رجل، وبدا صوته وكأن السماء قد تصدعت. كان بإمكاننا أن نرى مجموعة من المركبات عند قاعدة تل المقبرة تنفجر في سحابة من الغبار والشرر. ولم يمضِ وقت طويل حتى وصلت مروحية للإخلاء الطبي برفقة مروحيتي أباتشي هجوميتين لالتقاط عدد من المشاة الجرحى.

وهناك، في مركز الشرطة، جلس رجالي، وعند البوابة وقفت مركبات عدة تابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة ومحركاتها تعمل وهي على أتم الاستعداد للاستجابة لأي طلب لقوة الرد السريع. وما إن اختفت طائرة الـA-10 فوق الأفق، حتى سمعت صوت صدع عالٍ بدا وكأنه طلقة مدفع قبالتي عند الجهة اليسرى. وبينما كنت ما أزال واقفاً في البرج، التفتُّ ورأيتُ جسماً أسود كبيراً يطير على ارتفاع نحو خمسة أقدام فوق كتفي الأيسر وينفجر خلف مجمعنا. وبدأ جنود دولة الإمارات العربية المتحدة المكلفين بواجب الحراسة على الجدار على الفور بإطلاق كل ما لديهم من ذخيرة على سحابة من الدخان والغبار في خط من الأشجار عبر حقل على بعد نحو أربعمئة ياردة إلى الجنوب من حيث نحن.

وأدركنا في تلك اللحظة ما كان مارك يخشاه: معركة على جبهتين؛ أمامنا وخلفنا في الوادي الضيق. وبينما تقدّم الأستراليون والمشاة الأمريكيون في وادي بالوتشي في مواجهة مقاومة شديدة، كانت حركة طالبان قد قامت بالتعزيز من جيزاب في شمال شرق البلاد من أجل الضغط علينا من الخلف.

وسرعان ما عملت مع الملازم الإماراتي على إرسال مجموعتين من الرجال لتطويق جانبَي خط الأشجار. حلقت طلقات أخرى عدة نحو المجمع ولكن، ولله الحمد، مرّت من فوقنا أو سقطت أمامنا. بدا الأمر وكأن الإطلاق من مدفع طائرة. حددنا المصدر وكان

مدفعاً خفيفاً عديم الارتداد، وهو ما بين مدفع بازوكا ومدفع صغير يمكن أن يطلق طلقة مباشرة على الهدف، ويُنصَب عادة على قاعدة ثلاثية أو على الجزء الخلفي من شاحنة. إن استخدام هذا السلاح في أوروزغان يمثّل، من دون شك، تصعيداً كبيراً في قدرات طالبان. ومن الواضح أن أيام تكتيكات الكرّ والفرّ مع عدد قليل من بنادق الكلاشنكوف قد اختفت منذ فترة طويلة. ومن شأن ضربة مباشرة من طلقة مدفع عديم الارتداد -بالتأكيد- تدمير مدرعة هامفي أو تفجير جزء من جدار المجمع.

أفادت دورياتنا الراجلة بأنها شاهدت مجموعة من الرجال يقفزون إلى شاحنتَي هايلكس بيك-آب على الجانب الآخر من النهر، ويغادرون مسرعين عندما اقتربت الدوريات من خط الشجر. وكان أعضاء حركة طالبان -بذكاء- قد جعلوا النهر الذي ما زال يجري بمياه الثلوج الذائبة، حائلاً بيننا وبينهم.

"إلى بانيشر (Punisher) 5-3 ألفا، معك 5-3 دلتا"، قال براين على الشبكة؛ "صادفنا للتو شاحنة هايلكس ثالثة تأتي مسرعة من الأشجار فيها رجل واحد في سن الخدمة العسكرية. لقد أوقفناه بإطلاقنا بضع طلقات على محرك الهايلكس، ولدى الرجل رزمة من النقود وأربع بنادق كلاشنكوف في الخلف وحقيبة جميلة من الأفيون المجفف والحشيش، وستة هواتف محمولة، وشيء آخر سيثير اهتمامك. سأجلبهم معنا".

"أنا مجرد مزارع فقير"، قال الرجل بلغة البشتو لمترجمي، سبارتاكوس. (كان اسمه الحقيقي راشد، ولكن أحد رجالي المهووسين بفيالق الرومان اعتقد أن اسم سبارتاكوس بدا أفضل). "جاء أعضاء حركة طالبان إلى بيتي، أخذوا أخي الأصغر، وأمروني بحراسة هذه الأسلحة لهم وإلا فإنهم سيقتلون شقيقي. لا أعلم شيئاً". وضع سبارتاكوس رِجلَه على كتف الرجل ودفعه حتى سقط على جانبه. وكان سبارتاكوس شاباً طاجيكياً قصيراً وممتلئ الجسم من كابول، ولا يحب أي شخص يتعاون مع طالبان الذين يعتبرهم مجموعة من أذناب باكستان. ويؤكد قناعته وقناعة الكثير من الطاجيك، أن الباكستانيين كانوا يستخدمون طالبان لاستعادة السيطرة على بلاده.

قام سبارتاكوس بالترجمة بينما سألنا الرجل جميع الأسئلة الواضحة: لماذا كان في منطقة قريبة من رجال يطلقون النار من سلاح ثقيل علينا؟ كم عدد مقاتلي طالبان الذين جاؤوا إلى منزله؟ لماذا جاؤوا إلى منزله على وجه الخصوص؟ من أي قبيلة هو؟ والأهم من ذلك كله، لماذا كان هناك صندوق خشبي من طلقات جديدة لمدفع عديم الارتداد في الجزء الخلفي من شاحنته؟ اعترف بأنه ينتمي إلى قبيلة نورزاي من جيزاب، وهي القبيلة التي كانت قد انحازت على نطاق واسع إلى طالبان إبان حكمهم، ولكنه عاد وقال، "أنا لا أعرف شيئاً".

أبلغ غراهام القوات الخاصة ومقرّ القوات الجوية الخاصة الأسترالية في قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي) بأرقام الهواتف المحمولة الذي كان في حوزة الرجل. لم نستطع إيجاد الاسم الذي أعطانا إياه، حاجي لالا، على أي من القوائم لدينا في تلك الآونة، لكننا كنا نعلم أنه من المرجّح أنه اسم مستعار. أبلغنا مقرنا الرئيسي بأن نُبقي عليه على الأقل خلال الليل لمنحهم فرصة للاستعلام والتأكد من خلال قواعد البيانات الخاصة بهم. عاد الأستراليون واقترحوا أن نبقيه طوال مدة عملية بيرث، بحيث لا يعود ويساعد طالبان في مهاجمتنا. أما الهولنديون، الذين لم يشاركوا في عملية بيرث، رصدوا تقريرنا على اللاسلكي، طالبوا أن نسلّمه فوراً إلى الشرطة المحلية أو أن نفرج عنه. وعندما ذكّرت الضابط الهولندي على الطرف الآخر من الهاتف بأدب أنني أعمل تحت قواعد مختلفة للاشتباك بشأن المعتقلين، أبلغني أن فرقة العمل الهولندية مسؤولة عن الأمن في أوروزغان، وأنها لن تقبل لأي عضو من التحالف أن يحتجز معتقلين ما داموا هم [الهولنديون] المسؤولين. وأعرب عن قلقه وخصوصاً أننا سوف نستخدم أساليب الاستجواب "على الطريقة الأمريكية"، مثل محاكاة الغرق. أبلغته أنه ليس لديّ السلطة لاستخدام مثل هذه التقنيات، وقلت له إنه يتعين عليه التحدث في هذا الأمر إلى قيادتي العليا. بعد ذلك توقفتُ عن الرد على اتصالاته. كان هذا مثالاً آخر يوضح كيف كانت الهيكلية المعقّدة لقيادتنا تعمل في ساحة المعركة يومياً.

أخذنا حاجي لالا إلى سوق تشورا. ولم يعلن أي أحد أنه يعرفه. لم نتمكّن من العثور على الشرطة المحلية في أي مكان، ولم نكن مهتمين جداً بإبقائه معنا حتى نهاية العملية. وكنا نعلم أيضاً أنه في نهاية المطاف، حتى لو أبقيناه معنا، فلم يكون لدينا ما يكفي من المعلومات لتسويغ اعتقاله في قاعدة باجرام الجوية. كنا بحاجة إلى معلومات مؤكدة من مصادر متعددة أنه كان على الأقل قائداً من المستوى المتوسط لتسويغ إرساله إلى هناك. وحتى ذلك الحين، كان من الصعب الحصول على تسويغ احتجاز خارج الحدود التي حددها مجلس الاحتجاز. وكنت أعرف، أنه في أحسن الأحوال، وبعد حراسة الرجل لبقية العملية، سنكون قادرين على تسليمه إلى الشرطة المحلية في تارين كوت أو إلى مطيع الله، الرجل سيئ السمعة القائد شبه الشرعي لشرطة الطرق السريعة المحلية. ومن المرجّح أن الشرطة المحلية في تارين كوت ستطلب رشوة من عائلته أو تطلق سراحه بدلاً من أن تطعمه. (كان قاضي ولاية أوروزغان يعيش في قندهار ويأتي إلى الولاية فقط بضع مرات في العام للاطمئنان على ممتلكاته). كان تسليمه إلى مطيع الله الشيء الأسهل ولكنه ليس بالشيء الصحيح. وهناك سبب للقلق حول تعرّض الرجل للتعذيب، أو ببساطة أن يختفي تماماً. قلتُ لسبارتاكوس ليخبر الرجل أنه ذاهب إلى جوانتانامو إلا إذا كان لديه مزيد من المعلومات لنا. برزت عيون الرجل من رأسه بينما ترجم سبارتاكوس ذلك إلى لغة البشتو. وبعد ذلك قلتُ لغراهام وبراين إننا لربما نطلق سراحه في صباح اليوم التالي عندما نتقدم في الوادي.

قضينا بقية اليوم بدوريات راجلة في تشورا وحولها بينما قام الأستراليون والمشاة بتطهير المركبات وشبكات الخنادق التي قام سلاح الجو الأمريكي بتدميرها في الصباح. وما إن استلقيت على فراشي الرقيق ووسادتي حتى أيقظني غراهام، الذي كان ينام وبالقرب من رأسه هاتف يعمل بالأقمار الاصطناعية.

"سيدي، لقد جاءتني مكالمة للتو. لقد ظهر شيء متعلق "بمزارعنا البريء" حاجي لالا" مشيراً إلى الغرفة حيث كنا قد حبسنا المعتقل مع بعض الماء والخبز الأفغاني

وبطانيـة. "سـتقوم قـوة مهـام العمليـات الخاصـة المشـتركة المجمّعـة بإرسـال مروحيـة لاصطحابه. ستكون هنا خلال خمس عشـرة دقيقة".

كانت المروحيات سلعة نادرة نسـبياً في أفغانسـتان في عـام 2006. ونـادراً مـا كـان بإمكاني الحصول على واحدة لإسناد مهمة. ولذلك فإن قيام قوة مهام العمليـات الخاصـة المشتركة المجمّعة بإرسال واحدة منها لإحضار معتقل فهذا أمر كبير. "قد تكـون الهواتـف المحمولة هي السبب" قال غراهام.

كان براين يستيقظ بشكل دوري لإجراء فحوص طبية على الحاج لالا. كنا قد بدأنا بالاحتفاظ بسجل طبي، كامل مع الصور لأي أفغاني نعتقله، حتى لا يتمكّن السجناء مـن توجيه الاتهامات الباطلة عن الاعتداء بعد أن يتم الإفراج عنهم، أو عنـدما يمثلـون أمـام مجلس الاحتجاز في باجرام.

أتاني براين يقول: "سـيدي، إن الرجل يرتجف مثل ورقة، غارقاً في العرق. أحـاول حمله على شـرب الماء، ولكن أعتقد أنه يعاني أعراض انقطاع هائلة عن الأفيـون. لا أمـانع أن أجعله يعاني قليلاً، ولكنني أعتقد أنه ينبغي لنا أن نعطيه قليلاً منه".

"لا بأس"، أجبته، "ولكن فقط إذا كنت تعتقد حقاً أنه يحتاج إليه، وأعطه مصلاً في الوريد أيضاً إذا كنت ترى أنه بحاجة إلى ذلك. اجعله يستعد للذهاب إلى منطقـة الهبـوط. وتأكد من إرسال صندوق الطلقات معه. قد يتمكن رجال الاستخبارات من تتبع الأرقام التسلسلية لمصدرها. أراهنكم يا سادة على وسادتي الإسفنجية أن هذه الطلقات لم تأتِ من بعض كهوف الحقبة السوفيتية".

عندما وصلت المروحية، رافق غراهام المعتقل إلى منطقة الهبوط. وقـال لـه "أعتقـد أنك في النهاية ستزور باجرام". ثم غمغم من دون أن يوجه كلامه إلى أحد بشكل خاص، "أتساءل إذا ما كانوا سـيسمحون لـه بتـذوق مثلجـات ديـري كـوين ورؤيـة أخصـائية التدليك، أو لا".

خلال الأيام الأربعة اللاحقة تدفقت قوافل المدنيين من الوادي إلى الأودية الجانبية أو الكهوف المنتشرة في الجبال على جانبينا، بينما وجدنا أنفسنا أنا وزملائي في الفريق مع فصائل العمليات الخاصة الإماراتية المرافقة لنا وللأستراليين، والمشاة الأمريكيين في معارك متفرقة متناوبة، في سعينا لإخراج مجموعات مقاتلي طالبان من وادي بالوتشي. وفي كل مواجهة تقريباً كان المتمردون يثبتون ويقاتلون حتى الموت. الحمد لله أنهم لم يستطيعوا إطلاق النار بما يستحق الذكر. وفي أحد الأيام تبادلنا إطلاق نيران الرشاشات الثقيلة لأكثر من ساعة من موقعنا على قمة التل، ومن ثمّ ظهر جنوب شرق تل المقبرة دخان كثيف وكأنهم أطلقوا صلية أخرى. كانوا يضربون في كل مكان حولنا، ولكننا واصلنا تغيير مكاننا بحيث لا يمكنهم تحديد موقعنا وتسديد ضربة لنا. كانوا يستخدمون الحيلة نفسها، إذ إن الدخان الصاعد يأتي من خط شجرة أو سقف آخر. يبدو أنهم فهموا تكتيكاتنا، وهو شيء علمناه من اعتراضنا اتصالاً لقائدهم يطلب فيه من رجاله أن ينصبوا الكمائن وأن يستعدوا لدوريات راجلة قد ترسل من التلال إلى الأسفل؛ إلى أشجار البستان الكثيفة التي تحدّ النهر. واصلنا مبارزة القط والفأر النارية هذه، حتى تلقينا أخيراً غطاءً جويّاً. عندها لجأ فريق طالبان إلى الاختباء تحت الأرض.

بعد دقائق رنّ جرس الهاتف الذي يعمل بالأقمار الاصطناعية. كان رقيب الفريق لديّ، مارك، الذي كان قد أخذ مجموعة من رجالنا ورافق القوات الخاصة التشيكية في شمال شرق أوروزغان. "إن سمعتُ 'عبارة بانيشر 5–3، القوات مشتبكة' مرة أخرى على الشبكة اللعينة فسأصاب بالغثيان. ما الذي تفعلونه هناك يا رفاق، تسيطرون على جيش طالبان؟".

في الليلة اللاحقة ملأ الجو مرة أخرى صوت الفرقعة الهائل لإطلاق مدفع. طرت عن وسادتي، معتقداً أنه وابلٌ آخر من مدافع طالبان العديمة الارتداد. وقفتُ هناك في حالة ذهول مرهق في محاولة لإفلات نفسي من الحبل الذي على كيس النوم وبراين يضحك عليّ. كان يرصد جهاز اللاسلكي وقال لي إنه رشاشنا، من رشاش

طائرة AC-130. ركضتُ في الطريق إلى المجمع حيث كان القائد الأسترالي وموظفوه. ومن دون تفكير، هرولتُ نحو البوابة حتى سمعتُ في الظلام "توقف!"، ورأيتُ ظل شخص على السطح رافعاً سلاحه.

"على رسلك! أنا أمريكي يا صديقي!"، صرختُ بينما تجمدتُ في مكاني وأنا على وشك الإصابة بأزمة قلبية. أشار إلي بالدخول، ومشيتُ حتى الشاحنة المسطحة التي احتوت على صفوف من أجهزة اللاسكي وتقوم بدور موقع القيادة الأسترالية. كان مارك يصرخ في السماعة أنه لم يتلقَّ عملياً أي تحذير بشأن القصف من AC-130. كانت قوات العمليات الخاصة الكندية المتمركزة خارج مدينة قندهار على ما يبدو قد تلقت معلومات بأن أحد قادة طالبان الرفيعي المستوى قد انتقل إلى وادي بالوتشي لتولي المعركة، ومن ثم شنّوا هجوماً بالمروحية لقتله أو إلقاء القبض عليه. وعلى الرغم من أن مقرنا الأعلى وفرقة مكافحة الإرهاب (التي يتبع لها الكنديون) يقعان في قاعدة باجرام الجوية، فإنه كان من الواضح أن الخبر لم يصل إلى مارك حتى اللحظة الأخيرة. ولم يكن من المستغرب أن تنبع المشكلة من سلاسل مفككة من القيادة في أفغانستان، حتى بين الأعداد الصغيرة نسبياً من قوات العمليات الخاصة.

صاح مارك في السماعة قائلاً: "إن ذلك المجمع يبعد كيلومتراً واحداً فقط عن موقعي. كان بإمكاننا أن نذهب مشياً إلى هناك! لماذا أتى الكنديون بالمروحية من قندهار؟ ما الذي سيفعلونه ولا يمكننا نحن فعله؟ لقد اضطررتُ إلى وقف جميع العمليات الليلة لأجل هذه المهمة، وهذه ساحة معركة عمليتي أنا!".

شرح قائد مارك الموجود في قاعدة باجرام عبر اللاسلكي أن مقاتلين أجانب مرتبطين بالقاعدة قد انتقلوا حديثاً إلى المنطقة، ويقوم قائد من طالبان بإرشادهم في الحرب. ونتيجة لذلك، تمت إحالة المهمة إلى قيادة منفصلة من القوات الخاصة تتعامل فقط مع غارات مكافحة الإرهاب. رمى مارك سماعة اللاسلكي في مكانها ومضى مبتعداً.

علمت أن ثمة خطأً ما بينما اتكأت على سيارة رينج روفر أسترالية واستمعت إلى الثرثرة على اللاسلكي. انتهى المطاف بالكنديين بأنهم لم يتمكّنوا من الحركة إلى درجة أصبح معها الوضع خطيراً جداً وإلى درجة يتعذر معها على المروحيات العودة وإعادتهم. بدا القتال شرساً عن بعد. وبما يتصف به الموقف من بعض السخرية، طُلب إلى الأستراليين إرسال قوة للرد السريع للذهاب وإخراج الكنديين العالقين. إلا أنهم هم أيضاً علقوا بالنيران الكثيفة. أطلقت الطائرة AC-130 صلية بعد الأخرى من رشاش الـ120 ملم وأرسلت وابلاً من طلقات الجاتلينج عيار 20 ملليمتراً التي بدت مثل أشعة موت ليزر خضراء قادمة من عنان السماء في أحد أفلام الخيال العلمي. لقد صُدمت عندما سمعت نداء الطائرة الحربية "وينشستر" عبر اللاسلكي. كانت الطائرة AC-130 محملة بشكل كامل من ذخيرة الرشاش والرشاشات الصغيرة. وتعني "وينشستر" أن الطائرة استخدمت هذه الذخيرة بالكامل. ولم يسمع أي منا قط بحدوث مثل ذلك الأمر من قبل. ومن كان منهم ما يزال يقاتل بعد أن صمد في وجه تلك المذبحة النارية، بل كان يقاتل لغاية في نفسه.

بحلول هذا الوقت كانت الفصائل الإماراتية وعناصري يجلسون في المركبات، والمحركات تدور بانتظار النداء. وللمرة الأولى خلال فترة انتشاري تمنيت ألا يأتي. بالطبع سوف نفعل أي شيء يتطلبه الأمر للذهاب لمساعدة إخواننا الأستراليين والكنديين، ولكن الدخول في تبادل شديد لإطلاق النار في منتصف الليل، مع عنصرين من العناصر الأخرى منخرطين بشكل كبير؛ كان فعلياً كارثة وشيكة الحدوث. وحين أضفنا حاجز اللغة، كنت أخشى النيران الصديقة من الكنديين والأستراليين أكثر من أي شيء يمكن لأعضاء حركة طالبان أو تنظيم القاعدة أن يفعلوه ضدنا. بدا وكأن نصف سلاح الجو الأمريكي قد وصل إلى سماء المنطقة مع رحيل الطائرة الحربية، حتى تمكّن كل العناصر الأستراليين والكنديين من تخليص أنفسهم على الأرض. وبشكل أو بآخر، لم تلحق بهم سوى ست إصابات لجرحى، ولا قتلى. في صباح اليوم اللاحق رأيت إحدى مركبات بوشماستر Bushmaster الأسترالية، التي بدت مثل ناقلة جند مدرّعة من فيلم "ماكس المجنون". أحصينا تسعة وأربعين ثقباً من الطلقات فيها. لقد اكتشفتُ لاحقاً أن غياب التنسيق بين الوحدات

الكندية والأسترالية في خضم المعركة والتوجيهات المتضاربة لسلاسل القيادة المنفصلة كانت مشكلة كبيرة. فحمدتُ الله مرة أخرى أننا لم ننجرّ إلى الفوضى.

ومن دون راحة للمتعبين، اشتبكنا مرة أخرى في الصباح اللاحق. ولكن أحداث اليوم والليلة السابقين على ما يبدو جعلتنا نرى أن الأولوية لمجال تقديم الإسناد الجوي. تقدمت سريّة "برافو" جنوب غرب أسفل الوادي على الجانب الشرقي من النهر، والأستراليون يتقدمون من الجانب الغربي، وفريق دولة الإمارات العربية المتحدة وفريقي ما زالا يلعبان لعبة القط والفأر مع فريق طالبان ومدفعهم عديم الارتداد، إلى جانب تنظيف جيوب المقاتلين الذين كنا نتجاوزهم. وفي لحظة ما استمعنا إلى فرق القنّاصة الأسترالية المنتشرين على طول القمم العالية المطلة على الوادي بأكمله تعلن انطلاق أربع شاحنات بيك-آب هايلكس في الوادي باتجاه المشاة. كانت الشاحنات بعيدة عن القنّاصة أكثر، ما يمكّنهم من الاشتباك معها، لذلك استدعوا مروحيتَي أباتشي هجوميتين هولنديتين. وأفاد الطيارون بأنهم لا يمكنهم رؤية أسلحة مع الرجال في الشاحنات، ومن ثم لا يمكنهم الاشتباك في ظل القواعد الهولندية. ليس في إمكانهم إطلاق النار إلا إذا رأوا رجالاً مسلحين يقومون بعمل عدائي. ظننت أن القنّاص الأسترالي كان على وشك أن يخرج من بين موجات الإرسال بينما كان يجادل الطيارين عبر اللاسلكي في إذا ما كان الرجال مسلحين أو لا. "أستطيع بصورة جليّة رؤية بنادق كلاشنكوف خارج النافذة!" كان يصرخ عبر اللاسلكي. في النهاية غادرت طائرتا الأباتشي المنطقة من دون إطلاق رصاصة واحدة.

بعد نحو ثلاثين دقيقة اتصل قائد سريّة "برافو" وقال إنه اشتبك مع ما بين خمسة عشر وعشرين من المتمردين. ثمّ سمعنا انفجاراً لإطلاق النار، وسرعان ما بدأ النقيب بالإبلاغ عن وقوع إصابات. أولاً، كان هناك عدد من الجرحى. وبعد ذلك بدقائق أبلغ عن أمريكي قُتل في المعركة. صمتت الثرثرة على اللاسلكي لما بدا وكأنه دهر، بينما استوعبت فرقة القوات الخاصة بالكامل الخبر. علمنا فيما بعد أن الأمريكي هو الرقيب روبرت كيومنتو من نيوجيرسي، وله ابنتان. تذكرت لقائي به قبل مغادرتنا قاعدة العمليات الأمامية (ريبلي)

إلى تشورا، واعتقادي أنه كان صورة طبق الأصل عن قائد فرقة المشاة. عاد اللاسلكي مرة أخرى إلى الحياة مع الكوماندوز الأسترالي على الشبكة. كنا بصعوبة نستطيع سماعه وهو يحاول الصراخ ليعلو صوته على صوت إطلاق النار في الخلفية. كانت قوات الكوماندوز تحاول عبور النهر عند نقطة منخفضة لتطويق المسلحين الذين يقاتلون سريّة "برافو"، ووجدوا أنفسهم في منتصف وابل من القذائف الصاروخية. سقط صاروخ أمام إحدى فرق الكوماندوز الأسترالية وكانوا يبلغون عن العديد من الجرحى.

اتصل مارك وطلب أن ننشر قوة للرد السريع لتغطية الكوماندوز عند انسحابهم. كان فريق القوات الخاصة بأكمله يدرك بشكل مؤلم أن مقاتلي طالبان هؤلاء كانوا –بصورة شبه مؤكدة– من مجموعة الرجال المسلحين نفسها التي رآها القنّاص الأسترالي تنطلق نحونا، وهي التي رفض الطياران الهولنديان الاشتباك معها. وفي هذه الحرب بتوافق الآراء كان الجميع في نهاية المطاف مقيّدين بالمحاذير والقواعد الوطنية التي يخضعون لها وليس التحالف.

أصيب من الأستراليين 12 جريحاً من جراء وابل القنابل الصاروخية، وكانت سريّة "برافو" تتجمّع لإجلاء الجرحى كذلك. انطلقت مركبتا التنقل البري التابعة لفريقي، تليها ثلاث مركبات من نوع بانهارد تابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة، نحو مكان إطلاق النار. وبينما التففنا إلى اليسار واتجهنا إلى الأسفل نحو الوادي، مرّ تيار من ضوء تتبع أخضر لمدفع رشاش عبر واجهة الزجاج الأمامي لمركبتي، ما تسبب بأن ينحرف حمد عن الطريق ويتجه نحو خندق للري. وقفنا فجأة وارتطم رأسي بلوحة القيادة الأمامية المعدنية للمركبة. مرت مركبات البانهارد بجانبنا على الطريق وأضاءت المجمع الذي كان مصدر نيران الرشاشات. سمعنا انفجاراً آخر من خط الشجر إلى اليسار من المجمع، وحوّلت مركبات البانهارد اتجاه النيران، وعلى ما يبدو أسكتتها. وفي الوقت نفسه عمد تريب، رقيب الأسلحة لدينا الذي كان في مركبة التنقل البري خلفنا، وحمد، إلى تثبيت حبل جر المركبات بالجزء الخلفي من شاحنتنا لإخراجنا من الخندق.

تسلقت سطح كوخ قريب من الطين ذي طابقين، ما منحني رؤية ممتازة للوادي والمعركة التي تتكشّف أمامنا. تسلّق المراقب الجوي التكتيكي للقوات الجوية الهولندية السلم الخشبي ورائي، وإلى السقف. لم يكن لدي أي فكرة من أين أتى ولكنني افترضتُ أنه قد تبعنا عبر الطريق. وكان أحمر الوجه ومحرجاً من عدم تحرك طياري الأباتشي. وبمنظارينا تمكّنا من رؤية رجلين مستلقيين وراء مدفع رشاش PKM على سطح مجمع عبر الوادي، بينما اندفع رجال بين الأشجار باتجاه الكوماندوز الذين يعيدون تجميع أنفسهم عند طرف جسر إسمنتي صغير. وأكد القنّاصون الأستراليون الموجودون على سلسلة التلال الشيء نفسه من خلال النظارات البعيدة المدى التي بحوزتهم.

قلت لتريب، الذي كان قد صعد إلى السطح معنا، "هل ترى ذلك؟" إن أفراد حركة طالبان يستلقون في وضع لإطلاق النار، ويغطون رفاقهم بينما يحاولون تطويق الأستراليين!

أجاب تريب "نعم، إن هؤلاء الرجال يناورون مثل فصيل قوات خاصة مدرّبة تدريباً جيداً. إنهم ليسوا منتسبي طالبان من المزارعين. لقد قام شخصٌ بتدريب هؤلاء الشباب على تكتيكات المشاة الخفيفة".

قلت للمراقب الجوّي الهولندي: "حسناً يا أخي، إن هذا هو بالتأكيد دليل على نيات عدوانية، لذلك دعونا نقضِ عليهم قبل أن يفتحوا النار".

ضحك وقال: "أنا لن أكلف نفسي العناء مع الأباتشي، لدينا عتاد آخر في الخدمة".

وبلكنة بريطانية مثالية شاهدته يصنع السحر بالطائرة المحلّقة، محدداً مكان وجود الكوماندوز، ومحدداً موقعنا، وموجهاً طائرة إف-16 نحو موقع رشاش العدو. وبعد نحو دقيقة واحدة، انفجرت سحابة رمادية كبيرة من الدخان في الجو فوق الأشجار حيث كان الرجال يناورون، واختفى المنزل.

"قضينا عليهم بقنبلة متفجرة جواً" قالها وهو يرفع رأسه من جهاز اللاسلكي الخاص به ويبتسم. فبجعل الذخيرة تنفجر في الجو، تمطر الشظايا مثل انفجار قنبلة ضخمة، وهو أمر مثالي لمهاجمة جنود العدو في العراء.

بعد أن عالجنا الجرحى الأستراليين، تقدمنا إلى الأمام أسفل الوادي إلى موقع التفجير. ببطء ورويّة تسللنا سيراً على الأقدام من خلال مجموعات مهجورة من المجمعات والحقول المؤدية إلى الموقع. كان المكان هادئاً بشكل مخيف بينما غابت الشمس تحت الجبال، ملقية بظل طويل عبر الوادي. قفز مترجمي، سبارتاكوس، رعباً عند رؤيته جثث عناصر طالبان. "هؤلاء ليسوا من البشتون"، همس. وأضاف "إنهم باكستانيون!".

سألته هامساً: "كيف تعرف ذلك؟".

رد عليها بالقول "انظر إليهم! ألا تستطيع التمييز؟ إنهم من البنجاب". كان يقصد المجموعة العرقية المنتشرة في الجيش الباكستاني وجهاز المخابرات. "انظر إليهم. هنا في أوروزغان! نحن على بعد ألف كيلومتر من الحدود. أراهن أنهم ضباط الاستخبارات الباكستانية؛ الاستخبارات الباكستانية في وسط أفغانستان! قلت لك إنهم يحاولون السيطرة علينا! "كان يهز رأسه بينما كان يقف في وسط مجموعة من الجثث. قلت: "هذا من شأنه أن يفسر لماذا كانوا مدربين تدريباً جيداً".

وبالفعل بدا الرجال مختلفين. كانوا أكثر سمرة، ولديهم شوارب سوداء بدلاً من اللحى السائدة بشكل مطلق تقريباً في هذا الجزء من أفغانستان. وكانت الجثث قذرة ولكن لم يتمّ لمسها تقريباً. كان الدم يسيل من آذانهم وأعينهم بسبب الصدمة التي سببتها القنبلة المتفجرة جواً. نزعتُ سلاح كل منهم بعناية وفتشت جيوبهم بحثاً عن مواد أسلمها لفرق جهاز الاستخبارات. كان أحدهم يرتدي حزامَي كتف من الذخيرة ملفوفيْن حول صدره على شكل X، كما لو كان قد شاهد الكثير من أفلام رامبو. وكان آخر يحمل مسدس ماكاروف 6 ملليمترات روسي قديم في حزام حول الصدر. وكان لدى آخر كتاب صغير

من الرسومات ودفتر عناوين مملوء بأرقام الهواتف. أحصينا سبع جثث، وكنت أعرف أنه كان هناك اثنان على الأقل في كومة الأنقاض التي كانت في السابق المنزل، حيث كان فريق مدفع رشاش العدو على السطح. شعرتُ بيقين أنه لم يكن هناك أي مدنيين في المنزل، فقد بدا الوادي بأكمله مهجوراً في ذلك الوقت. كانت هناك كومة من طلقات القذائف الصاروخية في مكان قريب، ولكننا لم نتمكن من العثور على القاذفة. بدت الطلقات جديدة نوعاً ما، ولم يكن بالطلاء الزيتوني اللون المحيط بها أي خدش تقريباً. كان صمام الأمان للرأس الحربي لكل الصواريخ قد تمّ سحبه، وهذا يعني أنها كانت جاهزة. كانت تبدو على درجة من الكمال كذلك، كما لو أنها تُركت هناك حتى يلتقطها شخص ما. وعلى الرغم من شكوكي، لم يكن بالإمكان أن نتركها لطالبان ليستعيدوها ويستخدموها ضدنا في وقت لاحق. درت ببطء حول كل قذيفة من القذائف الصاروخية بحثاً عن قنبلة موقوتة؛ وفي نهاية المطاف شعرتُ بالراحة بما يكفي لالتقاطها وإعادتها إلى قاعدة الدوريات.

قمتُ بتحميل صور المسلحين القتلى كافة على القرص الصلب لضابط الاستخبارات الأسترالي بعد أن لحقنا بفريق قيادة مارك. بعد بضع دقائق على خط آمن، عاد ليقول إنه قد تم تحميلها لإرسالها إلى قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة، ثم اتصلوا في وقت لاحق للإشارة إلى أنهم يعتقدون أيضاً أن الرجال باكستانيون، وأن الكثير من أرقام الهواتف كانت من أصل باكستاني، وأن هذا كان أبعد مكان في أفغانستان تمّ العثور فيه على متمردين من أصل باكستاني. قال لي مارك أيضاً إن التقرير الأولي بشأن طلقات المدافع العديمة الارتداد الجديدة وهي التي ما زالت في عبواتها، تشير من خلال أرقامها التسلسلية إلى أنها، على الأرجح، من أصل إيراني.

وقال مارك، وهو يبتسم: "أليس ذلك مميزاً يا زميلي، تظهر لنا إيران النوع نفسه من الحب الذي تظهره لشبابكم في العراق؟!".

يبدو أن القتال حول تل المقبرة، ومقتل قائد كبير ثانٍ من طالبان في الليلة السابقة، والآن خسارة هذه المجموعة من الرجال قد انتزع زمام المبادرة من يد طالبان. وجد عدد

من المترجمين لدينا تردداً تستخدمه حركة طالبان على اللاسلكي، وسمعوا رجلاً يبكي بينما قال إن جميع من في مجموعته قد ماتوا. وقال آخر إنه كان محاصراً وكان يسأل عما يجب القيام به. بعد فترة من الزمن بدأ المترجمون حملتهم النفسية الخاصة بهم، وبدأوا يقولون لهم إنه ليس لديهم أي أمل في الفوز، وتجب عليهم العودة إلى ديارهم. وانطلق سبارتاكوس في كلمة ألقاها على شبكة طالبان حول كيف أن كبار قادة طالبان يختبئون في باكستان وأنهم كانوا خائفين جداً أن يأتوا إلى أفغانستان للقتال معهم. كان الكثير منا، بمن في ذلك ضابط المخابرات الأسترالية والقائد، مقتنعين بأن هؤلاء الرجال كانوا بعيدين جداً عن بيوتهم. وأنهم لم يكونوا المقاتلين العاديين الذين تم تدريبهم في الداخل والذين ينفذون أوامر الملالي المحليين؛ ولم يتم اختيارهم من قبل شيوخ القبائل المحليين الذين اضطروا، تحت تهديد السلاح، إلى إرسال بعض الرجال ليلتحقوا بقادة طالبان المحليين. من الواضح أنهم تلقوا تدريبات تكتيكية ضمن وحدات صغيرة في مكان ما، وكان لديهم إقبال كبير على الصمود والقتال، وكانوا مجهزين بشكل جيد بأسلحة جديدة والكثير من الذخيرة.

في اليوم اللاحق بدأ المدنيون والقرويون يتدفقون مرة أخرى إلى الوادي من الجبال. كان الأمر وكأن شخصاً ما قد علّق لوحة مضيئة عملاقة معلناً "طالبان غادرت!". لم يكن لدينا أي فكرة كيف وصل الخبر. لكن المؤكد، أننا لم نتلقَّ طلقات رصاص غاضبة. على الرغم من أن الأستراليين والمشاة كانوا، حتى الآن، يتحملون العبء الأكبر من القتال في عملية بيرث، شعرتُ وكأنني اكتفيت ولم أعد أحتمل المزيد. فلم نواجه أي اشتباك معادٍ طوال فصلي شتاء عام 2005 وعام 2006. ولكن منذ مبارزة الرشاش-مقابل- المسدس في وادي تاجاب، اشتبكنا خلال كل مهمة تقريباً في الأشهر الأربعة الماضية. وأعتقد أن ما كان يؤثر فيّ جزئياً هو العزلة. وباستثناء عملية بيرث، نادراً ما كان معي أكثر من اثنين أو ثلاثة أمريكيين آخرين، وإذا حدث شيء لاثنين منا، أو ما هو أسوأ، أي إذا حدث مكروه لمسعفنا براين، فإن فرصنا في البقاء على قيد الحياة ستكون ضئيلة أو معدومة.

بعد ظهر ذلك اليوم قمت بمناوبة رصد اللاسلكي وسمعت عن تقدّم فريق القوات الخاصة في قاعدة العمليات الأمامية كوبرا في شمال غرب الولاية إلى الشمال من

القاعدة النيرانية، إلى مديرية تشارتشينو في أقصى الشمال الغربي من الولاية. كان في كوبرا فريقان متمركزان هناك، وكلاهما عانى أكثر من 50٪ من الإصابات وعدد من القتلى في المعركة، في هذه الجولة. وبينما جلستُ في البرج وأعددتُ نظارات الرؤية الليلية لنوبة حراستي، سمعتُ أن أحد الفريقين يصرخ بشكل محموم "القوات مشتبكة"، وأن لديهم رجلاً سقط. أتذكر أنني كنت أفكر في أنه كم كان غريباً هذا النداء. كانت الشمس قد غابت للتوّ، وكانت لدينا ميزة هائلة في الليل، بنظارات الرؤية الليلية، وأنظمة الليزر بالأشعة ما تحت الحمراء على أسلحتنا. حتى لو كانت طالبان قد نصبت كميناً قبل حلول الظلام مباشرة، كانت احتمالات إصابتنا منخفضة جداً إلا إذا كانوا قد تسلّلوا إلى مكان قريب جداً من الفريق.

وخرج صوت مشغل آخر من على اللاسلكي. كان بوسعي هذه المرة أن أسمع الأدرينالين في صوته؛ قال إنهم كانوا يتعرضون لنيران القنّاصة وأعلن سقوط رجل ثانٍ. وبعد بضع دقائق أعلن مقتل الرجل الأول. صمتت الشبكة لبرهة، ثم تلا رقم قائمة المعركة الخاص بالميت، والذي كان يتألف من الحرف الأول من اسمه الأخير وآخر أربعة أرقام من رقم الضمان الاجتماعي. سمح لنا نظام قائمة المعركة بالتعرّف إلى الضحايا من دون بث الاسم الأخير في مسرح العمليات عبر اتصالات القمر الاصطناعي. ثم خرج صوت أحد مسعفي الفريق على الشبكة وأعلن أن اثنين من مدفعي البرج في الوحدة قد تعرّضا لطلقات في الرأس كما تم توقيف المركبات وإطفاء أنوارها بالكامل.

قال تريب بينما كان يسير نحوي ليريحني من نوبة الحراسة: "اللعنة! لقد حصل هؤلاء الأوباش على نوع من نظارات الرؤية الليلية ليتمكّنوا من إصابة طلقتين في الرأس في الليل. لربما لم يكن فريق القنّاصين الأسطوري الشيشاني خرافة. إن هذا أمرٌ سيئ؛ وفأل سيئ إذا كان لديهم هذا النوع من المعدات".

وكانت سلسلة من هجمات القنّاصة قد وقعت خلال موسم القتال الصيفي في المنطقة. ففي قندهار تم إطلاق النار على جنديين كنديين من خارج مرمى السمع، ما يدلّ

على المدى الطويل حقاً لطلقة القنّاص. وأصيب أحدهما في منطقة الحوض، أسفل درع جسمه. وأصيب الآخر في الرقبة. وكان هناك نوع من الأساطير الحضرية أن فريقاً من القنّاصة الشيشان التابع لتنظيم القاعدة كان مسؤولاً عن الطلقات. كنّا على الأقل نظن أنها أسطورة حضرية.

وقف كل منا بينما كان صوت مُسعف الفريق يخرج على الشبكة كل بضع دقائق يعلن المؤشرات الحيوية للرجل المصاب. كان النبض وضغط الدم ينخفضان أكثر وأكثر. سمعنا نقيب الفريق يسأل عن مروحية الإخلاء الطبي متى ستأتي. قيل له إنها في طريقها. بعد نحو عشر دقائق أعلن الفريق أن الرجل قد قتل في المعركة وأنهم أنهوا المهمة وسيعودون إلى القاعدة. علمتُ في وقت لاحق أنه كان هناك بعض الارتباك في مطار قندهار حول وحدة التحالف التي كان من المفترض أن ترسل مروحية الإخلاء الطبي. كنّا على يقين بأن أياً من الرجلين لم يكن لينجو بسبب جراحه بغض النظر عن بطء استجابة الإخلاء الطبي. لكن الحادث كان دليلاً آخر على أن القتال في مكان معقّد وصعب مثل أفغانستان كان عسيراً بما فيه الكفاية، ومحاولة القيام بذلك عن طريق تنسيق مثل هذا التحالف الكبير كانت محكومة بالفشل.

في صباح اليوم اللاحق توجهنا إلى القاعدة. كنا في غاية الإرهاق. قام أحد رجالي، الذي سيبقى مجهولاً، عن طريق الخطأ بحمل عبوة الماء بدلاً من البنزين وسكب محتوياتها في خزان الوقود لدينا. كان الجميع مستعدين للعودة إلى القاعدة، وعوضاً عن ذلك كنا نضخ الماء في المحرك. كان الموقف محرجاً جداً، ولكن في النهاية جعلنا مركبة التنقل البري تعمل. وأصبح يراودني القلق من أنه في حالتنا المتعبة، قد يكلفنا الخطأ المقبل أمراً أكبر من الكبرياء.

تقدم الفصيل الإماراتي ومركبتانا باتجاه الجهة الشمالية من العناصر التي تتحرك من خلال ممر البلوشي وتلوي عائدة نحو تارين كوت. ضاقت خطوط التلال على جانبي الوادي عند الممر؛ ما دفعنا إلى وضع يشبه القُمع بينما انخفضت سيارة البنشارد التي تقود

خط سيرنا العمودي في الوادي. كان مجرى النهر الجاف رملياً، في حين كان صخرياً في الجزء السفلي، وعلقت البنشارد للحظة بينما حاولت الصعود إلى الجانب الآخر. تباطأ حمد في نزولنا الوادي للحفاظ على المسافة بين المركبات. كان مدفعيّ البرج في البنشارد معلقاً على الجزء الخلفي من السيارة ليتمكّن من رؤية الإطارات الخلفية بينما كان السائق يشغّل المحرك. لن أنسى أبداً النظرة على وجه مدفعيّ البرج بينما رفع بصره نحونا متسع العينين، وأومأ إلينا بشكل محموم بأن نتوقف وصرخ "قف! قف"، (باللغة العربية). ضغط حمد المكابح بشدة. كانت إطارات البنشارد قد جلست تماماً على لغم كبير مضاد للدبابات وكان العادم قد أزاح الرمال والحصى حول جزء من اللغم.

"تراجع! تراجع! "صرخت. لم أكن أعرف إذا ما كان هذا اللغم ينشط بالضغط أو عبوة ناسفة موصلة عن بعد يمكن أن يكون رجل الزناد يحاول تفجيرها. استدار مدفعيّ البرج في البنشارد للخروج من برج البندقية وركض بعيداً عن السيارة. كما خرج كل من السائق وقائد السيارة أيضاً من الأبواب الجانبية.

قلتُ لحمد، "لا تبتعد كثيراً؛ فقد يكون جهاز التشويش الذي معنا هو ما يمنع رجل الزناد من إرسال إشارة التفجير".

"أيها القائد مايك، أسمع بعض الثرثرة"، قال سبارتاكوس من المقعد الخلفي، ممسكاً بجهاز الاتصال اللاسلكي. وكان ما يزال يتتبّع ترددات طالبان المعروفة. وأضاف قائلاً: "إنهم يتحدثون عنّا؛ هناك شخص يراقبنا ويبدو وكأنه رجل الزناد. وهناك رجل آخر يصرخ في وجهه أن يفعل ذلك!". نظرنا نحو سلسلة من فتحات الكهف في سلسلة التلال إلى يميننا. وهو على الأرجح المكان الوحيد الذي يمكن أن يبقى فيه شخص ضمن نطاق زناد إلكتروني مثل مفتاح باب المرآب أو مفتاح التشغيل.

صرخت "غراهام، افتح النار على ذلك النذل. لا بد من أنه في أحد هذه الكهوف". كنت غاضباً وأردته ميتاً.

سمعت رنين برج البندقية ينزلق إلى اليمين، وبدأ مدفع رشاش عيار 50 ملم بضرب أربع إلى ست رشقات نارية. وبعد ذلك بقليل كان الخط الكامل من المركبات وراءنا يطلق نيران الرشاشات الثقيلة وقاذفات قنابل في تلك الكهوف. انفجرت الفتحات بسحابة من الغبار والشرر. وعند هذه النقطة أعتقد أن الجميع كان يريد مجرد التنفيس أكثر مما توقعنا بالفعل أن نصيب شيئاً. صمتت الثرثرة على اللاسلكي. ولم نكن متأكدين إذا كنا قد قتلنا رجل الزناد أو لا؛ وفي نهاية المطاف وضعنا متفجرات على اللغم الأرضي لنفجّره في مكانه.

ولسبب ما، فإن الاقتراب من العبوة الناسفة هزّني حقاً، ولم أكن متأكداً لماذا. فلقد كان الرجال في البنشارد يجلسون على رأس اللغم أقرب بكثير منا. كان اللغم قوياً بما يكفي لتدمير دبابة، وبالتأكيد كان سيطمس إما البنشارد وإما مركبتنا. ولأول مرة خلال مدة خدمتي هذه بأكملها، كنت على استعداد للعودة إلى القاعدة والرجوع إلى الوطن. لا مزيد من المهمات. لا مزيد من أكواب من الشاي مع الشيوخ لإقناعهم بأننا كنا هناك لمساعدة أطفالهم كي يروا مستقبلاً أفضل. لا مزيد من المعارك؛ أردتُ أن أرى عائلتي مرة أخرى.

لسوء الحظ، كانت عملية بيرث نمطاً للكثير من العمليات الجارية في أفغانستان في ذلك الوقت. أخرجنا طالبان من وادي بالوتشي وقتلنا الكثير منهم. وضعت التقديرات المجمعة من مختلف الوحدات ومن السكان المحليين عدد الجثث في حدود 150، من بينهم اثنان من القادة من مستوى العمليات المتوسط، والواضح، الكثير من الباكستانيين. وفي عملية التحالف مجتمعة، قُتل شخص في المعركة وجرح أربعة عشر. كان عدد الجثث مقياساً واضحاً للنجاح. كانت الحقيقة أننا لم نعرف حقاً من الذين كنا نقاتلهم أو لماذا كانوا يقاتلوننا. كنا نجهل الديناميات الاجتماعية والسياسية والقبلية والمحلية الموجودة. لم نكن نعرف إذا كنا نقاتل المتمردين الذين كانوا قد جاؤوا إلى أفغانستان من المدارس الدينية الباكستانية أو أعضاء محليين من قبيلة نورزاي التي ربطت التحالف بجميع انتهاكات الحاكم السابق جان محمد خان. لقد أصبحت على قناعة أنه مزيج من الاثنين معاً. وعلى

المستوى التنفيذي فإن الغياب الكامل لقوة تبقى في الخلف أحبطني حقاً. كنت متحمّساً لوجود الجيش الأفغاني في الصدارة، أو على الأقل يتبعنا عن كثب ليتولى عدداً من المواقع المهمة بعد مغادرتنا. كنا نطهّر المناطق التي كانت طالبان تسيطر عليها، ولكن لم يكن هناك "من يمسك" بها على الإطلاق، ومن ثم كانت هناك آثار قليلة ودائمة من العملية. كان هذا في المقام الأول لأن لكل عضو من أعضاء التحالف تسلسل قيادة منفصل ونهج عملياتي منفصل لمكافحة التمرد، بدءاً من مهمة الأستراليين بإيجاد ومهاجمة طالبان، إلى التركيز الهولندي على حماية جهود إعادة الإعمار في منطقتي "بقعة الحبر" التي كانوا فيها. وكان الجيش الوطني الأفغاني قد انسحب، وكان ما يزال غير واضح إذا ما كانت الشرطة التي كنّا قد أعدناها تسبب ضرراً أكثر من النفع أو لا. ولحسن الحظ، وافقت الولايات المتحدة ودولة الإمارات العربية المتحدة على المساعدة، وإلا فسيكون الأستراليون وحدهم في التعامل مع قوات طالبان الراسخة الجذور في منطقة بالوتشي.

على الجانب الإيجابي، خفّفت عملية بيرث بعض الضغط عن تارين كوت، وعن الحاكم منيب على وجه الخصوص. وكونه "تكنوقراطاً" ملتزماً على ما يبدو بتحسين الحكم في الولاية، كان يحاول يائساً إبعاد المقرّبين من جان محمد ببطء، وجذب حكام مديريات أفضل وممثلين من مختلف الوزارات في كابول لتقديم الخدمات الأساسية للشعب. وتوجيه ضربة ضد طالبان في عملية بيرث منح منيب بعض الوقت لشتاء 2006–2007، وأرسل رسالة مفادها أن التمرد لا يمكنه أن يمنع وصول الحكومة الأفغانية إلى أودية بأكملها. أعادت الشرطة المسؤولة عن تشورا السيطرة على مركز المديرية في الخريف. ولكن هذه كانت مكاسب مؤقتة؛ فلم تتمكن بيرث من معالجة المشكلات الكامنة وراء الخلافات القبلية المستفحلة، والحرمان الناجم عن انعدام الأمن من قبل حكومة كرزاي وقوات التحالف. ولسوء الحظ، كانت العمليات مثل بيرث شائعة جداً؛ ولم يكن هناك ببساطة ما يكفي من القوات الأجنبية والأفغانية. إن "الحرب بتوافق الآراء" قد جعلت من المستحيل تحقيق أفضل استفادة من القوات التي كانت لدينا.

الفصل الثامن

العودة إلى واشنطن
البنتاجون والبيت الأبيض

في أواخر عام 2006، عدتُ أرتدي البدلة الرسمية وربطة العنق في البنتاجون؛ حيث طُلب إليّ أن أخدم في منصب مدير السياسة الأمريكية في أفغانستان، في إدارة الشرق الأوسط بمكتب وزير الدفاع - قسم السياسات. ولقد سررت عندما وجدت وعياً متنامياً في قسم السياسات التابع لمكتب وزير الدفاع؛ حيث أصبح العاملون هناك يدركون أن الوضع في أفغانستان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ولكن في الوقت ذاته، وجدت الكثير من زملائي يشعرون بالإحباط على نحو متزايد. ومع أن قادتنا الكبار أدركوا حجم المشكلة المتفاقمة باطراد، فإن ردهم التلقائي كان اللجوء إلى الأوروبيين لتقديم الدعم لنا. وكان البنتاجون وواشنطن يخوضان جدالاً حاداً بشأن العراق، وكان الجدال يدور بالتحديد حول: هل كان علينا أن نُخرج قواتنا بشكل كامل، أو ينبغي أن نضاعف جهود الحرب ونرسل قوات إضافية إلى هناك. وفيما يخص أفغانستان، فقد قمنا أساساً بإسناد الحرب إلى حلف الناتو لكي نركّز مواردنا على العراق.

كُتب علي أن أقضي السنتين اللاحقتين في البنتاجون والبيت الأبيض في محاولات لإقناع صانعي سياستنا أن الموقف في أفغانستان قد أخذ منحى مختلفاً نحو الأسوأ، وأن حلفاءنا الأوروبيين في حلف الناتو يواجهون متاعب تفوق طاقتهم على الرغم من الجهود الشجاعة التي يبذلها جنودهم. كما كنت مصمّماً على توضيح مسألة مهمة؛ وهي أن المشاركة الأمريكية في الحرب مرتبكة وتفتقر إلى التوجّه الواضح، وأن باكستان قامت بتغييرات استراتيجية ضد مصالحنا، وأن حكومة أفغانستان غالباً ما تُحدث ضرراً أكثر مما تقدم نفعاً؛ ونتيجة لهذه التطوّرات، فإن الولايات المتحدة بحاجة إلى تخصيص موارد أكبر

بكثير لكي ترسّخ الاستقرار هناك. إن مشكلة الموارد هي لبّ القضية. وحتى إذا أدرك وزير الدفاع رامسفيلد، وقادتنا العسكريون والبيت الأبيض بشكل كامل مدى سوء الوضع هناك، فإن الشعور السائد في دوائر صنع السياسة، هو أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً يُذكر لتحسين الوضع. ولو احتاجت أفغانستان إلى المزيد من الدعم الدولي، سيتعين على الناتو تقديم هذا الدعم. ونظراً إلى أن قصة العراق استمرت أطول بكثير مما كان متوقعاً، وأصبحت تشكّل عبئاً ثقيلاً على جيشنا، فليس هناك أحد يريد حتى التفكير في أنه يجب علينا أن نرسل مزيداً من الجنود الأمريكيين إلى مهمة يُعتقد أنها قد كُسبت سلفاً. كانت هناك حاجة إلى أن تظل أفغانستان قصة نجاح للإدارة الأمريكية.

أتاح رحيل دونالد رامسفيلد من منصب وزير الدفاع وتعيين روبرت غيتس مكانه في أواخر عام 2006 الفرصة لتفكير جديد بشأن أفغانستان. وكان مصطلح "مكافحة التمرد" مثيراً للجدل في البنتاجون في عهد رامسفيلد لأسباب متعددة، وخاصة أن هذه المهمة في العقيدة العسكرية تتطلّب عدداً أكبر من الجنود وكميات أكبر من الموارد؛ لكي يتم تنفيذ حملة محاربة التمرد بشكل صحيح. وهذا ما كان مطلوباً بالضبط في مكان معزول وبعيد وصعب مثل أفغانستان. وعندما تسلم غيتس مهمات منصبه شعرنا على الفور بتغيير نحو المرونة والانفتاح لإرسال مزيد من القوات إلى أفغانستان. ورافقتُ الوزير غيتس كعضو في الوفد المرافق له في جولته الأولى، للاطلاع على مجريات الحرب عن كثب، في يناير 2007. وقد أكد القادة العسكريون الذين زارهم الوزير غيتس الزيادة الهائلة في حجم أعمال العنف خلال الموسم السابق من المعارك، وأشادوا بكفاح الناتو المر لكي يفي بالتزاماته. كما ألقوا اللوم على صفقة السلام التي وقّعتها الحكومة الباكستانية مؤخراً مع جماعات المتمردين في المناطق القبَلية الخاضعة للإدارة الاتحادية، والتي أنتجت مشكلة كبيرة أمام جهود الناتو في أفغانستان. وقد ذكر أحد الضباط في تقريره أن الهجمات في المناطق الحدودية على الجانب الأفغاني – في الحقيقة – ارتفعت بنسبة 300٪. وهناك ضابط استخبارات في قيادة القوة الدولية للمساعدة الأمنية في أفغانستان (إيساف) تلقّى إحصائية لهجمات المتمردين في أفغانستان، تُظهر أنها وصلت إلى 139 هجوماً انتحارياً عام 2006،

مرتفعة من 27 هجوماً عام 2005؛ كما تَضاعف عدد الهجمات بالعبوات الناسفة أكثر من مثلين، من 783 هجوماً عام 2005 إلى 1,677 هجوماً عام 2006. كما ارتفع عدد الهجمات المباشرة (التي نفّذها المتمردون بواسطة أسلحة خفيفة) من 1,558 هجوماً عام 2005 إلى 4,542 هجوماً عام 2006.[1]

كان اللواء بِن فريكلي، وهو القائد الأمريكي لقوة المهام المشتركة المجمَّعة للقيادة الإقليمية الشرقية خارج قاعدة باجرام الجوية، صريحاً إلى أبعد الحدود مع الوزير بشأن مستوى العنف الذي يتوقّعه عام 2007، وبشأن مشكلة نقص الموارد التي ينبغي له معالجتها. وأصر على أنه بحاجة إلى مزيد من القوات لكي تكون لديه فرصة لإحباط هجوم طالبان المتوقّع في الربيع. وفي الشهر اللاحق، أمر الوزير غيتس بإرسال لواء مقاتل إضافي، بحيث يتم تحويله من العراق إلى أفغانستان. وهذا القرار ضاعف عدد الألوية التقليدية المقاتلة المخصّصة لتلك الحرب. وقد دُهشت لهذا التطور. ولكن الزيادة كانت في الحقيقة فقط بلواء واحد ليصبح المجموع لواءين.

في واشنطن، كانت أهمية أي قضية تنعكس غالباً من خلال حجم الأعمال البيروقراطية المخصّصة لها. ولم تكن أفغانستان وباكستان استثناءً من هذه القاعدة. ومع أن فريق سياسات العراق في قسم الشرق الأوسط التابع لوزير الدفاع كان يحتل نصف مساحة المكتب تقريباً، وكان يوجد فيه أكثر من "دزينة" من الموظفين، فإن فريق أفغانستان لم يضم إلا ثلاثة موظفين مدنيين. ولحسن الحظ كانوا من أذكى الأشخاص الذين سررت بالعمل معهم. ولكن لم يكن أي منهم قد أمضى وقتاً يُذكر على الأرض في أفغانستان. ومما زاد الأمر سوءاً، أن فريقنا المتخصّص في شؤون باكستان كان يضم موظفة مدنية واحدة، كانت منهمكة طوال الوقت بأعباء العمل الكثيرة، وكانت دائماً تشعر بالإحباط في التعامل مع الباكستانيين. ولحسن الحظ كانت تتمتّع بحس فكاهة رائع وذكاء خارق. لقد كان التفاوت بين أعداد الموظفين المدنيين المتخصّصين في سياسات العراق مقارنة بنظرائهم المتخصّصين في شؤون أفغانستان وباكستان، قائماً في جميع مكاتب أمننا القومي؛ من وزارة الخارجية إلى هيئة الأركان المشتركة ومجلس الأمن القومي.

وقد ازداد الأمر سوءاً بسبب الكيفية التي يتم من خلالها تقسيم الهياكل الإدارية، وعدد المكاتب والمؤسسات التي لها دور في صناعة سياستنا تجاه أفغانستان. وفي عصر يوم صيفي من عام 2007، استدعاني المعاون الجديد لوزير الدفاع لشؤون آسيا، جيم شين، الذي تولى مسؤولية سياسات أفغانستان من مكتب الشرق الأوسط، إلى مكتبه، خلال إعادة هيكلة مكتب السياسات بوزارة الدفاع. عندما دخلت المكتب كان جيم جالساً على أريكة مكتبه، وكان يشاهد شريحة "باور بوينت" توضح تسلسل القيادة والعمل، ومَنْ يقدم التقارير إلى مَنْ، حول مختلف الموضوعات المتعلقة بأفغانستان.

قال لي مع ابتسامة متكلّفة: "مايك، حاول أن تشرح لي هذه من فضلك".

"حسناً يا سيدي، آمل أن يكون لديك الوقت الكافي. دعنا نبدأ من أفغانستان، ونشق طريقنا عائدين إلى واشنطن". وتابعت شرح سلاسل القيادة المتعدّدة التي مررت بها في الميدان في فترة خدمتي الأخيرة؛ بين الأوروبيين، والوحدات الأمريكية التقليدية، وفرق قوات العمليات الخاصة المختلفة، والمدربين المرافقين للقوات الأفغانية. كان الرجل ميّالاً إلى الشك دائماً؛ وكان يشعر بالدهشة أكثر عندما يسمع بعدم فاعلية فريق صنع السياسات في واشنطن. وأوضحت له أن القائد العام لقوات إيساف في كابول، كان يرسل تقاريره عبر جنرال ألماني بـ 4 نجوم في برونسوم (وكان مقر قيادة هذا الجنرال من بقايا الحرب الباردة، ولم يضف قيمة تُذكر إلى جهود الحرب في أفغانستان)، ومن هناك يرفع التقرير إلى قائد قوات الناتو في بروكسل، وهو جنرال بـ 4 نجوم أيضاً. ومع أن قوات الناتو كانت تحت قيادة جنرال أمريكي، فإنه يرفع تقاريره إلى مجلس صناعة القرار في حلف الناتو؛ حيث تمتلك الولايات المتحدة صوتاً واحداً من أصل 26 صوتاً، وجميع القرارات الكبرى يجب أن تحظى بالإجماع لكي تصبح سارية. وفضلاً عن ذلك، فإن أفغانستان غالباً ما كانت تنافس لحجز مكان على أجندة اجتماعات الدول الأعضاء في حلف الناتو، مع عدد من القضايا؛ مثل مظلة الدفاع الصاروخي، ومبادرات مكافحة القرصنة.

وبصورة مستقلّة كانت الوحدات العسكرية الأمريكية (قوات العمليات الخاصة، وفرق التدريب المرافقة) ما تزال تعمل ضمن "عملية الحرية الدائمة" وترفع تقاريرها من خلال القيادة المركزية إلى هيئة الأركان، وإلى مكاتبنا في قسم السياسات التابع لمكتب وزير الدفاع. والأسوأ من ذلك، أن الإشراف على السياسات المتعلّقة بالجوانب الاستراتيجية الكبرى في الحرب (قوات الأمن الوطنية الأفغانية، وقوات العمليات الخاصة الأمريكية، وقوات الناتو، والمسائل الوظيفية؛ مثل مكافحة المخدرات، وقضايا المعتقلين) كان يخضع لأربعة مساعدين مختلفين لوزير الدفاع في البنتاجون.

قلت باستياء، بينما يتواصل عرض الشرائح: "إنها مسألة شائكة حقاً؛ لأن الجوانب المختلفة لسياستنا تجاه أفغانستان وباكستان لا تجتمع حتى تصل إلى مساعد الوزير، الذي كما تعرف يظل مشغولاً بشؤون العراق، وكوريا الشمالية، وإيران وبقية العالم. والمشكلة ذاتها تتكرّر في هيئة الأركان المشتركة، وقد اتضح أنه من الصعب جداً أن تكون قادراً على تجميع كل الأطراف المعنية بالسياسة تجاه أفغانستان في غرفة واحدة داخل البنتاجون، فضلاً عن تجميعهم من مختلف مؤسسات الحكومة الأمريكية".

وقضى جيم - وهو رجل أعمال ناجح وبروفيسور في جامعة برينستون ومسؤول سابق في الاستخبارات الوطنية لشؤون آسيا - معي ساعة محاولاً أن يفهم المنطق الكامن وراء سلسلة الشرائح التي تصف السلاسل المختلفة للقيادة وتقديم التقارير. وأخيراً سألني مستفسراً: "من الذي فكر في تنظيم جهود الحرب بهذه الطريقة؟ هل هي حركة طالبان؟ إذا كان أعداؤنا يريدون تنظيم هيكل قيادة لنا، فهذه هي الوصفة المناسبة!". عرفنا أنه يجب علينا أن نحاول تبسيط الهيكل، وعرفنا أيضاً أن مهاجمة عدد كبير من الجنرالات والمسؤولين المعنيين بصناعة السياسات ممن هم مصلحة في الحرب ستكون معركة خاسرة. وقد قضينا السنتين اللاحقتين، ونحن نحاول.

تفاقم الوضع الفوضوي في القيادة وافتقار الولايات المتحدة الأمريكية إلى الموارد بسبب سياسة الباب الدوّار في التعامل مع الموظفين والقادة العسكريين في الميدان،

وبسبب تبديلاتهم الدورية كانت هناك خسارة مستمرة للخبرة والمعرفة المؤسساتية. ولم يكن ذلك خطأً شخص معيّن، وإنما هو خطأ هيكلي في تنظيم قواتنا المسلحة في حقبة ما بعد حرب فيتنام. وكانت حربا أفغانستان والعراق أول حربين في التاريخ الأمريكي تستمران فترة طويلة جداً ويتم خوضهما بالكامل بقوة من المتطوعين. في الماضي، كان يتم تجنيد الرجال الذين في سن الخدمة العسكرية تجنيداً إجبارياً، وكان يتم نشرهم في ساحات القتال إلى أن يحققوا النصر أو يصبحوا في عداد الموتى والمصابين. ولكن مع قوة من المتطوّعين، كان يتم تبديل الوحدات بشكل دوري، وعادة ما تكون فترة الخدمة الميدانية من ستة أشهر إلى اثني عشر شهراً؛ بقصد تقليل الفترة الزمنية التي يقضيها الجنود بعيدين عن الوطن، وبقصد المحافظة على مستويات بقائهم في الجيش. ولسوء الحظ، أدى هذا الأسلوب إلى تبديل الجنود بشكل مستمر على مناطق الحرب؛ حيث كان يجب على الجنود إعادة تعلّم الدروس نفسها، وتكرار الأخطاء ذاتها. وعندما يصبح أفراد الوحدة العسكرية متفهمين بشكل حقيقي للديناميات القبلية والجغرافية المعقّدة في مناطق الانتشار، يبدأون بالاستعداد لتسليم مهماتهم لوحدة جديدة، وهذه الوحدة الجديدة سوف تبدأ السير في منحنى التعلّم مرة ثانية. وهذه الدوّامة تتكرّر من قادة الفصائل صعوداً إلى القادة الميدانيين وموظفي صنع السياسات في البنتاجون. إن هياكل القوات وتبديلات الجنود الدورية تعني أننا لا نمتلك خبرات مؤسساتية تُذكر، على حين نجد أن المتمرّد الذي غالباً ما يقضي كل حياته في المنطقة نفسها، كان يترقّب، وينتظر وصول المجموعة الجديدة من قواتنا.

في مكتبي في البنتاجون عام 2007، شعرت بحيرة ودهشة عندما قرأت تقارير عن "عملية طروادة"، وأرى أنها مثال جيد يكشف افتقارنا إلى الاستمرارية العملياتية. عملية طروادة كان اسم العملية التي نفّذتها قوات التحالف للدفاع عن مركز مديرية تشورا في ولاية أوروزغان ضد المتمردين، وهو المركز نفسه الذي حرّرناه في عملية بيرث. وبعد أن غادرت أفغانستان في الخريف الماضي، قامت المجموعة القتالية الهولندية بزيادة عدد أفرادها إلى قرابة 1,400 جندي، وأصبحت الآن تشمل تشورا ضمن استراتيجيتها المعروفة باستراتيجية بقعة الحبر، إلى جانب تارين كوت وديه راوود. وفي يونيو

2007، اجتاح مقاتلو طالبان نقاط التفتيش المخصّصة لحراسة الطريق بين تارين كوت وكورا، بالإضافة إلى الطريق في وادي البلوشي، وهي الطريق نفسه الذي حررناه عام 2006. وقام مقاتلو طالبان بالتمثيل بعدد من رجال الشرطة وقتلوا أفراد عائلات رجال الشرطة الآخرين الذين نجوا من الهجوم. وبرغم ذلك ظلّت كتيبة الجيش الأفغاني ترفض نشر الجنود خارج الثكنة في تارين كوت. وخلال القتال الشرس بدأ الهولنديون بإطلاق قذائف مدفعية بصورة عشوائية على المواقع التي يُشتبه في أنها تؤوي المتمرّدين في مناطق مدنية. وأثارت حصيلة القتلى بين المدنيين غضب البرلمان الهولندي، وأطلقت عملية تحقيق في ملابسات الحادثة داخل قوات إيساف. كان قد مضى عام تقريباً على انتهاء عملية بيرث، ويبدو أنه لم تتم الاستفادة من دروس العام الفائت. حتى إني قرأت تقريراً يقول إن أحد عناصر القوة الهولندية تعرّض لانفجار عبوة ناسفة في المكان الذي تعرضتُ فيه أنا لعبوة مماثلة مع المجموعة الإماراتية. وقد رفعتُ إحداثيات تلك الواقعة إلى قيادة القوات الخاصة، ولكن يبدو أن المعلومات لم تُنقل إلى الوحدة الهولندية التي تعمل تحت سلسلة قيادة منفصلة لقوات إيساف، برغم مرور سنة. وبالإضافة إلى ذلك كانت قيادة فرق القوات الخاصة الأسترالية والهولندية والأمريكية قد تغيّرت بشكل كامل بعد مغادرتي أفغانستان؛ وفي المحصلة كانت عملية طروادة نسخة مماثلة تقريباً لعملية بيرث.

وبدلاً من خوض حرب مع مكاسب وتأثيرات تراكمية متزايدة تُبنى على مكاسب ودروس العمليات السابقة، كان من الواضح بالنسبة إليّ، أكثر من أي وقت مضى، أننا نكرّر العمليات نفسها ونرتكب الأخطاء ذاتها سنة بعد أخرى، وكان ذلك يؤدي إلى تزايد الاستياء وتناقص الدعم الشعبي للحرب لدى الأفغانيين والأمريكيين والأوروبيين. وفي عام 2007، بدلاً من خوض حرب عمرها ستة أعوام بجهود تُبنى على خبرات عام بعد الآخر، كان المشهد يوحي بأننا خضنا ست حروب؛ واحدة بعد الأخرى وعمر كل واحدة منها سنة.

وإلى جانب التبديلات المستمرة للجنود، والهيكل المعقد لسلسلة القيادة والسيطرة، وعدم توافر موارد كافية، كان هناك افتقار إلى خطة مدنية - عسكرية

متناغمة. وخلال التحضيرات لعملية النقل النهائي للمسؤوليات الأمنية إلى قوات إيساف تحت قيادة الناتو، كانت ماري بيث لونغ تشغل حينذاك منصب النائب الأول لمساعد وزير الدفاع، وكانت مسؤولة عن شؤون الشرق الأوسط والناتو. وكانت تسأل موظفيها بشكل متكرّر وكذلك كل جنرال أوروبي يزور البنتاجون السؤال الآتي: متى ستقوم قوات إيساف بوضع خطة للحرب؟ تولى الجنرال ديفيد ريتشاردز مسؤولية قيادة الحرب، وهو أول قائد لقوة إيساف، ووضع خطة مبنية على نظرية كلاسيكية لمحاربة التمرد. كانت الخطة تدعو إلى إنشاء مناطق تنمية في أفغانستان، وبصورة مشابهة لاستراتيجية القوات الهولندية في أوروزغان تضمنت الخطة أسلوب بقعة الحبر حول التجمعات السكانية المدنية الكبرى في كل منطقة من أفغانستان. من الناحية النظرية، كانت "مناطق التنمية" تتيح لقوات التحالف تركيز جهودها وحماية السكان في المناطق التي توجد فيها كثافة سكانية أكثر من سواها، وتوفير منهج نظري معياري إلى حد ما، للتعامل مع المتمردين في جميع المناطق التي ينتشر فيها جنود التحالف. ولكن هذه الخطة سرعان ما اصطدمت بقيود إيساف المفروضة على عناصر إيساف لضبط العمليات. ولكي تكون خطة ريتشاردز ناجحة وفعّالة، كان ريتشاردز يحتاج إلى نقل القوات وأموال التنمية بعيداً عن الجهود الحالية وتركيزها في مناطق التنمية. ولكن هذا لم يتحقّق بصورة فعّالة ومفيدة. وضمن الحدود الضيقة التي نُقلت فيها الموارد إلى مناطق التنمية، اصطدمت الخطة بالمشكلات نفسها التي واجهها الهولنديون، من حيث إنها أوجدت فئتين تتشكّلان من مستفيدين وغير مستفيدين في عيون الأفغان؛ إضافة إلى التقسيمات القبلية والتباينات بين الريف والمدينة؛ ما أدى إلى تفاقم عقلية المحصلة الصفرية الموجودة لديهم أصلاً.

ذكّرتني هذه الخطة بقصة رواها عجوز أفغاني في أوروزغان، عن منظمة غير حكومية حفرت بئراً لمياه الشرب في قرية. حفْر بئر مياه يعني أن المنظمة غير الحكومية وفّرت مصدراً لمياه الشرب لقرية تابعة لقبيلة بوبالزاي. وكانت بئراً رائعة أعطت مياه شرب نظيفة للقرية كلها. وقبل حفر البئر كان القرويون يحملون مياه الشرب من النهر

صعوداً إلى القرية، وكانوا يعانون كثيراً. شاهد المسنون من القرية المقابلة على الجهة الأخرى من النهر وهم من قبيلة نورزاي، البئر الجديدة والمياه النظيفة وطلبوا من المنظمة غير الحكومية حفر بئر في قريتهم. اعتذر العاملون في المنظمة وقالوا إنهم لا يستطيعون حفر بئر في تلك الفترة؛ لأنه لا يوجد لديهم أموال كافية، ولكنهم سوف يتلقّون مزيداً من الأموال في السنة المقبلة. وبدلاً من الانتظار بضعة أشهر ليروا هل كانت المنظمة غير الحكومية ستفي بوعدها، قام رجال قبيلة نورزاي بتدمير البئر التابعة لقرية بوبالزاي. هكذا تجري الأمور في أفغانستان؛ "لا نستطيع أن نتقبّل رؤية منافسينا يحرزون شيئاً أفضل منّا".

كانت أقرب مرحلة نحو تطبيق استراتيجية شاملة في منتصف عام 2007 تتشكّل من خلال خطة الجنرال ديفيد بارنو، التي وضعها عندما كان يشغل منصب قائد القوات المشتركة في أفغانستان عام 2004. وما يزال لديّ نسخة مهترئة من تلك الخطة على مكتبي، تتضح فيها الخطوط المتعددة للعملية عبر القطاعات الدبلوماسية والمعلوماتية والعسكرية والاقتصادية. وقد أثبتت السنوات أن الجداول الزمنية للخطة كانت مفرطة في التفاؤل، وكانت تتوقّع أن يصبح الجيش الوطني الأفغاني فعّالاً وقادراً على العمل بصورة مستقلة بالاعتماد على قدراته الذاتية بحلول عام 2008. كما كانت تتوقّع أن يتم نقل فرق إعادة الإعمار المناطقية إلى القيادة الأفغانية عام 2007. ولكن على الأقل وضعت تلك الخطة أهدافاً محدّدة، ووضعت استراتيجية لتحقيق الأهداف، وحدّدت الموارد اللازمة لذلك. وكانت خطة الحملة التي وضعها بارنو واستراتيجية التنمية الوطنية الأفغانية، الوثيقتين الاستراتيجيتين الوحيدتين اللتين شاهدتهما. ولم تكن هناك خطة عليا شاملة للحملة التي تشنّها الحكومة الأمريكية، التي كان يُفترض أن تجمع وتركّز وتنظّم جهودنا الدفاعية والاستخباراتية والدبلوماسية والتنموية. وبالتأكيد، لم يصدر شيء من هذا النوع عن قيادة حلف الناتو.

ولكن خلال الجدالات الدائرة في البنتاجون وواشنطن تجاه السياسات، بدا وكأن كل مسؤول أمريكي تقريباً بين الرئيس وبيني كان مصمّماً على إحداث تغيير في أفغانستان

من خلال تغيير الإرادة السياسية لحلفائنا في الناتو، ومن خلال مطالبتهم بقوة لتوفير الموارد التي وعدوا بتقديمها. في نوفمبر 2006، عقد الناتو اجتماع قمة في ريغا، لاتفيا. وحضر الاجتماع رؤساء الدول، وبينهم الرئيس بوش الابن، وكان البند الرئيسي على أجندة القمة: تسلّم حلف الناتو مسؤولية إرساء الأمن في أفغانستان الشهر السابق. وضغط الرئيس بوش الابن على نظرائه لكي يزيلوا القيود والتحذيرات الوطنية، ولكي يبدأوا بإرسال جنودهم إلى المناطق التي يعصف بها الصراع في جنوب أفغانستان. وقبل انعقاد تلك القمة، كان الجنرال تيم جونز القائد الأعلى لقوات الناتو في أوروبا، ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير، والأمين العام لحلف الناتو جاب دي هوب شيفر، قد طالبوا بإرسال مزيد من التعزيزات إلى جنوب أفغانستان، ولكن طلباتهم قوبلت بالرفض. ورفضت ألمانيا، وفرنسا، وتركيا، وإيطاليا، وإسبانيا بتهذيب - ولكن بشكل حازم - الدعوات إلى إرسال جنودهم لمساندة القوات البريطانية والكندية والهولندية في جنوب أفغانستان؛ بحجة أن الوضع خطير جداً وأن قواتهم "تتحمّل فوق طاقتها". أما الدول الصغيرة؛ مثل بولندا، والدانمارك، فقد وافقت على تقديم المساندة وقدمت ألف جندي إضافي، بينهم خمسمئة مظلي. وهذا الرفض من جانب الدول الكبرى أسهم على ما يبدو في تعميق الانقسامات داخل تحالف إيساف؛ حيث كان "الحلفاء الذين يخوضون القتال" موجودين في الجنوب والشرق، بينما "الحلفاء الذين لا يخوضون القتال" ينتشرون في الشمال والغرب.[2]

فكّرتُ أن ذلك سيكون خطأً كبيراً إذا وضعنا مصداقية الرئيس على المحك، بعد أن عرفنا من خلال لقاءات بين مسؤولين من مستويات أدنى، أن ليس هناك طريقة تجعل الحلفاء في شمال أفغانستان وغربها يرسلون جنودهم إلى المناطق الأكثر خطراً في الجنوب والشرق. بالنسبة إلى الحكومة الألمانية، كان التصريح العلني بأنهم يخوضون حرباً في أفغانستان أمراً مثيراً للجدل والخلاف في برلين ويتعارض مع قوانين ألمانيا لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وشخصياً، لم أكن أعتقد أن إرسال الألمان والإيطاليين إلى الجنوب فكرة جيّدة؛ حتى لو وافقوا على الذهاب. لقد شاهدت بأم عيني، خلال الفترات السابقة

من خدمتي في أفغانستان، مدى ضعف حلفائنا عسكرياً بعد تخفيض ميزانياتهم الدفاعية مع نهاية الحرب الباردة. كما شاهدت بنفسي مدى الاختلاف بينهم في التعامل مع استراتيجيات وتكتيكات لمحاربة التمرّد. بالنسبة إلى القوات الفرنسية الخاصة، كان هناك شعور كبير بالإحباط بين الجنود الذين كانوا يرغبون في الخروج والذهاب إلى الريف الأفغاني والاشتباك مع العدو، وحماية السكان المدنيين، وتوفير القدر الكافي من الأمن لمشروعات التنمية وإعادة الإعمار لكي تزدهر. كانت أيديهم مكبّلة بالاعتبارات السياسية، ولم يكونوا قادرين على تنفيذ المهمات الهجومية التي تتطلبها أحياناً مكافحة التمرد. ولن يؤدي نقل هذه القوات إلى الجنوب مع إبقاء القيود الوطنية الثقيلة المفروضة عليهم إلا إلى مزيد من خيبات الأمل والإحباط والآمال والوعود التي لم تتم تلبيتها لمساعدة الأفغان.

خلال بقية عام 2007، وفي اجتماعات عدة لوزراء دفاع الناتو، كان الوزير الأمريكي غيتس يضغط مرة بعد أخرى على حلفائنا الأوروبيين لكي يرسلوا عدداً من الجنود الذين وعدوا بإرسالهم ليتم نشرهم في أصعب المناطق، ولكي يتخلّوا عن محاذيرهم وقيودهم السابقة. ولكن طلبات غيتس كانت تقع على آذان صمّ. وفي نهاية المطاف، شعر غيتس باستياء شديد بسبب تعنّت الأوروبيين وعدم وفائهم بوعودهم، وهدّد بسحب المروحيات الأمريكية من مهمة حفظ السلام في البوسنة وكوسوفو لكي يسد النقص في عدد المروحيات المطلوبة في جنوب أفغانستان. ولكن مكتب الناتو في البنتاجون عارض بشدّة هذا التهديد، وأرسل مذكرة طويلة جداً للوزير يشرح فيها لماذا ستكون هذه الخطوة كارثية على التزامنا تجاه الحلف؛ ورفض مكتبي الموافقة على مضمون تلك المذكرة، وكنا نعتقد أن تهديد الوزير غيتس كان خطوة في المسار الصحيح. وأنشأنا مكتب سياسة مخصصاً حصرياً لإدارة قوة التحالف في أفغانستان (ومكتب السياسة في العراق الأصغر بكثير). وكان عدد من الدول الصغيرة، وخاصة في أوروبا الشرقية التي تسعى إلى كسب موافقة إدارة بوش على قضايا مثل دخولها تحت مظلة الدفاع الصاروخي أو الانضمام إلى حلف الناتو، قد تعهد بتقديم عدد قليل من جنود المساندة لكي تحصل على

الميزة السياسية كعضو في قوة إيساف. على سبيل المثال، قدمت إستونيا 100 جندي، وهنغاريا 200، ومقدونيا 125، وسلوفينيا 70 جندياً.[3] وهذه الدول الأربع جميعها كان قد تم قبولها في عضوية الناتو منذ فترة قصيرة نسبياً، وهناك دول عدة كانت تريد التعامل بشكل مباشر أكثر مع الولايات المتحدة [من دون المرور عبر بوابة الناتو].

وفي أحد اجتماعات القمّة التي حضرتها بوصفي عضواً في الوفد المرافق لوزير الدفاع غيتس، أعلن المندوب السلوفاكي إرسال قوات إضافية للخدمة في ولاية أوروزغان. وقال الوزير بفخر حينذاك: "إن هذا القرار سوف يرفع عدد الجنود الذين أرسلتهم سلوفاكيا إلى أفغانستان إلى 125 جندياً عام 2008".

وقال الوزير غيتس للوزراء الحاضرين: "أنا أشجع جميع الحلفاء والشركاء على الإسهام بأكبر قدر ممكن، وخاصة في دعم جهودنا في أفغانستان".[4]

لديّ وجهة نظر مختلفة بشأن تجنيد أكبر عدد ممكن من الدول لإرسال جنود إلى قوة إيساف، ولو كانت الأعداد صغيرة جداً. إن هذه السياسة تفرض عبئاً هائلاً على قدراتنا اللوجستية، ومواردنا المتعلّقة بالمعدات، مقابل جني مكاسب عملياتية طفيفة؛ فهذه البوتقة التي تضم خليطاً من الدول التي تعطي جنودها تعليمات متباينة تفتقر إلى التنسيق والتناغم، أربكت الأفغان أيضاً. وخلال إحدى زياراتي كشخص مدني إلى القيادة الأمنية الانتقالية المشتركة لأفغانستان، وهي منظومة أمريكية في أغلبها ومسؤولة عن تدريب الجيش الوطني الأفغاني وتزويده بالمعدات اللازمة، قابلتُ عدداً من الضباط والرقباء الأمريكيين المكلّفين بتدريب الأوروبيين ليقوموا بدورهم بتدريب الأفغان. وجميعهم كانوا يتذمرون بمرارة من أن المدرّبين الأوروبيين المرافقين للجيش الأفغاني كانوا يأتون ومعهم أجهزة لاسلكية غير متوافقة مع الأجهزة الأخرى للعمليات المشتركة، ولم تكن لديهم أجهزة للرؤية الليلية أو لديهم عدد محدود منها، وليست لديهم قدرة حقيقية على دعم أنفسهم في ميدان القتال. وقد تحدثتُ بشأن هذا الأمر مع عدد من ضباط الجيش الأمريكي برتبة رائد ومقدم، وأخبروني أن ما استغرقه الجنود الأمريكيون من وقت وجهد لجعل هذه

الفرق جاهزة، ولتوفير الإمدادات اللوجستية اللازمة لمساندتهم، لا تساوي المكاسب التي تحققت. وأوضح أحدهم: "لدينا 36 جندياً أمريكياً مقيدين هنا في القاعدة يحاولون إعداد فريقين من مدرّبي الناتو المرافقين للقوات الأفغانية، وكل فريق مكوّن من 12 رجلاً. وعندما جاء مدرّبو الناتو إلى هنا لم يكن لديهم شيء قط. لم يكن لديهم مركبات، ولا أجهزة تشويش، ولا رشاشات ثقيلة ولا خفيفة، ولا أجهزة لاسلكي. كان يمكن أن نرسل الجنود الأمريكيين الـ 36 مع القوات الأفغانية بدلاً من الجلوس هنا لكي ندرب 24 رجلاً أوروبياً". وهناك رائد آخر عبّر عن هذا الأمر بصراحة أكثر: "يا سيدي، إن هذا غير منطقي وغير مقبول. هل مهمتنا في أفغانستان تدريب الأفغان أو الأوروبيين؟".

أخيراً، وافق قائد قوات إيساف الجنرال دان ماك-نيل على هذا الرأي. وخلال اتصال فيديو عن بعد مع الوزير غيتس، قال ماك-نيل: "من فضلك، لا ترسلوا لنا المزيد من الأعلام"، مشيراً إلى خريطة أفغانستان المعروضة على الشاشة والمغطاة بعشرات الأعلام التي تمثل الدول المساهمة في قوة التحالف - إيساف. "إذا لم تكن القدرات المرسلة مفيدة ومهمة مثل المساندة بمروحيات، فنحن لا نحتاج من كل دولة ممثلة على الخريطة إلى أن ترسل دزينة جنود لقضاء فترة خدمة أربعة أشهر، وبذلك يستطيعون أن يقولوا لك إنهم أسهموا في الحرب عندما تزور عاصمتهم. يبدو الأمر وكأنهم يريدون تقديم تنازلات من جانب الولايات المتحدة بشأن قضايا أخرى، وهم يستخدمون مسألة إرسال مفرزة من الجنود إلى أفغانستان كورقة تفاوض. وإذا كان في مقدوري أن أكون صريحاً معك، يا سيدي الوزير، فإنني أقول: لقد أصبحت مشاركتهم تشكل عبئاً علينا أكثر مما تعطينا فائدة".

إن المشروع كله، أصبح يتجسّد في الرواية السائدة والقائلة: إن مهمة الناتو في أفغانستان يجب أن تكون ناجحة لكي تظل هناك مسوغات لوجود الناتو. خلال المراجعة الداخلية لجهود الحرب عام 2007، قام عقيد من القوات الجوية الأمريكية، يعمل في المكتب الأوروبي في وزارة الخارجية بتلخيص هذا الرأي: "تنبهوا، مع أن قوة إيساف

تواجه تحديات حقيقية في أفغانستان في موسم القتال هذا، فإن الجهود بوجه عام كانت جيّدة حقاً بالنسبة إلى حلف الناتو. إن هذه المهمة تُبقي وجودهم مسوغاً. لقد أجبرتهم أفغانستان على المشاركة على نطاق عالمي، وأرتهم مدى صعوبة حملات التدخّل الخارجي. لقد أرتهم أيضاً أنهم في الحقيقة لا يمتلكون قدرات عملياتية فعّالة كما كانت دول متعددة تتوخّى منهم. والأهم من ذلك، أن أفغانستان أظهرت أنه يجب على العواصم الأوروبية زيادة ميزانياتها الدفاعية. ولكنني أعتقد أننا يجب أن نكون حذرين، ولا يجوز أن نضغط عليهم أكثر مما ينبغي دبلوماسياً بشأن عدم وفائهم بوعودهم والتزاماتهم. وبصراحة، فإن الضغط يمكن أن يدفع حكوماتهم إلى أن تشعر بالإحباط وربما مغادرة أفغانستان، وهذا لن يكون جيّداً للتحالف".

إن الجهود الأمريكية لم تكن خالية من الانتقادات أيضاً، بدءاً من سلسلة القيادة المعقّدة والملتفّة في كل مستوى من مستوياتها، وصولاً إلى الطرائق التي نستخدمها لقياس النجاح. وكان وزير الدفاع غيتس يعقد مؤتمر فيديو عن بعد، كل ثلاثة أو خمسة أسابيع مع كبار القادة العسكريين التابعين له. وكانت الشاشة على الطرف البعيد من قاعة المؤتمر في قبو البنتاجون مقسومة إلى ستة مسارات؛ لكي تستوعب بيانات الفيديو المرسلة من قائد قوات إيساف، الجنرال دان ماك-نيل؛ وقائد القيادة المركزية، الأميرال ويليام فالون؛ وقائد قوات حلف الناتو، الجنرال بانتز كرادوك؛ وقائد القيادة الأمنية الانتقالية المشتركة لأفغانستان، اللواء روبرت كون؛ وقائد القيادة الإقليمية الشرقية، الذي تولى مسؤوليات مضاعفة في منصب القائد الأمريكي الأعلى في مسرح العمليات، العميد ديفيد رودريغيز. وكل واحد من هؤلاء الرجال كان له دور فريد، وسلسلة قيادة منفصلة في مسرح العمليات. وفي الحقيقة، كان يجب أن يكون لدينا على الشاشة عدد من القادة العسكريين الأمريكيين من قيادتين إقليميتين للقوات المقاتلة، بحيث يكون لدينا تمثيل مرئي مناسب لمشكلة القيادة والسيطرة ضمن الجهود الأمريكية. وكان ذلك المؤتمر يشكل صورة مخالفة كلياً للدقائق الثلاثين السابقة التي أمضاها الوزير مع فريق العراق. ففي جلسة العراق، لم

يكن هناك إلا وجهان فقط على الشاشة: قائد القوات الأمريكية في العراق، الجنرال ديفيد بترايوس؛ وقائد القيادة المركزية الأميرال فالون.

وكان يشارك في هذه الاجتماعات أيضاً نائب مساعد وزير الدفاع لشؤون أفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى، ميتش شيفرز؛ ومساعد الوزير لشؤون آسيا، جيم شين؛ ونائب مساعد الوزير المسؤول عن شؤون الناتو، دان فاتا؛ ووكيل الوزارة لشؤون السياسات إريك إدلمان؛ وممثلون من هيئة الأركان المشتركة. وكان عملي متابعة أي مهمات تأتي من الوزير.

بعد تلقي تقارير من كل واحد من الجنرالات المذكورين بما فيها من إحصاءات لسلسلة العمليات الجارية وعدد أفراد الجيش الوطني الأفغاني الذين تم تدريبهم، ازداد شعور الوزير بالإحباط على ما يبدو. وكان الميكروفون الذي يستخدمه مغلقاً؛ ولذلك كان كلامه مسموعاً للأشخاص الذين هم في الغرفة فقط. قال حينذاك: إنه قد مرّ عام تقريباً على بداية العمل، وما يزال يجد أن الوضع لا يُصدق [غير مقبول]؛ حيث إن قائد قوة إيساف مع أنه جنرال أمريكي لا يرسل التقارير إليه عملياً؛ لأنه مقيّد بأوامر الناتو، ويرسل التقارير إلى الأمين العام للناتو. كما كان الوزير يبدي الاستغراب؛ لأن قائد القيادة الأمنية الانتقالية المشتركة لأفغانستان وقائد القيادة الإقليمية الشرقية لا يرسلان التقارير حصرياً إلى قائد قوة إيساف، ولكنهما يحملان "قبعات مزدوجة" [انتماءً مزدوجاً]، ويرفعان التقارير إلى قائد قوة إيساف، وإلى قائد القيادة المركزية أيضاً؛ بوصفهما الضابطين الأمريكيين الأعلى رتبة في مسرح العمليات. وقال باستياء: "إذا كنت أنا لا أستطيع فهم مَنْ يرسل تقارير إلى مَنْ، فلا يمكن أن يكون الأمر واضحاً بالنسبة إلى الرقباء والنقباء في ميدان القتال. يجب أن أكون صادقاً. عندما نعقد جلسة العراق أحصل على صورة واضحة عن المناطق والمجالات التي نحرز فيها تقدماً، أما عندما نناقش وضع أفغانستان، فإنني أسمع كلاماً عن جهود عظيمة تُبذل، ولكن لا يجوز أن نخلط بين الجهود وإحراز التقدّم".

حضرت مؤتمرات فيديو عدة عن العراق، كانت تُعقد أحياناً إما قبل اجتماعات الوزير بشأن أفغانستان وإما بعدها. وكانت هناك مسألة تظهر بوضوح على الفور. وخلال مناقشة وضع العراق، كان الجنرال بترايوس يتحدث عن القضايا السياسية وإعادة الإعمار؛ مثل التغييرات في البرلمان العراقي، وزيادة صادرات النفط، وتحسينات البنى التحتية. أما حول أفغانستان، فإن جوقة الجنرالات الذين يظهرون على شاشات التلفزيون كانت تشدّد على ضخامة نشاطات قوات التحالف، على حين كان الجنرال ماك-نيل يتحدّث عن عدد الأفراد، والقائمة المستمرة لأسماء العمليات التكتيكية؛ مثل "عملية أخيل". وذات مرة، سأل وزير الدفاع، "دان، أنا أحاول أن أفهم هل نحرز تقدّماً أو لا؟ هل نحقّق مكاسب في إخماد التمرد؟ وإذا كنا نحقّق مكاسب، فما المعايير التي تحدّد ذلك؟".

أجاب الجنرال ماك-نيل: "يا سيادة الوزير، لقد أُرسلت إلى هنا لكي أجعل شركاءنا في حلف الناتو يشاركون في القتال. أستطيع أن أقول لك، يا سيدي، هم يشاركون في القتال كل يوم. قد يخوض بعضهم معارك أكثر من الآخرين، ولكن في نهاية اليوم، نحن نقوم بملاحقة ومحاربة طالبان بطريقة فعّالة. وأعتقد أن بعض حلفائنا ووسائل الإعلام الدولية صوّروا طالبان بأنهم يمتلكون قدرات أكبر بكثير مما يمتلكونه في الواقع. وهم في الحقيقة مجموعة هزيلة متشرذمة. ولا يستطيعون أن يشكلوا تهديداً استراتيجياً على أفغانستان".

كنت جالساً في الغرفة ومعي دفتر ملاحظاتي، وكنت مذهولاً من كلام ماك-نيل، هل قال لتوّه إنه كان يلاحق طالبان ويحاربها؟ إن هذا التصريح يشبه إلى حد كبير استراتيجية الاستنزاف التي تبنّاها [ويليام] وستمورلاند في فيتنام.

توقّف الوزير للحظة، وبدا وكأنه يحاول استيعاب تصريح الجنرال. نظر إلى الشاشة وقال: في الواقع يا دان، أنا أتذكّر أنه في العام الماضي وفي مثل هذا الوقت،"كان

مقاتلو طالبان يهددون مدينة قندهار. وهذا يوحي لي أنهم كانوا يشكلون تهديداً استراتيجياً على ثاني أكبر مدينة في أفغانستان".

بعد أن انتهت مقابلات الفيديو وأصبحت الشاشة سوداء، أعرب الوزير غيتس عن شعوره بالإحباط أمام الموجودين في الغرفة. قال مبتسماً: "أيها السادة، لدينا خلل في التواصل [تضارب في المعلومات] هنا. أنا أقرأ تقارير كثيرة واحداً بعد الآخر من وكالة الاستخبارات المركزية تقول: إن الوضع في أفغانستان يزداد سوءاً بوتيرة مرعبة. صدقوني أنا أعرف أشياء تدعو إلى التشكيك في مصداقية وكالة الاستخبارات المركزية" – وكان من الواضح أنه يلمح إلى الفترة التي عمل فيها في الوكالة في منصب نائب مدير الوكالة لشؤون التحليل – "ولكنني أشعر بالقلق. إن تقييمات وكالة الاستخبارات المركزية القائلة بأن الوضع يتدهور بصورة دراماتيكية لا تنسجم مع ما أسمعه من الجنرال ماك-نيل، والجنرال جون كرادوك، والسفير الأمريكي في أفغانستان ويليام وود، وغيرهم. لديّ شعور بأننا لا نحصل على الصورة الصحيحة، وأن الوضع ينقلب ضدنا".[5]

قضينا الفترة المتبقية من عام 2007 في وضع كانت فيه سياستنا شبه مشلولة. واستمر العنف في التصاعد في كل منطقة من أفغانستان، واستمر ردنا يتمثل في مطالبة الناتو بتقديم المزيد. وأدرك المسؤولون في جميع مستويات الهيكل الإداري أن هناك مشكلات خطيرة في سلسلة القيادة (في قوة إيساف التابعة للناتو، وفي الأنظمة الإدارية الأمريكية)، وأن هناك قصوراً في المواكبة وفي الاستراتيجية العامة. ولكن الحرص الشديد على تجنّب الفشل في العراق، هيمن على جميع المحادثات والنقاشات في واشنطن.

كان أحد أعمالي الأخيرة في قسم السياسات التابع لمكتب وزير الدفاع المساعدة في تحضير الشهادة التي سيتلوها الوزير أمام لجنة القوات المسلحة التابعة لمجلس الشيوخ في ديسمبر عام 2007. وعندما سألته اللجنة عن الوضع الأمني العام في أفغانستان، أجاب الوزير غيتس، "علينا الاعتراف بأنه يزداد سوءاً". وأضاف أن هذا على ما يبدو يُعزى إلى الطريقة غير الصحيحة في تقديم الخدمات الحكومية الأساسية، وإلى استشراء الفساد بين

أفراد الشرطة الأفغانية المحلية. وأضاف أن هذا لا يعني أن هناك نقصاً في الالتزام العسكري الأمريكي.

وقدم رئيس هيئة الأركان المشتركة الأميرال مايك مولين، شهادته مع الوزير غيتس، وردّد السطر الشهير الذي لا يُنسى في تلك الفترة، "في أفغانستان، نحن نفعل ما في وسعنا؛ وفي العراق نفعل ما يجب علينا فعله".

في أحد أيام صيف عام 2007، أجبت على رنين الهاتف في مكتبي في البنتاجون. "هل ترغب في العمل في البيت الأبيض؟". كان صوت ماري بيث لونغ، التي تشغل الآن منصب مساعد وزير الدفاع وهي مسؤولة عن شؤون إفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا. لقد اتصل بها مكتب نائب الرئيس وطلبوا منها تزكية شخصٍ ما ليشغل منصب مستشار لنائب الرئيس ديك تشيني لشؤون محاربة الإرهاب في جنوب آسيا. وقالت لي: "لقد أخبرتهم أنني أعرف شخصاً قام بالعمل فعلاً ولم يدرسه فقط. ووضعت اسمك في القائمة، وعليك أن تثبت جدارتك".

كانت تلك المكالمة بداية سلسلة من المقابلات التي استمرت بضعة شهور مع أعضاء أساسيين من موظفي تشيني: مستشاره لشؤون الأمن القومي، جون هانا؛ ونائبة مستشاره لشؤون الأمن القومي، سامانثا رافيش؛ ونائب كبير موظفيه؛ ومستشاره القانوني، وآخرين. وخلال إحدى المقابلات، سألني مستشاره القانوني، "هل سبق لك أن كتبت أو نشرت أي شيء يتضمّن ازدراءً تجاه الرئيس أو نائب الرئيس؟".

جاوبته، "كلا، لقد عملتُ في الحكومة والجيش طوال حياتي المهنية، لذلك لم أنشر أي شيء على الإطلاق".

ورد عليه قائلاً "حسناً. هل تختلف، بشكل جوهري، مع أي سياسات أو قرارات سياسية اتخذتها إدارة بوش؟".

جاوبت من دون تفكير، "نعم، بكل تأكيد".

قال لي المستشار، وهو ينظر إليّ مدهوشاً: "حقاً؟". وكان من الواضح أنه معتاد على طرح قائمة الأسئلة وسماع أجوبة روتينية.

قلت له: "أنا آسف، أعرف أن هذا الجواب ربما يعد صريحاً أكثر مما ينبغي في مقابلة عمل كهذه، ولكنني سأكون غير صادق إذا قلت إنه لم تكن هناك قرارات لا أوافق عليها طوال السنوات الماضية". في هذه اللحظة حدثت وقفة طويلة في المقابلة. وقلت له، "ولكن لهذا السبب بالضبط أنا هنا. أنا أؤمن بضرورة وجود صوت صادق في المكتب، والتأثير في القرارات من داخل دائرة صنع القرار. من السهل أن تجلس خارج الدائرة وترمي القنابل". وحدثت وقفة طويلة أخرى في سير المقابلة، ما جعلني أشعر بالتوتّر حقاً.

أخيراً قال لي: "حظاً طيباً. آمل أن أراك قريباً".

استمرت المقابلات، وعمليات التدقيق والتحقّق، وإجراءات شؤون الموظفين بين البنتاجون والبيت الأبيض شهوراً عدة. واستدعتني سامانثا لإجراء المقابلة الخامسة. وقالت لي: "أنا آسفة لأن هذه الإجراءات تستغرق فترة طويلة جداً، وتبدو أنها مفرطة بعض الشيء. إننا نقدّر الحذر بشكل كبير في هذا المكتب، وهو أمر مهم بالنسبة إلينا أن نتأكد من أن الأعضاء في فريقنا الصغير هنا يدعمون رب العمل ويمتلكون الصفات المناسبة. سوف يكون لديك ملف واسع جداً وفعّال جداً مع خط مباشر لتقديم المعلومات من خلالي أو من خلال جون إلى نائب الرئيس. إن هذه المناصب فيها الكثير من الاستقلالية".

شكرتها على الفرصة، وذكّرتها أنني لست عجوزاً يحمل شهادة دكتوراه في الشؤون السياسية لجنوب آسيا.

ابتسمت وقالت لي: "هذا شيء جيد. لقد قضيتَ الوقت الذي يقضيه معظم الناس في الحصول على شهادة جامعية في ميدان العمل الفعلي. وهذا أمر نادر في هذه المدينة. ما رأيك حتى الآن؟".

خلال سير الحديث أوضحت لها بصراحة أن عدداً من الأصدقاء والزملاء نصحوني بعدم قبول هذا المنصب، وقد ذكروا لي الأسباب المتوقّعة: لا يجوز أن تذهب للعمل لمصلحة دارث فيدر [الشخصية الشريرة في فيلم حرب النجوم]؛ سوف تصبح مصدر شبهة بعد أن تذكر "مكتب نائب الرئيس" على سيرتك الذاتية؛ الديمقراطيون يمكن أن يصلوا إلى الرئاسة عام 2009، ولن تكون قادراً على العودة إلى البنتاجون، وما شابه ذلك. أوضحت لها أنني توصّلت إلى نتيجتين: الأولى أن معظم الأشخاص الذين أعطوني تلك النصيحة كانوا موظفين مدنيين. وكنت متأكداً تماماً أنني لا أريد أن أكون موظفاً حكومياً يمضي حياته كلها في البنتاجون، ولذلك لم أكن قلقاً بشأن العودة إلى البنتاجون. ثانياً، وهو الأهم، نحن جميعاً هناك لنخدم [بلادنا]، وليس علينا أن نقلق حول الصورة التي ستبدو عليها الأشياء في سيرتنا الذاتية. أخبرتها: سوف أكون فخوراً إذا طُلب إلي الانضمام إلى الفريق، وسوف أنصح نائب الرئيس بقدر استطاعتي.

وبعد شهر آخر من الإجراءات الورقية واستيفاء المستلزمات البيروقراطية لشؤون الموظفين، بدأت العمل في الطرف الشمالي من البيت الأبيض، واقتربت من مبنى مكتب آيزنهاور الرئاسي عبر الجناح الغربي للبيت الأبيض، وهو بناء مهيب يشبه القبو وله هيكل رمادي ضخم كان يضم وزارة الخارجية، ووزارة الحرب، ووزارة البحرية قبل الحرب العالمية الثانية. والديكور الداخلي للمبنى من العصر الفيكتوري، والأرضيات مربعات من الرخام، وله سقوف عالية وأعمدة قوية، وفيه بعض السلالم التي تعدّ الأجمل في واشنطن كلها. وهو الآن مقر أغلب الموظفين المساعدين للرئيس ونائب الرئيس، بدءاً من كتّاب الخطابات، إلى سكرتاريا السفر، وانتهاءً بأعضاء مجلس الأمن القومي. وكان موظفو الأمن القومي التابعون لنائب الرئيس في وسط المبنى، في مكاتب ذات أقفال مشفّرة.

لحسن الحظ، تمكّنت بسرعة من التكيّف مع روتين العمل؛ حيث كان سلَفي مارك ويبر، شخصاً محترماً ومحامياً ذكياً جداً، وكان يعالج جميع القضايا بجرعة كبيرة من السخرية، وكان ببساطة يصعد السلالم لكي يؤدي دور المدير الأول لشؤون جنوب آسيا في مجلس الأمن القومي. وكنت محظوظاً أيضاً لأنه كانت لديّ علاقة سابقة مع المدير الأول لشؤون أفغانستان بين موظفي مجلس الأمن القومي، وهو العقيد جون وود، وهو ضابط هادئ يتمالك نفسه في كل الأحوال ويمتلك بصيرة ثاقبة؛ عملت معه سابقاً عندما كان في هيئة الأركان المشتركة. وهكذا، كان المكتب الوحيد المماثل الذي يجب علي أن أقيم معه علاقات جديدة هو مديرية مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن القومي، تحت رئاسة مساعد الوزير السابق لشؤون الخزانة خوان زاراتي. أوضح لي خوان على الفور أنه يريد أن يكون ملمّاً بأكبر قدر ممكن من المعلومات، وأخبرني أن لديّ دعوة مفتوحة لحضور الاجتماعات الأسبوعية مع الفريق الأمني لمكافحة الإرهاب، وأنني سوف أكون ضمن القائمة المرخّص لها لحضور اجتماعات أشد حساسية لفرق صغيرة حول قضايا مختلفة ومتعلّقة بالإرهاب. وعلى الفور تأقلمت وأصبحت قادراً على مجاراة نظرائي وزملائي في مجلس الأمن القومي، وتطلعتُ إلى أن أساعدهم في توجيه السياسة الملائمة وصوغها.

كان اهتمامنا الرئيسي هو إطلاع نائب الرئيس على أوضاع المناطق المخصّصة لكل منّا من العالم، وتقييم الأحداث ومناقشتها نيابة عنه على مستويات متعدّدة؛ ونظراً إلى أن مكتب نائب الرئيس ليس له دور رسمي في عملية صناعة القرار بين المؤسسات المعنية، كما هي الحال بالنسبة إلى وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، وموظفي مجلس الأمن القومي، فإن فاعليتنا كانت تعتمد بشكل كبير على امتلاك علاقات قوية فيما بين المؤسسات. مضى أسبوع عادي كان حافلاً بالتحضير لاجتماعات المؤسسات المعنية في غرفة العمليات في البيت الأبيض، وحضور تلك الاجتماعات، وهي تشمل الاجتماعات الأسبوعية للجنة النواب لشؤون أفغانستان برئاسة "قيصر الحرب" [المستشار الحربي] الممثل للرئيس الفريق دوغ لوت. وكان لوت يشغل سابقاً منصب رئيس مكتب العمليات التابع لهيئة الأركان المشتركة (J-3)، وقد احتفظ بالمنصب نفسه في القيادة المركزية للقوات الأمريكية،

وقد تم جلبه إلى البيت الأبيض؛ ليشغل منصب مساعد الرئيس ونائب مستشار الأمن القومي لشؤون العراق وأفغانستان. وكان القصد من هذا المنصب هو إيلاء مزيد من الاهتمام لهاتين الحربين، على حين يقوم مستشار الأمن القومي بالتركيز على بقية مناطق العالم. وعلى الرغم من كلمة "النائب" في المسمى الوظيفي، فقد تعلّمت بسرعة أن القسم الأول من المسمى الوظيفي هو المهم في تراتبية وظائف البيت الأبيض أكثر من القسم الثاني. ومسمى "مساعد الرئيس"، يعني أنه يتمتّع بصلاحيات التواصل المباشر مع الرئيس بوش، ويجب عليه التنسيق مع مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي، وليس التواصل من خلاله. فعلى سبيل المثال، يمكن تكليف شخصٍ ما بمنصب مساعد الرئيس وكبير البوابين، ومن الناحية الفنية يكون منصبه أعلى من نائب مساعد الرئيس ومن نائب مستشار الأمن القومي. إن الميزة الأكثر أهمية هي إمكانية التواصل مع القائد العام.

إن تعيين لوت في هذا المنصب يعني إعطاء اهتمام أكبر لحربي أفغانستان والعراق من جانب البيت الأبيض، ولكنني كنت أشك في جدوى ذلك بالنسبة إلى أفغانستان. كان لوت يتولى منصباً قيادياً في العراق، ولكن في القيادة المركزية وهيئة الأركان المشتركة كان يركّز بشدّة على النقاشات حول كيفية تغيير مسار الأحداث في العراق. في المقابل، لم يؤدِّ لوت أي خدمة ميدانية في أفغانستان قبل تعيينه في منصب "قيصر الحرب". ولست متأكداً إن كان قد زارها من قبل أو لا. وكان من الواضح أنه جرى توظيفه للتركيز على وضع العراق؛ ومع ذلك فقد زاد عدد موظفيه لشؤون أفغانستان في مجلس الأمن القومي من اثنين إلى خمسة، وبصورة دراماتيكية ارتفع عدد الاجتماعات حول مجموعة موضوعات في سياستنا تجاه أفغانستان التي كانت بحاجة إلى اهتمام من أعلى المستويات.

بالشكل العادي كنت أحضر اجتماعات لجنة النواب لبحث شؤون أفغانستان كل أسبوع، واجتماع آخر حول باكستان مرة كل أسبوعين؛ واجتماع الفريق الأمني لمكافحة الإرهاب برئاسة جوان كل يوم اثنين؛ واجتماعات لجنة النواب للشؤون المتعلّقة بمكافحة الإرهاب حول اليمن أو الصومال، واجتماعات متعددة أخرى بمستويات أدنى. إن لجان

النواب تضم عادة المسؤول الثاني أو المسؤول الثالث في كل جهة، على حين أن لجان المديرين تضم الوزراء ويترأسها مستشار الأمن القومي. أما في البنتاجون، عندما كنت في منصب مدير قسم السياسات تجاه أفغانستان، فقد كان يجب عليّ المطالبة ببعض الوقت من ميتش شيفرز أو جيم شين لكي يعطياني ملخصاً حول ما دار في اجتماعات لجان النواب التي حضراها بصفة "عضو إضافي"، (وهذا المصطلح يستخدم للأشخاص الذين يجلسون في الكراسي المحاذية للجدار، على أحد جانبي طاولة غرفة العمليات ويسجلون ملاحظات لتقديمها إلى مديريهم). وهذه الملخّصات كانت مهمة جداً بالنسبة إلى فريقنا لكي نقوم بواجباتنا بصورة فعّالة، وهي واجبات كان يمكن أن تكون مستحيلة لو لم تكن لدينا معرفة جيدة بالأمور التي تم اتخاذ قرارات بشأنها - (أو غالباً لم يتم اتخاذ القرارات بشأنها) - في اجتماعات البيت الأبيض. وفي منصبي الجديد، كنت أحضر شخصياً هذه الاجتماعات جميعها. وحتى بصفة "عضو إضافي"، كنت قادراً على متابعة ما يحدث في الاجتماعات بين المؤسسات المعنية بشكل أسبوعي.

لم أكن بأي شكل من الأشكال عضواً في الدائرة الداخلية التابعة لنائب الرئيس. لقد تعاملت معه بصورة مباشرة فقط عندما كان يتناول القضايا التي تقع ضمن اختصاصي، أو عندما كان يعقد اجتماعاً مع مسؤول ما من جنوب آسيا. ونظراً إلى تعدد مسؤولياته الكبيرة التي تتطلب معالجة مجموعة واسعة من القضايا المحلية، والقضايا السياسية، وجمع التبرعات والأموال، ومسؤولياته في مجلس الشيوخ وبقية العالم كله، كان يتعامل عادة مع الجزء الذي يقع ضمن تخصّصي من العالم نحو مرتين أو ثلاث مرات في الشهر. وكان تدخلي يتألف دائماً تقريباً من تقديم ملخصات تمهيدية قبل اجتماع مجلس الأمن القومي مع الرئيس، أو حضور اجتماع في مكتب نائب الرئيس مع الشخصية الزائرة؛ مثل الرئيس الأفغاني كرزاي أو الرئيس الباكستاني آصف علي زرداري. وكانت لديّ فرصة لأن أكتب عدداً من الوثائق والمذكرات الحكومية، التي كنت آمل أنها ستؤثر في تفكيره، حتى إن حدث ذلك في وقت متأخر من عمر الإدارة.

كان نائب الرئيس ديك تشيني منسجماً مع شهرته؛ حيث كان سلوكه مهذباً ولكنه في الوقت نفسه كان يخفي مشاعر الألم والسرور. وكان الأمر مثيراً للخوف عندما نتذكّر أنه حين كان في منتصف الثلاثينيات من عمره، شغل منصب كبير موظفي البيت الأبيض مع الرئيس جيرالد فورد، ثم أصبح زعيم الأقلية في مجلس النواب، ثم وزيراً للدفاع، ثم الرئيس التنفيذي لشركة هاليبيرتون وهو في طريقه ليصبح نائب الرئيس؛ وكان نائب الرئيس الأكثر نفوذاً في التاريخ الأمريكي. وكما كان متوقّعاً من شخص مثله، فإن تقديم التقارير له كان طريقاً باتجاه واحد مع ملاحظات ارتجاعية قليلة جداً. وعادة ما كانت سامانثا أو جون أو أنا نعرض ملاحظاتنا ونتلقى جواباً مختصراً جافاً "شكراً. جهد طيب". وفي إحدى المرات أطلعت نائب الرئيس على وثيقة بعنوان: "لكي نعود إلى أفغانستان، لسنا مضطرين إلى الخروج من العراق"، وكانت الورقة تحليلاً قمت بتحضيره عن الانتشار العسكري للولايات المتحدة خارج العراق وأفغانستان. وقد ركّز التحليل على عمليات الانتشار القديمة لقواتنا في سيناء بمصر، والبوسنة، وكوسوفو، وكوريا، والقوات العائمة على متن السفن في حال نشوب أزمات. ووصفت له الوضع الأمني المتدهور في جنوب أفغانستان وشرقها، والالتزامات الحالية للقوات الأمريكية. كما راجعت طلبات الجيش المتكرّرة والمعلّقة لإرسال قوات إضافية، وعدم ترجيح احتمال أن يقوم حلفاؤنا في حلف الناتو بتلبية هذه الطلبات. ثم أوضحت أننا غير مجبرين بالضرورة على سحب قواتنا من العراق لتعزيز موقفنا في أفغانستان؛ حيث يمكن أن نسحب جنوداً من تلك المهمات القديمة بدلاً من العراق. ومع أن الأمر قد يسبّب إشكالية في التزاماتنا تجاه حلفائنا، فقد رأيتُ أن تقبّل المخاطرة بتلك العلاقات أفضل بكثير من الاستمرار في قبول الوضع المتدهور في أفغانستان، وانتظار توفير بعض الموارد من العراق. وبعد بضعة أسئلة تلقيت رد نائب الرئيس، "شكراً يا مايك. عمل جيّد". ولم يكن لديّ أدنى فكرة إذا ما كان قد وافق على رأيي أو أنه اعتبره أغبى شيء سمعه في حياته.

خلاصة القول، كان تشيني يمسك بأوراقه بإحكام، وعلاقاته مع الرئيس كانت سرية جداً. ولكن كنا نتوصّل إلى معرفة بعض النتائج بطرائق أخرى، أحياناً كنا نسمعه

يردد في اجتماعات لاحقة الأفكار الرئيسية المأخوذة من مذكرة قمنا بصوغها نحن. وبعد أسابيع من تقديمي تلك الاقتراحات، ذهب نائب الرئيس تشيني برفقة الرئيس بوش الابن لحضور اجتماع في البنتاجون في قاعة اجتماعات تُدعى "ذا تانك" وتُعرض فيها المعلومات التقنية مع رؤساء أركان فروع القوات المسلحة، وطلب تحليلاً لوضع القوات المتوافرة خارج العراق، وهي التي يمكن نشرها في أفغانستان. كما طلب تحليلاً مقارناً للمخاطر المترتّبة على استمرار تصاعد العنف في أفغانستان مقارنة بمخاطر مواجهة الالتزامات العالمية الأخرى بعدد أقل من الجنود الأمريكيين. وعندما أخبرني جون عن طلبات نائب الرئيس، كدت أسقط عن الكرسي. ومما شجعني أنني سمعت أن اقتراحي قد أصاب الهدف أخيراً، وأن وضع أفغانستان لا يجوز أن ينتظر الإمدادات من العراق.

هناك مستشار خبير في البيت الأبيض أعطاني نصيحة حكيمة بعد وصولي بوقت قصير. قال لي على مائدة الغداء: "حدِّد أشياء قليلة تريد إنجازها، ليس أكثر من ثلاثة أشياء إلى خمسة. مهمتك الآن تشمل جنوب آسيا والعالم كله تحت محاربة الإرهاب، وما يزال هناك بعض الأشياء المهمة التي يجب أن تنجزها هذه الإدارة". القائمة الخاصة بأفغانستان سهلة: إعادة توفير الموارد والقيادة الأمريكية في جنوب أفغانستان (مدنية وعسكرية)؛ وإصلاح مشكلات القيادة والسيطرة؛ وتقديم تعهد طويل الأجل لبناء الجيش الوطني الأفغاني؛ وإعطاء قواتنا الإذن لكي تعمل إلى جانب ميليشيات القبائل كجهد مساند ومكمل يعتمد على مبدأ "اقتصاد القوة" [من مبادئ كلاوزفيتز/ المترجم]. كنت أعرف أن هذه الأمور أهداف ذات طبيعة عسكرية، ولكنني كنت مقتنعاً بأن توفير القليل من الأمن كان مطلباً ضرورياً لكي نتمكّن من تنفيذ استراتيجية سياسية أو تنموية.

في التعامل مع باكستان كان يجب علينا أن نغير طبيعة علاقتنا. وبعد قراءة تقارير، أسبوعاً بعد أسبوع عن دور باكستان في دعم التمرد، أصبحت مقتنعاً بأننا كنا نسير في المسار الخاطئ. كان يجب علينا أن نحافظ على باكستان كدولة حليفة، وكان الباكستانيون

مقتنعين بأننا نحتاج إليهم أكثر مما يحتاجون إلينا. وكنت أنا مستعداً لـدفع قيادتنـا إلى أبعـد مدى ممكن، نحو استخدام عصا أغلظ. لقد جربنا الجزرة لسنوات، ولم تكن مجدية. وكـان ينبغي لنا أن نتخذ موقفاً أكثر حزماً في علاقتنـا وفي سـياستنا لمكافحـة الإرهـاب. وكـان ينبغي لنا أن نقلل اعتمادنا على طرق الإمدادات البرية عبر باكسـتان، بتنويـع الطـرق التـي توصلنا إلى أفغانستان.

هناك بضـع قضـايا مهمـة أخـرى، كنـت أحـاول أن أقـدم مسـاندتي لمعالجتهـا في اجتماعات بين المؤسسات الحكومية المعنية على مستويات أدنى، وكنت أقوم بإطلاع جـون ونائب الرئيس عندما يريدان تقييم الموقف. وكان الرئيس ووزارة الخارجية مصمّمين عـلى تعزيز العلاقات الأمريكية-الهندية من خلال صفقة نوويـة مدنيـة. وهـذه الصـفقة تتـيح للولايات المتحدة نقل تكنولوجيا نووية سلمية إلى الهند، على الرغم من رفض الهند توقيـع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية. وقد دعمت هذه الخطوة، وشجعت نائب الـرئيس على أن يطلب من باكستان عدم التدخّل في تلك الصفقة، كـما راقبـت قضـايا أخـرى عـن كثب؛ مثل حملاتنا ضد تنظيم القاعدة في الـيمن والصـومال، وجهودنـا لمسـاعدة الـرئيس فيلبي كالديرون في المكسـيك في حربه ضد عصابات المخدرات المحلية.

وكانت إحدى المهمات التي ننجزها في المكتب كـل يـوم، مـا نطلـق عليـه "الملاحظـة المسائية" لنائب الرئيس. فكل فرد من موظفي الأمن القومي التـابعين لنائـب الـرئيس كـان يكتب فقرة قصـيرة عن الجزء المخصّص له من العـالم. وكـان هنـاك ميـزة رائعـة وهـي أننـا نمتلك الحرية لأن نسلط الضوء على أي قضـية لجذب انتباهه؛ مثل جزء مهم من معلومـات استخباراتية حيث نضع تعليقاً عليه؛ أو موقف بشأن قضـية تم تبنيه مـن قبـل البنتـاجون أو وزارة الخارجية وسـيتم عرضه على لجان النواب. ولقد قلصت ملاحظـاتي بعنايـة وحـددتها ضمن جوانب متعددة من قائمتي القصـيرة للموضوعات التي أريد أن أؤثر فيها.

وقبل أن أبدأ في إحـداث تـأثير في هـذه القضـايا، كـان يجـب أن أحصـل عـلى إذن بالدخول إلى سلسلة من البرامج الخاصة والسـرية. وقد خضعت لسلسـلة إجـراءات مـع

مكتب الأمن الخاص بالبيت الأبيض؛ ومع مديرية إصلاح الاستخبارات التابعة لمجلس الأمن القومي، وهي التي يترأسها ستيف سليك، وهو ضابط عمليات لفترة طويلة في وكالة الاستخبارات المركزية، ومستشار سابق لنائب مدير الوكالة جون ماك-لوغلين. جلست ساعات وأنا أقرأ رزماً من الوثائق في غرفة اجتماعات صغيرة داخل مكان آمن. وكان معظم تلك الوثائق يتعلق ببرامج أُنشئت في أعقاب صدور أوامر الرئيس الموقعة في 17 سبتمبر عام 2001، وهي التي حددت هيكل السياسة المطبقة في الحرب على الإرهاب. وكانت سياسات التعامل مع تنظيم القاعدة صريحة ولا هوادة فيها، وكذلك التعامل مع أي تنظيمات عالمية متطرفة مرتبطة بتنظيم القاعدة. وكان بعض تلك الوثائق مدهشاً ومفيداً. وكنت أعتقد أنني حصلت على إذن رفيع المستوى بالاطلاع على الوثائق عندما كنت في البنتاجون. ولكنني الآن عرفت أن هناك سلسلة طويلة من المستويات الأعلى لتصنيف السرية لم أكن أعرف عنها أي شيء. وعرفت كيف تقوم إدارات الأمن القومي المعنية؛ مثل: وزارة الدفاع، والخارجية، ووكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة، باتخاذ القرارات وصوغ الآراء - جزئياً أحياناً - من دون دراية. ودُهشت عندما وجدت أن بعض البرامج الفائقة السرية كانت بسيطة جداً وجديدة نسبياً، وتسبب خيبة أمل حقيقية عندما نضع في الحسبان أن دافع الضرائب العادي كان يعتقد أننا أنجزنا هذه البرامج منذ سنوات.

وكانت هناك برامج أخرى اسمها الرمزي فقط ما يزال على اللائحة السرّيّة، من دون ذكر تفاصيل؛ وتوجهتُ إلى وكالة الاستخبارات المركزية وطلبت منهم تفسيراً أعمق حول برنامج محدّد بعينه، شعرت بأنه أحد البرامج التي يرغب نائب الرئيس في الحصول على معلومات عنها. وسرعان ما عرفت ماذا يعني أن تطلب اجتماعاً من أجل موظف لدى نائب الرئيس تشيني. وكنت أعتقد بسذاجة أنني سوف أحصل على نقاش غير رسمي من مستوى مبسّط عن البرنامج وتأثيراته؛ ولكن كان يجلس إلى الطاولة في مركز مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية نائب مدير الوكالة، وهو مدير العمليات، والأهم من ذلك أنه كان المستشار القانوني للوكالة. سألت عن معلومات حول القيادة العليا لتنظيم القاعدة، وحول العمليات عبر الحدود، وآليات التعاون بين الجيش

ووكالة الاستخبارات المركزية، ومدى كفاءة جهودنا في التنسيق مع أجهزة الاستخبارات الأفغانية. وللحصول على معرفة استراتيجية أعمق حول إسهام وكالة الاستخبارات المركزية، سألتهم هل كانت ميزانيتهم متناسبة مع المهمات الضخمة التي تنتظرهم في أفغانستان وباكستان؟ وعرفت أن تمويلهم يعد ضئيلاً جداً بالمقارنة مع إنفاق الجيش، ولكن دورهم في رأيي، لا يقل أهمية عن دور الجيش، ويستحقون كل الدعم الذي أستطيع أن أقدمه لهم في البيت الأبيض. وبعد ثلاثين دقيقة من الأجوبة بكلمة واحدة عن أسئلتي، رأيت أن الاجتماع لم يعد له فائدة. والأجوبة القليلة التي أعطوني إياها كانت تتم عادة بعد إلقائهم نظرة خاطفة إلى محامي الوكالة.

توقفت عند مكتب سامانثا بعد عودتي، وأخبرتها بما دار في اللقاء. ابتسمتْ، وقالت لي بسخرية: "مرحباً بك في مجتمع الاستخبارات الذي يُفترض أن يكون غير سياسي. افعل ما في وسعك لكي تظل مطّلعاً على أحدث تطورات ذلك البرنامج. هو شيء يحظى باهتمام ربّ عملنا. جوان زاراتي وستيف سليك شخصان جيدان وسيعملان معك".

كان العمل مع سامانثا رائعاً. وهي خبيرة لفترة طويلة في الشؤون المالية الدولية، لآسيا، والشرق الأوسط، وهي تخدم ضمن فريق موظفي الأمن القومي التابعين لنائب الرئيس منذ بداية عهد إدارة بوش-تشيني. وقد نجحتْ في السير على ذلك الخط الرفيع الفاصل بين أن تكون قاسية كالمسمار وعاطفية عندما تعرض آراءها في الاجتماعات بين المؤسسات المعنية، ولكنها كانت رقيقة وقليلة التدخّل عند التعامل مع موظفينا. وقد حدثت إحدى قصصي المفضلة عن سامانثا خلال أحد اجتماعات لجنة النواب حول باكستان، وكان يترأس الاجتماع نائب مستشار الأمن القومي حينذاك، جيمس جيفري. واستمر الاجتماع أكثر من ساعة وغطى سلسلة موضوعات، بدءاً من الميزانية الهزيلة المخصّصة للدبلوماسية العامة التي تتبنّاها الحكومة الأمريكية في باكستان، وصولاً إلى وضع برامج المساعدات في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية التي ينعدم فيها القانون في باكستان. وبينما كان جيفري يحضر أجندة الاجتماع، كانت سامانثا جالسة أمامي على طاولة الاجتماعات في غرفة العمليات، ورفعت يدها قليلاً.

"أعتقد أنه أمر مهم، فيما نحن نتحدّث عن برامج المساعدات في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية والمساعدات العسكرية الأمريكية للجيش الباكستاني، ألا ننسى سبب وجودنا هناك بهذه القوة الضخمة في المقام الأول. لقد أمضينا ساعة ونحن نتحدث عن باكستان، وأستغرب بشدة أنه لم يأتِ ذكر أسامة بن لادن أو أيمن الظواهري".

ذكّرها جيفري أننا نقوم عادة بتغطية قضايا مكافحة الإرهاب في اجتماع منفصل ومنتدى موازٍ للسياسات مع مشاركة محدودة أكثر.

أجابته سامانثا، "أعرف ذلك يا جيم. ولكنني أعتقد أنه من المهم بالنسبة إلى زملائنا هنا في وكالة التنمية الدولية ووزارة الخارجية أن يتذكروا أن أشخاص القيادة العليا في تنظيم القاعدة ما يزالون طلقاء، وهم على الأرجح في باكستان، وفي الوقت ذاته نحن ننفق مليارات الدولارات على المساعدات في تلك الدولة لدعم حكومتها. أعرف أنه قد مضى على ذلك سنوات عدة، ولكنني أشعر بالقلق حقاً، وأخشى أن نكون قد أغفلنا الهدف هنا، فكأننا نقدم المساعدات حباً بتقديم المساعدات فقط".

أجابها جيفري، "هلّا أوضحت قصدك بالضبط".

قالت سامانثا وهي تضرب الطاولة براحة يدها: "أريد أن يكون موضوع مطاردة أسامة بن لادن الموضوع الأول على أجندة كل اجتماع يتناول وضع باكستان. أريد رأس أسامة مرفوعاً على وتد فوق مرج البيت الأبيض، قبل مغادرة هذا الرئيس للمكتب!".

كتبت كلمة "نعم!" في دفتر ملاحظاتي. شاهدت بعض العيون تحملق وكأنها تريد القول: "ها قد جاء مرة ثانية موظفو تشيني الأغرار". لقد فُقد أثر أسامة بن لادن منذ مدة، ولذلك لم تتم مناقشة موضوعه. واختتم جيفري كلامه قائلاً: لقد انقضى زمن على آخر معلومات عن أسامة حصلوا عليها، وسوف يوضع هذا الموضوع على الجدول".[6]

الطرفة كانت رمزية وهي تتعلّق بحقيقة أننا أغفلنا أهدافنا في أفغانستان ومنطقة جنوب آسيا بشكل أعم. وفي أوجه متعددة، كانت شبيهة بحال العيادة الطبية في منطقة أتشين شرق أفغانستان؛ حيث كانت نشاطاتنا ببساطة تكرّر نفسها على مستوى البلاد، ولم تكن تتجه نحو أهداف وغايات محدّدة. كما كان الوزير غيتس يوجّه اللوم خلال مؤتمرات الفيديو التي كان يجريها مع جنرالاته؛ حيث لم تكن معالم النجاح واضحة، ولم يكن واضحاً هل كانت جهودنا تحرز أي تقدم نحو تلك الغايات أو لا. كان ذلك الغموض موجوداً بدءاً من غرفة العمليات في البيت الأبيض، مروراً بجميع الحلقات المعنية، وانتهاء بمراكز العمليات التكتيكية العسكرية في ولايات أفغانستان. فما مكونات النصر؟ وما الخطة لإحرازه؟

مع استمرار تصاعد العنف في أفغانستان في ربيع عام 2008، كانت الحماسة تتنامى في واشنطن لإصلاح هيكل القيادة والسيطرة. وأخيراً أصبح من الواضح أن قوات الناتو لا يُتوقع منها أن تكون قادرة على إنجاز المهمة في جنوب أفغانستان. وقام دوغ لوت، وجيم شين، وماري بيث لونغ، وإيليوت كوهين البروفيسور المرموق من جامعة جونز هوبكنز والمستشار القانوني لوزيرة الخارجية، بجولة موسّعة لتقصي الحقائق شملت كل أرجاء أفغانستان. وأعطيتُ ماري بيث وجيم مجموعة أسئلة لطرحها على القيادة، وهي مستمدّة من خبرتي خلال خدمتي في أفغانستان عام 2006: هل يركز جهاز استخباراتنا على الأهداف المحدّدة بشكل مفرط؟ وهل استراتيجية التنمية التي نتبنّاها منسجمة مع استراتيجيتنا لمحاربة التمرّد؟ وما الاستراتيجية التي تتبنّاها قوات إيساف لمحاربة التمرّد؟ وهل لدينا موارد كافية لتنفيذ الاستراتيجية؛ إذا كانت هناك استراتيجية أصلاً؟

من بين انطباعات لوت الكثيرة، أنه عاد ساخطاً جداً بسبب سلاسل القيادة المتعدّدة والمتكرّرة، وخاصة في جنوب أفغانستان. بدأ يعد على أصابعه سلاسل رفع التقارير المحصّنة بأسوار النار والتي انتقدتها أنا منذ زمن بعيد خلال اجتماع للجنة النواب حول هذه القضية: "الأول، قوات إيساف التقليدية إلى قائد إيساف؛ الثاني، القوات الخاصة إلى

قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة؛ الثالث، قواتنا في وحدات المهمات الخاصة عبر فريق مكافحة الإرهاب التابعين له؛ الرابع، فرق التدريب المرافقة إلى قوة "فينكس" الخاصة والقيادة الأمنية الانتقالية المشتركة لأفغانستان؛ الخامس، الجيش الوطني الأفغاني إلى وزارة الدفاع". وتوقف لوت لحظات وهو يبدل يده ويبدأ باستخدام أصابع الأخرى. وتابع قائلاً: "السادس، الشرطة الوطنية الأفغانية إلى وزارة الداخلية؛ وأخيراً، السابع، وهو حول الطرف الذي لا يراه جيداً أي شخص في هذه الغرفة؛ أي وكالة الاستخبارات المركزية مع وحدات الاستخبارات الأفغانية الشريكة لها. وفي أفضل الأحوال، يتم التنسيق بين طرف وآخر، ولكن ليس هناك شخص واحد مسؤول حقاً عنهم جميعاً".

احتدم الجدل بعض الوقت حول كيف يمكن فهم الوضع؟ وتمّ التوصّل إلى إجماع في وزارة الدفاع الأمريكية وفي دوائر حلف الناتو لجعل قائد قوات إيساف هو القائد العام لجميع القوات الأمريكية إلى جانب قوات الناتو. إن هذا سوف يحل المشكلة جزئياً، بسحب معظم قوات العمليات الخاصة والقيادة الأمنية الانتقالية المشتركة لأفغانستان ووضعها تحت قيادته. وقد عرضت الموضوع على نائب الرئيس في مذكّرة، وقلت له إن نشر ذوي القبعات المزدوجة خطوة مطلوبة منذ زمن بعيد بقصد توحيد القيادة، ولكنها ليست كافية لحل مشكلة القيادة والسيطرة في أفغانستان. والمشكلة الأخرى كانت قيادة قوات إيساف ذات الـ 4 نجوم التي لديها مشكلات استراتيجية كثيرة جداً، وليس لديها الوقت للتركيز على الجوانب العملياتية لخوض الحرب. لم تتمكن قيادة إيساف من تلبية طلبات واشنطن، وقيادة الناتو في بروكسيل، واثنتين وأربعين عاصمة أخرى في أوروبا وآسيا لها جنود في التحالف، والسفارة الأمريكية في كابول، ومختلف الوزارات في الحكومة الأفغانية، والرئيس الأفغاني حامد كرزاي، ومع ذلك، ما تزال تدير الحرب يوماً بيوم. نحن بحاجة إلى قيادة متوسطة المستوى بـ 3 نجوم تركّز على سحب القيادات الإقليمية الخمس، وقيادة التدريب وتجميعها على الصفحة نفسها. كان جندي القوات الخاصة القابع في داخلي يكره الضغط من أجل إحداث طبقة أخرى من الهياكل الإدارية، التي كان يجب عليّ التعامل معها في فترة خدمتي المقبلة، ولكن من مكان جلوسي في

البنتاجون والبيت الأبيض، كنت أستطيع أن أرى أن القيادات الست بـ "نجمتين" في أفغانستان كانت بحاجة إلى شخص ما لتنسيق جهودها. كما كنت أستطيع أن أرى أن القوات الخاصة بحاجة إلى صوت أقوى في قيادة إيساف، وبدأت أضغط من أجل إحداث قيادة للعمليات الخاصة بـ "نجمة" واحدة في كابول. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها وجهود كثيرين غيري، لم نستطع أن نحصل على إجماع في حلف الناتو على إحداث قيادة للعمليات بـ 3 نجوم، وفي وقت لاحق تمت تسميتها القيادة المشتركة المتوسطة حتى خريف عام 2009؛ أي لموسمين حافلين بالقتال فيما بعد.

وعند إحداث هذه التعديلات، كانت حدة القتال في أفغانستان تزداد بسرعة؛ ففي إبريل عام 2008، هاجم مقاتلو طالبان موكب العرض العسكري في احتفالات أفغانستان بيوم النصر في قلب كابول، وحاولوا اغتيال الرئيس كرزاي، ونجحوا في قتل بضعة مسؤولين رفيعي المستوى. وفي شهر يونيو من ذلك العام، حدثت سلسلة تفجيرات وهجمات في قندهار تُوّجت بعملية مدهشة لهروب معتقلين من سجن ساربوزا؛ حيث تمّ تحرير مئات من مقاتلي طالبان الذين كانوا معتقلين في السجن. كما تـوج ذلك الصيف الدموي بعملية نفذها مقاتلو طالبان، وأبادوا فيها تقريباً أفراد مركز قوات التحالف في قرية وانات في ولاية كونار [على الحدود الشرقية لأفغانستان]، ولقي في تلك العملية 9 جنود أمريكيين حتفهم، وجُرح 27 آخرون. وفي يونيو، فتحتُ مجلتي الأسبوعية "آرمي تايمز *Army Times*" في المكتب؛ حيث كنت أقرأ الإحصاءات الحديثة لأعداد الذين قُتلوا في المعارك في ذلك الأسبوع قبل قراءة أي مقال آخر. ودُهشت لمطالعة أن عدد الإصابات في أفغانستان يساوي عددها في العراق أول مرة، على الرغم من حقيقة أن مستويات القوات الأمريكية في العراق كانت تعادل تقريباً ثلاثة أمثال نظيراتها في أفغانستان.

وفي اجتماع لمجلس الأمن القومي حول أفغانستان في ذلك الخريف، احتدم الجدال حول أسباب التصاعد الدراماتيكي في العنف. وحضر الاجتماع الجنرال ديفيد ماك-كيرنان، الذي حل محل الجنرال ماك-نيل في منصب قائد قوات إيساف في يونيو عام

2008، وجلس إلى جانب ويليام وود، السفير الأمريكي في أفغانستان يتابعان شاشة مؤتمر الفيديو على الجدار البعيد في غرفة العمليات. عدّد ماك-كيرنان مجموعة أسباب لتصاعد العنف، ولكنه أرجع السبب الرئيسي إلى حقيقة أن قوات إيساف كانت تتقدّم بقوة إلى المناطق الخاضعة لسيطرة طالبان وهي التي لم تُمسّ في السابق.

كتبت في دفتر ملاحظاتي، "لقد قال إيكنبيري الشيء نفسه عام 2006".

وكان السفير وود متفقاً مع هذا الرأي، "إن هذا التصوّر بأن كابول يحيط بها مقاتلو طالبان هو تضخيم للقضية. ينبغي لنا أن نبذل قصارى جهدنا للمحافظة على صورة إيجابية أمام وسائل الإعلام وأمام محاورينا. لم تكن الأمور تسير كما نرغب، بالطبع، ولكن كان من الضروري أن نحافظ على مظهر رسالتنا الاستراتيجية في صورة إيجابية".

كانت التقارير الميدانية والتقارير القصصية، في الواقع، التي أتلقّاها من عدد من زملائي في الجيش، تؤكد أن "الطريق الدائري" الشهير الذي ترعاه الولايات المتحدة منذ سنوات على أنه رمز لأفغانستان الجديدة، كان يتعرّض للضربات بشكل متكرّر بعبوات ناسفة وكمائن تصل إلى أطراف العاصمة كابول. وعندما وصلت مفارز العمليات ألفا التي أنتمي إليها بعد سنة، في فترة خدمتي الثانية في أفغانستان، كان في مقدورنا استخدام الطريق الدائري فقط بقوافل عربات مصفّحة ثقيلة، أو في الليل في عربات تسير من دون إشعال مصابيح؛ حيث يرتدي السائقون مناظير رؤية ليلية. أشرتُ إلى "أنه يجمع ما بين إعطائنا تقييماً داخلياً دقيقاً، وإضفاء صورة علنية إيجابية على الأشياء".

أوضح الأميرال مايك مولين رئيس هيئة الأركان المشتركة، أن الرئيس بوش أمر بإرسال جنود إضافيين إلى أفغانستان خلال السنة الحالية. وعبّر الوزير غيتس عن قلقه بقوله إنه حتى مع وجود جنود إضافيين فنحن غير قادرين على حماية الأراضي التي حرّرناها من المتمردين، وتساءل مولين: متى سينظر الشعب الأفغاني إلى الولايات المتحدة على أنها قوة محتلّة. "السوفييت نشروا في أفغانستان 120 ألف جندي ولم

يستطيعوا الصمود. ونحن يجب أن نكون حذرين بشأن عدم تجاوز الحد الذي ينظر فيه الشعب الأفغاني إلينا كمحتلّين".

ارتعبتُ من التفكير في هذا الموضوع. السوفييت قصفوا كل شبر في أفغانستان، ووضعوا الألغام متعمدين في الريف، ودمروا الاقتصاد الزراعي للبلاد، وفي الوقت ذاته حظروا الإسلام لمصلحة الأيديولوجيا الشيوعية الملحدة. ولم تكن الانتفاضة الشعبية الأفغانية ضد السوفييت مرتبطة بعدد معيّن من الجنود. وشعرت بقوة أن المستويات الحالية للعنف والإحباط كانت ناجمة عن انعدام التزاماتنا تجاه الأفغان، وليس عن فرط التزاماتنا تجاههم.

اعترفتْ وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس أنها كانت تحاول تحقيق زيادة مماثلة في عدد المدنيين [المرسلين إلى أفغانستان]، ولكن التنفيذ كان أبطأ مما كانت تأمل فيه.

فسر الرئيس بوش الابن التردد والتناقض في التصريحات، "بغض النظر عن الأسباب، يبدو وكأننا وقعنا هنا. ولست متأكداً هل كانت لدينا رؤية واضحة عن شكل الانتصار المنشود في أفغانستان أو لا".

كان هناك وقفة طويلة.

نائب الرئيس، تشيني، الذي لم يقل شيئاً طوال الساعة الماضية، تكلّم أخيراً. "سيادة الرئيس، أعتقد أننا فقدنا التركيز على أهدافنا القومية في أفغانستان، وعلى استراتيجيتنا لتحقيق تلك الأهداف، ولم نعد نعرف من هو المسؤول".[7] هذا التعليق كان يعبّر عن شخصية نائب الرئيس؛ قول الكثير بعدد قليل من الكلمات، والذهاب مباشرة إلى صلب الموضوع.

ترأس مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي لجنة المديرين بعد ذلك ببضعة أسابيع، وتوصل الجميع إلى نتيجة أن هناك حاجة إلى مراجعة شاملة لاستراتيجيتنا تجاه أفغانستان.

ومع أنه لم يبقَ إلا خمسة أشهر في عمر الإدارة، فقد أعطى الرئيس أوامر بإجراء مراجعة شاملة للموقف بين المؤسسات المعنية، مشابهة للمراجعة التي أدت إلى زيادة عدد القوات في العراق.

عقد لوت جلسة رفيعة المستوى بين المؤسسات المعنية، وحضرها نخبة من الذين يحضرون الاجتماعات الدورية للجنة النواب، لتحليل جميع جوانب "الخطوات المقبلة" في استراتيجية الولايات المتحدة تجاه أفغانستان. وكانت قائمة المشاركين تضم: مساعد وزير الدفاع لشؤون آسيا جيم شين؛ ومساعد وزير الدفاع لشؤون العمليات الخاصة والنزاعات المنخفضة الحدّة مايكل فيكرز (الذي له علاقات استثنائية عميقة بالمهمة في أفغانستان، يعود تاريخها إلى دعم وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية للمجاهدين الأفغان في محاربة الجيش السوفيتي في ثمانينيات القرن العشرين)؛ ومدير العمليات في هيئة الأركان الفريق البحري جيمس "جاي" باكستون؛ ومدير الخطط الاستراتيجية والسياسات برتبة نائب أميرال جيمس "ساندي" وينيفيلد؛ ومستشار وزارة الخارجية إليوت كوهين؛ ومساعد وزيرة الخارجية لشؤون جنوب آسيا ريتشارد باوتشر؛ وكبار المسؤولين من أجهزة الاستخبارات؛ وخبراء خارجيين؛ وبالطبع، طاقم مجلس الأمن القومي لشؤون أفغانستان. وكنت أنا أمثل مكتب نائب الرئيس.

اجتمعت المجموعة الأساسية لممثلي المؤسسات المعنية والخبراء الخارجيون أول مرة في 22 سبتمبر عام 2008، وبعد ذلك عقدت سلسلة اجتماعات نحو عشرين مرة، عادة لمدة أربع ساعات كل مرة، وغالباً مرتين في اليوم الواحد، في غرفة آمنة من دون نوافذ في الطابق الرابع من المبنى القديم للمكتب التنفيذي. طلبت المجموعة مشاركة الأفغان، وعُقد لقاء مع وزير الدفاع الأفغاني عبدالرحيم ورداك، ومدير الإدارة المستقلّة للحكومة المحلية جيلاني بوبال. كما حضر خلال سير الاجتماع بعض كبار القادة العسكريين والسفراء السابقين؛ بهدف مساعدة المجموعة في فهم المبادئ التي كانت تشكّل ركائز استراتيجيتنا في أفغانستان. وأمضى القائد الجديد للقيادة المركزية الجنرال ديفيد بترايوس

ساعات عدة مع المجموعة، وكذلك فعل قائد قوات الناتو الجنرال كرادوك. وكانت مجريات تلك الاجتماعات تحليلاً دقيقاً للمصالح الأمريكية في أفغانستان، والأفكار حولها، وعن الاستراتيجية والخطط الخاصة بها. وسارت الاجتماعات وفق النمط الكلاسيكي للحكومة الأمريكية، وتُوجت بسلسلة من التوصيات في ملخص بتقنية "الباور بوينت"، تمت مراجعته خلال اجتماع لجنة المديرين.

ربما كانت التوصية الأكثر أهمية من التوصيات العشر التي تضمنها الملخص، أنه يجب على "الحكومة كلها"، أن تعمل بالتعاون مع جميع مؤسساتها لوضع استراتيجية لمحاربة التمرّد، مع تخصيص المزيد من الموارد في جميع المجالات لدعم هذه الاستراتيجية. وقد تضمّنت استراتيجية محاربة التمرّد: زيادة الجهود لتدريب قوات الأمن الوطنية الأفغانية وتزويدها بالمعدات اللازمة؛ وتعزيز قدرة الحكومة الأفغانية لضبط حدودها ومحاربة اقتصاد المخدرات والفساد؛ وبشكل عام مساعدة الأفغان لتحسين أداء الحكومة. وهناك توصية أخرى مهمّة وهي الربط الصريح بين أفغانستان وباكستان كمشكلة سياسية ذات صلة ضمن مسرح عمليات واحد. فالتقدّم في إحدى الدولتين مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يحدث في الأخرى، والمؤسسات المعنية بسياستنا بحاجة إلى أن تدرك ذلك وتعكسه في السياسة المتّبعة. وهذا لن يتحقق ما لم تقم إدارة أوباما بإعطاء تسمية جديدة لمكاتب أفغانستان-باكستان، وما لم تتخذ المؤسسات المعنية خطوات ملموسة نحو التوقّف عن معاملة الدولتين كعلاقات مستقلّة ومنفصلة ومختلفة. وقد طلب عدد من المديرين إجراء تغييرات؛ وكانوا يرون أن ملخص التقرير غير جاهز لتقديمه للرئيس، ولكن هادلي احتجّ على ذلك.

"الرئيس متلهف لرؤية التقرير. وهو مستعد لتفهم بعض الانتقادات المتداولة هناك، وهي التي تقول إننا لم نولِ أفغانستان الاهتمام اللازم. وأنا سوف أنقل بعض اقتراحاتكم، ولكنني سوف أقدم له نسخة من مسودة التقرير في نهاية هذا الأسبوع. ونحن بحاجة إلى إبقاء اجتماع مجلس الأمن القومي معه بحسب الجدول المقرر في الأسبوع المقبل".

توصلت المراجعة باختصار، إلى نتيجتين مهمّتين لتشخيص الوضع في أفغانستان: نقص في التنسيق، ونقص في القدرات. وهاتان النقطتان تغطيان الموضوع كله، وتلخصان ما يقوله الكثيرون منّا منذ سنوات. التنسيق كان غائباً في جميع القطاعات: الأمن، الحكومة، التنمية الاقتصادية؛ كما كان غائباً في جميع مستويات القيادة والمؤسسات الرئيسية المعنية، بما في ذلك إيساف، وعملية الحرية الدائمة، والأمم المتحدة، والتعامل فيما بين المؤسسات الأمريكية المعنية. وكان هناك نقص في القدرات في مجال الجهود العسكرية اللازمة، وفي قوات الأمن الوطنية الأفغانية، والأهم من ذلك كله في الحكومة الأفغانية.[8]

لقد وافقتُ بكل إخلاص على جميع التوصيات، ولكنني كنت أعتقد أن العامل الرئيسي كان غائباً في المناقشة، وهو الوقت. لقد شاركت طوال خمس سنوات في إعداد التقارير عن التنسيق بين المؤسسات المعنية حول سلسلة من القضايا في أفغانستان، وكان هناك قاسم مشترك بين جميع التقارير تقريباً: جداول زمنية غير واقعية، أو عدم وجود جداول زمنية إطلاقاً. وعلى مستوى السياسات، ركّزنا على ما يتعين علينا تنفيذه، بينما كان العاملون في الميدان يركّزون على كيفية إنجاز المطلوب. ومن المؤسف أننا كنّا نترك للعاملين في الميدان مسألة تحديد الزمن اللازم، وكانت الجداول الزمنية المترافقة مع خطط التنفيذ ترتبط بفترات الخدمة التي يقضيها كبار القادة هناك. على سبيل المثال، شاهدت تقديرات للجيش الأفغاني حول مواعيد تنفيذ خطط معينة تتفاوت في أعوام 2005، و2008، و2011. لم يكن صحيحاً سياسياً القول بأننا ملتزمون ببذل الجهود طوال عقود من الزمن، أو على مدى أجيال. ومع أن إطلاق صفة "حرب طويلة" على الحرب على الإرهاب مسألة غامضة، فإن تخطيطنا في الواقع نادراً ما كان يتطلّع إلى أبعد من سنة حتى ثلاث سنوات.

عرض لوت التقرير النهائي للرئيس بوش عن مراجعة الاستراتيجية، واستعرض النتائج الرئيسية في التقرير: نقص التنسيق بين الجوانب المتعددة لجهودنا العسكرية والمدنية. وقد استعرض لوت عشر حروب متزامنة تحت سلاسل قيادية مختلفة، وأضاف الحرب السرية في باكستان، وحرب الجيش الباكستاني، وعملية الحرية الدائمة، إلى

الحروب السبع التي أعاد ذكرها بعد رحلته [إلى أفغانستان]. كما شدّد لوت على التوصية القائلة بوجوب إعطاء أولوية لمكافحة التمرد مع التركيز على أمن السكّان.

نظر وزير الدفاع غيتس إلى نسخته من التقرير وعلّق قائلاً: "إن إعطاء مكافحة التمرد أولوية على مكافحة الإرهاب تغيّر مهم. وهذه لعبة مختلفة كلياً من حيث الموارد العسكرية والمدنية". ويبدو أنه كان يلمّح إلى الزيادة الكبيرة في الخبرات المدنية التي ستكون هناك حاجة إليها لتنفيذ استراتيجية مكافحة التمرّد.

أجاب لوت بأن مكافحة الإرهاب يجب أن تدعم مكافحة التمرّد وتكون مكمّلة لها. وتابع قوله: إن تطوير قوات الجيش والشرطة الأفغانية يستغرق وقتاً طويلاً جداً، وحلف الناتو لا يقدم الموارد التي تعهّد بتقديمها.

قال الرئيس: "نحن بحاجة إلى مشاركة وزارة الخارجية في اللعبة"، معلقاً على تلميح وزير الدفاع غيتس بالحاجة إلى مزيد من المدنيين، قال ذلك وهو يبتسم لوزيرة الخارجية كوندوليزا رايس.

أجابت رايس: "سيادة الرئيس، إن وزارة الخارجية تعتزم زيادة الموارد بصورة متناسبة مع الجيش. إذا قررنا زيادة عدد الجنود في أفغانستان، فسوف نزيد عدد العاملين المدنيين أيضاً. ولكن هناك شيئاً آخر نحتاج إليه حقاً! وهو مساندة الأمم المتحدة. كنا جميعاً نأمل في إسناد القيادة إلى بادي آشداون (المفوّض الأعلى المشهور السابق للأمم المتحدة في البوسنة)، ولكن كاي إيدي يقوم بعمل طيب. ليس لديه عدد كافٍ من الموظفين، ونحن نحث الأمم المتحدة على تزويده بالموارد التي يحتاج إليها. إن الأمم المتحدة هي النظير المدني الأفضل للتحالف العسكري كله".

قال الرئيس: "على الولايات المتحدة أن تتولى القيادة، ويجب أن نظل قوة متعدّدة الأطراف، ولكن على الولايات المتحدة أن تدير العمليات في جنوب أفغانستان وشرقها. أعرف أننا كلفنا ماك-كيرنان بمسؤولية مزدوجة، ولكنه ما زال غير قادر على إنجاز ما هو

مطلوب. لا يستطيع أن يأمر الهولنديين ويحرّكهم إذا احتاج إليهم في مكان ما آخر؛ أي في هلمند لمساعدة البريطانيين على سبيل المثال". لقد دُهشت لسماع ذلك من الرئيس، بحيث كان يلمح إلى أننا لن ننتظر شركاءنا الدوليين في الأمم المتحدة أو أوروبا بعد الآن.

عبّر الوزير غيتس عن قلقه مرة ثانية بشأن مسألة النظرة إلينا مثل السوفييت [كقوة احتلال] إذا قمنا بزيادة عدد الجنود الأمريكيين أكثر من العدد الضروري لحماية أمن السكّان. وقال: "يجب على الجيش الأفغاني أن يمتلك القدرة والأعداد اللازمة للصمود".

سأل الرئيس بوش: "هل هذا المطلب واقعي؟ هل هم جاهزون؟ في العراق كان هذا المطلب مشكلة حقيقية. اعتمدنا أكثر مما يجب على السكّان المحليين للقيام بواجبهم وخرجت الأمور عن السيطرة". وكان يشير بوضوح إلى استراتيجية الجنرال ويليام كيسي لتسليم المسؤوليات الأمنية بأسرع وقت ممكن للعراقيين.

قال لوت: "إن الجيش الأفغاني يستعد لذلك، ويكتسب مزيداً من القدرات يوماً بعد آخر، ولكن الشرطة متأخرة وما يزال أمامها شوط طويل. يا سيادة الرئيس، إن إحدى توصياتنا الرئيسية تحث على تسريع بناء الجيش والشرطة الأفغانيين، ولكن هذا يتطلّب المزيد من الموارد".

تكلم الأميرال مولين: "سيدي، كما تعلمون، إن ماك-كيرنان يطلب إرسال ثلاثة ألوية إضافية. وسيتم تخصيص أحد هذه الألوية لتدريب الأفغان. كما وضع برنامجاً تجريبياً لتدريب قوات دفاع من القرويين المحليين".

رسمت "نجمة" كبيرة على دفتر ملاحظاتي ووضعت دائرة حولها. لقد أثار موضوع تدريب وتنظيم ميليشيات قبلية محلية جدلاً ساخناً خلال عدد من جلسات المراجعة. ومع ذلك فقد مارست الضغط على زملائي في مجلس الأمن القومي، من أجل وضع توصية في التقرير النهائي لتحديد تدريب الميليشيات القبلية وتزويدهم بالمعدات اللازمة لسد الثغرات بين قوات إيساف والجيش الأفغاني الذي ما يزال قيد البناء. وتم وضع صيغة

مخفّفة من تلك التوصية في التقرير النهائي الذي تم تقديمه للرئيس. ولكنني دُهشت عندما سمعت أن القادة الميدانيين أخذوا هذه المهمة ووضعوها قيد التنفيذ.

وقام كل واحد من الحاضرين بقلب الصفحة وانتقلنا إلى الشريحة التي تغطي باكستان.

قال الرئيس: "تنبهوا، النقطة الأهم هي أن تنظيم القاعدة ما يزال يتّخذ من باكستان ملاذاً آمناً. لم يعد وضعه آمناً في أفغانستان، والجيش الباكستاني ما يزال يركّز اهتمامه على الهند. ويجب علينا أن نبقي اهتمامنا منصباً على تنظيم القاعدة".

أجاب مولين، "إنهم يحرزون تقدّماً في التعامل مع مشكلة القاعدة وطالبان، ولكنهم يا سيدي ما يزالون يركّزون اهتمامهم على الهند".

قال الرئيس: "إن الهند تهيمن على مشترياتهم وتدريباتهم"، وأعاد تأكيد مسألة أن باكستان ما تزال مقصرة في معالجة مشكلة التطرف على حدودها مع أفغانستان.

قال لوت: "إن أحد الأشياء التي عرفناها أن الموارد التي نرسلها إلى أفغانستان وباكستان غير موزّعة بشكل صحيح. لقد أرسلنا موارد ضخمة إلى أفغانستان، ولكن المشكلة الرئيسية في باكستان؛ حيث يوجد تنظيم القاعدة ونظام طالبان القديم في منطقة كويتا. ومع أن ملاحقة الاثنين مستمرة في وزيرستان، فإن كويتا آمنة ولا تتلقى أي ضربات".

إن مجلس شورى كويتا هو القيادة العليا لنظام طالبان السابق الذي هرب من جنوب أفغانستان إلى مدينة كويتا في ولاية بلوشستان في باكستان. ومن خلال الحديث مع قائد شرطة الحدود الأفغاني الذي زرته في "وادي معروف"، وانتهاءً بقراءة التقارير الرفيعة المستوى في البيت الأبيض، عرفت أنه من البدهيات في تلك المنطقة أن الملا عمر ودائرته الداخلية كانا يديران حركة تمرّد طالبان، بينما كانت السلطات الباكستانية تغض

الطرف عنهما. كما أن استهداف أفراد في بيئة كويتا المدنية ذات الكثافة السكانية العالية مهمة أعقد بكثير من استهداف مبانٍ فردية في ريف وزيرستان الخارج على القانون.

أشارت الوزيرة رايس إلى التقرير وهي تتكلّم: "هذه الشريحة تعطي الانطباع بأننا لم نحقّق أي شيء، لقد بذلنا جهوداً جبّارة في باكستان، ومن المسلَّمات أن الحكومة الباكستانية لا تتجاوب معنا كما نريد، ولكنني لا أريد أن أعطي انطباعاً بأننا قد تجاهلنا المشكلة".

قال الرئيس: "أوافقك الرأي. لم نهمل العمل تماماً هنا. لقد قدمنا مليارات الدولارات كمساعدات عسكرية منذ عام 2001، ونحن بحاجة إلى التأكّد من أن هذه المساعدات أعطت ثمارها".

بالعودة إلى بيان لوت السابق، سأل الرئيس: "هل كويتا هدف واقعي؟".

أجاب الجنرال مايكل هايدن، وهو جنرال بـ 4 نجوم من القوات الجوية، وهو المدير السابق لوكالة الأمن القومي، وهو الآن مدير وكالة الاستخبارات المركزية، "نحن بحاجة إلى حمل الباكستانيين على زيادة العمليات في كويتا بالتزامن مع جهودنا. يا سيادة الرئيس، كما تعرف، إن هذه المهمّة ستشكل تحوّلاً كبيراً بالنسبة إليهم، فكويتا تعد جزءاً من باكستان الأم. إن ما يجري في وزيرستان والمناطق القبلية الأخرى هو إلى حد كبير أحداث في منطقة رمادية. أنا لا أقدم أعذاراً لهم، ولكن بالنسبة إلى الجيش الباكستاني، فإن مجلس شورى كويتا هو صندوق احتياطي استراتيجي مقابل انسحابنا من أفغانستان. وليس من المتوقّع أن يهاجم الجيش الباكستاني مجلس شورى كويتا في وقت قريب".

سأل الرئيس: "ألا يمكننا مهاجمتهم وحدنا؟".

أجاب هايدن، "يا سيدي، إن تفجير بنايات في وسط مدينة كبرى في باكستان مسألة مختلفة جداً عن قصف كوخ طيني معزول في جبال بعيدة. من المؤسف أنه يجب

علينا أن نسعى بجهد أكبر إلى اعتقال الخصوم، كما أن دخول بعض تلك الأحياء يشبه إلى حد كبير مهاجمة المافيا في عقر دارها. كل إنسان سوف يعرف أنك قادم لمهاجمته، وهذا لن يكون في مصلحتنا. يجب أن نوازن بين جدوى القيام بهجوم أحادي، والمساعدة التي يقدمها لنا الباكستانيون في ملاحقة القاعدة".

شعرت بخيبة أمل في الجزء المتعلّق بباكستان في التقرير والمناقشة. ويعود السبب جزئياً إلى أن عناصر سياستنا تجاه باكستان التي لم تكن مرتبطة مباشرة بأفغانستان، كانت محذوفة من التحليل الذي قدمه لوت عن التقرير. وفي رأيي أن التوصيات بشأن باكستان كانت تفتقر إلى هذا الارتباط بدرجة مماثلة. وكنت أعرف أنني ورجالي سوف نشعر بقوة بتأثير تقصيرنا وعواقب ذلك في العمل خلال فترة خدمتي الوشيكة في شرق أفغانستان.

قام هادلي بتغيير الموضوع إلى إمكانية تقديم ملخص بالنتائج إلى حلفائنا وإلى الكونجرس. وقد ذكّر كل فرد من الحاضرين بأن التوصيات قد صُنّفت ضمن مجموعة أعمال يمكن تنفيذها في عهد هذه الإدارة، وأعمال أخرى يمكن أن تنتظر الإدارة القادمة. وقال في هذا الصدد: "إذا لم يقم مسؤول رئيسي باتخاذ قرار بأن هناك شيئاً ما يجب أن يكون قد أُنجز بحلول ربيع 2009؛ ومن ثم يجب البدء به الآن، فإن المهمة سوف تذهب إلى الإدارة القادمة. ونحن لا نريد أن نتخذ قرارات يمكن أن تُفهم على أنها محاولة لإجبار الرئيس الجديد على العمل في وجهة معيّنة، أو حشره في الزاوية".

نقر الرئيس بأصابعه على التقرير وهنّأ الحاضرين في الغرفة لأنهم أنجزوا المراجعة وجمعوا البيانات بسرعة. "أعرف أنكم جميعاً بذلتم جهداً شاقاً لمعالجة القضايا المطروحة هنا. وهذه مسائل صعبة جداً وليس لها أجوبة سهلة. وأخيراً وصلنا إلى وضع جيّد في العراق. ومن الواضح أننا بحاجة إلى تحويل اهتمامنا ومواردنا وإعادتها لمساعدة الأفغان.

"الآن، وأنا أفكر في هذه الاستراتيجية؛ ينبغي ألا أكون أنا من يعلن النتائج المذكورة في هذا التقرير. إذا كنّا نرى أن هذه هي الاستراتيجية الملائمة، فإنه ينبغي لنا أن نسلمها

بهدوء إلى إدارة أوباما. لقد اتخذت القرار بأنني لا أريد أن أعلن هذه النتائج على الملأ في هذه المرحلة. سوف أتحمّل لوم التاريخ، ولكنني لا أريد لهذا العمل أن يُرمى جانباً لأنه جاء مني". ذُهلت من كلام الرئيس بوش، وكان موقفاً رائعاً منه ينضح بإنكار الذات.

قال الرئيس بابتسامة وضحكة مكتومة: "إضافة إلى ذلك، يجب أن نترك قليلاً من المرونة لبوب غيتس الجديد"، وهو بذلك يشير بوضوح إلى إعلان الرئيس المنتخب أوباما أنه طلب من وزير الدفاع غيتس أن يستمر في منصبه. وكنت أستطيع أن أُقسم بأن وجه وزير الدفاع احمرّ خجلاً بالفعل.[9]

تم تقديم نتائج المراجعة إلى الفريق الانتقالي للرئيس المنتخب أوباما، وهناك الكثير من الأفكار المذكورة في المراجعة وجدت طريقها إلى التقرير الاستراتيجي للحرب الذي تبنّته إدارة الرئيس أوباما. كنت فخوراً بفريق مجلس الأمن القومي وبأي تأثير بسيط تركته عليهم وعلى نتيجة المراجعة. لم نناقش جميع الموضوعات التي كنت آمل مناقشتها. ولم تكن هناك مساحة تُذكر في التقرير النهائي وتوصياته لمناقشة الاستراتيجية السياسية التي نحن في أمسّ الحاجة إليها، ولم يكن هناك أي خطة للمصالحة مع جماعات المتمرّدين. كما لم تكن هناك اقتراحات لإحداث تغييرات اقتصادية مهمّة كمشروع خط الأنابيب المزمع إنشاؤه منذ أمد طويل من تركمانستان إلى الهند، الذي يمكن أن يرفع أفغانستان من كونها رابع أفقر دولة في العالم. ولكنني كنت متفائلاً نسبياً بشأن التوصيات التي تتمحور حول الأمن؛ لأنني كنت ما أزال مقتنعاً بأن الأمن الحقيقي هو الشيء الذي يحتاج إليه الشعب الأفغاني أكثر من أي شيء آخر، وقبل تحقيق النجاح في أي أهداف أو جهود أخرى. لقد ترافقت نتائج التقرير مع حملة خطابية للرئيس المنتخب أوباما تقول: إن حرب أفغانستان كانت ضرورة، وهذا جعلني أعتقد أن جهود الحرب سوف تحصل أخيراً على ما يلزم من الموارد والاهتمام.

إلى جانب التعامل مع مهاترات السياسة البيروقراطية الأسبوعية في واشنطن، كنت قادراً على ترتيب إحدى اللحظات الباقية في الذاكرة عن خدمتي مع نائب الرئيس

خلال رحلته الأخيرة إلى أفغانستان. وإضافة إلى اللقاءات الإلزامية مع عناصر القيادة وزيارته للرئيس كرزاي، فقد عملت مع الفرقة 82 المحمولة جواً لكي نجعل نائب الرئيس يعلّق ميداليات الشجاعة على صدر عدد من الجنود. ومن بين المكرّمين كانت الاختصاصية مونيكا لين براون، وهي مسعِفة، كانت تركض على الدوام تحت نيران الأعداء الكثيفة لكي تسعف الجرحى من زملائها، وكانت تحمي الجرحى بجسدها أحياناً وتسحب المصابين الآخرين إلى مكان آمن. أصبحت مونيكا ثاني امرأة منذ الحرب العالمية الثانية تتلقّى "النجمة الفضية" تقديراً لأعمالها البطولية في ولاية باكتيا بأفغانستان. وقد بذلتُ وعناصر الفرقة 82 قصارى جهدنا طوال أسابيع عدة لكي نضمن حضورها إلى قاعدة باجرام الجوية خلال تلك الزيارة؛ وقد شعرتُ بسعادة غامرة أيضاً عندما وضع نائب الرئيس صورة من ذلك الاحتفال في مذكراته وقال عنها: إنها كانت إحدى أجمل اللحظات في فترة وجوده في ذلك المنصب.

كما شعرت بالفخر لأنني شخصياً قضيت لحظة مشابهة معه. في أواخر 2008 تم إبلاغي من الجيش أنه سوف يتم منحي وسام "نجمة الشجاعة البرونزية" على أعمالي خلال الكمين الذي تعرضنا له في مهمتنا في قلعة موسى في ولاية هلمند. ويبدو أن الوسام كان قد نُسي في القيادة المركزية طوال أكثر من سنة إلى أن جاءت سيدة مجتهدة برتبة رقيب في قسم شؤون الموظفين، وصمّمت أن تُنهي جميع الإجراءات المتأخرة "غير المكتملة" بجانب اسمي في قائمة المتابعة المتعلّقة بالأوسمة، وطارت إلى قاعدة تامبا وبحثت في مستودع الملفات ذات الصلة إلى أن وجدت نسخة ورقية من قرار منح الوسام. وقام نائب الرئيس تشيني بتعليق الوسام على صدري في غرفة المعاهدة الهندية أمام أفراد أسرتي وأصدقائي وأعضاء فريقي في مفرزة العمليات ألفا. شعرتُ بسعادة غامرة لأنني تمكّنتُ من استعراض رجال فريقي أمام عدد كبير من صانعي السياسة، بمن فيهم عدد من مساعدي وزير الدفاع ونواب مساعديه. طلبتُ من فريقي الوقوف بينما قمتُ بتذكير كل فرد موجود في القاعة بأن هؤلاء هم الجنود الذين فُرض عليهم أن يعيشوا أو يموتوا لتنفيذ السياسات التي نضعها في ذلك المبنى.

كان أحد لقاءاتي الأخيرة والممتعة مع نائب الرئيس تشيني والرئيس الأفغاني كرزاي، قبيل أيام من نهاية عمر الإدارة الأمريكية. وتم اللقاء في الشارع المؤدي إلى الجناح الغربي، في بلير هاوس؛ حيث يقيم كبار الشخصيات الأجانب ورؤساء الدول خلال زيارة أمريكا. وكان الرئيس كرزاي يتمتّع بذوق رفيع ويتمشى وهو يرتدي بدلة رمادية وفوقها القفطان الأفغاني التقليدي الأخضر. ألقى التحية على جميع الموجودين، وتوقّف أمام سامانثا وأمامي. وابتسم، ودُهشنا عندما قال لنا، "لقد سمعت عنكما أنتما معاً. أنتما صديقان وفيان لأفغانستان؛ أشكر جهودكما لتعزيز علاقتنا مع بلادكما". وحتى اليوم لا أعرف من أين أتى ذلك الإطراء. ربما أصدقائي في سفارتنا في أفغانستان أخبروه عن جهودنا المتواصلة منذ زمن طويل لجعل واشنطن تولي أفغانستان اهتماماً أكبر.

جلس تشيني وكرزاي أمام غرفة الاستقبال الضيقة المصمّمة على النمط الكولونيالي الفاخر، وشرعا في حديث قصير. وذكر نائب الرئيس التأثيرات والأضرار التي سبّبتها الأزمة المالية للجميع.

أجابه كرزاي، "نعم لقد قرأت عنها وتابعتها في الأخبار. وبأمانة شديدة، كنت أتوقّع مشهداً مختلفاً جداً عندما هبطت الطائرة في المطار".

سأله تشيني، "ماذا تقصد؟".

فأجاب كرزاي:

"كنت أتوقّع أن أرى طوابير الناس ينتظرون دورهم للحصول على الطعام أو البنزين. وكنت أتساءل: هل ستكون المدن مظلمة أو مضاءة في الليل؟ وبدلاً من ذلك، مررنا بمجمّعات تسوق وشاهدت ساحات وقوف السيارات مملوءة بسيارات المتسوّقين. والشوارع نظيفة. وفي كل سيارة يوجد الشخص الذي يقودها فقط. وأمريكا تبدو بصحة جيدة وجميلة كما كانت على الدوام".

ثم تحوّل الحديث إلى الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي جرت مؤخراً في الولايات المتحدة. "يا سيادة نائب الرئيس، إن الانتخابات إحدى الميزات العظيمة

لديمقراطية بلادكم. لديكم مئتا عام من الانتقال السلمي للسلطة؛ هذا شيء لم تعرفه أفغانستان في يوم من الأيام طوال تاريخها. وكل عملية انتقال للسلطة في تاريخنا كانت تؤدي إلى إرسال الحاكم الحالي إلى المنفى أو السجن أو القبر. وأنا أؤكد لك أن هذا سيطبّق علي".

سأل تشيني كرزاي عن شعوره بشأن نتائج الانتخابات القادمة في أفغانستان في خريف 2009، وبشأن مستقبل العلاقة الأمريكية-الأفغانية.

أجابه كرزاي ضاحكاً، "دعني أخبرك بقصة يا سيادة نائب الرئيس، لو تكرّمت. لقد زرت مؤخراً هولندا، وأجريت محادثات مع الحكومة الهولندية على مدى يومين. وروى لي وزير الخارجية الهولندي حكاية عن رحلة قام بها لزيارة جنود بلاده في أوروزغان. وحكى لي كيف قام عدد من الشيوخ باستضافته في حفلة غداء أفغانية تقليدية جميلة قدموا فيها لحم الخروف والأرز. وخلال الغداء، وبعد الكثير من عبارات المجاملة، شكر الشيوخُ الوزيرَ على الكثير من مشروعات التنمية التي تمّ تنفيذها في تلك الولاية. ومن الواضح أيضاً أنهم عاتبوه لأن "حكومته" لم تقدم العدد الكافي من الجنود لتأمين الطريق المؤدية إلى قندهار. وفي نهاية الغداء، وبعد ساعات عدة من النقاش، قدّم الشيوخ هدية للوزير، وهي سكين مصنوعة باليد ومطعمة باللازورد. قال لي الوزير إنه كان ممتناً جداً، وظل سعيداً إلى أن طلب إليه الشيوخ أن يأخذ السكين معه إلى واشنطن كرمز لتقديرهم للكرم الأمريكي. شعر الوزير بالصدمة، وحاول أن يشرح لهم أنه ليس أمريكياً، وأن المشروعات والجهود التي تحدثوا عنها كانت تحت رعاية حكومة بلاده هولندا. ابتسم الشيوخ وتمنّوا له رحلة آمنة في طريق عودته إلى أمريكا".

قهقه تشيني ضاحكاً، مع أنه شعر بالارتباك بعض الشيء بسبب مغزى القصة.

واصل كرزاي حديثه، "كما تعرف يا سيادة نائب الرئيس، لدينا نحو 40-50 دولة مشاركة في هذا التحالف في أفغانستان. إنهم يقومون بأشياء وأعمال كثيرة جداً. ومعظم أعمالهم جيّدة. ولكن في حقيقة الأمر، فإن أمريكا وحدها هي الطرف المهم. وأعرف أنه

من المفيد بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أن تتقاسم العبء والمسؤولية مع دول كريمة أخرى في مساعدة أفغانستان، ولكن الشعب الأفغاني يرى نجاحات التحالف وإخفاقاته بأنها نجاحات وإخفاقات أمريكية. وينظرون بالطريقة نفسها إلى الانتخابات الأفغانية. عندما ينظر المواطنون الأفغان إليّ، هم يرون أمريكا تقف ورائي. ويرون نجاحاتي بأنها نجاحات لكم وإخفاقاتي إخفاقات لكم".

انحنى الرئيس كرزاي نحو نائب الرئيس تشيني، وقال وهو ينقر بالسبابة على صدغه: "في العقل الأفغاني، أمريكا تقف وراء كل شيء". لقد كانت تلك طريقة ذكية من كرزاي ولكنها ليست حاذقة جداً لنقل فكرة أننا يمكن أن نسانده في الانتخابات القادمة؛ نظراً إلى أن كل أفغاني كان يعتقد أننا نقف وراءه في كل الأحوال. وقد فكّرت كثيراً في هذه الحكاية في السنة اللاحقة عندما تعاملت مع المسؤولين المحليين الأفغان وشيوخ القبائل، خلال فترة خدمتي في شرق أفغانستان، التي كانت ستبدأ بعد ذلك اللقاء ببضعة شهور. لقد ساعدتني الحكاية كثيراً على أن أتذكّر دائماً أن معظم الأفغان لا يرون أي فرق بيننا وبين الحكومة الأفغانية. وإذا أساء المسؤولون المحليون استخدام السلطة، فالمواطنون الأفغان يعتقدون تلقائياً أن الولايات المتحدة وراء تلك الإساءات.

كثيراً ما سألني الناس عن انطباعاتي عن العمل مع ديك تشيني وفريق عمله. وكنت أجيب عادة بأنني على الرغم من أنني انضممت إلى الإدارة في وقت متأخر، فقد قضيت فترة فعّالة جداً، واستطعت أن أرى جهاز صنع السياسات قيد العمل في مستويات رفيعة جداً. وبوجه عام، خرجت من تلك الفترة بانطباعين اثنين: الأول، الشعور العام السائد في المكتب كان وكأن هجمات 11 سبتمبر حدثت قبل ستة أشهر، مع أننا كنا في الفترة 2007-2008. لقد كانت هجمات 11 سبتمبر ما تزال ماثلة في عقل كل واحد منّا، ولم ألمس ذرة من الاطمئنان بشأن هاجس أن تلك الهجمات يمكن أن تتكرّر. الانطباع الثاني، هو أنني لم ألمس أي أثر للقلق بشأن المناورات السياسية أو الصراعات الموروثة في عملية صناعة القرارات المتعلّقة بقضايا الأمن القومي. ومن المؤكد، أن خدمتي

في مكتب نائب الرئيس حدثت في فترة لم تكن فيها مسألة إعادة الانتخاب تشكّل هاجساً، ولكن كان هناك شعور سائد بأن نائب الرئيس وموظفيه لا يعطون استطلاعات الرأي أو مؤشرات مستوى شعبية الإدارة أي اهتمام. كانت مهمتهم حماية الشعب الأمريكي، وعدم السماح بتكرار حدوث أي شيء شبيه بهجمات 11 سبتمبر، حتى لو تطلّب ذلك القيام بأشياء لا تحظى بشعبية.

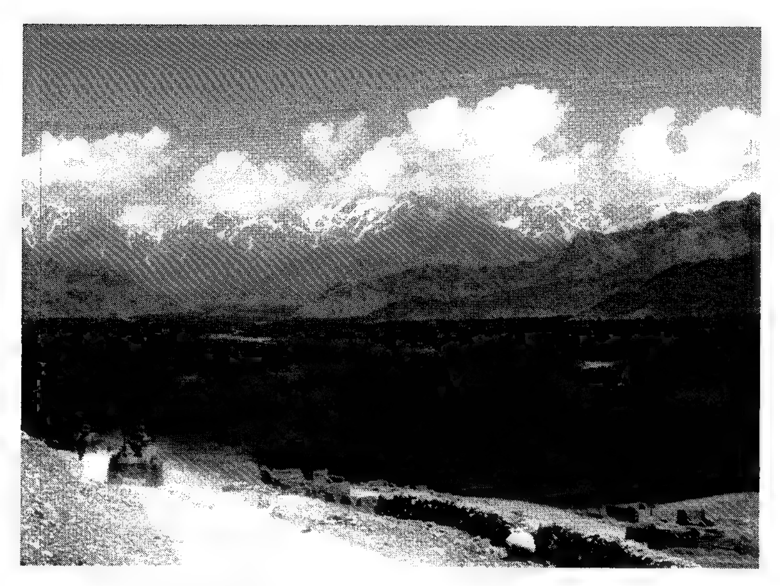
في 19 يناير 2009، سلّمت شارة خدمتي إلى عنصر في "جهاز حماية الرئيس"، وخرجتُ من البوابة الجنوبية نحو الشارع الغربي West Executive Avenue. نظرتُ إلى الخلف؛ إلى البيت الأبيض وحمدت الله لأنه أتاح لي الفرصة لأخدم وطني. فكرت في جهودي لنقل خبراتي من الميدان إلى واشنطن واستخدامها للمساعدة في تحسين سياساتنا بطرائق شعرت بأنها كانت مهمّة. وسررت بقرار الرئيس بإصدار أوامر لتنفيذ زيادة صغيرة في عدد الجنود والمدنيين الأمريكيين المرسلين إلى أفغانستان. وقد قضيت سنوات وأنا أسلط الضوء على الأخطاء في سلوك الناتو وإدارته تجاه محاربة التمرّد في مناطق بعيدة عن أوروبا، وسررت لأن الولايات المتحدة أعادت ترسيخ دورها القيادي في تلك الحرب. (وأعترف أن الزيادة في الموارد الأمريكية المرسلة إلى أفغانستان كانت مرتبطة بنجاحنا في العراق أكثر من ارتباطها بأي جهود من جانبي). وسررت بصورة خاصة بالتفويض الذي وُضع في تقرير مراجعة الاستراتيجية لإطلاق برنامج مشاركة القبائل، والتطلّع نحو وصول الفرصة المواتية للذهاب إلى أفغانستان وتنفيذ ذلك البرنامج بصورة فعلية. ومن الأشياء المشجّعة أيضاً كانت الزيادة في عدد جنود الجيش الوطني الأفغاني، مع أنني كنت أعرف أنهم سوف يحتاجون إلى دعمنا طوال سنوات إن لم يكن طوال عقود قادمة. وفي الوقت نفسه، فإن قائمة الخيبات والإخفاقات كانت طويلة، وتشمل عدم وجود مشروع للإصلاح الاقتصادي، وعدم بذل الجهود الكافية لمعالجة الفساد. كما شعرت بالخيبة لأننا لم نحرز تقدّماً كبيراً في وضع خطة لإطلاق حملة منسّقة بإحكام مع أهداف وغايات بعيدة المدى. ولكن ربما كان الأسف الأكبر يكمن في عدم القدرة على

تحسين علاقتنا مع باكستان وإقناع الباكستانيين بمهاجمة أوكار المتشدّدين داخل حدودهم. وحتى يوم تنصيب الرئيس أوباما كنّا نتعامل مع تداعيات هجمات مومباي الإرهابية.

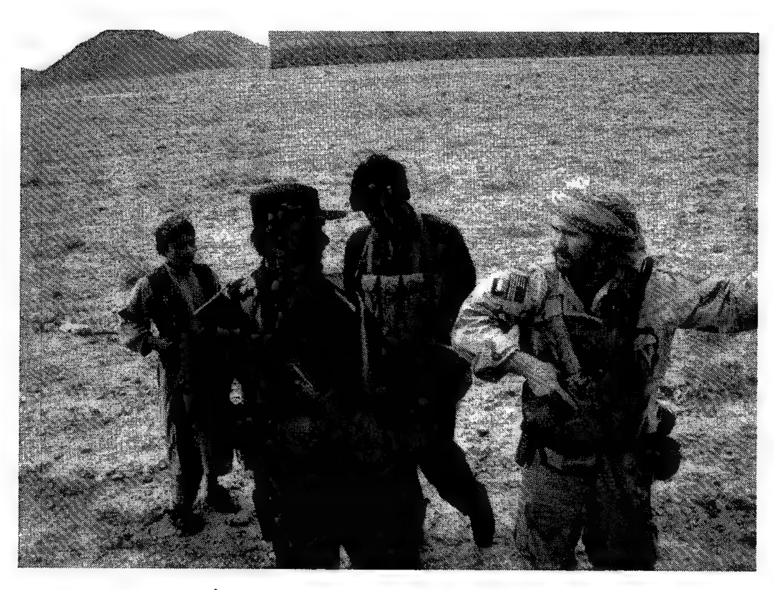
حملتُ هذه الأفكار وغادرتُ متّجهاً نحو مكان وقوف سيارتي في ساحة مواقف السيارات البيضاوية، وألقيت نظرة وداع على النصب التذكاري لجورج واشنطن. وبعد شهور وجدت نفسي عائداً مرتدياً الملابس العسكرية، وأنا أنظر عبر الحدود الأفغانية إلى داخل وزيرستان الشمالية، في باكستان.



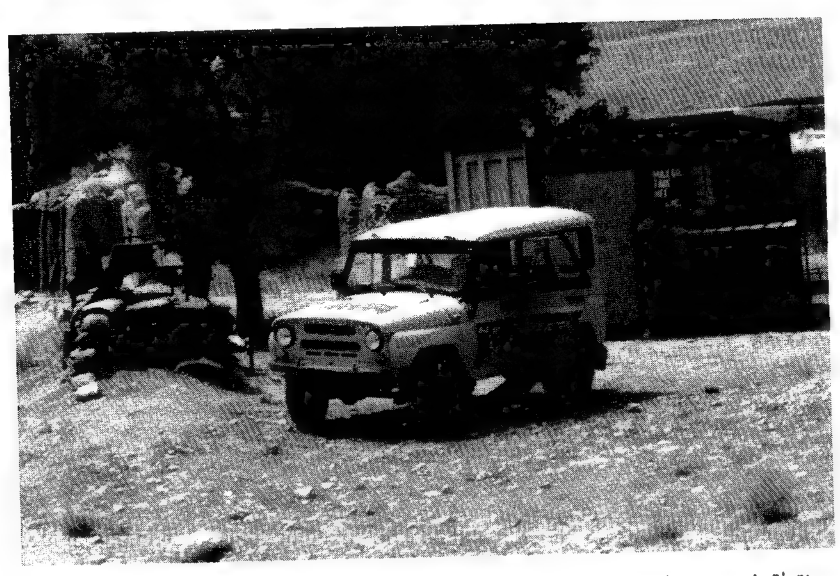
مركبة تنقّل بري نموذجية تستخدمها فرق العمليات الخاصة في الجيش الأمريكي في أفغانستان للدوريات البعيدة المدى



"منطقة خضراء" في جنوب أفغانستان تعكس متاهة من المسارات الوعرة وقنوات الري ومجمعات المباني المسوَّرة



المؤلف يعطي تعليماته للشرطة الوطنية الأفغانية في التكتيكات الأساسية عام 2006. وقد كان تجهيز قوات الشرطة وتدريبها على العمليات المعزولة شبه العسكرية اللازمة لمحاربة طالبان، سيئين



نقطة تفتيش نموذجية تابعة للشرطة الوطنية الأفغانية. ويمكن أن تشكّل هذه النقاط عاملاً مساعداً لطالبان، من دون قصد، من خلال تنفير الأفغان العاديين نتيجة الرشاوى والتحرّش



حفرة خلّفتها عبوة ناسفة مخبأة في قناة تحت الطريق. ومعظم العبوات الناسفة كان يُدفَن في الطرق الترابية، وغالباً ما يفجّرها الضحية بتعثره بسلك أو دوسه على صفيحات الضغط. وقد أصبحت قوات الولايات المتحدة والتحالف مهووسة تقريباً بهزيمة العبوات الناسفة عبر التكنولوجيا بدلاً من معالجة الأسباب الكامنة وراء التمرد



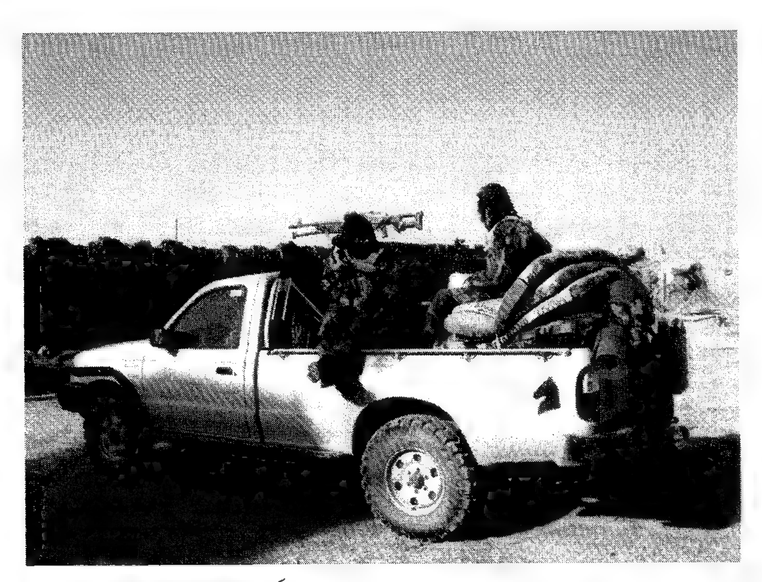
مجمّع يضم مدرسة ومركزاً للشـرطة شكّل قاعدة عمليات لدورياتنا حول قرية كورا في وادي تاجاب



الرقيب أول سومر من الجيش الوطني الأفغاني، جاثياً (أقصـى اليمين)، في أثناء دورية في المنحدرات المطلة على وادي تاجاب عام 2006



زاوية رامي الرشاش من حركة طالبان في أسفل الوادي في أثناء كمين كورا الذي قُتل فيه سومر



شاحنة فورد رينجر تابعة للجيش الوطني الأفغاني مركَّب عليها رشاش PKM، عام 2005. ومعظم هذه السيارات الشاحنة أُستبدلَ لاحقاً بمركبات هامفي المدرّعة التي وفّرت للجنود الأفغان المزيد من الحماية ولكنها أثارت مخاوف تجاه قدرة الأفغان على صيانتها على المدى الطويل



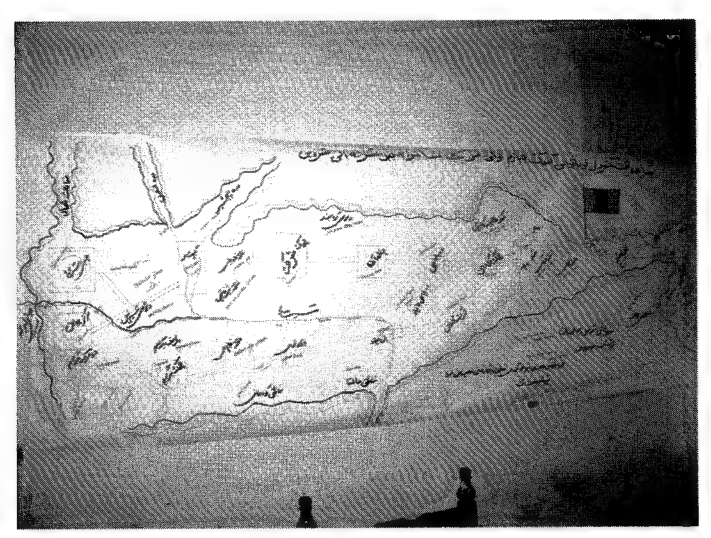
في شتاء عام 2005-2006، تحلّق عدد من الأطفال الأفغان حول المؤلف يطالبونه بالـ "سكاكر" وأقلام الرصاص خلال توقّفه لتحسين فهمه للديناميات القبلية في أوروزغان



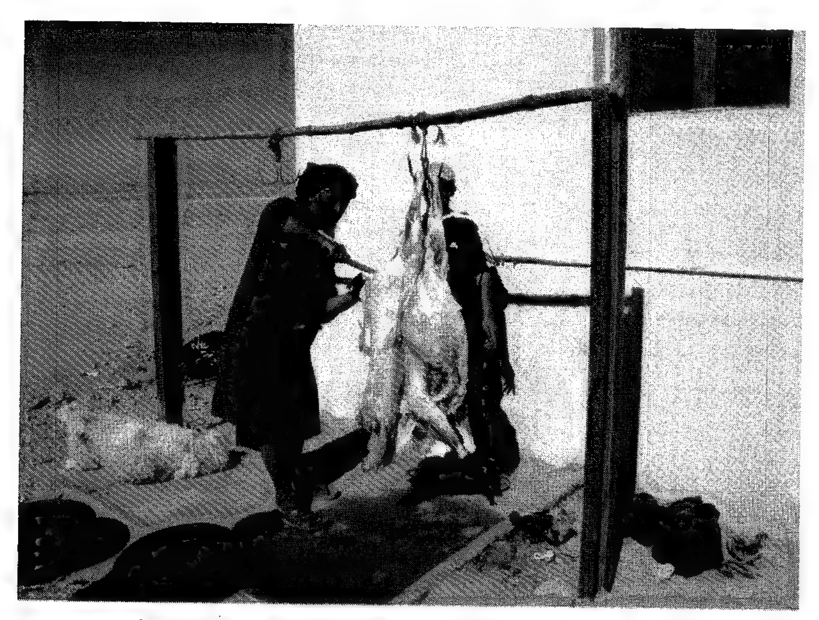
عيادة طبّية برعاية دولة الإمارات العربية المتحدة في مديرية أتشين في ولاية ننجرهار الجنوبية



"الشاحنة المصلصلة" الأفغانية، الموجودة في كل مكان، التي سُميت بهذا الاسم لأنها تحفل بالتصاميم الملونة والسلاسل المتدلية التي تَصِلّ حلقاتها كلما تأرجحت الشاحنة على الطرق غير المعبّدة في أفغانستان. وكانت هذه الشاحنات تجلب المؤن والإمدادات إلى المناطق الريفية في أفغانستان وإلى قوات التحالف



خريطة مرسومة باليد للعمليات في وادي تاجاب. وهذا دليل على الحالة البدائية للشرطة الأفغانية. تم العثور على هذه الخريطة في مركز للشرطة الوطنية الأفغانية سيئ التجهيز إلى حدّ يُرثى له



طهاة أفغان يحضـرون لحم ضأن طازجاً لمجلس شورى يضم شـيوخ القرية في أوروزغان عام 2006



مركبة كل التضاريس تستكشف وجود عبوات ناسفة قبل مجيء الدورية في ولاية هلمند أوائل عام 2006



مركبة بانهارد الفرنسية الصنع التي تستخدمها قوات العمليات الخاصة التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة. وكانت مركبة بانهارد تمتاز بخفتها وقوة تسليحها، وتتميّز بالقدرة الفائقة على الحركة، ولكنها غير قادرة على نقل طاقم يزيد عدد عناصره على ثلاثة أشخاص، وهذا يحدّ من قدرة الجنود على تسيير دوريات راجلة



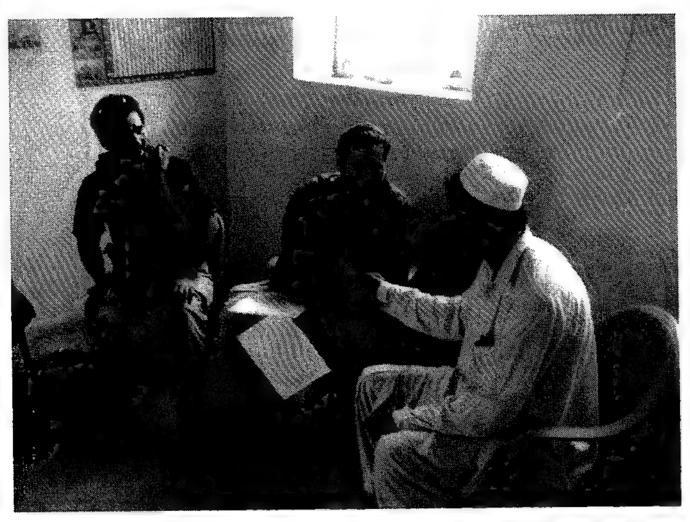
محمد داود، حاكم ولاية هلمند، يمنح رقعة أرضية للقاعدة العسكرية الإماراتية المقترحة خارج قلعة موسى. وقد أخفق المؤلف في إنشاء القاعدة، فضاعت بذلك فرصة كبيرة لتغيير طابع الحرب في جنوب أفغانستان



المؤلف على متن مروحية "مي-17" أفغانية خلال زيارة لأفغانستان بصفته مديراً لسياسات أفغانستان في مكتب وزير الدفاع. وقد أُهديت هذه المروحية إلى شرطة مكافحة المخدرات في وزارة الداخلية لحظر المخدرات



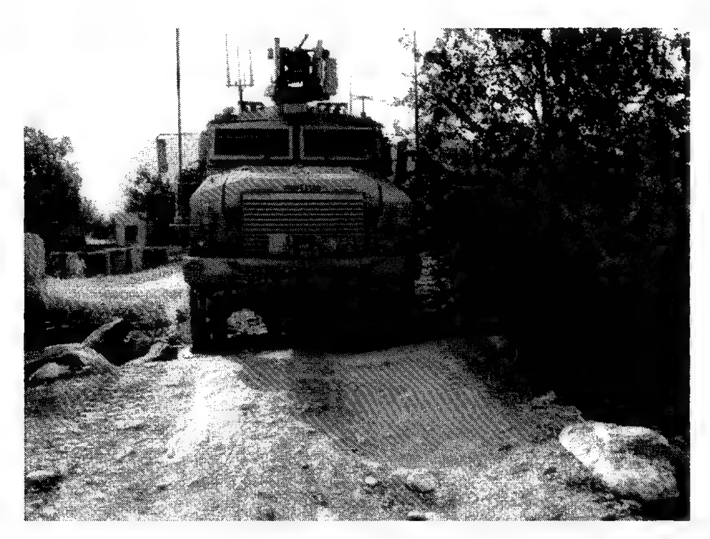
المؤلف يسلّم على نائب الرئيس [الأمريكي] ديك تشيني في مكتبه في البيت الأبيض قبل انعقاد جلسة إحاطة سبقت اجتماعاً لمجلس الأمن القومي مع الرئيس بوش



فرانس (يسار) والمؤلف (يمين) يوافقان على حفر بئر وتزويد مدرسة بالمقاعد في قرية صديقة قرب قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو في ولاية خوست عام 2009



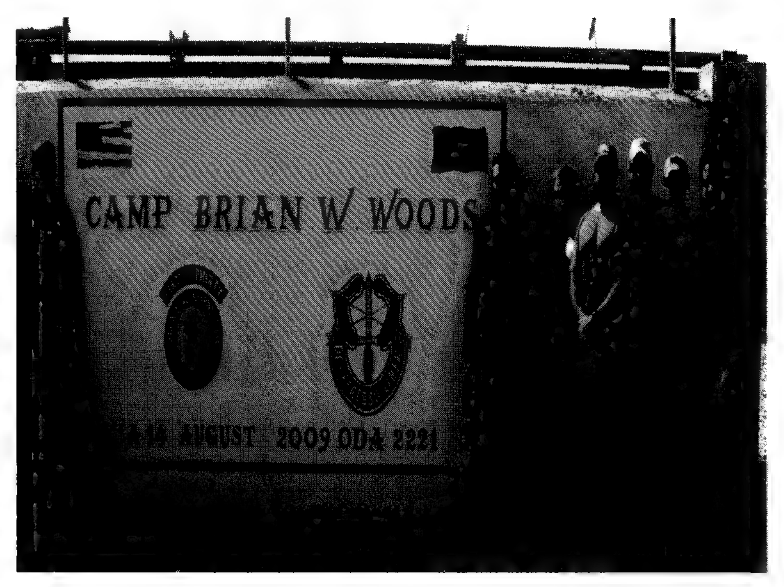
الدوار في قرية تشورا في ولاية أوروزغان، قبل قيام فريق العمليات الخاصة الأمريكي-الأفغاني-الأسترالي-الإماراتي المشترك بتطهير المنطقة من مقاتلي طالبان المدججين بالسلاح في وادي بالوتشي في معركة استمرت أياماً عام 2006. لاحظ الشرشف الأبيض الذي يغطي جثمان شرطي أفغاني مسجّى عند قاعدة الدوار، تركه مقاتلو طالبان رسالةَ تحذير



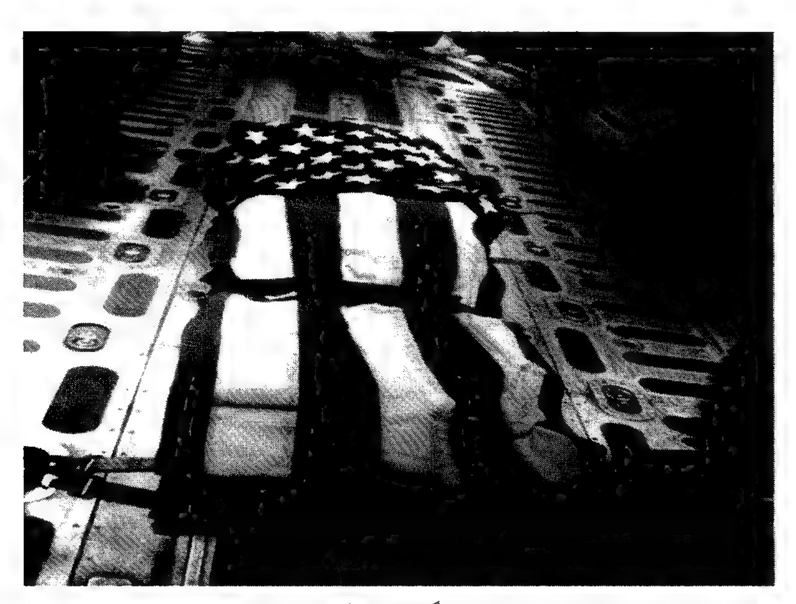
مركبة محصَّنة ضد الكمائن والألغام. ومع أنها كانت فعّالة في حماية الجنود، فإن حجمها ووزنها المفرطين جعلاها غير مناسبة لتضاريس أفغانستان الوعرة، كما أنها أجبرت قوافل التحالف على العبور في الطرق القليلة التي يمكن أن تتحمّلها، ما جعل التنبؤ بهذه الطرق ممكناً جداً وجعل القوافل أكثر عرضة لعبوات طالبان الناسفة. وبعد لحظات من التقاط هذه الصورة، انهار الجسـر الحجري الصغير



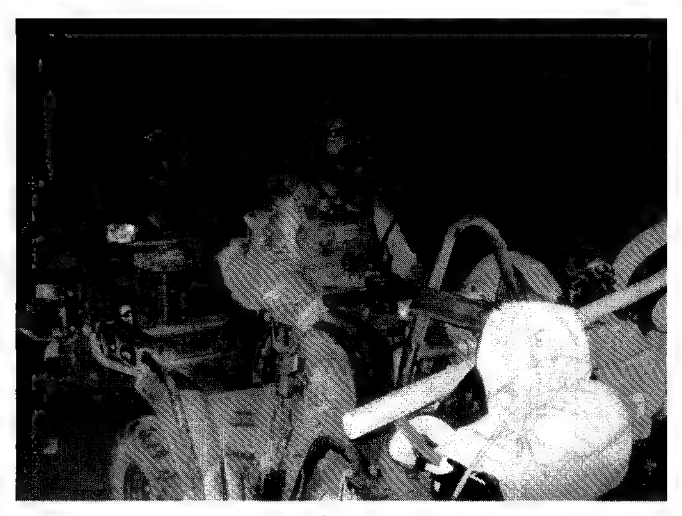
المؤلف وجنود الجيش الوطني الأفغاني يهرعون بعد تفجير انتحاري نفذته شبكة حقاني ضد مقر شـرطة ولاية خوست في يوليو 2009



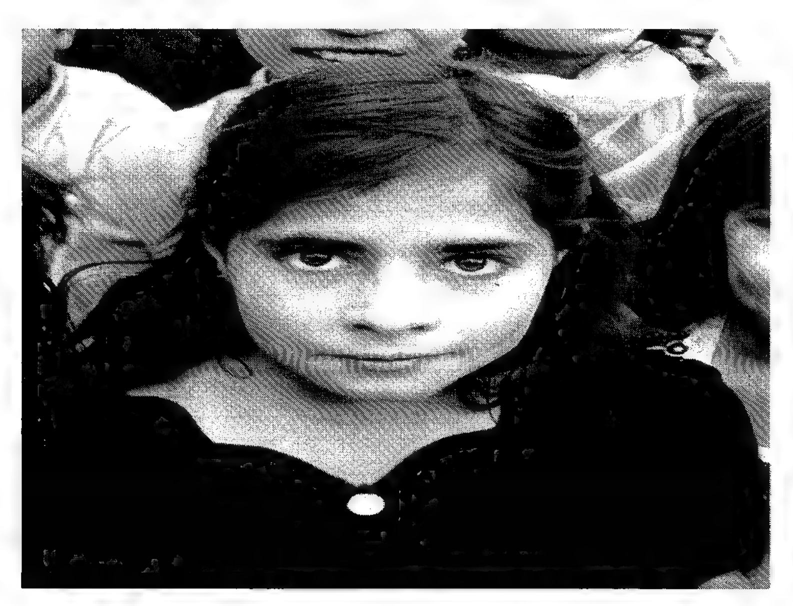
قاعدة مفرزة العمليات ألفا-21 في ولاية غَزني، تحمل اسم الرقيب أول براين وودز



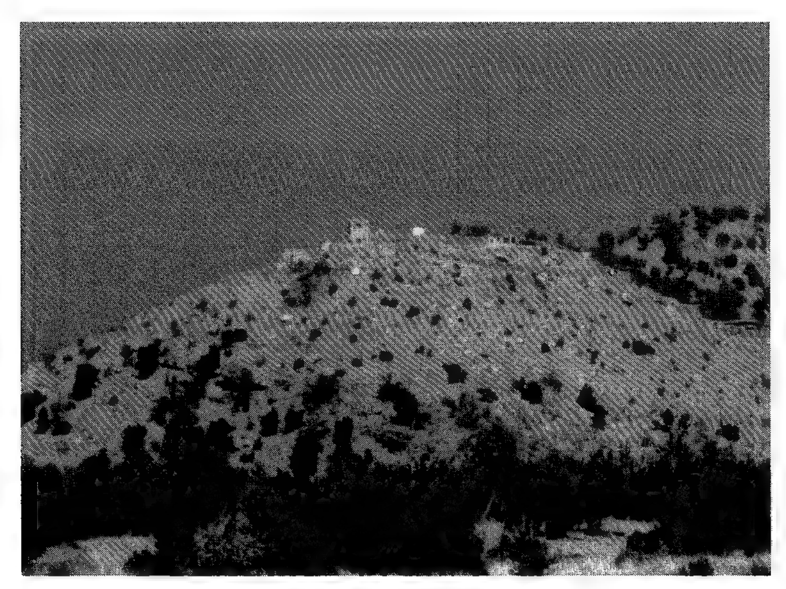
جثمان الرقيب ماثيو بوسـينو ملفوفاً بالعلم الأمريكي ومسجّى على أرض طائرة "سـي-130" قُبيل مغادرتها قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو في ولاية خوست إلى مطار باجرام العسكري ومن ثم الرحلة الطويلة إلى الوطن



ماثيو بوسـينو على مركبته لكل التضاريس، مستعداً لاستكشاف الطريق قبل مجيء فريقه بحثاً عن عبوات ناسفة مزروعة في الطريق. وقد كان قدره أن تقضـي إحدى تلك العبوات الناسفة، التي تنفجر بالضغط، على حياته فيما بعد. ومع ذلك، رفض الفريق السماح لتهديد العبوات الناسفة بردعهم عن القيام بواجبهم



شقت هذه الفتاة الصغيرة طريقها بجرأة متجاوزة مجموعة من الصبيان إلى أول الطابور للحصول على القرطاسـية المدرسـية التي كنا نوزّعها. كانت عزيمتها ملموسة. ولا ريب في أن تعليم البنات وتمكين المرأة هما أفضل أسلحتنا لتقويض أيديولوجيا طالبان الجائرة والمتطرّفة



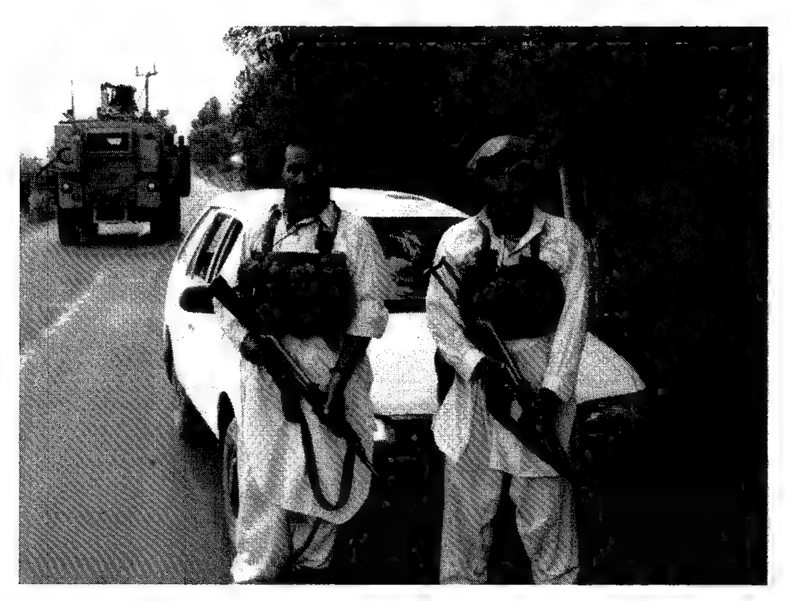
المخفر-28 على الحدود الباكستانية بالقرب من شكين في ولاية باكتيكا. وكانت حركة طالبان تُطلق بانتظام صواريخ على قاعدة العمليات الأمامية "ليللي" من هذا التل، من دون أن يحدث أي رد من جانب الباكستانيين



صواريخ طالبان من عيار 107 مليميترات تستهدف قاعدة العمليات الأمامية "ليللي" بعد أن عطّل عناصر مفرزة العمليات ألفا-25 فاعليتها بقطع فتائل الإشعال



الانفجار الناجم عن تفجير موقع صواريخ طالبان بالقرب من المخفر-28 على الحدود الباكستانية. وبعد ثوانٍ، وقع انفجار ثانوي مردّه الصواريخ المدمَّرة. وكانت عملية التفجير مثار جدل بسبب المخاوف من سقوط ضحايا مدنيين



عسكري من قبيلة مانجال قرب مديرية شامكاني في ولاية باكتيا. ويتميز هؤلاء الجنود بجودة تسليحهم وولائهم لشيوخهم، وقد شكّلوا أساس مبادرة الدفاع المجتمعي الذي يهدف إلى تنظيم مثل هؤلاء الرجال في جيوب مقاومة لطالبان في القرى الريفية

الفصل التاسع

قبيلة مانجال .. حماية أشخاص لا نستطيع الوصول إليهم

"أنت تطلب منّا الوقوف في وجه مقاتلي طالبان وحقاني، بينما أنتم تختبئون في دباباتكم من قنابلهم" قالها مسن أفغاني مشككاً، بينما هزّ عشرات من شيوخ قبيلة مانجال القوية النحيلين رؤوسهم يوافقونه الرأي. كانت المجموعة تجلس في نصف دائرة على البساط الضخم، وأمامهم أطباق عدة من التمور والمكسرات، في بناء إسمنتي كان يستخدم مدرسة ومركز شرطة وقاعة اجتماعات. وكان لدى معظم الرجال أنواع مختلطة من البنادق، بنادق أنفيلد البريطانية القديمة، وكانت بنادق الكلاشنكوف تتدلى من على أكتافهم. وكان الكثير منهم أفضل تجهيزاً من جنود الجيش الوطني الأفغاني الذين رافقونا. كان عدد من الشيوخ من قادة عسكريي مانجال القبليين "أربكاي"، أو ميليشيا مانجال التي تحمي المصالح القبلية. وأشارت الشائعات والتقارير إلى أن مانجال يمكن أن تحشد ما يصل إلى 1500 من هؤلاء العسكريين القبليين إذا ما شعرت بأن مصالح القبيلة تعرّضت للتهديد. وتتراوح هذه المصالح القبلية بين تطبيق قرارات مجلس شورى القبائل، وحماية الموارد الطبيعية الموجودة على أرض القبيلة. والخلاصة أنني أردت للعسكريين القبليين العمل معنا، أو على الأقل العمل ضد شبكة حقاني، وهي واحدة من المجموعات الثلاث المتمردة الرئيسية في أفغانستان، إلى جانب الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار، وحركة طالبان. وبقيادة سراج الدين حقاني نجل المقاتل الشهير ضد السوفييت جلال الدين حقاني، تجد المجموعة ملاذاً آمناً في وزيرستان الشمالية في باكستان، وتحديداً، بلدة ميرام شاه. ومنذ عام 2004 أعادت شبكة حقاني تشكيل عملياتها في المعاقل التقليدية المتمثلة بولاية خوست وباكتيا وباكتيكا، وقد بدأت مؤخراً تأكيد نفوذها وتنفيذ هجمات في الولايات حول كابول،

واعتُبرت على نطاق واسع أنها الجماعة الأكثر خبرة وتطوراً، والأفضل تمويلاً بين الجماعات المتمردة. وتتمتع الشبكة بعلاقات مع تنظيم القاعدة تمتدّ إلى عقود طويلة. (تطوع أسامة بن لادن للقتال مع حقاني خلال المقاومة للسوفييت في ثمانينيات القرن العشرين). كان عملي هو المساعدة في إحباط نشاطها وفورتها، وهي وظيفة يحبطها باستمرار شعور سائد بالعزوف عن المخاطرة، لدى كل من الجيش ووزارة الخارجية الأمريكية، الأمر الذي عصف بالمجهود الحربي الأمريكي منذ وجودي السابق في أفغانستان عام 2006.

وقف الرجال متحجري الوجوه؛ بينما روى المتحدث باسمهم، الملا غفورزاي، التاريخ الطويل لدعم المانجال للنظم الملكية السابقة والحكومة الأفغانية الحالية؛ ومن ثم شرع في مهاجمتنا بحجة الامتناع عن تقديم الدعم لقبيلته وعدم الوجود في واديهم. كان الملا غفورزاي رجلاً ضخماً بالمقاييس الأمريكية، الأمر الذي جعله عملاقاً بالمقاييس الأفغانية. كان هو الآمر في الغرفة وكان يجلس على أحد طرفي السجادة الطويلة مرتدياً قميص الشلوار التقليدي الفضفاض الأسمر اللون، مع سترة رمادية وشال يمتد على كتفيه. وكانت لحيته شيباء طويلة وعلى رأسه عمامة سوداء أفغانية الطراز. وظلّ يحرك حبات مسبحته في يده اليمنى وهو يتحدث بنبرة صوت منخفضة، وثابتة وقد بدأت نبرته تسحرني بعد يوم متعب من السفر على الطرق المتربة المخدّدة تحت شمس أفغانستان اللاهبة.

كنت قد تركت موقعي ضمن موظفي نائب الرئيس ديك تشيني في البيت الأبيض في يناير عام 2009، وارتديت الزي العسكري مباشرة لأنضم كقائد لسرية الحرس الوطني (ب)، في الكتيبة 2، من مجموعة القوات الخاصة الـ 20. وتألفت وحدتي من أكثر من ثمانين من عناصر القوات الخاصة منتشرين في ست مفارز عمليات ألفا إلى جانب العشرات من أفراد الدعم؛ مثل محللي الاستخبارات ورقباء الإمداد الذين كانوا مرتبطين بمفرزة العمليات برافو التي أنا فيها. كانت مفرزة العمليات برافو تمثل عناصر مقر الوحدة؛ وعادة ما أدت دور الإسناد، ولكن كان بالإمكان أيضاً أن تعمل بشكل مستقلّ كفريق لتنسيق النشاطات التكتيكية المتعددة لمفرزة العمليات ألفا، أو أن

تعقد اجتماعات عالية المستوى مع الحكومة الأفغانية أو زعماء القبائل، مثل غفورزاي. في فترة خدمتي هذه كنت مسؤولاً عن الإشراف على عمليات الفرق التابعة لي في أربع ولايات على المنطقة الحدودية جنوب شرق أفغانستان؛ في خوست وباكتيا وباكتيكا وغزني. وعلى الرغم من أنني قد عايشت إلى درجة الإشباع إرسال التقارير من الميدان في أفغانستان منذ فترة خدمتي السابقة (إلى جانب الكثير من الرحلات الرسمية كمدني)، فقد صُدمت بعد مضي ثلاث سنوات من مدى تراجع الأمن في أفغانستان. وشعرت أيضاً بالفزع لإدراكي كيف أننا نتعامل بطريقة تقليدية مع حرب غير تقليدية على الإطلاق؛ نحن نحصر جنودنا في المركبات المدرّعة ونقدم لهم تكليفات عبر إحاطات "باور بوينت" مطوّلة عن كل مهمة هجومية. وعلى الرغم من أن الانتقال من وجودي على أعلى مستوى للحكومة الأمريكية إلى طمري في البيروقراطية العسكرية كضابط من المستوى المتوسط أمر صعب في بعض الأحيان، فإنني عدتُ إلى المنطقة الحدودية عازماً على تنفيذ بعض السياسات التي كنت قد دفعتُ بها في أثناء وجودي في واشنطن، وخاصة العمل على إشراك القبائل مثل مانجال، والتأثير فيها.

خريطة (12): ولاية خوست



حوّل الملا غفورزاي مجرى خطبته اللاذعة بالإشارة إلى "أولئك الملتحين" الذين كانوا قد جاؤوا قبلنا، في إشارة إلى فرق القوات الخاصة التي كانت تعمل بشكل وثيق معه ورجاله على أساس منتظم. كنّا أول من شهد ذلك قبل عامين، موضحاً أن أولئك الملتحين كانوا يجلبون له الإمدادات والمال لتحفيز رجاله، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يعلم أنهم سيأتون لمساعدته إذا لاحقه رجال حقاني. وقال معرباً عن أسفه: "ولكنني الآن لا أرى أي أمريكيين، نحن المانجال الآن وحدنا". جاءه الملتحون يوماً ما وأبلغوه أنهم ممنوعون من الاستمرار في دعم العسكريين القبليين لأن القيادة العسكرية الأمريكية ترى أن ميليشيات القبائل تتعارض مع نمو الجيش الأفغاني والشرطة الوطنية. عدتُ بذاكرتي إلى المناقشات التي دارت في عامي 2006 و2007 داخل البنتاجون ومع وزارة الخارجية، حيث جادل الكثيرون أن كل دولار ينفق في دعم الميليشيات القبلية وغيرها من الجماعات، هو دولار ينقص من نمو الجيش والشرطة الشرعيين. كانوا على حق من الناحية النظرية، ولكنني كنت قد دافعت من دون جدوى عن الاعتبارات السياسية، قائلاً إن التوقيت غير مناسب لإيقاف دعمنا للميليشيات المحلية لأن الجيش والشرطة كانوا يأخذون وقتاً أطول من المتوقع ليتطوّروا. نحن بحاجة إلى كيان لملء الفراغ في هذه الأثناء وتزويد السكان بالأمن على المستوى المحلي.

وبوصفنا وحدة من القوات الخاصة، كنا إحدى آخر الوحدات التي ما يزال يسمح لها بتسيير دوريات في مركبات الهامفي ومركبات التنقل البري بدلاً من هذه المركبات المحصّنة. وقد كانت مركبات الهامفي قادرة على أن تعبر كل مكان باستثناء الطرق الجبلية الأشدّ وعورة، ولكنها كانت تفتقر إلى الجانب السفلي المدرّع على شكل حرف V الموجود في المركبات المحصّنة ضد الكمائن والألغام، الذي كان يحرف انفجار العبوات الناسفة إلى الجانبين. لذلك كان من المحتمل جداً لركاب الهامفي أن يصابوا بجروح خطيرة أو يقتلوا بعبوة ناسفة مدفونة في الطريق وتنفجر تحت المركبة.

في الواقع، كانت هذه الرحلة بالتحديد شاقة في جبال مديرية موسى خيل في شمال غرب ولاية خوست. كنا قد غادرنا في الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل من أجل تجنب العبوات الناسفة التي تصطف على الطرق شمال المقرّ وغربه في قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو. كنا نعرف أن مركبة التنقل البري هي المركبة الوحيدة التي يمكنها أن تعبر الطرق الجبلية الضيقة المتعرجة التي توصلنا إلى الجبال المصطفة في الأفق، التي تفصل خوست عن بقية أفغانستان.

القلة القليلة من الشيوخ الذين كانوا يمتلكون ما يكفي من الشجاعة للتحدث معنا أوضحوا أن الكثير منهم قد استُهدفوا من شبكة حقاني وأُرْهِبوا للخضوع على مدى الأشهر الثمانية عشر الماضية، وهو الوضع الذي ترك أراضيهم مرتعاً لنشاط المتمردين وانتشرت فيها معسكرات تدريب كبيرة ومراكز لتصنيع العبوات الناسفة. كان مركز المديرية المجاورة قلندر قد تم بناؤه ثم دمرته شبكة حقاني ، وأُعيد بناؤه من فريق إعادة الإعمار المحلي، ومن ثم دُمّر مرة أخرى. ولكي تبقى الأمور أكثر سوءاً، تلقينا تقارير متسقة بأن قادة المتمردين يتبجحون أمام قرويي مانجال بالقول إن الأمريكيين "خائفون جداً" أن يُحضروا "دباباتهم ذات العجلات" (التسمية الأفغانية للمركبات المحصّنة ضد الكمائن والألغام وغيرها من العربات المدرّعة مثل ناقلة المشاة سترايكر) إلى الجبال، فيما يضغط هؤلاء القادة على القرويين لإرسال الشبان إلى حركات التمرد.

خلال الدورية كان الكثير من المانجال مهذبين لكنهم كانو حذرين. وخلال توقف في سوق صغيرة، دخلت إلى متجر صغير من الطين، حيث كنت قادراً على جعل صاحب المتجر ينفتح قليلاً، بعد شراء حقيبة مملوءة بالبيبسي والحلوى الأفغانية. قال لنا إن الجميع في القرية يعرف أننا كنا قادمين إلى الوادي. رأيت رقيباً استخباراتياً، واقفاً عند الباب، يرفع حاجبيه استغراباً. وتابع صاحب المتجر أنه سعيد لرؤية الأمريكيين مرة

أخرى ولكنه سألنا مراراً وتكراراً لماذا تخلينا عن قبيلته برغم دعمهم للحكومة الأفغانية. في نهاية المطاف تحوّل الحديث إلى معسكر تدريب حقاني الذي تم الإبلاغ عن وجوده بالقرب من قريته. هزّ كتفيه كما لو أنه يقول، "ماذا يمكنني أن أفعل تجاه ذلك؟".

تقع مانجال في سلسلة جبال استراتيجية تفصل خوست، التي هي ولاية شرقية رئيسية على طول الحدود الباكستانية، عن بقية أفغانستان. "إن كنا قد خسرنا مانجال، فإننا لا يمكن أن نفقد خوست تماماً كما حدث للروس"، قلت لأحد الرقباء لديّ بينما تركنا مجلس شورى آخر زرناه ونحن في طريقنا عبر الوادي. حار محللو الاستخبارات حول إذا ما كان مصدر الكثير من العبوات الناسفة التي تعانيها المنطقة المحيطة بعاصمة الولاية من مناطق قبيلة مانجال أو لا؟ وقد عرفنا الجواب من دوريتنا النادرة عبر هذه الأراضي. كان جزء من السبب ببساطة أننا لم تكن لدينا قوات كافية ملتزمة وقادرة على تأمين مناطق مثل منطقة قبيلة مانجال. ولكن أعتقد أن السبب الأكبر هو سوء استخدام عتادنا وجنودنا الموجودين على الأرض في أفغانستان. كان تركيزنا على المزيد من المدرّعات وحماية القوة والحدّ من الخسائر البشرية قد أدى إلى التنازل عن المبادرة وعن مقاومة التضاريس لمصلحة المتمردين، وكلفنا ذلك مصداقيتنا أمام إحدى أكبر قبائل شرق أفغانستان.

من دون شك، أثبتت المركبة المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام أنها فعّالة في إنقاذ حياة الأمريكيين بينما نقوم بتنفيذ المهمات، مثل تطهير الطرق ومرافقة قوافل الإمدادات. لقد جعل الوزير غيتس انتشار المركبة المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام على قائمة أولوياته في عامي 2008 و2009، وأرسل في نهاية المطاف نحو 7,100 منها إلى أفغانستان. وكانت تلك مبادرة ضرورية وحسنة النية، ولكن للأسف، كانت لها عواقب غير مقصودة على جهودنا لمكافحة التمرد، بسبب سوء إدارة هذه المركبات حالما يتم استخدامها في مسرح العمليات.

كانت المشكلة في أن هذه المركبة المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام صمّمت لمدن العراق وشوارعه، وليس للجبال والطرق الطينية في أفغانستان. ولأن المركبة ذات الأطنان العشرين، وارتفاع عشر أقدام كانت تنقلب في التضاريس الوعرة، وغالباً ما كانت ممرات الطرق الجبلية تنهار تحتها، عملت وزارة الدفاع من دون كلل على إرسال أحدث المركبات المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام والملائمة لجميع التضاريس، التي لها مركز ثقل أدنى، بأعداد قياسية وفي وقت قياسي، إلى أفغانستان.

ومع أن مشكلة انقلاب المركبات حُلّت إلى حد كبير بهذه المركبات المحسّنة الجديدة، فإن كلتا المركبتين كانت عريضة جداً وطويلة جداً ومربكة في اجتياز الكثير من القرى الأفغانية، أو التنقل عبر الطرق الجبلية المعروفة بأنها سيئة والأودية الضيقة في مناطق الغابات الكثيفة الخضر، حيث كان يعيش معظم أفغان الريف. كان بإمكان هذه المركبات اجتياز الطرق المعبّدة أو المحسّنة فقط، وهي التي كانت نادرة في رابع أفقر بلد في العالم، وخصوصاً في الأودية والقرى التي تحدّها الجبال في شرق أفغانستان.

من وجهة نظري، لم يكمن الخطأ في هذه المركبة المحصّنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام أو المركبات المحصنة ضد الكمائن والألغام والملائمة لجميع التضاريس، أو أي مركبة مدرّعة أخرى، بل كان اللوم الحقيقي يقع على طريقة تعامل القادة مع استخدام المركبات نتيجة نفورهم من المخاطرة ومحاولاتهم الحد من وقوع الإصابات في صفوف التحالف على حساب مهمة مكافحة التمرد الأوسع. فحجم المركبات لم يكن ليشكّل عائقاً أمام هذه المهمة لو كان قادة الجيش الأدنى رتبة مخوّلين باستخدام المركبات الصغيرة الأخرى للوصول إلى المناطق الصعبة في أفغانستان عندما تدعو الحاجة. على سبيل المثال، إذا احتاجت وحدة الوصول إلى القرية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة شاحنة صغيرة أو هامفي، فهذا إذن ما يجب أن يُسمح لهم به، بعد تفحّص المخاطر.

وبدلاً من ذلك فإن ما كنت أجده باستمرار هو أن القادة كانوا يطلبون استخدام المركبات المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام فقط. وإذا لم يكن لدى الوحدة مثل هذه

المركبات أو أي نوع آخر من المركبات المدرّعة، فلن يُسمح لجنودها بمغادرة القاعدة على الإطلاق. ويمكن أن تبدو هذه وكأنها قضية تكتيكية طفيفة، ولكن نتائجها كانت لها آثار استراتيجية على الكيفية التي أديرت بها الحرب، وقدرتنا على الوصول إلى السكان. وكما قال لي قائد سرية كان يشعر بالإحباط في صيف عام 2009، "إذا لم تكن هذه المركبة المحصنة قادرة على الوصول إلى هناك، فلن نذهب إلى هناك. إنني أحتاج إلى المرونة لأقرر نوع المركبة الذي أستخدمه حتى أتمكن من حماية السكان والوصول إلى العدو في أماكن يصعب الوصول إليها".

وبينما نظر قائد آخر أدنى رتبة صوب التلال والجبال المحيطة بمعسكره، اشتكى أنه الآن غير قادر على الوصول إلى أكثر من 70٪ من المنطقة المسؤول عنها. "يمكن لرجالي المسير إلى حدّ معيّن مع كامل دروعهم البدنية" قالها لي بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث بالقرب من صفّ من مركبات الهامفي التي لم يعد قادراً على استخدامها. وما زاد الطين بلة أنه كان هناك شرط إضافي بألا يقل العدد عن أربع مركبات حتى يُسمح لنا بمغادرة حدود المعسكر الآمنة. فإذا لم يكن لدى إحدى الوحدات عدد كافٍ من هذه المركبات العاملة لتلبية الاحتياجات، فلن يتمكنوا من المغادرة حتى يتم إصلاح المركبات.

خلال زيارتنا للموقع قبل الانتشار في خريف عام 2008، زرتُ مع قادتي الرئيسيين مخفراً في القلعة القديمة يطلّ على مدينة خوست. كانت القلعة موجودة على تلة على حافة المدينة على بعد خمس دقائق بالسيارة، أو عشرين دقيقة سيراً على الأقدام من مكتب حاكم الولاية ومقر قيادة الشرطة في وسط المدينة. وبعد الجلوس في اجتماع مع القيادة الإقليمية الأفغانية، بدأت الدردشة مع أحد الرقباء الأمريكيين في الغرفة المجاورة، والذي تبيّن أنه مدرّب للشرطة. كانت وظيفته تدريب الشرطة على شتى المهارات اللازمة للأداء الشرطي الفعال والعمل جنباً إلى جنب مع الشرطة الأفغانية لمساعدتها في تعزيز الأمن في المنطقة. وكانت هناك مهمة أخرى غير معلنة وهي العمل كوسيط نزيه أو ضمير للشرطة التي شاع فسادها. فبوجود الجنود الأمريكيين حولهم، كان الأفغان عادة

يخجلون، أو على أقل تقدير، يضطرون إلى الابتعاد حتى يتمكنوا من ممارسة التصرفات السيئة، مثل ممارسة الرشوة والابتزاز والانتهاكات التي اشتُهروا بها. سألت الرقيب: لماذا كان فريق المدربين يعيشون في القلعة على حافة مدينة خوست بدلاً من وسط المدينة مع الشرطة. ابتسم وأجاب: "سيدي، لقد دفعتُ قيادتي إلى الجنون بهذا السؤال نفسه طوال فترة خدمتي هذه. ودائماً يرجع الجواب نفسه: خطير جداً. يحدث هجوم على قيادة الشرطة هناك بمعدل كل ستة أسابيع تقريباً".

سألته: "حسناً، ألا يمكنم المساعدة في تعزيز دفاعاتهم وزيادة عدد الدوريات الأمنية في حال كنتم هناك بدلاً من هنا؟".

أجاب الرقيب "نعم، سيدي". سألتُ ما مدى تردد فريق المدربين على قيادة الشرطة؟ هزّ الرقيب كتفيه موضحاً أنه لم يكن لديهم بعد أي من المركبات المحصّنة ضد الكمائن والألغام، وأن مركبات الهامفي كانت من أجل الإخلاء في حالات الطوارئ فقط. سألت: لماذا لا يذهب فريقه؟.

"سيدي، ينبغي أن يكون لدينا ما لا يقلّ عن اثني عشر رجلاً حتى يمكننا تسيير دورية. وحتى الآن لم يتوافر لدينا أكثر من تسعة رجال، فنحن في الواقع عالقون هنا. علينا أن ندعو الشرطة إلى أن تأتي إلى هنا. وقائد الشرطة نادراً ما يأتي، إلا إذا كنا قد أعددنا له غداءً كبيراً".

لم يناقض هذا النهج الحذر، مبادئ مكافحة التمرد فحسب، بل كان متهوّراً أيضاً. فاستخدام هذه المركبات الضخمة حصراً مَنَع القوات الأمريكية من الوصول إلى شرائح كبيرة من السكان، وسمح لخلايا العبوات الناسفة التابعة للمتمردين أن تزدهر في المناطق التي يسهل الوصول إليها نسبياً بمركبات أخرى غير المركبات المحصّنة ضد الكمائن والألغام. وكانت المشكلة أنه إذا وافق قائد كبير على مهمة في مركبة هامفي أو شاحنة صغيرة، وتعرّض الجنود الأمريكيون لكمين أو قُتلوا بعبوة ناسفة، فإن التحقيق الذي

ينجم عن ذلك سيقضي على مهنته على الأغلب. لذا لجؤوا إلى الوسيلة الأكثر أماناً للنقل المتاحة لهم. ولكن خلاصة القول، أنه لم يكن بإمكاننا أن نحمي وأن نؤثر في سكان لم نسمح لأنفسنا بالوصول إليهم. ومع مرور الوقت أصبحت على يقين من أن هذه العقلية التي تركّز على حماية القوات كانت تسبب إصابات أمريكية على المدى الطويل أكثر مما كانت تحول دون وقوعها على المدى القصير.

كنا أيضاً نرسل رسالة رهيبة لشركائنا من قوات الأمن الأفغانية الذين ينبغي لنا أن نتقاسم المخاطر معهم، وإلى الشعب الأفغاني الذي كنا نحاول الفوز بولائه، حين نطلّ عليهم عبر ست بوصات من الزجاج الثخين والدروع. أضف إلى ذلك أنه إذا كان الجيش [الأمريكي] لا يصل إلى مناطق في أفغانستان تفتقر إلى الطرق التي يمكنها تحمّل هذه المركبات البالغ وزنها عشرين طناً، فلن يصل إليها الجيش الوطني الأفغاني أيضاً. إنهم بالتأكيد لم يكونوا ليجرؤوا على الذهاب إلى أماكن لا يصل إليها الجيش الأمريكي.

وفي أواخر فترة خدمتي هذه أدركت إلى أي مدى أثّر النفور من المخاطر سلبياً في عمل وكالاتنا المعنية بتقديم المساعدات المدنية أيضاً. فقد اتصل بي أحد قادة فريق مفرزة العمليات ألفا التي أشرف عليها، في عصر أحد الأيام، ليخبرني أن أحد المستشارين المدنيين في وزارة الزراعة الأمريكية جاء إليه ينشد مساعدته في الوصول إلى أحد مراكز التدريب الزراعي المحلية. سألته "ما المشكلة؟ ألا يمكنه الذهاب إلى المركز مع فريق إعادة إعمار الولايات؟".

أوضح لي ذاك القائد أن مدير مركز التدريب شعر بسعادة غامرة لوجود خبير من وزارة الزراعة الأمريكية يساعد طلابه؛ ولكن، بعد اليوم الأول من التدريس، طلب المدير من المستشار ألا يعود ثانية. وفوجئ المستشار طبعاً واستاء، وبعد أكواب عدة من الشاي انتزع أخيراً شرحاً من المدير. لقد جذبت المركبة المحصنة المضادة للكمائن والمقاومة للألغام التي استخدمها فريق إعادة إعمار الولايات لإيصال المستشار الكثير من الانتباه

للمركز. وعرفت المنطقة بأكملها بمن في ذلك المتعاطفون مع طالبان على الفور أن الأمريكيين كانوا موجودين. أضف إلى ذلك أنهم جعلوا الطلاب عصبيين، وخاصة عندما اتخذوا مواقعهم حول المركز لتوفير الأمن للأمريكي الموجود في الداخل. وتابع القائد قائلاً: "قال المدير إنه بإمكان المستشار العودة فقط في حال أحضره الجيش في مركبات مدنية، فينزل هو منها، ولا يقف الآخرون منتشرين وبنادقهم مصوّبة على الجميع. ولأن ابن قائد شرطة المديرية أحد طلبة مركز التدريب، يوجد معه كثير من رجال الشرطة الوطنية الأفغانية في الداخل. وقد أكد قائد الشرطة للمستشار أنه سيكون في مأمن هناك مع رجال شرطته إن هو عاد للتدريس".

قلت: "هلّا أخبرتنا إلى أي مدى وصل الأمر".

قال القائد: "أجل. لقد رفض ضابط الأمن الإقليمي الفكرة كلياً". فضابط الأمن الإقليمي في السفارة [الأمريكية] كان المسؤول المكلف بأمن دبلوماسيي وزارة الخارجية وغيرهم من المدنيين. ومن الممكن أن يفوّض تلك المسؤوليات في حال كان المدنيون في الميدان تحت حماية الجيش في جميع الأوقات. وخلاف ذلك، كان لا بد من أن تنال أي رحلة يقوم بها مدني إلى خارج المنطقة المحروسة، من دون حماية الجيش، الموافقة في كابول، والنتيجة عادة عدم الموافقة.

قررنا في نهاية المطاف التحايل وتوصَّلنا إلى حل مكّن المدني من مساعدة مركز التدريب الزراعي بقدر معقول من الأمان. فقد كان يقوم بـ "التسلل" بضع مرات في الأسبوع إلى مجمّع مفرزة العمليات ألفا التي أشرف عليها مع تباشير الصباح الأولى، ليتم إيصاله، مع أحد مترجمينا وأحد رقباء الشؤون المدنية في الفريق إلى المركز في سياراتهم الرباعية الدفع. ولم يكن المركز يبعد إلا بضعة كيلومترات في قرية مجاورة. وبإمكانهم الذهاب قبل شروق الشمس وتجنّب الطريق الرئيسية لتفادي مخاطر العبوات الناسفة وأي أعين متطفّلة محتملة لطالبان. وكان الأمر خطيراً من جميع الجوانب، لكننا خففنا حدته

بطرائق مسؤولة. لقد غيّرنا الأيام التي يمكن فيها للمستشار أن يذهب؛ لتجنّب وجود نمط يمكن للآخرين التنبؤ به، وأخبرنا المركز فقط بموعد ذهابه. وتأكدنا كذلك من أن لدينا اتصالاً لاسلكياً مع رقيب الشؤون المدنية، وأنهم مجهزون بالنظام العالمي لتحديد المواقع GPS ولديهم هاتف نقّال لنتمكّن من تتبّعهم إذا حدث شيء ما.

كنت سأخسر وظيفتي على الفور، إن لم يكن أسوأ من ذلك، لو حدث أي مكروه لذلك المدني بعد أن ساعدناه في الذهاب إلى هناك. ولكنّي كنت مقتنعاً بأنه ما دمنا فعلنا ذلك بذكاء، فإن حصول هؤلاء الأفغان في القرية الوادعة على المساعدة التي تلزمهم أمراً يستحق المخاطرة. بالنسبة إليّ، كان الخطر أكبر بكثير أن يكون هناك خبير في الزراعة يجلس ولا يفعل شيئاً وهو على مرمى حجر من أشخاص يحتاجون إلى مساعدته. كنت قد شهدتُ في واشنطن عشرات الاجتماعات التي ألحّت فيها وزارة الدفاع على وزارة الخارجية ووكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة لإرسال المزيد من المدنيين لمساعدة الجيش في هذه الأنواع من المهارات الأساسية. لكن في هذه الحالة وغيرها الكثير مما شاهدته لم نتمكّن من التغلب على انعدام مرونتنا؛ مثل إحاطة المنطقة المحيطة بالمدرسة الزراعية بمثل هذه المركبات المحصنة ذات الأطنان العشرين، على الرغم من أن مدير المدرسة طلب منّا عدم القيام بذلك. وفي الوقت نفسه، أظهرنا أن هناك وسائل مبتكرة ومسؤولة لإنجاز هذه المهمة. ولكن الأمر تطلّب من كل واحد منا تحمّل مستوى معيّن من المخاطر، وهو أمر لم تكن وكالاتنا المدنية ومعظم القادة العسكريين على استعداد لقبوله.

كانت قيود مكتب الأمن الإقليمي على المدنيين والإصرار على السفر في المركبات المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام تبدو مشكلات تكتيكية ثانوية، ولكن كان لها تداعيات استراتيجية حول كيفية إنجاز مهماتنا في مكافحة التمرد. ومع أن القيود حدّت من تعرُّض مدنيينا للخطر وأن هذه المركبات المحصنة أنقذت أرواحاً عند التعرض لهجوم، إلا أنني تساءلتُ حول إذا ما كان سوء استخدامها كلّفنا أرواحاً على المدى الطويل

أو لا. وحقّ للمرء أن يتساءل: لماذا ضاعف المتمردون استخدامهم للعبوات الناسفة على الرغم من إدخال المركبات المقاومة للألغام؟ وإذا كانت المركبات فعّالة جداً، فلماذا ما يزال طالبان وحقاني وشبكات المتمردين الأخرى تعتمد على العبوة الناسفة كسلاح رئيسي؟ كان أحد الأسباب أنهم قد اكتشفوا ببساطة كيفية جعل العبوات كبيرة بما يكفي لتدمير هذه المركبات. وكان هناك سبب آخر هو أننا عندما نجعل تحركاتنا تقتصر على استخدام العربات المدرّعة، نقلل بذلك عدد الطرق التي يمكننا استخدامها بجعلها تقتصر على تلك التي يمكنها تحمّل هذه المركبات، ما يسهّل على المتمردين استهدافنا. وثمة سبب آخر هو أن الدورية عادة ما تقف في مكانها بعد إصابتها بعبوة ناسفة، ومن ثم تُهزم جزئياً، حتى إن بقي كل الجنود على قيد الحياة في نهاية المطاف.

وفي المحصّلة، كان التأثير الحقيقي للعبوة الناسفة هو منعنا من الذهاب إلى حيث لا يريدنا المتمردون أن نذهب. أذهلني فشل الناس في إدراك أن الإصابات ما هي إلا فائدة جانبية للعبوات الناسفة. والجائزة الحقيقية لقيادة المتمردين هي فصل تحالف إيساف وقوات الأمن الأفغانية عن السكان. ففي كل مرة كنا نضيف طبقة أخرى من الحماية رداً على سقوط ضحايا، كان المنتفعون هم طالبان وحقاني.

وطوال السنوات، شاهدت تطوّر تنقّل قوات التحالف في ساحة المعركة في أفغانستان، من الشاحنات الصغيرة إلى عربات الهامفي، وعربات الهامفي المدرّعة، ومركبات التنقّل البري، والمركبات المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام الأكبر من أي نوع آخر، فيما أخذ مقاتلو طالبان يصعّدون حملة العبوات الناسفة ببساطة بصنع عبوات أكبر؛ ولذلك لم أفاجأ عندما قرأت بعد ذلك بعام أن مشاة البحرية الأمريكية كانوا يخططون لنشر دبابات من طراز أبرامز M1A1 ذات الأطنان السبعين في ولاية هلمند في جنوب أفغانستان.

لقد كانت هياكل الدبابات وناقلات الجند المدرّعة الروسية المتناثرة هنا وهناك في أفغانستان خير دليل على أن هذا التصعيد للدروع مقابل المتفجرات، كان لعبة خاسرة. فمع أن دبابات أبرامز قادرة على تحقيق إصابات نارية دقيقة من مسافات بعيدة، إلا أن المتمردين كانوا قادرين بسهولة على التنبؤ بالطرق القليلة التي يمكننا سلوكها (إلا إذا قررنا هدم حقول المزارعين وقنوات الري)، بالإضافة إلى حاملات الوقود الفاتحة اللون ومركبات الصيانة التي كانت الدبابات بحاجة إليها.

عندما أثرتُ هذه النقاط في الاجتماعات التخطيطية، غالباً ما كان زملائي في قوات التحالف يسألونني ما اقتراحاتي "لهزيمة" العبوة الناسفة؟ وكان ردي الأوليّ أن السؤال خاطئ. ينبغي ألا نحاول هزيمة العبوة الناسفة، وإنما ينبغي أن نعمل على هزيمة المتمردين الذين يزرعونها؛ فعلى سبيل المثال، كان الوصول إلى قبائل مثل مانجال ودعمها ضرورياً لمكافحة التمرد. لكن فعل ذلك يعني أننا من المرجّح أن نتعرّض لإصابات وأن نخاطر بنكسات على المدى القصير لتحقيق مكاسب على المدى البعيد.

قد يبدو هذا الكلام مخالفاً للمنطق، ولكنني جادلتُ أننا بحاجة فعلاً إلى مدرّعات أقل، وبحاجة إلى أن نكون أكثر مرونة ويتعذر على الآخرين التنبؤ بأفعالنا. كان ينبغي أن تكون المركبة المحصنة ضد الكمائن والمقاومة للألغام عنصراً واحداً على قائمة أساليب الوصول إلى السكان. وبدلاً من فرض أنه لا يمكن لأي وحدة مغادرة القاعدة إلا في مركبة محصنة ضد الكمائن ومقاومة للألغام أو مركبة محصنة وملائمة لجميع التضاريس، كان علينا أن نسمح للوحدات باستخدام مركبات الهامفي ومركبات جميع التضاريس، والشاحنات الصغيرة المدَعّمة، وحتى الدراجات النارية عندما يكون ذلك مناسباً. ويعدّ عدم قدرة الآخرين على التنبؤ بأفعالنا، وأحياناً الابتعاد عن الأضواء، والاندماج، أفضل أشكال الحماية. فمعرفة الوحدات أن تحركاتها مراقَبة في جميع الأوقات يجعلها ملزمة باستخدام الخداع؛ مثل تغيير وقت التحرك ما بين الليل والنهار، وتغيير الطرق التي تسلكها، وأنواع المركبات التي تتنقل بها، ليبقى المتمردون يخمنون باستمرار. فلا يمكن

لطالبان أن تفخخ وتراقب كل طريق ودرب ووادٍ في أفغانستان، ولكن ما كان في وسعهم فعله، وما فعلوه، هو مهاجمتنا على العدد القليل من الطرق التي تتحمل مرور المركبات المدرّعة.

وطوال فترة خدمتي، ازدادت قناعتي بأننا ربما لا نكون قادرين على هزيمة العبوات الناسفة، ولكن يمكننا جعلها غير ذات قيمة. ويتطلّب ذلك منّا أن نعتمد على الإبداع وسعة الحيلة لدى القادة الأدنى رتبة الذين هم أكثر انسجاماً مع الديناميات المحلية والتضاريس، وليس مع التكنولوجيا أو الأوامر الدفاعية المصمّمة لمنع وقوع ضحايا مهما كلف الأمر. كذلك يتطلب تهميش العبوات الناسفة من قادة الصف الأعلى قبول مخاطرة أكبر، وأن يسمحوا لمرؤوسيهم بأن يخطئوا أحياناً، وإن كانت أخطاء قاتلة. سيتعيّن عليهم البدء باللعب لتحقيق الفوز بدلاً من محاولة تجنّب الخسارة. تلك كانت الطريقة الوحيدة لبدء التواصل مع الشعب الأفغاني، الذي من شأنه أن يهزم طالبان في نهاية المطاف. إن عدم القيام بذلك شكّل مخاطرة تمثّلت بخسارتنا قبائل رئيسية؛ مثل مانجال، وآخرين مثل مدير المركز الزراعي الذي غدا مقتنعاً بأننا لم نكن على استعداد لبذل ما أمكن للوقوف إلى جانبهم والقتال معهم.

الفصل العاشر

الشيخ في خوست .. النفور من المخاطرة وضريبة التقاعس

كان مركز العمليات التكتيكية الخاص بنا نسخة مصغرة جداً مما يمكن أن تراه في المقر التقليدي لكتيبة أو لواء جيش في مختلف قواعد التحالف المنتشرة في الريف الأفغاني. كان المركز يقع في غرفة مستطيلة طولها أربعون قدماً، ويتألف الركن المحوري للغرفة من ثلاث شاشات مسطّحة تدعمها قواعد خشبية بطول خمس أقدام. كانت إحدى الشاشات تعرض عادة خريطة إلكترونية لأفغانستان تُظهر رموزاً زرقاً متباعدة تشير إلى مواقع مختلف الوحدات، تصدرها مرسلات جهاز النظام العالمي لتحديد المواقع الذي يعادل حجمه حجم علبة الأحذية يسمى "متتبّع القوة الزرقاء"، وهو إلزامي في كل مركبة تغادر قاعدة آمنة لقوات التحالف في أفغانستان. وكانت الشاشة الثانية تعرض باستمرار قناة الجزيرة الإنجليزية، التي كانت في كثير من الأحيان تذكر أحداثاً في منطقة عملياتنا قبل أن نعلم بها. أما الشاشة الثالثة فكانت تعرض عادة نسخاً إلكترونية من عروض "باور بوينت" الإحاطة الخاصة بالمهمة وتُعرف باسم تصوّر العمليات، يقدمها أحد المرؤوسين التابعين لي في مفرزة العمليات ألفا. وكان تصوّر العمليات -في أبسط أشكاله- يجيب على أسئلة: مَنْ؟ وماذا؟ ومتى؟ وأين؟ ولماذا؟ المتعلقة بالمهمة الحالية. أما في شكله الأكثر تعقيداً فقد كان وحشاً عملاقاً من أربعين إلى خمسين شريحة مع صفحة تلو الصفحة من الصور الجوية، والخطط التفصيلية للمناورة، وتقييم المخاطر.

في مرحلة معيّنة، كنت مستاءً من مركز العمليات التكتيكية. كان المركز قد أصبح مسرحاً لعدد لا يحصى من المعارك البيروقراطية حول كل التفاصيل تقريباً لكل عملية أردنا تنفيذها. وكان أفراد فريقي يسمون مهمتنا باستهزاء "مكافحة البيروقراطية" بدلاً من "مكافحة التمرّد". وبدا الأمر كأننا نقضي معظم وقتنا في سلسلة لا نهاية لها من

المعارك الداخلية وتدريبات التنسيق، مع سلاسل لا تعد ولا تحصى من القيادة التي يحقّ لها نقض أي مهمة من مهمات مفرزة العمليات ألفا. ولا أَدلّ على هذا التعقيد من تصوّر العمليات وسلسلة الشرائح الإلزامية المرافقة له في كل نوع من المهام. حدقتُ في تصوّر العمليات الحالي على الشاشة؛ كان هذا في خضم تحديد المهام الذي يولّد وابلاً من الأسئلة من مختلف قياداتنا العليا. أصبح الكثيرون منّا يشعرون بالاستياء العميق من تصوّر العمليات بوصفه رمزاً للإدارة التفصيلية والنفور من المخاطرة عند منح الموافقة على المهام، حتى الأساسية منها.

في طرف الغرفة، كانت هناك خريطة تضاريسية معلّقة من السقف إلى الأرض، لمنطقة العمليات التابعة لي على الحدود الأفغانية-الباكستانية وتشمل ولايات خوست وباكتيا وباكتيكا وغزني على الجانب الأفغاني، ووزيرستان الشمالية والجنوبية على الجانب الباكستاني. وكانت الخريطة مظللة لتوضيح التباينات الهائلة في ارتفاع السلاسل الجبلية المختلفة. وكم هي كثيرة الليالي التي جلستُ وحدقت فيها بتلك الخريطة، وشعرت بالرهبة من جسامة ما كنا نحاول القيام به. كانت هناك علامات صغيرة تُظهر مواقع قوات التحالف والجيش الأفغاني، وبدا الأمر كما لو أن اثني عشر وادياً بحجم "الوادي الكبير" (جراند كانيون) كانت تفصل بين كل مركز وآخر، وهناك نقط سوداء تمثل القرى، وهي مبثوثة مثل الفلفل في كل وادٍ وأخدود.

أمام الشاشات كان هناك صفان من الطاولات الخشبية الثقيلة المكدّسة بشاشات الكمبيوتر والطابعات وأكوام من التقارير الاستخباراتية وعلب المشروبات الغازية. وكان للرقيب أول، ومساعد العمليات، وضابط صف العمليات، والضابط التنفيذي، وستة من الموظفين الرئيسيين الآخرين أجهزة كمبيوتر محمولة، ومناطق صغيرة خاصة بهم على طول الطاولات. كان الجميع سعداء ذلك اليوم؛ فقد تلقينا للتوّ شحنة من كراسي المكاتب من ضابط الإمداد في لواء الجيش التقليدي الذي يقع على بعد بضع مئات من الأمتار في قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو. كانت الكراسي تضاهي ما كنت

قد رأيته في البيت الأبيض أو البنتاجون، وكانت مختلفة كل الاختلاف عن كراسينا المعتادة الباكستانية الصنع المشتراة من السوق المحلية. وكان ضابط العمليات الأصلع الضخم، يورك، الذي يعمل معي، قد سقط مرتين من كرسيه عندما انكسرت إحدى أرجله. وقد بدا مسروراً بشكل خاص وهو متكئ على سنادة كرسيه الجديد، يتحرك به إلى الأمام والخلف.

قال تود، وهو يدخل إلى الغرفة: "عاد الحاج عزام إلى كاكي كالاي". لقد تمّ تدريب تود، وخاصة للتعامل مع مصادرنا الاستخباراتية البشرية. كنت أرى أحد مترجمينا يحوم عند المدخل (لا يسمح له بالوجود في المنطقة الخاصة)، في انتظار تعليمات لمكالمة أخرى من مصدر آخر من مصادر تود. وكاكا كالاي هي قرية تقع شرق ساليرنو داخل الحدود الباكستانية، حيث بذل أفراد مفرزة العمليات ألفا، وكذلك وحدة المشاة المجاورة، قدراً كبيراً من الجهد والدعم لكسب الشيوخ. كان الحاج عزام قائداً من المستوى المتوسط مع شبكة حقاني، واشتهر بالوحشية وأساليب التجنيد العدوانية. ناقشنا المهمة عن طريق الهاتف مع مفرزة العمليات ألفا-23، التي كانت على الجانب الآخر من قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو، مرافقة للقوات الخاصة للجيش الوطني الأفغاني. بدأ أعضاء الفريق فوراً وضع خطة لقتل أو اعتقال القائد التابع لحقاني. وفي الواقع، كانوا ينفضون الغبار عن سلسلة من الخطط القديمة، وكنا بحاجة إلى الحصول على إعادة الموافقة عليها فقط. يتردد عزام بانتظام ذهاباً وإياباً عبر الحدود مع باكستان؛ وهو عادة كان يبقى في أفغانستان نحو أسبوع فقط، وينام في أماكن مختلفة كل ليلة قبل أن يتوجّه إلى الأمان في باكستان، ويُعرف عنه أنه كان يقوم بالتجنيد في المساجد المحلية بعد صلاة الجمعة. كان لدينا تقرير من مُخبر في كاكا كالاي أن عزام سيجمع "تبرعات" من القرية خلال زياراته. وفي إحدى المرات طالب بأن تحضر كل واحدة من النساء قطعة من مجوهرات زفافهن كمساهمة في الجهاد الذي تشنّه شبكة حقاني. وطالب أيضاً بأن يعود عدد من الرجال معه إلى باكستان للتدريب. وإذا اتفق أن عضواً في الجيش الأفغاني أو أي شخص من الذين يعملون في قاعدة أمريكية كان في بيته عندما يحضر عزام وعصبة من

رجاله إلى المدينة على دراجاتهم فمن الأفضل له الخروج من المدينة بسرعة كبيرة. ولم يكن عزام يتورّع عن ممارسة الانتقام الوحشي لرفض طلبات التبرع له. وفي مديرية مندوزاي قام عزام ورجاله بإطلاق الرصاص في مدرسة للبنات في أثناء ساعات الدراسة بعد أن رفض شيوخ مندوزاي تقديم المجنّدين. وعلى أقل تقدير أردتُ اعتقال الرجل ووضعَه في زنزانة في باجرام. والأفضل من ذلك، أردتُ تسليمه إلى شيوخ مندوزاي؛ فهم سيعتنون بالأمر على طريقتهم الخاصة!

كانت الشمس تجنح للغروب، وأردت أن يستخدم فريقي والقوات الخاصة المروحيات لكي يكون لديهم الكثير من الوقت للدخول والخروج من المنطقة تحت جنح الظلام. كان الطريق المؤدي إلى القرية مملوءاً بالعبوات الناسفة. وإذا ذهب الفريق برّاً، فسيكون عليهم العودة إلى قاعدتنا خلال النهار، ويتعرضون للهجوم بالتأكيد. بالإضافة إلى ذلك كان عزام يقظاً، ويقال إنه كان يضع المخبرين في تقاطعات الطرق وعلى التلال القريبة من كاكا كالاي للتحذير من أي اقتراب للتحالف. إن الذهاب عن طريق البرّ من دون أن يصل إليه خبر سيكون أمراً صعباً على أقل تقدير.

قال قائد الفريق جيسون، في لهجة أمر واقع من شخص خَبِر الإجراءات عشرات المرات: "لن نحصل على الموافقة على هذه المهمة سريعاً. نحن نريد هذا الرجل أكثر من أي شخص آخر، لكننا لن نحصل على الإحاطات في الوقت المناسب، ولن نحصل بالتأكيد على مروحيات. إن المروحيات وحدها ستتسبّب في حاجتنا إلى موافقتين إضافيتين. سوف نخاطر ونذهب برّاً على الطرق الخلفية، ونستعيض عن المركبات وندخل مشياً بهدوء". وكان جيسون يقصد بكلمة "الاستعاضة" أن الفريق وشركاءهم الأفغان سيقودون المركبات إلى موقع قريب بما فيه الكفاية من الهدف ليتمكّنوا بعدها من السير راجلين، ولكن بعيداً بما فيه الكفاية، بحيث لا يسمعهم عزام أو أيّ من الحرّاس المحتملين في القرية.

قررتُ رفض قرار قيادة مفرزة العمليات ألفا، واستخدام المروحيات. لقد فهمت وجهة نظر جيسون؛ كنا نضيع الكثير من الأيام والليالي في محاولة للحصول على الإسناد

المروحي وتتأخر المهام أو تتمّ إعادة توجيه المروحيات في اللحظة الأخيرة، إلى درجة أن الرجال أصبحوا يفضلون أن يعرّضوا حياتهم للخطر والعبوات الناسفة على أن يتمّ إلغاء أي مهمة أخرى. كنت أريد هذا الرجل بشدة، ولكن مع المسافة التي يجب اجتيازها، سيكون على الفريق إنهاء العملية برمتها قبل شروق الشمس. كنت أعرف أن عناصر مفرزة العمليات ألفا سيضطرون إلى التحرّك مرة أخرى في مركبات التنقّل البري على الطرق التي تمّ زرع العبوات الناسفة على طولها خلال النهار، عبر قطاع من خوست كانت شبكة حقاني تسيطر عليه تماماً.

وفي الوقت نفسه، كان موظفو وأفراد الاستخبارات والعمليات لديّ يعملون بحماسة زائدة على إعداد الشرائح التوضيحية للمهمة، التي كان لا بد من تقديمها لإحاطة المقارّ العليا المتعددة التي كان يجب أن تمنحنا موافقتها. وبعد بضع ساعات، وبعد مكالمات جنونية ومذكرات تمّ تجميعها على عجل لوحدة الطيران، بدأت مروحيتان من طراز شينوك في مطار قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو بتدوير مراوحهما في الظلام استعداداً للموافقة على المهمة. وتمركز ثلاثون من المغاوير الأفغان خارج مركز عملياتي، يسيرون على الحصى جيئة وذهاباً.

كنت في مكان قريب أصرخ في الهاتف: "موافقات مَنْ نحتاج إليها أيضاً؟ لقد تابعنا الإجراءات كافة في قائمة العمليات المرجعية للطوارئ. لقد حصلنا على الموافقة لهذه المهمة مسبقاً مرتين. إنه مجرد موقع مختلف هذه المرة!".

لم نتمكن من العثور على بعض الموظفين الرئيسيين؛ وفي حين أحبّ بعضهم الخطة، اقترح آخرون بعض التعديلات، وكان لدى آخرين أسئلة. تطوّرت الخطة بينما كانت المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني تتطاير ذهاباً وإياباً. وبعد أن مرّت ساعات، وافق قائد الطيران على استخدام مروحيات النقل من طراز شينوك للمهمة، ولكن بالطبع كان يجب أن تكون هناك مروحيات هجومية لإدراج القتال ضمن الخطة. ولحسن الحظ، اعتاد ضابط الهجوم لعمليات الطيران المسؤول عن توزيع المهام المجيء إلى حفلات

الشواء الأسبوعية لدينا لأشهر عدة، ووافق على التنازل عن متطلبات راحة طواقم طائرات الهليكوبتر ليتمكّنوا من الالتحاق بهذه المهمة. (في محاولة لتجنّب وقوع حوادث، تفرض التعليمات على الطيارين حصولهم على عدد من ساعات النوم يتناسب وعدد ساعات الطيران؛ وكانت هذه المتطلبات ما تزال تطبّق حتى في مناطق القتال). ومع ذلك، فإن رئيس قائد الطيران في قاعدة باجرام الجوّية رأى أن تقوم طائرة من دون طيار من نوع بريداتور باستكشاف المنطقة قبل أن يلتزم بإرسال طائرات الشينوك. والطائرات من طراز شينوك هي مروحيات على شكل سيجار، ولها مراوح في الأمام والخلف ويمكنها أن تحمل أكثر من ثلاثين جندياً مع عتادهم. وليس فيها سوى رشاشات دفاع على الجانبين فقط، وهي عرضة للنيران الأرضية عندما تضيء أنوار الهبوط. أما الأباتشي، فعلى النقيض من ذلك، فهي مروحيات هجومية مدرّعة بُنيت لمهاجمة الدبابات والقوات البرية بالمدافع وصواريخ هيلفاير الموجّهة. كان قائد الطيران قد أمر أن ترافق مروحيات الأباتشي جميع طائرات شينوك عند شنّ الهجمات الجوّية. وكذلك كانت هناك أيضاً قاعدة دائمة في الميدان؛ وهي أن يكون لجميع عمليات الإخلاء الطبي الجوّية مرافق من الأباتشي. وحيث كان علينا أن نكون مستعدين للإخلاء الطبي عند الشروع في مهمة، كانت النتيجة غير المقصودة أنه تمّ إلغاء عدد من المهمات لأنه لم يكن هناك ما يكفي من مروحيات الأباتشي لمرافقة مهمات الإخلاء الطبي والهجوم الجوّي المتعددة الجارية في أنحاء أفغانستان.

كان يورك، ضابط العمليات لديّ، أيضاً على الهاتف: "أليس من الملزم أن تحرس المروحيات من طراز أباتشي طائرات الشينوك! لماذا الآن يريد لطائرات البريداتور أن تذهب أولاً قبل المروحيات الهجومية التي تحرس طائرات شينوك؟".

كنت أعرف أنه كان من المستبعد جداً أن تكون طائرة من دون طيار من طراز البريداتور متاحة، وبدأتُ أتساءل إذا ما كان قائد الطيران فقط لا يرغب في المخاطرة بطائرات الهليكوبتر ولا يقول ذلك صراحة.

الرقيب المسؤول عن طلبات الدعم بالبريداتور في مقرّي الأعلى وَعَد يورك بأنه سيحاول إنفاذ الأمر، لكنه لم يبدُ متفائلاً. وبعد ساعة اتصل الرقيب وأبلغ يورك أنهم يمكن أن يحصلوا على البريداتور، ولكن بعد ساعة بسبب ضغوط الطلبيات، وستكون متاحة فقط قبل الفجر، أي بعد الوقت الذي قال الشيخ إن عزام يحتمَل أن يغادر فيه. وأضاف الرقيب "إن هذا أفضل ما يمكن القيام به"، وأوضح "وهي الطريقة الوحيدة التي سوف تحصل بها على مروحيات".

قلت: "حسناً! علينا أن نحاول على الأقل، وإلا فسوف نفقد أي دعم بقي لنا في هذه القرية".

رنّ الهاتف النقّال في الزاوية: "أين أنت؟"، سأل الشيخ على وجه السرعة. وقال إن قائد حقاني كان يشرب الشاي على بُعد مجمّع واحد. وأضاف الشيخ الفخور "إنه يشتبه فيّ ويعرف أن أبنائي عملوا كمترجمين للمنظمات غير الحكومية الغربية. ويعلم أن عائلتي تدعم الحكومة. الشرطة تخشى أن تتحداه. وقال إنه سوف يقتلني. أنا خائف، لقد قلتَ إنك هنا لحمايتنا".

كان مترجمي يقف خارج مبنى المقر الرئيسي والهاتف النقّال في يده؛ وبينما هو ينقل إليّ توسلات الرجل العجوز، بدأت عيناه تدمعان. أما تود، رقيب الاستخبارات، فقد حدّق في وجهي كما لو أني شخصياً أمثّل كل الضباط الذين يقفون حائلاً بينه وبين مساعدة هذا الرجل. فكرتُ في كل الأوقات المحبطة عندما كان ضباط الأركان، بدلاً من الإجابة بنعم أو لا للقبول بأداء المهمة، يعربون عن "قلقهم" واضعين قيداً إضافياً من أجل "تخفيف المخاطر"، أو يسألون سؤالاً إضافياً قبل إرسال تصوّر العمليات إلى المستوى الأعلى من الموافقات.

في هذه المرحلة كنت أصرخ، عبر الهاتف الآمن، على ضابط عمليات الكتيبة في فرقة العمليات الخاصة. لم يكن الذنب ذنبه حقاً. لقد كان على الهاتف طوال فترة ما بعد

الظهر والليل لينسّق جميع الأساسيات والإحاطات والموافقات الإلزامية التي ترافق كل مهمة قتل أو أسر. كان نظام الموافقة على المهمات نظاماً بيروقراطياً شاقاً، نما على مرّ السنين مع تراكم القواعد والمتطلبات. كان لكلٍّ من هذه القواعد معنى خاصّ، كما أن تراكم المتطلبات بمرور الوقت هو الذي خلق النظام الذي جعلني -باعتباري ضابطاً من القوات الخاصة وقائداً من دون أي صلاحية- أبدو وأنا أذهب لمساعدة هذا الرجل وقريته، كما لو كنت متهوراً ومضحياً بحياة رجالي؛ لقد كنت غاضباً.

تشاورتُ مع تود، وجيسون، ومارك. لن نتمكّن من إعداد كل ما هو مطلوب لضرب مجمّع عزام حتى نحو الساعة الرابعة صباحاً، على الرغم من أن هناك فرصة أن تكون البريداتور متاحة قبل ذلك. وشدّد تود ومارك على أننا إذا ضربنا منزل عزام ولم يكن هناك، فسيظن أن شخصاً ما في القرية وشى به، وسيسعى للانتقام.

وأضاف تود "إن الشيخ مُصر على أن نقتل الرجل عندما نأتي، وليس أن نقبض عليه أو نسمح له بالهروب".

قلت: "أنت تعلم أننا لا نستطيع ضمان ذلك".

"نعم، سيدي، بالطبع. ولكن الشيخ يعلم أنه إذا ألقينا القبض على عزام، فسيتم الإفراج عنه خلال أشهر، وسوف يعود إلى كاكا كالاي ليلاحقه هو وعائلته ليقتلهم"، أجاب تود.

تنهدت قائلاً: "حسناً، لا تلغي حالة الاستعداد حتى الشروق في حال أصبحت طائرة البريداتور متوافرة أبكر من ذلك".

وبحلول الساعة 05:00 صباحاً كانت طائرة البريداتور ما تزال غير متوافرة. وفقدَ أفراد القوات الخاصة الأفغانية الأمل وعادوا إلى ثكناتهم، كما أطفئت محركات المروحيات. وبدأت الشمس بالظهور خلف الجبال إلى الشرق؛ مشى تود نحوي وقال إن قائد حقاني قد انتقل إلى بلدة أخرى بعد صلاة الفجر، وإن الشيخ لم يعد يردّ على مكالماتنا.

ترامى إلينا من خلال القصص المتداولة بين عمال القاعدة الأفغان أن القرويين في كاكا كالاي قد فقدوا الإيمان بنا. نجا الشيخ، لكنه لن يتحدث إلينا مرة أخرى. وسمعنا في وقت لاحق من مصدر آخر، أن الشيخ قام ببيع بعض أراضي عائلته إلى عزام بأسعار بخسة. فعلَ ذلك جزئياً لاسترضاء حقاني، وجزئياً للتعويض عن الدخل الذي فقده أبناؤه عندما تركوا وظائفهم كمترجمين مع التحالف؛ لن يسمح لهم والدهم بالعمل معنا بعد ذلك. وورد أن الشيخ قال لأبنائه ومجموعة من أصدقائهم الذين كانوا يعملون في قاعدة الجيش الأفغاني القريبة: "الأمريكيون لن يقوموا بحمايتكم. ولا يمكننا الاعتماد عليهم".

كان مستوى الإحباط بين ضباط القوات الخاصة من ذوي الرتب الدنيا والمتوسطة حول مخطط العمليات مرتفعاً للغاية. فلقد كفّ الكثير من نظرائي في الخدمة الميدانية عن محاولة تغيير الأمور، بعد أن غدَت عملية الموافقة على المهمة مجرد جزء من الثقافة السائدة. وبدلاً من فرض التغيير، وجدنا جميعاً وسائل مبتكرة لنتلاعب على النظام. فمن جهة، يحثّ خطاب مكافحة التمرّد على المرونة، وتمكين صغار القادة، وزيادة الوقت المقضي خارج القاعدة وبين الجماهير. ومن جهة أخرى، كانت لدينا بيروقراطية عسكرية هائلة متعددة الطبقات، وكان رد فعلها الغريزي على وقوع الإصابات أو الأخطاء التشغيلية هو معالجة الوضع عن طريق اشتراط أن تخضع المهمات لمستويات أعلى ومتزايدة من الموافقات الرسمية.

لم يكن لديّ -حتى بصفتي قائد سرية من القوات الخاصة- السلطة للسماح لِفرَقي بمغادرة قواعدها، أو حتى أن أغادر أنا شخصياً القاعدة، لأي سبب من الأسباب. كان عليّ أولاً أن أحصل على إذن من خلال تقديم تصوّر العمليات عبر البريد الإلكتروني إلى فرقة العمليات الخاصة في باجرام، حتى إن كان الأمر مجرد المشي خارج البوابة الأمامية من قاعدتنا للدردشة مع أصحاب المحالّ في السوق المحلي. وفي مثل هذه المهمة المملّة والعادية لم يكن علينا سوى أن نرسل عدداً قليلاً من الشرائح التوضيحية! ولكن الأمر الذي كان محبِطاً للغاية هو مع أنني رائد في القوات الخاصة فلا يمكنني مجرد الحديث مع السكان المحليين خارج قاعدتي من تلقاء نفسي. حتى بالنسبة إلى أكثر المهام الروتينية مللاً، يتعيّن على قوة مهام العمليات الخاصة أيضاً إرسال تصوّر العمليات إلى القيادة

الأعلى، قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة، من أجل العلم بالوضع (بحيث يعرف رؤساؤنا أين نحن في كل مرة نغادر فيها القاعدة). لقد تلقيت الكثير من المكالمات الهاتفية السيئة من ضابط العمليات في قيادتي، عندما كان يغادر فريقٌ ما القاعدة لمهمة من دون إنذار مسبق قبل أن تكون القيادات الثلاث العليا على علم به.

لم يكن هناك حقاً أي شخص محدّد أو قائد يُمكن أن يُلام. تمثّلت المشكلة بتراكم القواعد طوال العقد الماضي، وعادة ما تكون هذه القواعد ردّ فعل لأحداث كبرى وقعت؛ مثل خلية الاستطلاع المكوّنة من أربعة رجال في قوات البحرية الخاصة، التي قُضي عليها عام 2005، أو القاعدة التي سيطر عليها المتمرّدون في "وانات" عام 2008. كانت الاستجابة الطبيعية لتلك النوعية من الأحداث إضافة تقييد آخر للحدّ من المخاطر التي بدت منطقية آنذاك؛ لكن تمّ فيما بعد تطبيقها على الجميع وأصبحت قاعدة ثابتة. ومتى أصبحت هذه القواعد ثابتة كان القليل منها هو الذي يتم إلغاؤه بعد فترة، حتى تراكمت إلى حد السخافة. على سبيل المثال، رداً على مهمة قوات البحرية الخاصة، التي زادها كتاب وفيلم (**الناجي الوحيد**) شهرة، أصبح لزاماً على جميع الدوريات الراجلة أو مهمات الاستطلاع في المستقبل ألا يقلّ عدد أفرادها عن تسعة رجال كحدّ أدنى. أما القاعدة التي وضعت نتيجة لكارثة "وانات" فهي أنه لا يجوز أن يكون هناك أقلّ من اثني عشر من الجنود الأمريكيين في حراسة أي قاعدة في أي وقت من الأوقات. وبعد سنوات اتفق أن وجد فصيل في موقع ناءٍ بثمانية عشر جندياً، وكان قائد الفصيل محبَطاً لأنه لم يكن لديه واحد وعشرون رجلاً، وهو الحدّ الأدنى الضروري لخروج دورية راجلة مع الحفاظ على الحد الأدنى المطلوب لحماية قاعدته. وكانت الحالة الوحيدة التي يمكنه أن يغادر قاعدته فيها هي عندما يتم نقل فرقة من الجنود من وحدة أخرى لتعزيز القوات. كانت حركة طالبان المحليّة تعلم أنه في كل مرة تحلّق مروحية يعني ذلك خروج دورية من القاعدة في مهمة ما. وعليه لم يكن من المستغرب عادةً أن تقع الدورية في كمين. وبدلاً من قبول بعض المخاطر والتخفيف من المتطلبات، قرّر مقرّ قيادة الوحدة نقل الفصيل في نهاية المطاف وهدم الموقع.

في عام 2005 زار الرئيس كرزاي وزارة الدفاع الأمريكية ليلتقي وزير الدفاع رامسفيلد. وأخبرني زميل كان قد حضر الاجتماع، أن كرزاي اشتكى بشكل صاخب من القوات الأجنبية التي تُجري عمليات دهم ليلية في المنازل الأفغانية، ما كان يسفر عن مقتل مدنيين في بعض الأحيان. ردّ قائد القوات الأمريكية في أفغانستان آنئذٍ، الجنرال كارل إيكنبيري، على الشكوى باشتراط أن تتمّ الموافقة على جميع الغارات الليلية من قِبَله؛ الأمر الذي حدّ من عدد الغارات الليلية، ومن المرونة في توقيت مهام الوحدات القتالية. كان على الوحدات في وقت لاحق إرسال طلبات المهمة قبل موعدها بفترة تصل إلى سبعة أيام، ليتمكنوا من الحصول على الموافقة من خلال تسلسل القيادة. وبعد سنوات، وعلى الرغم من الزيادة الهائلة في عدد المهمات وتفاقم التمرّد، لم تتغير قاعدة إيكنبيري. وكانت النتيجة تخلّفاً منظماً وذاتياً لدى الجيش الأكثر قدرة في العالم. شعرتُ كما لو كنا نهزم أنفسنا وليس طالبان مَنْ تهزمنا.

في أكتوبر 2009 اعترَضتْ واشنطن طريقي في الميدان من خلال مساعد وزير الدفاع لشؤون العمليات الخاصة مايك فيكرز. كان فيكرز قد خدم سابقاً مع القبعات الخضر، وكان قد أصبح مشهوراً من كتاب "حرب تشارلي ويلسون" كعميل لوكالة الاستخبارات المركزية كان يدعم المجاهدين الأفغان وراء الكواليس في حربهم ضد الاحتلال السوفيتي. وبينما أنهى فريقي، مفرزة العمليات ألفا-22، الإحاطة المطلوبة حول وضع مدينة غارديز في ولاية باكتيا، سأل فيكرز عن تقييمي الشامل وأي مشكلات كنا نواجهها. أجبت: "إن أولويتنا الأولى هي بناء قدرات وحدة الجيش الوطني الأفغاني المشتركة العاملة مع فريقي"، ثم أوضحت أننا كنا نعتقد أن التقديرات الحالية لقدرات الجيش الوطني الأفغاني كانت مفرطة في التفاؤل، وأن ذلك سيتطلب جهد أجيال قبل أن يصبح الأفغان قادرين حقاً على العمل بشكل مستقلّ.

أضفتُ "أولويتنا الثانية هي إضعاف النشاط المتنامي لحركة طالبان وشبكة حقاني في المنطقة وسيطرتها التدريجية على المديريات في جنوب غارديز وشرقها". كانت غارديز

تقع إلى الغرب من سلسلة الجبال التي بدت على شكل هلال حول خوست إلى الشرق، وكانت مركزاً حضرياً رئيسياً على الطرق بين الحدود الباكستانية وكابول إلى الشمال الغربي. وكانت أيضاً مقر حكومة ولاية باكتيا. كنّا نحاول تهيئة الظروف للمشاركة القبَلية، ولكننا بحاجة إلى التخلص من بعض العناصر السيئة أولاً.

قال فيكرز: "حسناً، ما المشكلة؟ لاحقهم".

أوضحت أنه في المهمات الأكثر تعقيداً، مثل مهمة البحث عن مخبأ للأسلحة أو اعتقال قائد في شبكة حقاني أو قتله، كان على فرق القوات الخاصة تقديم أربعين شريحة عن تصوّر العمليات، والحصول على موافقة من عشرات القيادات إذا أراد الفريق استخدام المروحيات.

سألني فيكرز بتشكك، "عشرات موافقات القيادات؟ عدّدها!". ورمقني المقدّم الذي كان يرافقه بنظرة من خلف كتف فيكرز.

"بالتأكيد. الآن، على افتراض أن قائد طالبان المستهدَف قد اجتاز كل الخطوات للتحقق من أنه شخص سيئ بالفعل، وهي عملية شاقة في حدّ ذاتها، بعد ذلك على أفراد مفرزة العمليات ألفا التابعة لي أن يقوموا بإعداد إيجاز للمهمة بأكملها والحصول على الموافقة عليه من..."، وبدأت أعد على أصابعي، "واحد، قائد سرية القوات الخاصة؛ اثنان، قائد فرقة العمليات الخاصة في قاعدة باجرام؛ ثلاثة، قائد مجموعة القوات الخاصة في باجرام؛ أربعة، جنرال القوات الخاصة في كابول المسؤول عن جميع قوات العمليات الخاصة؛ خمسة، مسؤول ساحة المعركة المحلي (قائد الكتيبة التقليدي)؛ ستة، قائد لواء مسؤول ساحة المعركة (قائد اللواء التقليدي)؛ سبعة، القائد العام الإقليمي في باجرام لشرق أفغانستان".

تغضّن جبين فيكرز. وتابعتُ: "ثم، إذا كانت المهمة ستتطلب استخدام المروحيات التابعة للوحدات التقليدية، كما هو الأمر في معظم الأحوال، يتعيّن علينا إطلاع؛ ثمانية،

قائد كتيبة الطيران؛ وتسعة، قائد لواء الطيران. وإذا كانت المهمة ملاحقة قيادة طالبان، لا بدّ من الحصول على موافقة قائد قوة إيساف أو أحد نوابه. وهذه عشرة إيجازات".

تابعت: "وأخيراً، سيدي، كما تعلمون نحن فخورون بأننا دائماً نُجري مهامنا مع شركائنا من وحدات الجيش الأفغاني. ولكن هذا يعني أيضاً أنه ينبغي إبلاغ قيادتهم. لذلك نحن أيضاً نُطلع قائد كتيبة الجيش الوطني الأفغاني. والذي بدوره يحتاج إلى أن يُطلع رئيسه، قائد لواء الجيش الوطني الأفغاني. هاتان الخطوتان هما رقما 11 و12". ولم يتبقَّ لدي أصابع لأعدّ عليها.

كان لدى الموظفين في كل من هذه المستويات دائماً مجموعة واسعة من الأسئلة، ولكل من هذه المستويات حق النقض.

وأوضحتُ أيضاً أنه قبل أن يصل تصوّر العمليات إلى الخطوة الثالثة، كان على ضابط مسؤول مسكين في قيادتنا التأكد من أنه يتوافق مع قائمة البند 102 المرجعية التي تركّز على تنسيق عرض "الباوربوينت"، بحيث تبدو طلبات المهمات التي لا تعدّ ولا تحصى القادمة من مفارز العمليات ألفا في أنحاء أفغانستان موحّدة في المظهر عند تقديمها لمختلف القادة.

ولهذه الأسباب، كان يجب تقديم تصوّر العمليات قبل أسبوع من المهمة للحصول على موافقات المعنيين وإطلاع كل هذه المستويات عليه. وكلما ارتفع مستوى المهمة، كان ينبغي تقديم تصوّر العمليات في وقت مبكر أكثر.

"تذكّر سيدي، أن هذا هو فقط لإجراء بحث عن مخبأ أو استهداف قائد طالباني واحد من المستوى المتوسط".

سأل فيكرز المقدّم بحدّة: "ما الذي نفعله هنا بحق السماء؟". وقبل أن يتمكّن الأخير من الإجابة، أطلّ مترجم مفرزة العمليات برأسه من الباب لإعلامنا أن عقيد

الجيش الوطني الأفغاني وموظفيه في الخارج، ينتظروننا لتناول طعام الغداء. واستغلّ المقدّم هذه الفرصة لإنهاء ما كنت متأكداً من أنه يراه جلسة حديث غير ملائمة لمساعد وزير الخارجية، وهو برتبة تعادل 4 نجوم وكان مسؤولاً لدى وزير الدفاع عن جميع سياسات القوات الخاصة. كان رجالي يبتسمون لي ونحن نغادر الغرفة.

كنت أعرف أن هذا الحوار سيصل إلى قيادتي، ولكني عبّرت عن رأيي. وبحكم أنني اصطحبت الكثير من المسؤولين في هذه الأنواع من الرحلات خلال فترة وجودي في وزارة الدفاع الأمريكية، فقد كنت أعرف أنهم يريدون سماع آراء غير منمّقة من الجنود والمدنيين الأقرب إلى الأفغان والقتال. ولكنني كنت أعرف أيضاً أن أي أسئلة طرحها فيكرز عندما عاد إلى قاعدة باجرام الجوّية من شأنها أن تفسر على أنها حالات معزولة، ونادرة، ولا تمثّل ما يجري على الساحة الواسعة. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى المسؤولين المدنيين الزائرين الكثير من الرغبة لاستجواب الضباط العسكريين في الميدان.

كانت القضية التي لم نناقشها هي الإجراءات التي يجب أن تحدث قبل تقديم تصوّر العمليات. كانت في المقام الأول سلسلة طويلة من جلسات الإحاطة وتصنيف المعلومات الاستخباراتية التي كان يجب أن تمرّ خلال سلسلة من لوحات التقييم في المقر الرئيسي في باجرام وكابول، من أجل إثبات أن الأفغاني المعنيّ كان عضواً في التمرّد ويستحق الاستهداف قتلاً أو اعتقالاً. كانت العملية شاقة وشاملة، وتتطلّب مصادر عدة ذات جودة عالية لأنواع متعددة من المعلومات الاستخباراتية، قبل أن يتم وضع شخص على القائمة بأنه "مسموح" استهدافه. كان هذا أحد الأسباب التي جعلتني أنفر من واشنطن عندما كان الصحفيّون أو الأكاديميّون الجهَلة يزعمون أن قوات العمليات الخاصة تختار استهداف الأشخاص جزافاً أو بناء على معلومة فردية من منافس للقبيلة. كنت أتفق تماماً على ضرورة إجراء فحص منهجي لتقديم الدليل على أن الأفغاني المعني كان حقاً يدعم التمرّد، قبل استهدافه عمداً. ومع ذلك، مثل قضايا أخرى، خرجت العملية عن السيطرة مع مرور الوقت، وأصبحتِ الآن عملية جامدة وبيروقراطية تستنفد

قدراً هائلاً من موارد الموظفين للمحافظة عليها. وبالإضافة إلى ذلك، ولأن المتمرّدين الذين كنا نقترح متابعتهم كانوا يبقون على اللائحة لفترة محدودة فقط، فقد كانت العملية برمتها تتكرّر لكل منهم مرّات عدة في السنة، ومع أشكال متعددة من المعلومات الحديثة من أنواع متعددة من المصادر الاستخباراتية التي تبيّن أن الشخص المعني كان يقدّم الدعم لحركة طالبان. وكان هذا صعباً، وخاصة عندما كان معظم قادة طالبان من المستويات العليا يعبُرون الحدود إلى باكستان خلال فصل الشتاء لأجل الراحة وإعادة التجهّز. وبحلول فصل الربيع، عندما يعبُر هؤلاء القادة أنفسُهم مرة أخرى إلى أفغانستان لبدء موسم القتال، يكون كثير منهم قد سقط من قائمة الاستهداف بسبب قلة النشاط. وعلى الرغم من أن شرطة الحدود الأفغانية والمخبرين كانوا يبلغوننا أن قادة طالبان قد بدؤوا العودة، كان هناك القليل الذي يمكن فعله تجاه ذلك، باستثناء بدء عملية طرح أسماء المتمردين المستهدفين مرة أخرى.

لماذا كان يسمح لهذه العملية بالاستمرار؟ هل كانت قيادتنا العليا غير مطلعة على ذلك، أو كانوا ببساطة لا يرغبون في تغيير النظام؟ كانت الزيارة التي قام بها القائد العام للقوات الخاصة في أفغانستان توضح لماذا كان الجواب شحيحاً عن كِلا التساؤلين. عندما تطرّق إيجازنا إلى الجنرال حول التحديات التي كانت فِرَقي تواجهها في ولاياتها، قام ضابط العمليات لديّ، يورك المحنك الذي لا يخشى أبداً التعبير عن رأيه، بانتقاد الإجراءات المعمول بها؛ واحتجّ بشكل خاص على تضخمها منذ عام 2003، عندما كان هو والجنرال (الذي كان برتبة مقدم في ذلك الحين) يخدمان معاً. وقد فوجئ الجنرال؛ لقد كان قائداً جريئاً ذا شخصية آسرة، وأراد لنا أن نكون ناجحين. فأجاب أنه لم يرفض سوى عدد قليل من المهمات خلال الأشهر التسعة منذ أن تولّى القيادة.

أجاب يورك: "سيدي، كما أخبرْنا السيد فيكرز، فإن الواقع يشهد بأن المهمات نادراً ما يتم رفضها بشكل قاطع من قبل أي قائد على امتداد سلسلة الموافقات. المشكلة هي أنها تتعرّض بشدة للاستفسارات، وتتأخر حتى تصبح غير ذات صلة أو أهمية".

وأضفتُ أنا: "أو قد يوافق أحد القادة في سلسلة الموافقات على المهمة ولكن مع بعض القيود: **فقط إذا تمّ** توفير عتاد معين للحدّ من المخاطر. وكما تعلمون، عادة ما تكون تلك الأعتدة غير متوافرة. والمشكلة هي أنه لا يتمّ النظر سلبياً إلى أي قائد تسبّب في تأخير أو تأجيل مهمة. إن الأمن آخذ في التراجع في ولاياتي، ويحدث ذلك غالباً بسبب **تقاعسنا.** يجب أن تكون هناك بعض المساءلة عن ذلك. فبينما نتجنّب المسؤولية عن الخطأ، سنخسر هذه الحرب". كان بإمكاني أن أرى ملامح وجه مدير مكتب الجنرال وهي تتجهّم، وعلمتُ أنني كنت أتجاوز حدودي. طلب مني الجنرال إعطاء بعض الأمثلة على ما لم يُسمح لي أن أفعله بسبب القيود.

"سيدي، جزء كبير من هذا التراجع مردّه نقص في الموارد، العسكرية والمدنية، اللازمة لتنفيذ حملة مكافحة التمرّد بشكل كامل. ومع ذلك، يمكننا أداء عمل أفضل بالموارد المتوافرة. لدى المسؤول التقليدي عن ساحة المعركة سياسة تلزمه ألا يستخدم جنوده سوى المركبات المحصنة ضد الكمائن والمقاوِمة للألغام، الأمر الذي يحدّ بشكل فعّال من حركة الوحدات ويجعل وجودهم يقتصر على المساحات المسطحة المحيطة بمدينة خوست، ويمنعهم من الدخول إلى الجبال. حسناً. يمكنني التعامل مع ذلك، إذ إن تلك المناطق هي الأكثر سكاناً. المشكلة هي أن شبكة حقاني، بدعم المقاتلين الأجانب، وضعت سلسلة من معسكرات التدريب ومصانع العبوات الناسفة في الأودية والجبال المحيطة بخوست". (وجّهت مؤشر الليزر الذي في يدي نحو شريط على شكل هلال من الجبال المحيطة بخوست، تظهر على الخريطة التي بحجم الحائط). إنهم يستخدمون تلك المخيّمات في هذه المناطق النائية لشن هجمات عبر خوست وإلى داخل أفغانستان نحو غارديز وكابول. لقد تم مراراً وتكراراً رفض الإذن بالوصول إلى هناك ومهاجمتهم من قبل عناصري في مفرزة العمليات ألفا وشركائهم من المغاوير الأفغان".

سأل الجنرال إذا ما كانت وحدة المهمّة الخاصة التي تعمل بالقرب منّا نشيطة أو لا، وهل كانت مرجعيتها تتم خلال سلسلة منفصلة من الأوامر. أخبرتُه حول مهمة ناجحة

جداً قامت بها الوحدة في منطقتنا مؤخراً: "سيدي، كما تعلمون، ليس عليهم التسوّل للحصول على الموارد، وهم يلاحقون الأفراد ذوي القيمة العالية فقط، ويدخلون ويخرجون مباشرة ولا يبقون لتنفيذ حملة أمنية طويلة المدى في المنطقة، أو لدعم وحدات الجيش الأفغاني المشاركة كما نفعل نحن. على سبيل المثال، قامت الوحدة مؤخراً بضرب أحد معسكرات تدريب حقاني في مديرية قلندر عندما اتفق وجود شخص ذي قيمة عالية في تلك الليلة هناك. كان ذلك بارعاً؛ وصلوا إلى هدفهم ثم انسحبوا في حين كانوا ما يزالون يراقبون المخيّم في اليوم اللاحق باستخدام طائرة البريداتور. وعندما عادت مجموعة من مقاتلي حقاني إلى المخيّم ليروا ما حدث، شنّت فرقة العمليات الخاصة هجوماً مدفعياً واسع النطاق وقضت عليهم. الشيء العظيم، سيدي، هو أن شيوخ المنطقة كانوا في قمة السعادة. فقد كان حقاني قد وضع المعسكر في وسط غابة صنوبر، ولم يسمح للسكان المحليين بجني محاصيلهم ذات العائد النقدي الكبير. وعلى الرغم من أن الضربة المدفعية دمرت الكثير من أشجارهم، فقد جاء إلينا موكب من شيوخ قبيلة مانجال ليشكرونا على تخليص مناطقهم من حقاني. ونحن الآن في خضمّ تعويضهم عن الأضرار. ومنذ ذلك الحين وضعنا تصورات عدة لعمليات قوات المغاوير الأفغانية ليصلوا إلى تلك الجبال، وللقيام بدوريات وعمليات مسح طويلة الأمد لمواقع مخيّمات أخرى مشتبه في وجودها. لقد وردنا تقرير من قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية في تشابمان بأن هناك شاحنتين مملوءتين بالمقاتلين العرب شوهدتا تسيران في الوادي".

سأل الجنرال: "ما المشكلة؟".

أوضحت أننا لم نتمكّن من الحصول على الموافقة على تصوّر العمليات. وما وصل إلينا لا يرتقي إلى مستوى العملية، حيث كان علينا استخدام مروحيات ليلاً للوصول إلى هناك، وكان على الطلب أن يمرّ من خلال سلاسل موافقة مختلفة. كانت حكماً بالإعدام البطيء والمؤلم. أرادوا تقارير استخبارات أفضل، أو ذات جودة أعلى. وكانت المروحيات تخضع للصيانة. وكانوا يرون أنها مهمة ذات أولوية منخفضة؛ لأننا لم نكن نستهدف فرداً

ذا قيمة عالية. وظلّ الموظفون قلقين من عدم قدرتنا على إيصال فرَق الإخلاء الطبي إلى تلك المناطق الضيقة. وقلتُ: "لذا أحضرتُ جرّاح الكتيبة إلى هنا، وكدّست الإمدادات الطبية في مركبات جميع التضاريس كمحطة مساعدات صغيرة، لكن ذلك لم يكن كافياً".

وأضاف يورك: "تعيّن علينا في نهاية المطاف أن نحوّل موظفينا وأفراد مفرزة العمليات إلى أولويات أخرى".

انتهى الإيجاز والحوار باعتذارنا للجنرال عن اعتراضاتنا. إلا أننا شعرنا بأننا ندين له بأنه يُدرك مدى إحباطنا. فقلت له: "سيدي، بصراحة، من وجهة نظري أعتقد أنه قد لحقت بنا إصابات كثيرة في هذه الجولة. كنا نعلم أننا سنواجه معركة بملاحقتنا للمعسكرات التدريبية هذه في بعض التضاريس التي يصعب الوصول إليها. لا أحد يريد أن يقول ذلك، ولكن أعتقد أن قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة كانت قلقة من تحمّل مسؤولية الموافقة على مثل هذه المهمة. لكن المفارقة المحزنة هي أن عدم تعطيل تلك المعسكرات ومصانع العبوات الناسفة سوف يتسبّب بشكل غير مباشر في سقوط المزيد من الضحايا على المدى الطويل. فللتقاعس عواقب كذلك".

أجاب الجنرال: "حسناً، مايك. كما تعلم أنت تحديداً، ونظراً إلى خلفيتك، فإن أعداد الإصابات هي قضية حقيقية ساخنة. لن تصدق كَمَّ التساؤلات والتخمينات التي تتدفق من واشنطن عندما يقع حادث مثل معسكر كيتنغ". كان يشير إلى معسكر آخر صغير كان قد تمّ الاستيلاء عليه عام 2009. وأضاف "لكن مهمتي أن أتأكد من أن سياسة النفور من المخاطر هذه لا تتسلل إلى نفسك. دعني أنظر في هذه المسألة برمتها؛ لا أستطيع أن أعِدك بأنه بإمكاني تغيير نظام تصوّر العمليات، ولكنني في موقع يؤهلني لجعله معقولاً أكثر، ولو قليلاً". كنا نؤمن بأن الجنرال سيقوم بمحاولة صادقة. ومع ذلك، كنا نعرف أنه كلما سقط المزيد من الضحايا، أصبحت الأوامر الموجّهة أكثر تقييداً، وارتفعت المستويات التي يجب الوصول إليها للحصول على الموافقة بقيام المهام، وأصبحت التفاصيل التي يجب توافرها دقيقة ومفصّلة.

كان الحذر والقلق المفرط من النتائج الأخرى للاختلافات الجوهرية التي كنّا نتعامل معها في حروب اليوم. وحرب أفغانستان كانت أول حرب مطوّلة في تاريخ الولايات المتحدة تجري بقوة من المتطوّعين بدلاً من التعبئة الإلزامية. من وجهة نظري، انتُقِدَت التعبئة بشكل مفرط من قِبل المؤرخين بسبب وصمة العار في فيتنام. ولكن في بعض النواحي المهمة، قد تكون التعبئة هي النظام الأفضل، حيث يلتحق الجنود لأداء الخدمة لمدة محددة، وينتصرون في الصراع؛ ومن ثم يعودون إلى وطنهم لممارسة شؤون حياتهم المعتادة. كانت لديهم شركات عائلية، وفرص عمل، وسبل عيش كانوا تواقين للعودة إليها. كان هذا دافعاً هائلاً للقيام بكل ما هو ضروري لتحقيق النصر.

أما مع تأسيس قوة قوامها المتطوّعون، أصبح الجيش مصدراً للرزق، ولذلك أصبحت الحياة المهنية الناجحة هي الهدف الأسمى. وبدأ الجنود، وخاصة الضباط، بالتركيز على الخطوات اللازمة للحصول على ترقية في بيئة تنافسية بشكل لا يصدق. وفي الوقت الذي أنتج فيه النظام منتجات ذات جودة أعلى، فإنه أيضاً خلق بيئة حيث النجاح في المهنة أصبح هو الدافع المهيمن. وأصبح الانتشار في المهام الميدانية لمدة سنة واحدة (وإن كان مهمّاً) جزءاً من عشرين إلى ثلاثين سنة أخرى من الحياة المهنية الطويلة، التي تنطوي على تضحيات شخصية وعائلية كبيرة. وتغيّرت الحوافز بشكل طبيعي مع مرور الوقت؛ فالآن أصبح المرء يتجنّب القيام بأي عمل من شأنه أن يضر بالحياة الوظيفية بدلاً من القيام بكل المخاطر الممكنة لكسب الحرب. كان الحافز للقائد أن يقضي فترة الانتشار بأقل عدد ممكن من الإصابات وتجنّب الخضوع لتحقيق أو توبيخ على خطأ، مثل الإصابات في صفوف المدنيين. وكانت النتائج خسارة الإبداع، والتركيز على حماية القوات، والتشكيك المستمر من المقرّ الأعلى بالضباط ذوي الرتب الدنيا عندما يطلبون إسناداً عالي المخاطر، مثل المدفعية والإسناد الجوي القريب. لم يكن هذا اتهاماً شخصياً لدوافع سلك الضباط، بل هي عيوب أساسية في نظامنا العسكري الحالي القائم على المتطوّعين؛ كانت هذه العيوب تقوّض قدرتنا على تنفيذ استراتيجية مكافحة التمرّد التي،

في جوهرها، كانت تتطلّب انكشاف الجنود عـلى السـكان المحليـين والمخـاطرة، لتحقيـق النجاح.

لقد تراكمت كل هذه المتطلبات على مرّ السنين لأسباب تبدو وجيهة، بيـد أن الأثـر الباقي تمثّل في أن مغادرة القاعدة أصبحت حـدثاً بـدلاً مـن كونهـا روتينـاً يوميـاً. كانـت المتطلبات الخاصة بالسلامة وحماية القوة والمراجعة على مدار الساعة لقيادات متعددة أعلى قد أصبحت عائقاً أمام التفاعل مع السكان. وفي هذا الجـزء مـن العـالم حيـث العلاقـات والثقة مهمة من أجل أي نوع من التقدم، غـدت هـذه الحـواجز عبئـاً حقيقيـاً. في النهايـة تراجـع شـعور الأفغـان بالأمـان، وأصـبحوا أكثـر عرضـة لترهيـب طالبـان وضـغطها، واستمرت خسائرنا بالتراكم.

وبينما احتدم النقاش في واشنطن في خريف عام 2009 حول عدد القوات التي عـلى الرئيس أوباما أن "يزيدها" في أفغانستان، أصبحتُ على قناعة بأن القـوات الإضـافية لـن تساعد إلا إذا كنّا على استعداد لتحمّل مخاطر أكبر في المدى القصـير، والخروج من قواعدنا إلى القرى، وتمكين حتى القادة الأدنى رتبة الأقرب إلى الشـعب الأفغـاني مـن المشـاركة في صنع القرار.

الفصل الحادي عشر

دهم ليلي
نظام الاعتقال والإفراج

بحلول نوفمبر عام 2009، كان الوضع الأمني في غزني قد تدهور إلى درجة أن مفرزة العمليات ألفا-21 قد تحوّلت مهامها الرئيسية إلى القيام بشكل شبه حصري بعمليات دهم ضد قيادة طالبان. وكانت مجموعة القتال البولندية المسؤولة عن أنشطة الأمن وإعادة الإعمار الأوسع في الولاية قد قصرت نشاطها على تسيير دوريات في الطريق الدائري بجزئه الذي يمر عبر غزني لإبقائه مفتوحاً. وكان فريق إعادة الإعمار المحلي وفريق التنمية الزراعية يتعرضان للهجوم دائماً في كل مرّة يحاولان فيها دخول قرية لتنفيذ مشروع تنموي. وظلّت أحياء بأكملها في مدينة غزني تعتبر مناطق محظورة على الشرطة الوطنية الأفغانية. وكانت هناك الكثير من المديريات، بما في ذلك أندار، حيث قُتل براين وودز، ومديرية قره باغ في النصف الجنوبي من الولاية، تحت السيطرة التامة لتنظيم طالبان، مع عدم تمركز أي وحدات من قوات التحالف أو الجيش الوطني الأفغاني هناك. في الواقع عاش حاكم مديرية قره باغ في الأمان النسبي الذي تتمتّع به مدينة غزني. ولأن المنطقة كانت في تلك الحالة السيئة، غادرتُ خوست مرة أخرى بالطائرة مع مفرزة العمليات ألفا-23، وفصيل من مغاوير الجيش الوطني الأفغاني، وجماعة صغيرة من مقر مفرزة العمليات برافو التابعة لي.

كنتُ، أنا وجرانت قائد فريق مفرزة العمليات ألفا-21، محبطَين من عدم قدرتنا على بذل المزيد من الجهد لنفهم بشكل أفضل الديناميات السياسية والقبلية التي كانت تغذّي التمرد في غزني. لقد ناضلنا من أجل وضع استراتيجية لتغيير هذا الوضع بمفرزة عمليات ألفا وشركائها المتاحين من الجيش الوطني الأفغاني للقيام بعمليات هجومية. كنّا

على يقين من أن جزءاً من أسباب تدهور المنطقة يعود إلى تدافع كبار قادة طالبان والقادة التابعين لزعيم الحزب الإسلامي قلب الدين حكمتيار نحو المنطقة، حيث شعروا بوجود فرصة سانحة لهم نظراً إلى الأعداد الصغيرة نسبياً من قوات التحالف والقوات الأفغانية في الولاية. وكنا مصمّمين على ممارسة الضغط على هؤلاء القادة الكبار والسكان المحليين الذي قاموا بتجنيدهم من خلال تنفيذ أكبر قدر ممكن من عمليات الدهم. كنا نعرف أننا بهذا النهج نخاطر بتنفير السكان، لكننا كنّا نعلم أيضاً أن ترك هؤلاء القادة في المكان ليقوموا بإقناع القبائل أو ترهيبها لكي تعمل لمصلحتهم، كان يشكل خطراً أكبر.

كان قادة مثل الملا سادن، زعيم حركة طالبان في مديرية قره باغ، هم مَنْ كنا نسعى إلى القضاء عليهم. فإذا لم نتمكّن من قتل سادن أو إلقاء القبض عليه، فإننا على الأقل سنجعله يخشى العودة إلى منزله حتى إنه سيبقى في باكستان طوال فصل الشتاء. كان أسلافنا في مفرزة العمليات ألفا-21 قد ألقوا القبض على سادن، واحتجزوه في قاعدة باجرام الجوية لمدة سنة تقريباً، وأطلقوا سراحه مؤخراً باعتباره يشكل "تهديداً من الحد الأدنى". لم يكن لدينا أي فكرة عن كيفية اتخاذ ذلك القرار، ولم تتم استشارة الفريق بشأن الآثار المحتملة للإفراج عنه في ولاية غزني. في الواقع، كان جرانت وفريقه قد تلقّوا سلسلة من التقارير التي تفيد بأن سادن كان يخطب في المساجد المحلية في جميع أنحاء مديرية قره باغ، ويقول إن الجيشين الأمريكي والأفغاني لم يتمكنا من المساس به، وإن أي شخص يتعاون معنا هو عدوٌ للإسلام. كان نظام الاعتقال والإفراج الذي تطوّر خلال الحرب سبباً رئيسياً آخر من أسباب تدهور الوضع في غزني. كان سادن واحداً من بين عدد كبير من قادة المتمرّدين الذين تم القبض عليهم من الولاية، وكانوا الآن قد عاد كل واحد منهم إلى مسقط رأسه. وكانت المقار الأمريكية في باجرام ببساطة صغيرة جداً ولا يمكنها استيعاب احتجاز قادة طالبان بشكل دائم، وخاصةً مع زيادة التمرّد وأعداد الأسرى الذين تحتجزهم قوات التحالف. إن من المؤكد أن الوضع برمّته جعلنا نشعر كما لو كنا نضيع وقتنا وجهدنا، وغالباً ما كان يجعل معنوياتنا منخفضة. وكان بصيص الأمل الوحيد هو أن عدداً صغيراً من قادة

المستوى المتوسط للمتمرّدين كانوا قد حاولوا مؤخراً أن يتوصّلوا إلى هدنة مع قوات التحالف، بعد أن جعلتهم العمليات الهجومية يئنون تحت ضغط شديد. كنا نأمل أن يكون لسلسلة عمليات الدهم التي خططت مفرزة العمليات ألفا-21 لتنفيذها ضد سادن ورجاله، التأثير فيهم بإرغامهم على الجلوس إلى طاولة المفاوضات.

بعد أسابيع عدة من العمل لإعادة سادن مرة أخرى إلى قائمة الأهداف من خلال إثبات أنه عاد إلى السلوك السيئ، قدّمت مفرزة العمليات ألفا-21 تصوّر عمليات من أجل تنفيذ مهمة لقتله أو إلقاء القبض عليه في أحد منازله في قره باغ. أبلغنا المصدر الرئيسي للفريق الذي كان أيضاً جاراً لسادن، أنه كان في منزله يستعد للمغادرة إلى باكستان لقضاء فصل الشتاء. ومن خلال عملية تدقيق قمنا بها عرفنا أن جار سادن كان يتصرف بدافع من ثأرٍ عائلي بسبب أرض متنازع عليها. لكننا عرفنا أيضاً من مصادر أخرى أن سادن قتل مؤخراً رجل شرطة بإطلاق النار عليه أمام أهل قريته. كما قام بشكل منتظم بتسهيل عمليات تهريب شحنات من المتفجرات والأسلحة القادمة من باكستان. نحن الآن ببساطة نحتاج إلى ضوءٍ أخضر من شتى القيادة العليا ومن دون تأخير من أجل أن نقبض عليه قبل أن يغادر.

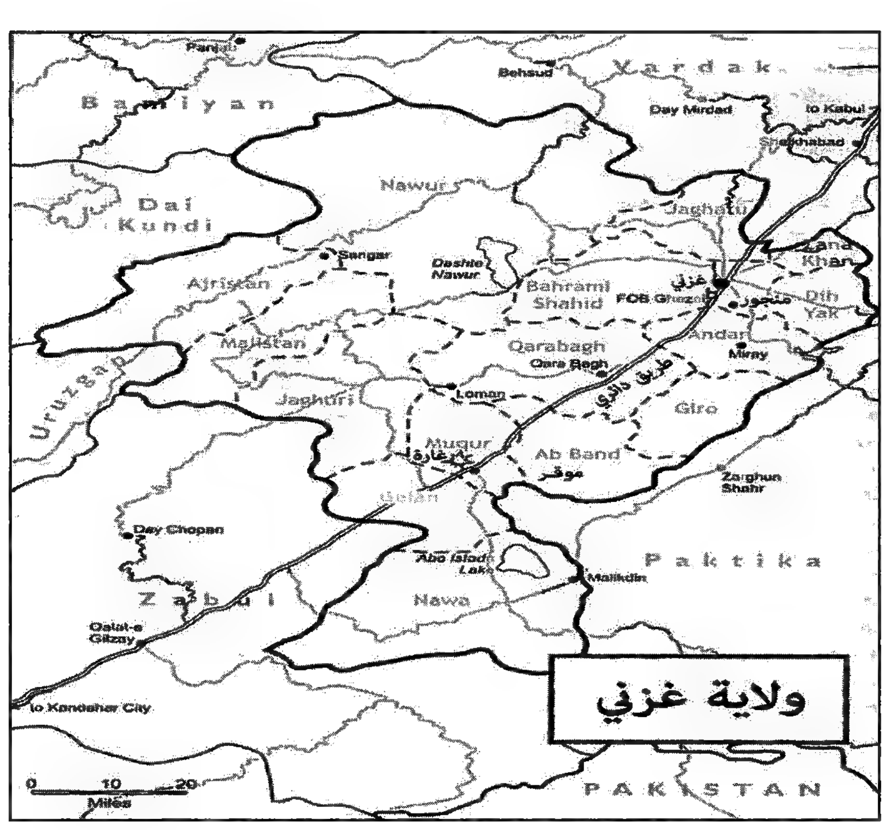
وبينما كنا ننتظر الحصول على الموافقة التامة على مخطط العملية، اعتقدت مفرزة العمليات ألفا أنهم فقدوا سادن مرة أخرى عندما اتصل المصدر وقال إنه غادر منزله. ولم يعرف المصدر إذا ما كان سادن ذهب فقط لقضاء الليل في مكان آخر أو أنه غادر لقضاء فصل الشتاء بكامله.

أخبرت جرانت بأن يترك تصوّر العملية الخاص بالمهمة يمضي في سلسلة الإجراءات المختلفة للحصول على الموافقة. لم أكن أريد أن أبدأ الإجراءات من جديد إذا حدث وعاد سادن إلى منزله. ورداً على ذلك قال جرانت: "إن قوة مهام العمليات الخاصة

المشتركة المجمّعة ستغضب إذا ما استغرق الأمر أسبوعاً لإبلاغ إيساف، وأرسلوا لنا بعد ذلك مروحيات ولم نقم بتنفيذ المهمة".

"أعرف ذلك. تحدّثْ إلى عناصرك الاستخباراتيين حول إذا ما كان الأمر يستحق دهم منزله بأي حال، وربما الوصول إلى مخبأ أسلحته التي يفترض أنه يمتلكها. على الأقل سيخشى المجيء إلى منزله في الليل. لا يمكننا القيام بشيء آخر أكثر من ذلك".

خريطة (13)، ولاية غزني



وبينما نحن ننتظر الموافقة على تصوّر العملية، قدّمت مفارز العمليات ألفا تعليماتها الداخلية الأساسية الخاصة بالمهمة، ثم جلستُ مع شركائها من القوات الأفغانية لمناقشة

المهمة. وجرت مناقشة كل التفاصيل: الترتيب الدقيق لصعودهم ونزولهم من المروحية، ومكان هبوط المروحية؛ ومكان وجود المترجمين، وتحديد عناصر المغاوير أو الشرطة الذين سيشاركون ومع أي مشغل عمليات بشكل دقيق، ومن سيحمل المعدات، وتحديد تلك المعدات؛ وكيف سيعملون على تقليل الخسائر في صفوف المدنيين، وكيف سيردون إذا حدث خطأٌ ما.

كانت طريقة دخول مجمّعات الأفغان التي تشبه القلاع تسبّب دائماً بعض الجدل. فكثير من إخوتنا التقليديين وحتى نخبة وحدات المهام الخاصة كانوا ينفّذون ما سمّوه "نداءات الاستسلام"؛ حيث كانوا يحاصرون المجمّع، ثم يعلنون من خلال مترجم لقائد طالبان المشتبه بوجوده في الداخل أنه ورجاله محاطون، ويأمرونهم بالخروج. كانت هذه الوسيلة تستخدم كمحاولة للحد من الخسائر المحتملة في صفوف المدنيين في أثناء تنفيذ الدخول القسري إلى المجمّع. ولم أكن، ولم يكن رفاقي، من مشجعي "نداء الاستسلام". وخلافاً لعمليات الدهم التي نفّذتها وحدات المهام الخاصة، كانت مفارز العمليات ألفا التابعة لي تزيد قليلاً على ستة عناصر أمريكيين ملحقين بعشرات من قوات الجيش الأفغاني أو الشرطة في المهمات، وكان التنسيق المطلوب لـ"نداء الاستسلام" يشكّل تحدياً كبيراً. كنت أفضّل الدخول بصمت، حيث كنّا نحمل سلالم قابلة للطي إلى الهدف ونستخدمها لإدخال عنصر متسلّل من فوق الجدار الخارجي للمجمّع لكي يقوم من الداخل بفتح البوابة المعدنية الموجودة على الجدران الخارجية لمعظم المجمّعات. وعادةً ما كان يقوم عنصر أو اثنان من المشغّلين بالوقوف على سلالم منفصلة، لمراقبة الحركة داخل المجمع بينما يتسلّل الجميع خلسةً إلى الداخل. لم يكن هناك شيء في العالم يضاهي النقر على جبين أحد قادة طالبان بفوهة بندقيتك وجعله يستيقظ مصدوماً بمجموعة من الجنود الأمريكيين والأفغان الذين يرتدون نظارات الرؤية الليلية ويقفون فوق رأسه. لقد أحببت إرسال الرسالة بأننا نستطيع الوقوف فعلياً عند أسرة نومهم من دون أن يعرفوا ذلك. كما أحببت ذلك الأسلوب الذي لا يثير انتباه بقية سكان القرية في حال دخولنا إلى المجمّع غير الصحيح، أو إذا كان هناك عناصر آخرون من طالبان في الجوار. كما أحب هذا الأسلوب

جنودُ الجيش الأفغاني أيضاً؛ لأنه لم يكن مزعجاً في الهجوم كنسف الأبواب بالمتفجرات واقتحام المنازل من دون استئذان. أيضاً كان الدخول الصامت خطيراً للغاية، ولكن تقتصر خطورته على بضعة رجال فقط يتسلّقون السلالم في بداية الدهم، ولاسيما الشخص الذي يقفز إلى الداخل، وعليه كانت هناك أوقات اضطررنا فيها إلى وضع عبوة متفجرات صغيرة على الباب لكي نضمن فتح البوابة، وإصابة كل مَن في الداخل بالصدمة لوقت يكفينا للوصول إليهم.

وابتداءً من صيف عام 2009، بدأنا نتلقّى بلاغات منتظمة بأن عناصر طالبان كانوا يفخّخون مداخل مجمّعاتهم في الليل بألغام مضادة للأفراد وأسلاك تفجير. وكان من الواضح أنها تكتيكات قادمة من العراق. كنت مع مفرزة العمليات ألفا-21 في غزني عندما ورد بلاغ بأن حارساً متجولاً قد داس على لوحة ضغط لعبوة ناسفة موجودة تماماً داخل باب مجمّع يشغله عناصر طالبان في قندهار. وقد أثار هذا الخبر شجون أعضاء الفريق، لأنهم كانوا في وقت سابق من ذلك العام قد دخلوا إلى منزل مجهّز لينفجر في أثناء البحث عن الجندي الأمريكي المفقود باو بيرغدال. فبعد تلقّي بلاغ بأنه قد يكون محتجزاً في بلدة على الحدود مع ولاية بكتيكا حيث فُقد أثره، تلقى الفريق أمراً بمهاجمة المجمع وتفتيشه. وبعد أن وجدوا المنزل فارغاً، اكتشفوا سيارة كانت مركونة في الفناء وصندوقها مملوء بالمتفجرات إلى جانب غرف عدة مفخّخة بقوالب من مادة سي فور C4 المتفجّرة مجهزة لنسف سقف المنزل بأكمله. كان من الواضح أن عناصر طالبان قد استخدموا بيرغدال كطعم لإيقاعنا في فخ، وقد حمَدنا الله على فضله لأن المنزل، ولسبب ما، لم ينفجر.

قال روب، مهندس الفريق، بينما كان يقرأ تقريراً عن الأبواب المفخّخة "أولئك الأوغاد؛ أعتقد أننا سنضطر إلى الشروع في الدخول عبر الجدران وليس عبر الأبواب!". وكان الرقباء المهندسون في القوات الخاصة بارعين ببناء المدارس قدر براعتهم في تفجير الجسور وراء خطوط العدو، مع أن معظمهم كان يفضل العمل الأخير. كان روب متين الجسم وطويل القامة، وكان مظهره يشبه راكبي الأمواج؛ عادةً ما كان يصيح: "أوقاتاً طيبة!"، بينما يرفع إبهامه للأعلى. وبغض النظر عن الوضع، سواء أتقطعت به السبل في

عاصفة ثلجية أم كان يطلق صاروخاً من فوق مركبة محصّنة ضد الكمائن والألغام خلال كمين، فإن روب يردّ بعبارة "أوقاتاً طيبة!". بعد يوم رأيته يخرج من ورشته في قاعدتهم ومعه لوح من الخشب المضغوط، وهو محاط بمتفجرات مصنوعة من مادة سي فور المتفجّرة. كان قد صنعها ليطويها إلى نصفين بحيث يمكن حملها إلى الهدف، ولصقها على الجدار الطيني السميك المحيط بمجمع ما، وتفجيرها لتصنع فتحة بحجم رجل في الجدار السميك. قال "هذا بالتأكيد سيكون طيباً!". ابتسم وهو يسير إلى الثكنات الأفغانية ليريهم هذه الأداة الغربية الجديدة.

وحال إعداد خطتنا الأولية للسعي وراء سادن، جلسَت جميع فرقنا مع شركائنا من القوات الأفغانية، وكشفنا عن معلومات استخباراتية بالقدر المسموح لنا كشفه، وبحثنا أفضل السبل لتنفيذ هذه المهمة. وكان لكل قائد أفغاني رأي مختلف حول طريقة تنفيذ هذه المهمة. كان بعضهم راضياً بالموافقة فقط؛ وبذل قادة فريقي قصارى جهودهم لإجبار الأفغان على المشاركة في عملية التخطيط، ولكن في معظم الأيام كانت تلك مهمة شاقة. كان شركاؤنا من القادة الأفغان الأكثر خبرة يصرون بشدة على تفاصيل الإجراءات التي يجب أن يتخذها رجالهم. وفي المقابل، كان هناك قائد واحد تحديداً يتبع أسلوب عدم التدخل على الإطلاق في موضوع التخطيط. وقد علمنا لاحقاً أن سلفه قد تم تجريده من رتبته بعد أن أطلق رجاله النار بطريق الخطأ على اثنين من الصبية الصغار لدى اقترابهم بسيارة عائلتهم من إحدى نقاط التفتيش. كان قائد السرية يتعمّد عدم المشاركة في التخطيط للمهمة بحيث كان يتبع مبدأ الإنكار المقبول ليتمكّن من إلقاء اللوم على الأمريكيين في حال حدوث خطأ ما.

في وقت متأخر من بعد الظهر، أعلن ضابط العمليات من فريق عمليات القوات الخاصة في قيادتنا العليا في قاعدة باجرام الخبر السارّ بأنه قام أخيراً بمتابعة تصوّر العملية خلال سيره في إجراءات الموافقة. وقال لنا بفخر إنه استطاع أن يحصل لكلا الفريقين على طائرات للعمليات الخاصة مخصصة لتنفيذ هذه المهمة، وهي مروحيات من طراز شينوك مجهزة تجهيزاً خاصاً يقودها طيارون من النخبة يمكنهم إنزالنا على سطح المكان المستهدف في الليل.

قال له جرانت: "سيدي، نعتقد أن سادن غادر منزله قبل ليلتين".

انفجر ضابط العمليات بالرد قائلاً: "اللعنة يا رفاق، أوجدوا شيئاً أفضل نفعله بتلك المروحيات. لقد أقمنا الدنيا وأقعدناها لنحصل لكم عليها. إذا تركناها تذهب من دون أن نستخدمها، فإننا لن نحصل عليها مرّة أخرى".

وبضربة حظ اتصل جار سادن لاحقاً في اليوم نفسه؛ على ما يبدو أن سادن عاد لتوّه إلى قريته لقضاء ليلة قبل أن يغادر إلى باكستان. تمّت الموافقة على المهمة، ودعونا الله أن يبقى الطقس جيداً وألا تتعطّل المروحيات.

بالرغم من الصعوبات البيروقراطية التي كانت تعترض عملية استهداف أحد قادة المتمرّدين، ولكن شيئاً في داخلي، شعر بالسعادة حينما تمّ تفويضنا بالانطلاق. وبغضّ النظر عن عدد المرّات التي قمت فيها بذلك، لم يكن هناك شيء في العالم يضاهي تلك الدفقة الصغيرة من الأدرينالين التي شعرت بها عندما صعدت إلى المروحية السوداء في جوف الليل. لم يكن في مروحيات العمليات الخاصة مقاعد، ومن ثم كان بإمكاننا حشر عدد أكبر من الأشخاص فيها. جلسنا جميعاً على أرضية الطائرة مثبّتين إلى حلقات معدنية صغيرة على صف واحد يمتد من قمرة القيادة حتى منصة الخروج الخلفية للطائرة. وكان أزيز محركاتها مرتفعاً بشكل لا يصدق، لذلك كان الجميع يتكلم صياحاً من أجل التواصل مع رماة الرشاشات الموجودين على الأبواب، والذين أوعزوا إلينا أين نجلس، وأين نضع معداتنا الإضافية. وبصفتي قائد القوة البرية، نزعت خوذتي ووضعت سماعة الرأس التي سمحت لي بأن أتحدث إلى الطيارين. وقد استمعت إلى حديثهم عبر اللاسلكي وتنسيقهم مع المروحية الخلفية. والأهم من ذلك أنهم أعطوني عدّاً تنازلياً دورياً للزمن المتبقي لنا قبل الهبوط على هدفنا، وقد مررتُه إلى الرجال عن طريق إشارة اليد.

كانت مروحية إم إتش-47 شينوك مجهزة للعمليات الخاصة، تماماً كالتي كنّا فيها، قد سقطت قبل بضعة أسابيع في غرب أفغانستان، ما أسفر عن مقتل سبعة جنود وثلاثة

عناصر من إدارة إنفاذ القوانين الخاصة بمكافحة المخدرات. وقد فكّرت بهم عندما تحرّكت طائرتنا الهليكوبتر على علوّ منخفض فوق مجموعات متناثرة من القرى الأفغانية، ثم قفزت أفكاري نحو عائلتي، كما يحدث دائماً قبل أي مهمة. لم أكن في الحقيقة أخشى الموت، لكني كنت مرعوباً من فكرة أن عائلتي ستضطر إلى التعامل معه. وبصفة عامة، فإن المنطق الذي كنت أفكر فيه هو أنني "إذا متّ، فإنني ميت وانتهى الأمر". ولكن زوجتي ستكون أمّاً عزباء لبقية حياتها؛ وابنتي ستكبر من دون أب، ووالدتي ستفقد ابنها الوحيد. وحتماً، في كل مرة كانت تبدأ فيها هذه السلسلة من الأفكار، كنت أُخرج نفسي منها وأذكّر نفسي بأنني مسؤول عن هؤلاء الرجال، وينبغي لي التركيز في مهماتي.

كنت أستطيع الرؤية من خلال الزجاج الأخضر لنظارة الرؤية الليلية؛ بعض الرجال كانوا نائمين وبعضهم كانوا يعبثون بمعداتهم متململين؛ ومعظمهم كان يحدّق إلى خارج المنصة الخلفية المفتوحة للمروحية يراقبون خطوط المنظر الطبيعي وهي تختفي في أثناء الطيران. كان كل شيء مظلماً باستثناء الانعكاس الخافت لضوء القمر على الصحراء الصخرية.

وأعلن الطيار قائلاً: "دقيقة واحدة!"، فقمت بتفقّد جهازي الخاص بالنظام العالمي لتحديد المواقع للمرة الأخيرة لكي أتأكد من أن المروحية تتّجه إلى المكان الصحيح. (لقد كانوا دائماً ينزلوننا ووجهنا معاكس للمكان الذي تم تحديده). كان يتعيّن عليَّ حمل الجهاز الخاص بالنظام العالمي لتحديد المواقع وأمدّ بيدي في الهواء الشديد البرودة خارج فتحة رامي الرشاش الموجود على الباب محاولاً التقاط إشارة.

وعند نداء "الثلاثين ثانية"، قام الجميع بفك الحلقات التي تربطهم بأرضية الطائرة وحاولوا بشكل مترابط النهوض على ركبة واحدة وهم يحملون جميع معداتهم، بينما كانت الطائرة تتمايل في الجو من اهتزازات محاولتها الهبوط. كنت في نهاية مؤخر الشينوك، مقابل رقيب الفريق، بوبي، وجرانت، بحيث نستطيع أن نكون أول النازلين عند هبوط الطائرة.

حال شعوري بأن المروحية تبطئ سرعتها وتخفض مؤخرتها على الأرض ثار الغبار البني اللون ونفذ إلى المدخل الخلفي المفتوح. وعندما حطّت المروحية بقوة، شعرت كما لو أن قوة جبارة صفعت الطائرة لترتطم بالأرض. لقد دفعتني صدمة الهبوط بقوة للأعلى وصولاً إلى السقف، وشعرت بصوت انسحاق في عنقي، وسقطتُ على ركبتي اليمنى. أحسست بألم في ساقي وأنا أنهض بسرعة وأمد رأسي نحو منصة الخروج الخلفية للطائرة. وفي الجزء من الثانية الذي بقيت فيه هناك، سمعتُ إطلاق نيران كثيفة من أسلحة أوتوماتيكية في مكانٍ ما بعيد.

لقد ارتطمنا بالأرض بقوة كبيرة إلى درجة أنني كنت مقتنعاً بأننا سقطنا وتحطمنا. وكنت موقناً بأن شخصاً ما خلفي كان ميتاً. وسرى ألمٌ مبرح في ركبتي اليمنى. جاءني صوت صياح من ورائي: "انطلق! انطلق! انطلق! اخرج من الطائرة!". أمسك شخص ما بدرعي الواقية، وأنهضني، ودفع بي خارجاً على منصة الخروج الخلفية للطائرة. فركضت متحمّساً بفعل دفق الأدرينالين في جسمي إلى أسفل المنصة المنحدرة بأسرع ما يمكن للابتعاد عن شفرات المروحية، وخطوت خطوات أخرى، وفجأةً شعرت بأنني أسقط سقوطاً حراً. وبعد ثانية لمست قدمايَ الأرض بقوة، وسقطت وارتطم وجهي بالتراب في حين ما تزال نظارة الرؤية الليلية مثبّتة على عيني اليمنى. لقد سقطت في فم بئر، على حافة ناتئة محفورة في الجانب. لحسن الحظ كانت الفتحة صغيرة نسبياً وكنتُ قد تمكنت بطريقةٍ ما من القفز فوقها بخطوة واسعة تماماً، إلى الحافة الناتئة الموجودة على بُعد أربع أقدام تقريباً تحت سطح الأرض. كل ما سمعته من ورائي كان: "لا تتبع الرائد! التفّ حول الرائد!".

خلال فترة خدمتي السابقة انتابني خوف من الوقوع في إحدى هذه الآبار التي تشبه الأنفاق المعروفة باسم "كاريز"، وهي تتألف من صف واحد من الفتحات، يصل عمقها في كثير من الأحيان إلى مئات الأقدام وتصل إلى طبقة من المياه الجوفية. كانت تلك الفتحات جزءاً من نظام ري قديم، يميّز المناظر الطبيعية في جميع أنحاء أفغانستان بتلك

الفتحات المتعددة المتناثرة هنا وهناك، وبالطبع لم تكن هناك أي علامات ظاهرة للدلالة على وجودها.

لقد ارتعشت وأنا ألتفت بنظري إلى الخلف وأرى الهاوية السوداء. كما شعرت بحرج أكبر عندما مد رقيب اتصالات الفريق، توني، يده ليسحبني. وعندما خرجت مما كان يمكن أن يكون قبراً، ارتسمت ابتسامة عريضةٌ على وجهه. فقلت: "اخرس، وشكراً لك".

تحركت المجموعة إلى الأمام عبر زوبعة الغبار الكثيف التي أثارتها مراوح الطائرة وهي تغادر. وأوعز بوبي للجميع بالتوقّف حتى نتمكّن من رؤية المروحية الثانية قادمة. لم نكن نريد أن يقوم الطيار بإلغاء عملية الهبوط بسبب وجودنا في طريقه، أو أن يحدث ما هو أسوأ، فيهبط على رأس أحدنا. رصدنا طائرة الهليكوبتر الأخرى إلى جنوبنا، تماماً في المكان المفترض أن تكون فيه، لذلك أوعز لنا بوبي بالتحرّك شمالاً إلى طريق ترابي من شأنه أن يوصلنا إلى القرية.

عندما نظرتُ إلى الخلف رأيت معظم عناصر شركائنا من الشرطة الأفغانية ما يزالون يشكلون دائرة، وكل منهم جاثٍ على ركبة واحدة يقومون بالحراسة وتأمين الموقع. وصاح بهم كل من رقيب الفريق وقائد الفريق لكي يتحرّكوا، ورأيت أحد رجالنا ينحني ويمسك بأحد رجال الشرطة ويدفعه بعنف باتجاهنا. في نهاية المطاف شكّلنا جميعاً رتلاً واحداً ونحن نهرول نحو المجمّع المستهدف أمامنا. وقام الموجّه الجوي التكتيكي المشترك، زيكي، بالإيعاز إلى المروحية الحربية من طراز AC-130 التي تحلّق في الأجواء، بأن "تنير" الهدف. وبعد ثوانٍ سُلّط ضوء هائل من الأشعة ما تحت الحمراء مشكّلاً بقعة ضوء على المجمّع، كما سطع مؤشر ليزري أكثر إشراقاً على باب المجمّع الذي كنا نعتزم دخوله.

بعد دقائق من التحرّك بدأت أتنفّس بصعوبة. فقد كنّا على ارتفاع 7,500 قدم نحمل عتاداً "خفيف الوزن" يصل وزنه إلى 50 رطلاً. لاح المجمّع في الأفق بجدرانه

الطينية التي ترتفع اثنتي عشرة قدماً وأبراجه التي تشبه القلاع. وبينما كنّا نهرول مباشرةً نحو وميض ضوء الأشعة الليزرية ما تحت الحمراء، وجدت نفسي أحدّق في أعالي جدران المجمّع ونوافذه، بانتظار رؤية بريق نيران بندقية كلاشنكوف أو سماع صوت قذيفة صاروخية قادمة باتجاهنا. كان جميع عناصر القوات الأمريكية يراقبون باستمرار في كل الاتجاهات بواسطة الأشعة الليزرية ما تحت الحمراء ذات اللون الأخضر المركّبة على بنادقهم.

وفي لحظة اقترابنا من المجمّع، بحسب الخطة، انقسمت مجموعتان تضم كل منهما ستة أفراد من الجنود الأمريكيين ومن الشرطة الوطنية الأفغانية لتأمين الجانبين المتقابلين للمبنى. وكان لهم هدفان: منع أي أحد من الهرب؛ ومنع أي شخص من تقديم الدعم من المجمّعات المجاورة. وفي الوقت نفسه ركض ثلاثة عناصر إلى الباب المعدني، حيث قام واحد منهم بتوجيه سلاحه إلى الباب، بينما قام الآخران بمد طرفي الشحنة المتفجّرة الجدارية المدعومة بالخشب الرقائقي التي أعدها روب.

كنت في نهاية رتل عناصر الهجوم الرئيسيين لهذه المهمة، بحيث أستطيع الوصول إلى سطح المبنى بسرعة، والاتصال مع مقر قيادتنا في حال احتجنا إلى تعزيزات إضافية. وكان من شأن ذلك أيضاً أن يسمح لكل من جرانت وبوبي بالتركيز على إدارة عمل الفريق والشرطة الوطنية الأفغانية. كما أردت أن أتخذ موقعاً وأستمع إلى الاتصالات الجارية عبر جهاز اللاسلكي فيما يخص مفرزة العمليات ألفا-23 وشركائهم من المغاوير الأفغان، الذين كانوا يقومون باقتحام مجمّع آخر في قرية مجاورة، كان يعتبر من المخابئ الأخرى للملا سادن. وكان جرانت في خط الهجوم الأول مع عناصر الهجوم، بينما تولى بوبي قيادة عناصر الأمن.

تجمّعنا في رتل خلف الزاوية القريبة من قسم الجدار الذي كان يعتزم روب تفجيره لتجنّب أي شظايا ترتد من انفجار الشحنة. ومع أمر الهدوء الذي وجّهه مترجمنا باللغة "الدارية" المكسرة، تأكد عناصر الفريق من أن عناصر الشرطة المهاجمين كانوا مقابل

الجدار وبعيدين عن مكان التفجير. واتصل روب مع جرانت قائلاً له إن الشحنة جاهزة للتفجير.

ثم بدأ جرانت العدّ التنازلي للتفجير: "عند إشارتي، 3، 2، 1"؛ ثم دوّى صوت الانفجار! وتطاير الغبار والحطام في كل مكان، وارتج أفراد الشرطة من صدمة الانفجار. حبستُ أنفاسي، وقلت في نفسي "يا إلهي، يا روب". "انفجار أكبر من اللازم؟"، وهرع عناصر الشرطة الوطنية الأفغانية للدخول إلى المجمّع بشكل مرتبك عبر الفتحة التي تشكّلت بحجم باب في الجدار. ولحقنا بهم على الفور، وعلت صرخات متنافرة وبلبلة داخل المجمّع باللغات الإنجليزية، والدارية، والبشتونية: "انبطحوا!" و"أيديكم للأعلى، أيديكم للأعلى، أيديكم للأعلى!".

كانت أماكن المعيشة منتظمة في صف طويل على شكل حرف L مقابل المكان الخارجي من الجدار إلى يميننا. ولحقتُ الشرطة إلى الغرفة الثانية وركضت بسرعة إلى طريق مسدود. وقفز قلبي من مكانه خوفاً عندما لوّح شرطي أفغاني ببندقيته الكلاشنكوف في وجهي وهو يحاول التراجع خارجاً من الغرفة الصغيرة. وعندما غادرْنا المكان كسرتُ واحدة من العصي المضيئة بالأخضر كانت تتدلى معلّقة في عتادي ورميتها على مدخل الباب كعلامة على أن الغرفة قد تم تفتيشها. وعندما تراجعنا خارجين من الغرفة، ندوس على بطانيات وأكياس من البصل، كنت أرى الشرطة وهي تقوم بكل لطف بتجميع العديد من النساء والأطفال الصغار إلى غرفة مجاورة. وكانت النساء ينتحبن في أثناء انتقالهن من غرفة إلى أخرى.

تقدم عناصر الشرطة وأفراد الفريق لمسافة أبعد على طول المبنى الطويل، يرافقون رجالاً من مختلف الغرف وهم مكبلون بالأصفاد البلاستيكية المعروفة باسم الأصفاد المرنة، ويأمرونهم كي يجلسوا القرفصاء ووجوههم إلى الجدار. وأخيراً وجدت ما كنت

أبحث عنه: إنه الدَّرج المؤدي إلى السطح. وقفزت صاعداً الدَّرج الضيق، وهو ضيق جداً بحيث احتكّ كتفي والعتاد بالجدران من الجانبين، واتخذت وضعية الرامي جاثياً على السطح وأنا أواجه بقية القرية. وكان زيكي خلفي مباشرةً، يتحدث إلى المروحية الحربية عبر جهاز اللاسلكي وهو يصعد الدَّرج. وأبلغني أن المروحية الحربية قد رصدت شخصاً "هارباً" يركض من المجمّع. على ما يبدو أنه كان يختبئ في خندق على بعد مئات من الأمتار. وكان معه شيء في يديه، ولكن طاقم المروحية لم يستطع التثبت من أن ذلك الشيء كان سلاحاً، ولذلك لم يرغبوا في مهاجمته.

أبلغت جرانت عبر أجهزتنا اللاسلكية الداخلية، وبدلاً من الجدل العقيم مع الطيار الكتوم، أوعز جرانت إلى بوبي لإرسال جزء من القوة الأمنية باتجاه الخندق للتحقّق من الأمر. وبعد بضع دقائق بدأ ثلاثة من عناصرنا يتبعهم ستة من رجال الشرطة بشق طريقهم نحو خط من الأشجار والشجيرات الصغيرة على طول مجرى قناة ري. طلب زيكي من المروحية الحربية إنارة المكان، ومرة أخرى سطعت بقعة ضوء على المكان، تنير المنطقة بأكملها بضوء كضوء الشمس أخضر اللون. ولمع مؤشر الضوء الذي يشبه شعاع الليزر على البقعة، حيث أمكن للمروحية الحربية أن ترى الرجل المختبئ في الخندق. وعندما نظرت بالعين المجردة في الظلام الحالك، ذكّرت نفسي بالقول المأثور "نحن نملك الليل" حقاً. لم يكن لدى الرجل فكرة بأننا قادمون إليه. شاهدت رجالنا يعبرون حقلاً وأشعة الليزر الخضراء المنبعثة منهم تتراقص حول بقعة مظلمة في الأدغال. وصدر صوت طلقات عدة. واتصل العنصر القائد عبر جهاز اللاسلكي يقول إن الرجل قد ظهر مع بندقية في يده. فتلفّظت بالشتيمة بصوت غير مسموع وأنا أتحسس على غير هدى هوائي جهاز الاتصالات عبر الأقمار الاصطناعية المحمول. كنت أتجول ويداي مرفوعتان في الهواء مثل تمثال الحرية، في محاولة للحصول على إشارة كي أقوم بإبلاغ مقرّ قيادتنا العليا بما يجري. وفي نهاية المطاف انضم إليَّ جرانت على السطح وبدأ بفتح جهازه الاحتياطي الخاص بالاتصال عبر الأقمار الاصطناعية.

كانت درجة الحرارة 15 درجة فهرنهايت في الخارج، وكلما طال وقوفي هناك، بدأت أرتعش أكثر. وكنت فعلاً أشعر بالخدر في أصابع قدمي، وكان قد مضى على وجودنا في المكان المستهدف خمس وأربعون دقيقة فقط. مشى زيكي وقال "سيدي الرئيس، نحن نخسر المروحية AC-130 لإسناد عملية التسلل لمصلحة مفرزة العمليات ألفا-23". كانت قيادة الطيران تتطلب وجود مروحية حربية أو مروحيتين هجوميتين قبل وصول مروحيات شينوك المسلحة بأسلحة خفيفة لتقوم بتطهير منطقة الهبوط من أي مقاتلين من العدو يحتمل وجودهم قبل إنزال القوات. وبواسطة منظار الرؤية الليلية الذي كنتُ أرتديه تمكنتُ من رؤية الخطوط السود العريضة المميزة لمروحيتين من طراز شينوك في الأفق، فصلّيت صلاةً سريعة لأجلهما.

سمعت صخباً فاستدرت لأنظر إلى داخل الفناء. رأيت أحد المترجمين يصفع أحد المعتقلين على مؤخرة رأسه. وبعد توقّف لنصف ثانية نزل الرجل على الأرض بشكل دراماتيكي، أشبه بلاعب كرة سلة يمثّل للحصول على مخالفة لمصلحته. وفكّرتُ: "إذاً، فهم يعرفون قواعدنا". كنت أرى رتلاً يضمّ ستة رجال يجلسون القرفصاء وأيديهم مقيّدة خلف ظهورهم، ووجوههم إلى الجدار البعيد للمجمّع. وكان ملازم من الشرطة، ومترجم، واثنان من عناصر الفريق يقومون باستجواب كل واحد منهم. واستطعت أن أسمع عبر الرياح رقيب استخبارات الفريق يقول لأحد الرجال أن يتوقّف عن الكذب ويطلب منه أن يكشف عن اسم مالك المجمّع. وفي الوقت نفسه، أمسك عنصر آخر المترجم من ذراعه، واستطعت رؤية ظل العنصر وهو يهز رأسه لإقناع المترجم بالكف عن أسلوب الصفع.

أشار الرجل الذي كان قد تعرّض للصفع إلى كدمات على ذراعه، وادعى أنه تعرّض للضرب في أثناء احتجازه لدينا، بعد أسابيع، وفي أثناء نقله إلى أحد مراكز الاعتقال التابعة للتحالف. وأثار هذا الاتهام إجراء تحقيق كامل من قيادتنا العليا. وبعد ساعات من المقابلات والإفادات تحت القَسَم من الفريق تولاها ضابطنا التنفيذي،

فرانس، تمت تبرئتنا بشكل تام. وقام فرانس، وهو محامٍ ومدّعٍ عام فيدرالي سابق للبيت الأبيض، بتنسيق إجاباتنا. فقد أربك الرائد الذي تولى التحقيق تماماً فيما يخص هذه الاتهامات، وأخيراً جعله يعترف بأن هذه التحقيقات كانت إلزامية استجابةً لأي اتهام من أي معتقل، حتى لو بدا هذا الاتهام وهمياً بشكل صارخ. ولسوء الحظ، فإنه لن يكون التحقيق الأخير لاحقاً. فقد استغرق كل تحقيق أسابيع عدة، وجعلني أتساءل كيف للوحدات التي لم يكن لديها شخص مثل فرانس إلى جانبها أن تتصرف في هذه المواقف.

كان فرانس زميلاً من مكتب مستشار البيت الأبيض للرئيس بوش، كنت أكنّ له الإعجاب والاحترام. بعد ظهر أحد الأيام من خريف عام 2008، كنت أنا وفرانس نمشي إلى مكتبة الرئيس في الطابق الأرضي من البيت الأبيض. وكان قد اقترح أن نلتقي هناك لنستمتع لبعض الوقت، حيث إنه كان يعلم أنني سأجدها غرفةً رائعةً؛ فهي مكتبة كاملة تضمّ مجموعة كتب لنكولن الشخصية وصورة لجورج واشنطن بريشة الفنان جيلبرت ستيوارت. وهناك، وأنا جالس تحت سيف لافاييت، طلبت منه بنوع من الاستخفاف أن يرافقني بصفة ضابط تنفيذي لديّ في خدمتي المقبلة في أفغانستان، وهي التي كان من المقرر أن تبدأ لاحقاً بعد أربعة أشهر فقط في فبراير 2009. كان فرانس محامياً ذكياً جداً وموهوباً وخريج أكاديمية "ويست بوينت"، وشرطياً عسكرياً سابقاً مؤهلاً كحارس دورية. ومع ذلك، كان قد مضى على خروجه من الجيش ثماني سنوات. ضحكنا معاً لاقتراح الانتقال معي في مهمتي على اعتباره أمراً سخيفاً شيئاً ما، وربما كان مستحيلاً من الناحية الإدارية وبيروقراطياً على أي حال. وبعد أيام اتصل بي في مكتبي، وقال: "لا أستطيع التوقّف عن التفكير في الأمر. لقد خرجت من الجيش قبل أحداث 11 سبتمبر، ولم أحظَ قط بفرصة للخدمة في العراق أو أفغانستان. إذا كنت تستطيع تحقيق ذلك، فأنا أقبل".

وتمكنت خلال التسعين يوماً اللاحقة من استصدار الأوامر ليتم السماح له بالالتحاق بالحرس الوطني لولاية ماريلاند، والاعتراف به على المستوى الفيدرالي،

وإلحاقه بإحدى وحدات القوات الخاصة كضابط شرطة عسكرية. ثم جرى استدعاؤه إلى الخدمة الفعلية، وتهيئته للانتقال إلى أفغانستان. لقد كنت فخوراً جداً بمهاراتي في مصارعة البيروقراطية. وقد أثارت هذه الخطوة دهشة بعض الناس وامتعاضهم، بمن فيهم رجالي. ولكن الكثير منهم غيّروا رأيهم بعد الوصول إلى مسرح العمليات عندما وجدوا بيئة تقاضٍ مثيرة للصدمة، حيث كانت تحقيقات القيادة في كل احتمال ارتكاب إساءة أمراً شائعاً. بدءاً من التأكد إذا ما كان عناصري يستطيعون وبسرعة مواكبة جميع التغييرات الحاصلة في قواعد الاشتباك، إلى تجميع حزم الأدلة المطلوبة للحفاظ على معتقلينا في الحجز، وتوجيه رجالي عبر وابل التحقيقات وانتهاءً بتقديم المشورة في الوقت الحقيقي إلى ضباطي خلال العمليات. وكان فرانس شخصاً لا يُقدّر بثمن بالنسبة إلى الوحدة. وفي النهاية، فإن وجود مستشار قانوني حصل على تدريبه في كلية الحقوق في جامعة جورج تاون، وصَقلَ مواهبه في البيت الأبيض واستخدم القانون لمساعدتنا على إنجاز الأمور، كان أمراً يعادل وزنه ذهباً. ومعظم رجالي يتفقون تماماً معي في ذلك.

في نهاية فترة خدمتنا، كَشَفتْ سلسلة من المقابلات التي أجريت مع سجناء طالبان أنهم قاموا بتدريب بعضهم بعضاً للاستفادة من القواعد التي نتبعها في الاشتباك فيما يخصّ المعتقلين. فقيادة طالبان في كويتا، باكستان، أمرت أتباعها برمي أسلحتهم عندما يواجهون قوة ساحقة، وهم على علم بأننا لن نطلق النار على الرجال العزّل وأنه سوف يتم احتجازهم ومن المرجّح الإفراج عنهم. وإذا تمّ إرسالهم إلى مركز اعتقال أمريكي، كانوا يعمدون تلقائياً إلى ادعاء سوء المعاملة (لأنهم يعلمون أننا سوف نضطر إلى فتح تحقيق في الموضوع) وللاستفادة من الظروف المعيشية النظيفة، كما كانوا يقومون بتحويل المجنّدين الأقل ولاءً إلى راديكاليين، ويروّعون أي سجين كان قد عمل معنا. وكان التأثير الخالص لنظام الاعتقال والإفراج الذي اتبعناه عبارة عن انخفاض تدريجي في الدعم من السكان لأن قادة طالبان الذين يتم إطلاق سراحهم كانوا يعاقبون القرى الموالية للحكومة أو التحالف وينشرون رسالة تفيد بأنه لا يمكن المساس بهم. لقد كان ذلك النظام يلحق ضرراً بالغاً بحملة مكافحة التمرد التي أطلقناها.

سمعت مع عويل الريح صوت اثنين من الرجال الموجودين في الأسفل في فناء المجمع يعترفان أخيراً أنهما ليسا من المنطقة، ويدّعيان أنهما كانا موجودين في قره باغ فقط لحضور حفل زفاف. ومع ذلك، عندما تم سؤالهما عن صاحب المجمّع ومن هو الشخص الذي كانوا يزورونه، ادعيا أنهما لا يعرفانه. مشى رجل آخر من العناصر وطلب عبر مترجم من الشرطة أن يؤتى لهم بأحذية وبعض البطانيات؛ لأنهم كانوا قد بدؤوا يرتعشون بشدّة وهم لا يرتدون سوى قميص الشلوار التقليدي.

قلت ساخراً: "أتساءل هل كنا لنحصل منهم على المعاملة نفسها؟".

لم ينبس مترجمي بكلمة، بل قام فقط بتمرير إصبعه عبر حنجرته وهو يهز رأسه.

وفي الوقت نفسه خرج عدد من ضباط الشرطة الآخرين من المجمّع وانخرطوا في نقاش مع رقيب الاستخبارات، ثم نظر الرقيب للأعلى إلى جرانت وإليّ على السطح، وضغط على زر جهازه اللاسلكي، وقال: "سيدي، نعتقد أن النساء يخبئن الهواتف المحمولة لهؤلاء الرجال". كيف تريدنا أن نفتشهن؟"

فقلت في نفسي: "اللعنة". كان رجال طالبان يعرفون أننا نبذل جهوداً خاصة تجاه احترام المرأة الأفغانية من خلال عدم السماح بتفتيشها من قِبل الرجال، ولذلك غالباً ما كانوا يخبئون محظوراتهم في جلابيب النساء الطويلة والفضفاضة. وبسبب ضيق المكان في المروحيات، فإننا لم نجلب معنا جندية أمريكية كما كنا نفعل في العادة، لاستجواب النساء وتفتيشهن. كانت قد تكوّنت لدي صورة ذهنية عن ردود الأفعال في اليوم اللاحق على الاتهامات المتعلّقة باغتصاب ونهب النساء الأفغانيات، وهي قصة من المؤكد أن آلة الدعاية الطالبانية سوف تقوم بنشرها. كنت أرى تماماً، في مخيلتي، قائد الفريق وأنا على الهاتف طوال اليوم مع قيادتنا، والتي ستكون بدورها على الهاتف مع قيادتها العليا وهي تجيب عن سلسلة من الأسئلة. وضغط جرانت على زر جهازه اللاسلكي: "أريد تلك

الهواتف. لنجعل الشرطة تفتشهن بينما يقوم مترجمونا بمراقبتهن من دون وجود أي رجل أمريكي في الغرفة"، قال ذلك وهو ينزل الدَّرج للمساعدة في التعامل مع الوضع. على الأقل سيكون الرجال الأفغان هم من يفتشون النساء وليس نحن. وبعد عشر دقائق رأيت مترجماً يخرج من الغرفة وهو يحمل هاتفين محمولين في يده.

قبل دقائق عدة كنّا قد أوفدنا عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي الذي كان يرافقنا للمساعدة في التقاط الصور لقتلى الأفغان حتى نتمكّن من التعرف عليهم لاحقاً. كما كان العميل يحمل أيضاً جهازاً كان يقوم بتسجيل بصمات الأصابع إلكترونياً، وغيرها من البيانات التي يتم تحميلها إلى قاعدة بيانات أكبر للمساعدة في تحديد إذا كان الرجل أحد المتمردين المعروفين، أو لا. كنت أعرف أننا قد نواجه اتهامات بقتل رجل بريء حين تتصل طالبان بوسائل الإعلام المحلية. كان عبء الإثبات بالتأكيد ملقى علينا وليس على المتهمين، وخاصة أن هذا الرجل لم يبادر بإطلاق النار علينا. بشكل عام، بذلنا ما في وسعنا لجمع أكبر قدر ممكن من الأدلة بعد كل تماس مع العدو، كما لو كنّا في مسرح جريمة محلية. وغالباً ما كنتُ أتسبب بتعريضنا لمخاطر إضافية، ولكنني كنت أشعر بأني مضطر إلى القيام بذلك من أجل حماية رجالي من التحقيقات التي كانت تلي ذلك في كثير من الأحيان.

صعد زيكي مرة أخرى يخطو فوق المداخن الصغيرة المبنيّة من الطين والمنتشرة على السطح، وأبلَغنا بأن إحدى مروحيات شينوك التي كان من المقرر أن تأتي وتقلّنا خلال ساعة قد تضررت آلية إنزال عجلاتها عندما ارتطمت بالأرض. تمتمتُ في نفسي قائلاً: "هذا عظيم تماماً". يمكن أن تكون هذه ليلة طويلة! كانت مروحيات العمليات الخاصة "شينوك" تقوم بمهامها تحت جنح الظلام فقط من أجل تجنّب المخاطرة بمثل هذا العتاد القيّم خلال النهار. وإذا لم يتمكّنوا من إصلاح المروحية في وقت قريب، فسيكون علينا أن نبقى هناك طوال اليوم حتى الليلة القادمة. ومن شأن ذلك أن يجعل اليوم طويلاً في قرية من المفترض أنها تضمّ أسرة الملا سادن وأفراد عشيرته. كان جرانت قد خطط

لدعوة شيخ العشيرة إلى مكتب الحاكم بعد أن عدنا إلى القاعدة، لتفسير سبب اعتقالنا لسادن. كنت خائفاً من اندلاع معركة خطيرة في اليوم اللاحق إذا بقينا هناك حتى الصباح. ولزيادة الأمر تعقيداً، كان من المتوقع أن تهبّ عاصفة ثلجية في الليلة القادمة ويرجّح أن تمنع المروحيات من أخذنا بعد ذلك أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مروحيات شينوك لا تطير إلا مَثنى تحسباً لحصول عطل ميكانيكي في إحداهما، ولذلك كان من غير الوارد أن نطلب من قيادتنا توجيه تعليمات إلى المروحية السليمة لكي تقوم برحلات إضافية وحدها. وكان ما يزال في داخلنا الشعور السلبي من جراء حادثة "سقوط الصقر الأسود" في الصومال التي وقعت قبل خمسة عشر عاماً وفقدنا فيها ثمانية عشر جندياً، وسلسلة حوادث إسقاط مروحيات خلال النهار. وكان التساؤل الذي تضطر كل قيادة إلى حساب عاقبته هو؛ إذا ما كان عليك أن تخاطر بعتاد قيّم مثل مروحية العمليات الخاصة لإخراج بعض الرجال، ثم المخاطرة بالمزيد منهم لاستردادها إذا تعطّلت أو تمّ إسقاطها. لقد فهمت المعضلة، ولكن الآن بعد أن أصبحتُ أحد الرجال الذين لم يكونوا يستحقون المخاطرة بالعتاد من أجلهم، لم يكن شعوري رائعاً!

اتصل جرانت عبر جهاز اللاسلكي ببقية رجالنا ليخبرهم عن الشينوك المعطّلة، ويبلغهم بأننا سنبقى في المجمّع ساعات إضافية، إن لم يكن طوال تلك الليلة والليلة التي تليها. وسمعتُ تمتمة بشتائم عدة من الأسفل. وقد لاحظت أن الإحساس بالحرقة في قدمي ويدي قد اختفى وأنهما أصبحتا في حالة خدر. نظرت إلى مقياس الحرارة في ساعة يدي وكان يشير إلى أن درجة الحرارة قد انخفضت إلى 11 درجة. على الأقل ساعد البرد في إيقاف الألم الذي كنت أشعر به في ركبتي بسبب عملية النزول القاسية.

وكما لو أن الشرطة الوطنية الأفغانية كانت تقرأ أفكاري، فقد بدؤوا بسحب الخشب من كومة عند زاوية المجمّع وشرعوا بإشعال النار في منتصف الفناء. إن إضرام النار في منتصف غارة ليلية في بلاد طالبان كان ينتهك كل معنى لمعرفتي العسكرية. فبالرغم من أنني أردت أن يشعر الرجال بالدفء، فإنني كنت أعلم أن النار ستتحوّل إلى

مغناطيس لا يقاوم لجذب جميع العناصر المشاركة في المهمة. وعندما رأيت رجال الشرطة الأفغانية ينجذبون نحو النار، اتصلت برقيب الفريق وذكّرته بأنه لا أحد على السطح للقيام بالمراقبة الأمنية إلا أنا والموجّه التكتيكي المشترك وأحد ضباط الشرطة الوطنية الأفغانية. كان رقيب الفريق يسير عبر الفناء مع المترجم للتحدث إلى قائد الشرطة حول إرسال بعض رجاله إلى السطح، كما دخل في نقاش حادّ معه بخصوص النار. وتوصلا إلى تسوية، حيث وافق القائد على إضرام النار داخل جدران المجمع فقط. ولكنني سرعان ما رأيت نيراناً صغيرة تظهر خارج المجمّع في المواقع الأمنية، فقلت في نفسي "إنه هدف مثالي"، ورأيت توني يلوّح إلى رجل شرطة كان يقف بجوار قطعة حطب صغيرة تحترق بقصد توجيهه لإخماد النار. وبصورة نموذجية تماماً عن الأفغانيين، نظر الشرطي إلى توني، ونظر إلى أسفل إلى النار التي تحافظ على دفء قدميه، وانحنى ومد يديه وهو يرتدي القفازات لالتقاط قطعة الحطب المشتعلة، ومشى ومعه قطعة الحطب نحو توني ورماها عند أقدامهما لمشاركته في الدفء، ما جعلهما معاً هدفين الآن. ورأيت يديّ توني تلوّحان على اتساعهما، وهو يدوس بقوة على النار لإخمادها بأسرع ما يمكنه، في حين بدا الشرطي حائراً ومرتبكاً قليلاً، ثم سار بكل بساطة نحو رفاقه الذين كانوا يقفون حول نار أخرى.

عاد العنصر الذي كان قد طارد ذلك الشخص الهارب بعد أن قام بتفتيش المسجد بجوار مجمّع سادن ومعه الكثير من الرجال الآخرين الذين اعتقلهم، ووجّه الأمر إليهم بأن يجلسوا القرفصاء في مواجهة الجدار. وقام رقيب الاستخبارات، والمترجم، وضابط الشرطة الوطنية الأفغانية بإدخال هؤلاء الأسرى واحداً تلو الآخر إلى غرفة، للتحقيق مع كل منهم على حدة. كما رأيت خيال اثنين من الجنود يمشيان نحو الغرفة إلى جوار رجل يرتدي قناعاً يغطي وجهه بالكامل لإخفاء هويّته. كان من الواضح أن الفريق قد حصل على مصدره، وأنه سوف يساعدنا على التعرّف على الملا سادن ورجاله.

تلقينا معلومات بأن الطيارين كانوا يحلّقون في طريقهم إلى قندهار لاسترداد مروحية أخرى على أمل عودتها في الوقت المناسب لانتشالنا؛ وسيكون الوقت ضيقاً

لإخراج كلا الفريقين قبل طلوع الفجر. وبدأت أنا وجرانت، في مناقشة الحالات الطارئة، وقررنا أنه إذا لم تتمكّن المروحيات من انتشالنا والعودة بنا إلى القاعدة وانتشال الفريق الآخر في الوقت المناسب، فسنمكث جميعاً في مكاننا لكي نوحّد صفوفنا وندافع عن أنفسنا من داخل المجمّع في اليوم اللاحق إذا اضطررنا إلى ذلك. وباعتبار أن الطرق بين هذه القرية والقاعدة الرئيسية في غزني مزروعة كلها بالعبوات الناسفة، أدركنا أنه من غير المرجّح أبداً أن تقوم المجموعة القتالية البولندية المتمركزة في قاعدة غزني بإرسال قوة برية لتأتي وتقوم بإخراجنا. وهم لن يقولوا ذلك صراحةً بالطبع، وبدلاً من ذلك سيقومون بسلسلة غير واقعية من الطلبات الموجّهة إلى مقر القيادة الأمريكية في باجرام للحصول على الدعم؛ كأنْ يطلبوا مهندسي تطهير الطرق وطائرة مرافقة. وسيكون عليهم أيضاً أن يطلبوا الإذن من قيادتهم في وارسو، وبذلك يجعلون المهمة غير مسوغة أساساً. وهكذا، كنت أعرف أننا سنكون وحيدين إلى حد كبير، وبدأتُ في وضع الخطط الحربية حول كيفية توحيد صفوفنا، واتباع أفضل السبل للتعامل مع القرية في صباح اليوم القادم.

وأخيراً قام الرجال المحتَجزون بخلط القصص، وتعرّفوا إلى سادن صاحب المجمّع وقائد طالبان الذي كنّا نبحث عنه. مشيت إلى الرجل حيث كان يجلس القرفصاء في مواجهة الجدار مع بطانية تكسو كتفيه، وتساءلت مرة أخرى: هل كان يمكن لهذا الرجل أن يجلب لنا بطانيات وأحذية، كما فعلنا معه؟ وكزته لكي يقف فالتفت ونظر إليّ؛ كانت له لحية اعتنى بها جيداً، ورأس حليق، ووجه مملوء بالتجاعيد. حملق فيّ للحظة في الظلام، فقام شرطي الهزارة الذي كان قائماً على حراسته بوكزه بكعب بندقيته كي يخفض رأسه. وقفت هناك أحدّق فيه وهو جالسٌ القرفصاء، أفكر إذا ما كان الكلام معه مجدياً نظراً إلى نظام الاحتجاز العقيم الذي نتّبعه. فحتى لو تمكنّا من العودة به إلى باجرام، فمن المرجّح أن يتم إطلاق سراحه خلال أقل من سنة، ليعود من جديد إلى إرهاب المنطقة. كما أن لدى جاره، مخبرنا، بالتأكيد أموراً كثيرة ليشعر بالقلق تجاهها، وقد يتوقّف عن العمل معنا. كنت أعلم أن استخفافي وإحباطي كانا يطغيان على حكمي، وتحدثت للشرطي الواقف بالجوار لكي يأخذ سادن إلى البوابة بحيث يكون جاهزاً عندما نهمّ بالمغادرة.

بعد ذلك بقليل وردتنا معلومات بأن المروحيات في طريقها إلينا، وبدأتُ في تأمين محيطنا. أعطيت مترجمنا 10 آلاف بالعملة الأفغانية (نحو 200 دولار) كتعويض عن الخشب الذي أحرقناه والثقب في جدار المجمّع والنوافذ التي تضررت. فأعطاها إلى رجل كبير في السن قال إنه قريب أحد الرجال الذين احتجزناهم. لقد آلمني أن أعطيه هذا المال، ولكنني كنت أعرف أيضاً أن التعويضات ستكون مهمة في جهودنا للتعامل مع شيوخ القرية في وقت لاحق، وحالما يخرج سادن من المشهد. إن هذا المبلغ سيكون جزءاً من رسالتنا بأن قضيتنا ليست مع قبيلتهم أو قريتهم أو حتى مع عائلة سادن، بل مع سادن نفسه، ودعمه الذي قدّمه لقتل الجنود ورجال الشرطة الأفغان الذين كانوا برغم كل شيء مواطنين من البلد نفسه، ومسلمين.

عندما خرجنا في رتل نمشي نحو الحقل المفتوح إلى نقطة الالتقاء التي سوف تأخذنا منها المروحية، لحقت بنا إحدى النساء إلى الخارج، وهي تنتحب بأعلى صوتها. قلت في نفسي: "هذه هي المرة الأولى من نوعها"؛ فعادةً ما كانت تبقى النساء في المجمّع عند مغادرتنا. خطر لي أنه ليس لديها أي فكرة عما سوف نفعل بالرجال الذين كنا نأخذهم. من الممكن أننا كنا نأخذهم لإعدامهم. جعلتُ أحد المترجمين يعود ويخبر المرأة بأننا نأخذهم إلى مقر الشرطة في مدينة غزني، وقلت له أن يترك لها رقم الهاتف الجوّال لقائد الشرطة. وتمتم أحد الجنود الذين يمشون معي كما لو كان يتحدّث إليها قائلاً: "إليك هذه النصيحة. توقّفي عن السماح لزوجك بقتل الناس ولن يحدث ذلك".

واستمرت المرأة باللحاق بنا والنحيب. تساءلت ونحن في طريقنا إلى نقطة الالتقاء إذا ما كانت معلوماتنا الاستخباراتية خاطئة؛ هل قمنا بدهم مجرد عائلة بريئة وأوجدنا المزيد من المتمرّدين بهذه العملية؟ هل كان كل ما جرى في هذه العملية مجرد محاولة من جانب مخبرنا للقضاء على منافسين قبليين في القرية؟

وبعد بضع دقائق جاءت المروحيات وتسبّبت بتطاير الغبار والحجارة وقطع الجليد علينا في أثناء هبوطها. وقام بوبي بالتأكد من عدد أفراد مجموعتنا على منصة الخروج الخلفية

للطائرة، وجلست في مقعدي، ورفعت نظارات الرؤية الليلية عن عينيّ، وأزحت الدرع الواقية التي كانت تضغط على كتفيّ طوال الساعة الماضية. هكذا كانت تجري معنا معظم مهام الأعمال العسكرية المباشرة، مع وجود اختلافات طفيفة؛ لقد كانتِ تتم من دون أي اشتباكات نارية بطولية أو تفجيرات ضخمة تسفر عن سقوط أعداد كبيرة من الضحايا المدنيين، كما كانت تزعم وسائل الإعلام الدولية في كثير من الأحيان. على العكس من ذلك، عندما كنّا نقوم بتنفيذ مهمتنا بالشكل الصحيح، كنا نهاجم الهدف المعادي بدقّة مطلقة قبل أن يتسنى للعدو فرصة سحب أي سلاح. وقد تم إنجاز معظم هذه المهام من دون إطلاق رصاصة واحدة.

في اليوم اللاحق استدعينا الكثير من مخبرينا إلى القاعدة لكي نريهم صور الرجال المحتجزين لدينا. لقد تعرّفوا على ثلاثة من الرجال على أنهم قادة في طالبان، وكان الرجل الذي أطلقنا عليه النار على ما يبدو أحد الملالي الذين زوّدوا سادن بالأموال التي تم جمعها من القرويين، كما كان يقوم بتخزين الأسلحة في المسجد بشكل منتظم. ولسوء الحظ، لم نتمكّن من تحديد موقع المبلغ الذي كان يقوم بنقله بشكل محموم في تلك الليلة. ذهب فرانس للعمل على تجميع حزم الأدلة المطلوبة لإدخال الرجال إلى الحجز لمدة طويلة. وتساءلت مرة أخرى كيف يمكن لوحدة ليس فيها محامٍ أن تحصل على موافقة لجنة الاحتجاز على اعتقال المشتبه فيهم. كانت حزمة الأدلة هذه تتألف في العادة من 25 إلى 30 صفحة، وتشبه المذكرات الرسمية التي يتم إعدادها للمحكمة؛ لقد آتت أعمال فرانس أكلها؛ وبحلول نهاية فترة الخدمة كنا مسؤولين عن خمسة وثلاثين معتقلاً من أصل ستين تم قبول اعتقالهم في باجرام من جميع فرق قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة في ذلك العام.

وكان القبض على الملا سادن هو الجزء السهل من المهمة، أما الجزء الصعب فكان الاستفادة من غيابه. وفي اليوم اللاحق زار جرانت القائد البولندي وضغط عليه للاستفادة من المجال الذي أفسحته إزاحة الملا سادن من المشهد، بإرسال فصائله وفرق إعادة إعمار الولايات التابعة لها إلى مديرية قره باغ من أجل التواصل مع السكان. وبالرغم

من التأكيدات السابقة، تنصّل البولنديون من الأمر بادعاء أن قره باغ ما تزال منطقة خطيرة جداً. فإنه لم يكن هناك من خيار أمام مفرزة العمليات ألفا-21 سوى الاستمرار في ضرب قيادات التمرد بأشد قوة ممكنة.

لحسن الحظ، وعلى مدى الأسابيع الثلاثة اللاحقة، وللمرة الأولى في فترة خدمتنا، حصلنا على الأعتدة القيّمة التي تشمل المراقبة والاستخبارات والمروحية. وبدأت وحدة من القوات البحرية الخاصة الأمريكية في الجوار أيضاً شنّ هجمات داخل المنطقة. وبدا أخيراً أن القيادات العليا في باجرام وكابول أدركت خطورة الوضع في غزني. وقد نفّذت مفرزة العمليات ألفا-21 ومفرزة العمليات ألفا-23 ثماني عمليات إضافية -أشبه بالدهم الليلي للقبض على الملا سادن- أسفرت عن مقتل أو اعتقال معظم قادة المتمرّدين الرئيسيين من المستوى المتوسط في مديريتين رئيسيتين في الولاية. كان لدينا ما يكفي من المعلومات لتنفيذ أربع عشرة مهمة مماثلة، ولكن الكثير من العمليات المقترحة إما لم تحصل على الموافقة في الوقت المناسب أو ألغيت بسبب أحوال الطقس السيئة أو مشكلات صيانة المروحيات.

وجدت الفِرق أيضاً وسائل مبتكرة للإيقاع بين طالبان وقادة الحزب الإسلامي بقيادة قلب الدين حكمتيار والاستفادة من تنافسهما، بحيث يشتبه كل منهما في أن الآخر كان يقف إلى جانبنا ويتسبّب في الدهم. وبعد أيام قليلة من انتهاء العمليات، اتصل أحد قادة طالبان بجنرال بالجيش الأفغاني في قاعدته خارج مدينة غزني وألمح إلى أنه يرغب في الدخول في مفاوضات للمصالحة وإعادة الاندماج مجدداً في المجتمع الأفغاني. ووعد بجلب عشرات من مقاتليه معه. استغرق الأمرُ بعض الوقت لتحديد إذا ما كان هذا التواصل مقبولاً أو لا. واتضح أنه توجّه حقيقي، ويمكن أن يشكّل خطوةً مهمةً إلى الأمام في ولاية غزني. كان مستوى النجاح في التعامل مع محاولة قائد طالبان لمقاربة التصالح أمراً حاسماً؛ وكان قادة المتمردين الآخرين الذين ربما كانوا يقفون على الحياد، يراقبون الأمر لمعرفة ما يحدث. والجدير بالذكر أن كل قادة طالبان الذين حاولوا إعادة الاندماج في المجتمع خلال فترة انتشارنا هناك عامي 2009 و2010، فعلوا ذلك بعد فترة من الغارات

الناجحة التي نفّذناها. وفي هذه الحالة، قال القائد الطالباني إنه كان سيأتي لأنه تعب من كونه هارباً ومن مقاتلة قادة طالبان الآخرين. وبعبارة أخرى، كنّا نحقق رد فعل إيجابياً من التعامل بالعصا (التعامل بالقوة)؛ والآن علينا تقديم بعض الجَزَر (المكافأة).

بعد الاتصال الأولي، رجعتُ إلى زملائي الموجودين في المكاتب المختصّة بالسياسة بشأن أفغانستان في البنتاجون والبيت الأبيض، نظراً إلى عدم وجود آلية أو برنامج جادٍّ لرعاية المتمرّدين الذين أرادوا الانشقاق عن طالبان. وفي حال وجود سياسة أو برنامج في هذا الشأن، فإنهما بالتأكيد لم يُرسَلا إلينا. فقبل أشهر عدة من هذا الانتشار في ولاية غزني، كان أحد قادة طالبان من المستوى المتوسط مسؤولاً عن مديريات عدة في ولاية وردك إلى الشمال من غزني قد تعهّد بوقف القتال ضد الحكومة الأفغانية. ومع ذلك، وكجزء من الاتفاق، طُلب من القائد ورجاله تسليم أسلحتهم وتمّ إجبارهم على حلّ مجموعتهم. بعد شهور من هذا الاتفاق وبعد إعادة إدماجهم، جرى اختطاف قائد المجموعة من منزله، وقام حلفاؤه السابقون بقطع رأسه بوحشية.

وغنيٌّ عن القول أن حركة طالبان ومن خلال هذا العمل الشنيع كانت تبعث برسالة إلى الأعضاء الآخرين في التمرّد، ولم نحصل على حالات أخرى من إعادة الإدماج في تلك المنطقة طوال الفترة الباقية من العام. وكان برنامج إعادة الإدماج، على ما هو عليه، مشابهاً للتعامل مع المافيا في نيوجيرسي من دون برنامج لحماية الشهود. أرسلت قيادة إيساف توجيهات تركّز على إعادة دمج المقاتلين من المستوى الأدنى في مجتمعاتهم القروية، في محاولة لإيجاد وظائف لهم، واعتبار الشيوخ المحليين مسؤولين عن سلوك هؤلاء المدمَجين، في المستقبل، ولكن لم يكن هناك شيء حول كيفية حماية هؤلاء الرجال من انتقام طالبان. وبدا لي أن توفير برنامج الحماية كان خطوة أولى مهمة. كان يجب علينا أن نطلب منهم التخلي عن الأسلحة الثقيلة وأن نسمح لهم بالاحتفاظ ببنادقهم الكلاشنكوف من أجل الحماية الفردية الأساسية. ربما كان الأمر الأفضل من ذلك أن يكون تحفيزهم لحماية مناطقهم ضد التمرد كنوع من مفهوم قوة دفاع عن القرية مماثلة لبرنامج مجموعات الدفاع

المدني غير النظامية في فيتنام. كنت أشعر بأن إعادة إدماج المقاتلين مدعومة بحماسة من قِبل شتى القيادات العسكرية، في واشنطن، وبالتأكيد من قِبل حلفائنا في أوروبا، ولكن التخطيط بشأن كيفية تحقيق إعادة الإدماج على أرض الواقع لم يتجاوز مرحلة كونه حبراً على ورق. كانت الأساسيات، مثل الهدف العام من البرنامج، ما تزال غير واضحة بالنسبة إليّ بصفتي قائد عمليات، هل أردنا إقناع هؤلاء الرجال للقتال بنشاط إلى جانبنا وجانب الحكومة الأفغانية ضد مواطنيهم السابقين؟ هل أردناهم على الأقل أن يكونوا أقل فاعليةً في حماية قراهم ورفض نفوذ طالبان؟ أو كان القصد هو نزع سلاحهم تماماً وإعادة إدماجهم مجدداً في المجتمع؟

باعتباري أعمل من دون أي خطة جادة لإعادة الإدماج، أوعزت لرجالي بأن يأخذوا زمام المبادرة في المفاوضات مع أحدث محاولة ميل للتصالح في ولاية غزني. أبلغني جرانت أنه قبل وصولنا، كان قد وصل مسؤول وزارة الخارجية الملحق بفريق إعادة إعمار الولايات، وهو مندوب التحالف بخصوص أي مفاوضات محتملة بين الحكومة الأفغانية المحلية والمتمرّدين. ولكن جهود التواصل السابقة بشأن الراغبين في التصالح أدت على ما يبدو إلى نتائج غامضة نسبياً، مثل طلب القَسَم باتباع مبادئ الدستور الأفغاني، وقَسَم الولاء للحكومة الأفغانية، وتسليم عدد صغير نسبياً من الأسلحة الصغيرة. وكانت المشكلة الكبرى أنه لم يكن واضحاً داخل الحكومة الأمريكية مَن الذي كان يجب أن يقود زمام المبادرة في جهود إعادة الإدماج. ولحسن الحظ، أن قائد المتمردين هذه المرة تواصل مع الجيش الوطني الأفغاني، الذي كان يعتبره الكثيرون في غزني بأنه أكثر جدارة بالثقة من الحكومة المدنية المحلية. وهذا ما أعطى جرانت نفوذاً بيروقراطياً لأخذ زمام المبادرة داخل التحالف في المفاوضات باعتبار أننا كنا النظير الطبيعي للجيش الوطني الأفغاني. وبعد أسابيع عدة من الأخذ والرد لم يقبل قائد المتمرّدين الحضور لإجراء المفاوضات معنا وجهاً لوجه. وأرسلت مفرزة العمليات ألفا رسالةً له عبر شبكة من المخبرين تؤكد مسؤوليتها عن سلامته وأنه لن يتم استهدافه. ويبدا أن هذا أدى إلى نجاح الوسيلة، والتقى قائد المتمردين مع ممثل عن الجيش الأفغاني على مشارف مدينة غزني. وقد وصل الرجل

وبجعبته مطلبان هما: التدريب على العمل والحماية. وكلاهما بدا معقولاً بالنسبة إلينا. ومع ذلك، أشار جنرال الجيش الأفغاني إلى أن الوظائف غير متاحة للجميع في أفغانستان، وأنه سيكون من المستحيل عليه أن يشرح لسكان غزني لماذا يحصل الرجال الذين دعموا حركة طالبان على الدعم الحكومي والتدريب على العمل، في حين أن الأشخاص الذين قاوموها ودعموا الحكومة لا يحصلون على شيء. كانت القضية الكبرى بالنسبة إلى قائد طالبان هي أنه لم يكن هناك شيء من قبيل برنامج حماية الشهود لحمايته من الانتقام. وبالرغم من وعد الجيش الوطني الأفغاني بتسيير دوريات إضافية في المنطقة المحيطة بقريته، فإن ذلك لم يكن كافياً. وطالب القائد بأن يكون قادراً على الحفاظ بمجموعته كلها كإجراء دفاعي لهم ولأسرهم. وبطبيعة الحال أراد أيضاً أن يحتفظ بأسلحته، على الأقل بنادقهم الكلاشنكوف وعدد قليل من الرشاشات الخفيفة. وبعد الكثير من النقاش، على المستوى المحلي، وعبر العشرات من رسائل البريد الإلكتروني المتبادلة مع سلاسل قيادتنا المختلفة، أصر قائد المجموعة القتالية البولندي على أن هذا لا يمكن السماح به. وبدأت المفاوضات تطول، وقد أبلغَنا مخبرنا بأن الشائعات بخصوص المناقشات كانت تنتشر. وبعد أسبوع تلقينا معلومات تفيد بأن القائد قد عاد إلى باكستان. لم نكن نعرف إذا ما كان قد عاد إلى كنف طالبان أو أن لديه سبباً مشروعاً آخر للسفر إلى هناك. بدأنا نتساءل هل كان هذا الجهد كله حيلة لجعلنا نوقف العمليات ونخفّف الضغط. وفي نهاية المطاف، اتصل القائد مرة أخرى واستمرت المفاوضات إلى حين إعادتنا إلى الولايات المتحدة. واضطر جرانت إلى تسليم زمام الجهود إلى خَلَفه، ولم نسمع عما حدث في نهاية الأمر.

كان السبب الرئيسي في عدم تمكّننا من إتمام الصفقة هو أنه لم تكن هناك سياسة متماسكة من جانبنا. كان يجب أن يمر كل جانب من جوانب الاقتراح عبر السلاسل المختلفة للقيادات: الجيش الوطني الأفغاني، والقوة الدولية للمساعدة الأمنية (إيساف)، والقوات الخاصة، ووزارة الخارجية [الأمريكية]، والحكومة الأفغانية. لقد استغرقنا أسابيع للتوصّل إلى توافق في الآراء والرجوع إلى قائد طالبان لإبلاغه بالموقف، بينما كانت حياته في خطر بسبب تواصله معنا.

وهكذا، كنّا في دوامة سلبية في ولاية غزني ونحن على أبواب عام 2010؛ مع قلة من الجنود لتوفير قدر أساسي من الأمن، وثغرات في سياستنا القائمة على الاعتقال والإفراج، وغياب كامل لبرنامج إعادة الإدماج. لقد نفّذت مفرزة العمليات ألفا-21 وشركاؤها من الشرطة الوطنية الأفغانية، وغالباً مع مفرزة العمليات دلتا 23 ومغاويرها، الدهم تلو الدهم من أجل صد مدّ حركة طالبان التي كانت تزحف نحو مدينة غزني من جميع الاتجاهات. وقد شبّهت الفرق جهودها بعملية "جز العشب": فقد أبقوه قصيراً قدر استطاعتهم، ولكنه ببساطة ظل يعاود النمو أطول وأطول. كان أملي الوحيد يتمثّل بوجود وحدات إضافية من الجيش الوطني الأفغاني، أو أن تجد الزيادة في أعداد القوات الأمريكية -التي تجري مناقشتها في واشنطن- طريقها إلى غزني بسرعة، بحيث لا يتمكّن أحد قادة طالبان من ملء الفراغ الذي نشأ بعد أن أزحنا رجالاً مثل سادن من ساحة المعركة. وكان واضحاً أنه حين أعود إلى واشنطن سيتعيّن عليّ توضيح حجم الضرر الذي كانت تسبّبه سياسة الاعتقال التي نتّبعها في حملتنا لمكافحة التمرّد، والضغط لتحسين إجراءات التعامل مع إعادة إدماج عناصر طالبان في المجتمع الأفغاني.

الفصل الثاني عشر

صعود اللحية السوداء

مغاوير الجيش الوطني الأفغاني

صاح الرقيب القائم على الحراسة الليلية في قيادتي، من مدخل القيادة: "سيدي! قوات 2-3 مشتبكة!". كنتُ أمشي عائداً إلى حجرتي بعد رحلة عبر ممر وعر بين حاويات المعيشة المؤلفة من طابقين والمراحيض في مبنى قيادتي الرئيسي. وكانت الساعة الثانية والنصف صباحاً من يوم 23 نوفمبر 2009. فاستدرتُ وركضتُ عائداً إلى مركز العمليات، حيث يوجد رقيبي الأول كيفن، الذي يتمتّع بالخبرة ورباطة الجأش؛ وكان يورك يحوم فوق جهاز اللاسلكي. كما كان رقيب العمليات لدينا يتحدّث على الهاتف مع قيادتنا الرئيسية في باجرام.

وصاح اللاسلكي: "إلى أرو هيد 2-0، معك أرو هيد 2-3 يطلب إخلاء طبياً فورياً. لدينا جريح قتال أمريكي مصاب بإصابات خطيرة. لقد انفجرت بنا عبوة ناسفة. ليس هناك اشتباك آخر بيننا وبين العدو حالياً. انتظروا المعلومات التفصيلية المتعلقة بالإخلاء الطبي والأعراض الحيوية للمصابين".

تساءلتُ بصوت عالٍ: "كيف - بحق الجحيم - انفجرت بهم عبوة ناسفة ليلاً؟". عرفتُ أن مفرزة العمليات ألفا-23 كانت تقوم بدورية ليلية. كما عرفتُ أن الدورية لم تكن روتينية على الإطلاق. فقد غامر الفريق بالدخول إلى مديرية صباري، قلب شبكة حقاني في ولاية خوست. وفي أثناء أول لقاء لي مع قائد الكتيبة التقليدية المسؤول عن خوست أشار إلى دائرة حمراء كبيرة على خريطته الجدارية، وقال: "صباري. بلد حقاني. إنها قاعدة دعمهم القبلي في خوست. ستنفجر بك عبوة ناسفة لا محالة هنا، وهنا، وهنا، وتماماً على أي طريق يمكنها أن تحتمل سير مركبة محصّنة ضد الكمائن والألغام نهاراً". كانت

إحدى سـرايا‌ه تتشارك موقعاً مع حاكم مديرية صباري وقائد الشـرطة. ومع أنه كان لهـم وجود، فإن مساحة سيطرتهم ونفوذهم كانت محدودة نتيجة المسافة التي يمكـنهم قطعهـا سـيراً على الأقدام من مواقعهم القتالية. وكـانوا يتعرّضـون بشـكل مسـتمر للمضـايقات والهجوم، ولم يكونوا يجرؤون على ارتياد الطرق إلا إذا كانوا خلف فريـق لتطهـير الطريـق [من العبوات الناسفة]؛ أي قافلة كاملة من المركبـات الهندسـية البطيئـة الحركـة المجهّـزة للكشف عن العبوات الناسفة خاصة.

خريطة (14)

ولاية خوست



لقد جعل نجاح أجهزة التشويش على صواعق التفجير اللاسلكية من بُعد، وهـي التي في حوزتنا، معظم جماعات المتمردين يعود ببساطة إلى العمل بمدّ سلك من العبـوة

الناسفة إلى مكان اختباء قريب وتفجير العبوة الناسفة عند اقتراب هدفهم منها من خلال نقطة قَدح؛ مثل شجرة أو كومة من الصخور. وكانت أخطر العبوات الناسفة هي تلك المزودة بصفيحات ضغط تعمل حين تدوسها الضحية. ولأن المتمردين كانوا يحرصون على عدم التسبّب في سقوط ضحايا من المدنيين، الأمر الذي يمكن أن يقوّض الدعم الذي يتلقّونه ويهدر العبوة الناسفة، نادراً ما كانوا يستخدمون العبوات الناسفة التي تعمل بالضغط ليلاً؛ أضف إلى ذلك أن الظلام يكون شديداً جداً بحيث لا يتيح لمفجّري العبوات الناسفة رؤية العلامات التي استخدموها لمحاذاة مركباتنا مع المتفجرات، ولذلك كنّا نشعر بالأمان نسبياً في ساعات الصباح الأولى عند اجتياز ما سمّاه إخوتنا التقليديون مناطق محظورة.

وكانت مفرزة العمليات ألفا-23، في محاولة منها لتجنّب أسئلة المعنيين التي لا نهاية لها والتدقيق الذي يصاحب أي نوع من العمل الهجومي أو البحث الليلي، قد أرسلت وثيقة تصوّر العمليات عبر سلسلة القيادة على أنها دورية آلية روتينية. وهذا معناه أنه لم يكن مطلوباً سوى الموافقة عليها من قبلي ومن قبل قيادتي المباشرة، ويمكن تلقّي هذه الموافقة في غضون يوم واحد. لقد وافقتُ على المهمة وأوصيتُ رئيسي بالموافقة. وكنت أدركُ الخطر؛ فمن المحتمل أن تشتمل المهمة على تفتيش مدرسة دينية تؤوي عادة عشرات الشبان. ولكنني علمتُ أيضاً أن جيسون، ومارك، ومغاوير الجيش الوطني الأفغاني يخططون بعناية ويُحسنون الدفاع عن أنفسهم. لقد كانت مخاطرة محسوبة، ولكن البدائل كانت عدم الذهاب على الإطلاق، أو قضاء أسبوع في الكفاح لنيل موارد من غير المحتمل أن يحصلوا عليها. وقد دأبتُ على دفع فرقي كلها إلى زيادة وتيرة عملها وتكرار عدد المرّات التي تعمل بها مع الشركاء الأفغان في مهمات مشتركة. ولم يكلف الفريق نفسه حتى عناء طلب الإسناد من طائرة مروحية هذه المرّة، لأنه كان يعرف أنه لن يحصل عليها إلا إذا كانت لديه معلومات مؤكدة بأن ثمة قائدَ متمردين موجوداً. وبدلاً من ذلك اختار الفريق السير في الطرق والممرّات الخلفية بمركبات التنقّل البري بينما يقوم رجلان باستكشاف الطريق قبله.

وبعد شهور من انتشارنا كنّا قد جمعنا كومة من التقارير التي تفيد بأن مدرسة دينية في قرية تدعى كوندي كالاي كانت نقطة عبور معروفة لمقاتلي حقاني القادمين من باكستان. كما وصلتنا تقارير تفيد بأن عدداً كبيراً من الرجال على دراجات ناريّة كانوا يخرجون بانتظام من هذه المدرسة لمضايقة أي شخص يشتبهون في تعامله مع الحكومة الأفغانية أو قوات القوة الدولية للمساعدة الأمنية (إيساف). وكان الفريق يعاني وقتاً عصيباً في معرفة التوقيت الدقيق لخروج تلك الدرّاجات. وعلى أمل أن يحالفهم الحظ، قرروا زيارة المدرسة للفت انتباه المدير المسؤول عنها.

كما عمد الرقيب ماتّ، رقيب الاستخبارات في مفرزة العمليات ألفا، إلى جمع سلسلة من التقارير عن اثنين من الميسرين لنشاط حقاني كانا يعيشان بالقرب من المدرسة وساعدا الجماعات المسلّحة بشكل غير مباشر من خلال تزويدها بالإمدادات، أو الأسلحة، أو المال. ولم يكن الفريق والمغاوير متيقنين تماماً بأن الرجلين سيكونان في المنزل في ذلك المساء تحديداً، ولكنهم خططوا لزيارة كل مجمّعات المباني. وفي أحسن الأحوال، سيمكن العثور على الرجلين واستجوابهما. وفي أسوأ الأحوال، سيعلم الميسران أننا علمنا حقيقتهما وأن معيشتهما ستغدو أصعب قليلاً في المستقبل. وأحبّ الفريق إضافة الشك والارتباك إلى هذه الأنواع من المهمات بالهمس فقط على مقربة من مسمع عائلتَي الرجلين حول وجود أجهزة تنصّت في المنزل وآليات تَتبُّع على سياراتهما. كما دأبوا على فعل أشياء أخرى مثل رمي مذكرة تضم أسماء قادة معروفين في شبكة حقاني وأرقام هواتفهم في محاولة لتعزيز الشك لديهم.

ومكثتُ جالساً وأنا أصغي لساعات إلى اتصالات الفريق اللاسلكية، ولكن كل ما كانوا يقولونه كان يدور في فلك نقاط التفتيش الروتينية وكلمات الشيفرة. ولذلك قررتُ أخذ إغفاءة قصيرة. ويبدو أنهم لم يكتشفوا أي شيء يستدعي الملاحظة في تلك المدرسة. كانت المحاولة "عقيمة".

وبعد ساعات، وقفنا صامتين في مركز العمليات التكتيكية التابع لي، ونحن نحدّق في جهاز اللاسلكي بانتظار رقم سجلّ المعركة لإدراج أسماء الذين أصيبوا. وأخبَرنا مسعفنا أنه ذاهب إلى عيادة ساليرنو للصدمات، في قاعدة العمليات الأمامية، للتحضير لمساعدة الأطباء حين يتم إحضار الرجل الجريح.

وجاء صوت عبر الشبكة: "أرو هيد 2-0، معك 2-3". وحصلت وقفة طويلة. "جريحنا.. الآن قتيل معركة".. وكان الصوت مرتعشاً بشكل واضح. وانتصب شعر رأسي وجفّ حلقي حين زعق اللاسلكي من جديد. "رقم سجل المعركة يتبع.. كونوا على استعداد". وقفة أخرى. "بي.يو 5-4-7-8".

وقال يورك: "إنه ماتّ بوسينو".

"آه، يا الله". كلّنا وقفنا هناك وحسب، متجمّدين من هول المفاجأة. ونظر إليّ كيفن ويورك، وكافحتُ أنا للحفاظ على رباطة جأشي.

على ما يبدو، فإنه بعد أن قاد أحد مغاوير الجيش الوطني الأفغاني سيارته الهامفي، سقطت في حفرة، فقرر الفريق التخلّي عن النزول من المركبات واتّجهوا مباشرة إلى كوندي كالاي لأنهم كانوا متأخرين. وحاولوا تطويق المجمّع الأول لميسري حقاني المشتبه فيهما، ولكن المغاوير تاهوا وذهبوا إلى البيت غير الصحيح. وبعد انتظار أكثر من عشر دقائق لإعادة المغاوير إلى المكان الصحيح في الجانب الخلفي للمجمّع، قرر الفريق الدخول من دونهم. وكانت النساء والأطفال مستيقظين ومجتمعين بالأصل في غرفة واحدة. وكان واضحاً أن الرجلين كانا هناك مؤخراً، وغادرا. وكان من الواضح أيضاً أن تعثّر المغاوير الصاخب في الظلام أفقدهم عنصر المفاجأة. وأصيب الفريق بإحباط لا يُصدَّق من تصرف المغاوير، ولاسيما أنهم كانوا قد تمرّنوا على المهمة لساعات في الليلة السابقة. وعمد الفريق إلى تفتيش منزل آخر مجاور بسرعة وانتقلوا إلى المدرسة. وتحدّثوا إلى مدير المدرسة التي كانت فارغة على نحو غير معهود؛ إذ عادة ما يكون هناك عشرات الطلاب الذكور ينامون فيها. وقال جيسون وملازم الجيش الوطني الأفغاني بحزم لمدير المدرسة إنهم يراقبون

مدرسته من الجوّ، ويتفقدونها، وإنهم سـيعودون إذا سـمعوا أي كـلام عـن دعـم مدرسـته لحقاني. وحيث إن القلق انتاب مفرزة العمليات ألفـا بأنهـا انكشـفت، قـرّرت المفـرزة قطـع المهمة والعودة إلى القاعدة. وسلكوا الطرق الخلفية عبر قرية باشا كالاي. وكما كان إجراؤهم القياسـي المعتاد، قاد الفريق والمغاوير المركبات وأنوارها مطفـأة تماماً مستخدمين نظـارات الرؤية الليلية. وتطوّع اثنان من العناصـر لاستكشاف وجود عبوات ناسـفة أمـامهم، وكـل منهما يقود مركبة كل التضاريس. وكان منطقهم بسـيطاً ونبيلاً: أن تنفجر قنبلة تحت مركبـة كل التضاريس وتقتل رجلاً واحداً أفضل من أن تنفجر قنبلة تحت مركبة تنقُّـل بـرّي وتقتـل ثلاثة أو أربعة رجال. وفي تلك الليلة، تناوب مـاتّ وجيـف، رقيبـا الاتصـالات الأولان في الفريق، على عملية الاستكشاف قبل القافلة. وهـرع أحـدهما قبـل الآخـر فـيما كانـا يشـقان طريقهما بثبات عبر ممرّات وطرق تتسع بصعوبة لسيارة صـغيرة. وفـور خـروجهم مـن وادٍ جاف تماماً، توقّف جيف أمام كومة من الصخور تسد الجانب الأيمن من الطريـق. وأسـرع ماتّ متجاوزاً إياه وانحرف إلى الجانب الأيسـر من الطريق.

وأدى الانفجار إلى قذف هيكل مركبة ماتّ البالغ وزنه 220 رطلاً عشـرين قدماً في الهواء والظلام. وضغط الجميع على فرامل مركباتهم. وعلى الفور، قفز فيل، أصغر عناصـر الفريق ولكنه مسعف ذو خبرة كبيرة، من مركبة التنقّل البرّي التي في المقدمـة وركـض إلى هيكل مركبة كل التضاريس المشتعل الذي كـان فيـه مـاتّ قبـل لحظـات قليلـة. وانضـم جيسون إليه، وبدأ الرجلان البحث بشكل محموم عـن مـاتّ، يصـرخان بعلامـة النـداء الخاصة به، "اللحية السوداء" (بلاكبيرد)، مراراً وتكراراً. وقفز الآخـرون مـن مركبـاتهم ووجهوا المغاوير الأفغان المرافقين للجوء إلى محيط آمن لحمايتهم مـن كمـين تـالٍ. وعنـدما عثر جيسون وفيل على ماتّ، لم يكن واضحاً إذا ما كان ما يزال على قيد الحياة. وباشـر فيل عمله بسـرعة ولكن بدقة ورباطة جأش، محاولاً إسعافه. وسـرعان ما أصبح واضـحاً أنـه ما من أمل. فقد لفظ ماتّ أنفاسه الأخيرة، وأصاب الخبرُ الفريقَ بالصدمة.

وبانتظار مروحية الإخلاء الطبي لنقل جثمان ماتّ، أزال الفريق ما تبقى من مركبـة ماتّ بالمتفجرات والقنابل اليدوية الحارقة. أرادوا ألا يعطوا مقـاتلي حقـاني متعـة التقـاط

الصور إلى جانب بقايا المركبة في اليوم التالي ونسخها في أقراص الفيديو (دي في دي) التي كانوا يبيعونها في أسواق ميرام شاه بباكستان.

وفيما كانت مروحية الإخلاء الطبي تهبط في حقل مفتوح إلى يسار القافلة، انحنى مارك فوق جثمان ماتّ وأمسك يده. ورسم علامة الصليب على صدره وقبّله قبلة الوداع على جبينه.

ومع إقلاع المروحية، صبّ الفريق جام غضبه فوراً على المجمّع الواقع على بعد اثنتي عشرة ياردة خلف الفجوة في الطريق وهيكل المركبة المحترق. فمن المحال في المناطق الريفية في أفغانستان، حيث عاشت العائلات في المنازل نفسها مئات السنين، والجميع يعرفون بعضهم بعضاً، ألا يكون سكان المنزل على علم، على الأقل، بمن حفر الحفرة في الطريق الترابية الوعرة. هذا على افتراض أنهم لم يحفروها بأنفسهم. ومن الواضح أن الحفرة قد حُفرت في الجانب الأيسر من الطريق، ووُضعت المتفجرات، وتم ترتيب الصخور لتوجيه المركبات مباشرة نحو القنبلة. وتم تفجير العبوّة الناسفة إما بواسطة سلك أو صفيحة ضغط ربما تم تسليحها عن بعد. وفتح المغاوير والكثير من العناصر بوابات المجمّع وأبوابه تنتابهم رغبة في الانتقام، وأخرجوا ستة رجال وكبّلوهم بأصفاد مرنة وأخذوهم للاستجواب.

وبحلول الوقت الذي أتيح للفريق فيه إخلاء جثمان ماتّ وتفتيش المجمّع، كانت الشمس تزحف فوق الجبال الشرقية صوب الشرق على امتداد الحدود الباكستانية. وصدح أذان صلاة الفجر من مآذن المساجد في جميع أنحاء الريف. وكان معنى انتهاء الظلام أن الفريق أصبح عُرضة للمزيد من تفجيرات العبوات الناسفة. ومنذ البدء في استخدام المركبات المحصّنة ضد الكمائن والألغام، تمثّل رد فعل المسلّحين ببساطة في نصب عبوات ناسفة أكبر وأقوى للتغلّب على التصفيح الإضافي؛ فلو أن فريقاً انفجرت به عبوة من هذا النوع، فسيعني ذلك الموت المؤكّد لأفراد الطاقم جميعاً.

وهناك، في قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو، أمر كيفن مفرزة العمليات برافو بتجهيز مركباتنا لتكون على استعداد لتشكّل قوة رد سريع. وكانت مفرزة العمليات ألفا-23 تواجه يوماً طويلاً وأكثر صعوبة، وكنا نخشى أن يكون كل المتمردين في صباري يحتشدون لمهاجمة الفريق من جديد فيما كانوا يحاولون المناورة عائدين إلى القاعدة. ولحسن الحظ، بعد ساعات من التوتّر، تمكّن الفريق من العودة إلى قاعدتنا من دون وقوع حوادث. وكانت الملامح البادية على وجوه الرجال وهم يدخلون بوابة قاعدة العمليات الأمامية ويركنون مركباتهم مزيجاً من الغضب والصدمة والإرهاق. وبدأ مارك فوراً حزم أمتعته ليتمكّن من مرافقة جثمان ماتّ إلى الوطن. وطلبتُ منه أن يتوقّف، ويأخذ نفساً عميقاً، ويفكّر في إرسال شخص آخر. فبوصف مارك الرقيب في الفريق، كان يُعَدّ عمود الفريق الفقري، وأنا في حاجة إليه لإبقاء رجاله في المعركة. قلتُ له: "لا يمكن لهذا الفريق أن يتوقّف عن العمل في غيابك. لن تتوقّف الحرب في غيابك، وأنا في حاجة إلى مفرزة العمليات ألفا هذه، والمغاوير هناك"، قلتها وأنا أشير فوق كتفي صوب البوابة.

أجاب مارك بصوت منخفض والدموع تترقرق في عينيه: "أريد أن أكون هناك مع ماتّ وعائلته".

أجبتُه بحزم مشوب بالرفق: "أريد منك التركيز على الأحياء والحفاظ على أرواح من تبقّى من هؤلاء الرجال وإبقاءهم فعّالين للقتال. علينا جميعاً أن نضع حزننا جانباً ونتعامل معه في وقت لاحق". وفي نهاية المطاف، رضخ للأمر، وقام الرقيب الأول كيفن بمرافقة جثمان ماتّ إلى الوطن. إنني أعرف حجم الألم الذي كابده مارك لعدم ذهابه إلى هناك، ولكن علينا كقادة أن نضع مشاعرنا والألم الذي يعتصر قلوبنا جانباً، ونركّز على المهام التي تنتظرنا.

وأقمنا في تلك الليلة مراسم تأبين وداعية لماتّ قبل إقلاع الطائرة التي تقلّ جثمانه في قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو. وربضت طائرة الشحن من طراز سي-130 في الظلام على المَدرج الصغير ومراوحها تدور وباب أرضيتها متدلٍّ صوب عيادة القاعدة. وكان

هناك وهج أزرق خافت يملأ داخلها الفارغ. وبدأ الجنود يتدفّقون من شتى المباني لوداع الجثمان من الممشى الممتد من العيادة إلى الطائرة، وفوجئت بعدد الذين خرجوا. كان هذا دليلاً على كثرة الذين أثّر ماتّ فيهم في القاعدة. فلأن مهاراته كانت متعدّدة جداً، تعامل بشكل منتظم مع الجميع، من الطيارين إلى محللي الصور الجغرافية-المكانية الذين شاركوا في مهمات التخطيط. كان زعيماً في الفريق وفي وحدتنا بأكملها. وكان يتمتّع بخبرة قتالية في العراق وجاء إلينا مؤخراً من وحدة الخدمة الفعلية. وبالرغم من أنه كان جديداً نسبياً على الجيش، بعد أن كان يعمل شرطي دوريات في ماساشوستس قبل الالتحاق بالجيش، فإنه كان بارعاً وبشكل لا يُصدّق في كل جانب تقريباً من جوانب كونه عنصراً في القوات الخاصة.

كان ماتّ يجسّد بحق عبارة "طويل القامة، داكن البشرة، وسيماً". كان يبدو كنسخة إيطالية من أرنولد شوارزينجر. وكان مولعاً بالنساء. فمن أصعب المهام التي اضطر الفريق للتعامل معها الرد على الدفق المستمر من الرسائل الواردة إلى هاتف ماتّ المحمول في الأسابيع التي أعقبت وفاته وشرح ما حدث للكثير من النسوة؛ من العاملات في مجال التعهدات إلى قائدات الطائرات في مسرح العمليات. ومن أفضل مآثره قصة موعده الغرامي مع قائدة مروحية. فعلى ما يبدو أن ماتّ لفتَ أنظار قائدة مروحية شينوك في أثناء زيارتها لقاعدة باجرام الجوية بهدف زيادة التمويل للعمليات. وبعد أسابيع، حين كانت تقود مروحيتها في مهمة إمداد روتينية، أعلنتْ عبر اللاسلكي أنها تعاني مشكلة تتعلّق بالصيانة. وتعيّن عليها الهبوط بمروحيتها بشكل مريح في قاعدة أمامية تَصادف أن ماتّ ومفرزة العمليات ألفا كانوا فيها يعدّون العدة للانطلاق في مهمة. وبعد نحو ثلاثين دقيقة وموعد غرامي سريع مع ماتّ، حُلّت مشكلة الصيانة بأعجوبة وشقّت المروحية طريقها في الجوّ.

وفيما كان جنود قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو يصطفون لتأدية مراسم الوداع، صعد رجال مفرزة العمليات ألفا-23 إلى ثلاجة حفظ الموتى الصغيرة الملحقة بالعيادة

لإلقاء نظرة الوداع على ماتّ. وقاموا بفتح سحّاب الكيس الذي يحوي جثمانه ليضعوا في داخله قبّعة فريق "بوسطن ريد سوكس" ونظارته الشمسية التي كان يحبها. وضحكوا في سرهم وهم يتخيلون مدى دهشة الجندي المسؤول عن شؤون الموتى حين يفتح كيس جثمان ماتّ لتحضيره للدفن. كان كل فريق يتعامل مع خسائره بطريقته. وقد غلّف هذا الفريق عبء الحزن الثقيل الذي يرزح تحت وطأته بروح الدعابة. كانوا يعرفون أن هذا هو ما كان ماتّ سيرغب في تحقيقه.

ودَفعَ الرجال ببطء جثمان ماتّ الملفوف بالعلم على عربة نقّالة عبر صفوف الجنود إلى الطائرة الرابضة. وكانت المجموعة الأخيرة تضمّ المغاوير الأفغان. وقف كل جندي منتصباً كالعمود في وضعية الاستعداد، مرتدياً بزّته الزيتية المموّهة وقبعته الخضراء الفاتحة اللون، يؤدي تحية ترقى إلى مرتبة الكمال. كان ذلك تكريماً يليق بجندي يكنّون له الاحترام العميق، وعلامة على الصلة الطيّبة التي كوّنها ماتّ معهم.

وقام مسؤولو التحميل في سلاح الجو بإنزال جثمان ماتّ بعناية إلى أرضية طائرة الشحن وثبّتوه بالأحزمة في مكانه بلطف. ووقف صف من مئات الجنود في وضعية الاستعداد في الظلام فيما كان يتم إغلاق باب أرضية الطائرة. وجلس الفريق على الأرض معه، ووضع كلٌّ منّا يداً عليه فيما كانت الطائرة تقلع إلى باجرام، المحطة الأولى من رحلة ماتّ الطويلة إلى الوطن. ونظرتُ إلى كيفن وأخبرته عن مدى امتناني له لتطوّعه لمرافقة ماتّ في الرحلة إلى الديار. لقد كان الاضطلاع بهذه المهمة صعباً ويبعث على الأسى، ومكّنني ذلك من مواصلة التركيز على الوحدة.

جلستُ في الطائرة على المقعد الشبكي في الخلف، أُفكر في نظام الإبلاغ عن الخسائر والمساعَدة، الذي جرى تطويره طوال سنوات منذ بدء الحرب في العراق وأفغانستان، والذي يوضَع الآن موضع التطبيق. لا بدّ من أن الجنود المسؤولين عن سجلات الموظفين في مقرّي قد عمدوا أصلاً إلى مراجعة "نموذج وفاة" ماتّ، ذاك المسح الاستطلاعي المثبّط

للهمة والسابق للانتشار الذي ملأناه جميعاً. وقد عَدّدتِ النماذجُ طريقة التعامل مع كل جانب من جوانب الأمور التي نودّها في حال وفاتنا، انتهاءً بالموسيقى التي نرغب في أن تُعزَف في جنازتنا. وتعيّنَ عليَّ وعلى كيفن مراجعة كل نموذج لتجنّب تكرار السخرية الجنائزية من القتلى السابقين من أصحاب القبعات الخضر الذين طلبوا حضور نجوم سينمائيين مراسم التشييع، أو طلبوا أن يتم دفنهم في الفناء الخلفي لبيت الزوجة السابقة. وكانت المركبة التي تقلّ قسّ الجيش ومسؤولاً عسكرياً، ليقوما بذلك "القَرع المصيري" على الباب الأمامي لمنزل عائلة بوسينو، تشق طريقها إلى بيته في فلوريدا.

وفي الوقت نفسه، كان جهاز الاستخبارات العسكرية يعمل بدأب لتعقُّب الجناة الذين تَسبّبوا بوفاته. وكذلك كان لدينا فرق استخباراتنا البشرية ومحقّقونا الذين يستجوبون الرجال الأفغان الذين اعتقلتهم مفرزة العمليات ألفا–23 من المجمّع السكني بالقرب من موقع الانفجار. وتوقفتُ في مقرنا في باجرام للالتقاء بالمحلّلين في مديرية الاستخبارات J-2 [تدعم رئيس هيئة الأركان المشتركة] الذين كانوا يغربلون كميات هائلة من البيانات لاستكمال المعلومات حول مَنْ كان يتحدّث إلى مَنْ قُبيل الانفجار وبعده. وكانوا لا ينعمون بالنوم تقريباً منذ وفاة ماتّ قبل ليلتين، وإني أقدّر تفانيهم جداً. كذلك أقدّر سخرية الموقف. فلسنوات، حين كنتُ أعمل في البنتاجون (وزارة الدفاع)، وفي البيت الأبيض، وفي الميدان، كنتُ أشكو أن أجهزة استخباراتنا العملياتية تركّز أكثر من اللازم على استهداف قادة المتمرّدين. وكان هذا جانباً مهماً من مكافحة التمرّد، ولكنني اعتقدتُ دائماً أن هذا طغى كثيراً على العمل الذي يماثله أهمية وهو فهم الديناميات المحلية القبلية، ودوافع أمراء الحرب، ومصادر الفساد، وغيرها من العوامل التي كانت تجعل الناس يدعمون التمرّد. والآن، ها أنا ذا أحثّ كلّ مَن أمكنني حثّه لتخصيص وقته لاستهداف قتلة ماتّ.

كان أحد قادة حقاني على وجه الخصوص يفاخر في الكثير من المساجد في جميع أنحاء صباري بأن رجاله زرعوا العبوة الناسفة التي نجحت في قتل أمريكي. وكان يسرد

أيضاً نجاحه أمام رؤسائه في ميرام شاه، المقر المعروف لشبكة حقاني التي كانت خارج نطاق سيطرتنا، في باكستان. وقال للناس في مساجد صباري إن الأمريكيين، شأنهم شأن أدنى شخص في الحكومة الأفغانية رتبة، لن يقدروا على المساس به أبداً. وهو يعتقد أن هذا يُعدّ سبباً قوياً يدعو الناس الطيبين في صباري إلى الاستمرار في مساعدة شبكة حقاني إلى أن تحقّق انتصارها الحتمي. وكانت جلسات تبجّحه المتعددة مصدر سقوطه؛ حيث تمكّنا منه ومن جميع شركائه. فبعد بضعة أيام، أكد الفريق في باجرام، الذي يعمل مع رجالي في ساليرنو، المعلومات المقدّمة من عدد من المخبرين. وتَمكّن رجالنا من حصر مواقع قائد شبكة حقاني، وصانع عبواته الناسفة، والكثير من رجاله، في مجموعة من المجمّعات السكنية بالقرب من قرية خولبيسات. كانت القرية قريبة بشكل مدهش من قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو. وكدليل آخر على ما يكنّه كبار الضباط لماتّ، اقترَحتْ وحدات متعددة أخرى تنفيذ المهمّة بالنيابة عنّا، كما عرضتْ علينا عتادها الاستخباراتي للمساعدة في ضبط الجناة.

ونشرت قياداتنا العليا مركبة تجريبية تُدعى تحبباً "آس هامر AssHammer" لقدرتها على العثور على مواقع المتمرّدين وتحديدها بدقة متناهية. وعادة ما كانت الطائرات أو الطائرات من دون طيار المزوّدة بأجهزة تجسّسية متخصّصة هي التي تنفّذ هذه المهمّة، ولكن هذه الطائرات كانت سلعة نادرة ولم يكن ممكناً إبقاؤها معنا إلا لوقت محدود فقط. ولكن مركبة الـ "آس هامر" يمكن أن تبقى في حوزتنا طوال مدة المهمّة.

وبعد نحو عشرة أيام، تلقّى تود مكالمة في وقت متأخر من مساء أحد الأيام من أحد مخبرينا في مديرية صباري أفاد فيها بأن قائد حقاني وصانع قنابله كانا مجتمعين في تلك الليلة في أحد المجمّعات السكنية التي كنّا قد حدّدناها. وتمّت الموافقة على مهمتنا وفق ما سميناه "تصوّر العمليات على أساس السبب الداعي" الذي أتاح لنا تزويد المعنيين بالمعلومات اللازمة قبيل تنفيذ المهمّة عبر سلاسل القيادة المتعدّدة، بحيث تتم الموافقة مسبقاً على موقع المهمّة وتصوّرها ومن ثمّ يمكننا مباشرة العمل بسرعة حال تلقينا نوعاً

معيناً من أمر المباشـرة، مثل مكالمة من مصدر. وفي الواقع، كانت مسألة تعقّب ما يزيد على العشـرة من قادتنا الذين يتعيّن علينا الحصول على موافقتهم النهائية تستغرق وقتـاً طـويلاً بشكل لا يصدق. كنّا على يقين من أنه لا يمكن إنجاز كل ذلك في غضون بضـع سـاعات تفصل بين تلقّينا اتصالاً من مخبرنا والحاجة إلى مباشـرة المهمّـة في تلـك الليلـة. أضِـف إلى ذلك أننا كنّا نعرف أصلاً من المخططين في وحدة الطيران أن مروحياتهم الهجومية أباتشـي قد سُحبت لتنفيذ مهمة أخرى في ذلك المساء، وبذلك لـن نكـون قـادرين عـلى اسـتخدام مروحيات الشـينوك. ومن جديد، قرّرنا المجازفة أكثر بسبب نقص موارد الطيران وعملية الموافقة على مهمتنا المعقّدة التي فرضـناها بأنفسـنا. وقـدّمنا المهمـة عـن طريـق التسلسـل باعتبارها دورية آلية ليلية. ولم يغب عن بالي أن هذا هو بالضبط نوع القرار الذي كنتُ قـد اتخذتُه في الليلة التي سبقت مهمّة ماتّ النهائية. وقررنا جلب مفـرزة العمليـات ألفـا-22 من قاعدتها خارج مدينة غارديز في ولاية باكتيا المجاور لتكون في حوزتنا القوات اللازمـة لتفتيش كل المجمّعات السكنية المشتبه بها في وقت واحد. وسمينا العملية "صعود اللحيـة السوداء" بلاكبيرد رايزينغ.

واقتضت الخطة التحرّك في ثلاث قوافل منفصلة إلى موقع النزول من المركبات عند مجموعة من التلال تبعد نحـو ثمانيـة كيلـومترات عـن قريـة خولبيسـات. ولم نكـن نريـد المخاطرة بقيادة مركباتنا في أي مكان بالقرب من القرية، لأن صـباري مشـهورة بسـمعتها السـيئة بوجود شبكة مُخبري حقاني الذين يمكنهم بسهولة تنبيه مجموعة من المقاتلين وقلب المعادلة ضدنا. وغادرت مفرزة العمليات ألفا-22 ومفرزة العمليـات ألفـا-23، وفي كـل منهما فصـيل من المغاوير الأفغان، في قافلتين منفصلتين وبنظـارات الرؤيـة الليليـة، وهـم يتجهون إلى موقع النزول من المركبات. وكانت خليـة القيـادة والسـيطرة التابعـة لي مـن مفرزة العمليات برافو، التي تضمني وفرانس ويورك وكيفن وأشخاصـاً آخـرين، تسـير متأخرة بما يقرب من ثلاثين دقيقة. وبقي رقيب العمليات التابع لي هناك في المقـر يحرسـه. وانتقلنا في خليط من المركبات؛ المركبات المحصنة ضد الكمائن والألغام؛ ومركبات التنقّل البرّي؛ ومركبات كل التضاريس المناسبة لوعورة الطرق التي كنا نخطط للسير عليها. كنا

نعرف أن قادة حقاني دفعوا أموالاً للقرويين الذين يسكنون في المجمّعات بالقرب من قاعدتنا لتنبيه فرقهم المتخصّصة بالعبوات الناسفة عندما تغادر مركباتنا البوابة الرئيسية، ولذلك غادرنا عمداً من نقاط خروج مختلفة وانتقلنا إلى الموقع في ثلاثة اتجاهات متباينة. وعند وصولنا، كانت مفرزتا العمليات ألفا وفصيلتا المغاوير جميعها راجلة بالأصل، ومستعدّة لبدء مسيرة المشي الطويلة إلى أهدافها.

ولم نصل إلى الموقع من دون وقوع حادث. فقد ارتطمت إحدى مركبات التنقّل البرّي بحفرة ضحلة فيما كانت القافلة تشق طريقها عبر وادٍ ضيق. وانكسرت الوصلة التي تربط المحور بالإطار الأيسر. فبقي كيفن ويورك هناك مع مركبة ثانية لتوفير الأمن، بينما حاول ميكانيكي إصلاح المركبة. وكنا قد اخترنا بعض مسارات الطرق الوعرة البغيضة جداً للإبقاء على عنصر المفاجأة، وسيكون من الصعب، في أحسن الأحوال، قَطر المركبة المتعطلة عبر متاهة من الأودية والمنعطفات الضيقة والقاسية. ولحسن الحظ كنا قد نشرنا مركبة "آس هامر" على أعلى تلّة مجاورة، بحيث تمكّننا أجهزة التجسّس فيها من تحديد خط رمي إلى الأهداف. وفور وصول مشغّلي أجهزة التجسُّس إلى قمة التل، اتصلوا لإخبارنا بأنباء مخيفة: "أرو هيد 2-0.. معك آس هامر، هناك رجلان يتحدّثان عن مركبة أمريكية معطّلة".

إذا فقدنا عنصر المفاجأة، أمكن أن يكون هؤلاء الرجال يسيرون صوب فخٍّ، وسيكونون أبعد ما يكون عن أي نوع من أنواع الإسناد. وحيث إننا أسمينا المهمّة دورية ليلية بسيطة، لم يكن لدينا أي عتاد مخصّص مثل طائرات بريداتور أو إسناد جوي قريب. والآن يتعيّن عليّ أن أقرر إذا ما كنا على وشك أن نطلب المستحيل، أو كان يتعيّن عليّ إلغاء المهمّة. وكان الوضع سيئاً، لأنني مع رغبتي العارمة في إلقاء القبض على قَتَلة ماتّ، لا يمكنني إرسال أكثر من ستين عنصراً ومغواراً في كمين بإحدى أشد المناطق عدائية في أفغانستان.

وسألتُ طاقم آس هامر إذا كان في وسعهم تحديد مكان الرجلين أو لا، فأجابوا بأنهما كانا قادمين بالتأكيد من اتجاه خولبيسات. كان الرجلان يتحدثان عن إرسال بعض

"الأصدقاء" لمساعدة المركبة، من الواضح أنهما استخدما اختياراً سيئاً لكلمة السر لتغطية عزمهما إرسال مقاتلين لمهاجمة المركبة.

وطلبتُ من فرانس الاتصال بقاعدة العمليات الأمامية ساليرنو لمعرفة إذا ما كانت هناك أي مركبات أخرى معطّلة في صباري أو أي طريق رئيسية. كما طلبتُ منه ضمان إبلاغ كيفن، الذي كان ما يزال يعمل على إصلاح المركبة المعطّلة، بما يجري، وأن يتّخذ أقصى درجات الحيطة والحذر.

كذلك أجريتُ محادثة سريعة مع جيسون ومارك، اللذين يعطيان تعليمات نهائية لقائد فصيل المغاوير، خالد، وهو رجل بشتوني قصير ونحيل من ننجرهار. وكانت مفرزة العمليات ألفا-22 قد غادرت بالأصل مع مغاويرها، لأنها كانت مسؤولة عن الإغارة على أبعد مجمّع سكني. "يا رجال، أعلمُ أنكم لا تريدون سماع هذا الخبر، لكننا قد نكون عُرضة للخطر. علينا اتخاذ قرار بسرعة. أنا مستعد لسماع الاقتراحات، ولكني أميل إلى سحب المفرزة-22 والقتال في يوم آخر".

وأجاب مارك: "مايك، أنت تعرف ماذا تعني هذه المهمّة لنا. المصدر اتصل للتو بتود في خليته وأكد أنهما في أحد المجمعات السكنية التي حدّدناها. الأوغاد هناك!".

كان مترجم الفريق يترجم حديثنا لخالد، الذي قال: "سيدي، يجب علينا القيام بهذا الأمر. أنا أعرف هؤلاء الناس. إنهم أبناء جلدتي. بشتون. إننا في حالة حرب لألف سنة. القوة هي الشيء الوحيد الذي يحترمه هؤلاء الناس". وأطبق قبضته. "يجب أن نظهر لشعب خوست أننا أقوى من جماعة حقاني. يجب علينا أن نبرهن أن الحكومة الأفغانية ستكون المنتصرة. إنها الطريقة الوحيدة التي تجعل الشعب الأفغاني يتبعنا بدلاً من أن يتبعهم".

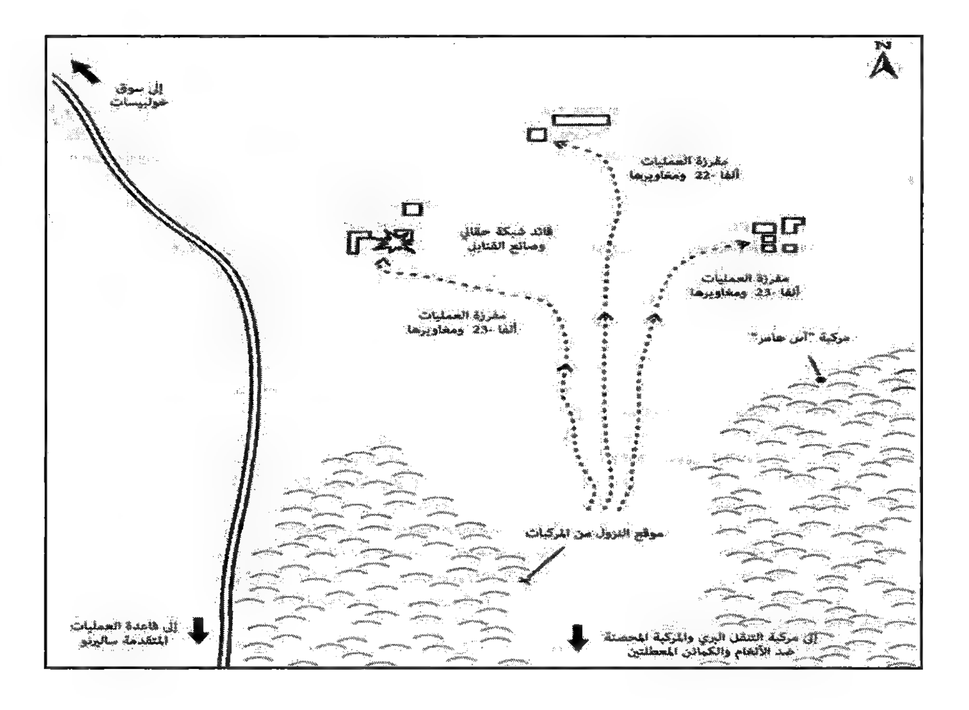
وقفنا هناك يلفّنا الصمت وعتمة الليلة الباردة فيما ظلّت كلمات خالد معلّقة في الهواء.

وهرول فرانس نحو المجموعة. "أيها السادة، تركتُ للتوّ جهـاز اللاسـلكي، هنـاك مركبة أمريكية أخرى معطّلة. الوحدة في ساليرنو أرسلت للتو مركبة إنقاذ خـارج البوابـة الرئيسـية لسحب المركبة المعطّلة على الطريـق الرئيســي إلى الشــرق مـن الحـدود. قـد لا تكون مركبتنا تلك هي التي يتحدثون عنها".

لم نكن نعلم علم اليقين، ولكنني شعرت بأنه ثمة احتمال أكبر كثـيراً بـأن المتمـرّدين كانوا يتناقشون في أمر المركبة المحصّنة المعطّلة على الطريق الرئيسـية ولـيس مركبـة التنقّـل البرّي التابعة لنا الموجودة في حفرة ضمن مجموعة مـن الـتلال المعزولـة. وكانـت مهمّتـي كقائد إدارة الخطر الماثل واتخاذ هذه الأنواع من القـرارات. كـان علـيّ تمحـيص الحقـائق، والتكاليف المترتّبة على التصـرف، والتكاليف الناجمة عن عدم التصـرف. وقد تجنّبتُ اتخاذ قرارات مفرطة الجرأة ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

خريطة (15)

مخطط عملية "صعود اللحية السوداء"



قلتُ وأنا أصافح ملازم المغاوير: "حسنٌ. اذهبوا واقبضوا عليهما، يا رجال". وعرف ما قصدتُه من دون ترجمة. فالتفتَ وأعطى الأوامر لرجاله الواقفين حول مركباتهم بصوت عالٍ.

ورجعتُ إلى الخلف وراقبتُ من خلال منظار الرؤية الليلية جيسون ومارك والملازم خالد وهم يقومون بصفّ رجالهم. كانت نظارات الرؤية الليلية الخاصة بالمغاوير من النوع القديم، ورفض أغلب المغاوير استخدامها. وحاول أفراد مفرزة العمليات ألفا مراراً وتكراراً شرح مدى أهميتها في جعلهم قادرين على الرؤية ليلاً في أثناء المهام. ومع ذلك، رأيتُ الكثير من رجال المغاوير يضعون هذه النظارات في الجيب الجانبي لسراويلهم المموَّهة مربوطة بأحزمتهم بقطعة حبل رقيقة. ويبدو أنه في التبديل الذي سبق وصولنا أضاع أحد المغاوير نظارته، فأرسلت وزارة الدفاع الأفغانية المغوار الذي فقد نظارته إلى السجن في محاولة لإرسال رسالة قوية إلى كل الرتب. ونتيجة لذلك، آثر الكثير من المغاوير عدم استخدامها، بل حملها بشكل آمن في جيوبهم بدلاً من المخاطرة بفقدانها فيلقون مصير زميلهم. وتابعتُ الوضع فيما كان صفّ المغاوير يبتعد وهو يتعثّر ويدوس فوق عقبات غير مرئية في الحقل الذي كانوا يعبرونه في طريقهم إلى أهدافهم.

وبشكل عام، اعتقدتُ أن مفهوم إنشاء المقاتلين المغاوير كان فكرة جيدة. وكما هي الحال في كثير من الأحيان، جاءت الفكرة من القاعدة إلى القمة، ومن التجربة الميدانية، واستغرقت سنوات حتى تحوّلت إلى واقع ملموس. وتنطوي الفكرة الأصلية على أخذ كتيبة واحدة من كل ستة ألوية في الجيش الوطني الأفغاني، وتزويدها بتدريب إضافي، وبمعدات وأسلحة أمريكية متقدمة، وتعيين مفرزة العمليات الخاصة ألفا للاستمرار في تدريبهم ومرافقتهم في العمليات. وكان الهدف هو إنشاء بنية مماثلة لكتيبة صاعقة يمكنها مواصلة الضغط على قيادة المتمرّدين في إطار الجهد الأوسع الرامي إلى جعل الجيش الوطني الأفغاني يضطلع تدريجياً بهذا الدور بدلاً من قوات التحالف.

وعدتُ بذاكرتي إلى عشرات الاجتماعات في البنتاجون حول سياساتنا المتعلّقة ببناء الجيش الوطني الأفغاني ودعمه. وكانت المناقشات والجدالات المتعلقة بالسياسات تركّز على حجم الجيش وقدراته واكتفائه. وأكّدتُ أنا وزملائي باستمرار لقيادتنا أن سبعين ألف جندي من الجيش الوطني الأفغاني لن يكفوا أبداً لبَسط الأمن في أفغانستان. فقد جرى اختيار ذاك الرقم بشكل عشوائي، في صيغة معقّدة استخدمت مُدخلات من المجتمع الدولي عبر هيئة حكومية أممية-أفغانية مشتركة لصنع القرار دُعيت "المجلس المشترك لمراقبة التنسيق"، ومن قدرات "القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان" التابعة لقيادة التدريب الأمريكية على تدريب القوات بمواردها المحدودة، ومن الكونجرس الذي أذِن بتخصيص الأموال. وضغَط مكتبي في البنتاجون مراراً على القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان وعلى هيئة الأركان المشتركة للشروع في تقييمٍ أكثرَ استراتيجيةً لتحديد أعداد قوات الأمن الأفغانية المطلوبة لتلبية الاحتياجات الأمنية القصيرة الأمد والطويلة الأمد في أفغانستان.

وظللت أسأل في اجتماع تلو اجتماع: "كيف نعرف أن سبعين ألفاً هو العدد الصحيح؟ كيف نعرف أن لدينا التوليفة الصحيحة من القوات؟ هل يتضمّن هذا العدد ما يكفي من طواقم الدعم-الطواقم اللوجستية، وكوادر التدريب، ومسؤولي المشتريات-أو ترانا نخطط لأن تقوم الولايات المتحدة بتوفير ذلك النوع من الدعم في السنوات المقبلة؟". وبعبارة أخرى، لم يكن الحجم المستهدف للجيش الوطني الأفغاني قائماً على أساس قائمة بالاحتياجات تم وضعها بالتنسيق مع الأفغان، وإنما على أساس ما اعتقدنا أننا قادرون على تحصيله من الكونجرس وما يمكن لعدد محدود من مدربي التحالف العسكريين أن ينجزوه في أفغانستان. وفي الواقع، ضغط علينا وزير الدفاع [الأفغاني] عبدالرحيم ورداك مراراً في أثناء زياراته إلى واشنطن قائلاً إنه في حاجة إلى قوة أكثر عدداً وأفضل تجهيزاً لتنفيذ المهمات الشاقة التي ينهض بها جيشه. وقد كان ورداك المتعلّم في الولايات المتحدة صوتاً متعقّلاً ثابتاً في بناء جيش محترف موالٍ لحكومته المدنية والدستور الأفغاني. وكان ملتزماً بصدق ببناء أفغانستان أفضل، وشاكراً حقاً للولايات المتحدة.

وطوال السنوات المتعددة التي دأب فيها على المجيء إلى واشنطن، ازداد إحباطه لعدم قدرته على تحويل مجرى الأمور في أفغانستان، ولكنه لم ينتقدنا قطّ. ولسوء الحظ فإن قيامه بطلب طائرات مقاتلة متطوّرة ودبابات، لم يكن في مصلحة طلبه المحق بتعزيز القوات الأفغانية؛ لأن ذلك أدى إلى صرف النظر عن طلباته على أساس أن مصدرها وزير دفاع دولة من دول العالم الثالث يطلب المزيد من أجل الحصول على المزيد فحسب. وضاعَت في الزحام رسالته بأن أفغانستان تعيش في جوار صعب وتحتاج إلى جيش أكثر قدرة من مجرد قوة مشاة خفيفة بسيطة مجهزة لبَسط الأمن الداخلي كما تراءى للبنتاجون.

وفي الوقت نفسه، حثثنا هيئة الأركان المشتركة والجيش على زيادة عدد المدرّبين لتحسين نوعية الجيش الوطني الأفغاني وزيادة عدده. ودفعنا قضيتنا في بيروقراطيات السياسات والجيش من خلال نائب مساعد وزير الدفاع ميتش شيفرز، وهو تاجر سندات ومسؤول تنفيذي سابق أُغرم بأفغانستان بعد أن تطوّع للذهاب إلى كابول بصفة مستشار أول لوزارة المالية. ودأب ميتش على الإشارة إلى انعدام التناسق الواضح في استراتيجيتنا. وأبرزت المراجعة الاستراتيجية 2007 التي أجراها البيت الأبيض للحرب في أفغانستان الجيشَ الوطني الأفغاني بوصفه دعامة أساسية لتحقيق النجاح والمساعدة على الانسحاب في نهاية المطاف؛ ومع ذلك كانت القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان تعاني نقصاً مزمناً في الأفراد. وفضلاً عن ذلك، كان موظفوها خليطاً من وحدات الحرس الوطني، والمتعاقدين، والجنود المعارين من القوات البحرية والسلاح الجوي. وكذلك ضغطنا لتعزيز التماسك والمستوى العالي من التدريب الموجود في أفضل وحدات الخدمة الفعلية لدينا، مثل الفرقتين 82 و101 المجوقلتين.

ولقد وجدتُ أن مسألة النوعية في القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان ومقاومة استخدام أفضل وحدات مشاتنا في التدريب أمر مؤسساتي في الجيش، وليس نتيجة خلاف على السياسات. وكانت خلاصة القول أن مَن كانوا برتبة عقيد أو فريق أول ويقودون ألوية وفِرَقاً أرادوا قيادة تلك القوات في المعارك، وليس تقسيمها إلى فرق تدريب صغيرة ملحقة بحيث يمكن دمجها بالجيش الوطني الأفغاني. فقيادة وحدة عمليات

في العراق وأفغانستان شكّلت نقطة انطلاق حاسمة في المسيرة المهنية لأي ضابط. ونتيجة لذلك، أُسندت مهمّة التدريب وتقديم المشورة، المنوطة بالقيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان، إلى جنود الاحتياط المعارِين، بينما تم التعامل مع مهمة مكافحة التمرد من قبل وحدات المشاة في الخدمة الفعلية. وجادلتُ من دون جدوى بأن أفضل وحداتنا يجب أن تنفّذ عمليات مكافحة التمرّد من خلال الجيش الوطني الأفغاني، وليس بشكل مستقل عنه.

وظلّ "طلب القوات" الرسمي طوال عام 2007 ونصف عام 2008 من جانب القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان، المعروف باسم RFF 622 والمتضمّن طلب توفير مدرّبين إضافيين، بلا استجابة. ومن الـ 2,391 جندياً اللازمين لتدريب الجيش الوطني الأفغاني وتوجيهه، لم يُعيَّن سوى 1,062؛ أي بنسبة 44٪. أما التزامنا مع الشرطة الأفغانية فكان أسوأ، إذ كانت نسبة التلبية 39٪ فقط. وحين كنّا ما نزال نعمل على زيادة عدد القوات في العراق، وإلى أن حصلت أفغانستان على قوات إضافية، كان العمل يجري على تعزيز وحدات تنفّذ عمليات قتالية وليس القيام بمهام التدريب وتقديم المشورة. أما حلفاؤنا الأوروبيون في الناتو (حلف شمال الأطلسي) فكانوا متخلّفين أكثر في الوفاء بالتزاماتهم بتوفير المدرّبين، حيث لم تتم الموافقة إلا على 31 من 71 من فرق التوجيه اللازمة لمشاركة الجيش الوطني الأفغاني. وكان من المحبط جداً أن تتبنّى قيادتنا تطوير الجيش الوطني الأفغاني والشرطة كجهد رئيسي استراتيجي في الحرب في الوقت الذي يلاقي فيه طلب المدرّبين المدمجين الرفض بشكل منهجي. وقد اعترف تقرير البنتاجون الرسمي إلى الكونجرس حول الحرب الأفغانية في تلك السنة بأن مهمة التدريب كانت تفتقر إلى العدد الكافي من المدرّبين، ولكنه أوضح ببساطة أن "عمليات الانتشار في أفغانستان تتم بمراعاة الأولويات الأخرى في بعض مناطق العالم".[1]

وقد حثّت الولايات المتحدة المجتمع الدولي في فبراير 2008 على منح الموافقة على تحقيق زيادة معتبَرة في عدد الجيش الوطني الأفغاني من 70 ألف جندي إلى 80 ألفاً، ومن ثم زيادة أخرى إلى 134 ألفاً في أواخر ذلك العام. وفي سلسلة الاجتماعات وجلسات

الإحاطة في البنتاجون والكونجرس، قدّرت القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان أنه سيتم نشر 80 ألف جندي في ساحة القتال بحلول نهاية عام 2010. وشعرتُ في ذلك الوقت بأن أهداف القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان لم تكن واقعية كليةً في تقديرها الوقت الذي خصّصوه لأنفسهم، ولاسيما في ضوء النقص المزمن في عدد المدرّبين الذين تقدّمهم الولايات المتحدة والناتو. وتقول القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان في ذلك العام إن "الهدف البعيد المدى من قوات الأمن الوطنية الأفغانية هو بناء وتطوير قوة محتَرَمة وطنياً، ومحترفة، ومتوازنة عرقياً، ومسؤولة ديمقراطياً، ومنظمة، ومدرّبة، ومجهَّزة لتلبية احتياجات البلد الأمنية؛ وممّولة من الميزانية (ميزانية الحكومة الأفغانية)".[2]

وكلّ من عمِل مع الجيش الوطني الأفغاني في الميدان يعرف أن معظم الجنود وقادتهم متفانون حقاً في بناء أفغانستانَ أفضلَ لأطفالهم؛ وأنهم يعرفون أن الأمر سيستغرق سنوات متعددة (إن لم يكن أجيالاً) من التدريب والتوجيه قبل أن يتمكّن الجيش الوطني الأفغاني من تحقيق إنجازات بارزة في مجال المهمة الموكلة إليه. وكان الهدف الأروع هو توفير الدعم الكامل للجيش الوطني الأفغاني من الميزانية الأفغانية؛ فقد وصل التمويل الأمريكي وحده للجيش الوطني الأفغاني عام 2008 إلى 1.7 مليار دولار أمريكي، وهو رقم لم يتوقّع الأفغان بلوغه بعد عقود من الزمان، إذ لم يزد ناتج أفغانستان المحلي الإجمالي برمته عام 2008 على 10 مليارات دولار إلا قليلاً.[3]

وإنصافاً للقيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان، لا بدّ من الاعتراف بأنها كانت تنهض بمهمّة صعبة جداً، فقد بدأ الأفغان من نقطة متدنّية جداً. ولعل التحدي الأكبر تمثّل بأن أغلبية المجندين كانوا أميّين؛ حتى إن بعضهم لم يكن يعرف كيف يوقّع اسمه أو يَعُدّ، وأقل منهم بكثير مَنْ يعرف شيئاً ما عن الرياضيات الأساسية اللازمة للملاحة، أو الإسناد الناري، أو الخدمات اللوجستية. وكان بعضهم يعاني حساسيات ثقافية تحول دون بقائهم متمركزين فترات طويلة بعيداً عن أسرهم، أو تحمّل الإنهاك

بسبب القتال المستمر. وقد استغرقت الأنظمة الأساسية، مثل تجهيز كشوف الرواتب تمهيداً لصرفها، سنوات؛ ما جعل الكثير من الوحدات تبقى شهوراً من دون تلقّي أي شكل من أشكال الراتب. وحين كان الجنود الأفغان يتلقّون الراتب في النهاية، غالباً ما كانوا يختفون لأسابيع عدة وهم يقطعون البلاد لأخذ رواتبهم نقداً إلى عائلاتهم. ونتيجة ذلك، كانت معدلات الغياب من دون إذن والوجود في قطاعات الجيش سيئة جداً في أحيان كثيرة. وعانى مركز التدريب الأساسي للجيش عقَبَة الاضطرار إلى ضخّ جنود أفغان جدد في الوحدات للحلول محل أولئك الذين غادروها، الأمر الذي حدّ بشكل كبير من مستويات الخبرة لدى وحدات القوات الأمامية.

وكنتُ أؤكد أن غياب الكوادر البشرية في أفغانستان يعدّ مشكلة مهمّة وسيستغرق حلّها أجيالاً. وتَعيّنَ علينا تقديم النصح والتوجيه لأولئك الذي تم تعيينهم حديثاً برتبة ملازم ورقيب طوال تدرّجهم في الرُّتَب، واضطلاعهم بمستويات متزايدة من المسؤولية على مدى عشرين إلى ثلاثين عاماً من حياتهم العسكرية. واعترض الكثير من نظرائي في الوكالات والجيش قائلين إنه لا بدّ لنا من جعل الجيش الوطني الأفغاني قادراً على العمل بمفرده في غضون بضع سنوات، لا بضعة عقود، وأن الجدول الزمني الطويل الذي تَبنّيتُه أنا لم يكن معقولاً من الناحية السياسية. وقد كانوا مصيبين في ذلك بعض الشيء. ولكن المسألة استدعت قيام القيادة في واشنطن بتحديد توقّعات واقعية بالتعاون مع الكونجرس، والمجتمع الدولي، والرأي العام الأمريكي، تجاه شدة التحديات التي واجهناها والأساس المنطقي لانتهاج أسلوب طويل الأجل. وبدلاً من ذلك، رأيت المسؤول تلو المسؤول يعلن احتمالات تحقيق النجاح في عهده. وبعد أشهر فقط من انتهاء خدمتي عام 2006 ورؤية الحالة الوليدة للجيش الوطني الأفغاني، حضرتُ سلسلة من جلسات الإحاطة التي عقدها اللواء روبرت دربين، الذي أكد لنا في مكتب وزير الدفاع للسياسات أن الجيش الوطني الأفغاني يتجه بشكل متسارع نحو امتلاك نسبة كبيرة من الكتائب العسكرية القابلة للعمل بشكل مستقل عام 2008.[4] وعندما اتضح أن هذا لن

يحدث، أكد خَلَفُه، اللواء روبرت كون، عام 2007، وبأرقام مستهدفة أعلى، أنه يعتزم تسريع وتيرة زيادة عديد الجيش الوطني الأفغاني ليكون جاهزاً للعمل إلى حد كبير بمفرده في أواخر عام 2011. ولكن بحلول عام 2011، عُدَّت اثنتان فقط من كتائب الجيش الأفغاني الـ180 قادرتين على تنفيذ عمليات قتالية بشكل مستقل.[5] وكانت تلك حالةً أخرى من حالات الانفصام التي حدثت بين واقع ما كان يجري في الميدان، وتوقّعات واشنطن.

ولا ريب في أن نمو الجيش الوطني الأفغاني وتطوّره واجها تحديات خطيرة على المدى الطويل. ولكن من المهم أن ندرك بشكل عام أن الجيش الوطني الأفغاني شكّل، في نواحٍ كثيرة، قصة نجاح شامل بالنسبة إلى أفغانستان وقوات التحالف. وكان الجيش ووزارة الدفاع متوازنين عرقياً، وكانا أكثر المؤسسات احتراماً في البلاد. والأهم أنه نادراً ما كان هناك – هذا إن كان هناك أصلاً – حديث عن انقلاب أو تحديات عسكرية أخرى للحكم المدني، الأمر الذي يعدّ شائعاً جداً في دول العالم الثالث التي تعجّ بالأوضاع السياسية الفوضوية. وعلى المستوى التكتيكي، كان أداء الوحدات الصغيرة جيداً غالباً، وذلك عند تزويدها بالتدريب المناسب والقيادة اللائقة. ولكن لعدد من الأسباب، كان تدريب الجيش الوطني الأفغاني وتطويره ونشره أمراً متفاوتاً ومتقطّعاً لما يقرب من عقد من الزمان. ولم يكن ذلك مردّه غياب جهد الكثير من المحترفين العسكريين الموهوبين والمتفانين من كثير من الدول، بل كان، في المقام الأول، نتيجة لعدم كفاية التركيز والانتباه والموارد على المستوى الاستراتيجي الوطني. وفي ضوء تلك العوامل، بالإضافة إلى التحديات الهائلة التي تواجه الأفغان، رأيتُ أننا لم نكن واقعيين البتّة في تقديرنا للوقت اللازم لتمكين الجيش الأفغاني من العمل بمفرده وليكون فعّالاً حقاً.

وبينما كنتُ واقفاً بجانب مركبتي المخصَّصة للتنقّل البرّي في خوست، استمعتُ لشبكتَي اللاسلكي الداخليتين الخاصتين بمفرزَتي العمليات ألفا–22 و23 وهما في طريقهما إلى الأهداف في إطار عملية "صعود اللحية السوداء".

قال صوت عبر اللاسلكي: "إلى أرو هيد 2-0، معك 2-2. الهدف بلو-4 عديم الجدوى. تقدّم نحو بلو-6".

كانت الفِرق قد قرّرت استخدام أساليب الدخول الصامت لتفادي تنبيه المتمرّدين الذين يمكن أن يكونوا نائمين في المجمّعات المجاورة. وكانت الفِرق والمغاوير يحملون سلالم خفيفة وقابلة للطي من الألمنيوم من أجل تسلق الجدران الخارجية الموجودة في البيوت الأفغانية. ومع اقتراب مفرزة العمليات ألفا-23 من أحد الجدران الخارجية في منزل صانع العبوات الناسفة، وهو هدفها الرئيسي، أشاروا إلى المغاوير لفكّ سلالمهم. وعلى الرغم من الساعات الطويلة التي أُمضيت في أثناء التدريب، وجد المغاوير صعوبة في فكّ السلالم وإحكام قفل الأرجل معاً. وبعد أن شاهدهم مارك لدقائق عدة وهم يحاولون بصخب توصيل القطع في الظلام، تولى الأمر بنفسه. أمالوا السلالم على الجدار الطيني بارتفاع عشر أقدام وأشاروا إلى قائد المغاوير لتسلق الجدار واجتيازه. رفض، بينما ظل واقفاً عند قاعدة السلم يهزّ رأسه في الاتجاهين. كنّا قد ضغطنا، كفلسفة عملياتية، لكي يدخل الأفغان أولاً البيوت الأفغانية. وكانت قيادة المغاوير قد وافقت بصَدر رحب على أن ذلك هو النهج الأفضل، واعتقدتُ أن ذلك من شأنه تخفيف بعض الانتقادات للقوات الأمريكية التي تشنّ غارات ليلية. ومن سوء حظ الملازم خالد أنه كان مكلفاً بهدف آخر ولم يمكن أن يُطلب منه التدخّل. ووسط موجة إحباط، دفع مارك بالمغوار جانباً، وتسلّق السلم، وهبط على الجانب الداخلي للجدار. ومرت لحظات مملوءة بالتوتّر بعد نزوله في الداخل إلى أن فتح البوابة بإزاحة المزلاج الكبير الذي كان يحكم إقفالها.

شعر مارك بالراحة لفتح البوابة، وتنحّى جانباً مع اندفاع مجموعة المغاوير إلى داخل المجمّع. اعتدل رجلان كانا نائمين في الفناء ورفعا أيديهما على الفور. اندفع المغاوير إلى داخل غرفة خلفهما. اندلع إطلاق نار. انسحب ثلاثة من المغاوير بسرعة إلى خارج الغرفة وركضوا حول ركن المنزل. وتعثّر مغوار في أثناء خروجه من الغرفة من دون بندقيته ويداه تمسكان ببطنه. اندفع فيل نحو الباب وألقى بقنبلة صوت يدوية داخل الغرفة بهدف صعق الموجودين داخلها وليس قتلهم. ودخل برفقة تود بمجرد انفجار القنبلة

اليدوية. وتبع ذلك ثلاث موجات من الطلقات النارية، كل موجة من طلقتين، من بندقيتيهما من طراز إم-4.

ونادى فيل عبر الشبكة قائلاً: "الغرفة مؤمَّنة. قتيلان من العدو". وسرعان ما تم التعرّف إلى هوية الرجلين باعتبارهما قائد شبكة حقاني وصانع العبوات الناسفة اللذين كانوا يبحثون عنهما.

ويبدو أنه عندما دخل المغاوير الغرفة، أطلق أحد المتمردين النار من بندقيته الكلاشنكوف، مصيباً بذلك بندقية المغوار الأول وراشّاً يده بالشظايا. فتقهقر المغاوير الثلاثة خلفه، مصدومين بالحدث، وركضوا مغادرين الغرفة بدلاً من الاشتباك مع الرجلين وقتلهما على النحو الذي تدرّبوا عليه. وأنهى فيل وتود المهمّة.

وردَّ مارك عليّ باللاسلكي قائلاً: "إلى أرو هيد 2-0، معك أرو هيد 2-3، جائزة كبرى، قتيلان من العدو. جميع الأفراد الأمريكيين سالمون. أحد المغاوير أصيب إصابات طفيفة. لا حاجة إلى إخلاء طبي في هذه المرحلة. الهدف الرئيسي لأرو هيد 2-2 مؤمَّن أيضاً. مفرزتا العمليات ألفا تتقدمان نحو أهداف المتابعة". وفي موقع النزول من المركبات، تبادلتُ وفرانس نظرات جادة وأومأنا. قتَلة ماتّ قُتلوا.

أجبت: "عُلم. سوف نبث نداء القوات مشتبكة ونزوّدكم ببعض الإسناد الجوي لحمايتكم في أثناء رحلة العودة. كنت متوتّراً بشأن هؤلاء الرجال الذين يقتحمون مهاوي الردى ثم يقطعون المسافة الطويلة إلى مركباتنا مشياً. رفع فرانس النداء إلى قيادتنا العليا، وطلب تحليق أقرب طائرة مراقبة فوقهم.

وفي هذه الأثناء، كان كيفن ما يزال يحاول إصلاح المركبة المعطّلة. فقد دار الإطار الأمامي الأيسر جانباً وأصبح متعامداً مع السيارة. وكانت القطعة المطلوبة موجودة في قاعدة العمليات الأمامية ساليرنو، لكن لم يكن هناك مجال لأن تصل سيارة الإنقاذ من القاعدة إلى البقعة التي كانت المركبة محصورة فيها. واستطاع رقيب العمليات لدينا إقناع

سـرب المروحيات بإرسال إحدى مروحيات الاستطلاع الصغيرة ذات الطيارَيْن من طراز OH-58 لإحضار القطعة إلينا عند مغادرته في دورياته الليلية. وبعد سـاعات، كـان كـيفن يؤرجح خيطاً من الأشعة ما تحت الحمـراء عـلى حبـل في دائـرة كبـيرة لتوجيـه المروحيـة. وبدأت المروحية تحوم فوقه مباشـرة بينما بدأت في الانخفاض بين منحـدرات حـادة تشـبه الجروف، مع الانزلاق يساراً ويميناً بعنايـة لتفـادي الاصـطدام بالشـجيرات والأشـجار الناتئة من الجروف. وبينما كان كيفن واقفاً وسط العاصفة الترابية المعمِية المثارة من مروحة الطائرة، حاول أن يثبّت نظره على مساعد الطيار وهو يدلي حقيبة كبيرة بها قطعة الغيار من باب المروحية. وازداد قلقه مع استمرار هبوط المروحية إلى أن اضطر إلى الانبطاح على بطنه بينما مزلقة الطائرة لا تعلو رأسه إلا بقدم واحدة. وأسقط مساعد الطيار الحقيبة، وابتعدت المروحية عن الوادي الضـيق واختفت متسارعة في ظلام الليل. وبينما نفض كيفن الـتراب عنه، انتزع زميلنا الميكانيكي قطعة الغيار من الحقيبة وأدرك على الفور وجود خطأ.

قال: "حضـرة الرقيب أول، إنها القطعة غير الصحيحة. إنها قابضة الإطار الأيمـن لا الأيسـر، تباً".

وفي نهاية المطاف، تمكَّن مارك من المناورة بمركبة محصّنة ضد الكمائن والألغـام مـن موقع إنزالنا إلى المنطقة. ربط الفنّي العجلة في وضع شبه عمـودي وربـط المركبـة المعطّلـة خلف المركبة المحصّنة الأكبر حجماً بكثير. وبينما بدأت المركبة المحصّنة تشـق بقـوة طريـق عودتها إلينا، أحدثت في أثرها خندقاً ضحلاً مـع جرّهـا محـور مركبـة التنقّـل الـبرّي عـلى الأرض. لم نكن على يقين قط بالكيفية التـي سـنعيدها بهـا إلى قاعـدة العمليـات الأماميـة ساليرنو، لكن على الأقل أصبحنا مجتمعين.

وجاء الصوت اللاحق من سمّاعة المركبة: "إلى أرو هيد 2-0، معك آس هامر. لدينا حركة. يبدو أن الطلقات النارية من الهدف الأولي أفاقت الأشـرار. هناك أفراد يتكلمـون؛ إنهم يسعون إلى التواصل مع صانع العبوات الناسفة، ويشكّلون مجموعـة كبـيرة للـذهاب والتحرّي".

انتابتني رغبة في أن أجعل مفرزتَي العمليات ألفا كلتيهما تنصبان كميناً لمقاتلي حقاني القادمين. سئمت كثيراً من أن أكون دائماً في موقع ردّ الفعل تجاه كمائن المتمرّدين. كنت أودّ أن أعكس الموقف لمصلحتنا، بيد أن الفجر كان على وشك الانبلاج خلال ساعات معدودة، وكانوا بالتأكيد يحظون بميزة اللعب على أرضهم. كان ما يزال يتعيّن على المفرزتين والمغاوير قطع مسافة طويلة مشياً. ناديت على جيسون ومارك وقيادة مفرزة العمليات ألفا-22، وأحطتهم بالموقف. وافقوا، وأوقفوا متابعة الأهداف، وبدؤوا العودة إلى المركبات.

اتصلت قيادتنا العليا واستفسرتْ هل ما تزال لدينا فِرق تقاتل؟ ذلك أن جميع الطائرات من دون طيار من طراز بريداتور وغيرها من عتاد جمع الاستخبارات والمراقبة والاستطلاع كانت مخصّصة لقوات مقاتلة أخرى، وأرادوا معرفة حقيقة موقفنا من حيث ضرورة الاستعجال بإرسال الطائرات. وبقدر ما كنت أريد تغطية جوّية، لم يكن بإمكاني أن أسحبها من آخرين وأنا مرتاح الضمير. أجبت أن الوضع تحت السيطرة ولا يستدعي الإسناد.

وبعد ذلك بساعة، ومن اتجاه خولبيسات، تمكّنت من أن أرى على البُعد طوابير من الجنود الذين يعبرون الحقول، وكذلك ومضات كشّافاتهم التي تعمل بالأشعة ما تحت الحمراء. ومع اقترابهم من موقع النزول من المركبات، رأينا المغاوير وهم يوجِّهون بأسلحتهم عدداً من المتدرّبين.

كانت الفِرق والمغاوير مرهقين، وبدؤوا يملؤون المركبات المتنوعة المنتشرة حول محيطنا البيضاوي الشكل تقريباً. ووُضع ستة موقوفين خلف عربة الهامفي ذات الخلفية المسطّحة. كانت الشاحنات مملوءة بالفعل بجنود محشورين على جانبي سطح العربة. اقتربْتُ لأجد الموقوفين ممدّدين على أرضية ظهر المركبة وأيديهم مكبّلة خلف ظهورهم، والمغاوير يضعون أقدامهم فوقهم.

كان الطريق الجيّد الوحيد للعودة إلى ساليرنو يسمى رسمياً "طريق ألاسكا"، ولكن الوحدة التقليدية المسؤولة عن ولاية خوست كانت تطلق عليه اسم "طريق العبوات الناسفة". كانت تلك الوحدة لا تسير على ذلك الطريق ليلاً أو نهاراً إلا في مركبات محصّنة ضد الكمائن والألغام، وخلف مركبات متخصّصة في فتح الطرقات ومزوّدة بأجهزة الكشف عن العبوات الناسفة. وقد أكدوا لنا أننا لو سرنا على طريق ألاسكا في النهار فإن احتمال انفجار عبوة ناسفة في طريقنا مؤكد بنسبة 100٪. ووضعنا خطة لعودة معظم القوة إلى ساليرنو عبر طرق فرعية، ومحاولة جلب قابض آخر لمركبة النقل من أجل إخراجها. أما المركبة المحصّنة ضد الكمائن والألغام ومركبة النقل البري المعطّلة فستتأخران عن باقي القوة وستكون معهما عربة أخرى محصّنة ضد الألغام والكمائن لزيادة الأمان. وبعد بضع ساعات، خرجت قافلتنا من الطرق الفرعية في مجموعة التلال القريبة من قاعدة ساليرنو، ونظرتُ فرأيت مركبتنا المحصّنة تسير بأقصى سرعة ممكنة على طريق ألاسكا متجنّبة الحفر التي خلفتها العبوات الناسفة السابقة، وكانت تجر مركبة النقل والشرر يتطاير من تحتها نتيجة احتكاك المحور بسطح الأرض الصخرية. وكانت العجلة المربوطة قد اختفت تماماً. يبدو أن صبر كيفن ويورك والمجموعة قد نفد بعد مغادرتنا فقرروا تجربة حظهم بالسير على طريق العبوات الناسفة، ولكن – الحمد لله – لم يُصب أحد منهم بأذى.

أكد مخبرونا في اليوم اللاحق أن قائد شبكة حقاني وكبير صانعي العبوات الناسفة فيها هما اللذان قُتلا. وقد أثار ذلك بهجة كبيرة في قلب قائد شرطة المديرية، الذي لم يكن يجرؤ منذ وصوله إلى الولاية على الخروج علناً في المنطقة المحيطة بصباري، ولكنه في اليوم اللاحق قاد سيارته من مدينة خوست إلى مركز مديرية صباري. كما اتصل غفورزاي، وهو أحد وجهاء قبيلة مانجال، ليعبر عن شكره ومباركته هذا النجاح. كانت هناك عداوة بين قبيلة المانجال وقبيلة مقبل، وهي إحدى القبائل التي تدعم شبكة حقاني في صباري، الأمر الذي جعلنا ندرك الباعث الحقيقي وراء بهجته. ومع ذلك كان سماعه وهو يعبّر عن امتنانه أمراً طيباً. كما تلقّى قائد فصيل المغاوير اتصالاً للتهنئة من قيادته في كابول. كان

أكثر ما فرحنا به هو استعداد قائد شرطة المديرية للاستفادة من هذا الوضع بالعودة إلى إقليمه والعمل مع الوحدة التقليدية في صباري وفريق إعادة الإعمار في ولاية خوست لملء الفراغ وتنفيذ عمليات في المنطقة، وربما إقامة مشروع يؤتي نتائج سريعة في خولبيسات.

وفي اليوم اللاحق استجوبنا المحتجزين الستة من خولبيسات، وشمل الاستجواب بعض الأسئلة الأساسية. وكما هي الحال دائماً، حرصنا على حضور مسعف كل بضع ساعات، والاحتفاظ بسجل يبيّن عدد مرّات تقديم الطعام والماء. كما التقطنا صوراً على فترات منتظمة ليكون لدينا إثبات إذا اتّهَمنا أحدُهم لاحقاً بأي نوع من الانتهاكات، كما حدث في غزني.

كنا نعرف أن لهؤلاء الرجال يداً في مقتل ماتّ. ولكننا كنّا نعرف أيضاً أنه لا يتوافر في حالتهم الحد الأدنى من الشروط اللازمة لسجنهم في مركز الاحتجاز في باجرام. فبرغم أنه كانت لدينا تقارير مؤكدة بأن الكثير منهم زوّدوا صانع العبوات الناسفة بمواد لصناعتها أو ساعدوا في دفنها، فإن مركز الاحتجاز لم يكن يقبل إلا المتمرّدين الذين نستطيع إثبات أنهم جزء من هيكل القيادة، أما المقاتلون الأدنى مستوى، فيجب تسليمهم للشرطة المحلية. كنّا نعرف أن نتيجة ذلك غالباً هي خروجهم من السجن عن طريق الرشوة أو الحصول على إطلاق سراح رسمي. فأطلقنا سراحهم بأنفسنا بعد بضعة أيام. كان قائد شرطة الولاية قد رفض تسلُّمهم بحجة نقص الأدلة. ولسوء الحظ لم يكن بإمكاننا إطلاعه على التقارير الاستخباراتية التي لدينا، فضلاً عن السماح بتقديمها في محكمة أفغانية. كما كنّا نشك في أن قائد الشرطة لا يريد استفزاز شبكة حقاني من أجل عدد من المقاتلين من الصفّ الأدنى.

وفي اليوم اللاحق لإطلاق سراح أولئك الرجال، تلقيتُ اتصالاً عاجلاً من الوحدة التقليدية المتمركزة في ساليرنو. وحالما رفعت سماعة الهاتف قال المقدّم وهو في حالة هياج: "إذاعة خوست تقول إننا أعدمنا أمس الرجال الستة الذين كانوا محتجزين في إطار مهمتك الأسبوع الماضي".

قلت في نفسي: "تباً".

"وُجِد الستة كلهم بجانب طريق ألاسكا وأيديهم مقيّدة خلف ظهورهم وقد أطلق الرصاص على رؤوسهم من الخلف. وتتهم الإذاعة مغاوير الجيش الوطني الأفغاني بإعدامهم بناء على أوامر الأمريكيين. لا نعرف من أين حصلت الإذاعة على هذا الهراء. فأرسلنا فريق علاقاتنا العامة إلى الإذاعة لمحاولة إقناع إدارتها بعدم صحة هذا الخبر".

سألته: "أليست وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة هي التي تموّل هذه الإذاعة؟".

فأجاب: "أجَل. حدث شيء من هذا القبيل عندما وصلنا إلى خوست لأول مرة العام الماضي، والوكالة تتبع سياسة عدم التدخّل. وهي تقول إن دورها يقتصر على تقديم التمويل لتأسيس إذاعة تنقل الأخبار لسكان خوست، من دون إملاء الأخبار التي تجب إذاعتها أو لا تجب".

صحتُ به قائلاً: "ما لم تتعارض تلك الأخبار بشكل صارخ مع المصالح الأمريكية".

وأنا أستمع إلى الإذاعة، رحت أفكر بما حدث، فبرغم أنه لم يكن أمامنا خيار سوى إطلاق سراح أولئك الرجال، فقد كنّا متأكدين أن لهم يداً في إعداد العبوات الناسفة، فنشرنا بهدوء شائعات مفادها أنهم قالوا كل ما يعرفونه عن شبكة حقاني في صباري. كنا نظن أن هذا سيؤدي على أقل تقدير إلى إثارة الشكوك داخل الشبكة وجعل الشبهات تحوم حول الرجال. ولكن شبكة حقاني الشبيهة بالمافيا أعدمت الرجال بسبب اعترافهم، مرسلة بذلك رسالة إلى بقية مؤيديها، ثم اتهمتنا نحن بإعدامهم.

اتجهتُ فوراً إلى معسكر المغاوير وتحدثتُ إلى قائد السرية الأفغانية. كان رؤساؤه قد اتصلوا به وهددوه بإعفائه من مهامه. قال لي بصوت مرتجف: "أيها القائد مايك، لا

يمكن إقالتي من منصبي. أنا جندي منذ خمس وعشرين سنة، وهذا العمل هو الوحيد الذي أتقنه. قد يُزج بي في السجن".

أخبرتُه أن عليه الذهاب إلى الإذاعة على الفور ليقول ما يعرفه في هذا الشأن: "يجب أن تقول لأهل خوست إن الجيش ليس مسؤولاً عن هذه الجرائم، وأن تخبرهم أين ومتى أطلقتَ سراح هؤلاء الرجال. الشعب الأفغاني يحترم الجيش، وعندما يسمع الناس صوتك، سيدركون أنك رجل صادق وجندي صالح".

وافق القائد على فعل ما اقترحتُه عليه، وبعد بضع ساعات كان يتكلّم عبر الإذاعة. وانضمّ إليه قائد شرطة صباري الذي أكد هويات الرجال وانتماءهم إلى شبكة حقاني، ثم تحدث عن تحسّن الأوضاع في الولاية. ولكن للأسف، بعد بضعة أسابيع تم نصب كمين لقائد الشرطة نُقل على إثره إلى المستشفى وظل يعالَج شهوراً قبل أن يخرج تماماً من المشهد لأنه حاول إعادة بسط سيطرة الحكومة في صباري.

لم نعرف قط من الذي أمر بإعدام أولئك الرجال. كانت تلك حركة وحشية ولكنها ذكية من جانب المتمرّدين، وقد تفهّمتُ ذلك. ولكن ما لم أفهمه قط هو تعامل قيادتي معي بمنطق "المتهم مذنب إلى أن تثبت براءته". قضيت ساعات طوالاً وأنا أشرح على الهاتف تسلسل الأحداث. كما قضى فرانس ساعات مع كتيبة القوات الخاصة والمغاوير وهم يكتبون شهادات موقعة تحت القسَم. ولكي أكون منصفاً فقد كان مصدر الضغوط التي تمارس علينا لتفسير ما حدث هو قيادة إيساف في كابول وقيادة اللواء 82 المجوقل في باجرام، وليس قيادتي العليا. كانوا يسألون تحديداً عن سبب قيام المغاوير بنقل الرجال إلى حافة المديرية وإطلاق سراحهم هناك. ولماذا لم يرافقهم أحد من مفرزة العمليات ألفا. كما سُئلنا عن سبب عدم تسليم الرجال إلى الشرطة وعدم تصوير عملية إطلاق سراحهم. كانت الأسئلة لا تنتهي وكان مضمون إجاباتي مماثلاً لإجاباتي عندما قتلت الشرطة الأفغانية في غزني الفتاة الصغيرة. لا يمكن أن نتبع سياسة تقوم على تسليم

زمام القيادة إلى الأفغان ثم نتساءل عن أسباب النتائج التي لا تعجبنا. نحن شجّعنا قائد المغاوير على العمل مع قائدي شرطة الولاية والمديرية، وهذا ما فعله الرجل. هذه هي طريقة إطلاق السراح التي اتفقوا عليها. تعلّمنا من هذه التجربة، فاشترينا كاميرات رقمية وطلبنا من المغاوير تصوير أي عملية إطلاق سراح للمحتجزين في المستقبل.

وفي اليوم اللاحق نفّذ المتمرّدون ضربة جديدة، حيث وُجِد الأب والابن اللذان زودانا بالمعلومات عن موعد اجتماع قائد شبكة حقاني وصانع العبوات الناسفة مشنوقين في ضواحي القرية، وقد ثُبتت على جثتيهما ورقتان فيهما اتهامات بأنهما "أبناء كرزاي" و"أعداء أفغانستان".

استشاط تود غضباً وقال: "لقد طلبتُ منهما أن يغادرا البلدة. حتى إنني أعطيتهما المال للبقاء في كابول بعض الوقت. ولكنهما لم يفعلا ذلك كما هو واضح. كانا معلمين ولكل منهما عائلة. كانا يريدان فقط أن نخلّصهم من أولئك السفلة. لا أفهم لماذا لم يصغيا لما قلته لهما".

خرجتُ من الغرفة لأتنشّق بعض الهواء النقي، ورحت أفكر في ماتّ وعائلته. تذكّرت أوراق مركز البحوث والمناقشات حول السياسات التي جرت في واشنطن وأوروبا تجاه ضرورة تنسيق الجهود بين العمليات الهجومية والعمليات الاستخباراتية. فكّرتُ في مدى جهلنا، وفي لعبة الدعاية الوحشية التي أسفرت عن إعدام السجناء ثم قتل مخبرينا في أعقاب العملية. هذا كله يفسر لماذا تُعتبر عمليات مكافحة الإرهاب الأصعبَ بين أنواع الحروب الحديثة.

نجحتْ عملية "صعود اللحية السوداء" في الانتقام لمقتل ماتّ، وأرسلتْ رسالة مفادها أن قيادة شبكة حقاني ليست بمأمن منّا، وأفسحتِ المجال أمام قائد الشرطة المحلية لبسط سلطته. كان هذا مؤشراً آخر إلى أنه ما زال أمام الجيش الوطني الأفغاني الكثير ليفعله. كان أداء المغاوير، وحدة النخبة في الجيش الوطني الأفغاني، قد تَحسّن كثيراً

من الناحية التكتيكية، ولكنهم يحتاجون إلى وقت طويل حتى يصبحوا قادرين على التخطيط بشكل مستقل، وتوفير الدعم اللوجستي لعملياتهم. وزادت قناعتي أكثر من أي وقت مضى بأنه سيتعيّن علينا العمل في شراكة مع الجيش الأفغاني خلال السنوات العشرين المقبلة على أقل تقدير.

الفصل الثالث عشر

على الحدود مع باكستان
لهب الصاروخ الأحمر

كنّا نقف على السور الترابي في نقطة مراقبة حدودية لرجال شرطة الحدود الأفغان، وكنتُ أتحدّث، أنا وقائد فريقي بوبي، عن الدوريات في ذلك اليوم مع عزيز، قائد الشرطة المحلية المشهور في شكين في ولاية باكتيكا [جنوب شرق أفغانستان]. وفجأة سمعنا صوت أزيز حاد لصواريخ قادمة من جهة باكستان إلى المكان الذي نقف فيه، كانت ترسم قوساً في السماء متجهة نحو قاعدة الشرطة الحدودية، ومفرزة العمليات ألفا في قاعدة العمليات الأمامية "ليللي" في شكين خلفنا. وهكذا بدأت الطقوس شبه اليومية التي تتمثّل بإطلاق صواريخ أو قذائف مدفعية من قبل مقاتلي طالبان من مخابئهم في باكستان.

صاح اثنان من عناصر الفريق الجدد، "قادمة!"، بينما هرعوا للاحتماء تحت أقرب المركبات. لم أتحرك تقريباً لأنني لم أميّز مسار الصواريخ بسرعة كما فعلوا هم. نظرتُ في المدى البعيد نحو المخفر الحدودي للجيش الباكستاني المعروف باسم "المخفر 28". وكانت آثار الدخان الأبيض قادمة من أسفل تلك النقطة الحدودية، الرابضة على تلة صغيرة على مسافة بضعة كيلومترات. "ابن الزانية"، مرت العبارة في ذهني عندما أدركتُ مدى قرب المخفر الباكستاني 28 من المكان الذي أُطلقت منه الصواريخ. لم يكن هناك أي احتمال يوحي بأن الجنود الباكستانيين لم يروا ما حدث، ومع ذلك لم يظهر أي رد فعل من جانب الجيش الباكستاني. النقاط الحدودية كانت محروسة بواسطة عناصر من شرطة الحدود تُعرف باسم "قوات حرس الحدود"، ويتم تجنيد هؤلاء من السكان المحليين الذين غالباً ما يكونون متعاطفين مع طالبان؛ ولكن أفراد حرس الحدود كانوا يعملون تحت قيادة

ضباط محترفين من الجيش الباكستاني. والفكرة الأهم هي أن باكستان قد تكون حليفاً رسمياً للولايات المتحدة، ولكن في المناطق النائية والحدودية، شاهدنا مراراً أدلة تؤكد أن الباكستانيين يساعدون مقاتلي طالبان ويشجعونهم ويتعاطفون معهم؛ وفي أفضل الأحوال يغضون الطرف عن أعمالهم. ومن المؤسف أننا كنّا دائماً نسهم في جعل الأمور أسوأ مما هي عليه، من خلال التردّد في الرد على هجماتهم، وهذا التردّد كان يسهم في تشجيع المهاجمين ويرسل رسالة عن مدى ضعفنا إلى السكان المحليين.

خريطة (16): ولاية باكتيكا

في خريف عام 2009 كانت قاعدة مفرزة العمليات ألفا-25، على الحدود الجنوبية الشرقية لأفغانستان مع الجارة باكستان، تتعرّض للقصف بصواريخ وقذائف بمعدل مرة كل يومين أو ثلاثة أيام. وفي مرات كثيرة كانت الصواريخ غير دقيقة ولم تُحدث أضراراً تُذكر. ولكن عندما نظرتُ إلى الأسفل، حيث الرجلان اللذان كانا يزحفان للخروج من تحت السيارة، أدركت مدى الذعر الذي أصابهما بسبب وابل القذائف المستمر. وطوال موسم القتال الصيفي أصبحت النيران الصاروخية أكثر دقة، حيث تحسّنت مهارات طالبان في التسديد على الأهداف. ولحسن الحظ أن تلك القاعدة كانت مبنية بجدران من الطين بسماكة ثلاث أقدام [نحو متر] وكانت تشبه ثكنة ألامو [سان أنتونيو، تكساس] مع أسلاك شائكة حادة. ولكن إحدى الرشقات الصاروخية ضربت مؤخراً أحد المدافع التابعة لفصيل المدفعية التي كانت متمركزة قرب مفرزة العمليات ألفا-25 في قاعدة العمليات الأمامية "ليلي". وأدى الانفجار إلى تدمير واحدة من قطعتي المدفعية في القاعدة، كما أشعل مستودع الذخيرة القريب من المكان الذي كان مملوءاً بقذائف مدفعية من عيار 105 ملم. كما أدى الانفجار الهائل إلى تدمير مبانٍ عدة، وجرح رقيب الاتصالات في الفريق أندريه، الذي كان موجوداً في الجوار. وهناك هجمات صاروخية أخرى أصابت مباني عدة بالشظايا. وكان الفريق يتوقّع أن يحقق أحد الصواريخ يوماً ما إصابة مباشرة. ولحسن الحظ لم يُقتل أي عنصر من الفريق، ولم يُصب أي منهم إصابة خطيرة. ولكن نظراً إلى أن القاعدة تتعرّض للصواريخ وقذائف الهاون بشكل أسبوعي، فإن كل فرد في الفريق كان يشعر أن المسألة مسألة وقت [لحدوث الإصابة المباشرة]. ولا حاجة إلى القول إن أعصابهم كانت مرهقة.

عرفنا أن المتمردين يعيشون ويتدرّبون في معسكرات داخل باكستان، وكانوا يعبرون الحدود في الليل، وينصبون صواريخهم على الصخور المستوية أو على قضبان معدنية مرفوعة عن الأرض. وبعد كل هجوم كانوا يضبطون هدفهم بشكل طفيف بتغيير الصخرة، أو نقل المنصة المعدنية. ثم يربطون الصواريخ بجهاز توقيت بحيث تنطلق

القذائف في صباح اليوم اللاحق، وينسحبون عائدين عبر الحدود إلى باكستان. وجهاز التوقيت هذا يشعل صاعقاً في الوقت المحدّد، وتنطلق الصواريخ نحو القاعدة المستهدفة.

أصبح لدينا أدلة متناسقة ودامغة على أن حرس الحدود الباكستانيين ووحدات الجيش المتمركزة في النقاط الحدودية، لا يتجاهلون هجمات المتمردين فحسب، بل كانوا يساعدونهم بشكل مباشر. الأمر المحزن بشأن هذا الهجوم الأخير هو أنه في الليلة السابقة عرفنا أن هذا الهجوم سوف يقع، ولم يكن مسموحاً لنا أن نفعل أي شيء تجاهه. وفي اليوم السابق، كنتُ قد وصلت جواً إلى قاعدة العمليات الأمامية "ليللي" لزيارة مفرزة العمليات ألفا، ووقفت في مركز عمليات تلك القاعدة العسكرية مع بوبي بينما كنّا نراقب الحدود من خلال عدسات كاميرات للمسافات البعيدة، مركّبة على برج مرتفع فوق القاعدة. وراقبنا بواسطة تلك الكاميرات، التي توفر لقطات مقرّبة، مساحات من المنطقة المحايدة تمتد بين القاعدة العسكرية وشريط المواقع العسكرية على طول الحدود الأفغانية-الباكستانية. وشاهدنا شاحنات "بيك-آب" صغيرة كان من الواضح أنها ليست عسكرية، تصعد إلى سفح التلة التي توجد فيها النقطة العسكرية الباكستانية-28. وقفز من الشاحنات نحو عشرة رجال وحملوا على أكتافهم ما كان يبدو أنابيب معدنية طويلة. وبعد أن تركوا الشاحنات عند أسفل التل، توجّهوا نحو أحد مواقع الإطلاق التي كانت تُستخدم منذ زمن طويل لإطلاق الصواريخ على قاعدة العمليات الأمامية.

حاولنا أن نطلق عليهم النار بواسطة فصيل المدفعية المتمركزة في قاعدة العمليات الأمامية مع مفرزة العمليات ألفا، ولكن القيادة العليا لفصيل المدفعية، التي كانت مختلفة عن قيادتنا وكانت تبعد مئات الكيلومترات عن عاصمة تلك الولاية من باكستان، ردّت علينا بأن موقع طالبان كان قريباً جداً من المخفر الباكستاني، ولذلك لا يستطيعون الموافقة على إطلاق النار عليهم، والمخاطرة بوقوع أضرار جانبية بين الباكستانيين. قال بوبي ساخراً: "أمَا مِن أحد يرى أنه ثمة خطأ في هذه العبارة؟".

تابعنا مراقبة الرجال بكاميراتنا، بينما كانوا ينزلون ويصعدون الأودية، ويصعدون التلال ويحملون الأنابيب عبر الأراضي القاحلة. وانتظرنا حتى ابتعد الرجال وأصبحت

هناك مسافة أبعد بينهم وبين الموقع العسكري الباكستاني، وطلب بوبي من قائد سرية المدفعية أن يطلب الإذن مرة ثانية لإطلاق النار عليهم.

أجاب قائد فصيل المدفعية وهو يضع سماعة الهاتف من يده: "إن قيادتنا تسأل: هل كان الرجال يحملون أي أسلحة؟".

أجابه بوبي، "ألا تكفي الأنابيب الطويلة المماثلة لقاذفات الصواريخ عيار 107 ملم؟".

قال الملازم، "كلا يا سيدي، يبدو أن ذلك ليس كافياً. لقد نقلت لهم ذلك. يريدون أن يعرفوا إذا كنّا نستطيع أن نحدّد بوضوح أنهم يحملون بنادق كلاشنكوف أو قواذف صاروخية أو شيئاً من هذا القبيل".

حدقنا جميعاً في شاشة التلفاز بضع دقائق. "انظروا! ذلك الرجل بالتأكيد يحمل كلاشنكوف". استطعنا أن نرى الرجل وهو يكافح لكي يبقي البندقية معلقة على كتفه بينما كان يحمل الأنبوب.

عاد الملازم إلى الهاتف. وقال بينما كان يجول الغرفة جيئة وذهاباً، وهو يخفض نظره إلى أرض الغرفة ومن الواضح أنه كان يشعر بالحرج.

في هذه اللحظة كانت الشمس قد غربت خلف الجبال، ولم نعد قادرين على رؤية أي شيء يتحرّك على الأرض. وقال بوبي وهو يغادر الغرفة من دون توجيه الكلام إلى شخص معيّن، "أيها الرجال، تستطيعون الجلوس هنا وانتظار قدوم الصواريخ لتخرِّب فطوركم في الصباح، ولكن سوف نكون خارج المبنى حين وصولها".

شعرت بالأسى لحال ذلك الملازم. لقد تعرّض للتوبيخ في وقت سابق من ذلك الشهر، لأنه ردّ بإطلاق النار عندما تعرّضت القاعدة لوابل من الصواريخ من الجهة المقابلة عبر الحدود. ومع أن الأمر كان "بديهياً" في قواعد الاشتباك وهو أن ترد بالنار

عندما تُطلق عليك النار، فإن إطلاق النار إلى داخل باكستان كان يُعتبر مسألة حسّاسة جداً. وما زاد الأمر سوءاً، أن الباكستانيين قدّموا شكوى تقول إن أحد جنودهم جُرح بشظية من قذائف مدفعيتنا. ومن المؤسف أن هذا النوع من الحوادث أصبح شائعاً على نحو متزايد في بيئة الحرب المملوءة بالنزاعات والخلافات في تلك الفترة. وأصبح رد الفعل التلقائي على أي نوع من المجال الرمادي هو عدم القيام بأي فعل. وصار الضباط الصغار خائفين من التحقيق معهم على أخطاء ارتكبوها، أكثر من خوفهم من طالبان.

في صباح اليوم اللاحق وبعد مغادرتنا لقاعدة العمليات الأمامية "ليللي" في منتصف الليل متجهين إلى المواقع العسكرية الحدودية الأفغانية، كنّا نراقب الصواريخ وهي تنهمر حول قاعدة "ليللي". قام بوبي بالاتصال هاتفياً وأعطى إحداثيات موقع إطلاق الصواريخ إلى فصيل المدفعية، وطلب منهم أن يردوا على الفور لتدمير أي صواريخ متبقية يمكن أن تُطلق على القاعدة. كان المتمردون أحياناً يقومون بإشعال صواعق الصواريخ يدوياً بدلاً من استخدام جهاز التوقيت، ولذلك كان دائماً لدينا أمل في احتمال أن نقتل بعض المتمرّدين في تلك المنطقة. ورد الملازم الموجود في القاعدة على طلبنا بأنه يجب عليه الحصول على إذن أولاً. وتمتم أحد الموجودين قائلاً: "يا للمسكين، ها نحن نلتقي ثانية مع المقدم مايكلز"، وكان يشير بذلك إلى قائد كتيبة المشاة المتقيّد بالتعليمات حرفياً، الذي كان يشترط الحصول على موافقته على كل مهمة لإطلاق نيران المدفعية.

كان فصيل المدفعية يعمل وفق قواعد اشتباك مختلفة وأكثر صرامة من القواعد التي نعمل بها. وكانت القواعد تنص بوضوح على أنه يحق لأي جندي أو وحدة بشكل طبيعي الدفاع عن النفس بالرد بإطلاق النار عندما يتعرّض لنيران معادية مؤثرة، مثل الصواريخ التي تسقط على قاعدتهم. ونظراً إلى أن الوسائل المتاحة لرد النار كانت مدفعية، فهناك فرصة كبيرة لوقوع إصابات بين المدنيين، ولذلك كان مايكلز يصر على أن يقوم هو شخصياً بإعطاء التصاريح لجميع مهمات المدفعية. ولكنه لم يكن يعطي الإذن بإطلاق النار إلا بعد أن يقوم العاملون لديه بمراجعة صور الأقمار الاصطناعية لكل موقع

مستهدف للتأكد من أنه لا يوجد مساكن مدنيين قرب المنطقة المستهدفة. والمشكلة هي أنه كان هناك الكثير من الأسئلة تدور جيئة وذهاباً بين الملازم المسكين وطاقم مايكلز وكانت تستغرق وقتاً طويلاً للبت فيها؛ ومن ثم لم يكن لإطلاق النار أي تأثير فعّال بعد إضاعة كل ذلك الوقت. حتى إن أُعطي الإذن بإطلاق النار، يكون مقاتلو طالبان قد غادروا الموقع منذ وقت طويل، عندما تنطلق نيران المدافع.

بالطبع، لاحظ مقاتلو طالبان بعد فترة أنه في كل مرة يشنّون فيها هجوماً، ومع أن الهجوم يكون قريباً من بيوت أفغانية، فإنهم لم يواجهوا رداً يُذكر. ولذلك لم يكن مستغرباً أنهم بدؤوا يكثّفون هجماتهم أكثر فأكثر من أماكن بجانب بيوت القرويين، وحتى من داخل بيوت القرويين الأفغان. وهذه النتيجة غير المتعمّدة لسياستنا جلبت القتال إلى مسافة قريبة من المدنيين أكثر من أي وقت مضى.

كل مرة كانوا يطلقون الصواريخ على قاعدتنا، ولا نرد، ما حدا بزعيم طالبان المحلي المسؤول عن فرق الصواريخ، حاجي زامان، إلى أن يباهي في المسجد خلال خطبة الجمعة قائلاً إن الأمريكيين ضعفاء وواهنون. وقد سخر حاجي زامان من قبيلتَي وزيري وخاروتي لأنهما تساندان الجيش، وقال عنهما إنهما ناعمتان وتخشيان القتال. وقد أحدثت كلماته صدى كبيراً بسبب الثقافة القبلية السائدة، حيث القوة تعني القدرة على البقاء؛ ومن ثم فإن ضبط النفس من جانبنا وعدم الرد بإطلاق النار لم يكونا يحظيان بأي تقدير. وكانت تحلّ علينا اللعنة إذا رددنا بإطلاق النار وألحقنا الضرر بمدنيين أفغان أبرياء، كما تحلّ علينا اللعنة إذا مارسنا ضبط النفس.

ورداً على هذه السخرية، بدأت مفرزة العمليات ألفا-25 بتكثيف جهودها لإقناع حكماء قبيلتَي وزيري وخاروتي بعدم السماح للمتمرّدين بإطلاق الصواريخ على قاعدة العمليات الأمامية "ليللي" من داخل قراهم. أما قائد الشرطة الذي يحترمه السكان (ويخشونه)، عزيز، فقد ترأس اجتماعات بالتشاور الوثيق مع بوبي؛ وقد تطلّب الأمر استخدام مزيج بارع من التهديدات والرشاوى والمناشدات لإثارة مشاعر الفخر

والاعتزاز لدى البشتون لحثّ شيوخهم على التصرف. وجاءت التهديدات في صيغة اقتراحات بأن تضطر قاذفات أمريكية إلى الرد على هجمات الصواريخ، حتى إن انطلقت من أمكنة قريبة من مساكن الشيوخ. كما تم تحذيرهم أيضاً من أن العيادة الطبية في قاعدة "ليللي"، التي فتحت أبوابها أمام السكان المحليين، سوف تكون مُجبرة على إغلاق أبوابها قريباً إذا استمرت هجمات المتمرّدين. وتمثّلت الرشوة في صيغة مشروعات صغيرة يمكن أن تُعطى لمقاولين يقترحهم الشيوخ. أما المناشدات لإثارة مشاعر الفخر والاعتزاز البشتوني فقد جاءت في صيغة تساؤلات ماكرة طرحها عزيز عن المسؤول حقاً عن قراهم؛ هل هو حاجي زامان ومقاتلو طالبان أو الشيوخ؟ وبعد أسابيع من اللقاءات والوعود بمشروعات، قام الشيوخ المحليّون أخيراً بإبلاغ حاجي زامان بوجوب إيقاف إطلاق الصواريخ من أماكن قريبة من بيوت القرية، وإذا لم يلتزم بذلك فسيواجه غضب الميليشيات القبلية المحلية (شيلواستي).

اعتقدوا أنهم فاقوا حاجي زامان دهاءً، ولكن الوغد الذكي أعطى أوامر لفريق الصواريخ أن يبدؤوا بإطلاق الصواريخ من داخل مساكن مهدمة ومهجورة، وكان يأمل أننا لن نستطيع أن نميّز بين المواقع، ولن نرد على الصواريخ. وكان محقاً في اعتقاده؛ ذلك أن مايكلز وطاقمه لا يستطيعون أن يميّزوا في صورالأقمار الاصطناعية إذا ما كانت المباني مسكونة بالناس أو بالأغنام. وبعدما تحوّل مقاتلو طالبان إلى هذا التكتيك، أمضت مفرزة العمليات ألفا أسابيع وهي تقوم بدوريات لرصد جميع المباني المهجورة الموجودة ضمن مدى المدفعية في القاعدة، والتقطوا صوراً لتلك المباني وقاموا بتوثيق مواقعها. وقد تعرضوا لكمائن مرتين في تلك الدوريات، وخسر عزيز خمسة من رجاله، من بينهم نائبه، في انفجار عبوة ناسفة.

بعد أن قدّم بوبي جميع المعلومات المتوافرة لديه وأرسلها إلى طاقم كتيبة المشاة، وافق مايكلز أخيراً على السماح لفصيل المدفعية بالرد على النيران بحسب تقديرها. ولكن تعليماته جاءت مصحوبة بتحذير يقول: إن مكان السقوط المستهدف لقذائف المدفعية

يجب أن يكون بعيداً مئات عدة من الأمتار عن النقطة الفعلية التي أُطلقت منها الصواريخ إذا كانت قد أُطلقت من جوار بيت ما، حتى إن كان البيت معروفاً بأنه مهجور، فإن المدفعية يجب أن تبتعد عنه خشية احتمال أن يكون البدو يقيمون في ذلك المبنى. وعندما اتصل بوبي ليخبرني عن هذا الشرط الجديد، كدت أقع عن مقعدي. كان اتفاقنا يسمح بالرد على مصادر النيران، ولكن تم تعطيله عمداً بهذا الشرط. لقد كنت أعرف أن الجنرال ماك كريستال لم يقصد قط أن تكون تعليماته بشأن الإصابات بين المدنيين موضع تحريف وتشويه. لقد أراد أن يرسّخ ثقافة ضبط النفس وحماية أرواح السكان المدنيين، ولكن هذا الحرص الشديد تجاوز حدود المنطق.

وعلى رأس هذه القواعد بشأن استخدام المدفعية لقصف مناطق قريبة من منازل الأفغان، أصبح الرد على نيران طالبان عندما يهاجموننا من داخل أراضي باكستان أشد تعقيداً من السابق. عندما تأتي النيران من باكستان، فإن الإذن للمدفعية بالرد على النار يجب أن يأتي من مستويات قيادة أعلى من المقدم مايكلز وطاقمه، وهذا يستغرق وقتاً أطول. وكان هذا التأخير أحد الأسباب التي ساعدت المتمرّدين على النجاة مرة تلو المرة. كما شجع المتمردين على استهداف تلك القاعدة بدقة كبيرة. وفي نهاية المطاف، جرح رجال عدة من مفرزة العمليات ألفا-25 بسبب نيران طالبان. أضف إلى ذلك الانتصار الدعائي الذي قدّمناه مراراً لمقاتلي طالبان.

على الموقع الحدودي أبلغني بوبي أن ملازم فصيل المدفعية كان ما يزال يسعى إلى الحصول على إذن بالرد على إطلاق النار. أجبتُ: "لم لا نحاول استخدام سلاح الجو؟". كنتُ أشهد بنفسي ما يفعله هذا الفريق هناك طوال شهور. اتصل رقيب الاتصالات في الفريق بقيادتنا عبر الأقمار الاصطناعية لكي يبلغهم أننا ما نزال نتعرّض لنيران المتمرّدين وسوف نقصف موقع الصواريخ المعادية. وكان كل من في مسرح العمليات يستطيع سماع مكالمتنا عبر شبكة الأقمار الاصطناعية، وبعد بضع دقائق صرخ رقيب الاتصالات

من مركبته ليقول إن المقدم مايكلز يتحدّث على هاتف الأقمار الاصطناعية ويريد أن يتكلم مع الضابط المسؤول. قلت لبوبي فوراً إني سأردّ على هذه المكالمة بنفسي.

قال مايكلز بحزم: "الرائد والتز، أريد أن أكون واضحاً تجاه أمرٍ ما من البداية؛ هذا مجال معركتي، وأنت ليس لديك، وأقولها ثانية، ليس لديك الإذن لقصف ذلك الموقع! إن موقع القصف ذاك قريب جداً من موقع الجيش الباكستاني، وموقع القصف الآخر الذي ذكرته يقع داخل مجمّع مبانٍ مدنية".

أجبتُه: "يا سيدي، هذه ليست مسؤوليتك. أنا قائد القوة البرية الموجودة على الأرض هنا، ونحن نتعرّض لنيران معادية مباشرة"، وحاولت الحفاظ على صوتي منتظماً. ذكّرته أنني أحصل على الموافقات على التصرف عبر سلسلة قيادتي المنفصلة، وقد تأكدنا من أن المبنى المدني كان مهجوراً".

"أيها الرائد، لم أتسبب بإصابة واحدة بين المدنيين الأفغان في معظم أيام السنة التي قضيتها هنا، ولن يحدث هذا اليوم بسببك. هذا مجال معركتي، ويجب عليّ التعامل مع عواقب أخطائك". هذا أشبه بلاعب الظهير [في كرة القدم الأمريكية] الذي يتبجّح بأنه قضى الموسم الكروي بأكمله من دون أن يواجه لاعباً يقطع كرته، ولكنه في الوقت ذاته لم يمرر أي كرة. لقد غدا عدم ارتكاب أخطاء مقياساً للنجاح!

أعدتُ الهاتف إلى مكانه في العربة وكنت على وشك الخروج من جلدي عندما سمعت قرقعة مدفع الهاون خلفي. نظرتُ إلى الخلف وشاهدتُ مجموعة من شرطة الحدود الأفغان يبتسمون وهم يضعون قذيفة ثانية في مدفع هاون عتيق روسي الصنع. يبدو أن عزيز سئم تراخينا فيما مقاتلو طالبان يقصفون قاعدته، التي كانت مجاورة لقاعدة العمليات الأمامية "ليللي". ولذلك أعطى الأوامر لجنوده من فريق الهاون أن يبدؤوا إطلاق النار على موقع الصواريخ الطالباني قرب المخفر-28. وعندما بدأ رجال عزيز

يطلقون الرشقة الثانية سمعنا صوت قصف مدفعي من بعيد قادم من جهة الموقع الباكستاني. ومرت قذيفة المدفعية الباكستانية على مسافة مرتفعة فوق رؤوسنا، ولكنها كانت كافية لجعل بوبي يهرع إلى عزيز ليطلب منه أن يطلب من رجاله التوقف قبل أن يتصاعد تبادل النيران أكثر من ذلك. وبنظرة غضبى على محيا عزيز، صرخ طالباً من فريق الهاون التوقف عن إطلاق القذائف.

بعد ذلك طلبنا من المراقب الجوي التكتيكي المشترك لسلاح الجو الخاص بمفرزة العمليات ألفا استدعاء ضربة جوية لذلك الموقع. وكان الطيار الذي يقود القاذفة بي-1 التي تدور في الجو لاحظ بعض الرجال وهم يركضون نازلين أسفل وادٍ بعيد عن موقع إطلاق الصواريخ. أعطيت إذناً بالقصف وأعطيت الطيار الأحرف الأولى من اسمي. وكان جهاز التسجيل في قمرة الطيار يسجل المحادثة. وإعطاء الطيار الأحرف الأولى من اسمي بصفتي قائد القوة البرية، من شأنه أن يعفيه من أي مسؤولية فيما لو حدث خطأ وأسقطنا قذائف على قوات صديقة أو مدنيين. وكان المراقب الجوي التكتيكي المشترك لسلاح الجو يبتسم ابتسامة عريضة؛ لأنه غير مخوّل باستدعاء ضربة جوية واحدة منذ الشهور التي أعقبت التوجيهات التي أصدرها الجنرال ماك كريستال. وقال بصوت عالٍ من دون أن يوجّه حديثه إلى أحد محدّد: "إن ردّ الفعل المبالَغ فيه من قِبَل الجميع تجاه أوامر ماك كريستال قد شلّ قدرات أقوى سلاح جوّ في العالم".

وساد صمت طويل بعد توجيه المراقب الجوي التعليمات النهائية للقاذفة، ولم يقطع ذلك الصمت سوى همسه الخفيف وهو يعدّ تنازلياً للانفجار. وهذا يمكن أن يتحوّل إلى يوم رهيب فيما لو أخطأ الطيار الهدف وأصبنا الموقع العسكري الباكستاني. سمعنا صوت قرقعة ودوي انفجار، تبعه وميض انفجار لاحق، في منطقة منخفضة عبر الوادي، وكان هذا يعني أن القذائف أصابت صواريخ إضافية أو مخبأ أسلحة أو مستودعاً. وصرخ بوبي: "مبروك! لقد أصبنا المزيد من الصواريخ".

وردت المكالمة اللاحقة من قيادتنا العليا؛ وقال ضابط العمليات لبوبي على الهاتف العامل عبر الأقمار الاصطناعية، "تعرفون يا رجال أنه يتعين عليكم الذهاب إلى هناك وإجراء تقدير لأضرار المعركة". إن التعليمات التكتيكية الآتية من الجنرال ماك كريستال تأمر أي وحدة تستخدم المدفعية أو الضربات الجوية أن تجري تقييماً لأضرار المعركة، أو القصف "عندما يكون ذلك ممكناً تكتيكياً". وهذا معناه الذهاب إلى موقع الحدث والتحقق، والتقاط الصور وتوثيق آثار الانفجارات. وبهذه الطريقة، عندما تقوم الآلة الدعائية لحركة طالبان المحلية باستدعاء وسائل الإعلام الدولية خلال ساعات من وقوع الحادثة وتزعم أن عشرات المدنيين قُتلوا نتيجة الضربة، يكون لدى قوات التحالف في الأصل أدلة تناقض ادعاءاتهم، من دون الحاجة إلى إرسال وحدة إلى الموقع مرة ثانية. كانت المشكلة أنه "حين يكون إجراء التقدير ممكناً تكتيكياً" فإن جزءاً من التعليمات يضيع في متاهات القيادات الفرعية المتعدّدة، وقد أصبح تقدير أضرار المعركة إجراء إجبارياً بعد كل ضربة، بغضّ النظر عن الوضع التكتيكي والخطر الماثل. وبالعكس، فقد حُرمت بعض الوحدات من الإذن لتنفيذ ضربات؛ لأنها لم تكن قادرة على الوصول إلى الموقع لإجراء تقدير لأضرار المعركة. وبدا الأمر وكأن القادة كانوا يستعيضون عن شرط "حين يكون التقدير ممكناً تكتيكياً" بـ "لن تحصلوا على الدعم إلا إذا..".

أمكنني سماع بوبي يجادل ضابط العمليات عبر هاتف الأقمار الاصطناعية قائلاً إن فريقه كان يذهب إلى المواقع بعد كل قصف مدفعي وإن مقاتلي طالبان أدركوا نمط سلوكهم. وكان بوبي يقول: "من المحتمل أن يكون الطريق إلى الموقع المقصوف مزروعاً بالعبوات الناسفة. إنهم يعرفون أننا قادمون".

طلب ضابط العمليات من بوبي بتعاطف أن يرسل رجال الشرطة ومعهم كاميرا. فقال له بوبي إن عزيز ورجاله من الشرطة لن يذهبوا وحدهم لأنهم يخافون التعرّض لنيران الرشاشات الثقيلة من قبل الباكستانيين في قاعدتهم. إن شرطة الحدود الأفغانية يتبادلون قذائف الهاون ونيران الرشاشات البعيدة المدى بشكل منتظم مع المواقع

العسكرية الباكستانية على الجانب الآخر من الوادي. الودّ مفقود لدى الطرفين. كان أفـراد شـرطة عزيز يعرفون أنه إذا كان الجنود الأمريكيـون معهـم فإنـه مـن المحتمـل ألا يطلـق الباكستانيون النار عليهم، وفي هذه الحالة لن يقلقوا إلا من طالبان. لقـد بـدأ سـائر فريـق تقدير أضـرار المعركة بالاستعداد حتى قبل أن يغلق بوبي جهاز اللاسلكي. كانوا يعرفـون النتيجة التي ستتمخض عنها هذه المحادثة.

تبادلتُ أنا وبوبي نظرات الاستسلام وأمسكنا بأسلحتنا. أصبح عزيز واقفاً بجانبنا الآن وهو يهز رأسه. قلت لهما: "سوف أذهب في المركبة الأولى". والمركبة الأولى عادة هي المرجّحـة أكثر من سواها لأن تصطدم بعبوات ناسفة تعمل بصفيحات الضغط تنتظرنـا. أجـاب بـوبي، "كلا، أنا أعرف الطريق؛ سوف أكون في المقدمة في المركبة المحصّنة ضـد الكمائـن والألغـام". وبدا عزيز يقدّر موقفنا بأننا لم نطلب منه أن يتقدمنا وهز رأسه بهدوء بجدية واحترام معبراً عن تقديره لأن بوبي، بصفته قائد الفريق، سوف يعرّض نفسه للخطر الأكبر.

ذكّرتني هذه الحادثة بالجـدل الـذي دار حـول معركـة غانجغـال في شـمال شـرق أفغانستان عام 2009. لقـد اسـتمعنا حينهـا إلى المعركـة عـلى جهـاز اللاسـلكي في مركـز العمليات، حيث تعرضت مجموعة صغيرة من مستشاري الجيش والبحريـة ترافـق دوريـة للجيش الأفغاني لكمين وهي في طريقها لمقابلة شـيوخ قرية غانجغال. سـاد الصـمت في الغرفة عندما سمعنا مكالمة تقول إن عدداً من جنود المارينز فُقـدوا في المعركـة. وقـد مُـنح الرقيب البحري داكوتا ماير من قوات المارينز وسام الشـرف في وقـت لاحـق لأنـه وجـد جثامين جنود المارينز المفقودين وأنقذ حياة جنود آخرين. ولكن النقيب في الجـيش الـذي تولى قيادة المعركة، باعتباره قائد القوة البريـة، واسـمه ويليـام سوينسـون، لم يحصـل عـلى الإسناد المدفعي والجوي القريب الذي طلبه مرات متعددة بسـبب قـرارات قيادتـه العليـا الواقعة على بعد عشـرات الكيلومترات. ولكن النقيب سوينسـون، الـذي اخـترق كمـين طالبان الثلاثي المحاور للبحث عن جنود المارينز المفقودين، لم يتلقَّ وسام الشـرف إلا بعد أربع سنوات أخرى بسبب اللوم الغاضب الـذي وجّهـه إلى الضـباط الأعـلى منـه خـلال

التحقيق الذي تلا الحادثة. وبحسب الوثائق المتوافرة التي وصفت مقابلة سوينسون خلال التحقيق اللاحق، فقد انتقد قواعد الاشتباك المعمول بها، وانتقد القيادة المتمثلة في الضباط الذين أحجموا عن إسناده، وانتقد الاستجواب الذي تعرّض له من قبل ضباط الأركان في حين كان هو تحت النيران يطلب الإسناد المدفعي. وسأل سوينسون المحققين: "عندما يتم تحميلي المسؤولية من قبل ضابط أعلى أو شخص جالس في مركز عمليات تكتيكية ينعم بالهواء المبرَّد، فلماذا أنا هناك -بحق الجحيم- أصلاً؟". وأضاف أنه تم استجوابه في مناسبات سابقة، وقد أصيب بالإحباط نتيجة الإجراءات المعقّدة اللازمة للحصول على إذن لإطلاق النار، حتى في أوقات الشدة. وأوضح سوينسون، "أنا دائماً أحصل على هذه الرسائل المجنونة التي تقول لي تنبه، تقول قيادة اللواء إنك لا تستطيع رؤية الهدف'. أنتِ يا قيادة اللواء الموجودة في جلال آباد، تباً لك! إنني أحدّق في الهدف. إنني أسمع أشد الأمور جنوناً على جهاز اللاسلكي أحياناً. أناس لا يقومون بشيء سوى الانتقاد وتحميل الآخرين المسؤولية. فحين أكون مستعداً لتحمل المسؤولية رسمياً عن أمر من الأمور فأنا أعرف تماماً أهمية وضرورة التأكد من أن القذائف سوف تضرب المكان الذي يُفترض أن تضربه. أنا أعرف عواقب وقوع إصابات بين المدنيين".

المفارقة هي أن الحوادث المشابهة لما حدث في قرية غانجغال وما كنّا نعانيه في شكين كانت أمراً مألوفاً. فحادثة غانجغال لم تُشتهر إلا لوجود صحفي مرافق، هو جوناثان لانداي من ماك كلاتشي. وكانت معركة غانجغال والكثير من المعارك الأخرى المشابهة دليلاً آخر على النفور من المخاطر التي كبّلت جهودنا في أفغانستان. أما المفارقة المحزنة فكانت أنه كلما أصبحنا تقييديين أكثر، قَلَّ تفاعلنا مع الأفغان، وازداد الوضع الأمني سوءاً.

بدا لنا المخفر الحدودي الباكستاني-28 على البعد بينما كنّا نسير في قافلة مركبات متجهين صوب موقع إطلاق الصواريخ، إلى أن أصبحت الطريق شديدة الوعورة على المركبة المحصنة ضد الكمائن والألغام الثقيلة والعريضة. ثم ترجّلنا وانطلقنا مشياً. كانت الرحلة صعبة وكانت تتطلّب منّا صعود المرتفعات ونزول الأودية الشديدة الانحدار

والمشي بين الشجيرات التي يصل ارتفاعها إلى الخصر. وكان الطقس حاراً، ونظراً إلى أن أفراد شرطة الحدود الأفغانية كانوا صائمين في شهر رمضان، لم يكن مباحاً لهم شرب الماء أو تناول الطعام من مطلع الفجر. لذلك بذلتُ قصارى جهدي كيلا أشرب جرعة ماء أمامهم. وأصيب الجميع بالتوتر عندما لاح في الأفق المخفرُ الحدودي الباكستاني الذي كان قد قصفَنا بالمدفعية، رابضاً على تلّة.

بينما كنّا نتّجه نحو موقع إطلاق الصواريخ، لوّح أحد المترجمين بيده لبوبي لكي يأتي، وقد كانت الحماسة تعلو وجهه. اتجهت أنا أيضاً نحو ذلك المترجم وشاهدته يضغط بإصبعه على جهاز اللاسلكي الذي يحمله، وقال: "هذا باكستاني يتحدث إلى طالبان!" إن حاجي زامان وآخرين من طالبان غالباً ما يتواصلون بواسطة أجهزة لاسلكي بعيدة المدى. لقد قمنا ببساطة بشراء واحد من تلك الأجهزة من السوق المحلية، وكان المترجم المرافق لنا يواصل البحث بين القنوات المستخدمة حتى يجد القناة التي يستخدمها مقاتلو طالبان. استمعنا إلى الحديث بينما كان المترجم يترجم الكلام الصادر عن المخفر العسكري الباكستاني لإبلاغ المتمرّدين بأن الأمريكيين قادمون، وحدّد لهم المكان المناسب للاختباء، وأخبرهم بعدم وجود إسناد جوي لنا.

نظر أحد العناصر إلى بوبي وقال له: "سيدي، هذا خبر سيئ. سوف نتعرّض لضربة، ونحن هنا مكشوفون تماماً. فنظر إليّ بوبي وكأنه يقول: "حان دورك". هززتُ كتفيّ.

أومأ برأسه إلى الرقيب المرافق وقال: "اطلب من المراقب الجوي التكتيكي للقوات المشتركة توجيه إحدى الطائرات في الجوّ للقيام باستعراض للقوة". وهذا يعني أن يُطلب من الطائرة التي تقوم بدورية دائمة عالياً في سماء أفغانستان، التحليق على علوّ منخفض فوق موقعنا، لكي تجعل الجميع يعرفون أن القوة الجوية موجودة، ولكي تحمل طالبان على التفكير مرتين قبل نصب كمين لنا.

قال مشيراً نحو الحدود: "فلنذهب".

كنت أنا وبوبي متشبثين برأينا وعنيدين، وكانت لنا مواقف صلبة جداً تجاه عدد من القضايا بخصوص انتشار القوات، ولكنني أحببت جرأته. كنّا بعيدين عن المركبات المصفحة، وكنّا نمشي ونحن مكشوفون بشكل خطير فوق تلال وعِرة وليس لدينا أي غطاء يُذكر. ومع ذلك، فقد أراد أن يوصل رسالة إلى طالبان (والباكستانيين) بأنهم إذا نصبوا كميناً لنا، فسوف يكونون مكشوفين بالقدر نفسه، لسلاح الجو الأمريكي.

وبينما كنّا نواصل سيرنا نحو موقع إطلاق الصواريخ، نظرتُ إلى الأعلى نحو الموقع الحدودي الباكستاني وفكرت في النقاشات التي دارت في واشنطن حول ما يجب فعله بشأن بناء علاقات أوسع وأعمق مع باكستان، وبشأن دعمهم لمقاتلي طالبان. لقد حضرتُ عدداً لا يُحصى من الاجتماعات في غرفة العمليات في البيت الأبيض مع نائب مستشار الأمن القومي لمكافحة الإرهاب لدى الرئيس بوش، خوان زاراتي؛ ومدير فريق موظفي الأمن القومي لجنوب آسيا، مارك ويبر؛ وقيصر الحرب دوغ لوت. وفي تلك الاجتماعات كنّا نناقش سياستنا التي تبدو متناقضة تجاه باكستان. من الناحية الأولى، ما كان في مقدورنا أن نواصل الحرب بنجاح في أفغانستان من دون موافقة رجال الحكومة الباكستانية، والسماح لنا باستخدام مطاراتهم وموانئهم وطرقهم ومجالهم الجوي لنقل آلاف الأطنان من الرجال والمعدات التي نحتاج إليها. كما قدّموا لنا عوناً شديد الأهمية في مجال مكافحة الإرهاب من خلال القبض على عدد من كبار نشطاء القاعدة، وفي المقابل تلقّت باكستان مساعدات بقيمة 20 مليار دولار من الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت المشكلة الرئيسية الواضحة كالشمس التي يتم تجاهلها هي الترسانة النووية الباكستانية، بينما كنّا نتجادل حول هذه القضايا. هنا توجد دولة فيها خمسة أضعاف عدد سكان العراق، أو أفغانستان، وهي تبني أسلحة نووية بأسرع ما يمكنها لتعويض نقاط الضعف التي يشكو منها جيشها التقليدي في مواجهة الهند. وفي الوقت ذاته، لدينا تقارير متعددة عن تنظيم القاعدة والتنظيمات المتطرّفة الأخرى بأنها تضع خططاً للاستيلاء على الأسلحة النووية

الباكستانية، إما من خلال إسقاط حكومة برويز مشرف، أو من خلال التعاون مع علماء نوويين باكستانيين ذوي ميول متشدّدة لإنجاز عمل بتواطؤ داخلي. إن فكرة حدوث أحد هذين التطورين أصبح احتمالاً واقعياً. وإذا بدأنا بالرد على دعم باكستان لطالبان؛ إلى أي مدى نحن مستعدون للقيام بذلك؟ هل نستطيع أن نتحمّل عواقب أن نجعل باكستان عدواً لنا؟ هل نحن مستعدون لضرب معسكرات تدريب المتمرّدين ومراكز قياداتهم في باكستان، ومحاربة دبابات الجيش الباكستاني ومدفعيته في أثناء دخولنا تلك المنطقة وخروجنا منها؟ هل نحن مستعدون لإسقاط سلاح الجو الباكستاني وطائراته التي زوّدته بها الولايات المتحدة، لكي نضمن أننا نستطيع أن ننقل عن طريق الجو الإمدادات التي لم نعد نستطيع إرسالها عبر الطرقات البرية؟ كلما بدأنا نفكر بهذه السيناريوهات السوداء، كنا دائماً نتراجع، ونبدأ البحث عن طريقة أخرى لإقناع الجيش الباكستاني لكي يهاجم طالبان.

ولإضافة المزيد من التعقيدات، تلقينا في ربيع 2008 عدداً من التقارير التي تقول إن تنظيم القاعدة يضع اللمسات الأخيرة على مخططات لشنّ هجوم جديد على الأراضي الأمريكية. والأمر المزعج حقاً هو الخبر القائل إن تنظيم القاعدة نجح في تجنيد متشدّدين يحملون جوازات سفر أوروبية وأمريكية ونقلهم إلى معسكرات تدريب في باكستان. أذكر أنني قرأت تقريراً يتضمّن تهديداً في ربيع 2008، ما جعلني أتساءل إذا ما كان من الصواب أن آخذ أسرتي إلى حفلة عيد الفصح في البيت الأبيض، مع أننا كنّا متحمّسين لحضور تلك الحفلة. واتضح لاحقاً أن ذلك التهديد لا أساس له من الصحة، ولكن قراءة تقارير من هذا النوع بشكل أسبوعي يؤثر بالتأكيد في تفكير المرء. ولا نستطيع أن نبقى راضين عن أنفسنا أو سلبيين في سياساتنا.

وافقت مع أولئك الذين أرادوا توسيع عملياتنا لمكافحة الإرهاب ضد مخابئ القاعدة في مناطق القبائل في باكستان. وكان سلاحنا الرئيسي، طائرات من دون طيار من طرازي بريداتور وريبر. وكنّا نستهدف مجموعة صغيرة من كبار قياديي القاعدة آنذاك.

ورأى كثيرون منا، ضرورة توسيع قائمة المستهدَفين وتوسيع قائمة الحالات التي تخوّلهم شنّ ضربات أيضاً. كنّا مخوّلين في تلك الفترة بضرب الأهداف فقط عندما نكون متأكدين من دقة المعلومات. وإلى جانب خوان، ومارك، وآخرين في وكالة الاستخبارات المركزية والبنتاجون، كنت أريد توسيع فتحة الترخيص لتشمل توجيه ضربات حتى عند الشك "ببصمات" القاعدة. على سبيل المثال، إذا اعترضنا أنواعاً معينة من الإشارات يمكن أن تقودنا إلى موقع معيّن، أو إذا عرفنا أن قيادياً إرهابياً يسافر دائماً في عربة محدّدة وأن تلك العربة واقفة في حرم مبنى معروف لتنظيم القاعدة، عندئذٍ يمكن لنا تفجير ذلك المبنى. وإضافة إلى الهجمات في حال الشكّ ببصمات، كنّا نريد أيضاً توسيع قائمة قيادات القاعدة التي سُمح لنا باستهدافها من عشرة أسماء إلى عشرين اسماً، بحيث تشمل قادة متمردي طالبان وحقاني.

ولكن كان هناك تردّد داخل دائرة الرئيس الداخلية بشأن تصعيد عملياتنا. ولم أكن متأكداً إذا ما كان هذا العناد يُعزى للرئيس نفسه، أو لمستشاره لشؤون الأمن القومي ستيفن هادلي، أو كانت هناك قضايا أخرى ضاغطة تجبرهم على استبعاد هذه القضية من الحسبان. وكان جزء من السبب يكمن في التقييمات المستمرة من قبل أجهزة الاستخبارات التي تقول إن تكثيف عملياتنا لمكافحة الإرهاب بصورة عامة، وضربات الطائرات من دون طيار بصورة خاصة، سوف تسبّب أضراراً أكثر من الفوائد المتحققة على المدى البعيد. وتأكيدهم أن ضربات الطائرات من دون طيار سوف تزيد من غضب الشعب الباكستاني ضد الولايات المتحدة، وتوفّر المزيد من المتطوعين المتطرفين لمصلحة الجماعات المتشدّدة. وإضافة إلى ذلك، ومع السيطرة الضعيفة للرئيس برويز مشرف على السلطة في ذلك الربيع، كان الشعور العام السائد في البيت الأبيض أن عملياتنا لمكافحة الإرهاب في باكستان يجب أن تُنفّذ بحكمة لكي نتجنّب المزيد من الأحداث التي تزعزع استقرار حكومة مشرف، والمخاطرة باحتمال قدوم حكومة أكثر تشدّداً وأقلّ تعاوناً معنا لتحلّ محلّ حكومة مشرف.

كان هناك مجموعة منّا تشمل مارك وخوان تشكّك بشكل جماعي في صحة هذه التقييمات. ولم نصدق أنه ستكون هناك تأثيرات سلبية كبيرة لتكثيف الضربات كما كانت تقول تقارير الاستخبارات. ولحسن الحظ، نشر المعهد الجمهوري الدولي نتيجة استطلاع رأي في تلك الفترة، وكانت النتيجة تعزّز رأينا. أظهر استطلاع الرأي أن هناك قبائل عدة في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية التي يغيب عنها القانون، كانوا قد سئموا وجود القاعدة والجماعات المتشدّدة الأخرى، ومن المثير للاستغراب أنه كلما كان المشارك في الاستطلاع يعيش في مكان أقرب إلى مناطق القبائل كان تقبّله للضربات أكبر. وحرصتُ على إرسال ملخص للاستطلاع في أحد التقارير المسائية إلى نائب الرئيس مع تحليلي القائل إن ردود الفعل على تكثيف الضربات ستكون أقل مما ذُكر في تقديرات أجهزة الاستخبارات. وبغض النظر عن التقييمات، فإن الرد العسكري الساحق ضد باكستان، الذي سيكون مطلوباً من جانب الشعب الأمريكي في حال تعرّضنا لهجوم إرهابي مشابه لهجوم 11 سبتمبر، سوف يلحق ضرراً كبيراً من حيث تشويه صورة الولايات المتحدة في أذهان الناس، وزعزعة الاستقرار السياسي في باكستان، أكثر بكثير من تأثيرات زيادة وتيرة الضربات في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية.

وقعت ثلاثة حوادث إضافية بوتيرة سريعة في ربيع 2008 أسهمتْ في تغيير التفكير الجماعي في البيت الأبيض نحو القيام بعمل أكثر شراسة للرد على دعم باكستان للمتمردين. وخلال بضعة أسابيع بعد نشر استطلاع الرأي الذي أجراه المعهد الجمهوري الدولي، حدث هجوم انتحاري بسيارة مفخّخة على السفارة الهندية في كابول، وتسبّب الانفجار في مقتل عدد من الدبلوماسيين الهنود.

ترافقت هذه الأحداث كلها مع ازدياد ملحوظ في التقارير التي تتحدّث عن تهديدات للولايات المتحدة على أراضيها، ما دفع الرئيس بوش إلى القيام بعمل حاسم. في أوائل سبتمبر نفّذت مجموعة من القوات الخاصة البحرية غارة عبر الحدود في وزيرستان الجنوبية، قرب شكين وأنغور آدا، وأسفرت الغارة عن مقتل عدد من نشطاء

القاعدة.[2] وردّت الحكومة الباكستانية على هذه الغارة بقطع جميع الإمدادات البرية [الأمريكية] التي تُنقل عبر باكستان إلى أفغانستان. ولم أشاهد في حياتي الجيش الباكستاني والحكومة الباكستانية يردان بهذه الحدّة. وبالإضافة إلى الاستياء الشعبي بشأن انتهاك سيادة باكستان، فقد تلقينا دلائل موثوقاً بها تفيد بأن الجيش الباكستاني أعطى أوامر إلى وحداته على الحدود بإطلاق النار على أي أمريكيين يقتربون من الحدود. وفي اليوم اللاحق واجهت اثنتان من المروحيات الأمريكية كانتا في مهمة دورية روتينية وابلاً من نيران رشاشات ثقيلة من مخفر حدودي باكستاني. ولحسن الحظ لم يُصَب أحد، ولكن من الواضح أن باكستان أخذت خطوة على الطريق نحو العداء الكامل تجاه الولايات المتحدة، وهي في طريقها إلى التحوّل من حليف صعب المراس إلى عدو صريح. وبعد سلسلة من النقاشات على مستويات عالية، تعهّدنا للجيش الباكستاني أننا لن نشنّ أي غارات إضافية عبر الحدود. ولكن الباكستانيين قدّموا تنازلاً ووافقوا على عدم إلزامنا بإبلاغهم مسبقاً في حال شنّ أي أنواع أخرى من الضربات، مثل ضربات الطائرات من دون طيار، أو المدفعية البعيدة المدى. وبدلاً عن إبلاغهم مسبقاً، تعهّدنا بأن نعلِمَهم في أثناء تنفيذ الضربات؛ وبهذه الطريقة لا يستطيعون تحذير المتمرّدين. وعلى الصعيد الداخلي، وافق الرئيس الأمريكي على شنّ ضربات عند الشكّ في وجود "بصمات" للإرهابيين، وعلى توسيع قوائم الأهداف لتشمل المزيد من نشطاء وقياديي القاعدة وطالبان وحقاني. وكان ذلك في رأيي يُعتبر خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح نحو تحجيم قدرات القاعدة، وحرمانها من التخطيط لتنفيذ عمليات على الأراضي الأمريكية. فإذا كان نشطاء القاعدة في حالة فرار مستمر للنجاة بأرواحهم، فلن يتسنى لهم التخطيط لهجوم مشابه لهجوم 11 سبتمبر.

ولكن هذه القرارات [الأمريكية] لم تُحدِث تغييراً يُذكر في الحسابات الاستراتيجية للحكومة الباكستانية. وفي مذكرةِ سياساتٍ كَتبتُها إلى نائب الرئيس قمتُ بتسليط الضوء على ست خطوات كنت أعتقد أنه يجب على الولايات المتحدة أن تأخذها لتغيير سلوك باكستان والتعامل مع ملاذات المتشدّدين:

1. يتعين على الولايات المتحدة تعزيز التزاماتها الطويلة الأجل بشأن جهود الحرب في أفغانستان. ونحن بحاجة إلى إظهار أننا سنظل في المنطقة لفترة طويلة، ربما من خلال تجديد اتفاقية الشراكة الاستراتيجية وتوفير المزيد من الموارد. ونظراً إلى تركيز جهودنا على العراق وإسناد حرب أفغانستان إلى حلف الناتو، فإن باكستان كانت تعزز رهاناتها بدعم طالبان. نحن بحاجة إلى إظهار أننا سنكون الطرف الرابح، وأنه ينبغي للباكستانيين التعاون معنا بدلاً من التآمر ضدنا.

2. كان ينبغي للولايات المتحدة أن تفرض عواقب باهظة على مساعدة المتشدّدين في قتل جنود أمريكيين أو جنود الناتو أو الجنود الأفغان. وكان يجب علينا أن نشنّ ضربات في المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الاتحادية ضد مخابئ المتمرّدين، حتى إن كان ذلك سيشكل خطراً على علاقتنا مع باكستان.

3. ينبغي لوزارة الدفاع أن تبدأ بشكل سريع وحازم تحويل خطوط الإمدادات البرية بعيداً عن أراضي باكستان، نحو طرق أخرى. ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الخيارات المقبولة، نظراً إلى وجود إيران في الغرب وروسيا في الشمال. ولذلك كان علينا تقديم بعض التنازلات للروس، في مجالات ومناطق أخرى من سياستنا الخارجية. ونظراً إلى أن نحو 90٪ من إمداداتنا الحربية المتوجّهة إلى أفغانستان كانت تمر عبر باكستان، فقد كنّا بحاجة إلى الباكستانيين أكثر مما هم بحاجة إلينا.

4. ينبغي للولايات المتحدة أن تواصل تقديم المساعدات العسكرية لباكستان فقط ضمن الحدود التي تساعد الجيش الباكستاني في محاربة الجماعات المتشدّدة، مثل شراء أجهزة لاسلكي ومروحيات ومعدات أخرى مخصّصة لمحاربة المتمردين.

5. ينبغي لنا إعلان برنامج الطائرات من دون طيار على الملأ. لقد كان ذلك أسوأ سر تحتفظ به أمريكا، وقد ذُكر مرات عدة من قبل أعضاء مجلس الشيوخ وكبار المسؤولين. فالحديث عنه علانية يمنحنا القدرة على تغيير التصوّرات والأخبار

السلبية عن الضربات. ونظراً إلى أننا رفضنا مناقشة البرنامج علناً، صار الشعب الباكستاني وبقية العالم يستمدون معلوماتهم من معلّقين غير مطّلعين ومن ناطقين باسم طالبان، حيث كان هؤلاء يضخّمون عدد الإصابات بين المدنيين، ويقلّلون الإصابات بين الإرهابيين، ويغطون على مشاركة باكستان في البرنامج، ويتهمون الولايات المتحدة بأنها تدوس على سيادة باكستان في المناطق القبلية غير الخاضعة لأي قانون.

6. ينبغي للولايات المتحدة الأمريكية أن تلوّح بإمكانية الدخول في اتفاق نووي مدني [مع باكستان]، مشابه للاتفاق الذي أبرمته مع الهند في تلك الفترة، فقط بعد أن تحرز تقدّماً ملموساً ضد التشدّد. وسوف يتيح هذا الاتفاق للشركات الأمريكية تبادل تكنولوجيا المفاعلات النووية مع الأطراف الباكستانية بما ينسجم والقواعد والقوانين الدولية. وباكستان بدورها كانت متلهّفة للحصول على مصادر إضافية للطاقة، ولذلك فإن احتمال إبرام هذا الاتفاق كان يمكن أن يشكل حافزاً قوياً لإحداث تغيير إيجابي في سلوك باكستان.

وقد تمّ تبني بعض هذه التوصيات في نهاية المطاف؛ وكان البنتاجون يقوم بشكل هادئ بتوسيع خطوط إمداداتنا في الشمال عبر أراضي روسيا وآسيا الوسطى، وكان ذلك يسمح لنا بتحمّل أضرار أي قرارات مستقبلية بقطع إمداداتنا البرية عبر باكستان. وتغيّرت مكوّنات مساعداتنا العسكرية من أشياء تحتاج إليها باكستان لمحاربة الهند، إلى أشياء تحتاج إليها لمحاربة طالبان. وبنهاية عام 2008، ارتفع عدد الهجمات التي نفذتها الطائرات من دون طيار ضد المتشدّدين في المناطق القبلية الباكستانية إلى تسعة أضعاف ما كانت عليه في السنة السابقة؛ وكان لهذه الضربات تأثير كبير في قدرة تنظيم القاعدة على التخطيط لهجمات على الأراضي الأمريكية.[3] ولكن، كما أظهرت هجمات الصواريخ على قاعدتنا في شكين بعد سنة من ذلك التاريخ، نجد أنه لم يحدث تغيير يُذكر في مستوى الدعم الذي تقدمه باكستان لمقاتلي طالبان.

وعلى الحدود، واصلْنا مراقبة المخفر الباكستاني–28 الذي كان يقدّم التعليمات والنصائح لمجموعة من مقاتلي طالبان الموجودين في المنطقة. ففي كل مرة كانت تحلّق طائرة حربية أمريكية فوق تلك المنطقة كان المخفر الباكستاني يتصل بالمتمرّدين ويحذّرهم قائلاً لهم: **"الطقس يتغير إلى الأسوأ"**. وكان المتمرّدون يردون على التحذير بأنهم سوف **"يقيمون الحفلة"** عندما **"يتحسّن الطقس ويصل الضيوف"**.

أخيراً صعدنا إلى قمة التلّة التي كانت موقعاً لإطلاق الصواريخ علينا. وصرخ أحد أفراد شرطة الحدود الأفغان "عبوة ناسفة!". تجمّدنا في مكاننا للوهلة الأولى، وتهيأنا لمواجهة الانفجار، ثم مشينا ببطء إلى الأمام لنرى قذيفة مدفعية محشورة تحت أجمة، وكانت مدفونة جزئياً مع أسلاك خارجة منها. وعندما حاولنا الالتفاف حول المكان، وجدنا قذائف أخرى عدة. قمنا بتمشيط المنطقة بحذر شديد، وكنّا نأمل أن نجد متمرّدين مقتولين في المواقع التي قصفناها سابقاً بالطائرة أو بالمدفعية. واتّضح أن مقاتلي طالبان خلّفوا وراءهم أكثر من ستّ عبوات ناسفة من قياسات مختلفة مزروعة كمتفجرات مضادة للأفراد، ومن بينها مجموعة من قذائف الهاون مربوطة مع بعضها بعضاً بشريط، ومعلّقة في شجرة بمستوى ارتفاع الكتف تقريباً. ولا أدري لماذا لم تنفجر هذه العبوات الناسفة. قام عدد منا بتعطيل العبوات ببساطة بقطع الأسلاك (وعندما أتذكّر هذه العملية الآن أرى أنها جنون مطبق). كانت الحدود معلّمة بحزمة وحيدة من الأسلاك الدائرة الشائكة تمتد على مدّ النظر. وحين فتّشنا تلك المنطقة حتى خط الحدود، ثم توجّهنا شمالاً باتجاه المخفر الباكستاني–28، شاهدنا بضعة أماكن كانت الأسلاك الشائكة فيها مقطوعة أو ملقاة على الأرض.

وفجأة صعدنا تلّة ليست عالية وعثرنا على سبعة صواريخ روسية الصنع من عيار 107 ملم ذات فتيل يحترق، وهو موصول بجهاز توقيت قرب مؤخر الصواريخ. تراجعْنا على الفور، وتحدّث بوبي عبر اللاسلكي مع قاعدة العمليات الأمامية "ليلي" ليحذّرهم من أن الصواريخ قادمة نحوهم. تبادلنا أنا وبوبي النظرات. من المستحيل أن نسمح لهذه

الصواريخ بالانطلاق. وكان يمكن لأحد هذه الصواريخ أن يكون الفائز بجائزة يانصيب طالبان لو سجّل إصابة مباشرة لأحد المباني. ركضنا نحو مؤخرات الصواريخ ونحن نمسك مقصات الضمادات الطبية الموجودة في علبة الإسعافات الطبية، وبدأنا نحاول بشكل محموم قطع فتائل الاشتعال التي تحترق، الموصولة بأجهزة التوقيت. وركض آخرون وانضموا إلينا وسحبوا سكاكين الجيب، وأي شيء آخر يمكن أن يقطع الفتيل. وكانت أيدينا ووجوهنا على مسافة بضع بوصات من مؤخرات الصواريخ، وكانت الفتائل المشتعلة تقترب مسرعة من هياكل الصواريخ، ونجحنا في قطع الفتائل في اللحظة المناسبة، ومنعنا الصواريخ من الانطلاق.

وعندما تنفّسنا الصعداء، انفجر الصندوق الأسود الصغير الذي كان يُستخدم كجهاز توقيت وخرجت ألسنة اللهب منه خلف الصواريخ تماماً. وفجأة تحرك مجموعة من الجنود ذوي القبعات الخضر الذين كان يُفترض أن تكون أعصابهم فولاذية، وتراجعوا إلى الخلف وكانوا يتعثرون بنا، وهم يزحفون للابتعاد عن مكان الانفجار. ولكن الصواريخ لم تنفجر، وبدأنا جميعاً نضحك بشكل هستيري على الموقف بأكمله. كانت لحظة سريالية غريبة، وكنّا نقف خلف تلك الصواريخ، على مسافة أمتار قليلة من الحدود الباكستانية، ومع مجموعة من مقاتلي طالبان الذين كانوا يقفون في مكانٍ ما في الجوار وينتظرون ليوقعونا في كمين، في حين كان حلفاؤنا السابقون [الباكستانيون] يتفرّجون علينا من قاعدتهم في أعلى التلّة.

قطع المراقب الجوي التكتيكي للقوات المشتركة مجريات الحفلة بإخبارنا أننا نفقد الإسناد الجوّي (أنا على يقين أنه هو السبب الوحيد لإنقاذنا من التعرّض لكمين في ذلك اليوم) لأن طائرة الإسناد الجوّي تم سحبها لمؤازرة وحدة أخرى مشتبكة؛ ولذا حان الوقت لنخرج من هناك. وقمنا بسرعة بتجميع العبوات الناسفة التي تم تعطيلها، ووضعنا شحنة متفجرة فوقها، وقمنا بتفجيرها في مكانها. ووضع كل واحد منّا صاروخاً

من عيار 107 ملم على كتفه، وعدنا أدراجنا إلى مركباتنا ومن ثم إلى قاعدتنا من دون التعرّض لحوادث أخرى.

وبعد أيام، عقب عودتي إلى قاعدتي في خوست، انطلق صاروخ وحيد من المنطقة نفسها وسقط خارج العنبر الميكانيكي التابع لمفرزة العمليات ألفا-25، وقد ملأ العنبر بالشظايا. ولحسن الحظ لم يكن الميكانيكيون في المبنى في ذلك الصباح. وركض بوبي إلى فصيل المدفعية ليبدأ الضغط عليهم للحصول على إذن بالرد على النار. ومرة ثانية جاءت الأوامر لمفرزة العمليات ألفا لإجراء تقييم لأضرار المعركة بعد أن سُمح لفصيل المدفعية بإطلاق النار أخيراً. ومرة ثانية احتج بوبي لسلسلة قيادتنا، وقال إن المتمرّدين سيكونون في انتظارنا، ولكنه تلقّى أوامر بالذهاب لتقدير الأضرار مهما كانت الظروف. وعندما اقترب الفريق من موقع إطلاق الصاروخ، بدأ كلب الكشف عن المتفجرات يشم الأماكن حول قاعدة أجمة. واتجه أندريه، رقيب الاتصالات الذي جُرح عندما انفجرت ذخيرة مدفعية إثر هجوم سابق بالصواريخ، إلى الأجمة للتحقّق من المكان.

دفع ذلك الانفجار أندريه في الهواء ثم سقط إلى الخلف، وعلى بعد نحو 20 قدماً سقط على مؤخرته، ثم استلقى على ظهره فاقداً الوعي، وكانت ساقه وقدمه اليُمنيان مغطاتين بالدماء، والفوضى والدخان يعمّان المكان.

كانت ساق أندريه مملوءة بالشظايا والتراب، وكان هناك فتحة كبيرة في مؤخر كعبه. واستطاع الفريق الطبي الموجود مع مفرزة العمليات ألفا إبقاء حالته مستقرّة، وإيقاف النزف؛ ومن ثم لم يفقد الكثير من الدماء قبل وصول مروحية الإخلاء الطبي. زرتُ أندريه في المستشفى في قاعدتي في خوست. نجا من الانفجار في ذلك اليوم، ثم قرروا لاحقاً بتر قدمه بدلاً من أن يقضي حياته وهو يعاني ألماً مؤكداً، وعدم قدرة على الحركة.

كانت الاشتباكات المستمرّة على الحدود قرب شكين مثالاً على الصراعات المستعرة صعوداً وهبوطاً على طول الحدود بين أفغانستان وباكستان. وكنتُ دائماً أعرف أن الوضع

كان سيئاً، ولكنني لم أكن أعرف أنه بهذا القدر من السوء حتى خبِرتُه بنفسي. بالنسبة إليَّ، كان الموقف يكشف ضخامة وكثافة الدعم العسكري الباكستاني لمقاتلي طالبان. كما كان يفضح عدم جدوى المحاولة لدحر حركة تمرّد لا تنعم بملاذ آمن فحسب، وإنما تتمتّع بالدعم من جانب دولة. وبعد زيارة أندريه، جاء بوبي وعدة عناصر آخرين من مفرزة العمليات ألفا-25 إلى مستشفانا في خوست وقد أصيبوا بجروح خطيرة، وتحدّثوا إليّ بطريقة شخصية وصريحة جداً عن إخفاق سياستنا تجاه باكستان، وكيف أن هذه السياسة تؤثر في حياة جنودنا. وكان إجراء نقاشات سياسة نظرية في البيت الأبيض بشأن ما يجب أن نقوم به أمراً مختلفاً كلياً عن رؤية جنودك وأصدقائك مشوّهين بسبب إخفاق تلك السياسة. ولم أستطع أن أخفي مشاعري بأنني خذلت أولئك الرجال خلال وجودي في واشنطن. إن ردودنا الفاترة على الهجمات التي نتلقّاها عبر الحدود في الميدان أسهمت في جعل الأمور أسوأ مما كانت عليه، وفي تفاقم خطورة الوضع.

خرجتُ من هناك وأنا مقتنع أكثر من أي وقت مضى بصحة توصياتي التي أرسلتها إلى البيت الأبيض. ونظراً إلى الانتشار الواسع في تلك المنطقة للنظرة تجاه الولايات المتحدة بأنها ليست جادة بشأن تقديم التزام طويل الأجل تجاه أفغانستان، فإن الدعم الباكستاني للمتمرّدين الأفغان يصبح مفهوماً مع أنه ليس مسوغاً. وقد حان الوقت لتغيير سياستنا نحو استخدام عصا أغلظ بقصد تحطيم قيادات المتمردين وتدمير ملاذاتهم، في حين ما يزال لدينا قوات معتبرة في أفغانستان. وكنّا بحاجة إلى التفكير بشكل جدّي في شن ضربات عبر الحدود الباكستانية بواسطة القوات الأمريكية ضدّ شبكة حقاني وقيادة طالبان. والمرة الوحيدة التي رأيت فيها الجيش الباكستاني يعيد التفكير حقاً في سلوكه، كانت بعد الغارة التي قمنا بها عبر الحدود عام 2008. وكنتُ أعرف أن هناك مخاطر تترتّب على هذا الأسلوب؛ مخاطر رهيبة حتى ذلك التاريخ في مواجهة كل حادثة مع باكستان إلى درجة أن صانعي السياسة الأمريكيين قد تخلّوا عن سياسة عصا الترهيب، وتراجعوا لتجريب حزمة مختلفة من جَزر الترغيب. ولكن أندريه وبوبي وآلاف الجنود

الآخرين، وكذلك الأفغان الذين دعموهم، كانوا يستحقون سياسة أفضل. كانوا يستحقون إجراء تغيير في دينامية العلاقة الأمريكية-الباكستانية. لم يعد في مقدورنا الاستمرار في السياسة والأسلوب نفسيهما، على حساب حياة المزيد من الجنود الأمريكيين، وخسارة احترام ودعم الأفغان ذاتهم الذين كنّا نحاول حمايتهم.

الفصل الرابع عشر

قبائل شامكاني .. مبادرة الدفاع المجتمعي

توافد شيوخ ولاية باكتيا الشرقية إلى قاعة المؤتمرات الكبرى في قصر الحاكم في عاصمة باكتيا، مدينة غارديز. ولطالما بهرني اللباس الرسمي لشيوخ البشتون بعمائمهم السود والرمادية التقليدية بطرفها الطويل المتدلي على كتفهم الأيمن. ارتدى كل منهم الشلوار التقليدي من مختلف درجات الألوان الترابية مع السترة، وكانت وجوههم جميعاً تبدو عليها تجاعيد عميقة ولحاهم يغزوها الشيب. وباستثناء النظّارات التي يستخدمها بعضهم، بدا وكأنهم لم يغيّروا مظهرهم منذ مئات السنين. وكان الرجال العشرون أو نحو ذلك، قد تحمّلوا عناء سفر يوم كامل على الطرق الوعرة للاستماع إلى نائب الحاكم عبدالرحمن مانجال وهو يعلن إطلاق مبادرة الدفاع المجتمعي قرب البلدة الحدودية شامكاني شرق باكتيا.

كانت مبادرة الدفاع المجتمعي برنامجاً ترعاه قيادة القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان لتطوير قوات الدفاع الذاتي على مستوى المجتمع المحلي في المناطق الريفية والنائية في أفغانستان، ولاسيما في الجنوب والشرق حيث يهيمن البشتون، وحيث كان التمرد أقوى. وكان لدى معظم قبائل البشتون في جنوب وشرق أفغانستان تقليد يتمثل بالميليشيات القبلية التي تُدعى أربكاي، ويرجع تاريخها إلى قرون مضت. كانت القبيلة تدعو الأربكاي لحماية المصالح القبلية مثل الأراضي الخصبة، أو لفرض المراسيم الصادرة عن الشيوخ. وعلى الجانب الآخر من الحدود، في مناطق البشتون في باكستان، كانوا يُسمون التكوينات المماثلة "لَشْكَر" (العسكر). كانت الأنظمة الملكية الأفغانية السابقة تستخدم تقليدياً سلسلة معقدة من التحالفات مع مختلف القبائل والأربكاي لتحقيق الاستقرار النسبي في الريف المنقسم في أفغانستان. في الواقع، خلال الفترة المستقرّة

الأخيرة في أفغانستان، في أثناء حكم سلالة مصاحبان (1929-1978)، استخدم ملوك الأفغان مزيجاً من الاستراتيجيات المركزية واللامركزية لتوفير السلام والاستقرار النسبيين. وقامت القوى الوطنية، مثل الجيش الأفغاني، بإرساء الأمن في المناطق الحضرية وعلى طول الطرق الرئيسية، في حين تكفّلت المجتمعات المحلية بنشر الأمن في المناطق الريفية بدعم كابول لميليشياتهم.

كان لقاؤنا في غارديز في خريف عام 2008 مع نائب الحاكم مانجال خطوة مهمة نحو إعادة إحياء مفهوم الأربكاي في شرق أفغانستان. فقد جرى تهميش الأربكاي بفعل توليفة من برامج نزع السلاح المدعومة من التحالف، ومراعاة رغبة الرئيس كرزاي في الحفاظ على السيطرة على الجيش والشرطة مركزياً، والترهيب الذي تمارسه طالبان، أضف إلى ذلك مجالس الشورى القبلية التي حكمتهم على مر السنين منذ أحداث 11/ 9. ولكن الرغبة العارمة في كبح جماح التمرد، إلى جانب تحسّن فهم الديناميات القبلية في أفغانستان بحلول عام 2009، أثمرت حركة جديدة داخل أوساط العمليات الخاصة تنادي بالاستفادة من دعم القبائل التي تملك الجرأة لمقاومة نفوذ طالبان. وبحلول موسم القتال صيف عام 2008 كانت حركة طالبان والقبائل المتحالفة معها قد اشتطت في عدد من المجالات؛ من الهجوم على المدارس والمراكز الطبية، إلى فرض الضرائب والتعدي على الممتلكات القبلية مثل الأراضي الخصبة والمعابر الحدودية المربحة. بدأ عدد من القبائل القوية، كلٌّ لأسبابه الخاصة، بتحويل الأربكاي ضد طالبان وشبكة حقاني بأعداد متزايدة. وأرادت قيادة التحالف الاستفادة من ظهور هذه الميليشيات المناهضة لطالبان، والتي تبادر من تلقاء نفسها إلى حماية مجتمعاتها. خلال العام اللاحق تبلوَر هذا النوع من المساعدات المخصّصة في مشروع تجريبي في مقاطعة وارداك، ومن ثم تمثّل في برنامج مبادرة الدفاع المجتمعي الأكثر رسمية.

رحّب نائب الحاكم مانجال بكل شيخ بشكل شخصي بإعلان اسمه وقبيلته ومديريته، بينما اتخذ الشيوخ مقاعدهم حول طاولة المؤتمر الطويلة. ثم شكر مانجال وزارة الخارجية وممثلي وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة من فريق إعادة إعمار

الولايات الذين جلسوا إلى يمينه على رأس الطاولة. وكان يجلس إلى جواري عند الجدار الخلفي الدكتور سيث جونز، وهو خبير مدني في مكافحة التمرّد ومكافحة الإرهاب في مؤسسة راند البحثية، كان يقدّم المشورة للقائد العام لقوات العمليات الخاصة في أفغانستان حول كيفية تنفيذ وتوسيع برنامج مبادرة الدفاع المجتمعي. كنت قد عملتُ مع سيث في أثناء وجودي في البنتاجون والبيت الأبيض. وقد عملنا مع الآخرين على دفع مؤسسة الأمن القومي في واشنطن لسنوات نحو فهم أدق لمجريات الأحوال وإشراك القبائل في أفغانستان. كنت مسروراً للغاية لجلوسي هناك معه ونحن نطلق المشاركة القبلية وبرنامج الدفاع الذي تمنيناه لسنوات في السابق.

بدأ نائبُ الحاكم الحديثَ: "أصدقائي، إخواني، زملائي رجال القبائل، لقد انضمّ إلينا رفاقُنا الأمريكيون اليوم ونحن نعلن مبادرة جديدة؛ لدعمنا في كفاحنا من أجل أفغانستان أفضل. وهم سيساعدوننا على تنظيم وتدريب الأربكاي للدفاع بشكل أفضل عن قرانا وأراضينا. لقد تعهّدوا بتوفير المعدات لرجالكم. إخواني، يجب علينا أن نتولّى مسؤولية الأمن في بيوتنا وقرانا. لقد استمر انعدام الأمن هذا بما فيه الكفاية. يجب علينا تحمّل مسؤولية السلام والازدهار في مناطقنا، وهذا يشمل منع أعداء أفغانستان من استخدام الأراضي القبلية لدينا كقواعد لمهاجمة هذا البلد. يجب أن نوقف أولئك الذين يجعلون الأجانب يأتون عبر حدودنا لخلق المتاعب في أفغانستان. سنبدأ برنامج مبادرة الدفاع المجتمعي في المديريات حول شامكاني. وسوف يتضمّن ذلك عمل الأمريكيين بشكل وثيق جداً مع رجالكم. وفي بعض الأحيان يجب أن يعيشوا في قراكم". وأومأ لي، ولقائد فريقي، فيتز، الذي كانت مفرزة العمليات ألفا-26 التابعة له مسؤولة عن المناطق المحيطة بشامكاني.

استمر مانجال في شرح المعايير الخاصة بالبرنامج، التي كنّا قد ناقشناها معه في سلسلة من الاجتماعات التي كانت تهدف إلى الحصول على دعم الحكومة الأفغانية. وأوضح للشيوخ أننا لا ننوي تقديم الأسلحة إلى رجالهم، إذ إن معظم الرجال الأفغان كان السلاح في حوزتهم أصلاً، كما لا ننوي تجنيد رجال إضافيين لقواتهم. اقتصر نطاق

البرنامج على تزويد مجموعات الأربكاي الموجودة بالمؤن والتدريب التكتيكي الدفاعي، ومنح الأولوية للمناطق التي طلبت مساعدتنا. كان الكثير من الرجال في الغرفة قد طلبوا هذا النوع من الدعم من فيتز، منذ أشهر عدة، لمساعدتهم في الدفاع عن أراضيهم ضد تكتيكات التخويف والإكراه التي تمارسها شبكة حقاني لدعم قضيتها. وفي مقابل مقاومة غارات حقاني عبر الحدود، فإن مفرزة العمليات ألفا-26 وفريق إعادة إعمار الولايات سيوفران للقرية والمنطقة المحيطة بها حزمة من المشروعات. وتابع مانجال: "لن يدفع الأمريكيون المال لرجالكم، بدلاً من ذلك سوف تتلقّى قراكم مشروعات تنموية إضافية؛ وهذا البرنامج يهدف إلى إفادة القبيلة والقرية، وليس الأفراد. وسيكون الأمريكيون أيضاً هنا لدعمكم إذا شنّت شبكة حقاني هجوماً ضدكم. سوف يكونون قادرين على حمايتكم بالطائرات وقصف المعتدين".

قطب عدد من الشيوخ جبينهم عند إعلان أننا لن نقدم رواتب، وأعرب أحدهم عن اعتراضه.

فأجاب مانجال: "إن رجالكم هم من المتطوعين بالأصل، إنهم الحرّاس الليليون في الأسواق وفي الطرق المؤدية إلى محاصيلكم وأشجار صنوبركم. وسوف تدفعون نفقاتهم من تحصيل الأموال في القرية، كما كنتم تفعلون دائماً، يا أصدقائي. ولكن المشروعات الجديدة التي يعدنا بها الأمريكيون سوف تجلب المزيد من فرص العمل لشعبكم. يجب عليكم الجلوس معهم وإخبارهم باحتياجاتكم".

طلب ممثل وزارة الخارجية، الذي كان عنصراً جديداً في فريق إعادة إعمار الولايات ولم يشارك في الكثير من مناقشاتنا السابقة، من مانجال توضيح كيف ستتم إدارة الأربكاي. وكانت تلك إحدى أهم النقاط، من وجهة نظري: كيف سيتم منع الأربكاي من أن تصبح ميليشيا جامحة أخرى خارج سيطرة الحكومة المركزية فتقوم بافتراس المواطن الأفغاني العادي. أجاب مانجال: "سيتم اختيار أعضاء الأربكاي من قبل مجالس الشورى القبلية التي تمثل مجتمعاتهم؛ وسيكون هؤلاء الرجال، بصفتهم زعماء

القبائل، مسؤولين عنهم، ويجب أن يقرن هؤلاء القادة سمعتهم بكل رجل يختارونه"، وكرّر الجملة بلغة البشتو قبل التوقّف قليلاً ليتيح للعبارة الرسوخ في الأذهان: "سيرتبط اسمهم وشرفهم بأفعال الرجال الذين يرشحونهم".

كنت مؤمناً بأهمية الإبقاء على مجلس الشورى القَبَلي، بدلاً من فرد واحد، باعتباره الكيان المسؤول عن الأربكاي، وذلك لترسيخ دور المجلس كمؤسسة حكم رئيسية وحتى لا نقوم بدعم زعيم متجبّر محلي من دون قصد منّا. كنت قد شرحت هذه النقطة عشرات المرات في اجتماعات حول مبادرة الدفاع المجتمعي مع المنظمات غير الحكومية، وممثلي الأمم المتحدة المحليين، ومسؤولي وزارة الخارجية، ووكالة التنمية الدولية، وضباطنا العسكريين أيضاً. ساورهم القلق جميعاً من أن تكون القوات الخاصة الأمريكية تعود، بطريقة تشبه رعاة البقر، إلى سياسة دعم أمراء الحرب لتحقيق مكاسب أمنية على المدى القصير. وكانوا في كل مرة يعبّرون عن هذا القلق، لذلك شرحتُ للحاضرين أن الأربكاي سيكونون خاضعين لحكم مجلس الشورى وسيطرته، كما كانت الحال دائماً.

وقف أحد شيوخ قبيلة جاجي، وقال: "نحن ندعم هذا البرنامج. إننا في حاجة إليه منذ سنوات متعددة. أعطونا المعدات التي نحتاج إليها، وسوف نهزم أولئك الكلاب، حقاني. (...) لا ينفعون قرانا وأراضينا؛ ويهددون بإغلاق مدارسنا؛ ويسرقون من أطفالنا مستقبلهم، وهم يأتون ويجبروننا على منحهم الرجال للقتال. جيشنا ليس كبيراً بما يكفي لحماية الحدود وكل وادٍ في أفغانستان، لذلك يجب علينا أن نقف وندافع عن قرانا".

انتابتني الحماسة وأنا أصغي إلى هذا الرجل وإلى ردود الأفعال الإيجابية الأخرى من الشيوخ، بينما استمر الاجتماع. وقف كلّ منهم وألقى خطاباً مماثلاً. كان سيث يبتسم. لقد مرّ وقت طويل؛ ونحن ندفع منذ سنوات من أجل هذا النوع من البرامج في واشنطن، والآن ها نحن هنا نلعب دوراً فاعلاً في تنفيذه على أرض الواقع.

قبل هذا الاجتماع في غارديز بسنة واحدة فقط، كنت أناقش بقوة مميزات مثل هذا البرنامج في وضع مختلف جداً، كانت تلك المرّة في مبنى المكتب التنفيذي القديم المزركش بالقرب من البيت الأبيض في أثناء مراجعة استراتيجية الرئيس بوش لسياساتنا في أفغانستان. وكان اقتراح وضع برنامج دعم قبلي رسمي أحد أكثر الموضوعات إثارة للجدل في مراجعة خريف عام 2008. وجاءت المعارضة الرئيسية من وزارة الخارجية وممثلي أجهزة الاستخبارات في المراجعة. كانت مخاوف وزارة الخارجية ذات شقيْن: "الأول، أنهم حاولوا تنفيذ مثل هذا البرنامج من قبل، ففي عام 2007 دعمت وزارة الخارجية برنامجاً يُسمى الشرطة الوطنية الأفغانية المساعدة، وكان الهدف منها دعم الشرطة الرسمية بمدّها بمجندين محليين من بعض أكثر مناطق البشتون عُرضة للمتمرّدين. تمّ إخضاع المجندين لتدريب مختصر ونشرهم ليكونوا بمنزلة درع ضد التمرّد المتنامي بسرعة. في البداية، دعمتُ البرنامج بحماسة من مكتبي في وزارة الدفاع، ونصحتُ قيادتي أن تفعل الشيء نفسه. ولكن سرعان ما أدركنا أن البرنامج كان على وشك أن يعاني العقبات نفسها التي تعانيها قوة الشرطة العادية التي كُلفت وزارة الخارجية تطويرها أيضاً، وهي عقبات تتمحور حول انعدام الرقابة والدعم الكافيين. وكانت الدولة غير قادرة على نشر ما يكفي من المدنيين في المناطق الخطيرة، حيث توجد حاجة إلى الشرطة المساعدة، لذا تمت الاستعانة بالمتعاقدين بمبالغ هائلة مقابل التدريب والإشراف، ولم يتمكّن هؤلاء بسبب محدودية التعاقدات من الاشتراك مع الشرطة في المناطق الخطيرة. وهكذا وبمجرد أن غادرت الشرطة المساعدة مركز التدريب الأساسي، لم تكن لدينا القدرة على معرفة إذا ما كان هؤلاء الوكلاء الحديثو التدريب يسبّبون ضرراً أكثر مما كانوا ينفعون عن طريق استغلال سلطاتهم أو لا، كما لم نكن نعرف أيضاً إذا ما كانوا يذهبون إلى العمل أصلاً. وكانت تلك هي المشكلة نفسها التي واجهتها وزارة الخارجية لسنوات مع الشرطة الوطنية. بحلول أوائل عام 2008 كانت لدينا فكرة ضئيلة عن عدد أفراد الشرطة المساعدة الذين ما يزالون يعملون، أو أين كانوا يعملون. وبعد هذا بوقت قصير تم إلغاء البرنامج.

كان مصدر القلق الآخر لوزارة الخارجية أن الرئيس كرزاي سيعترض؛ فهو برغم جميع أخطائه، قد أفلح في إدارة التوازن بين الجماعات العرقية الرئيسية في أفغانستان: البشتون والطاجيك والأوزبك والهزارة. وكانت وزارة الخارجية على ثقة بأن كرزاي سيعترض على البرنامج الذي سوف يُنظر إليه على أنه يفضّل البشتون على الجماعات الأخرى. كما سيعترض أيضاً، كما قالوا، على البرنامج الذي سيعزّز الميليشيات المحلية التي يمكن أن تتنافس مع جيش الحكومة المركزية والشرطة. وكانوا على حق في أنه كان من الضروري ضمان اقتناع كرزاي وحكومته بالبرنامج، ولكنني شددتُ على أننا بحاجة إلى اتخاذ قرار جماعي كجزء من المراجعة لنضمن انضمام كرزاي ووزرائه الرئيسيين إلى برنامجنا.

ذكرتُ خلال المراجعة الاستراتيجية أن أي برنامج دفاع قبلي، على عكس برنامج الشرطة المساعدة، يجب أن يحظى بدعم مفارز العمليات ألفا التابعة للقوات الخاصة الذين تم تدريبهم وتجهيزهم بشكل فريد للعيش مع القبائل، وأنهم سيوفرون الإشراف الذي كان من العناصر الحاسمة لضمان عدم إساءة استخدام البرنامج، كما سيقومون بدور مساند لا غنى عنه عندما يأتي انتقام طالبان الذي لا مفر منه. كان عنصر الإشراف أمراً رئيسياً من وجهة نظري، وكان يشكّل الفارق الرئيسي عن برامج أخرى كنّا قد جربناها في الماضي. وشرحتُ نموذجاً مشابهاً هو برنامج الجنود الفلاحين الناجح في كولومبيا، حيث جمع الرئيس ألفارو أوريبي، عندما جاء إلى السلطة، عشرات الآلاف من "الجنود الفلاحين" على مدار السنة للمشاركة في خطة الطوارئ التي تنفذها الحكومة الوطنية لإخماد التمرد المستعر وعنف المخدرات الذي كان يجتاح كولومبيا. وفي هذا البرنامج، أتمّ المزارعون الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و24 سنة، الخدمة العسكرية الإلزامية البالغة ثمانية عشر شهراً في قراهم ضمن برنامج المراقبة الدفاعية المجتمعية. وقام الجيش الكولومبي بوضع كادر من رقباء الجيش النظامي ليكونوا مسؤولين عن مجموعات الفلاحين الجنود، ما أضفى حيوية على البرنامج، كما تم تعيين جهة تتولّى أمر المساءلة والإشراف والتدريب والدعم اللوجستي. وبعد ثمانية عشر شهراً من الخدمة، عُرِضَ على المزارعين عقود للتجنيد في الجيش أو اختيار مجال التدريب المهني للمساعدة في

انتقالهم إلى قوة العمل المدنية. وكنتُ على قناعة بأنه بإطار مماثل، حيث تمكن تعبئة الأربكاي في أفغانستان وتجنّب العقبات التي كانت وزارة الخارجية [الأمريكية] تسلط الضوء عليها.

اعترضت أجهزة الاستخبارات بأنه من الخطر على الولايات المتحدة أن تعمد إلى فرز القبائل الأفغانية إلى رابحين وخاسرين. وأكدت أننا نجهل تماماً ماهية الناس في النظام الاجتماعي المعقّد في المناطق الريفية في أفغانستان، وسوف يتم التلاعب بنا لمصلحة كل قبيلة على حساب منافِساتها. فبدعم قبيلة واحدة وتنظيمها يمكن أن نتسبب في تفاقم التوترات مع خصومها، ومن ثم نستجلب عدم الاستقرار في مناطق لا علاقة لها بطالبان. وكان ممثلو الاستخبارات على حق في أن الأفغان أولاً وقبل كل شيء ماهرون في استغلالنا لتحقيق أجندتهم الخاصة. ولكنني وجدت الحجة مثيرة للسخرية؛ فقد كان الكثير من الناس يضغطون على أجهزة الاستخبارات لسنوات، من دون نجاح يذكر، لترسيخ المزيد من الموارد لجمع معلومات اجتماعية وسياسية وثقافية مهمة جداً لجهود مكافحة التمرّد. في الواقع، كانت هذه واحدة من آخر التوصيات في المراجعة، وكانت تنص على توجيه شتى وكالات الاستخبارات لتجميع البيانات التي لديها، في قاعدة بيانات قَبَلية واحدة يمكن أن يصل إليها كل من يحتاج إليها. كما أكدتُ أن جهلنا هذا هو بالضبط السبب الذي يحتّم عيش الفرق في القرى، حتى تتمكّن من التوصل إلى فهم دقيق لمجريات الأحوال على مدار اليوم من أجل معرفة مَنْ يقوم بماذا، ولمصلحة مَنْ.

ذكر ممثّلا مجلس الاستخبارات الوطني في المراجعة المجموعة بأن المجتمع الدولي قضى الكثير من السنوات، وصرف الملايين من الدولارات، على برنامج نزع سلاح الميليشيات. وقد نجح في نزع أعداد هائلة من الأسلحة من الميليشيات التي هيمنت على أفغانستان منذ انسحاب الاتحاد السوفيتي. وقال أحد الممثلَين: "سوف تفتح أبواب الجحيم إذا أعدتَ تسليح هذه المجموعات، ولن نستطيع السيطرة عليهم، وقريباً جداً سيبدؤون تحدي قوات الجيش والشرطة الشرعية". ورد مشارك آخر بأن الميليشيات

الضخمة التي في حوزتها الدبابات والأسلحة الثقيلة، التي دمّرت البلاد إبان الحرب الأهلية كانت تمثّل الصورة النمطية لأمراء الحرب الأوزبك والطاجيك في شمال أفغانستان. وبالمقارنة، كانت ميليشيات البشتون القبلية صغيرة ومشتّتة وخاضعة لإشراف مفرزة العمليات ألفا التابعة للقوات الخاصة.

انقسمت وجهات النظر في وزارة الدفاع حول البرنامج المقترح، ولكن أوساط القوات الخاصة كانت تدعم الفكرة بحماسة. ورأى كثيرون أن هذا يعيد إلى الأذهان أعظم نجاحاتهم التاريخية، على سبيل المثال، عندما اندمجت مفارز العمليات ألفا مع قبائل الجبال في فيتنام. ومع ذلك، اعترضت القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان، التي هي القيادة التدريبية، على أساس أن كل مورد يُخصص لتدريب القوات القبلية سيكون على حساب الموارد المخصّصة لقوات الجيش والشرطة الأفغانية الوطنية. فبعد أن ناضلت القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان لتحسين مواردها وزيادتها منذ أمد، كنت متعاطفاً مع مخاوفها. ومع ذلك، كنت أرى أن الجداول الزمنية القصيرة الأمد ليست واقعية، وأن إنشاء قوة عسكرية وشرطة مستقلة بالكامل كان جهداً يتطلّب عشرات السنين. كانت قبائل كثيرة في أفغانستان تتوسّل إلينا لمساعدتها، وكان بالإمكان دعمها على المدى القصير بتحويل القليل نسبياً من الموارد، بينما تستمر القيادة الانتقالية الأمنية المشتركة لأفغانستان في بناء الجيش والشرطة على المدى الطويل.

شدّد الدكتور إليوت كوهين، الأستاذ البارز في الشؤون العسكرية ومستشار الوزيرة كوندوليزا رايس آنذاك، على أننا بحاجة إلى تفكير جديد يعكس الزخم المتزايد للتمرّد، وقال إن ما كان زملاؤه في وزارة الخارجية وأجهزة الاستخبارات يقترحونه يصب في الاتجاه نفسه. وشجّع المجموعة على النظر إلى الصورة الأعم: "الطبيعة الأساسية لنهجنا الاستراتيجي هي التي على المحك هنا حقاً. هل نحن نتبع استراتيجية 'من أعلى إلى أسفل' أم 'من أسفل إلى أعلى'؟".

يعتقد أنصار استراتيجية "من أعلى إلى أسفل" أننا لن نتمكّن من إرساء الاستقرار والأمن في أفغانستان من دون حكومة مركزية قوية قادرة على تقديم الخدمات للأفغان في جميع أنحاء البلاد. أما دعاة استراتيجية "من أسفل إلى أعلى" فيصرون على أن أفغانستان لطالما كانت مجتمعاً لامركزياً بشكل جوهري، ما يجعل من الضروري بناء المؤسسات المحلية لخلق الأمن والاستقرار. شعرتُ بأننا بحاجة إلى اتّباع كلا النهجين على حد سواء. والحقيقة أن إنشاء مؤسسات حكومية قوية في دولة مركزية يساعد على ضمان الاستقرار على المدى الطويل، ولكن هذه الجهود ستحتاج إلى ما لا يقل عن جيل. وقلتُ إن بناء الدولة "من أعلى إلى أسفل" وجهود مكافحة التمرّد التي كانت محور استراتيجيتنا بحاجة إلى أن توضع جنباً إلى جنب مع البرامج المحلية، مثل مدّ اليد إلى القادة المحليين الشرعيين لإشراكهم في توفير الأمن والخدمات على مستوى القرى والمديريات. وإذا تمّ الأمر بشكل صحيح، فإن البرامج المحلية ستوفّر الوقت للعمل على بناء الدولة، ويمكن تحويلها في نهاية المطاف إلى قوات أمن خاضعة لسيطرة الدولة عندما يصبح لفعل ذلك معنى. ومن شأن هذه الاستراتيجية أن تتكامل مع حملة مكافحة التمرّد من خلال الاستفادة من آلاف المقاتلين القبليين لحماية أمن سكان الأرياف، ما يتيح للقوات الدولية والقوات الأفغانية الرسمية التركيز على كبرى البلدات والمدن. اعتبرتُ أن بناء شراكات قوية مع القبائل المنتشرة على امتداد الحدود بين أفغانستان وباكستان يمكن أن يكون حاسماً لهزيمة المتمرّدين المتمركزين في المناطق القبلية غرب باكستان. وعن طريق كل مفرزة عمليات ألفا من القوات الخاصة في أفغانستان والمكوّنة من اثني عشر رجلاً، بإمكاننا تنظيم مئات من المقاتلين القبليين وتقديم المشورة إليهم. وكان المفتاح هو كيفية ربط جهود نهجَي "من أعلى إلى أسفل" و"من أسفل إلى أعلى" بحيث يعملان معاً، بدلاً من أن يتعارضا. أوافق على أنه ثمة مخاطر كبيرة، ولكن لم أشعر بأنه كان لدينا خيار آخر بين الخيارات المتاحة لإخماد زخم طالبان.

بعد نقاش مستفيض كان الموقف في المسودة النهائية لتوصيات المراجعة هو أن يأذن الرئيس للجيش بالبدء ببرنامج تجريبي. بدأ البرنامج التجريبي في ولاية وارداك في

فصل الربيع اللاحق، 2009. وبحلول الخريف، جرى تحويل البرنامج إلى "مبادرة الـدفاع المجتمعي" الذي كنّا نعلنه في ولاية باكتيا.

خريطة (17): ولاية باكتيا



أول موقع تم فيه تطبيق مبادرة الـدفاع المجتمعـي في ولايـة باكتيـا هـو شـامكاني، المسؤولة عنه مفرزة العمليات ألفا—26 وقائد فريقها، فيتـز. كانـت شـامكاني أول مفـترق طرق وسوقاً داخل الحدود في وادٍ بين الشـرق والغـرب يمتـد مـن باكسـتان وصـولاً إلى عاصمة ولاية غارديز في المناطق الداخلية من شـرق أفغانستان. ومـن وجهـة نظـر قبليـة، كانت المنطقة أكثر حساسـية وتعقيـداً ممـا هـي الحـال في الشـرق عـادة. وصـف لي عـالم إنثروبولوجيا [اختصاصـي في علم الإنسـان] يومـاً الاختلافـات بـين القبائـل في شــرق أفغانستان وجنوبها: "إنها مثل المقارنة بـين قاعـات البلديـة في نيـو إنغلانـد وبـين مـزارع

الجنوب. في نيو إنغلاند، إذا أردت مخاطبة المجتمع كنت تخطب في مجلس بأكمله. إنه الشيء نفسه في شرق أفغانستان؛ إذا رغبتَ في مخاطبة قبيلة، تحدّث إلى مجموعة كبيرة من الشيوخ المجتمعين، ويمكن أن يكون من الصعب جداً التوصّل إلى أي نوع من التوافق أو القرار. أما في جنوب أفغانستان، فالأمر مثل المزارع الجنوبية، إذا رغبتَ في مخاطبة قبيلة، تحدّث عادة إلى ملك القبيلة أو شيخها. إن الترتيب الهرمي أوضح بكثير في الجنوب وأسهل في ما يخص التعرّف إلى الزعيم الذي يسيطر على رقعة واسعة من الأراضي".

توجَد خمس قبائل رئيسية من البشتون في المنطقة المحيطة ببلدة شامكاني، وتشكّل القبائل شبكة معقّدة من التنافسات والتحالفات التي استغلّتها شبكة حقاني مراراً وتكراراً لمصلحتها. شغلت قبيلة شامكاني، التي تشترك مع البلدة والمديرية باسمها، معظم المنطقة المحيطة بقاعدة مفرزة العمليات ألفا. وإلى الشرق على الحدود الباكستانية توجد قبيلتا مقبل وجاجي، اللتان كانتا تتنافسان على معابر حدودية عدة غير رسمية مربحة. وكانت شبكة حقاني في باكستان توفر الأسلحة والإمدادات إلى قبيلة مقبل لقاء دعمها [الحقاني] ضد الحكومة. وإلى الجنوب والغرب والشمال، تنتشر قبيلة المانجال، التي تمتد أراضيها بعيداً إلى الجنوب وإلى ولاية خوست المجاورة، حيث كنت أتعامل مع أحد زعماء القبائل الفرعية، الملا غفورزاي. وكانت قبيلة المانجال قد انتقلت إلى أراضي شامكاني القبلية طوال الجيل السابق واحتلت أجزاء منها. وكان هذا مصدراً كبيراً للتوتر الذي ولّد، في بعض الأحيان، معارك طويلة. وأخيراً كانت هناك قبيلة كوتشي البدوية، مع قطعانها من الإبل والأغنام، التي كانت تعبر كل الحدود.

وحيثما تحالفت القبائل ضد بعضها بعضاً، كانت تنشب نزاعات حول الموارد والأراضي أدت إلى دوامة لا نهاية لها من عمليات الثأر. ففي إحدى زياراتي للفريق في شامكاني، كان فيتز، الأمريكي-الأيرلندي، الواقعي، الأصهب اللحية، وهو الذي يتحدث بلكنة أهل بوسطن، يستضيف جلسة شورى للمساعدة في التوسط في نزاع بين قبيلتين. وكانت الحالة مثالاً جيّداً يبيّن كيف يمكن لمشروع تنموي سليم النيّة أن يذكي في

الواقع التوتّرات القبلية. وكان مثالاً أيضاً على مدى حاجتنا إلى أن نكون متقدّمين جداً في فهمنا، ومنسجمين مع الديناميات المحلية. كانت القضية أنّ منظمة غير حكومية صغيرة تمولها وكالة التنمية الدولية للولايات المتحدة شرعت في العمل على تمهيد طريق يمتد من معبر حدودي غرباً إلى سوق بلدة شامكاني. رحّب الجميع بفكرة الطريق؛ ولكن قبيلتَي مانجال ومقبل أوشكتا حرفياً على قتل بعضهما بعضاً والقضاء على طاقم العمل لأن المهندسين احتاجوا إلى تغيير مسار الطريق قليلاً قبل أن يمكن تمهيده.

وكان هذا الأمر مهماً جداً بالنسبة إلى الشيوخ؛ لأن الطرق كانت تشكّل تقليدياً علامة تدلّ على حدود العقار. وعندما لاح النزاع أول مرة، حاول فيتز البقاء خارج الموضوع وتحويله إلى حاكم المديرية، للسماح للحكومة الأفغانية بحلّ هذه القضية. وللأسف، كما هي الحال في أفغانستان في كثير من الأحيان، كان حاكم المديرية من قبيلة مانجال، وكذلك قائد الشرطة؛ ومن ثم لم يكونا موضع ثقة منافسيهما في قبيلة مقبل. وتعيّن على فيتز المشاركة شخصياً في حل النزاع عندما بدأ رجال حقاني التدخل إلى جانب قبيلة مقبل من خلال مهاجمة طواقم العمل في الطريق. بعد أيام قليلة من الهجوم، جاء الكثير من شيوخ مانجال وقائد الشرطة إلى قاعدة مفرزة العمليات ألفا زاعمين أن لديهم معلومات عن المجموعة "المتمرّدة" التي تشن الهجمات. ولم نستغرب اتهامهم زعماء قبيلة مقبل بذلك. كان فيتز وفريقه، لحسن الحظ، قد أقاموا علاقات مع شيوخ قبيلة مقبل وكانوا واثقين من أنهم لم يكونوا من بين مهاجمي طاقم الطريق. وفي جلسة الشورى قدّم كل وفد صكوك ملكية ووثائق موقَّعة من مسؤولين حكوميين سابقين، وكلٌّ يدّعي حقه في الأراضي المتنازَع عليها. وبعد جلسة ماراثونية، عمد فيتز إلى إجراء تسوية بين الطرفين، وإرضاء زعيمي الطرفين بمشروع صغير لكل منهما. وتمّ السماح بالمضي قدماً في مشروع الطريق.

لم تنتهِ النزاعات الأخرى سلمياً كهذا. فإلى الجنوب من شامكاني، في الجبال التي تفصل بين ولايتَي باكتيا وخوست، حاولت الحكومة المحلية التوسّط في نزاع بين شتى

فصائل قبيلتَي مانجال ومقبل على قطعة من الغابات الغنية بأشجار الصنوبر. وكان مُنتَج الصنوبر محصولاً مهمّاً لكل القبائل، ولكن الحدود غير الواضحة كانت دائماً مصدر عداوة. وفي غضون اشتعال التوتّرات، سلّحت شبكة حقاني قبيلة مقبل، الأصغر، بالرشاشات الثقيلة ومدافع الهاون لمهاجمة قرى المانجال والاستيلاء على الأراضي المتنازع عليها. شاهدنا من مقرّي تبادل إطلاق النار الكثيف بين الفريقين، ما أسفر عن مقتل عشرات الرجال من كلا الجانبين. حاولت الحكومة المحلية التفاوض لحل النزاع، ولكن من دون جدوى. وبكل دهاء، أرسلت جماعة حقاني وفداً للمساعدة في التوصل إلى حلّ. وتمكّنوا بضربة واحدة من زيادة حدة التوترات، وضمان ولاء قبيلة مقبل بتزويدهم بالأسلحة، وجعل الحكومة تبدو ضعيفة، وتعزيز شرعيتهم باعتبارهم وسيطاً لحلّ المشكلات. واكتشفنا في وقت لاحق أن قبيلة مقبل تسدد ديونها من خلال السماح لحقاني بإقامة معسكرات تدريب للمسلحين ومنشأة لصنع القنابل على أراضيها.

كان فيتز وفريقه يلتقون يومياً بزعماء معظم القبائل المحيطة بشامكاني، في محاولة للحفاظ على وضعهم كوسيط محايد. وكنتُ على قناعة بأنه يتعين علينا العمل على استراتيجية مختلفة. كنّا على الحياد، ولكن رجال حركة طالبان وحقاني كانوا يجبرون القبائل ويرهبونها للعمل معهم. كان علينا أن نبدأ بدعم القبائل التي كانت تطلب دعمنا. وكنتُ أتعاطف مع أولئك الذين ينتقدون القوات الأمريكية لانحيازها إلى جانب أو آخر في هذا النوع من المشكلات، ولكن جماعتَي طالبان وحقاني كانتا توظفان استراتيجية محنّكة تعتمد على إشراك القبائل والتلاعب بها لتنفيذ أجنداتها، وشعرتُ بقوة أنه لم يكن أمامنا خيار سوى أن نبدأ بفعل الشيء نفسه أو الاستمرار في أن يفوقونا دهاء.

واجهتْ مفرزة العمليات ألفا–26 صعوبة في إنشاء وتشغيل برنامج مبادرة الدفاع المجتمعي برغم الحماسة الأولية التي أبداها شيوخ القبائل في الاجتماع في غارديز. مبدئياً، اختار فيتز قرية حوكمزاي، جنوب شامكاني، لعدد من الأسباب. أولاً، كانت القرية نقطة توقّف رئيسية معروفة للمسلحين المتسللين من باكستان إلى داخل أفغانستان. وإذا نقل

فيتز مفرزة العمليات ألفا إلى هناك، وبدأ تدريب وتنظيم أربكاي [ميليشيا] قبيلة شامكاني، فسيكون باستطاعته أن يعطّل طريقاً رئيسياً استخدمه مقاتلو حقاني في مسارهم من باكستان لتنفيذ هجمات في ولاية خوست إلى الجنوب، وفي عمق أفغانستان إلى الغرب. ثانياً، كانت هناك ثلاث قبائل تقف في مواجهة بعضها بعضاً في حوكمزاي. وكان فيتز يأمل أنه من خلال الوجود الفعلي هناك، يمكنه أن يؤثر بشكل أفضل في الزعامات القبلية، والتوسط في سلسلة من النزاعات التي كانت تمثّل مصادر توتّر ثابتة. ولكن المبادرة انهارت بسرعة نتيجة انتشار خبر أن مفرزة العمليات ألفا كانت تخطّط للانتقال إلى القرية. حاول الفريق مرّتين الانتقال إلى حوكمزاي ولكن أفراده اشتبكوا مع عشرات المقاتلين الذين شنّوا هجمات من التلال على طول الطريق إلى القرية. وفي إحدى المرّات، استنجد الفريق بمروحيات أباتشي الهجومية لإبعاد الهجمات وقُتِل أكثر من عشرين مسلحاً. كان من الواضح أن أتباع حقاني لا يريدون وجود مفرزة العمليات ألفا-26 في القرية. وقبل أن يتمكّن الفريق من القيام بمحاولة ثالثة، لجأت جماعة حقاني إلى أساليبها الوحشية عن طريق خطف نجل أحد شيوخ قبيلة شامكاني الذين دعموا وجود مبادرة الدفاع المجتمعي في حوكمزاي. وبعد ذلك شرعوا في تعذيبه وكانوا يبثّون الأصوات على الهواء مباشرة عبر محطة إذاعية مقرصنة نصبوها في الجبال. وكان ذلك عملاً وحشياً قاسياً. وفي اليوم اللاحق وصل وفد من حوكمزاي، في حالة من الارتباك بسبب الضغط الشديد من حقاني، إلى قاعدة الفريق لسحب العرض.

ولمساعدة مفرزة العمليات ألفا-26 في تأسيس البرنامج، تلقيتُ أوامر بأن أحرّك إحدى الفرق الشقيقة، وهي مفرزة العمليات ألفا-24، من قاعدة العمليات الأمامية تشابهان بولاية خوست، شمالاً إلى شامكاني.

وكجانب مأساوي، بعد شهر فقط من انتقال مفرزة العمليات ألفا-24 وشغور مكانها في تشابهان، قام عميل مزدوج لتنظيم القاعدة، هو همام خليل البلوي، بتفجير سترته الناسفة في ساحة أماكن المعيشة السابقة للفريق، ما أسفر عن مقتل سبعة من

موظفي وكالة الاستخبارات المركزية. وكان من بين القتلى رئيسة القاعدة جنيفر ماثيوز، وضابط الدعم اللوجستي لديها، ليز هانسون، وأحد الضباط المسؤولين عن عملاء الوكالة، هارولد براون، وجميعهم عملوا بشكل وثيق معنا. كان مجمع مفرزة العمليات ألفا-24 ملاصقاً لمجمع وكالة الاستخبارات المركزية في تشابمان، لذلك عندما جاء الوقت لاستخلاص المعلومات من البلوي، الذي ادّعى أنه يعرف مكان وجود الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، أيمن الظواهري، قررت وكالة الاستخبارات المركزية حينها أن تعقد الاجتماع في مجمّع القوات الخاصة الشاغر. كانت جنيفر مختلفة عن رؤساء القاعدة الآخرين الذين عملنا معهم. فبعد أن تولّت القيادة في تشابمان، بادرت بزيارتي وقالت لي إنها أرادت أن تتعاون معنا في عدد من المبادرات. ولم تكن هذه هي الحال دائماً مع زملائنا في وكالة الاستخبارات المركزية؛ فقد كان موقف الكثيرين منهم: "سنطلبكم حين نحتاج إليكم".

كنت أزور قرية قرب قاعدتنا في قاعدة العمليات الأمامية سالينو عندما سمعنا دوي الانفجار، ورأينا سحابة تشبه الفِطر على الطريق قرب تشابمان. سارعنا إلى الموقع لنحاول مساعدة المصابين، وقامت وحدة الطيران المتمركزة في ساليرنو بإنزال مروحية شينوك خارج المجمّع لإخلاء الجرحى. كانت المناظر مروّعة في تشابمان وفي مستشفى الحوادث في ساليرنو، حيث تم علاج المصابين. للأسف أُلقي اللوم على جين في وقت لاحق في وسائل الإعلام، وفي التحقيق الداخلي للوكالة؛ لأنها سمحت للبلوي بدخول المجمّع من دون تفتيش. لقد اتخذتْ القرار باعتبار أنه كان مصدر معلومات ثميناً إلى درجة أنها أرادت أن تخلق جواً من الثقة من بداية الاجتماع، وأحسّت بأن تفتيش الرجل الذي كان من المفترض أنه يجازف بحياته لمساعدتنا يمكن أن يدمّر هذه الديناميـة. أضف إلى ذلك أن المخابرات الأردنية قد شهدت له. ومع أنها كانت محللة (وإن كانت أحد المحللين الأكثر موهبة في الوكالة فيما يختص بتنظيم القاعدة)، إلا أنها لم تكن ضابط عمليات، ورأى الكثير من القادة الذين يمارسون عملهم في كراسيهم الوثيرة، في أعقاب ما حدث، أنها كانت تقوم بعمل يفوق طاقتها كقائد للقاعدة في منطقة قتال. لقد لمستُ

قدراً لا بأس به من كراهية النساء في أعقاب التفجير. من تجربتي الخاصة أقول إنها كانت حسنة الاطلاع وشديدة الصلابة، وعملت بشكل جيّد معنا من أجل المهمة الكبرى؛ ولا شك في أن ذكراها تستحق أفضل من ذلك.

في شامكاني، وبدعم من مفرزة العمليات ألفا-24، حاولت مفرزة العمليات ألفا-26 العمل مع قبيلة مقبل إلى الشرق من قاعدتها قرب الحدود الباكستانية. عرف الفريق أن مقبل قبيلة صغيرة وفي كثير من الأحيان تتعرّض للتهميش من قبل جيرانها الأكبر، المانجال. كان زعماء مقبل يشكون باستمرار من أن الوظائف الحكومية الرئيسية مثل منصب حاكم المديرية وقائد الشرطة والكثير من المناصب المحلية بما في ذلك نائب الحاكم، يُسيطر عليها دائماً منافسوهم. ومع أننا كنّا نعلم أن عدداً من شيوخ مقبل كانوا على علاقة وثيقة بزعماء المتمرّدين الرئيسيين في باكستان، فإنهم بدوا منفتحين جداً لمبادرات الفريق بتقديم المشروعات وتدريب ميليشيا الأربكاي الصغيرة التابعة لهم. كما كانت قبيلة مقبل تسيطر أيضاً على معابر حدودية غير رسمية، ما زاد من أهميتها بالنسبة إلينا. بدا أن سلسلة جلسات الشورى بين الكثير من الشيوخ من مجموعة من القرى في مناطق مقبل في طريقها للتوصّل إلى إجماع على أن المنطقة كانت مستعدة لقبول مفرزة العمليات ألفا بين ظهرانيها. ووجد الفريق مجمّعاً كبيراً يمكن استئجاره كقاعدة للعمليات عند تدريب أربكاي قبيلة مقبل. وبدأت المناقشات حول أنسب المشروعات التنموية للمنطقة. ولكن بينما كانت مفرزة العمليات ألفا تستعد للانتقال إلى المكان، جاءت مجموعة من شيوخ مقبل إلى القاعدة ورفضت تماماً السماح للفريق باستئجار المجمّع الذي كان قد تمّ تحديده. وبعد أسابيع من المفاوضات اقترح شيوخ مقبل حلاً وسطاً: سوف يرسلون الأربكاي إلى قاعدتنا للتدريب بدلاً من أن ينتقل الفريق للعيش في القرية ويعمل معهم بشكل مباشر. وبالطبع، ما زالوا يريدون إقامة مشروعات عدة تنموية في منطقتهم. تَدارسنا عرضهم، ولكن في نهاية المطاف، أصررنا على أن يعيش الفريق في القرية. فالعيش في وسط الأفغان كان ضرورياً لتحقيق الهدف من مبادرة الدفاع المجتمعي؛ لأنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توفر الإشراف المناسب وتخفف

كل المخاوف التي أثارها منتقدو البرنامج. ونحن ببساطة لن نكون قادرين على الاطلاع الدائم على مستجدات المنافسات القبلية المتحوّلة دوماً من داخل قاعدة الفريق المحصّنة على التلّة. من وجهة نظري، كان "التنقّل" ذهاباً وإياباً إلى ساحة المعركة أحد أهم الأسباب التي جعلتنا نكابد لفهم التمرّد واحتوائه.

في نهاية المطاف تمكّنتُ من الجلوس مع أحد الشيوخ خلال زيارة للقاعدة في شامكاني، ولخّص لي الرجل سبب تغيير رأيه: "نحن نعتقد أنكم لن تبقوا معنا. الكثيرون منّا لا يحبون جماعة حقاني وطرقها الوحشية، ولكن قبيلتنا صغيرة. وهم يدعمهم الجيش الباكستاني. والجيش الأفغاني ليس في هذه المنطقة. عندما وافقنا على قبول دعمكم، كنا نعتقد أنكم ستدعموننا وتحموننا وتهزمون حقاني بطائراتكم عندما يهاجمنا. ولكن رئيسكم يقول إنكم ستغادرون أفغانستان. لا يمكننا أن نرهن حياتنا بين أيديكم إذا كنتم ستتركوننا".

حدث هذا في ديسمبر عام 2009. كان الرئيس أوباما قد أعلن زيادة القوات الأمريكية في خطاب ألقاه في ويست بوينت. ولكن استعراض القوة والالتزام اللذين أبداهما إعلان الزيادة قلّ شأنهما عندما أعلن الرئيس موعداً محدداً لانسحاب القوات. أتذكرُ بوضوح شعوري بالرعب عندما شاهدتُ الخطاب في مقرّي. هتف يورك: "لقد أخبر العالم أننا مغادرون. بحق السماء، من الذي سيخاطر بحياته الآن للعمل معنا؟". كان هناك ضابط آخر يشاهد الخطاب معنا، قارن إعلان الزيادة ثم تحديد موعد الانسحاب بموقف الرئيس روزفلت معلناً ساعة الصفر (يوم الإنزال) في يونيو 1944، ولكنّه قال للألمان لاحقاً إن القوة ستترك المكان بعد ذلك بعام. وسأل سؤالاً بلاغياً: "ماذا تظن الألمان كانوا سيفعلون؟ ينتظروننا؟"؛ لا يمكننا أن نبعث برسالة أسوأ لطالبان، والمنطقة، والشعب الأفغاني.

وشعرنا على الفور بتأثير ذلك في الساحة الأفغانية. في إحدى حدود المناطق النائية في العالم سمع شيخ قبيلة مقبل، بطريقة أو بأخرى، بأمر الخطاب. حتى إنه لم يأبه بإعلان زيادة القوات. لم يسمع سوى: "أمريكا ستغادر البلاد".

للأسف كنتُ قد شهدتُ لقاءً مماثلاً تقريباً مع الملا غفورزاي من قبيلة مانجال في خوست قبل بضعة أيام فقط. كنت قد طوّرتُ علاقتي معه في النصف الثاني من عام 2009 في أعقاب ما كان يسمى حروب الصنوبر مع قبيلة مقبل. وكان غفورزاي زعيماً محترماً لقبيلة فرعية من قبيلة مانجال الكبيرة، وكان لديه بضع مئات من محاربي الأربكاي المجهزين تجهيزاً جيداً يتبعون أوامره. وبحلول ديسمبر 2009، وبعد العشرات من أكواب الشاي وساعات من المناقشات معي، كان غفورزاي على استعداد أن يلتزم بتقديم أسماء رجاله ليتم ترشيحهم لبرنامج مبادرة الدفاع المجتمعي، ومعارضة حقاني علناً. كنت آمل أن يكون هذا أحد إنجازاتي الرئيسية في فترة خدمتي هذه، ولكن في الجلسة الختامية لتثبيت هذا التعاون، أصبح غفورزاي بارداً في تعامله معي. عادة كان يحيّيني "بأخذي في الأحضان"، وبعدها تجري بيننا مناقشة مفعمة بالحيوية حول عائلتينا، وما يجري في الوادي الذي تعيش فيه قبيلته. ولكن هذه المرة بقي جالساً على الوسائد المصطفّة على الجدار البعيد، بينما دخلتُ عليه. وبعد بعض المجاملات الغريبة، اكتشفتُ السبب. قال بصرامة: "لم يفارقنا الشك في أنكم ستتخلّون عنّا. والآن، قالها رئيسكم. اعذرني أيها القائد مايك، لا يمكن لرجالي العمل معكم الآن. سوف يقوم مقاتلو حقاني باستهدافنا يومياً. إن لهم سابق فضل عليّ. ومن دون دعمكم، سيصلون في نهاية المطاف إلى كل واحد منا ومن عائلاتنا".

رددتُ عليه بأن إعلان الرئيس كان يركّز حقاً على إرسال جنود أمريكيين إضافيين، وأضفتُ: "إنه يخطط في نهاية المطاف لسحب التعزيزات التي يرسلها الآن. ستعود مستويات القوات لدينا ببساطة إلى ما هي عليه الآن، وسيكون ذلك بعد سنوات في المستقبل".

غابت عنه الفروق الدقيقة في الاستراتيجية: "أنا آسف، يا صديقي. بضع سنوات لا تعني شيئاً في هذا الشطر من العالم. وإلى أن تصبح أمريكا مستعدة للتعهّد بأن يقف

أحفادها جنباً إلى جنب مع أحفادي في هذه الحرب، لا يمكنني العمل معك". كان ذلك مثالاً صارخاً على الأثر الفوري لإعلان السياسة [سحب القوات] على أرض الواقع.

تعلّمنا الكثير من الدروس في محاولاتنا إنشاء تلك المواقع الأولية في الأيام الأولى لبرنامج الدفاع المجتمعي. تعلمنا أنه كان علينا التحرّك بسرعة كبيرة عندما أعطانا الشيوخ الضوء الأخضر لنأتي ونعمل معهم. إذا انتظرنا، فسيقوم المتمرّدون، أو غيرهم من الزعماء المحليين الذين لم يوافقوا، بالتحرّك بسرعة وممارسة ضغط كبير على الشيوخ ليبتعدوا عنا. وتعلّمنا أيضاً أن علينا أن نوازن بين اختيار المواقع على أساس مدى رغبتنا في التأثير في العدو مقابل المكان الذي يمنحنا دعم القبائل الأكبر. كان علينا أن نتبع الدعم، والأهم من ذلك كله، وبالمعنى الاستراتيجي، كان علينا أن نرسل إشارة عن عزم أمريكا والتزامها بالوقوف مع هؤلاء الناس. كانت بيروقراطية الأمن القومي في واشنطن تتصارع على عدد القوات. كانت الأرقام مهمة، ولكن الأهم هو تقديم تأكيدات على المدى الطويل لشعب من المفترض أننا نحميه.

بالرغم من التحديات التي واجهت إنشاء برنامج الدفاع المجتمعي في مناطق مسؤوليتي، فإن البرنامج اكتسب في نهاية المطاف زخماً وتمتع بنجاح متزايد. وكان جزء من السبب أن قيادة العمليات الخاصة في أفغانستان، وبشكل يُحسَب لها، كانت متكيّفة في نهجها واعتمدت الدروس المستفادة من الميدان. الأهم من ذلك، أنها طوّرت برنامجاً أمنياً محلياً يُركّز فقط على استخدام الميليشيات القبلية لتعزيز الأمن، ضمن برنامج استقرار كامل يركّز على معالجة أسباب الصراع المحلية. ووفقاً لذلك، تطوّر اسم البرنامج ليصبح "عمليات استقرار القرى". ودعمت هذه النسخة الأكثر نضجاً وقوة مفارز العمليات ألفا بفرق الشؤون المدنية، وفرق العمليات النفسية، وفرق المشاة، وميزانيات التنمية الصحية. وأصبحت مفرزة العمليات ألفا منسقاً لشؤون الإدارة والتنمية والأمن، بينما يعيش عناصرها بين الأفغان ليكونوا قادرين على التفاعل معهم بسهولة، ولكي يكون على دراية كافية بما كان يدور في مجتمعاتهم. وما زالت مجالس الشورى القبلية تقوم بترشيح الرجال،

عادة من مقاتلي الأربكاي المنتمين إليها، للمشاركة في برنـامج عمليـات اسـتقرار القـرى. ولكن أصبح هؤلاء الرجال الآن هم الشـرطة المحلية الأفغانيـة، ويعملـون رسـمياً تحـت إمرة رئيس شـرطة المديرية الأفغاني. هذا يعني أن الرجال أصبحوا يتقاضون راتباً وأنّ لهم صلة رسمية بالحكومة. والأهم من ذلك، أنه تمّ إرسـال مجموعـات مـن ضـباط القـوات الخاصة للتنسـيق مع المسؤولين المحليين الأفغان في المديريات والولايات التي لديها برامج عمليات استقرار القرى. وكان لدى هؤلاء الضباط مهمة ناجعة تهدف إلى المسـاعدة عـلى ربط القبائل والقرى بالجهاز الحكومي الأفغاني الرسمي؛ ومن ثمّ التأكد من أن المسـؤولين المحليين يدعمون الشـرطة المحلية. وكانوا حلقة الوصل المهمـة بـين اسـتراتيجيات "مـن أسفل إلى أعلى" و"من أعلى إلى أسفل".

حظي البرنامج في الجنوب بنجاح متزايد؛ نظراً إلى الطبيعـة الأكثـر هرميـة للقبائـل وبعدها عن ملاذات طالبان وحقاني في باكستان. على سبيل المثال سـقطت خـاكريز، التـي كانت فيما مضـى مركزاً اقتصادياً محلياً مزدهراً في ولايـة قنـدهار، فريسـة لتمـرّد طالبـان المتنامي الذي استخدم المديرية ملاذاً آمناً لشنّ هجمات على مدينة قندهار. ولكن بعد إنشاء برامج عمليات استقرار القرى، تم تمكين القرى المحلية من حماية نفسها ومقاومة ترهيـب طالبان. وخلال عام 2009، تمّ إنهاء سـيطرة طالبان على المديرية من خلال الدفاع المحلي، والمشـروعات التنموية، وتعزيز العلاقات مع الحكومة الأفغانية. وفي غضـون ستة أشـهر، أُعيد فتح كل متجر في السوق الذي كان مغلقاً، ما أدى إلى انبعـاث الاقتصـاد المحـلي مـن جديد. كما عملـت فـرص العمـل الإضـافية عـلى تحفيـز الرغبـة في دعـم الأمـن المحـلي. وبالإضافة إلى ذلك اسـتعادت مجـالس الشـورى المحليـة مـرة أخـرى أهميتهـا في تسـوية النزاعات القبلية، ما ساعد على مواجهة تدخّل طالبان كوسـيط لحلّ المشكلات.

وفي غرب أفغانستان، أصبح وادي زركو في ولاية هرات مثالاً آخر عـلى إمكانـات برنامج عمليات استقرار القرى. عُرف الوادي بأنه كان مـلاذاً آمنـاً للعـدو ونقطـة عبـور لطالبان. وكانت قاعدة مدفعية القوات الخاصـة عنـد مـدخل الـوادي تتعـرّض للهجـوم

بشكل مستمر، ويرجع ذلك أساساً إلى أن القبائل في الوادي كانت تغض الطرف عن أنشطة طالبان. وكان يتمّ إسكات أولئك الأفراد الذين كانوا يقاومون أو يعملون مع مفرزة العمليات ألفا. وغالباً ما جنّد قادة طالبان أشخاصاً من القبائل التي لم يكن لدى شيوخها حافز قوي لمقاومتهم. وبدلاً من الرد على هجمات المتمرّدين بتحصين الأساسات وتعزيزها، كما كانت ممارستنا في السابق، تمكّنت اثنتان من مفارز العمليات ألفا المتمركزة هناك من إقناع القبيلتين الرئيسيتين في الوادي بالسماح لهما بالانتقال إلى قرية على حدود أراضي القبيلتين. وفي غضون أشهر من انتقال الفرق تمكّنت من إنشاء علاقات قوية مع الزعامة القبلية المحلية. وبعد تلبية احتياجات القرى عن طريق المشروعات المحلية والحماية الفعلية للشيوخ، توقفت هجمات العبوات الناسفة تماماً، وبدأ السكان المحليون الكشف عن المخابئ التي كان المتمردون قد خزّنوا فيها الأسلحة استعداداً لعمليات مستقبلية. وبحلول موعد إعادة الانتشار في أوائل عام 2010، كنت أقرأ تقارير عن شيوخ كانوا لا يتحدثون مع بعضهم بعضاً لسنوات، وأصبحوا الآن يجتمعون في مجالس الشورى، وعن رجال محليين أصبحوا يعملون في وادي زركو بدلاً من البحث عن عمل في إيران. ونقلت مقالة في صحيفة **"آرمي تايمز"** عن حاكم المديرية لال محمد قوله: "إن الوضع الأمني أفضل بكثير منذ انتقلت القوات الخاصة إلى وادي زركو، وأنا أقدّر وجودهم في الوادي، فهو منطقة خطيرة جداً".[1] وذكر المقال أيضاً أن أكثر من خمس قرى مجاورة أخرى قد طلبت ضمّها إلى البرنامج بعد تلمّسها فوائده. وكنتُ أشعر بسعادة غامرة أيضاً وأنا أقرأ عن التقدّم في المناطق التي كنتُ مسؤولاً عنها سابقاً. كان لدى مفارز العمليات ألفا في شامكاني وخوست وشكين عدد متزايد من برامج عمليات استقرار القرى. وكان أكثر ما يبعث على السرور سلسلة من التقارير، بما في ذلك تقديرات الاستخبارات القومية حول أفغانستان، والتي ذكرتْ أن قيادة طالبان وحقاني تعتبران برنامج عمليات استقرار القرى تهديداً استراتيجياً لتمرّدها.

لقد أدى نجاح هذا البرنامج إلى إعادة تركيز جهود أجهزة القوات الخاصة للجيش والقيادة على توليفة الاستقرار الريفي وتدريب النخبة من الجيش الأفغاني بدلاً من التركيز

على استهداف قادة طالبان. نقلت مقالة في صحيفة **"آرمي تايمز"** عام 2011 عـن العقيـد دونالد بولدوك، وهو أحـد أجـرأ أصـحاب القبعـات الخضـر، قولـه: "يشـكّل برنـامج (عمليات) استقرار القرى والجهود الرامية إلى إنشاء وحدات مغـاوير في الجيش الـوطني الأفغاني معاً أهم أولويات قـوة مهـام العمليـات الخاصـة المشـتركة المجمّعـة". واعـترف بولدوك بأن هذا أبعد ما يكون عما كانت الحال عليه قبل بضع سنوات، عندما كانـت قـوة مهام العمليات الخاصة المشتركة المجمّعة "أكثـر تركيـزاً عـلى العمليـات 'الحركيـة' لإلقـاء القبض على المتمردين وقتلهم". واعترف بأن "قوات العمليات الخاصـة كـان لـديها نهـج يركّز على العدو من أجل تحديد كيف كنا ننفّذ العمليات.. وكقائد كتيبة عـلى مـدى فـترتَي خدمة، أسأل: هل قمنا بعمليات تركّز على السكان؟ بالتأكيد قمنا بـذلك، ولكننـي كنـت أركّز على العدو لأنه يمثّل تهديداً وجودياً ويعمل في المنـاطق الريفيـة بشـكل فعّـال جـداً، لذلك قمنا بملاحقته. كانت نظريتي آنذاك: الضغط والملاحقة والعقاب. أما شعاري الآن فهو: الوجود والصبر والمثابرة".[2]

كان الدعم المتحمّس لبرنامج عمليات استقرار القرى يأتي من المستويات المختصّـة بالعمليات في واشنطن. شعرتُ بسعادة غامرة لرؤية هذا المستوى من الـدعم. لقـد جعـل الجنرال بترايوس الحصول على الدعم الكامل من الرئيس كـرزاي للبرنـامج إحـدى أهـم أولوياته عندما تولى قيادة إيساف في صـيف عـام 2010. فبتـاريخ 14 يوليـو 2010، قـال السكرتير الصحفي لوزارة الدفاع [الأمريكية] جيف موريل في مؤتمر صحفي: "بينما نحن نعمل بشكل متزامن على وتيرة أعلى بكثير ونُضعف حركة طالبان بحيث تكون أقل تهديداً لهذه المجتمعات المحلية، يمكننا الاستفادة من السـكان المحليـين المسـلحين والـراغبين في القيام بدور الشـرطة في المجتمع".

وأوضح موريل أن قوات الشـرطة المحلية ليست ميليشـيات. كما وافق كرزاي على خطة لوضع ما يصل إلى عشـرة آلاف من أفراد الشـرطة المجتمعية في الخدمة، وأمر بـدفع رواتبهم من الحكومة وأن يكون عملهم خاضعاً لسـيطرة وزارة الداخلية الأفغانية.

وأضاف موريل قائلاً: "إن الأمر يتعلّق بجعل السكان المحليـين يعملـون، بحيـث يمكنهم حماية مجتمعاتهم من أشخاص ينبغي ألا يكونوا موجودين فيها؛ ومن ثم العمل مع المؤسسات الأمنية الراسخة؛ قوات الجيش والشـرطة الأفغانية، وقوات التحالف، للتأكـد من أن أولئك الأشخاص لا يشكلّون تهديداً لمجتمعاتهم".

وقال مسؤولون آخرون إن الأمثلة على تكاتف القرويين الأفغان معاً لمنع طالبان من الوصول إلى مدنهم كانت مشجّعة. وقال موريل: "لقد شاهدنا أمثلـة واضـحة عـلى قيـام المجتمعات المحلية بصدّ محاولات طالبان التسلل إلى مناطقهـا وترهيبهـا. ورأينـا كـذلك، أمثلة على مجتمعات قد لا تكون تقدّمت بشكل لافت للنظر، ولكن من الواضح أنها تريـد ذلك وتبحث عن المساعدة للقيام به".[3]

كان التأييد الرسمي من كرزاي نبأً عظيماً، لكن وضع البرنامج تحت إشـراف وزارة الداخلية غير الفعّالة والمشهورة بفسادها أثار قلقي. فخلال مناقشـات في البيـت الأبـيض عام 2008، ذكرتُ أن مثل هذا البرنامج يجب أن يكون أشبه بـالحرس الـوطني أكثـر مـن كونه مجرد شـرطة مُساعِدة. شعرتُ بأن إخضاع هذا البرنامج الشديد الحساسـية لسـلطة إحدى أقل الوزارات أداء وأضعفها، كان خطأً. إن الأمر الأكثر منطقية أن تكون وحدات الدفاع المجتمعي تابعة للجيش ووزارة الدفاع اللذين يتمتعان بقدرة أكبر، ويمكنهما تقديم دعم لوجستي أفضل.

على امتداد العام اللاحق أشاد عدد من مؤسسات الفكـر والصـحفيين العـاملين في أفغانستان بالنجاح المتزايد للبرنامج. وفي أكتوبر 2011 شهد الأميرال بيل مـاكريفن، قائـد قيادة العمليات الخاصة، أمام لجنة القوات المسلّحة في مجلس النواب، بقولـه: "لقـد تَحقّـق أكبر نجاحاتنا في أفغانستان على يد ضباط وصفّ ضباط القوات الخاصة الذين كانوا عـلى الأرض يحاولون تغيير المشهد، إذا جاز لنا التعبـير، مـن حيـث علاقاتنـا مـع الأفغـان. إن عمليات استقرار القرى، وتطوير الشـرطة المحلية الأفغانية، هي أكثر جهد واعد لـدينا في أفغانستان في الوقت الحالي".[4] وبحلول منتصف عام 2012 كان برنامج عمليات اسـتقرار

القرى قد امتد ليشمل أكثر من ثمانين مديرية فيها ما يقرب من سبعة عشر ألفاً من عناصر الشرطة المحلية في كل مناطق أفغانستان. حضرتُ دورة تدريبية قبل الانتشار تُسمّى "الأسبوع الأكاديمي" تستضيفها قيادة العمليات الخاصة، حيث يُمضي عناصر مفارز العمليات ألفا الذين هم على وشك الانتشار في أفغانستان بضعة أيام في حضور دورات عن كل شيء؛ بدءاً من المفاوضات وصولاً إلى الديناميات القبلية. وكان كثير من الناس يقولون إن القبعات الخضر قد عادت أخيراً إلى جذورها التاريخية باستخدام تدريبها اللغوي والثقافي لتقويض المتمرّدين بحرمانهم من الدعم القبلي. وكان أحد قادة مفارز العمليات ألفا قد عاد جواً من أفغانستان لتبادل الدروس المستفادة مع المجموعة، وقدّم عرض شرائح عن تجاربه. وكانت قد استقبلته لدى وصوله إلى الوادي في البداية انفجارات العبوات الناسفة وإصابتان. احتوت أولى شرائح العرض على صور لمركبات مدرّعة، ورجال يرتدون العتاد الشخصي الكامل، وأخرى لمشاهد من المعارك. ولكن بعد أن عمل مع فريقه بشكل وثيق مع الشيوخ، وقاموا بتجنيد الشرطة المحلية الأفغانية، وإقامة نقاط تفتيش، وإلقاء القبض على أحد قادة طالبان، بدأ الوادي يتجه نحو الاستقرار. وأظهرت الشرائح في نهاية فترة خدمته رجاله وهم يتجوّلون في جميع أنحاء الولاية في شاحنات هايلوكس الصغيرة من دون دروع واقية للجسم، ولا يرتدون سوى لباس الشلوار التقليدي فوق سراويلهم المموّهة. ولم يواجه معركة نارية واحدة في الشهرين الأخيرين من فترة خدمته، واتّسعت مظلة الاستقرار لتغطي الوادي المجاور؛ والأهم من ذلك، أن مفرزة العمليات ألفا أعادت تأسيس مجلس الشورى المحلي ليكون السلطة التي قامت حينها بالتوسّط لحلّ نزاع طويل الأمد على حقوق المياه بين ثلاث قبائل وحاكم المديرية.

هذا لا ينفي أن البرنامج كان محفوفاً بالمخاطر. قلقتُ جداً في اللقاء نفسه بسبب ما سمعته من أن وزير الداخلية، وهو من الطاجيك من شمال أفغانستان، لم يسمح بتوسعة برنامج عمليات استقرار القرى إلى الجنوب البشتوني ما لم يكن هناك المستوى نفسه من التوسّع في الشمال الذي يسيطر عليه الطاجيك. وعلى الرغم من الحاجة إلى برنامج

استقرار القرى إلى حد أكبر بكثير في الجنوب والشرق، حيث كان من الواضح أن تمرّد طالبان أقوى، أصر الوزير أن يُقدّم لإخوته في العرق الموجودين في الشمال المستوى نفسه من الاهتمام والدعم، لا بل ازداد انزعاجي بعد معرفتي أن الوزير قد أصر أيضاً على تزويد الميليشيات في الشمال بالأسلحة والإمدادات والتدريب. ولكن أفراد مفرزة العمليات ألفا لم يكونوا في حاجة إلى العيش مع الشرطة المحلية الطاجيكية. وبدلاً من ذلك يمكن أن يقوموا بزيارتهم من وقت لآخر، وأن يقوموا بالإشراف عن بعد. كان من الواضح أن تلك الاستراتيجية ترمي إلى استغلال برنامج استقرار القرى من أجل إعادة تنظيم ميليشيات التحالف الشمالي السابقة استعداداً لمواجهة حركة طالبان البشتونية في أعقاب الانسحاب الأمريكي. فكانت محاولة التلاعب بالبرنامج تمهيداً لعودة محتملة إلى حرب أهلية سيناريوهاً كابوسياً بالنسبة إلينا نحن الداعمين للبرنامج جميعاً.

ومع ذلك، كنتُ مقتنعاً بشكل عام بأننا كنا في نهاية المطاف نضع الأمور في نصابها الصحيح على عدد من المستويات. شعرتُ بأنني قد أسهمتُ فعلاً في دفع المجهود الحربي في اتجاه إيجابي عن طريق الحصول على دعم لبرنامج مثل عمليات استقرار القرى، من البنتاجون والبيت الأبيض؛ ومن ثم الإشراف على تنفيذه ميدانياً في الكثير من المناطق. كان البرنامج يتطلّب من كل عناصر مفارز العمليات ألفا الخروج بشكل دائم من القواعد والذهاب إلى القرى. كنا نتغلّب على حركة طالبان في لعبتها الرامية إلى الاستفادة من الصدوع الموجودة في المجتمع الأفغاني. وبينما التحق المزيد من القرويين بالشرطة المحلية، لم يتمّ فقط إقصاء حركة طالبان مادياً خارج القرى، ولكن أُقيم حاجز نفسي بين الشعب والمتمرّدين. لقد تمكّن الأفغان من السفر بحرية أكثر، والذهاب إلى المدارس من دون خوف، وممارسة المزيد من التجارة، واستخدام نُظم العدالة التقليدية لمعالجة النزاعات. وبالإضافة إلى ذلك، كان برنامج عمليات استقرار القرى مستداماً على المدى الطويل بوجود أعداد صغيرة نسبياً من القوات الأمريكية يمكن استخدامها لتأمين القرى، في حين كانت قوات الجيش والشرطة الأفغانية تنشغل بتأمين المدن والطرق الرئيسية. ومع ذلك، وعلى الرغم من النجاحات الأولية، كان البرنامج ما يزال عرضة لإساءة

الاستخدام ويتطلب مشاركة مستمرة من قبل قواتنا الخاصة. ونظراً إلى شعار إدارة أوباما حول انسحاب القوات الأمريكية المقاتلة، نتساءل: هل لدينا ما يكفي من الوقت لجعل نتائج برنامج عمليات استقرار القرى دائمة؟ وهل كان برنامج عمليات استقرار القرى هو الاستراتيجية الصحيحة التي تم تنفيذها بعد فوات الأوان؟ أكثر ما يثير للقلق هو: هل سيؤدي الانسحاب السريع من الإشراف على الشرطة المحلية من قبل قواتنا الخاصة إلى ضررٍ أكثر من النفع على المدى الطويل؟

الفصل الخامس عشر

واشنطن مرة أخرى

وداعاً للمشكلات

عندما غادرت البيت الأبيض في 19 يناير 2009، كان معظم أعضاء فريق الأمن القومي لدى الرئيس أوباما ينظرون إلى أفغانستان على أنها "الحرب الجيّدة" مقارنة بـ "الحرب السيئة" في العراق. وبالفعل كان أوباما قد وصف أفغانستان، أيام ترشّحه للرئاسة، بأنها "حرب الضرورة" ويجب الانتصار فيها. وعندما عُدتُ إلى واشنطن في ربيع 2010، أذهلني مدى تغيّر النقاش القومي بشأن أفغانستان عن العام الماضي. ذلك أن النقاش قد تغيّر من "كيف ننجح؟" إلى "ما مدى السرعة التي ينبغي لنا الانسحاب بها؟". وعقب مراجعتين مثيرتين للخلاف أجريتا بشأن استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أفغانستان عام 2009، اكتشف مسؤولو إدارة أوباما مدى صعوبة تحقيق النجاح في أفغانستان وحجم الأموال المطلوبة لإعادة الأمور إلى نصابها. ويبدو أن الرئيس قد أذعن للمؤسسة العسكرية في الموافقة على زيادة القوات، ولكنّه يرغب الآن وبشكل واضح في تركيز جهوده على القضايا الداخلية. وبرغم تدفّق آلاف الجنود الأمريكيين إلى أفغانستان عام 2010، سرعان ما اكتشفتُ أن رغبة الرئيس في إنهاء المشاركة الأمريكية في الحرب قد أثّرت في كل جانب من جوانب إدارته، بدءاً من الضغط على المؤسسة العسكرية لوضع جدول زمني لتخفيض عدد القوات، إلى التفاوض مع حركة طالبان، والإشارة إلى أن تنظيم القاعدة قد هُزم أساساً.

عدت إلى مكتب وزير الدفاع - قسم السياسات الخاصة بأفغانستان وباكستان. وبما أني قد عملت مع نائب الرئيس ديك تشيني، كنت أتوقّع ترحيباً حاراً من القيادة الديمقراطية الجديدة في البنتاجون، برغم أنني أُعتبر من الناحية الفنية موظفاً مدنياً غير

سياسي. وكانت المفاجأة السارة الترحيب الكريم الذي حظيتُ به من نائب مساعد وزير الدفاع الجديد ديفيد سيدني، الذي كلّفني على الفور بقضية حسّاسة، وهي تمثيل البنتاجون في إعداد إطار سياسات للتفاوض مع حركة طالبان. ومع ذلك، وعقب سلسلة اجتماعات في البيت الأبيض مع المجموعة الصغيرة التي تتولى استراتيجية التفاوض، سرعان ما صحوتُ من الوهم. لقد كان الموضوع المهم، أكثر من كل شيء على ما يبدو، الذي كنّا نناقشه هو كيفية إنهاء الحرب وليس كيفية النصر فيها.

من وجهة نظري، كان إعداد معايير للمفاوضات مع طالبان شيئاً يفتقر إليه المجهود الحربي في السابق، وكانت هناك حاجة ماسّة إليه. ومع ذلك، كان توقيت الجهد ودوافع الإدارة من وراء المحادثات المقترحة يمثل إشكالية؛ فلقد عرفتُ من خبرتي طوال العام السابق في أفغانستان أن الحرب في عام 2010 تُعتبر، في أفضل أحوالها، طريقاً مسدوداً. نحن الآن ندفع باتجاه محادثات مصالحة بسرعة أكثر مما ينبغي، وكان يجب أن ننتظر حتى نتفاوض من موقع قوة. كما أن كثيراً من الأفغان رأوا في هذا الجهد أول خطوة رئيسية باتجاه التخلّي عن أفغانستان. حاولتُ تقديم وجهة نظري من خلال خبراتي في الميدان، فأوضحت أن طالبان تحقّق انتصارات في الكثير من مناطق البلاد؛ ومن ثمّ فسوف يُنظر إلى التواصل من أجل التفاوض في هذه المرحلة على أنه يأس.

شعرتُ فوراً بأن هناك أجندة أخرى، ولاسيما داخل وزارة الخارجية ومكتب السفير ريتشارد هولبروك، الممثّل الخاص لأفغانستان وباكستان. لقد بدأ المسؤولون يضغطون باتجاه المصالحة كهدف يُنجز في حد ذاته. وبالإضافة إلى ذلك، كانت جهود إشراك الأقليات الإثنية الأفغانية في المفاوضات المحتملة ضئيلة، ما يتركهم يتشكّكون في أن الولايات المتحدة الأمريكية، والرئيس كرزاي، وطالبان وباكستان كانوا يبرمون صفقة ضد مصالحهم. ومع مرور العام، بدأت وزارة الخارجية تكثف جهودها فيما يتعلق بالمضي قدماً في هذا الاتجاه، واستخدام محادثات المصالحة كآلية لإنهاء الحرب بسرعة.

وفي الوقت ذاته كنتُ أشارك في المحادثات في البيت الأبيض ووزارة الخارجية حول إذا ما كان الوقت مناسباً لعقد اتفاق مع طالبان. وكنت أحضر أيضاً سلسلة مناسبات لإحياء ذكرى الذين سقطوا من وحدتي في المعارك. كانت المناسبات مرهقة عاطفياً بالطبع. وتُوّجتْ هذه المناسبات باليوم التذكاري في المقبرة الوطنية في أرلينغتون. وفكّرت وأنا أمشي بين صفوف شواهد القبور الجديدة في القسم رقم 60 من مقبرة أرلينغتون، إلى أي مدى ضللنا طريقنا في أفغانستان. وبين الوقت الذي أمضيته في البنتاجون والبيت الأبيض وفترات الخدمة المتعدّدة في الميدان، تبلورت فكرتي. كنت مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى أن المؤرخين سينظرون في أمر الحرب وسيعزون فشلها إلى مجموعة من الأخطاء الاستراتيجية الرئيسية.

لعلّ الخطأ الأكبر هو أن إدارة بوش (بمن فيها أنا بدَوري الصغير) لم تحدّد أهدافاً واضحة لوجودنا في أفغانستان، بمجرد هزيمة طالبان والقاعدة في أواخر عام 2001. لقد ركّزت القوات الأمريكية على مهمة مكافحة الإرهاب من خلال القضاء على العناصر المتبقية من نظام طالبان، لكنها كانت بطيئة جداً في تبنّي استراتيجية لضمان إبقائهم مهزومين. التردّد الأولي لإدارة بوش في القيام بعملية بناء الدولة في أفغانستان في الوقت الذي تحوّل فيه تركيزنا إلى العراق، أدى إلى تفاقم الوضع؛ لأنه أسفر عن تأخير تبنّي هدف نهائي يحدد النجاح في أفغانستان. وفي ظل الفراغ الذي نتج عن تغير استراتيجيتنا، أعادت حركة طالبان تجميع صفوفها في ملاذها الآمن في باكستان، وأعادت فرض نفسها بالقوة. وظل الوضع هكذا حتى المراجعة الاستراتيجية التي أجرتها الحكومة الأمريكية عام 2006، عندما استخدمنا مصطلح مكافحة التمرّد؛ ومن ثم قبلنا ضمنياً أننا نواجه تمرّداً. وفي نهاية المطاف، وجدنا أنفسنا نعود بفتور إلى حملة بناء الدولة عندما أدركنا حجم الجهد المطلوب لإعادة تمكين الحكومة وقوات الأمن الأفغانية لكي تقف على أقدامها، وأدركنا أن استراتيجية "الدولة الرائدة" غير فعّالة. ومع ذلك، وبحلول هذا الوقت، كان قد تم تسليم المهمة إلى حلف الناتو الذي لم يستطع أعضاؤه الاتفاق على تعريف لمصطلح مكافحة التمرّد؛ ومن ثم الاتفاق على خطة عملية لمكافحته.

ونتيجة لغياب التركيز الاستراتيجي، كان جهدنا الحربي يفتقر إلى الموارد الكافية. اشتدت حركة التمرد، عاماً تلو الآخر، وجاء ردنا في شكل محاولات فاترة لكي نواكب التصعيد في العام اللاحق. ولكننا وجدنا أنفسنا نطارد العنف ولم نتمكّن قطّ من أن نسبقه مسافة تتيح لنا تقليصه. كانت لدينا في أفغانستان دولة عدد سكانها أكبر من العراق، وتمتد عبر تضاريس هي الأكثر وعورة على وجه الأرض. ويضاف إلى ذلك ضعف البنية التحتية، وغياب الموارد الطبيعية والقاعدة الضريبية، وعدم القدرة على الوصول إلى الموانئ البحرية، ووجود ملاذ آمن للمتمرّدين في باكستان المجاورة، والفقر المدقع، ومعدل أميّة مروّع يصل إلى 75٪. ومع ذلك لم نخصّص سوى نزر يسير من الموارد لهذا الجهد مقارنة بما خصّصناه للعراق.

لقد حاولنا تعويض نقص الموارد الأمريكية من خلال الاعتماد على حلف الناتو. وكما تعلّمتُ من خبرتي مع القوات الهولندية، والبولندية، والفرنسية، فنحن نستهين بشكل كبير بحجم الضعف الذي اعترى الجيوش الأوروبية منذ نهاية الحرب الباردة حتى اليوم. لم تكن هذه الجيوش ببساطة جاهزة للقيام بحملة موسّعة تبعد آلاف الأميال عن أوروبا، وفي أحد الأماكن الأكثر صعوبة في العالم. كانوا جاهزين لمهمة لحفظ السلام على غرار المهمة التي قاموا بها في البوسنة، وليس لحملة معقّدة وعنيفة لمكافحة التمرّد، إلى جانب العمل مع شريك في الجيش والشرطة الأفغانية يؤدي مهامه بصعوبة. وما إن أصبحت قوات الناتو على أرض أفغانستان حتى وجَدتْ نفسها غير قادرة على مكافحة التمرّد نظراً إلى الأساليب المختلفة على نحو جذري للدول الأعضاء في تعاملها مع الأمر، والقيود المفروضة عليها من قبل حكوماتها. إضافة إلى ذلك، فإن نقل القيادة من الولايات المتحدة الأمريكية إلى حلف الناتو عام 2006، أرسل رسالة إلى المنطقة مفادها أن تلك هي البداية لإنهاء وجود القوات الأمريكية في أفغانستان. وفي نهاية المطاف، أدى ذلك التحوّل إلى عدم الوفاء بالوعود المقدَّمة للشعب الأفغاني، وإلى الإحباط والفراغ الأمني الذي استغلته حركة طالبان.

كان من بين الأخطاء الحاسمة الأخرى عجزنا عن إثناء باكستان عن دعم حركة طالبان وشبكة حقاني، وغيرها من المجموعات الأخرى التي تخدم أهدافها الاستراتيجية. وعدت إلى واشنطن أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بأن الجيش الباكستاني لا ينوي تغيير أساليبه، إلا إذا اعتقد أن قطع العلاقات مع المسلّحين سيكون مفيداً في تحقيق أهدافه. وما دمنا قد أعلنّا انسحابنا علناً (الذي ترك لباكستان التعامل مع الفوضى في أفغانستان)، ومع استمرار تقديم المليارات لدعم الجيش الباكستاني، فلن يكون هناك حافز كبير لهم ليغيروا أساليبهم.

وأخيراً، فإنني على اقتناع بأن التاريخ سينظر إلى إعلان الرئيس أوباما الخاص بزيادة القوات في الوقت ذاته الذي أعلن فيه جدولاً زمنياً لسحبها، باعتباره أنه سوء حساب استراتيجي خطير في سياستنا الخاصة بالحرب. وفي الوقت الذي أعلن فيه الرئيس إرسال الموارد التي يستحقّها العسكريون والمدنيون الأمريكيون منذ فترة طويلة، فقد ألغى التأثير الإيجابي لهذه الموارد قبل أن تصل. وكما وعد، عقب مرور 18 شهراً من خطابه في ديسمبر 2009 في ويست بوينت معلناً زيادة القوات، ألقى الرئيس أوباما خطاباً في يونيو 2011 يوضح فيه استراتيجيته للانسحاب؛ ليس سحب القوات الإضافية فقط، بل القوات القتالية كافة أيضاً بحلول عام 2014. لقد تحدّث أوباما عن التركيز على "إنهاء الحرب" و"بناء الدولة من الداخل" وليس من الخارج.[1] كان ذلك آخر دليل على أن الإدارة كانت تتمنى زوال المشكلات، وليس لديها أي نية لتقديم الالتزام الطويل المدى اللازم لاستقرار المنطقة ومنع إعادة ظهور الملاذات الآمنة التي يمكن أن يستخدمها الإرهابيون لمهاجمة الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى. ونتيجة لذلك، قررتُ ترك العمل في الحكومة والانتقال إلى القطاع الخاص، على أمل أن أستمر في الخدمة في مجال آخر.

وبمجرد أن أعلن الرئيس نيته سحب جميع القوات القتالية بنهاية عام 2014، أخذ النقاش في واشنطن يقتصر على عدد قوات الدعم التي ستبقى، والجدول الزمني لسحب

بقية القوات. وأخيراً تمت تسوية هذه القضـية عندما أعلن الرئيس أنه سـيتم سحب جميـع القوات العسكرية، بغض النظر عن المهمة التي تقوم بها، قبـل نهايـة عـام 2016. اتسـمت هذه المناقشات التي دارت حول عدد القوات والجداول الزمنية لسحبها بالأهميـة، ولكـن غابت عنها مسألة أكثر أهمية. فقد كانت القضـية الاستراتيجية الأهم هـي الإشـارة التـي أرسلها أوباما إلى حلفائنا وأعدائنا والمنطقة: أمريكا تغادر المنطقة. وكانـت هـذه الإشـارة كافية لتتسبب في جملة من المشكلات الكبيرة المتعلقة بالمجهود الحربي القائم.

أولاً، بدأت المنطقة بأسـرها في المنـاورة اسـتعداداً لـ "أفغانسـتان مـا بعـد رحيـل الأمريكيين"، بطرق تتعارض في معظمها مع مصالح الولايات المتحدة. وهـذه المنـاورات جارية حتى اليوم. إن ما لم تقدّره إدارة أوباما، ومـا تـزال لا تقـدّره تمامـاً هـو أن الشـعب الأفغاني والحكومة الأفغانية، والباكستانيين والهنود والإيـرانيين وبقيـة آسـيا الوسـطى لم يكونـوا يسـتمعون إلى الفـروق الدقيقـة في السـياسات الخاصـة بحجـم ونـوع القـوات الأمريكية التي سـيتم الإبقاء عليها. وكل ما سمعوه هو الانسحاب الأمريكي والمغـادرة. ومما يثير القلق، أن كل ما سمعته حركة طالبان وتنظيم القاعدة من خطاب 2011 هو أنهـم نجوا من زيادة القوات، وأن ما عليهم سوى الانتظار بضع سنوات أخرى فقط، حتى يـتم الانسحاب الأمريكي النهائي عام 2016. كانت المنطقة بأسـرها، وما تـزال، تتحـوَّط مـن الولايات المتحدة ولا تنحاز إليها.

ثانياً، حذّر وزير الدفاع روبـرت غيـتس مـن دون مواربـة، قبيـل تـرك منصبه (في الوقت نفسه الذي ألقى فيه أوباما خطابه عام 2011 تقريباً)، مـن أن حلفاءنـا الأوروبيـين سـيستخدمون الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية كضوء أخضـر للخـروج أيضـاً. وبرغم التفجيرات التي حدثت في مدريد ولندن، فإن الأوروبيـين كـانوا غاضـبين بسـبب اشتراكهم في "حرب أمريكا" في أفغانستان قبـل سـنوات. وسـماعهم الـرئيس يؤكـد أننـا سنترك أفغانستان، أدى إلى تفكيك أي عزم متبقٍّ لدى الحلفاء، بل إن عدداً من الحكومات الأوروبية قد سـرع في الواقع من جداول انسحابه. كما أن انخفاض عدد القوات قد قلّص

إلى حد كبير قدرة المدنيين في الحكومة الأمريكية - الذين كانوا يعملون تحت حماية القوات العسكرية - على دخول الولايات الأفغانية وتقديم المساعدة للشعب الأفغاني فيما يتعلق بالزراعة، وحكم القانون، والتنمية الاقتصادية. وعقب إعلان الرئيس، سرعان ما أعدّت الوكالات المدنية جداول الانسحاب الخاصة بها؛ ومن ثم تخلّت عن وجودها الضعيف أصلاً في القواعد الأمامية، وقلّصت التمويل. وخلال زيارة إلى قندهار هذا العام، وصف أحد كبار القادة العسكريين الأمريكيين وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة بأنها مصدر لعدم الاستقرار وليست مصدراً للاستقرار بسبب وجودها الضعيف في المقاطعات؛ ومن ثم عجزها عن الوفاء بوعودها للشعب الأفغاني.

ثالثاً، كان كل أفغاني تحدثتُ إليه في السنوات التي تلت عودتي إلى واشنطن؛ من الوزراء إلى مترجِمِيَّ السابقين، يساوره قلق متزايد إزاء احتمال تجدّد الحرب الأهلية في أعقاب الانسحاب الأمريكي. ويعتقد أصدقائي من الطاجيك والأوزبك والهزارة أن الولايات المتحدة الأمريكية تعقد صفقة مع كرزاي وطالبان وتتخلّى عنهم. وقد بدأ عدد وافر من أبرز القادة الطاجيك - نائب وزير الداخلية محمد داود (الذي اغتيل على يد حركة طالبان)، ورئيس جهاز الاستخبارات السابق عمر الله صالح، ووزير التعمير السابق محمد إحسان ضياء، وغيرهم - يقضون مزيداً من الوقت في بلداتهم الأصلية بعيداً عن كابول، من أجل إعادة تشكيل التحالفات والشبكات القديمة. واتضح لي أن التحالف الشمالي السابق، الذي قاوم حركة طالبان البشتونية خلال فترة حكمها الوحشية، كان يعيد تنظيم صفوفه. ولسوء حظ الولايات المتحدة الأمريكية، شملت هذه الجهود التواصل مع الحلفاء القدامى في إيران وروسيا والهند، حيث كان يُنظر إليهم جميعاً على أنهم أكثر موثوقية من الولايات المتحدة الأمريكية.

وهذا ما جعل سياستنا في أفغانستان سياسة قائمة على التمني والافتراضات؛ فنحن نفترض أن الجيش الوطني الأفغاني والشرطة الأفغانية سوف يستطيعان الوقوف على الأقدام بعد انسحابنا من هناك. وحتى كتابة هذه السطور ما يزال لدينا مستشارون في قيادات الجيش الأفغاني العليا. ومع ذلك، فإن معرفة المستشارين بكيفية أداء الجيش في

الجبال والمناطق الحدودية تُستقى من المعلومات والتقارير التي تكتبها الفصائل والسرايا التي لا يوجد فيها مستشارون أجانب. وهكذا، لا توجد لدينا سوى وسائل قليلة لمعرفة أدائهم، وعندما يتم سحب جميع المستشارين عام 2016 سوف نكون على جهل تام بأداء الجيش والشرطة الأفغانية ضد حركة طالبان وتنظيم القاعدة. وإذا كانت افتراضاتنا حول قوات الأمن خاطئة، وأنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم، فقد لا نعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان.

ونحن نفترض أيضاً أن الأفغان سوف يستطيعون إدارة تحوّل سياسي ناجح لرئيس يخلف كرزاي. ونأمل أن تنظر جميع المجموعات العرقية في أفغانستان، وخاصة الجيش الوطني الأفغاني الذي يهيمن عليه الطاجيك، إلى النتيجة [خليفة كرزاي] على أنها شرعية نسبياً، وأن يمنح جيران أفغانستان الحكومة الجديدة فرصة للنجاح. وكما ذكّر الرئيس كرزاي نائبَ الرئيس الأمريكي ديك تشيني خلال زيارتهما الأخيرة عام 2008، فإنه لم يترك أي زعيم أفغاني منصبه في تاريخ البلاد بطريقة سلمية، فكل رئيس في نهاية المطاف إما أن يُنفى وإما أن يُعدم؛ ومن ثم يبدو أن هذا الوقت هو الأسوأ بالنسبة إلينا لتخفيض عدد قواتنا.

وأخيراً، تستند السياسة الحالية إلى افتراض أن تنظيم القاعدة لا يستطيع العودة بعد انسحابنا. وأرى أن هذا افتراض خطير جداً، نظراً إلى حالة عدم الاستقرار المتزايدة في باكستان، وتراجع وجود القوات الأمريكية وقوات التحالف وتزايد التوتر العرقي، وما يزال الجيش الأفغاني وقوات الشرطة يحتاجان إلى سنوات طويلة حتى يستطيعا القيام بعمليات مستقلة. وعليه، يجب أن يتم إدراج استراتيجية مكافحة الإرهاب ضمن استراتيجية أوسع نطاقاً لمكافحة التمرد، لأن الشعب الذي يواجه الانتقام من المتطرّفين لن يكون مستعداً لمواصلة تزويدنا بالمعلومات الاستخباراتية التي نحتاج إليها. وبالإضافة إلى ذلك، ومن خلال تجربتي، فإن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية والجيش يعتمد كل منهما على الآخر فيما يتعلّق بتوفير الإمدادات وحماية قواعدهما المختلفة القريبة من الحدود الباكستانية. وفي ظل انسحاب الجيش، فأنا على يقين من أن وكالة الاستخبارات المركزية

الأمريكية سوف تواجه صعوبة كبيرة في الحفاظ على كثافة عمليات مكافحة الإرهاب نفسها ضد تنظيم القاعدة في باكستان، التي كانت ناجحة جداً في ملاحقة قيادتها باستمرار. وفي ظل هذه الديناميات، لم أجد حتى الآن شخصاً يدعم استراتيجية التخفيض للقوات التي تنتهجها الإدارة الأمريكية قادراً على إخباري بما نحن فاعلون إذا كانت كل هذه الافتراضات خاطئة، وإذا استطاع تنظيم القاعدة العودة بعد انسحابنا. إن عودة تنظيم القاعدة في سوريا والعراق، جنباً إلى جنب مع ظهور مجموعات مثل الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، يُظهر حماقة استراتيجية التمني هذه. وفي حالة باكستان، إذا ساءت الأمور وعاد تنظيم القاعدة إلى الصعود مرة أخرى، فسيصبح هناك شيء أكثر أهمية على المحك: الأسلحة النووية.

خلاصة القول، هي أن سياستنا تتسم بالغموض، وسيدفع الشك في احتمال كون افتراضاتنا تستحث الجميعَ إلى التخمين والتحوّط بطرق غير بناءة، أو لا. كما قال لي رجل أعمال أفغاني مؤخراً: "أشعر كما لو أن بلدي بالكامل يسير بسرعة نحو الهاوية. لا أحد، من المسؤولين الحكوميين إلى أدنى القرويين، يعرف ما الذي سوف يحدث، ولا أرغب في القيام بأي استثمارات في أعمالي، ولا أريد حتى ترك أموالي في مصرف أفغاني، إلى أن تتكوّن لديّ فكرة عما سيحدث". قام هذا الرجل والكثير من زملائه في رابطة أعمال وطنية بنقل أموالهم من أفغانستان إلى دبي، ودول مجاورة أخرى. وبالمثل، قال لي أستاذ زراعة بجامعة كابول إن منحاً متعددة من المنظمات الدولية قد أوقفت مؤقتاً، ما أسفر عن تسريح عدد من مساعدي الباحثين وإلغاء برنامج تكميلي زراعي. وأضاف: "المجتمع الدولي بأسره يقوم بإعادة تقييم استثماراته في الشعب الأفغاني لأن الأمريكيين قرروا الانسحاب. لا نريد مليارات الدولارات من الولايات المتحدة، بل نريد أن تقول أمريكا للجميع أن يتوقفوا عن حزم أمتعتهم بقصد الرحيل!".

في أواخر عام 2012، طُلِب منّي أن ألقي كلمة أمام مجموعة من موظفي الكونجرس بشأن ما أعتقد أنه الاستراتيجية الطويلة المدى في أفغانستان، وبما أنني كنت أعارض بقوة استراتيجية الانسحاب، بدأت حديثي بتأمل تاريخي في دولة حليفة في شرق

آسيا كانت بنيتها التحتية واقتصادها الزراعي في حالة يرثى لها عقب عقود من الحرب والاحتلال. كان النظام السياسي في هذه الدولة يعاني الفساد والخلل، وشعبها يعاني فقراً مدقعاً. وكانت نسبة التعليم فيها عام 1945 أقل مما هي في أفغانستان اليوم. ومع ذلك، فقد قدّمت الولايات المتحدة الأمريكية، خلال خمسين عاماً، استثمارات طويلة المدى للجيش ولاستقرار الاقتصاد وبناء رأس مال بشري حتى استطاعت هذه الدولة التحوّل إلى قوة صناعية، ورائدة في المجال التكنولوجي، وديمقراطية فاعلة. هذه الدولة هي كوريا الجنوبية.

ومع أنه ليس بتشبيه دقيق، إلا أنه يجدر تذكير الموظفين الشباب بما كان ممكناً عندما أقرت الولايات المتحدة الأمريكية أن تحقيق الاستقرار في دولة ما كان شأناً مهماً لمصالحها القومية على المدى الطويل. وبالطبع كان الأمر سيبدو انتحاراً سياسياً للرئيس أيزنهاور أن يعلن في الخمسينيات أن الولايات المتحدة الأمريكية خططت للاحتفاظ بقوات في كوريا الجنوبية للعقود الخمسة أو الستة المقبلة، تماماً كما سيكون صعباً على الرئيس أوباما أن يواجه الشعب الأمريكي برسالة مماثلة اليوم. لكن أيزنهاور قدم مسوغات مقنعة حول أهمية الحد من انتشار الأيديولوجيا الشيوعية في كوريا بالنسبة إلى أمننا القومي، وهيأ الوضع لتبقى الولايات المتحدة الأمريكية منخرطة في شبه الجزيرة الكورية حتى أصبح لدينا حليف مزدهر يسهم في الاستقرار العالمي. قدّمتُ المسوغات التي تصبّ في اتجاه أنه ينبغي لنا أن نفعل الشيء ذاته في أفغانستان الآن؛ فمنع التطرّف من أن يستعيد معقله في أفغانستان لتهديد المنطقة مرة أخرى وربما الأراضي الأمريكية، يماثل في أهميته اليوم أهمية وقف انتشار الأيديولوجيا الشيوعية منذ عقود خلت. وفي الواقع نحن نعلم من الكنز الثمين المتمثّل بالاتصالات الداخلية التي تم الاستيلاء عليها خلال الغارة على مخبأ أسامة بن لادن، أن كبار قادة تنظيم القاعدة وطالبان قد ناقشوا استغلال الفراغ الذي يخلِّفه رحيل القوات الأمريكية من أفغانستان لإعادة ترسيخ أنفسهم وبهدوء في المناطق التي لا تخضع لسيطرة الحكومة في المنطقة الحدودية؛ ومن ثم تركيز اهتمامهم على باكستان وترسانتها النووية.

ورداً على تشكّك العاملين في الكونجرس بشأن إذا ما كانت هذه الاستراتيجية قابلة للاستمرار على المدى الطويل أو لا، أوضحتُ أنه بحلول عام 2010 كان قد تبدّى لنا أن لدينا صيغة ناجحة في أفغانستان بعد أن تعلمنا من قرابة عقد من الأخطاء. وبرغم كل أخطائنا السابقة، شعرتُ بأن لدينا الكثير من المكوّنات الرئيسية التي يمكن أن تحقق درجة من الأمن، بما يسهم في ازدهار القطاع الخاص والتنمية. كانت لدينا فرق من القوات الخاصة التي تشترك مع القبائل الرئيسية في المناطق الريفية في حرمان طالبان من تجنيد المؤيدين والحصول على الدعم. وكان لدينا فريق يقدم النصح في الأمور التكتيكية للجيش الأفغاني وقوات الشرطة على مستوى منخفض، بحيث إذا ما تمت مواصلة هذه الجهود على المدى الطويل، فإنه يمكنها أن تساعد على تشكيل جيل جديد من القادة الأفغان الذين يتولون حماية بلدهم.

لم أدعُ، وقتها أو الآن، إلى ترك قوات أجنبية كبيرة في أفغانستان إلى ما لا نهاية، غير أنني أؤكد قناعتي بأن تخفيض عدد القوات كان يجب أن يتم بطريقة تدريجية واعتماداً على الظروف الأمنية وليس على جدول زمني عشوائي. ولا شك في أن التخفيض المحسوب للموظفين المساعدين والمعدات في ظل وجود قوات ومدنيين في قرى الريف الأفغاني وفي أوساط قوات الأمن الأفغانية، كان سيتطلب من القيادة العسكرية أن تغيّر بشكل جذري درجة تقبّلها للمخاطر. ربما لا تكون القواعد مريحة بالقدر المتوقّع، وربما لا تكون فرق الإخلاء الطبي جاهزة على النحو المبتغى، وربما لا يكون لدى كل مستوى من القيادة الرؤية الكاملة لكل مهمة. ولكنني مقتنع بأن رجالنا ونساءنا، عسكريين ومدنيين، الذين يخاطرون بأرواحهم، سيقبلون بمخاطر أعلى، إذا سمحت قيادتنا بذلك.

لو أننا واصلنا استراتيجية الانخراط مع القبائل التي كانت قد بدأت تؤتي ثمارها، مع مواصلة تحسين أداء قوات الجيش والشرطة الأفغانية، لاستطعنا ترسيخ المكاسب التي حققناها خلال فترة زيادة القوات. إضافة إلى ذلك، في عام 2010 بدأت الشركات المتعدّدة الجنسيات والمستثمرون في إدراك إمكانات قطاعات التعدين والزراعة

والاتصالات الواعدة في أفغانستان. ويزخر قطاع التعدين على وجه الخصوص بإمكانات حقيقية غير مستغلّة من الرخام والأحجار الكريمة والمعادن النادرة مثل الليثيوم، قادرة على تأهيل رابع أفقر اقتصاد في العالم. ولكن البرلمان الأفغاني ووزراء الحكومة يحتاجون إلى إرشاد طويل الأجل لسن قوانين وإجراءات تجذب الاستثمارات الخارجية. وبدلاً من القيام بذلك، فقد تمّ سحب الكثير من الخبراء وتقليص برامج الإرشاد والتوجيه بحلول عام 2013 في إطار استراتيجية الانسحاب الأوسع نطاقاً.

واختتمتُ حديثي بتأكيد أنه يتعين علينا أن نتمسّك بالرؤية الطويلة الأجل بالنسبة إلى أفغانستان لكي نحدّ من أيديولوجيا التطرّف كما فعلنا في كوريا ضد الشيوعية. إن أكثر ما تحتاج إليه أفغانستان هو رسالة إيجابية وثابتة من الولايات المتحدة مفادها: "نحن معكم على المدى البعيد لأن دعمنا لكم ضد عدم الاستقرار والتطرّف يصب في مصلحتنا القومية". حتى إنْ تم تخفيض عدد قواتنا تدريجياً بشكل غير معلَن (كما حدث في كوريا، من خمسين ألفاً في الستينيات إلى خمسة وعشرين ألفاً اليوم)، فسيكون لمثل هذه الرسالة آثار إيجابية عميقة. وإذا وصلت رسالة الالتزام هذه من الولايات المتحدة الأمريكية إلى الشعب الأفغاني، والحكومة الأفغانية، والجيش الباكستاني، فإنهم سيكونون أكثر استعداداً للعمل معنا بدلاً من الحذر تجاهنا.

ويرى الكثير من الخبراء أن معظم الأمريكيين، وبالتبعية الكونجرس، غير مستعدين لتقديم مثل هذا الالتزام الدائم في جنوب آسيا. أنا متأكد من أن قيادتنا في واشنطن لم تشرح للشعب الأمريكي مطلقاً ما الذي سنفعله إذا انزلقت أفغانستان مرة أخرى في الفوضى، ونفّذ تنظيم القاعدة خطته بالزحف مجدداً إلى المناطق التي تسيطر عليها حركة طالبان لإعادة بناء نفسه. لم تشرح قيادتنا قط الاحتمال الحقيقي لقيام هذه القوى نفسها بزعزعة استقرار باكستان المسلحة نووياً، كما لم تشرح أن استقرار جنوب آسيا يرتبط مباشرة بمصالحنا القومية وحماية أراضينا. وبدلاً من ذلك، سمع الأمريكيون جميعهم كم هي صعبة هذه الحرب؛ ومن ثم يجب أن ننسحب. ولا شك في أن

دعم أفغانستان، كما فعلنا مع ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية عقب الحرب العالمية الثانية، سيكون جهداً شاقاً ومكلفاً، ولكن التكلفة ستكون هزيلة مقارنة بمحاولة إعادة كسب ثقة الشعب الأفغاني بعدما خذلناهم للمرة الثالثة. وختاماً، أعتقدُ جازماً، كما قال لي الملا غفورزاي خلال احتساء الشاي في خوست، وجوب أن نكون مستعدّين لإلزام أحفادنا بالوقوف إلى جانب أحفاده!

الهوامش

الفصل الأول

1. Gall, Carlotta "Cheney and Afghan Milestone," *New York Times*, December 20,1. 2005. (http://www.nytimes.com/2005/12/20/international/asia/20afghan.html?_r=0).

2. Franks, Tommy, with Malcolm McConnell, American Soldier (New York: Regan Books, 2004. p 324.

3. "Rumsfeld Declares the End to Combat Operations in Afghanistan," Fox News, May 1, 2003. (http://www.foxnews.com/story/2003/05/01/rumsfeld-declares-major-combat-over-in-afghanistan).

4. ملاحظات المؤلِّف، مجموعة القوات الخاصة ب/ 2/ 20، يوليو 2003.

5. ملاحظات المؤلِّف، مؤتمر أسبوعي عبر الفيديو مع هيئة الأركان المشتركة والقيادة المركزية، أكتوبر 2004.

6. Radio Free Europe/Radio Liberty, "Afghanistan: A Chronology of Suicide Attacks Since 2001," January 17, 2006. (http://www.rferl.org/content/article/1064789.html).

7. ملاحظات المؤلِّف، الاستراتيجية الأمريكية لمكافحة المخدرات في أفغانستان، 2004.

8. ملاحظات المؤلِّف، اجتماع مجموعة العمليات بين الوكالات بخصوص أفغانستان، وزارة الخارجية الأمريكية، سبتمبر 2004.

9. United Nations, Office of Drug Control (UNODC), "World Drug Report," 2005, p 180.

10. ملاحظات المؤلّف، مكتب شؤون أفغانستان في هيئة الأركان المشتركة، الاجتماع بين مكتب وزير الدفاع لشؤون السياسات والاستقرار، والمكتب الإقليمي، إبريل 2005.

11. Jones, Seth G. In the Graveyard of Empires: America's War in Afghanistan (New York: Norton, 2009), p 243

12. ملاحظات المؤلف، جلسات إحاطة القيادة المركزية وهيئة الأركان المشتركة، يونيو 2005.

13. ملاحظات المؤلف، اجتماعات مع الفريـق إيكنبـيري، هيئـة الأركـان المشـتركة ومكتـب وزيـر الدفاع لشؤون السـياسات، يوليو 2005.

14. ملاحظات المؤلف، اجتماع مجموعـة العمليـات بـين الوكـالات بخصـوص أفغانسـتان، وزارة الخارجية الأمريكية، ديسمبر 2004.

15. ملاحظات المؤلف، اجتماع وفد الناتو العسكري، 2005.

16. Aldinger, Charles "U.S. to Cut Troop Level in Afghanistan," Reuters, December 20, 2005.

17. Jones, In the Graveyard، مرجع سابق، ص 204.

الفصل الرابع

1. United Nations, General Assembly, Security Council (SC). The Situation in Afghanistan and Its Implications for Peace and Security, Report A/61/326-S/2006/727, September 11, 2006.

2. Luehrs, Christoff "Provincial Reconstruction Teams: A Literature Review," Prism 1, no. 1 (2009), pp. 95–102

3. Baron, Kevin "Gates: 'Congress Is Part of the Problem' in State, USAID Shortfalls," Stripes Blank RSS Test, Stripes Central, August 23, 2010.

4. ISAF Fact Sheet," ISAF Headquarters, NATO, 2006.

5. "USAID fact Sheet," Washington DC: US Agency for International Development, January 27, 2006.

6. "USAID Fact Sheet," Washington DC: U.S. Agency for International Development, January 27, 2006. (http://2001-2009.state.gov/p/sca/rls/fs/2006/60029.htm).

الفصل الخامس

1. Phillips, Michael M. "U.S. Takes Over Flight in Helmand," *Wall Street Journal*, September 13, 2010.

الفصل السابع

1. سُميت قاعدة العمليات الأمامية ريبللي بهذا الاسم تيمّناً بالعقيد البحري الأسطوري من حقبة فيتنام، جون ريبللي، والد أحد زملائي في معهد فرجينيا العسكري الذي كان بطل كتاب **جسر دونغ ها**. وكانت القاعدة تقع إلى الجنوب مباشرة من تارين كوت، عاصمة ولاية أوروزغان. قال العقيد كينيث ف. ماكنزي، الابن، قائد وحدة مشاة البحرية (القادرة على تنفيذ عمليات خاصة)، في إشارة إلى العقيد جون و. ريبللي، الذي تحمل قاعدة العمليات الأمامية الجديدة اسمه: "هو بطل بالنسبة إلى سلاح مشاة البحرية. إنه محارب حقيقي ورجل محترم". ويقول ميلكس: "تحيّي قاعدةُ العمليات الأمامية في أفغانستان، التابعة لوحدة مشاة البحرية-22 (القادرة على تنفيذ عمليات خاصة)، البطلَ البحري". ويُدرج ماكنزي العقيدَ ريبللي ضمن المجموعة الصغيرة من قادة البحرية الذين يَذكرهم تاريخ سلاح البحرية بكل فخر واعتزاز.

الفصل الثامن

1. ملاحظات المؤلف، رحلة الوزير غيتس إلى أفغانستان، 2007.
2. ملاحظات المؤلف، الاجتماعات بين الوكالات قبل قمة ريغا وبعدها، 2007.
3. ملاحظات المؤلف، جلسة إحاطة بخصوص عدد أفراد قوة إيساف، 2007.
4. ملاحظات المؤلف، اجتماع وزراء دفاع الناتو، مقر الناتو، 2007.
5. ملاحظات المؤلف، مؤتمر عبر الفيديو لوزير الدفاع الأمريكي، 2007.
6. ملاحظات المؤلف، لجنة نواب باكستان، 2008.
7. ملاحظات المؤلف، اجتماع مجلس الأمن القومي، 2008.
8. Ballard, John R., David W. Lamm, and John K. Wood. From Kabul to Baghdad and Back: The U.S. at War in Afghanistan and Iraq Annapolis MD: Naval Institute Press, 2012).
9. ملاحظات المؤلف، اجتماع مجلس الأمن القومي، 2008.

الفصل التاسع

1. Feickert, Andrew. Mine-Resistant, Ambush-Protected (MRAP) Vehicles: Background and Issues for Congress, Fort Belvoir VA: Defense Technical Information Center, 2009, Fas.org. Congressional Research Service, January 18, 2011.

الفصل الثاني عشـر

1. *Report on Progress towards Security and Stability in Afghanistan*, 2012, p. 17.

2. المرجع السابق، ص 14.

3. المرجع نفسه، ص 58.

4. اللواء روبرت دربين والنائب الأول لوزير الداخلية لشؤون الأمن - أفغانستان، مؤتمر صحفي للواء روبرت دربين والوزير عبدالهادي خالد – البنتاجون، يناير 2007.

5. Mora, "Only 2 of 180 Afghan Battalions Can Operate Independently of U.S. Forces," CNSNews.com, September 27, 2011. (http://cnsnews.com/news/article/only-2-180-afghan-battalons-can-operate-independently-us-forces).

الفصل الثالث عشـر

1. Mazzetti and Schmitt, "Pakistanis Aided Attack in Kabul, U.S. Officials Say," New York Tuimes, August 1, 2008.

2. Mazzetti and Schmitt, "Bush Said to Give Orders Allowing Raids in Pakistan," *New York Times,* September 10, 2008.

3. New America Foundation, Drone Database, (http://natsec.newamerica.net/drones/pajistan/analysis).

الفصل الرابع عشـر

1. Naylor, "Program Has Afghans as First Line of Defense," *Army Times,* July 20, 2010, (http://www.armytimes.com/article/20100720/news/7200336/Program-has-Afghans-first-line-defense).

2. المرجع السابق.

3. Garamone, Jim "Karzai Approves Plan to Keep Taliban Out of Villages," American Foreign Press Service, July 14, 2010.

4. McRaven, "Testimony before House Armed Services Sub-Committee on Capabilities and Emerging Threats," September 22, 2011, (http://armedservices.

house.gov/index.cfm/2011/9/the-future-of-u-s-special-operations-forces-ten-years-after-9-11-and-twenty-five-years-after-goldwater-nichols).

الفصل الخامس عشر

1. Obama, Barack "Transcript: Obama's Speech on Afghanistan War Withdrawal," CNN, June 22, 2011.

2. Savada, Andrea M., and William Shaw. *South Korea: A Country Study* (Washington DC: Government Printing Office for the Library of Congress, 1990).

المصادر والمراجع

Afghanistan National Independent Peace and Reconciliation Commission, "40 Armed Taliban from Ghazni Province Along with Their Weapons Joined the Reconciliation Program," Press release. May 2009.

Aldinger, Charles "U.S. to Cut Troop Level in Afghanistan," Reuters, December 20, 2005.

Allen, John R., Michele Flournoy, and Michael O'Hanlon. *Toward a Successful Outcome in Afghanistan*, Washington DC: Center for New American Security, May 2013.

Associated Press, "Commanding Generals of NATO-Led International Security Assistance Force in Afghanistan," November 20, 2012. (http://www.foxnews.com/world/2012/11/20/commanding-generals-nato-led-international-security-assistance-force-in/).

Bajer, Justyna "Top Polish Officials Visit Troops in Ghazni Province," Afghanistan International Security Assistance Force. Press release. N.D. (http://www.isaf.nato.int/article/isaf-releases/top-polish-officials-visit-troops-in-ghazni-province.html).

Ballard, John R., David W. Lamm, and John K. Wood. *From Kabul to Baghdad and Back: The U.S. at War in Afghanistan and Iraq* (Annapolis MD: Naval Institute Press, 2012).

Barno, David W. "Fighting the Other War," *Military Review*, September–October 2007.

Baron, Kevin "Gates: 'Congress Is Part of the Problem' in State, USAID Shortfalls," *Stripes Blank RSS Test*, Stripes Central, August 23, 2010.

Belasco, Amy. *Troop Levels in Afghan and Iraq Wars, FY2001–FY2012: Cost and Other Potential Issues*. Report R40682, Washington DC: Congressional Research Service, July 2, 2009.

Bergen, Peter "The Battle for Tora Bora: How Osama bin Laden Slipped from Our Grasp—The Definitive Account," *New Republic*, December 22, 2009. (http://www.newrepublic.com/article/the-battle-tora-bora).

——. *Holy War, Inc.(* New York: Free Press, 2001).

Bergen, Peter, and Katherine Tiedemann "The Drone War," *New Republic*, June 3, 2009.

Brennan, John O. "The Ethics and Efficacy of the President's Counterterrorism Strategy," Remarks presented at the Woodrow Wilson International Center for Scholars, April 30, 2012. (http://www.wilsoncenter.org/event/the-efficacy-and-ethics-us-counterterrorism-strategy/).

Cerami, Joseph R., and Jay W. Boggs, (eds.) *The Interagency and Counterinsurgency Warfare: Stability, Security, Transition, and Reconstruction Roles*. Carlisle PA: Strategic Studies Institute, U.S. Army War College, December 2007.

Chandrasekaran, Rajiv. *Little America: The War within the War for Afghanistan* (New York: Knopf, 2012).

Cheney, Dick. *In My Time* (New York: Threshold, 2011).

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001* (New York: Penguin, 2004).

Connable, Ben, and Martin C. Libicki. *How Insurgencies End*, Santa Monica CA: RAND Corporation, 2010.

Dobbins, James F. *After the Taliban: Nation-Building in Afghanistan* (Washington DC: Potomac Books, 2008).

Fair, Christine "Pakistani Power Play," *Foreign Policy*, November 5, 2012.

Feickert, Andrew. *Mine-Resistant, Ambush-Protected (MRAP) Vehicles: Background and Issues for Congress*, Fort Belvoir VA: Defense Technical Information Center, 2009, Fas.org. Congressional Research Service, January 18, 2011.

Feith, Douglas J. *War and Decision: Inside the Pentagon at the Dawn of the War on Terrorism* (New York: Harper, 2008).

Fishstein, Paul, and Andrew Wilder. *Winning Hearts and Minds? Examining the Relationship between Aid and Security in Afghanistan*, Boston: Feinstein International Center, 2011.

Flynn, Michael T., Matt Pottinger, and Paul D. Batchelor. *Fixing Intel: A Blueprint for Making Intelligence Relevant in Afghanistan*, Washington DC: Center for New American Security, 2010.

Franks, Tommy, with Malcolm McConnell, *American Soldier* (New York: Regan Books, 2004).

Gall, Carlotta "Cheney and Afghan Milestone," *New York Times*, December 20, 2005. (http://www.nytimes.com/2005/12/20/international/asia/20afghan.html?_r=0).

Galula, David. *Counterinsurgency Warfare: Theory and Practice* (Westport CT: Praeger Security International, 2006).

Garamone, Jim "Karzai Approves Plan to Keep Taliban Out of Villages," American Foreign Press Service, July 14, 2010.

Grau, Lester W., and Michael A. Gress. *The Soviet-Afghan War: How a Superpower Fought and Lost* (Lawrence: University Press of Kansas, 2002).

Green, Daniel R. *The Valley's Edge: A Year with the Pashtuns in the Heartland of the Taliban* (Washington DC: Potomac Books, 2012).

Hopkins, Nancy, ed. *Afghanistan in 2012: A Survey of the Afghan People* , Washington DC: Asia Foundation, 2012.

International Crisis Group. *Afghanistan: The Long, Hard Road to the 2014 Transition*, Asia Report No. 236, October 8, 2012.

"ISAF Fact Sheet," ISAF Headquarters, NATO, 2006.

Jalali, Ali Ahmad, and Lester W. Grau. *The Other Side of the Mountain: Mujahideen Tactics in the Soviet-Afghan War*, Quantico VA: U.S. Marine Corps, Studies and Analysis Division, 1999.

Jones, Seth G. *In the Graveyard of Empires: America's War in Afghanistan* (New York: Norton, 2009).

Kaplan, Robert D. *Soldiers of God: With Islamic Warriors in Afghanistan and Pakistan* , New York: Vintage Departures, 2001.

Lawrence, T. E. *The Evolutions of a Revolt*, Ft. Leavenworth KS: Combat Studies, Institute Studies Press, 1920.

Luehrs, Christoff "Provincial Reconstruction Teams: A Literature Review," *Prism* 1, no. 1 (2009): 95–102.

Mazzetti, Mark, and Eric Schmitt "Bush Said to Give Orders Allowing Raids in Pakistan," *New York Times*, September 10, 2008.

——"Pakistanis Aided Attack in Kabul, U.S. Officials Say," *New York Times*, August 1, 2008.

McRaven, William "Testimony before House Armed Services Sub-Committee on Capabilities and Emerging Threats," September, 22, 2011. (http://armedservices.house.gov/index.cfm/2011/9/the-future-of-u-s-special-operations-forces-ten-years-after-9-11-and-twenty-five-years-after-goldwater-nichols).

Milks, Keith A. "22d MEU (SOC)'s FOB in Afghanistan Pays Homage to Marine Hero," Official Website of the United States Marine Corps, May 10, 2004.

Mora, Edwin "Only 2 of 180 Afghan Battalions Can Operate Independently of U.S. Forces," CNSNews.com, September 27, 2011. (http://cnsnews.com/news/article/only-2-180-afghan-battalions-can-operate-independently-us-forces).

Naylor, Sean D. *Not a Good Day to Die* (New York: Penguin, 2005).

——"Program Has Afghans as First Line of Defense," *Army Times*, July 20, 2010. (http://www.armytimes.com/article/20100720/news/7200336/Program-has-Afghans-first-line-defense).

Neumann, Ronald E. *The Other War: Winning and Losing in Afghanistan* (Washington DC: Potomac Books, 2009).

Obama, Barack H. "Transcript: Obama's Speech on Afghanistan War Withdrawal," CNN, June 22, 2011.

Phillips, Michael M. "U.S. Takes Over Flight in Helmand," *Wall Street Journal*, September 13, 2010.

Program for Culture and Conflict Studies. *Provincial Overview: Paktya Province.* Monterey CA: Naval Postgraduate School, November 15, 2011.

Radio Free Europe/Radio Liberty, "Afghanistan: A Chronology of Suicide Attacks Since 2001," January 17, 2006. (http://www.rferl.org/content/article/1064789.html).

Rashid, Ahmed. *Descent into Chaos: The United States and the Failure of Nation Building in Pakistan, Afghanistan, and Central Asia* (New York: Viking, 2008).

Report on Progress toward Security and Stability in Afghanistan: Report to Congress. Washington DC: Department of Defense, June 2008.

"Rumsfeld Declares the End to Combat Operations in Afghanistan," Fox News, May 1, 2003. (http://www.foxnews.com/story/2003/05/01/rumsfeld-declares-major-combat-over-in-afghanistan/).

Saum-Manning, Lisa "Comparing Past and Current Challenges to Afghan Local Defense," *Small Wars Journal*, December 27, 2012.

Savada, Andrea M., and William Shaw. *South Korea: A Country Study* (Washington DC: Government Printing Office for the Library of Congress, 1990).

Shreckengast, Seth A. "The Only Game in Town: Assessing the Effectiveness of Village Stability Operations and the Afghan Local Police," *Small Wars Journal*, March 27, 2012.

Tanner, Stephen. *Afghanistan: A Military History from Alexander the Great to the War against the Taliban* (Philadelphia: Da Capo, 2009).

Tariq, Mohammed Osman. *The Tribal Security System (Arbakai) in Southeast Afghanistan.* Crisis States Research Centre Occasional Paper No. 7, December 2008.

Tyson, Ann S. "Afghan Supply Chain a Weak Point," Afghanistan Mission to the UN in New York, March 6, 2009.

United Nations, General Assembly, Security Council (SC). *The Situation in Afghanistan and Its Implications for Peace and Security*, Report A/61/326-S/2006/727, September 11, 2006.

United Nations, Office of Drug Control (UNODC), "World Drug Report, 2005."

USAID/Afghanistan "Performance Monitoring Plan," December 16, 2012. (http://afghanistan.usaid.gov/en/about/performance_monitoring).

"USAID Fact Sheet," Washington DC: U.S. Agency for International Development, January 27, 2006. (http://2001-2009.state.gov/p/sca/rls/fs/2006/60029.htm).

U.S. Embassy in France "U.S. Bronze Star Medal of Valor Posthumously Awarded to French Navy Commando Loic Le Page Recognizing Heroic Combat Action in Maruf Valley, Afghanistan," Press release, November 22, 2006.

Vanden Brook, Tom "IED Attacks Keep Rising, U.S. adjusting," *USA Today*, September 7, 2006. (http://usatoday30.usatoday.com/news/world/iraq/2006-09-07-ied-us_x.htm).

Wyler, Liana Sun, and Kenneth Katzman. *Afghanistan: U.S. Rule of Law and Justice Sector Assistance*. Report R41484, Washington DC: Congressional Research Service, November 9, 2010.

الفهارس

ك

ن

هـ